

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَشْرِحُ الْإِسْلَامِ الْعِصْمِيِّ

الميسقي

تأليف الشيخ محمد باقر المجلسي
العلامة الإسلامية

تأليف
الإمام العلامة

أي محمد علي ترمذی بن عبد الله بن أحمد بن باران

الركندي الدومني الحضرمي الشافعي

وصحافته تتألف

(١٠٢٧ - ١٠٩٤ هـ)

دارالشيخ
المطبعة
والنشر

شرح الحكيم العظامير

المسألة

شفاؤه الشقيمتنا وفتح خزائن الحكيم
في معاني الحكيم

تأليف

الإمام العالم العلامة

أبو محمد علي بن عبد الله بن أحمد بارزين
الكندي الدومني الحضرمي الشافعي

رحمة الله تعالى

(١٠٢٧ - ١٠٩٤ هـ)

بناية

بمحة اجيار التراث بدار الحاي

دار الحاي

دار السنين

شرح الكفاية العظيمة

الجزء

في بيان التفسير والشرح

في بيان الكفاية





دار المدينة

بيروت - لبنان

فاكس : ٧٨٦٢٣٠



دار المدينة

دمشق - سورية

هاتف: ٢٢٤٢٧٥٣

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو
أي جزء منه . وبأي شكل من
الانكسار ، أو نسخ ، أو حفظ في
أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي
يسمح من استرجاع الكتاب أو أي
جزء منه ، وكذلك لا يسمح
بالتكبير منه أو ترجمته إلى أي لغة
أخرى دون الحصول على إذن
علمي مسبقاً .

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

جميع الحقوق محفوظة

دار المدينة للطباعة والنشر

لبنان - بيروت - فاكس 1 786230 961+

دار المدينة للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سورية

هاتف 11 2235402 963+ - فاكس 11 2237960 963+

الموزعون المعتمرون



فيرجن وفروعها في العالم العربي

الإمارات العربية المتحدة

حروف للنشر والتوزيع - أبو ظبي

هاتف 5593007 - فاكس 5593027

مكتبة الإمام البخاري - دبي

هاتف 2977766 - فاكس 2975556

مكتبة دبي للتوزيع - دبي

هاتف 3339998 - فاكس 3337800

الجمهورية اليمنية

مكتبة تريم الحديثة - حضرموت

هاتف 417130 - فاكس 418130

مملكة البحرين

مكتبة الفاروق - المنامة

هاتف 17272204 - فاكس 17256936

جمهورية مصر العربية

دار السلام - القاهرة

هاتف 22741578 - فاكس 22741750

مكتبة نزار الباز - القاهرة

هاتف 25060822 - جوال 0122107253

دولة الكويت

مكتبة دار البيان - حولي

تلفكس 22816490 - جوال 9952001

دار الضياء للنشر والتوزيع - حولي

هاتف 22858180 - فاكس 22658180

المملكة المغربية

مكتبة التراث العربي - الدار البيضاء

هاتف 0522853562 - فاكس 0522854003

دار الأمان - الرباط

هاتف 0537200055 - فاكس 0537723276

الجمهورية اللبنانية

الدار العربية للعلوم - بيروت

هاتف 785107 - فاكس 786230

مكتبة النعام - بيروت

هاتف 707039 - جوال 03662783

المملكة الأردنية الهاشمية

دار محمد دندليس - عمان
هاتف 4653380 - فاكس 4653380

جمهورية الجزائر

دار البصائر - الجزائر
هاتف 021773627 - فاكس 021773625

الجمهورية التركية

مكتبة الإرشاد - إستانبول
هاتف 02126381633 - فاكس 02126381700

الهند

مكتبة الشباب العلمية - لكناؤ
هاتف 00919198621671

انكلترا

دار مكة العالمية - برمنجهام
هاتف 01217739309 - جوال 07533177345
فاكس 01217723800

دولة قطر

مكتبة الثقافة - الدوحة
هاتف 44421132 - فاكس 44421131

الجمهورية العربية السورية

مكتبة المنهاج القويم - دمشق
هاتف 2235402 - فاكس 2242340

جمهورية الصومال

مكتبة دار الزاهر - مقديشو
هاتف 002525911310

جمهورية أندونيسيا

دار العلوم الإسلامية - سوروبايا
هاتف 0062313522971
جوال 00623160222020

جمهورية فرنسا

مكتبة سنا - باريس
هاتف 0148052928 - فاكس 0148052997

جميع منشوراتنا متوفرة على

 **Furat**
Furat.com

موقع رائد لتجارة الكتب والبرمجيات العربية
www.furat.com

 **NWF**
www.nwf.com

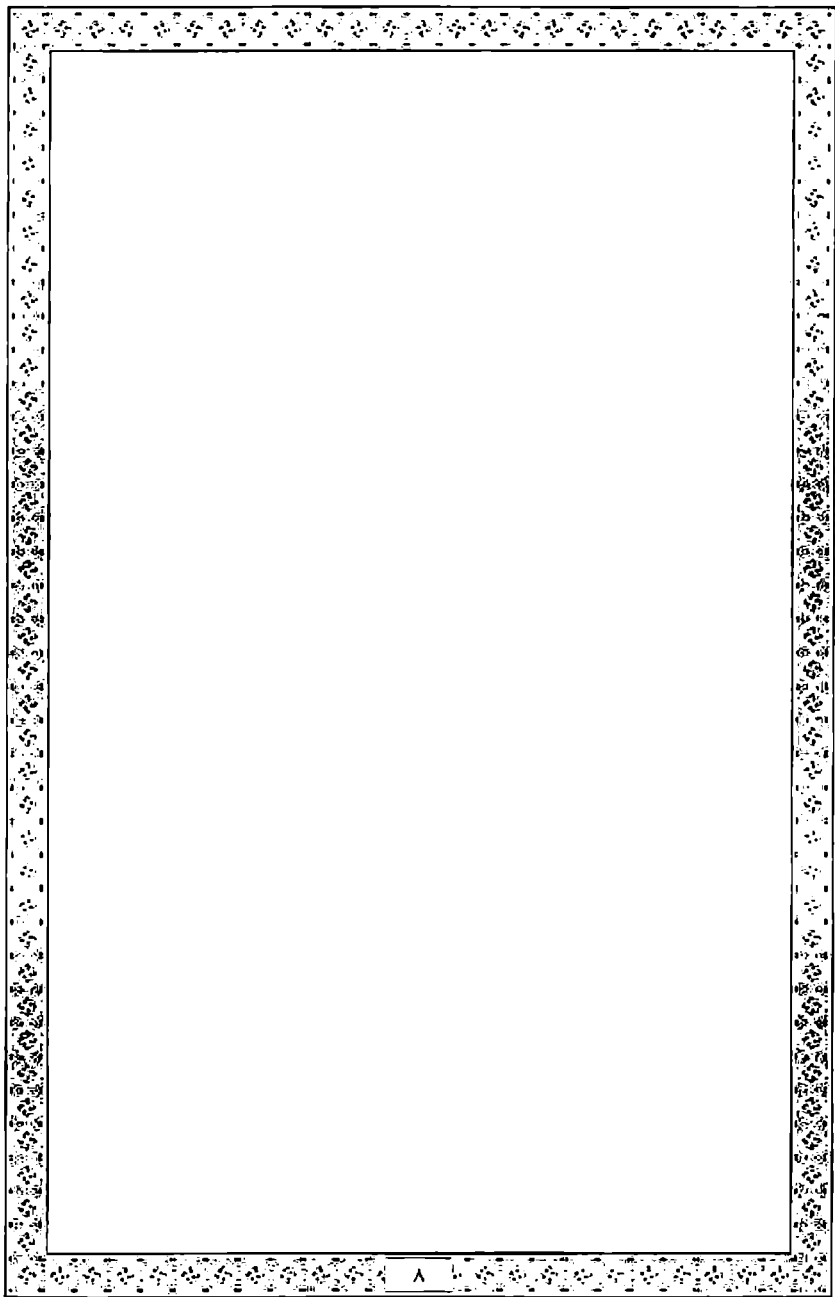
موقع مكتبة نيل وفرات . كوم لتجارة الكتب
www.nwf.com

قال الله تعالى :

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ

وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا

سورة البقرة : الآية (٢٦٩)



بين يديك الكتاب

الحمد لله الذي شرف العلماء ؛ إذ جعلهم ورثة الأنبياء ، وقال في حقهم : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

والصلاة والسلام على الشفيح النذير ، السراج المنير ، القائل : « الإيمان يمان ، والحكمة يمانية » ، وعلى آله وصحبه ، ومن سلك نهجه واتبع هداه .

وبعد :

فقد شهد المصطفى صلى الله عليه وسلم لأهل اليمن بالحكمة ؛ ولا تزال هذه المتنبه ظاهرة في أحوالهم سلوكاً وعملاً ، قولاً وفعلًا .
ومن ذلك : هذا الشرح العجيب الذي نقّدم له بهذه الكلمات ؛ فإنه بحق مملوء حِكْمًا أضافها إلى حكم ابن عطاء الله ، فكان هذا الشرح تحفة فريدة ، لا يذوق حلاوته إلا المحبّون ، ولا ينهل من معينه إلا الموقّون .

وهو على وجازته ضم فوائد عظيمة ، وجواهر بتيمة ، فحقّ لطالب العلم أن ينادمه ويلازمه ، وأن يقرأه ويتفهمه ؛ فالشرح والتمن مؤلّفان عظيمان شهد لهما أهل المعرفة والذوق ، قطوبى لمن عرف قدر هذين الكتابين ، وشرب من عذبهما ، وتربى بسلوكلهما ، وأخذ على نفسه تحقيق توجيههما ؛ فإن فعل ذلك . . فقد فاز ، ونال السعادة في الدنيا ، والنعيم في الآخرة ، وهما مطلب الألباء ؛ ذلك لأن هذين العَلَمين قد شهد لهما الأعلام النبلاء بالتبحر والرسوم .

ثم إنه ما دام الشارح من أهل الحكمة اليمانية . . فإن ذلك يقتضي
مزية شرحه ؛ لأن الحال كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَتُوا أَلْبُيُوتَ مِنْ أَيْبَاهِمَا ﴾
وهذه خَصِيصَةٌ ليس وراءها مرضى ، وقد تمثل أهل المعرفة وأرباب
السلوك بقول الأول :

تزودت من ليلئى بتكليم ساعةٍ فما زاد إلا ضعف ما بي كلامها
وعلى كل حال فقد تربعت « الحكم العطائية » على قائمة المؤلفات
الجامعة بين علمي التوحيد والتصوف ، وأسست لها مدرسة كبرى ،
ودخلت منهاج التعليم والتربية ، وتنوّعت شروحيها تنوعاً رُوحي فيه
حال المخاطب : أمتدئ هو أو منته ؟ أسالك أم متناء عن ذلك ؟ فجاء
بعض الشروح موجزاً ، وآخر مسهباً ، وبعضها اعتمد العبارة ، وبعضها
سلك طريق الإشارة ، وبعضها تمسك بعلم الظاهر ، والبعض الآخر كان
جامعاً بينهما .

لقد بقيت « الحكم العطائية » مصدرأ إلهامياً لجميع العارفين
والسالكين إلى يومنا هذا ، وهذا عائد لأسباب عدّة ؛ منها :

- أنها جمعت مقاصد كتاب « إحياء علوم الدين » ؛ كما أشار إلى
ذلك العارف بالله أبو العباس المرسي رضي الله عنه لمّا نظر فيها ؛
وكتاب « الإحياء » هو أعظم موسوعة تربوية متكاملة كتبت إلى يومنا
هذا مع شرحه العظيم « إتحاف السادة المتقين » للحافظ الزبيدي
رحمه الله تعالى .

- وأن مؤلفها عالمٌ مبرّز ، متقنٌ لعلوم الشريعة وآلاتها ، قبل أن يكون
صاحب قدم راسخة في طريق القوم .

- وأنها جمعت بين لسان الظاهر والباطن دون كلفةٍ ممجوجة .

- واتفاق أهل العلم على الثناء عليها وعلى مؤلفها العلامة ابن
عطاء الله رحمه الله تعالى .

- ولحلاوة صياغتها وتبويبها ، وشمول موضوعاتها وغور معانيها .

إلى ملحوظات أخريات لا تكاد تخفى على من طالعها ؛ فقد نقل
العلامة ابن عجية في « إيقاظ الهمم » عن شيخه العربي الدرقاوي قال :
سمعت الفقيه البناني يقول : (كادت حكم ابن عطاء الله أن تكون
وحياً ، ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن . . لجازت بكلام الحكيم)
أو كما قال (١) .

وهي كلمةٌ بديعةٌ لا يخفى على كل ذي ذوقٍ سليمٍ ملاحه ما فيها من
التنويه والإشارة بفضل هذه الحكيم .

وقال العلامة ابن عباد عنها : (من أفضل ما صنف في علم التوحيد ،
وأجل ما اعتمده بالتفهيم والتحفظ كل سالكٍ ومريد ؛ لكونه صغير
الحجم ، عظيم العلم ، ذا عبارات راثقة ، ومعانٍ حسنة فائقة ، قصد
فيها إلى إيضاح طريق العارفين والمؤجدين ، وإبانة مناهج السالكين
والمجتريدين) (٢) .

ووصفه العلامة زروق بقوله : (عبارته راثقة جامعة ، وإشارته فائقة
نافعة ، تتلج الصدر وتبهج الخاطر ؛ وتحرك السامع لها والناظر ، مع
تداخل علومه وحكمه ، وتناسب حروفه وكلمه ؛ إذ جلّه داخل في كُله ،
وأوله مرتبط بالأخير من قوله ، بل كل مسألة منه تكملة لِمَا قبلها ،

(١) إيقاظ الهمم (ص ٤) .

(٢) غيث المواهب العلية (٤٧/١) .

وتوطئة لِمَا بعدها ، وكل بابٍ منه كالشرح للذي قبله ، والذي قبله أيضاً
كأنه شرح له ...^(١)



لكن العلامة باراس رحمه الله تعالى كان له مع «الجِكم» شأن خاص ، جعله متميزاً عن كل الشروح والتقييدات التي كتبت عليها .
فقد كتب هذا الشرح اللطيف بإشارة من شيخه قطب أوانه وعلامة زمانه الشيخ عمر بن عبد الرحمن العطاس باعلوي ؛ كما صدر ذلك في مقدمة شرحه لـ «الجِكم» ، ويبيّن أنه وجد بركة تلك الإشارة بعدما استنّ بالاستخارة .

يقول العلامة باراس في مقدمته : (فقدمت معتمداً على ما ينقح بنور الفهم ، ولم أكن بعدُ قد وقفتُ لهذا الكتاب على شرح غير شرح الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن عبّاد النّفري ، فجعلت في بعض ما أضعه كلامه لأوائل كلامنا أَساً ، وقد كان كثيراً يعرضُ واضحاتِ النقول وجلياتِ المعقول ، وأنا منتظر ما يلقى في الفؤاد من لوائح الوداد ، فيكون أخذه بلا تقليد ، وهو الذي نريد ، فتكلمنا بحسب ما يظهر لنا من لوائحه ...)^(٢)

والناظر في شرحه هذا سيجد لأول وهلة مصداق ما يقوله الشيخ ؛ فشرحه مقارناً بشروح «الجِكم» فيه ما لا تجده عند اللاحق ، فضلاً عن السابق ؛ وكأنه قد استلهم روح ابن عطاء الله ساعة خطّ «الجِكم» ، فعرف ما طواه من المقاصد تحت لِبَنات الكلمات ،

(١) شرح الحكم العطائية السابع عشر للعلامة زروق (ص ٢) .

(٢) انظر (ص ١١٠ - ١١١)

واستجلى ما يتزع إليه من المعاني المضمونات ، فشرح « الحِكم » لا لفظ « الحِكم » ، فكان بحق كما قال عنه شيخه العارف بالله تعالى عمر بن عبد الرحمن العطاس : (إن « الحِكم العطائية » عذراء ، لم يفتضها إلا هذا الشرع) .

فقد سطر العلامة الشارح شرحه لهذا بمدادٍ غيبي وقلمٍ فيضي ، فجاء شرحه مستكملاً لأنماط ثلاثم « الحِكم العطائية » التي نُعتت بأنها مواهبٍ لدنية ، وأسرارٍ ربانية ، ونطقت بها أفكارٌ قدسية ، وأسرارٌ جبوتية^(١) ؛ فهو ينهل من مشكاتها ، ويغوص في يَبها .

ومما يؤكد هذا ما جاء في « القرطاس » : (بل شرحه بالوارد الإلهي من الكلمات المطابقات ، التي لا يفهمها إلا أهلها نفع الله بهم)^(٢) .

فإن رُمت مثلاً لهذا . . فالشرح برُمَّته ناطق به ، ولا سيما عندما يسرح في شرح المقامات ، وأوصاف المقرّبين ، وأحوال المريرين ، ومكاشفات العارفين ، يحدثك حديث راءٍ ، قد جاب مفاوز المقامات وفلوات الأحوال ، غير مبالٍ في كشف ستارِ هابٍ سابقوه كشفه ما لم يكن في كشفه ملامٍ وعارٍ ، إلى أن يصل بك إلى موطن يرى فيه الأخذ بعنان القلم^(٣) .

وسترى في شرحه إضافة إلى تلك اللغة الفيضية التي هي أخصُّ

(١) إيقاظ الهمم (ص ٣) .

(٢) القرطاس (١٠/١) .

(٣) وانظر مثلاً حديثه عن التدوار الذي لم يبتَّ في شروح الحكم ، وقال عنه المصنف (ص ٣٥٦ - ٣٥٧) : (ولم أقف على من أفصح بعلم هذا التدوار . . إلا إشارات الإمام الحائمي الطائي) في شرح الحكمة (٧١) .

خصائصه . . تعريفات لمصطلحات القوم مع كل حكمة ، يبرز معناها لغةً وعرفاً ، وينزلها على مقتضى تلك الحكمة .

كما ألزم نفسه أن يختم شرح كل حكمة بشيء من شعره يلخص فيه معنى الحكمة ، وقد تحمله الغلبة والنصرة للمعنى على إهمال بعض ضوابط الشعر العروضية ؛ فليس المراد من الشعر لحنه وإيقاعه ، بل إظهار المعنى بلغة قريبة من الفؤاد .

وقد صرح في ثناياه أنه رام الاختصار ، وأن « الحكيم » منطوية على المزيد ، فقال مثلاً : (فالشرح حكيمه : أن يبين المراد من الحكمة ، وما سمح من تفاصيل أحكامها ومتعلقاتها ، لا كل التفاصيل)^(١) .

فالحق : أن هذا الشرح وإن انتفع به كل طالب . . إلا أنه بأهل الاختصاص أليق ، وللمتقدمة المرادين السالكين أنفع ؛ فالغرض قد يجهل فيعترض ، فيكون اعتراضه سبباً لهجر ما قصّر فهمه عنه ، فيتشاغل عنه إن سلمت طويته ، أو يرميه بالخشن من الكلام .

وعلى كلا الحالين : فاته الانتفاع ؛ وهو ما يعبر عنه القوم بالطرد والحرمان ، أو يكون ممن اغترّ فظن حديثاً ساقه المصنف لأهل المراتب العلية . . قد سبق لأجله ، فوقع المغرور في شباك أبي مرّة ، فنال حظّه منه ، واستمتع الواحد بالآخر ، ولها عما طلب منه بالحجب الظلمانية والنورانية على قدر حاله في الإخلاص والصدق .

هذا بشأن الشرح الذي بين أيدينا ، والذي غيبت عنه الأيام ليظهر اليوم فيُفرح به فرح الوالد بالوليد ، والسّاكن الحاضر بعزود الغائب البعيد ،

(١) انظر (ص ٤٦٤) في شرح الحكمة (١١١) .

وكلنا أمل أن يكون عوناً بين يدي الباحثين والطلّابين ؛ لاستجلاء الحقائق وتزكية النفوس .

بقي أن تلفت الانتباه إلى أن الشارح بلغ الشأو القصي في علوم القوم ، وهو ممن ذاق وعرف ثم اغترف ، واتبع أسلوب ربط الحكم بعضها ببعض ؛ فكانها عقدٌ عُلق على جيد الزمان ، متناسق الخرزات ، تنتقل من جوهرة لأخرى تليها ، لا يليق لغيرها أن تكون مكانها ، وهذا ما استراه في هذا الشرح المبارك ، نسأل الله النفع به وبما ينشر من كتب المتقدمين .

والحمد لله رب العالمين

التأليف

تقديم

بقلم فضيلة العلامة السيد
عمر بن حامد بن عبد الهادي البجلياني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أعطى الحكمة من شاء من العباد ، فأرشدوا بما
فأهوا به منها إلى سبل الرشاد ، وسار بحكمتهم الركبان في كل نادٍ من
جميع البلاد .

وصلِّ اللهم علي من أوتي جوامع الكلم ، خير من عَلَّم وَعَلِم ، وعلى
آله وصحبه وسلِّم .

وبعد :

فإن الحكمة منشودة من العقلاء والفضلاء من المؤمنين ، يبحثون
عنها بحثَ فاقِدٍ لها محتاج إليها ، فإذا ظفر بها . . كان له بها الجدل
والاحتفاء ، وبدلتها الاستعادة والاقتداء ؛ كما جاء عند الترمذي
وابن ماجه وابن عساكر عن علي رضي الله عنه - كما في « الجامع
الصحيح » ، قال المناوي : بإسنادٍ حسن - : « الحكمة ضالة المؤمن ؛
فحيث وجدها . . فهو أحقُّ بها » .

وهي امتنانٌ من الله تعالى على المؤمنين : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ
بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

وأوضح الله سبحانه : أن من أعطاه الحكمة . . فقد أجزل له العطاء
بحصوله على الخير الكثير ، ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا
وَمَا يَدَّكُرُ إِلَّا أَزْوَاجُ الْأَلْبَابِ ﴾ .

والحكمة يكون بها الاغتباط ؛ كما جاء في « الصحيحين » : « لا
حسد إلا في اثنتين ؛ رجل آتاه الله تعالى مالا فسلطه على هلكته في
الحق ، ورجل آتاه الله تعالى الحكمة فهو يقضي فيها ويعلمها » .

وقد بَوَّبَ الإمام البخاري في (كتاب العلم) من « الصحيح » باباً
أسماء : (باب الاغتباط في العلم والحكمة) .

وجاء في « الصحيح » عن ابن عباس رضي الله عنهما : ضمني
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال : « اللهم ؛ علمه
الحكمة » .

وأخرج الطبراني من رواية أبي أمامة مرفوعاً أن لقمان قال
لابنه : (عليك بمجالسة العلماء ، واسمع كلام الحكماء ؛ فإن الله
يُحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل
المطر) .

وقد تعددت معاني الحكمة ، وهي تدل في كل معانيها على أنها
مدحة لكل من أوتيتها أو نال حظاً منها ، وهي في أصلها تعني الإنقائ
والإحسان ؛ تقول : أحكمت الشيء ؛ إذا أتقنته .

قال في « البحر المديد » لابن عجيبة : (الحكمة : التي دلت على
معنى فيه دقة ، مصنونة معانيها عن الاختلال والخطأ والفساد) .

وحَدَّثَهَا بالنسبة للحكمة الملفوظة : (الكلام الذي يقلُّ لفظه ويجلُّ
معناه) ولا شك أن أعلاه وأغلاه . . ما جاء في كلام الله جلَّ في علاه ؛

في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ كما في « المستدرک » : أنها
أجمع آية في القرآن للخير والشر .

وعندما سمعها عثمان بن مظعون رضي الله عنه في مكة من رسول الله
صلى الله عليه وسلم .. قال : (فَذَاكَ حِينِ اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي ،
وَأَحْبَبْتُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .

وقال الوليد بن المغيرة مقالته الطويلة الجميلة بعدما سمع هذه
الآية : (والله ؛ إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أوله لمورق ،
وأعلاه لمثمر ...) إلخ .

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات قلَّ لفظها وجلَّ
معناها ، خميصَةٌ من اللفظ ، بطينةٌ من المعنى ؛ وهي مما اختصَّ به
نبينا صلى الله عليه وسلم من جوامع الكلم .

قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري من طريق أبي هريرة
رضي الله عنه : « بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ ، وَبَيْنَا أَنَا
نَائِمٌ .. أَتَيْتُ بِمِفْتَاحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ » .

ومن جوامع كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- إنما الأعمال بالنيات . « الصحيحان » .

- الدين النصيحة . « الصحيحان » .

- من حُسن إسلام المرء .. تركه ما لا يعنيه . « الترمذي » .

- دَعُ ما يَرِيْبِكْ إلی ما لا يَرِيْبِكْ . « الترمذي » .

- مَنْ أَدْحَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ .. فَهُوَ رَدٌّ . « الصَّحِيحَان » .
- ازهد في الدنيا .. يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس .. يحبك
الناس . « ابن ماجه » .

- كل معروف صدقة . « البخاري » .

- خيركم خيركم لأهله . « الترمذي » و « ابن ماجه » .

- اتقوا النار ولو بشق تمرة . « البخاري » .

- ما أضيف شيءٌ إلى شيءٍ أفضل من حلمٍ إلى علم . « أبو الشيخ
الأصبهاني » .

وفي الأمثال والأشعار حكمٌ قلَّ لفظها وجلَّ معناها ، استملحها
الناس وحفظوها ورددوها ، واستشهدوا بها عند كل مناسبةٍ وحادثةٍ تتسَّق
معها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحراً ، ومن
الشعر لحكمة » رواهما البخاري بإسنادين .

فمن ذلك قولهم :

١ - حسبك من القلادة ما أحاط بالعتق .

٢ - التواضع من مصايد الشرف .

٣ - الحلم سيد الأخلاق .

ومن الشعر : قول النابغة الذبياني :

ولستَ بمُسْتَبْتِي أَحَا لَا تَلْمُهُ على شَعْبِ أَيِّ الرِّجَالِ الْمُهَدَّبِ
وقول النابغة الجعدي :

ولا خير في حلمٍ إذا لم يكن له بوادٍ تحمي صفوه أن يُكْدَرَا

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أوردَ الأمرُ أصْدَرَا

وقول لبيد بن ربيعة :

ما عاتبَ الحرَّ الكريمَ كنفسه والمرءُ يصلحُه الجليسُ الصالحُ
والشواهد من الحكم في الموروث الأدبي لا تستقصى .

أما العلماء الريانيون الذين زكّت نفوسهم . . فقد فتح الله عليهم
فتحاً مبيناً ، وافقوا به مراد الله عزّ وجلّ ومراد نبيه عليه الصلاة والسلام ،
فنتطقوا بالحكمة ، وخرجت من بين شفاههم سلسالاً عذباً يقطر ،
وكان قطراته الدرّ ، فالتقطها من يبحثون عنها ، ووجدوا فيها ضالّتهم
المنشودة ، فحفظوها واحتفوا بها ، وبثوها بين الناس في أنديةهم
ومدارسهم ، فأحيت القلوب ، وارتوت بها الجدوب ، وكان للناس بها
هداية أوصلتهم إلى المقصود .

من هؤلاء الريانيين : الإمام ابن عطاء الله السكندري صاحب
« الحكم العطائية » ، وشارحها الإمام باراس الدوعني رحمهما الله
تعالى ، وسنذكر فيما سيأتي لكل واحدٍ منهما ترجمة موجزة للتعريف
بشيء من فضائلهما ؛ فما لا يدرك كله . . لا يترك جلّه .



ترجمة صاحب الحکم
 الإمام الكبير صاحب الإشارات العارف بالله
 تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم المالكي
 ابن عطاء الله السكندري
 رحمه الله تعالى^(١)
 (٦٥٨ - ٧٠٩ هـ)

اسمه ونسبه

هو الإمام القدوة تاج الدين ، والسيد الأسوة ترجمان العارفين ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن ابن عطاء الله ، الجذامي نسباً ، المالكي مذهباً^(١) ، الإسكندري داراً ، القرافي مزاراً ، العارف بالله حقيقة ، الشاذلي طريقة .

يرجع نسبه إلى قبيلة جذام اليمينية القحطانية ، التي انتقلت إلى

(١) مصادر ترجمته : « الدرر الكامنة » (٢٧٣/١ - ٢٧٥) للحافظ ابن حجر العسقلاني ،
 و« طبقات الشافعية الكبرى » (٢٣/٩) للتاج السبكي ، و« الوافي بالوفيات » (٥٧/٨) للمؤرخ
 الأديب خليل بن أبيك الصفدي ، و« الديباج المذهب » (٢٢١/١) للإمام ابن فرحون ،
 و« شذرات الذهب » (٣٦/٨) للعلامة ابن العماد الحنبلي ، و« حسن المحاضرة » (٤٥٣/١)
 للحافظ السيوطي ، و« الأعلام » (٢٢١/١) للعلامة الزركلي ، رحمهم الله تعالى ، وقد أفرد
 له العلامة أبو الوفا التفتازاني كتاباً درس فيه حياة الإمام ابن عطاء الله السكندري وتصوفه .
 (٢) قال التاج السبكي رحمه الله تعالى في « طبقات الشافعية » (٢٣/٩) : (أراه كان
 شافعي المذهب ، وقيل : كان مالكيًا) .

مصر والشام عقب الفتح الإسلامي ؛ فهو إسكندري المولد ، يمثل التصوف المصري في القرن السابع ، ولهذا من الأهمية بمكان ؛ كما لا يخفى على ذي لب .

ولادته ونشأته وطلبه للعلم

ولد المترجم له في الإسكندرية حوالي عام (٦٥٨ هـ) ، ونشأ في وسط علمي ؛ فقد كان جده عبد الكريم من العلماء فقيهاً مالكياً مشاركاً في بقية العلوم الشرعية .

فترعرع الإمام ابن عطاء الله طالباً للعلوم الشرعية والعربية ، فدرس التفسير والحديث ، والفقه والأصول ، والنحو واللغة والبيان ، وكان أول أمره ينكر على الصوفية إلى أن هباً الله له شيخ زمانه ، وقطب أوانه الشيخ أبا العباس المرسي ، فكان شيخ فتحه ، نقل العلامة ابن العماد الحنبلي عن ابن الأهدل قوله : (الشيخ العارف بالله ، شيخ الطريقين ، وإمام الفريقين ، كان فقيهاً عالماً ، ينكر على الصوفية ، ثم جذبته العناية فصحب شيخ الشيوخ المرسي ، وفتح عليه على يديه ...)^(١) .

سُيرته

لقد ورد الإمام ابن عطاء الله معين علماء عصره فعلاً ونهلاً ، وأخذ عن جهاذة العلم ، ومن هؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم :

١ - الإمام الفقيه ناصر الدين بن المنير ، المتوفى (٦٨٣ هـ)
رحمه الله تعالى .

(١) شذرات الذهب (٣٧/٨) ، وقد تكلم المترجم له مطولاً عن ذلك في « لطائف المنن » (ص ١٢٨ - ١٢٩) .

٢ - مسند الديار المصرية شهاب الدين أحمد بن إسحاق الأبرقوهي ،
المتوفى (٧٠١ هـ) رحمه الله تعالى .

٣ - إمام علم المنطق والكلام العلامة شمس الدين محمد بن محمود
الأصبهاني ، المتوفى (٦٨٨ هـ) رحمه الله تعالى .

٤ - شيخ المحدثين الحافظ شرف الدين الدمياطي ، المتوفى
(٧٠٥ هـ) رحمه الله تعالى .

٥ - الإمام العلامة العارف بالله أحمد بن عمر ، الشهير بأبي العباس
المرسي ، المتوفى (٦٨٦ هـ) رحمه الله تعالى ، وغيرهم من الأئمة
كثير .

ويتلقيه العلم عن هؤلاء الكبار من العلماء تخرّج عالماً متبحراً في
علوم شتى ، أهله لأن يخلف بعض هؤلاء الشيوخ .

كان ابن عطاء الله في أول أيامه ينكر على أهل التصوف ؛ حتى قدر الله
له الاجتماع بالشيخ أبي العباس المرسي ، فأعجب بعلمه وصلاحه ،
وعرف حقيقة ما عليه القوم من عدم الانفكاك عن الوحيين الكتاب
والسنة ، اللذين اتخذهما القوم ميزاناً للأقوال والأفعال والأحوال ، فأسلس
قياده لشيخه أبي العباس ، وانطرح له جائئاً على ركبته يتلقى العلوم
والسلوك عنّ جمعهما الله له .

وكان شيخه أبو العباس مغتبطاً به متهجاً ، متوسماً فيه أنه متأهلاً
للخلافة بعده ؛ لنشر العلوم وتربية المُريدين طريق الآخرة ، وقال له :
(الزم ، فوالله ؛ لئن لزمته . . لتكوننّ مقيماً في المذهبين) ، وأفرد
للشيخين كتاباً في مناقبهما ؛ سماه : « لطائف المنن في مناقب الشيخ
أبي العباس وشيخه أبي الحسن » رحمهم الله تعالى أجمعين .

تلامذته

وبعد وفاة شيخه أبي العباس المرسي في الإسكندرية سنة (٦٧٦ هـ) رحمه الله تعالى . . كان هو الوارث لعلمه ومكانته ، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة ، وبها ظهر حاله وأشرفت شمسهُ ، والتفتْ حوله الناس وهو يدرّس في الجامع الأزهر ، مُعجِبين بما يلقى من علوم وفهوم ، وأصبح النجم اللامع ، وصاحب الصيتِ الذائع ، وحقَّقَ اللهُ ما رجاه شيخه أبو العباس له ؛ « وإن من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله . . لأبره » .

طار صيت هذا الإمام ؛ مما جعله كعبةً يؤمه القاصدون ، وكان لوعظه تأثير في القلوب ، فحضر عنده الفقهاء والعلماء وتخرجوا به ، ومن هؤلاء الأئمة :

إمام أهل السنة تقي الدين السبكي ، وقد صرح بذلك ولده تاج الدين السبكي رحمهما الله تعالى^(١) .

والعلامة الشيخ داوود بن عمر ، الشهير بابن باخلا ؛ وهو خليفة ابن عطاء الله في الطريقة الشاذلية ، وله تصانيف مفيدة .

ومنهم : الإمام الأصولي العلامة أبو العباس أحمد بن الملق السكندري ، وغيرهم كثير ، رحمه الله تعالى .

مؤلفاته

ترك هذا الإمام الكثير من المؤلفات ، التي ظهر نفعها وبركتها ، وسارت بها الركبان ؛ وهذا دليل قبولها وإخلاص مؤلفها ، ومن هذه المؤلفات :

- التنوير في إسقاط التدبير .

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٢٣/٩) حيث قال عنه : (كان أسنأةً الشيخ الوالد في التصوف ، وكان إماماً عارفاً ، صاحب إشارات وكرامات ، وقدم راسخ في التصوف . . .) .

- أصول مقدمات الوصول .
- تحفة الخلان في شرح نصيحة الإخوان .
- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس .
- الحكم العطائية ؛ وهي متن هذا الكتاب الذي أكرمنا الله بخدمته ،
وسنذكر بعد الترجمة عناية العلماء به .
- الطريق الجادة في نبيل السعادة .
- عنوان التوفيق في آداب الطريق .
- وغير ذلك من الرسائل والمواعظ والقصائد ، قال الإمام ابن العماد
الحنبلي رحمه الله تعالى : (وما أحسن قوله في شيخه في بعض قصائده :
كم من قلوبٍ قد أميتت بالهوى أحيأ بها من بعد ما أحيأها
وكان شيخه يستعيد منه هذا البيت ، ومن طالع كتبه .. عرف
فضله)^(١) .

من شهارة العلماء فيه

وقد تظاهرت أقوال المؤرخين على الإشادة بمكانته وعلو كعبه في
العلوم والسلوك ، والوعظ والإرشاد ، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني
نقلاً عن الإمام الذهبي رحمهما الله تعالى : (كانت له جلالَةٌ عجيبة ،
ووقع في النفوس ، ومشاركة في الفضائل ، وكان يتكلم بالجامع الأزهر
فوق كرسي بكلام يُرْوَحُ النفوس ، ومَرَجَ كلام القوم بأثار السلف وفنون
العلم ؛ فكثر أتباعه ، وكانت له سيما الخير ...) إلى آخر ما قال
رحمه الله تعالى^(٢) .

(١) شذرات الذهب (٣٨/٨) .

(٢) انظر « الدرر الكامنة » (١/٢٧٤) .

وقال البدر الحسين الأهدل : (كان فقيهاً عالمياً يتكر على الصوفية ، ثم جذبته العناية بصحبة شيخ الشيوخ المرسي ، وفتح عليه على يديه) انتهى .
وترجم له الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى في « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » ، وقال : (وكان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه)^(١) .

وقال ابن فرحون اليعمري رحمه الله تعالى في كتابه « الديباج المذهب » : (كان جامعاً لأنواع العلوم ؛ من تفسير وحديث ، ونحو أصول ، وفقه وغير ذلك ، وكان رحمه الله تعالى متكلماً على طريقة أهل التصوف ، واعظاً انتفع به خلقٌ كثير ، وسلكوا طريقه)^(٢) .

وفاته

أمضى المترجم له عمره بين دراسة وتدريس وتأليف إلى أن لَبَّى داعي ربه سبحانه وتعالى ، فوافته المنية بالمدرسة المنصورية سنة (٧٠٩ هـ) بعد أن صار كهلاً ، رحمه الله تعالى ، وكانت جنازته مشهودة حافلة ، ودفن بالقرافة بجوار الإمام الكمال بن الهمام ، والإمام ابن سيد الناس ، والعارف بالله ابن أبي جمرة ، بل الله ضرائحهم بشآبيب الرحمة والرضوان ، وجمعنا بهم في الجنان ، مع سيد ولد عدنان ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد لله رب العالمين

(١) الدرر الكامنة (١/٢٧٣) .

(٢) الديباج المذهب (١/٢١٠ - ٢١١) .

عناية العلماء بـ «الحكم العطائية»

لقد كتب الله القبول لكتاب «الحكم العطائية» وانتشر صيته ،
واشتغل السالكون بقراءته وحفظه .

وقام عددٌ كبير من العلماء بخدمته ؛ شرحاً ونظماً وسيراً على
منواله ، وكان له الأثرُ البالغ في تربية النفوس وتهذيبها ، والعناية بمقام
الإحسان ، وتصفية الأعمال عما يشوبها من القوادح ، وتصحيح الأحوال
بما يُحليها من الخلال المحمودة ، ويُخلّيها عن الصفات المذمومة ؛
فما مضت عقودٌ معدودةٌ من وفاة ابن عطاء الله قبيل انسلاخ العقد الأول
من القرن الثامن . . حتى اشتغل العلماء بشرحها ونظمتها ومحركاتها .

وأول من قام بشرحها : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن عباد النَّفْزِي ،
الأندلسي الرُّنْدِي ، المتوفى سنة (٧٩٢ هـ) رحمه الله تعالى ، وله
شرحان ؛ سَمِيَ الأول : «التنبيه» ، وسَمِيَ الآخر : «المواهب العلية شرح
الحكم العطائية» واشتهر بـ «شرح ابن عباد» ، و«التنبيه» : شرح منظوم
للحكم ، بلغ ثمان مئة بيتٍ وبيت ، وأسماء «بغية المرید» ، قال فيه :

جَسْرُنِي عَلَيْهِ مَا قَدْ سَلَفَا مِنْ وَضَعِ تَنْبِيهِ بِشَرْحِ عُرْفَا
وَشَرَطْنَا فِي ذَاكَ مَا ضَمَّنَا فِي ذَلِكَ الْمَجْمُوعِ إِذْ أَعْلَمْنَا

ولم يدوّن في القرن الثامن شرح على «الحكم» - فيما حوته
مصنفات أسماء الكتب - سوى شرحي ابن عباد : المنتثور والمنظوم ، ثم
تلت «شرح ابن عباد» شروخٌ كثيرة عبر ستة قرون ؛ من القرن التاسع
إلى قرننا الخامس عشر .

القرن التاسع

- ١ - إحكام الحكم في شرح الحكم ، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن عماد الأقفهسي الشافعي (ت ٨٠٨ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٢ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن ، عُرف بأبن زاغو التلمساني (ت ٨٤٥ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٣ - شرح الحكم لابن عطاء الله ، لأبي محمد خلف بن محمد المشالي الشاذلي المصري الشافعي (ت ٨٧٤ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٤ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي المواهب محمد بن أحمد بن محمد التونسي القاهري ، المعروف بابن زغدان الشاذلي المالكي (ت ٨٨٢ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٥ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي القاسم الرماح الطرابلسي الليبي (ت ٨٨٧ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٦ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي الحسن علي بن محمد بن علي ، الفقيه الفرضي الشهير بالقلصادي المالكي (ت ٨٩١ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٧ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لأحمد بن أحمد بن محمد البرنسي ، المعروف بزروق (ت ٨٩٩ هـ) رحمه الله تعالى ^(١) .

القرن العاشر

٨ - كشف الغطا عن حكم ابن عطا ، لشمس الدين أبي عبد الله

(١) وقد شرحها سبعة عشر شرحاً ، قال رحمه الله تعالى : (وجملة التعليقات التي وقعت لنا عليه : سبعة عشر ، الكامل منها : أحد عشر ...) .

محمد بن إبراهيم بن عثمان الوزيري ، الشهير بالخطيب ، كان حياً في (٩٠٣ هـ) رحمه الله تعالى .

٩ - الحكم شرح الحكم لابن عطاء الله ، لأبي الطيب برهان الدين إبراهيم بن محمود بن أحمد المواهي الأقرائي الشاذلي (ت ٩٠٨ هـ) رحمه الله تعالى .

١٠ - مرشد الأمم مما أودعه التاج ابن عطاء الله في الحكم ، لأحمد خير الدين بن محمد بن عبد الله الكركي المصري الشافعي توفي بعد سنة (٩١٠ هـ) رحمه الله تعالى .

١١ - شرح الحكم ، لشهاب الدين أحمد بن عمر بن سليمان الجعفرى الدمشقي الرفائي الشافعي (ت ٩١٠ هـ) رحمه الله تعالى .

١٢ - فتح باب الملتزم الجامع لبعض معاني كتاب الحكم ، لأبي عبد الله محمد بن علي بن الشطيبي الأندلسي الزروالي (ت ٩٦٣ هـ) رحمه الله تعالى .

١٣ - المواهب الربانية شرح الحكم العطائية ، لأبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري (ت ٩٦٣ هـ) رحمه الله تعالى .

١٤ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن يوسف الحنفي التادفي الحلبي ، المعزوف بابن الحنبلي (ت ٩٧١ هـ) رحمه الله تعالى .

١٥ - شرح الحكم لابن عطاء الله ، لعلي بن حسام الدين عبد الملك بن قاضيخان ، المشهور بالمتقي الهندي (ت ٩٧٥ هـ) رحمه الله تعالى ، وله أيضاً : « النهج الأتم في تبويب الحكم » .

١٦ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لقاسم بن أبي الفضل عبد الرحمن بن

حسن السعدي الحلبي القادري الصوفي (ت ٩٨٢ هـ) رحمه الله تعالى .

القرن الحادي عشر

١٧ - مطالع الأنوار السنية في بعض معاني الحكم العطائية ، لأبي العباس أحمد بن أبي القاسم بن محمد بن سالم بن عبد العزيز التادلي الصومعي (ت ١٠١٣ هـ) رحمه الله تعالى .

١٨ - الجواهر السنية في الحكم العلية ، لمنصور بن محمد الأريحاوي الفلسطيني توفي بعد سنة (١٠١٦ هـ) رحمه الله تعالى .

١٩ - الدرر الجوهريّة شرح الحكم العطائية ، لزين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي المصري الشافعي (ت ١٠٣١ هـ) رحمه الله تعالى .

٢٠ - فتح الحكم لترتيب الحكم ، للمؤلف السابق .

٢١ - شرح الحكم العطائية ، لأحمد بن إبراهيم ، المعروف بابن علان الصديقي الشافعي النقشبندي (ت ١٠٣٣ هـ) رحمه الله تعالى .

٢٢ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن يوسف بن أحمد البدري الدجاني القشاشي المقدسي المدني المالكي (ت ١٠٤٤ هـ) رحمه الله تعالى .

٢٣ - الكلمة الوسطى في شرح حكم ابن عطاء الله ، لصفي الدين أحمد بن محمد بن يونس الدجاني القشاشي (ت ١٠٧١ هـ) رحمه الله تعالى .

٢٤ - شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم ، لعلي بن عبد الله باراس الدوعني الحضرمي (ت ١٠٩٤ هـ) رحمه الله تعالى ؛ وهو هذا الكتاب .

القرن الثاني عشر

٢٥ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الفاسي ، المعروف بابن زكري (ت ١١٤٤ هـ) رحمه الله تعالى .

٢٦ - شرح الحكم لابن عطاء الله ، لمحمد حياة بن إبراهيم السندي المدني (ت ١١٦٣ هـ) رحمه الله تعالى .

٢٧ - شرح الحكم العطائية ، لحسن بن علي بن أحمد المنطاوي الشافعي الأزهري ، الشهير بالمداغبي المصري (ت ١١٧٠ هـ) رحمه الله تعالى .

٢٨ - الشرح الكبير لحكم ابن عطاء الله ، لأبي عبد الله محمد بن قاسم بن محمد جسوس الفاسي المالكي (ت ١١٨٢ هـ) رحمه الله تعالى .

٢٩ - الأسرار الخفية الموصلة إلى الحضرة العلية في شرح الحكم العطائية ، لعلي بن حجازي البيومي المصري الشافعي الخلوتي (ت ١١٨٣ هـ) رحمه الله تعالى .

٣٠ - الهداية للإنسان إلى الكريم المنان ، للمؤلف السابق .

٣١ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن عبادة بن بري ، المعروف بالعدوي المصري المالكي (ت ١١٩٣ هـ) رحمه الله تعالى .

القرن الثالث عشر

٣٢ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن أحمد التشيبي (ت ١٢٠٨ هـ) رحمه الله تعالى .

٣٣ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لصالح بن محمد بن صالح السباعي المصري (ت ١٢٢١ هـ) رحمه الله تعالى .

٣٤ - إيقاظ الهمم بشرح الحكم ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجبية الحسيني الإدريسي الشاذلي الفاسي (ت ١٢٢٤ هـ) رحمه الله تعالى .

٣٥ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد الطيب بن عبد المجيد ابن كيران المالكي (ت ١٢٢٧ هـ) رحمه الله تعالى .

٣٦ - المنح القدسية على الحكم العطائية ، لعبد الله بن حجازي بن إبراهيم المصري الأزهري ، المعروف بالشرقاوي (ت ١٢٢٧ هـ) رحمه الله تعالى .

٣٧ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن محمد الأمير الكبير المالكي (ت ١٢٣٢ هـ) رحمه الله تعالى .

٣٨ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لحمدون بن عبد الرحمن بن حمدون السلمي المرदाسي ، المعروف بابن الحاج (ت ١٢٣٢ هـ) رحمه الله تعالى .

٣٩ - شرح الحكم العطائية ، لمحمد سعدي بن عمر الحموي الأزهري ، الشهير بالكيلاني (ت ١٢٤١ هـ) رحمه الله تعالى .

٤٠ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن الطيب الحسيني البلغيشي (ت ١٢٦٠ هـ) رحمه الله تعالى .

٤١ - إتمد القلم في أحداق الحكم ، لمحمد بن محمد بن عبد الواحد العلمي الشاذلي الدرقاوي ، الشهير بالحراق (ت ١٢٦١ هـ) رحمه الله تعالى .

٤٢ - شرح الحكم ، لنور الدين بن عبد الجبار بن نوري الحسيني ، الشهير بالبريفكاني الكردي (١٢٦٨ هـ) رحمه الله تعالى .

- ٤٣ - الغيث المسجّم في شرح الحكم ، لأبي بكر بن محمد بن عبد الله البناي الفاسي الرباطي (ت ١٢٨٤ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٤٤ - شفاء السقم وجلاء الظلم على متن الحكم لابن عطاء الله ، لزين الدين حسين بن إبراهيم بن حسين المالكي الأزهري ، مفتي المالكية بمكة المكرمة (ت ١٢٩٢ هـ) رحمه الله تعالى .

القرن الرابع عشر وما بعده من العصريين

- ٤٥ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لأحمد بن المختار بن الأمين التندغي الشنقيطي (ت ١٣٢٤ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٤٦ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لعبد الغني المدني .
- ٤٧ - القول المحكم في شرح الحكم ، لبدر الدين أبي الإشراف محمد بن شهاب الدين أحمد الدمشقي ، المعروف بابن الطباخ .
- ٤٨ - شرح الحكم ، لحسن بن عوض بن محمد الحضرمي ، المعروف بابن مخدم (ت ١٣٣١ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٤٩ - شرح الحكم ، لمحمود بن محيي الدين بن مصطفى أبو الشامات الدمشقي الحنفي (ت ١٣٤١ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٥٠ - شرح الحكم العطائية ، لأبي محمد عبد المجيد الشرنوبلي ، اختلف في سنة وفاته ، والأشهر : أنه سنة (١٣٤٨ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٥١ - المحكم في شرح الحكم (تركي) لأحمد ماهر بن محمود القسطنوني الرومي الحنفي ، المعروف باللقلي أفندي زاده .

٥٢ - مذكرات في منازل الصديقين والربانيين ، شرح فيها مختارات من الحكم العطائية ، لسعيد حوى الحموي (ت ١٤٠٩ هـ) رحمه الله تعالى .

٥٣ - الجانب العاطفي من الإسلام ، لمحمد الغزالي (ت ١٤١٦ هـ) رحمه الله تعالى .

٥٤ - شرح حكم ابن عطاء الله ، لمحمد سعيد رمضان البوطي (ت ١٤٣٤ هـ) رحمه الله تعالى .



وكما خُدمت الحكم بالشرح .. خُدمت بالنظم ، فنظمها عددٌ من أهل العلم ؛ من هذه المنظومات :

١ - فيض الكرم في نظم الحكم ، لكمال الدين محمد بن محمد بن أبي بكر بن علي ، الشهير بابن أبي شريف (ت ٩٠٥ هـ) رحمه الله تعالى .

٢ - فيض الكرم نظم وشرح الحكم ، لعبد الله بن سعيد بن عبد الله بن أبي بكر باقشير الحضرمي (ت ١٠٧٦ هـ) رحمه الله تعالى .

٣ - نظم الحكم العطائية ، لحمدون بن عبد الرحمن بن حمدون ، المعروف بابن الحاج السلمي المرדاسي (ت ١٢٣٢ هـ) رحمه الله تعالى .

٤ - نظم كتاب الحكم لابن عطاء الله ، لعبد الله بن علي بن يوسف ، الملقب بالفارس المكي (ت ١٢٦٢ هـ) رحمه الله تعالى .

٥ - مرشد الفقير نظم حكم ابن عطاء الله ، لمحمد بن المختار بن حميد الغلاوي (القرن الرابع عشر) .

- ٦ - نظم حكم ابن عطاء الله وشرحه ، لمحمد محمود بن محمد الجكني (ت ١٣٤٣ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٧ - النظم المحتاج ، لعبد الكريم بن محمد بن بنيس (١٣٥٠ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٨ - نظم حكم ابن عطاء الله ، لأحمد بن إدريس بن محمد الأهدل الزبيدي (ت ١٣٥٧ هـ) رحمه الله تعالى .
- ٩ - نظم الحكم العطائية ، للطاهر بن محمد بن إبراهيم البكري الأفراني (ت ١٣٧٤ هـ) رحمه الله تعالى .
- ١٠ - لثم النعم لتنظيم الحكم ، لأحمد بن محمد بن الصديق الغماري الإدريسي (ت ١٣٨٠ هـ) رحمه الله تعالى .

شرح الشيخ علي باراس له بحكم ابن عطاء الله .

شرح الشيخ علي باراس الحكم « العطائية » شرحين : الأول : لطيف ، ولعله في عداد الأسفار المفقودة بسبب عوادي الزمن والإهمال .

والثاني : مطول ؛ وهو هذا الذي نَقَدِمَ له بهذه المقدمة ، وهذا الشرح له نسختان في مكتبة الأحقاف : إحداهما بمسمى : « شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم » ، والثانية بمسمى : « شرح الحكم » ، ونسخة ثالثة في مكتبة (قاريونس) في ليبيا ، ونسخة رابعة في مركز النور بتريم .

قام الشيخ علي بشرح الحكم بإشارة من شيخه الحبيب عمر بن عبد الرحمن العطاس ؛ الذي أطلع عليه وأعجب به وأثنى عليه ، وذكر الشيخ علي في مقدمة شرحه أنه لم يطلع على شرح للحكم سوى

« شرح ابن عباد » الذي اتخذه أسأً لشرحه ، ولكنه اعتمد على الفتح الرباني الذي يُقَدَّف في رُوعه ، وهو ما يمكن أن يلاحظ عند قراءة الشرح .

ويظهر أن الشيخ أَلَّف شرحه بعدما تَدَيَّر بلدة الخُرَيْبة ؛ قصبة وادي دوعن ، الزاخرة بالفقهاء والعلماء والصالحين ، وليس كما ذكر في كتاب « الدر والياقوت » بأنه أول من سكنها ، إذا اعتمدنا على القول بأنه سكن بلدة الخريبة عام (١٠٤٥ هـ) ، فيكون عمره آنذاك ثمانية عشر عاماً ، وهذا يؤكد نبوغه واتساع أفقه العلمي .

قال في أول الشرح : (أما بعد : فإنني استخرت الله سبحانه بعد أن صدرت إشارةٌ في طيِّها بشارَةٌ ، من صدر زمانه ، وقطب أوانه ، العارف بالله ذوقاً وكشفاً ، وتحققاً وعلماً ؛ سيدي عمر بن عبد الرحمن بن عقيل بن سالم بن عبد الله باعلوي السقاف .. أن أضع تعليقاً لطيفاً على كتاب « الحكم » للشيخ العارف بالله أحمد ابن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله الشاذلي الإسكندري)^(١) .

وقال : (فوجدت عند ذلك أثر الاستخارة ، وبركات قبول الإشارة ، فقدمت معتمداً على ما ينقذح بنور الفهم ، ولم أكن بعدُ قد وقفت لهذا الكتاب على شرح غير شرح الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن عبَّاد النَّفْزِي ، فجعلت في بعض ما أضعه كلامه لأوائل كلامنا أسأً ، وقد كان كثيراً يعرضُ واضحات النقول وجليات المعقول ، وأنا منتظر ما يُلقي في الفؤاد من لوائح

(١) انظر ما سيأتي (ص ١١٠) أول الكتاب .

السوداد ؛ فيكون أخذه بلا تقليد ، وهو الذي نريد . . . انتهى^(١) .
وعند قراءة هذا الشرح ينبهر الناظر فيه بسعة علم الشيخ ، وبعارضته
القوية ، والأسلوب الأدبي الراقي المُسجَّع ؛ الذي يدل على علم واسع
بالعربية ، وقدرة عظيمة على استحضار مفرداتها ، التي ينسجها في
عبارات تأخذ بالقلوب وتنال الإعجاب ؛ كما تؤكد رسوخه في علوم
القوم ، وإحاطته بمصطلحاتهم .

لكن يلاحظ : أن الشارح ينظم عباراته في أبيات لا تخضع لتفعيل
العروضيين ، ولا توزن بميزانهم ؛ ولعل ما جاء في كلام الفقيه محمد بن
سليمان باحويرث بإجراء تصانيفه على قانون محمود وهو ما أوضحه
تلميذه السيد عيسى الحبشي بأن ذلك من جهة اللغة .



(١) انظر ما سيأتي (ص ١١٠ - ١١١) أول الكتاب .

ترجمة شارح الحكم
الإمام العلامة العارف بالله تعالى
أبي محمد علي بن عبد الله بن أحمد بن عمر باراس
الكندي الروعني الحضرمي الشافعي
رحمه الله تعالى^(١)
(١٠٢٧ - ١٠٩٤ هـ)

اسمه ونسبه

هو الشيخ العالم الثري ، العابد الزاهد شيخ الوادي ، ومرجع الحاضر والبادي : أبو محمد علي بن عبد الله بن أحمد بن عمر بن أحمد بن عمر باراس بن ظفر بن مهدي الصّديفي الكندي ، الحريضي الحزبي ، الشافعي مذهباً ، الباعلوي سلوكاً وطريقة .

قال الحبيب أحمد بن حسن العطاس في رسالته في « أنساب القاطنين بوادي حضرموت » التي أكثر ما نقله فيها من خطوط الثقات ، قال وهو يعدّد بطون كنده وآل مهدي بـ (قبضين) : (ومنهم : المشايخ آل الشيخ علي باراس بدوعن وحجر والجبال) انتهى .

(١) مصادر ترجمته : « جواهر الأنفاس بمناقب السيد علي بن حسن العطاس وبعض أصحاب الشيخ علي باراس » مخطوط من مكتبة الأحقاف (٢٠٢٦) ، و « خلاصة الأثر » (١٧٢/٣) للعلامة المحيي ، و « مصادر الفكر الإسلامي في اليمن » (ص ٣٤٥) .

ومعلوم : أن قرية (قبضين) تكون على طريق الداخل إلى حريضة ؛
وهي قرية المشايخ آل باراس .

ولادته ونشأته

ولد الشيخ علي باراس ببلدة حريضة عام (١٠٢٧ هـ) ، وقد أشار
العلامة المؤرخ المحبي إلى أن العلامة العارف بالله عبد القادر باعشن
الدواعي رحمهما الله تعالى بشرَّبه قبل وجوده ، فكان يقول : (سيخرج
بعدي في هذا البلد رجل اسمه كذا ، وصفته كذا بوصفه ؛ هو شمس
هذا الإقليم ونوره)^(١) .

واتصل المترجم له في أول نشأته بشيخ قريته وعالمها الحبيب
عمر العطاس باعلوي الحضرمي ، فتربَّى تحت أنظاره ، وعبَّ من
نمير أنواره ، فقرأ القرآن الكريم على يديه ، وبعد ختمه للقرآن عنده
اتخذته الشيخ مرافقاً وقائداً له في حلِّه وترحاله ؛ إذ كان الحبيب عمر
العطاس كفيفاً ، وفي رحلاته الدعوية يدارسه القرآن ليلاً ونهاراً ،
وانتدبه إلى قرية (قرن المال) وقرئ أخرى في وادي (عمد) يعلم
أطفالها القرآن الكريم .

لازم شيخه ملازمة كاملة ، وقرأ عليه كثيراً من كتب العلم ، وحرص
شيخه أن يزداد علمه ، فأرسله إلى بلدة (عمد) عند الشيخ العالم
الرباني الفقيه الشهير أحمد بن علي بابحير حتى تفقه عليه ، وبرع في
علم الفقه ، وبقي بعد ذلك ينهل من معين شيخه الصافي .

وما زال يربِّيه التربية الراقية ، ويُدريه على تحمُّل المشاق بتكليفه
ببعض الأعباء التي لا ينهض بها إلا الأساطين من الرجال على صغر

(١) خلاصة الأثر (٣/١٧٣) .

سَنَّهُ ، فيقوم بها بلا ترُدُّ أحسن القيام ؛ تعظيماً لشيخه .

وبلغ حبه لشيخه أن نذر له بما يملك من أراضي زراعية وهو فرح مسرور ، وشيخه ينفق ريعها في أوجه البر ، وعندما اجتمع قومه به . . . عابوا عليه ذلك ، فأقسم لهم : أنه لو كان يملك وادي (نِسْم) . . . لأهداه لشيخه .

أحبَّ الحبيب عمر تلميذه ؛ لفضله وصلاحه وصدقه ، وكان يقَدِّمه إماماً ويصلي خلفه مؤتماً به ، ويقول عنه : (إنه هو المعين لي والمؤازر لي) ويقول أيضاً : (إنه لساني ، ومن فَرَّقَ بين عمر وعلي . . . لا يفلح) . وبعد أن أهَّله للقيام بأعباء الدعوة أمره بالسفر إلى (دوعن) والإقامة في بلدة الخريبة ، وألزمه بذلك ، ولم يقبل اعتذاره ، وأصبح معه ابنه الحسين بن عمر يقرأ عليه ويقوم بخدمته ، وكان ذلك بعد عودته من حج بيت الله الحرام ، وزيارة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وذكر المترجمون له : (أنه مكث في المدينة المنورة أربعين يوماً ، وقرأ في المسجد النبوي في جمع كثير من الناس شيئاً من دروس السيرة النبوية . . .) انتهى .

وصحبه في رحلة الحج العالم الرباني السيد عيدروس بن علوي بن الشيخ أحمد الحبشي .

مَدِينَةُ الشَّيْخِ بَلَدَةُ الْخَرِيبَةِ

سكن الشيخ علي هذه البلدة المليئة بالعلماء ؛ التي هي مركز (دوعن) التجاري الذي يجلب التجار بضائعهم إليه من أنحاء البلاد ،

ودارُهُ التي كان يسكنها باقية قائمة إلى الآن ، وهي من التراث الذي يجب المحافظة عليه .

وقد نال الشيخ شيءٌ من الأذى من بعض الحساد ، لكنه تدرّع له بالصبر وحسن الخلق وإلغاء حظ النفس ، فعاد إليه أولئك القوم معتذرين ، وانضموا إلى صفوف طلابه ومحبيه ، وقصده طلاب العلم من أنحاء الوادي يقرؤون عليه ، وكان بينه وبين علماء الخربة ودُّ ومحبّة ، ومنهم قاضيها ومفتيها وابن مفتيها الفقيه محمد بن سليمان باحويرث .

تولى الشيخ علي الإمامة في جامع الشيخ سليمان بن عبد الله بامنيح تلميذ الشيخ سعيد بن عيسى العمودي ، وكان صوته جهورياً ، وله طريقة في قراءة القرآن يخشع لسماعها المصلون والمستمعون ، وأتت به في هذا المسجد الحبيب عبد الله بن علوي الحداد عندما زار وادي دوعن .

لقد ذاع صيت الشيخ علي في دوعن ، واجتمع الناس حوله ، وكان يُتصد لأخذ العلم ، وإذا ذهب لحضور بعض المناسبات في الوادي . . يسير معه عدد كبير من الناس .

ووضع الله له المحبة في قلوب الناس عامةً وخاصةً ، وقصده من سيئون السلطان علي بن بدر الكثيري ، وكان الشيخ حينها يزور حريضة في جمع من تلاميذه ومحبيه ، فسلم عليه السلطان وبادله التحية ، ثم وعظه وحذّره من الظلم ، ونبّهه على بعض المخالفات التي تقع من بعض ولاته ، فقبل نصيحته وشكره عليها ، وأهدى إليه بعض الهدايا ، فاعتذر عن قبولها .

شيوخه

لقد أخذ المترجم له عن عدة من علماء عصره ، ولعل من أبرز شيوخه بلا نزاع :

- الإمام العلامة الحبيب عمر بن عبد الرحمن العطاس ؛ وهو شيخه الأكبر ، قال في نعته في هذا الكتاب الذي بين أيدينا : (وقد كنت أجد عند حضوري بمجلس سيدي وحيد عصره عمر بن عبد الرحمن أنه يتكلم مع العوام فيما يتكلمون ، وأجد له من التأثير ما لا أجد في كلام غيره من المصنفين)^(١) .

وممن تلقى عنهم مطلع طلبه للعلم أيضاً :

- العلامة الفقيه العارف بالله الشيخ العالم الرباني أحمد بن علي بابحير .

- والإمام العلامة الحبيب الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم بن عبد الله ، رحم الله الجميع ، وأجزل مثوبتهم .

تلاميذه

انتظم حول الشيخ علي باراس عدد من طلاب العلم ينهلون من معينه ، ويتأدّبون بأدابه ، وكان يأمر تلاميذه أن يراجعوه وأن يبحثوا معه مسائل العلم ، ولا يمنهم اختشامهم له من المراجعة ، ويشدّد عليهم في ذلك .

وكان يعطف على تلاميذه ؛ فقد نقل الشيخ عبد الله بن محمد

(١) انظر (ص ٦٤٨ - ٦٤٩) في شرح الحكمة (١٨٢) ونقل أنه قرأ على شيخه المذكور كتاب « بداية الهداية » .

بأسنوده صاحب الرباط عن بعض تلاميذ الشيخ علي قال : (لقد صحبتُ
الشيخ علي قريباً من ثلاثين عاماً ، فكان أشفق عليّ وعلني من يليه من
الوالد الحفي) .

ومن أشهر هؤلاء التلاميذ :

- ١ - الحبيب الحسين بن عمر العطاس ؛ الذي أسكنه معه في بيته ،
وزوّجه في بلد الخريبة .
- ٢ - الشيخ محمد بن محمد بامشموس .
- ٣ - الحبيب عيسى بن محمد الحبشي ، صاحب خنفر .
- ٤ - الحبيب علي بن محمد باهارون .
- ٥ - الشيخ عبد الله بن عمر باعباد ، صاحب الدوفة .
- ٦ - الشيخ عبد الله بن محمد باهرمز .
- ٧ - الشيخ سهل بن إسحاق .

الترجمون له

- ١ - السيد عيسى بن محمد الحبشي ، جاء في ترجمته قوله : (كان
رضي الله عنه شيخاً عارفاً من أرباب الأحوال ، أحد مشايخ حضرموت
وعظماء العارفين في وقته ...) ثم قال : (وهو أحد أركان هذا الشأن ،
وأعلام طريق الهدى والعرفان) .
- ٢ - الحبيب علي بن حسن العطاس ، أفرده بتأليف اعتمد فيه علي
ما كتبه السيد عيسى الحبشي وزاد عليه .
- ٣ - الشيخ الفقيه عبد الله بن عمر باعباد صاحب الدوفة ، أفرده
بالترجمة .

٤ - وممن ترجمه ترجمة مطولة الشيخ عبد الله باسودان في كتابه «فيض الأسرار» .

٥ - وترجمه المحبسي في كتابه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» قائلاً: (علي بن عبد الله باراس الدوعني الحضرمي ، أحد مشايخ الطريقة ، الجامعين بين الشريعة والحقيقة ، انفرد في ذلك الإقليم بالإرشاد والإمداد . . .) .

ثم ذكر قراءته على مشايخه رحمهم الله ، ثم قال : (وقصده الناس من نواح شتى ، وتخرّج به خلقٌ كثير) ^(١) وذكر بعض تلاميذه رحمهم الله وقال : (وله - نفع الله به - المصنفات النافعة الكثيرة الشهيرة ، التي تلقاها أهل ذلك الإقليم بالقبول التام) وذكر بعضها .

٦ - وترجمه السيد محمد بن محمد زبارة في كتابه «الملحق التابع للبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع» للعلامة محمد بن علي الشوكاني قال : (الشيخ العلامة علي بن عبد الله باراس ، أخذ عن الشريف عمر العطاس باعلوي وغيره ، وانفرد في إقليمه بالإرشاد ، وفتح عليه بفتوحات كثيرة ، وله مؤلفات شهيرة) وذكر منها شرحه على الحكيم .

مؤلفاته

للشيخ العلامة باراس سمة في تأليفه ، بادية لمن اطلع عليها ؛ وهي أنها مؤسسة على ما تجود به سحابة الوقت ؛ فلسانه فيضي ، ومداد قلمه غيبي ، لهذا ما استجده عند الحديث عن شرحه للحكم ؛ فمن آثاره :

(١) خلاصة الأثر (١٧٢/٣) .

- ١ - الروضة الخضرا والدرة الزهرا بكشف معاني ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا ؛ وهو شرح لفصيحة الإمام العارف بالله أبي مدين .
- ٢ - شرح راتب الحبيب عمر العطاس ؛ المسمى « عزيز المنال وفتح باب الوصال » .
- ٣ - شرح أبيات للشيخ عمر بن عبد الله بأمخرمة .
- ٤ - شرح أبيات للحبيب أبي بكر بن عبد الله العيدروس العدني .
- ٥ - شرح أبيات للشيخ عبد الهادي السوداني .
- ٦ - شرحان لحكم ابن عطاء الله ؛ مختصر مفقود ، وشرح كبير سماه : « شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم » وهو الذي شرفنا بخدمته .

أولاده وذريته

خلف المترجم له من البنين : أحمد وعبد الرحمن وعبد الله وعمر ، ولهم ذرية منتشرون في عدد من البلدان ، يُبَيِّنُهُم المَشَجَّرُ الملحوق بهذه المقدمة ، وقد رَتَّبَ هذا المَشَجَّرُ الابن المبارك عبد القادر بن عبد الله بن المنصب أحمد بن محمد باراس بآرك الله فيه .

وظهر فيهم دعاة إلى الله وعلماء ، ومركزهم ومنصبهم الرئيس بلدة الخريبة ؛ حيث مسجد جدِّهم وبيته الذي كان يسكن فيه ، وقد سكن بعض ذريته في بلدان أخرى من حضرموت ، وهاجر بعضهم إلى خارجها ، حفظهم الله أجمعين ، وسلك بنا وبهم سبيل الصالحين .

ومن ذرية الشيخ علي باراس : والدتي الصالحة العابدة ، التقية النقية صفية بنت الجد حسن بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حسين بن محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله باراس ، وكان والدها الشيخ

حسن بن عبد الله من أهل الفقه والأدب والصلاح ، وكان هو والمنصب
الشيخ أحمد بن محمد نجمين لامعين في وادي دوعن ، رحمهم الله
تعالى أجمعين .

وفاته

توفي الشيخ علي في بلدة الخريبة يوم الأربعاء شهر ربيع الأول ، عام
(١٠٩٤ هـ) .

رحمته تعالى رحمة الأبرار ، وأسكنه فسيح جناته

قاله وكتبه الفقير إلى ربه الغني
عمر بن حامد بن عبد الهادي السحيلاني
مكة المكرمة (٣) ذي الحجة (١٤٣٥ هـ)

وصف النسخ الخطية

تم اعتماد أربع نسخ خطية لهذا الكتاب المبارك ؛ وهذا وصفها :
النسخة الأولى : نسخة مكتبة الأحقاف بتريم ، حضرمرت اليمن ،
ذات الرقم (١٧١٧) ، وهي نسخة تامة ، كتبت بخطٍ نسخي معناد ،
وقع في الورقة الأولى منها تسمية الكتاب بـ « شفاء السقم وفتح خزائن
الكلم في معاني الحكم » مع خروم في ورقة العنوان .

وهي نسخة واضحة المعالم ، خُتمت بقوله : (تَمَّ الكتاب بعون الله
الكريم الجواد ، والحمد لله رب العالمين) ، وألحقَ بها مجموعة من
الأحاديث المرفوعة من مجموع الحبيب أبو بكر بن محمد بافقيه قيدون
باعلوي (ت ١٠٥٣ هـ) ، كتبت بخط مغاير للكتاب ، وألحقَ بها أيضاً
رسالة بعنوان : « هداية الأصحاب من المتولين والنواب إلى السير على
شاكلة الصواب » للعلامة عبد الله بن سعد بن سُمير (ت ١٢٦٢ هـ) ،
كتبت بخط مغاير لكل من الكتاب والمجموعة الملحقة ، وعدد أوراق
هذه النسخة (٣٥٤) ورقة ، وليس فيها ذكر لسنة النسخ ، وظاهرٌ عَوْدُها
إلى قريب من زمن مصنفها ، رحمه الله تعالى .
ورمز لهذه النسخة بـ (أ) .



النسخة الثانية : نسخة مكتبة الأحقاف بتريم أيضاً ، ذات الرقم
(١٧١٦) ، وهي نسخة تامة كسابقتها ، تتألف من (٣٥٥) ورقة ،
كتبت بخطٍ نسخي معناد ، أوضح من أختها ، تشاركها في المواطن
التي وقع فيها الإشكال .

جاء في الورقة الأولى منها : (كتاب « شرح الحكم » لسيدنا الشيخ العلامة ، بركة السلف وعمدة الخلف ، شيخ الطريقة وبحر الحقيقة : الشيخ علي بن عبد الله باراس ، نفعنا الله به وسائر علومه ، أمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

من وقف السيد الحسين بن عبد الرحمن بن سهل على تريم ونواحيها إلى مسيلة آل شيخ سنة « ١٢٧٥ هـ » .

وجاء في ختامها : (تمّ الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأ .

وكان الفراغ من زير هذا الكتاب صبح يوم الجمعة الثالث من شهر ربيع ثاني ، أحد شهور عام « ١٢٦٦ » سنة ست وستين ومئتين وألف من الهجرة النبوية ، على مشرفها أفضل الصلاة والسلام ، بقلم الفقير الحقيير عبد الرحيم بن عبد الله بن عمر باعبده ، سامحه الله تعالى) .
ورمز لها بـ (ب) .

النسخة الثالثة : وهي نسخة مصورة في مركز النور بتريم ، تتضمن الجزء الأول من الكتاب .

وتتألف هذه النسخة من (١٣١) ورقة ، وخطها نسخي معتاد ، جعل الناسخ متن الحكم العطائية باللون الأحمر ، وختم الجزء بقوله : (تم الجزء الأول من « شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم » بحمد الله وميته وكرمه ، وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين ، على يد أفقر عباد الله وأحوجهم فيما لديه : عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن باجاير ، عفا الله عنهم ، وفرغ من زيره ضحى السبت آخر شهور جماد

أول أحد شهور سنة ثلاث وسبعين ، تقبل الله ذلك بمنه وكرمه ،
والحمد لله رب العالمين .

يتلوه الجزء الثاني : « الصلاة محل المناجاة » والله أعلم وأحكم
بغيبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين) .

وعلى هذه النسخة تملكات باسم الفقير إلى الله عبد الله بن عمر بن
يحيى باعباد بأثقيين ، ثم انتقل ملك ذلك إلى عبد الله بن عمر باشويه
العمودي تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ؛ بمته وكرمه ، آمين .
ورمزنا لهذه النسخة بـ (ج) .



النسخة الرابعة : نسخة مصورة في مركز النور بترميم ، وتتضمن الجزء
الثاني من الكتاب ، كتب على طرتها : (الجزء الثاني من كتاب « شفاء
السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم » ، تأليف الشيخ الإمام
الكامل العالم العلامة ، وحيد عصره وفريد دهره : أبي الحسن الشيخ
علي بن عبد الله بن أحمد باراس ، نفع الله به ويعلموه آمين ، آمين ،
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كثيراً) .

تتألف هذه النسخة من (١٨٩) ورقة ، وخطها نسخي معتاد ، وكتب
متن الحكم العطائية والمناجاة باللون الأحمر ، وسقط من آخر النسخة
بمقدار ورقة ، فلم يتبين لنا اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ ، وعليها
تملك : (انتقل هذا الكتاب إلى ملك الفقير إلى الله عبد الله بن حمد
باكدم بمكة المشرفة) .

ورمز لها بـ (د) .



مسيرة العمل في الكتاب

من قرابة عشر سنوات كان الشرح الذي بين أيدينا قد قُوبِل بعد نسخه على نسختين تأمتين من مخطوطات مكتبة الأحقاف ، وقد ثارت في طياته الكثير من الإشكالات النسخية ؛ التي أومات لبعض السقوبات أو التصحيفات التي تخلُّ بهاء الكتاب .

وقد أشارت كتب الفهرسة لوجود مخطوطة لهذا الشرح في مكتبة قاريونس بليبيا^(١) ، ليس لنا من وصفها إلا أنها موجودة وتامة ، ولكن هل هي كأختيها ؟ هذا ما حملنا على إيقاف العمل طيلة هذه المدة ؛ لئسنى الوقوف عليها ، علماً ترفع إصر تلك الإشكالات المتكاثرة .

وهذا ما لم يكن والحمد لله على كل حال ، فكان خياراً إخراج الكتاب ؛ ليرى النور بعد طول غياب مرجحاً على بقائه حبس الأدرج .

نعم ؛ قد يرى القارئ ملحوظات لا يخفى حلُّ ما فيها على ذي لبٍ ، وهي متناثرة هنا وهناك ، ولكنها لن تخلُّ بقوى النص ، ولن ترمي به بعيداً عن الفهم ؛ كاستطراد المصنف في شرط تناول عبارته فيئسنى جوابه ، أو مبتدأ غاب خبره ، وهذا على وجوده إلا أنه لم يفسُ في الكتاب ، أو يرى بعض القياسات الصرفية غير المألوفة وغير المنضبطة ؛ كقوله : (استعزيت ، واستهونت) مثلاً ، أو استعمال بعض الأدوات العاملة في غير مألوف من الكلام ؛ كاستكثاره من استعمال (لا) بمعنى (ليس) نثراً ؛ كقوله : (فلا للعبد فيما يرد من الله تعمل)

(١) مكتبة قاريونس ذات الرقم (٩٣٠) .

- ومن لا له شيخ - لا للعلم فيه مدخل) ، أو استعمالها مكان (ما) ؛
كقوله : (لا عبدتك لجنتك وإنما ...) ، أو بعض الاشتقاقات الغربية ؛
كقوله : (فيكون محجوباً بفعله مبعوداً) والقياس : (مبعداً) ، وإنما
السجعة دعت لذلك .

ولو أن الشيخ ممن يكثر النقول والإحالات .. لكان هناك سبيل
للنظر والاستدراك ؛ ولكن قد ظهر لك أن المؤلف قد أسس شرحه هذا
بما تحمله له فيوضات الحق تعالى .

ومع هذا بُذِل من الجهد فيه وطول النظر ما يبعث على الطمأنينة
لتشره ؛ لينتفع به أهله ، وتحيا أنفاس مؤلفه بين صفوف الناس .

ولما انتهينا من خدمة الكتاب وأخرج وكاد أن يُرسل إلى الطبع ..
أكرمنا الله سبحانه بنسختين : الأولى للجزء الأول ، والثانية للجزء
الثاني من الكتاب ، وقد تفضل السيد زيد بن يحيى بإرسالهما جزاء الله
عنا خير الجزاء ، فقابلنا عليهما ، واستفدنا منهما ، ولله الحمد والمنة .

وقد سار العمل فيه على النحو الآتي :

- تمّ نسخ الكتاب ، ومقابلته على النسختين (أ ، ب) ، وإثبات
الفروق المهمة .

- ثم أعدنا المقابلة على النسختين (ج ، د) كما سبقت الإشارة
لذلك ، وأثبتنا منهما أيضاً الفروق المهمة ، وكان لهاتين النسختين الأثر
الكبير في حل كثير من التصحيفات والسقوبات .

- وضع الحكم العطائية أول الصفحة ، مع اعتماد رواية العلامة بإراس
للحكم العطائية ، وربما تختلف مع ما هو مشهور من روايتها المنتشرة .
- تخريج الآثار والأخبار والأقوال والقصص ، وإحالتها إلى الأمانات .

- التعليل على بعض المواطن النادرة التي تحتاج لذلك ، مع إيضاح بعض المبهمات .

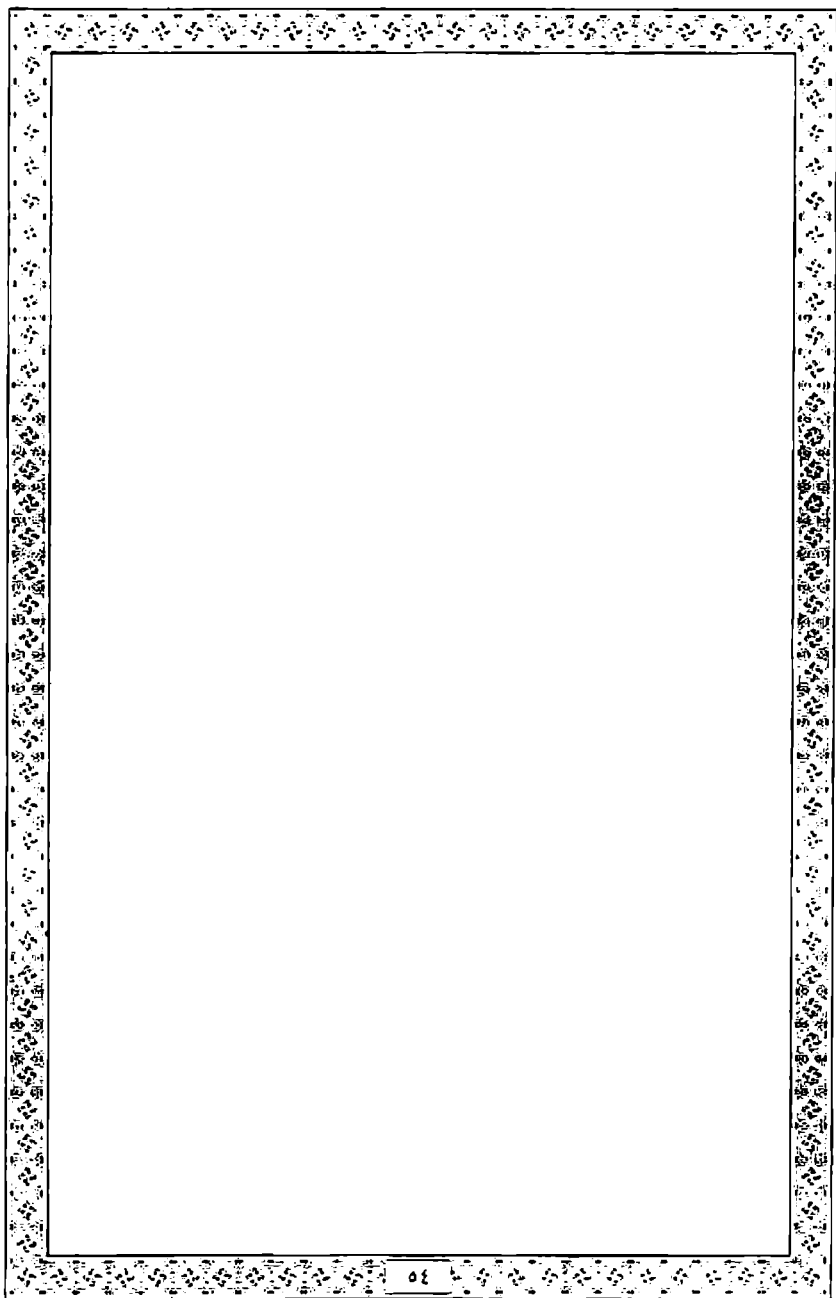
- تسطير ترجمة لطيفة لصاحب الحكم العطائية الإمام ابن عطاء الله السكندري ، ولصاحب الشرح العلامة باراس رحمهما الله تعالى ، ووضع دراسة موجزة عن العناية بالحكم العطائية وعن شروحها ونظمها ، ومكانة هذا الشرح بين تلك الشروح وأهميته .

- اعتنينا بخدمة هذا الكتاب فنياً ؛ فميزنا متن الحكم العطائية ضمن إطارٍ مزخرف ، مع إثبات رقم الحكمة أعلى الصفحة .

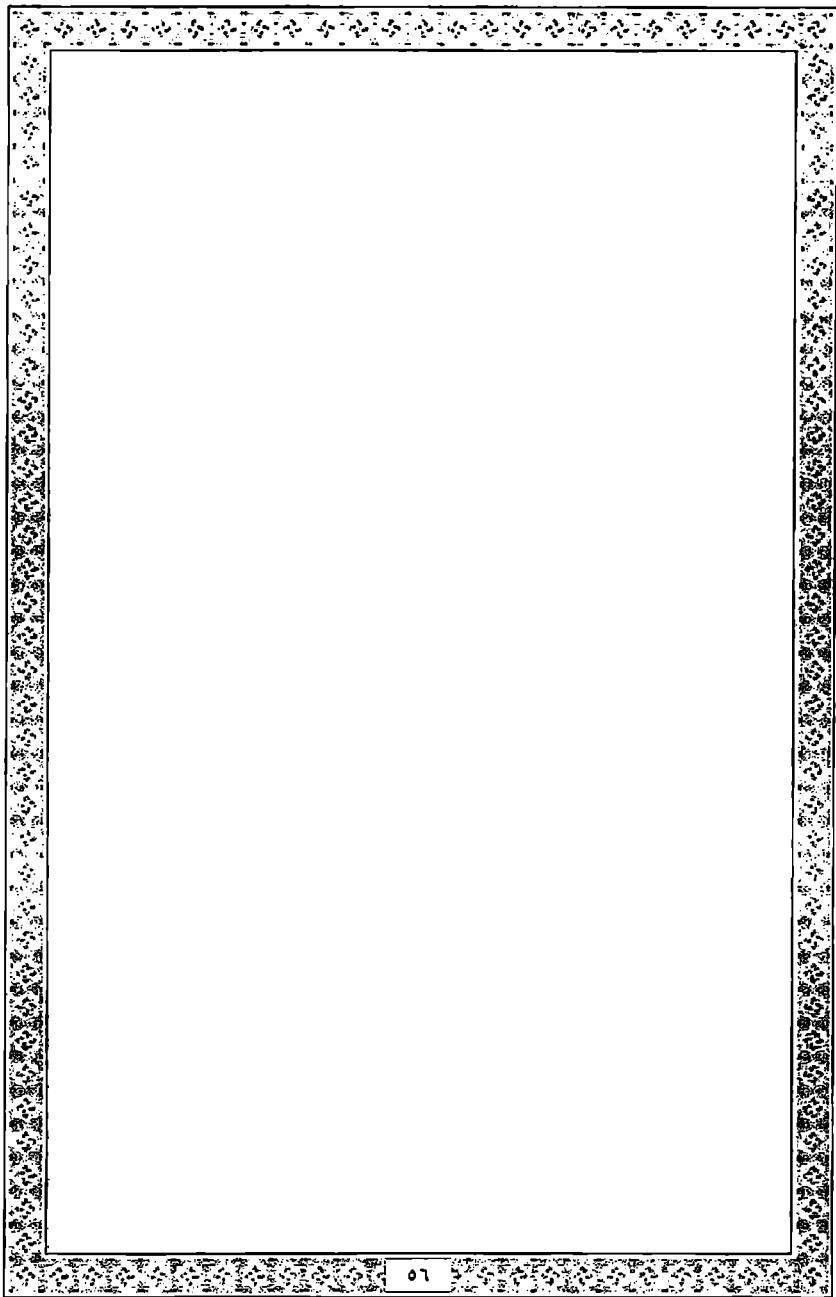
والله تعالى نسأل ، وبمفتاح حضرته نتوسل : أن يرزقنا الفهم عنه ، والكسوة من نوره ، ومحبة أوليائه وأصفيائه ، وأن ينفعنا بما ورثوه ، ويحققنا بما آثروه ؛ إنه سبحانه القريب المجيب .

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

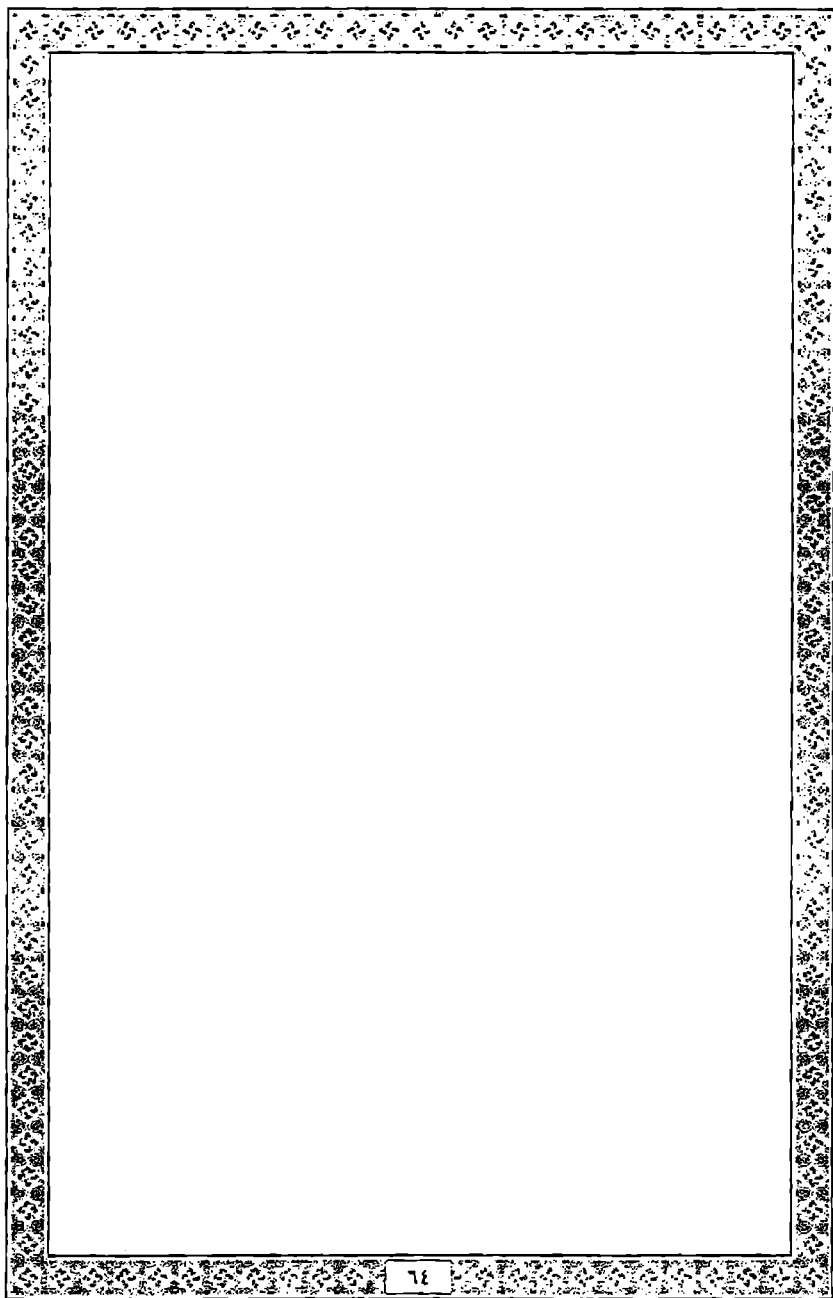
بجنته إحياء القرائش
بدر الحادي



صور من المخطوطات المعتمدة







الحكم العطائية^(١)

١ - مِنْ عَلَامَاتِ الْأَعْتِمَادِ عَلَى الْعَمَلِ : نَقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلْزَلِ .

٢ - إِزَادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِلَيْكَ فِي الْأَسْبَابِ .. مِنْ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ ، وَإِزَادَتُكَ الْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِلَيْكَ فِي التَّجْرِيدِ .. أَنْحِطَاطٌ عَنِ الْهَيْمَةِ الْعَلِيَّةِ .

٣ - سَوَابِقُ الْهَمَمِ لَا تَخْرِقُ أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ .

٤ - أَرِحْ نَفْسَكَ مِنْ هَمِّ التَّذْبِيرِ ؛ فَمَا قَامَ بِهِ عَنكَ غَيْرُكَ .. لَا تَقُمْ بِهِ أَنْتَ لِتُنْفِسِكَ .

٥ - اجْتِهَادُكَ فِيمَا ضَمِنَ لَكَ ، وَتَفْصِيؤُكَ فِيمَا طَلِبَ مِنْكَ .. دَلِيلٌ عَلَى أَنْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ مِنْكَ .

٦ - لَا يَكُنْ تَأَخَّرُ إِمْدَادَ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ .. مُوجِباً لِتَأْسِكِ ؛ فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الْإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُ لَكَ ، لَا فِيمَا تَخْتَارُهُ لِتُنْفِسِكَ ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ ، لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ .

٧ - لَا يُشَكِّكَنَّكَ فِي الْوَعْدِ عَدَمُ وَقُوعِ الْمَوْعُودِ بِهِ وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ ؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ قَدْحاً فِي بَصِيرَتِكَ ، وَإِخْتِمَاداً لِثَوْرِ سَرِيرَتِكَ .

(١) ملحوظة : سيرى القارئ رواية لـ «الحكم العطائية» مخالفة أحياناً للمألوف المعروف ؛ لأننا اعتمدنا رواية المؤلف لها رحمه الله تعالى .

٨ - إِذَا فَتَحَ لَكَ وَجْهَهُ مِنَ التَّعَرُّفِ . . فَلَا تُبَالِ مَعَهَا وَإِنْ قَلَّ عَمَلُكَ ؛ فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ . . إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ، وَالْأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ ؟ وَأَيُّنَ مَا أَنْتَ مُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ؟

٩ - تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ الْأَعْمَالِ ؛ لِتَنَوُّعِ وَارِدَاتِ الْأَحْوَالِ .

١٠ - الْأَعْمَالُ : صُورٌ قَائِمَةٌ ، وَأَرْوَاحُهَا : وُجُودُ الْإِخْلَاصِ فِيهَا .

١١ - إِذِينَ وَجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخُمُولِ ؛ فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يَدْفَن . . لَمْ

يَتِمَّ نِتَاجُهُ .

١٢ - مَا نَفَعَ الْقَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عَزَلَةٍ ، يَدْخُلُ بِهَا مَبْدَانُ فِكْرَةٍ .

١٣ - كَيْفَ يُسْرِقُ قَلْبٌ وَصُورُ الْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرْآتِهِ ؟ أَمْ كَيْفَ

يَتْرَحَلُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهْوَاتِهِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللَّهِ

تَعَالَى وَهُوَ لَمْ يَنْتَهَظْ مِنْ جَنَابَاتِ غَفْلَاتِهِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ

دَقَائِقَ الْأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَثْبُثْ مِنْ هَفَوَاتِهِ ؟

١٤ - الْكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ ؛ فَمَنْ رَأَى الْكَوْنَ

وَلَمْ يَشْهَدْهُ فِيهِ أَوْ عِنْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ . . فَقَدْ أَعْوَرَهُ وَجُودُ الْأَنْوَارِ ،

وَخَجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ بِسُحُبِ الْأَنْارِ .

١٥ - مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ : أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ

مَوْجُودًا مَعَهُ .

١٦ - كَيْفَ يَنْصَوِّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؟

كَيْفَ يَنْصَوِّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ ؟ كَيْفَ

يَتَصَوَّرُ أَنْ يَخْجِبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟! كَيْفَ يَتَصَوَّرُ
أَنْ يَخْجِبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ ؟!

كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَخْجِبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ الظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ ؟!
كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَخْجِبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟!

كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَخْجِبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ ؟!
كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَخْجِبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟!
يَتَصَوَّرُ أَنْ يَخْجِبَهُ شَيْءٌ ، وَلَوْلَاهُ .. لَمَا كَانَ وُجُودُ شَيْءٍ ؟!

يَا عَجَبًا كَيْفَ يَظْهَرُ الْوُجُودُ فِي الْعَدَمِ ؟! أَمْ كَيْفَ يَنْبُثُ الْحَادِثُ مَعَ
مَنْ لَهُ وَضْعُ الْقَدَمِ ؟!

١٧ - مَا تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ شَيْئًا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ فِي الْوَقْتِ غَيْرَ مَا
أَخْبَدَهُ اللَّهُ فِيهِ .

١٨ - إِحَالَتِكَ الْأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ .. مِنْ رُغُوبَةِ النَّفْسِ .

١٩ - لَا تَطْلُبُهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لِيَسْتَعْمَلَكَ فِيمَا سِوَاهَا ؛ فَلَوْ
أَرَادَ .. اسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ .

٢٠ - مَا أَرَادَتْ هِمَّةٌ سَالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا .. إِلَّا وَنَادَتْهُ
هُوََاتِفُ الْحَقِيقَةِ : الَّذِي تَطْلُبُ أَمَانِكَ ، وَلَا تَبْرَجِحُ ظَوَاهِرَ الْمُكْوَنَاتِ ..
إِلَّا نَادَتْهُ حَقَائِقُهَا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ .

٢١ - طَلْبِكَ مِنْهُ أَتِهَامٌ لَهُ ، وَطَلْبِكَ لَهُ غَيْبَةٌ عَنْهُ ، وَطَلْبِكَ لِغَيْرِهِ لِقَلَّةُ
حَيَاتِكَ مِنْهُ ، وَطَلْبِكَ مِنْ غَيْرِهِ لَوْجُودِ بُعْدِكَ عَنْهُ .

٢٢ - مَا مِنْ نَفْسٍ تُبَدِّيه ، إِلَّا وَلَهُ قَدْرٌ فِيكَ يُمَضِّيه .

٢٣ - لَا تَتَرَقَّبْ فِرَاعَ الْأَعْيَارِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنِ وُجُودِ الْمُرَاقَبَةِ لَهُ
فِيمَا هُوَ مُقِيمٌ فِيهِ .

٢٤ - لَا تَسْتَعْرِبْ وَتُفَوِّعِ الْأَعْمَادَ ، مَا دُمْتَ مُقِيمًا فِي هَذِهِ الدَّارِ ؛ فَإِنَّهَا
مَا أَبْرَزَتْ لَكَ .. إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقُّ وَضَمِيمٌ وَوَاجِبٌ نَعْتِهَا .

٢٥ - مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبُ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ ، وَلَا تَبَسَّرَ مَطْلَبُ أَنْتَ طَالِبُهُ
بِنَفْسِكَ .

٢٦ - مِنْ عَلَامَاتِ النُّجُحِ فِي النِّهَايَاتِ .. الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ فِي الْبِدَايَاتِ .

٢٧ - مَنْ أَشْرَقَتْ بَدَايَتُهُ .. أَشْرَقَتْ نِهَائَتُهُ .

٢٨ - مَا اسْتُرِدِعَ فِي غَيْبِ السَّرَائِرِ .. ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ الظَّوَاهِرِ .

٢٩ - سَتَانِ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ ، وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ ؛ قَالَ مُسْتَدِلُّ
بِهِ : عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ ، وَأَثَبَتِ الْأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَصْلِهِ ، وَالْأَسْتَدِلَّالُ عَلَيْهِ :
مِنْ عَدَمِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا .. مَتَى غَابَ حَتَّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ ؟ وَمَتَى بَعُدَ
حَتَّى تَكُونَ الْأَثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ ؟

٣٠ - ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِمَّن سَعَى ﴾ : الْوَاصِلُونَ إِلَيْهِ ، ﴿ وَكَانَ قُدْرَتُهُ رِزْقُهُ ﴾ :

السَّائِرُونَ إِلَيْهِ .

٣١ - إِهْتَدَى الرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ ، وَالْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارُ
الْمُوَاجَهَةِ ؛ فَأَلْوَلُونَ لِأَنْوَارِ ، وَهَذَا لِأَنَّ الْأَنْوَارَ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَهُ لَا لِشَيْءٍ
ذُوْنَهُ ، ﴿ قُلِ اللَّهُ نُورٌ ذَرَاهِمٌ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

٣٢ - تَسْؤُفُكَ إِلَى مَا بَطَّنَ فِيكَ مِنَ الْعُيُوبِ .. خَيْرٌ مِنْ تَسْؤُفِكَ إِلَى

مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الْعُيُوبِ .

٣٣ - الْحَقُّ لَيْسَ بِمُحْجُوبٍ ، وَإِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ ؛
إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ .. لَسْتَرَهُ مَا حَجَبَهُ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَائِرٌ .. لَكَانَ لِيُجُودَهُ
حَاصِرٌ ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لَشَيْءٍ .. فَهُوَ لَهُ فَاهِرٌ ﴿ وَهُوَ الْفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ .

٣٤ - أُخْرِجَ عَنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ ، مِنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ ؛
لِتَكُونَ لِنِدَاءِ الْحَقِّ مُجِيبًا ، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيبًا .

٣٥ - أَضِلُّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ .. الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ ، وَأَضِلُّ
كُلَّ طَاعَةٍ وَعِيفَةٍ وَيَقْطَعِيَّةٍ .. عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا ، وَلِأَنَّ تَضَحُّبَ جَاهِلًا
لَا يَرْضَى عَنِ نَفْسِهِ .. خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَضَحَّبَ عَالِمًا يَرْضَى عَنِ نَفْسِهِ ؛
فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَى عَنِ نَفْسِهِ ١؟ وَأَيُّ جَهْلٍ لِيَجَاهِلٍ لَا يَرْضَى عَنِ
نَفْسِهِ ١؟

٣٦ - شِعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ ، وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ
عَدَمَكَ لِيُجُودِهِ ، وَحَقُّ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وَجُودَهُ ؛ لَا عَدَمَكَ وَلَا وَجُودَكَ .

٣٧ - كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَيَّ مَا عَلَيْهِ كَانَ .

٣٨ - لَا تَتَعَدَّيْنِ هِمَّتُكَ إِلَى غَيْرِهِ ؛ فَالْكَرِيمُ لَا تَتَخَطَّأُ الْأَمَالَ .

٣٩ - لَا تَرْفَعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ
مَا كَانَ هُوَ لَهُ وَاضِعًا ١؟ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ عَنِ نَفْسِهِ ..
فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعًا ١؟

٤٠ - إِنْ لَمْ تُحَسِّنْ ظَنَّنَكَ بِهِ لِأَجْلِ وَضِيعِهِ .. حَسِنَ ظَنَّنَكَ بِهِ لِأَجْلِ
مُعَامَلَتِهِ مَعَكَ ؛ فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلَّا حَسَنًا ١؟ وَهَلْ أَسَدَى إِلَيْكَ إِلَّا مَنًّا ١؟

٤١ - الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ بِمَنْ يَهْرُبُ مِمَّا لَا أَنْفِكَأَكُ لَهُ عَنْهُ ،

وَيَطْلُبُ مَا لَا بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

٤٢ - لَا تَرَحَّلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ ؛ فَتَكُونُ كَحِمَارِ الرَّحَى بَسِيرٌ ، وَالَّذِي ارْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي ارْتَحَلَ مِنْهُ ، وَلَكِنْ ارْتَحَلَ مِنَ الْأَكْوَانِ إِلَى الْمَكُونِ ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَيْكَ الْمَسْتَهَلُّ ﴾ ، فَأَنْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ . . فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوُّجُهَا . . فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » ، وَتَأْمَلْ هَذَا الْأَمْرَ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ ، وَالسَّلَامُ .

٤٣ - لَا تَضْحَبْ مَنْ لَا يَنْهَضُكَ حَالُهُ ، وَلَا يَتَذَلُّكَ عَلَى اللَّهِ مَقَالُهُ .

٤٤ - رَبِّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فَأَرَاكَ الْإِحْسَانَ مِنْكَ صُخْبَتُكَ إِلَيَّ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْكَ .

٤٥ - مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبِ زَاهِدٍ ، وَلَا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبِ رَاضٍ .

٤٦ - حُسْنُ الْأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الْأَحْوَالِ ، وَحُسْنُ الْأَحْوَالِ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ الْإِنزَالِ .

٤٧ - لَا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللَّهِ فِيهِ ؛ لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ ، فَعَسَى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَيَّ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ إِلَيَّ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَيَّ ذِكْرٍ مَعَ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى الْمَذْكُورِ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ .

٤٨ - مِنْ عَلَامَاتِ سَوْتِ الْقَلْبِ : عَدَمُ الْحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْ
الْمُوَافَقَاتِ ، وَتَرْكُ النَّدَمِ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ .

٤٩ - لَا يَعْظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ
تَعَالَى ؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ . . اسْتَضْفَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ .

٥٠ - لَا صَغِيرَةَ إِذَا قَابَلَكَ عَدُوُّهُ ، وَلَا كَبِيرَةَ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ .

٥١ - لَا عَمَلٌ أَرْجَى لِلْقُلُوبِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ ، وَيُخْتَفِرُ
عِنْدَكَ وُجُودُهُ .

٥٢ - إِنَّمَا أُوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدُ ؛ لِتَكُونَ عَلَيْهِ بِهِ وَارِدًا .

٥٣ - أُوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدُ ؛ لِتَسْتَلِمَكَ مِنْ يَدِ الْأَغْيَارِ ، وَيَحْرَزَكَ مِنْ رِقِ
الْأَنْارِ .

٥٤ - أُوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدُ ؛ لِتُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ ، إِلَى فِضَاءِ
شُهُودِكَ .

٥٥ - الْأَنْوَارُ : مَطَايَا الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ .

٥٦ - النُّورُ جُنْدُ الْقَلْبِ ، كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ ؛ فَإِذَا
أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ . . أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الْأَنْوَارِ ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ الظُّلْمِ
وَالْأَغْيَارِ .

٥٧ - النُّورُ لَهُ الْكَشْفُ ، وَالبَصِيرَةُ لَهَا الْحُكْمُ ، وَالْقَلْبُ لَهُ الْإِقْبَالُ
وَالْإِدْبَارُ .

٥٨ - لَا تُفْرِخْكَ الطَّاعَةُ ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْكَ ، وَأَفْرَخَ بِهَا ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ

مِنْ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْكَ : ﴿ قُلْ يَفْضِلِ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

٥٩ - قَطَعَ السَّائِرِينَ إِلَيْهِ وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ ؛ أَمَّا السَّائِرُونَ . . فَلِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا ، وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ . . فَلِأَنَّهُ غَيَّبَهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا .

٦٠ - مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلِّ . . إِلَّا عَنِ بَذْرِ طَمَعٍ .

٦١ - مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلَ الْوَهْمِ .

٦٢ - أَنْتَ حُرٌّ عَمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيسٌ ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ .

٦٣ - مَنْ لَمْ يُقْبَلْ إِلَى اللَّهِ بِمَلَاطِفَاتِ الْإِحْسَانِ . . قَبِدَ إِلَيْهِ بِسَلْسِلِ الْأَمْتِحَانِ .

٦٤ - مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ . . فَقَدْ تَعَرَّضَ لِرِوَالِهَا ، وَمَنْ شَكَرَهَا . . فَقَدْ قَبِدَهَا بِعِقَالِهَا .

٦٥ - خَفَ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ ، وَدَوَّامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ . . أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِذْرَاجًا : ﴿ سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

٦٦ - مِنْ جَهْلِ الْمُرِيدِ : أَنْ يُسِيءَ الْأَدَبَ ، فَتُوَخَّرَ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ ، فَيَقُولَ : لَوْ كَانَ هَذَا سُوءَ آدَبٍ . . لَقَطَعَ الْإِمْدَادَ ، وَأَوْجَبَ الْبِعَادَةَ ؛ فَقَدْ بُقِطِعَ الْمَدَدُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنَعُ الْمُرِيدِ ، وَقَدْ يَقْرَمُ مَقَامَ الْبُعْدِ مِنْ حَيْثُ لَا يَذَرِي ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يُخْلِيكَ وَمَا تُرِيدُ .

٦٧ - إِذَا رَأَيْتَ عَبْدًا أَقَامَهُ اللَّهُ بِوُجُودِ الْأَوْلَادِ ، وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ

طُولِ الْإِمْدَادِ .. فَلَا تَسْتَحْقِرْنَ مَا مَنَحَهُ مَوْلَاهُ ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا
الْعَارِفِينَ ، وَلَا بَهْجَةَ الْمُجِيبِينَ ؛ فَلَوْلَا وَارِدٌ .. مَا كَانَ وَرْدٌ .

٦٨ - قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْحَقُّ لِيُخْدَمَتِهِ ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ؛
﴿ كَلَّا نُمِدُّ هُنُوْلَهُ وَهُنُوْلَهُ مِنْ عَطَلَةٍ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَلَةَ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ .

٦٩ - قَلَّمَا تَكُونُ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا بِنِعْتِهِ ؛ صِيَانَةٌ لَهَا أَنْ يَدْعِيَهَا
الْعِبَادُ بِوُجُودِ الْأَسْتِعْدَادِ .

٧٠ - مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيبًا عَنْ كُلِّ مَا يُسْأَلُ ، وَمُعْتَبِرًا عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ ،
وَدَاكِرًا كُلَّ مَا عَلِمَ .. فَاسْتَدِلْ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ جَهْلِهِ .

٧١ - إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الْأَخْرَجَةَ مَحَلًّا لِحِزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لِأَنَّ هَلِكُوهُ
الدَّارَ لَا تَسْعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ ، وَلِأَنَّهُ أَجَلَ أَقْدَارِهِمْ عَنْ أَنْ يُجَارِيَهُمْ
فِي دَارٍ لَا بَقَاءَ لَهَا .

٧٢ - مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلًا .. فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْقَبُولِ
أَجَلًا .

٧٣ - إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ .. فَانظُرْ فِي مَاذَا يُعِيْمُكَ .

٧٤ - مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ وَالْعِنَى بِهِ عَنْهَا .. فَأَعْلَمْ : أَنَّهُ أَسْبَغَ عَلَيْكَ
نِعْمَةً ظَاهِرًا وَبَاطِنًا .

٧٥ - خَيْرٌ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ .. مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ .

٧٦ - الْخُزْنُ عَلَى فُقْدَانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ النُّهُوضِ إِلَيْهَا .. مِنْ عِلَامَةِ
الْأَغْتِرَارِ .

٧٧- لَيْسَ الْعَارِفُ : مَنْ إِذَا أَسَارَ . . وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِسَارَتِهِ ،
بَلِ الْعَارِفُ : مَنْ لَا إِشَارَةَ لَهُ ؛ لِفَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ ، وَأَنْطَوَائِهِ فِي شُهُودِهِ .

٧٨- الرَّجَاءُ : مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ ، وَإِلَّا . . فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ .

٧٩- مَطْلَبُ الْعَارِفِينَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى : الصِّدْقُ فِي الْعُبُودِيَّةِ ، وَالْفِيَامُ
بِحَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ .

٨٠- بَسَطَكَ ؛ كَيْ لَا يُبْفِيكَ مَعَ الْقَبْضِ ، وَقَبَضَكَ ؛ كَيْ لَا يَتْرُكَكَ مَعَ
الْبَسَطِ ، وَأَخْرَجَكَ عَنْهُمَا ؛ كَيْ لَا تَكُونَ لِشَيْءٍ دُونَهُ .

٨١- الْعَارِفُونَ إِذَا بَسِطُوا . . أَخَوْفَ مِنْهُمْ إِذَا قَبَضُوا ، وَلَا يَقِفُ عَلَى
حُدُودِ الْأَدَبِ فِي الْبَسَطِ إِلَّا قَلِيلٌ .

٨٢- الْبَسَطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ الْفَرَحِ ، وَالْقَبْضُ لَا حَظَّ
لِلنَّفْسِ فِيهِ .

٨٣- رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنْعَكَ ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ .

٨٤- مَتَى فَتَحَ لَكَ بَابَ الْفَهْمِ فِي الْمَنْعِ . . عَادَ الْمَنْعُ هُوَ عَيْنَ
الْعَطَاءِ .

٨٥- الْأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ ، وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ ؛ فَالْتَفَتْنَا نَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ
غِرَّتِهَا ، وَالْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا .

٨٦- إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لَا يَفْنَى . . فَلَا تَسْتَعِرْزَنْ بِعِزِّ يَفْنَى .

٨٧- الْطُّيُّ الْحَقِيقِيُّ : أَنْ تَطْوِي مَسَافَةَ الدُّنْيَا عَنْكَ ، حَتَّى تَرَى الْآخِرَةَ
أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْكَ .

٨٨ - أَلْعَطَاءُ مِنَ الْخَلْقِ جَزْمَانٌ ، وَالْمَنَعُ مِنَ اللَّهِ إِحْسَانٌ .

٨٩ - جَلَّ رَيْثُنَا أَنْ يُعَامِلَهُ الْعَبْدُ نَفْدًا ، فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً .

٩٠ - كَفَى مِنْ جَزَائِهِ إِثَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيكَ لَهَا أَهْلًا .

٩١ - كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءَ مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ ، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤَانَسَتِهِ .

٩٢ - مَنْ عَبَدَهُ لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ ، أَوْ لِيُدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وَرُودَ الْعُقُوبَةِ عَنْهُ . . فَمَا قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِهِ .

٩٣ - مَتَى أَخْطَاكَ . . أَشْهَدَكَ بِرَّهُ ، وَمَتَى مَنَعَكَ . . أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ ؛ فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُتَمَرِّفٌ إِلَيْكَ ، وَمُقِيلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ .

٩٤ - إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ الْمَنَعُ ؛ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللَّهِ فِيهِ .

٩٥ - زُبْمًا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الْقَبُولِ ، وَقَضَى عَلَيْكَ بِالذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبَ الْوُضُولِ .

٩٦ - مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ دُلًّا وَانْتِقَارًا . . خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا .

٩٧ - نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا ، وَلَا بُدُّ لِكُلِّ مُكْرَمٍ مِنْهُمَا : نِعْمَةُ الْإِبْجَادِ ، وَنِعْمَةُ الْإِمْدَادِ .

٩٨ - أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوْلًا بِالْإِبْجَادِ ، وَثَانِيًا بِتَوَالِي الْإِمْدَادِ .

٩٩ - فَاقْتَكِ لَهُ ذَاتِيَّةً ، وَوَرُودَ الْأَسْبَابِ مُذَكِّرَاتٍ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا ؛ وَالْفَاقَةَ الذَّاتِيَّةُ لَا تَدْفَعُهَا الْعَوَارِضُ .

١٠٠ - خَيْرَ أَوْقَاتِكَ وَفَتْ تَشْهَدُ فِيهِ وَجُودَ فَاقَتِكَ ، وَتُرَدُّ فِيهِ إِلَى
وُجُودِ ذَلَّتِكَ .

١٠١ - مَتَى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ . . فَأَعْلَمَ : أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ
الْأَنْسِ بِهِ .

١٠٢ - مَتَى أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِالطَّلَبِ . . فَأَعْلَمَ : أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيكَ .

١٠٣ - الْعَارِفُ : لَا يَزُولُ أَضْطِرَّارُهُ ، وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى
فَرَاةً .

١٠٤ - أُنَارَ الظُّلُومِ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ ، وَأُنَارَ السَّرَائِرِ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ ، أَقَلَّتِ
الْأَنْوَارُ الظَّاهِرَةَ ، وَلَمْ تَأْكُلِ الْأَنْوَارُ السِّرِّيَّةَ .

طَلَعَتْ شَمْسٌ مِّنْ أَحِبِّ بَلَدٍ فَاِسْتَضَاءَتْ فَمَا لَهَا مِنْ غُرُوبٍ
إِنْ شَمْسُ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ - لِي وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَ تَعِيبُ
١٠٥ - لِيُخَفِّقَنَّ أَلَمَ الْبَلَاءِ عَنْكَ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَبَلِّغُ لَكَ ؛
فَالَّذِي وَاجَهْتِكَ مِنْهُ الْأَقْدَارُ . . هُوَ الَّذِي عَوَّدَكَ حُسْنَ الْإِخْتِيَارِ .

١٠٦ - مَنْ ظَنَّ أَنْفِكَ كَأَنَّ لُطْفَهُ عَن قَدْرِهِ . . فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ .

١٠٧ - لَا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطَّرْفُ عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ
مِنْ غَلْبَةِ الْهَوَىٰ عَلَيْكَ .

١٠٨ - سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ
الرُّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ .

١٠٩ - لَا تَطَّالِبِ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ ، وَلَكِنْ طَالِبِ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ
أَدَبِكَ .

١١٠ - مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَلِئًا لِأَمْرِهِ ، وَرَزَقَكَ فِي الْبَاطِنِ
الْأَسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ . فَقَدْ أَعْظَمَ الْمِنَّةَ عَلَيْكَ .

١١١ - لَيْسَ مَنْ ثَبَّتَ تَخْصِيصُهُ كَمَلَّ تَخْلِيصُهُ .

١١٢ - لَا يَسْتَحْقِرُ الْوَرْدَ إِلَّا جَهُولٌ ؛ الْوَارِدُ : يُوْجَدُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ،
وَالْوَرْدُ : يَنْطَرِي بِأَنْطَوَاءِ هَذِهِ الدَّارِ ، وَأَوْلَى مَا يُعْتَنَى بِهِ : مَا لَا يُخْلَفُ
عَنكَ وَجُودُهُ ، الْوَرْدُ : هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ ، وَالْوَارِدُ : أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ ، وَأَبْنِ مَا
هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مُطَلَّبُكَ مِنْهُ ١٩

١١٣ - وُورِدُ الْأَمْدَادِ عَلَى حَسَبِ الْأَسْتِعْدَادِ ، سُورِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى
حَسَبِ صَفَاءِ الْأَسْرَارِ .

١١٤ - الْغَافِلُ إِذَا أَصْبَحَ .. نَظَرَ فِي مَادَا يَفْعَلُ ، وَالْعَاقِلُ إِذَا أَصْبَحَ ..
نَظَرَ مَادَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِ .

١١٥ - إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعِبَادُ وَالرُّهَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لِغَيْبِهِمْ عَنِ اللَّهِ
فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ .. لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ .

١١٦ - أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّظَرِ فِي مَكْرَنَاتِهِ ، وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِي
تِلْكَ الدَّارِ عَن كَمَالِ دَاتِهِ .

١١٧ - عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لَا تَصْبِرُ عَنْهُ ، فَأَشْهَدَكَ بِمَا بَرَزَ مِنْهُ .

١١٨ - لَمَّا عَلِمَ الْحَقُّ مِنْكَ وَجُودَ الْمَلَلِ .. لَوَّنَ لَكَ الطَّعَامَاتِ ، وَعَلِمَ
مَا فِيكَ مِنْ وَجُودِ الشَّرِّ فَحَجَرَهَا عَلَيْكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ؛ لِيَكُونَ
هَمُّكَ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ لَا وَجُودَ الصَّلَاةِ ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٍ .

١١٩ - الصَّلَاةُ : طَهْرَةُ الْقُلُوبِ ، وَاسْتِفْتَاخُ لِيَابِ الْغُيُوبِ ، الصَّلَاةُ :

مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ ، وَمَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ ، تَسْبَعُ فِيهَا مَيَادِينُ الْأَسْرَارِ ، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الْأَنْوَارِ ، عَلِمَ مِنْكَ الضَّغْفَ فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا ، وَعَلِمَ أَحْتِيَاجَكَ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا .

١٢٠ - مَتَى طَلَبْتَ عِوَضاً عَلَى عَمَلٍ . . طَوَّلْتَ بِوُجُودِ الصِّدْقِ فِيهِ ، وَيَكْفِي الْمُرِيدَ وَجْدَانَ السَّلَامَةِ .

١٢١ - لَا تَطْلُبْ عِوَضاً عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلاً ؛ فَكَمَى مِنَ الْجَزَاءِ لَكَ عَلَى الْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلاً .

١٢٢ - إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظَهَرَ فَضْلُهُ عَلَيْكَ . . خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ .

١٢٣ - لَا نِهَابَةَ لِمَدَامِكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ ، وَلَا تَفْرُغُ مَدَائِحِكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ .

١٢٤ - كُنْ بِأَوْصَافِ رَبُّوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقاً ، وَبِأَوْصَافِ عُبودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقاً .

١٢٥ - مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِي مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا هُوَ لِلْمَخْلُوقِينَ ، أَفِيْبِحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِي وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟

١٢٦ - كَيْفَ تُخْرِقُ لَكَ الْعَوَائِدُ ؛ وَأَنْتَ لَمْ تُخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ الْعَوَائِدَ ؟

١٢٧ - مَا الشَّأْنُ وَجُودِ الطَّلِبِ ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُزْرَقَ حُسْنَ الْأَدَبِ .

١٢٨ - مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْأَضْطِرَارِ ، وَلَا أَسْرَعَ بِالْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ الذَّلَّةِ وَالْإِفْتِقَارِ .

١٢٩ - لَوْ أَنْتَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ مَخْوِ دَعَاوَيْكَ ، وَفَنَاءِ مَسَاوِيكَ . . لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَدًا ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ . . غَطَّى وَصَفَكَ

بِوَضِيهِ ، وَعَطَى نِعْمَتَكَ بِنِعْيِهِ ، فَوَصَّلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ ، لَا بِمَا مِنْكَ
إِلَيْهِ .

١٣٠ - لَوْلَا جَمِيلُ سِتْرِهِ .. لَمْ يَكُنْ عَمَلُكَ أَهْلًا لِلْقَبُولِ .

١٣١ - أَنْتَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ .. أَخْوَجُ مِنْكَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ .

١٣٢ - السُّتْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ : سِتْرٌ عَنِ الْمَغْصَبَةِ ، وَسِتْرٌ فِيهَا ؛ فَالْعَامَّةُ
يَطْلُبُونَ السُّتْرَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرَاتِبِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ ،
وَالْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ السُّتْرَ مِنْ اللَّهِ عَنْهَا ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ الْمَلِكِ
الْحَقِّ .

١٣٣ - مَنْ أَكْرَمَكَ .. فَإِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سِتْرِهِ ؛ فَالْحَمْدُ لِمَنْ
سَتَرَكَ ، لَيْسَ الْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ .

١٣٤ - مَا صَحَبَكَ إِلَّا مَنْ صَحَبَكَ وَهُوَ بِعَيْنِكَ عَلِيمٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا
مَوْلَاكَ الْكَرِيمُ .

خَيْرٌ مَنْ تَصَحَّبَ : مَنْ يَطْلُبُكَ لَكَ لَا لِسُنِيِّهِ مِنْكَ يَعُودُ عَلَيْهِ .

١٣٥ - لَوْ أَشْرَقَ نُورُ الْيَقِينِ .. لَرَأَيْتَ الْأَخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرَحَّلَ
إِلَيْهَا ، وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ الدُّنْيَا قَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةَ الْفَنَاءِ عَلَيْهَا .

١٣٦ - مَا حَبَبَكَ عَنِ اللَّهِ وَجُودٌ مُوجُودٌ مَعَهُ ؛ إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ ،
وَلَكِنْ حَبَبَكَ عَنْهُ وَهُمْ وَجُودٌ شَيْءٍ مَعَهُ .

١٣٧ - لَوْلَا ظُهُورُهُ فِي الْمَكُونَاتِ .. مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وَجُودٌ بِإِبْصَارٍ ؛ لَوْ
ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ .. أَضْمَحَلَّتْ مُكُونَاتُهُ .

١٣٨ - أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؛ لِأَنَّهُ الْبَاطِنُ ، وَطَوَى وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لِأَنَّهُ الظَّاهِرُ .

١٣٩ - أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمَكُونَاتِ ، وَمَا أُدْرِنَ لَكَ أَنْ تَعْتَفَ مَعَ ذَوَاتِ الْمَكُونَاتِ : ﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ فَتَحَ لَكَ بَابَ الْإِنْفِهَامِ ، وَلَمْ يَقُلْ : أَنْظُرُوا السَّمَاوَاتِ ؛ لِئَلَّا يَبْدُلَكَ عَلَى وُجُودِ الْأَجْرَامِ .

١٤٠ - الْأَكْوَانُ قَائِمَةٌ بِإِنْبَاتِهِ ، وَمَمْحُودَةٌ بِأَحْدِيثِهِ ذَاتِهِ .

١٤١ - النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ ؛ بِمَا يَظُنُّونَ فِيكَ ، فَكُنْ أَنْتَ دَائِمًا لِتَفْسِيكَ ؛ بِمَا تَعَلَّمَهُ مِنْهَا .

١٤٢ - الْمُؤْمِنُ إِذَا مَدَحَ .. اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُثَنِّي عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لَا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ .

١٤٣ - أَجْهَلُ النَّاسِ : مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِيُظَنَّ مَا عِنْدَ النَّاسِ .

١٤٤ - إِذَا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلِ .. فَاتَّخِذْ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ .

١٤٥ - الرَّهَادُ : إِذَا مَدَحُوا .. انْقَبَضُوا ؛ لِشُحُودِهِمُ الثَّنَاءَ مِنَ الْخَلْقِ ، وَالْعَارِفُونَ : إِذَا مَدَحُوا .. انْبَسَطُوا ؛ لِشُحُودِهِمُ ذَلِكَ مِنَ الْمَلِكِ الْحَقِ .

١٤٦ - مَتَى كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسْطَكَ الْعَطَاءُ ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ الْمَنعُ .. فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى طُفُولِيَّتِكَ ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ .

١٤٧ - إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ .. فَلَا يَكُنْ سَبَبَ بَأْسِكَ مِنْ حُصُولِ الْإِسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ ؛ فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِرَ عَلَيْكَ .

١٤٨ - إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الرَّجَاءِ .. فَاشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ ،
وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الْخَوْفِ .. فَاشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ .

١٤٩ - رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ الْقَبْرِ مَا لَمْ تَشْهَدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ
النَّبْطِ : ﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لِكُرْسِيِّكَ ﴾ .

١٥٠ - مَطَالِعُ الْأَنْوَارِ .. الْقُلُوبُ وَالْأَسْرَارُ .

١٥١ - نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي الْقُلُوبِ ، مُمِدَّةُ النُّورِ الْوَارِدُ مِنْ خَزَائِنِ الْغُيُوبِ .

١٥٢ - نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَن آثَارِهِ ، وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَن أَوْصَافِهِ .

١٥٣ - رُبَّمَا وَقَفَتِ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَنْوَارِ ؛ كَمَا حُجِبَتِ النَّفُوسُ بِكَثَائِفِ

الْأَغْيَارِ .

١٥٤ - سَتَرَ أَنْوَارَ السَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ الظُّوَاهِرِ ؛ إِجْلَالًا لَهَا أَنْ تُبْتَدَلَ
بِالْإِظْهَارِ ، أَوْ يُتَادَى عَلَيْهَا بِلِسَانِ الْإِسْتِهَارِ .

١٥٥ - سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ
عَلَيْهِ !! وَلَمْ يُوَصِّلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَيْهِ !!

١٥٦ - رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَى أَسْرَارِ مَلَكُوتِهِ ، وَحَجَبَ عَنْكَ الْإِسْتِشْرَافَ
عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ .

١٥٧ - مَنْ أَطْلَعَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ ، وَلَمْ يَتَخَلَّنْ بِالرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ ..
كَانَ أَطْلَاعُهُ فِتْنَةً عَلَيْهِ ، وَسَبَبًا لِحَزْرِ الْوَبَالِ عَلَيْهِ .

١٥٨ - حَظُّ النَّفْسِ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ ، وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ
خَفِيٌّ ؛ وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صَعْبٌ عِلاجُهُ .

١٥٩ - رُبَّمَا دَخَلَ الرِّبَاءُ عَلَيْكَ ، مِنْ حَيْثُ لَا يَنْظُرُ الْخَلْقُ إِلَيْكَ .

١٦٠ - اسْتَشْرَفَاكَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ . دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبودِيَّتِكَ .

١٦١ - عَتَبَ نَظَرَ الْخَلْقِ إِلَيْكَ ، يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَغَبَ عَنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ ، بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ إِلَيْكَ .

١٦٢ - مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ . . شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ فَنِيَ بِهِ . . غَابَ بِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ أَحَبَّهُ . . لَمْ يُؤَيِّرْ عَلَيْهِ شَيْئًا .

١٦٣ - إِنَّمَا حَجَبَ الْحَقُّ عَنْكَ . . شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ .

١٦٤ - إِنَّمَا اخْتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ ، وَخَفِيَ عَنِ الْأَبْصَارِ لِعِظَمِ نُورِهِ .

١٦٥ - لَا يَكُنْ طَلَبُكَ سَبَبًا إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ ؛ فَيَقْبَلُ فَهْمُكَ عَنْهُ ، وَلِيَكُنْ طَلَبُكَ لِإِظْهَارِ الْعُبودِيَّةِ ، وَقِيَامًا بِحَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ .

١٦٦ - كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ الْأَلْحَقُّ سَبَبًا فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ ؟!

١٦٧ - جَلَّ حُكْمُ الْأَرْزَلِ . . أَنْ يَنْضَافَ إِلَى الْعَلِيلِ .

١٦٨ - عِنَابَتُهُ فِيكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ ؛ وَأَيْنَ كُنْتَ جِيسَ وَاجْهَتِكَ عِنَابَتُهُ ، وَقَابِلَتِكَ رِعَابَتُهُ ؟! لَمْ يَكُنْ فِي أَرْزَلِهِ إِخْلَاصُ أَعْمَالٍ ، وَلَا وُجُودُ أَحْوَالٍ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَحْضُ الْإِفْضَالِ ، وَعَظِيمُ التَّوَالٍ .

١٦٩ - عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَ يَنْشَوُّونَ إِلَى سِرِّ الْعِبَابَةِ ، فَقَالَ : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ . . لَتَرَكُوا الْعَمَلَ ؛ اعْتِمَادًا عَلَى الْأَرْزَلِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

١٧٠ - إِلَى الْمَشِيئَةِ يَسْتَعِينُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلَا تَسْتَعِينُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ .

١٧١ - رُبَّمَا ذَلَّهْمُ الْأَدَبِ عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ ؛ اِعْتِمَادًا عَلَى قِسْمَتِهِ ،
وَأَشْتِعَالًا بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ .

١٧٢ - إِنَّمَا يُدَكَّرُ مَنْ يَجُورُ عَلَيْهِ الْأَغْفَالُ ، وَإِنَّمَا يُنْبَهُ مَنْ يُمَكِّنُ مِنْهُ
الْإِهْمَالُ .

١٧٣ - وُرُودُ الْفَاقَاتِ .. أَغْيَادُ الْمُرِيدِينَ .

١٧٤ - رُبَّمَا وَجَدَ الْمُرِيدُ فِي الْفَاقَاتِ ، مَا لَا يَجِدُهُ فِي الصَّوْمِ
وَالصَّلَوَاتِ .

١٧٥ - الْفَاقَةُ : بُسْطُ الْمَوَاهِبِ .

١٧٦ - إِنْ أَرَدْتَ وُرُودَ الْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ .. صَحِّحِ الْفَقْرَ وَالْفَاقَةَ لَدَيْكَ ؛
﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ .

١٧٧ - تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ .. يُمِدُّكَ بِأَوْصَافِهِ ، تَحَقَّقْ بِذَلِكَ .. يُمِدُّكَ
بِعِزَّتِهِ ، تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ .. يُمِدُّكَ بِقُدْرَتِهِ ، تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ .. يُمِدُّكَ بِحَوْلِهِ
وَقُوَّتِهِ .

١٧٨ - رُبَّمَا رَزَقَ الْكَرَامَةَ .. مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الْأَسْتِقَامَةَ .

١٧٩ - مِنْ عَلَامَةِ إِقَامَةِ الْحَقِّ لَكَ فِي الشَّيْءِ .. إِدَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ
حُصُولِ النَّتَائِجِ .

١٨٠ - مَنْ عَبَّرَ مِنْ بَسَاطِ إِحْسَانِهِ .. أَصَمَّتْهُ الْإِسَاءَةُ مَعَ رَبِّهِ ، وَمَنْ
عَبَّرَ مِنْ بَسَاطِ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ .. لَمْ يَضُمَّتْ إِذَا أَسَاءَ .

١٨١ - تَسْبِقُ أَنْوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ ؛ فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ .. وَصَلَ
التَّعْبِيرُ .

١٨٢ - كُلُّ كَلَامٍ يَبْرُزُ ، وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ الَّذِي مِنْهُ بَرَزَ .

١٨٣ - مَنْ أَدَانَ لَهُ فِي التَّعْبِيرِ .. فَهَمَّتْ فِي مَسَامِعِ الْخَلْقِ عِبَارَتُهُ ،
وَجَلِيَتْ إِلَيْهِمْ إِشَارَتُهُ .

١٨٤ - رُبَّمَا بَرَزَتْ الْحَقَائِقُ مَكْشُوفَةً الْأَنْوَارِ ، إِذَا لَمْ يُوَدَّنْ لَكَ فِيهَا
بِالْإِظْهَارِ .

١٨٥ - عِبَارَتُهُمْ : إِذَا لَيْفِضَانَ وَجِدَ ، أَوْ لِفَضِدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ ؛ فَالْأَوَّلُ :
حَالُ السَّالِكِينَ ، وَالثَّانِي : حَالُ أَرْبَابِ الْمَكْنَةِ وَالْمُتَحَقِّقِينَ .

١٨٦ - الْعِبَارَةُ : قُوَّةُ الْعَائِلَةِ الْمُسْتَمِعِينَ ، وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ
أَكِيلٌ .

١٨٧ - رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَقَامِ مَنْ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ
وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ مُلْتَبَسٌ إِلَّا عَلَى صَاحِبِ بَصِيرَةٍ .

١٨٨ - لَا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعَبِّرَ عَن وَارِدَاتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَلُ
عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ ، وَيَمْنَعُهُ وُجُودَ الصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ .

١٨٩ - لَا تَمُدَّنْ يَدَكَ إِلَى الْأَخْذِ مِنَ الْخَلْقِ .. إِلَّا أَنْ تَرَى الْمُعْطِيَّ
فِيهِمْ مَوْلَاكَ ؛ فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ .. فَخُذْ مَا وَافَقَ الْعِلْمَ .

١٩٠ - رُبَّمَا اسْتَحْيَا الْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ أَكْبَهَاءَ بِمَشِيئَتِهِ ؛

فَكَيْفَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى خَلِيقَتِهِ ١٩

١٩١ - إِذَا التَّبَسَّ عَلَيَّكَ أَمْرَانِ . . فَاَنْظُرْ أَثْقَلَهُمَا عَلَى النَّفْسِ فَاتَّبِعْهُ ؛
فِيَّائِهِ لَا يَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا كَانَ حَقًّا .

١٩٢ - مِنْ عَلَامَةِ اتِّسَاعِ الْهَوَى : الْمُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ ،
وَالْتَكَاثُلُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ .

١٩٣ - قَيْدُ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ ؛ كَيْ لَا يَمْنَعَكَ عَنْهَا وُجُودُ
التَّسْوِيفِ ، وَوَسَّعَ لَكَ الْوَقْتَ ؛ كَيْ يُبْقِيَ لَكَ حِصَّةً فِي الْإِخْتِيَارِ .

١٩٤ - عِلْمٌ قَلِيلٌ نُهْرَضِ الْعِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ
طَاعَتِهِ ، فَسَأَلَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلْسِلِ الْإِيجَابِ « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ
إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلْسِلِ » .

١٩٥ - أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ خِدْمَتِهِ ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلَّا دُخُولَ
جَنَّتِهِ .

١٩٦ - مَنْ اسْتَعْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللَّهُ مِنْ شَهْوَتِهِ ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ
وُجُودِ غَفْلَتِهِ . . فَقَدْ اسْتَعَجَرَ الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا ﴾ .

١٩٧ - رُبَّمَا وَرَدَتْ الظُّلْمُ عَلَيْكَ ؛ لِيَعْرِفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ .

١٩٨ - مَنْ لَمْ يَعْرِفِ النِّعَمَ بِوُجْدَانِهَا . . عَرَفَهَا بِوُجُودِ فِقْدَانِهَا .

١٩٩ - لَا تُذْهِسْكَ وَارِدَاتُ النِّعَمِ عَنِ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ
مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ .

٢٠٠ - تَمَكُّنُ خَلَاوَةِ الْهَوَى مِنْ الْقَلْبِ . . هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ .

٢٠١ - لَا يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ الْقَلْبِ . . إِلَّا خَوْفٌ مُزْعِجٌ ، أَوْ سُوقٌ مُقْلِقٌ .

٢٠٢ - كَمَا لَا يُحِبُّ الْعَمَلُ الْمُشْتَرَكَ . . كَذَلِكَ لَا يُحِبُّ الْقَلْبُ الْمُشْتَرَكَ ؛ الْعَمَلُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُهُ ، وَالْقَلْبُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ .

٢٠٣ - أَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي الرُّضُوفِ ، وَأَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي الدُّخُولِ .

٢٠٤ - رَبُّمَا وَرَدَّتْ عَلَيْكَ الْأَنْوَارُ ، فَوَجَدْتَ الْقَلْبَ مَحْشُورًا بِصُورِ الْأَنْوَارِ ، فَأَزْتَحَلَّتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ .

٢٠٥ - فَتَرَى قَلْبَكَ مِنَ الْأَعْيَارِ . . يَنْسَلِهُ بِالْمَعَارِفِ وَالْأَسْوَارِ .

٢٠٦ - لَا تَسْتَبْطِئُ مِنْهُ النَّوَالُ ، وَلَنْ يَسْتَبْطِئُ مِنْ نَفْسِكَ الْإِقْبَالُ .

٢٠٧ - حُقُوقٌ فِي الْأَوْقَاتِ يُمَكِّنُ قَضَائُهَا ، وَحُقُوقٌ الْأَوْقَاتِ لَا يُمَكِّنُ قَضَائُهَا ؛ إِذْ مَا مِنْ وَفْتٍ يَرِدُ إِلَّا وَوَلَّهُ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ وَأَمْرٌ أَكِيدٌ ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ ، وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللَّهِ فِيهِ ؟!

٢٠٨ - مَا فَاتَ مِنْ عُمْرِكَ . . فَلَا عِوَضَ لَهُ ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ . . لَا قِيَمَةَ لَهُ .

٢٠٩ - مَا أَحْبَبْتَ شَيْئًا إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْدًا ؛ وَهُوَ لَا يَرْضَى أَنْ تَكُونَ لِعَبْدِهِ عَبْدًا .

٢١٠ - لَا تَنْفَعُ طَاعَتُكَ ، وَلَا تَضُرُّ مَعْصِيَتُكَ ، وَإِنَّمَا أَمْرَكَ بِهَلْدِهِ ، وَتَهَاكَ عَنْ هَلْدِهِ ؛ لِمَا يَعْمُدُ عَلَيْكَ .

٢١١ - لَا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ إِذْبَارُ مَنْ أذْبَرَ عَنْهُ .

٢١٢ - وَصَوْلُكَ إِلَيْهِ وَصَوْلُكَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ بِهِ ، وَإِلَّا .. فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ
يَتَّصِلَ بِهِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ .

٢١٣ - قُرْبُكَ مِنْهُ : هُوَ أَنْ تَكُونَ شَاهِدًا لِقُرْبِهِ ، وَإِلَّا .. فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ
وَوُجُودَ قُرْبِهِ ؟!

٢١٤ - الْحَقَائِقُ تَرُدُّ فِي حَالِ التَّجَلِّي مُجَمَّلَةً ، وَتَعْدُ الْوُجْهِ يَكُونُ
الْبَيَانُ : ﴿ إِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قَوْلَهُمْ ﴿١﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ .

٢١٥ - مَتَى وَرَدَتِ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ عَلَيْكَ .. هَدَمَتِ الْعَوَائِدُ عَلَيْكَ :
﴿ إِنَّ التَّلَوَّكَ إِذَا دَخَلُوا قَرِيَةً لَفَسَدُوا ﴾ .

٢١٦ - الْوَارِدَاتُ : تَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ ؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ لَا يُصَادِمُهُ شَيْءٌ
إِلَّا دَمَعَهُ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ .

٢١٧ - كَيْفَ يَخْتَجِبُ الْحَقُّ بِشَيْءٍ ، وَالَّذِي يَخْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ ،
وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ ؟!

٢١٨ - لَا تَبْتَئِنَنَّ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَمْ تَجِدْ فِيهِ وَجُودَ الْحُضُورِ ؛ فَرُبَّمَا
قَبِلَ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَمْ تُذَكِّرْ ثَمَرَتَهُ عَاجِلًا .

٢١٩ - لَا تُزَكِّينَنَّ وَارِدًا لَا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ ؛ فَالَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السَّحَابِ
الْأَمْطَارَ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهُ وَجُودَ النِّمَارِ .

٢٢٠ - لَا تَطْلُبِينَ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطْتَ أَنْوَارَهَا ، وَأَوْدَعْتَ
أَسْرَارَهَا ؛ فَلَنْ فِي اللَّهِ غِنًى عَنِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ .

٢٢١ - تَطَّلَعُكَ عَلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ .. دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَجْدَانِكَ لَهُ ،
أَسْتِحَاشُكَ بِفِقْدَانِ مَا سِوَاهُ .. دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَصَوْلِكَ بِهِ .

٢٢٢ - النَّعِيمُ وَإِنْ تَتَوَعَّتْ مَظَاهِرُهُ .. إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَأَفْتِرَابِهِ ،
وَالْعَذَابُ وَإِنْ تَتَوَعَّتْ مَظَاهِرُهُ .. إِنَّمَا هُوَ بِوُجُودِ حِجَابِهِ ؛ فَسَبِّبِ الْعَذَابَ :
وُجُودَ الْحِجَابِ ، وَإِنَّمَا النَّعِيمُ : بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ .

٢٢٣ - مَا تَجِدُهُ أَلْقُلُوبُ مِنَ الْهَمُومِ وَالْأَخْزَانِ .. فَلِأَجْلِ مَا مُنِعَتْ مِنْ
وُجُودِ الْعِيَانِ .

٢٢٤ - مِنْ تَمَامِ النِّعَمِ عَلَيْكَ : أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ ، وَتَمْنَعَكَ مَا
يُطْغِيكَ .

٢٢٥ - لَيَقِلُّ مَا تَفْرَحُ بِهِ .. يَقِلُّ مَا تَخْزَنُ عَلَيْهِ .

٢٢٦ - إِذَا أَرَدْتَ أَلَّا تُعْزَلَ .. فَلَا تَتَوَلَّ وِلَايَةَ لَا تَدُومُ لَكَ .

٢٢٧ - إِنْ رَهَبْتَكَ الْبِدَايَاتُ .. زَهَدْتِكَ الْنِهَائِيَّاتُ ، إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا
ظَاهِرٌ .. نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ .

٢٢٨ - إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلًّا لِلْأَغْيَارِ ، وَمَعْدِنًا لِيُوجِدَ الْأَخْذَارِ ؛ تَزْهِيدًا
لَكَ فِيهَا .

٢٢٩ - عَلِمَ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ النَّضْحَ الْمُجَرَّدَ ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَاقِهَا مَا
يُسَهِّلُ عَلَيْكَ وُجُودَ فِرَاقِهَا .

٢٣٠ - أَلْعِلْمُ النَّافِعُ : الَّذِي يَنْسَطُ فِي الصَّدْرِ شِعَاعَهُ ، وَيَكْشِفُ عَنِ
الْقَلْبِ قِتَاعَهُ .

٢٣١ - خَيْرُ الْعِلْمِ : مَا كَانَتْ الْحَشِيَّةُ مَعَهُ .

٢٣٢ - أَلْعِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ الْحَشِيَّةُ .. فَلَكَ ، وَإِلَّا .. فَعَلَيْكَ .

٢٣٣ - مَتَى أَلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ . .
فَارْجِعْ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ فِيكَ ؛ فَإِنْ كَانَ لَا يَنْفَعُكَ عِلْمُهُ . . فَمُصِيبَتُكَ لِعَدَمِ
فَنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الْأَدَى مِنْهُمْ .

٢٣٤ - إِنَّمَا أَجْرِي الْأَدَى عَلَى أَيْدِيهِمْ ؛ كَيْ لَا تَكُونَ سَائِئًا إِلَيْهِمْ ،
أَرَادَ أَنْ يُزِعْجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ حَتَّى لَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ .

٢٣٥ - إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْكَ . . فَلَا تَغْفُلُ أَنْتَ عَمَّنْ
نَاصِبَتِكَ بِيَدِهِ .

٢٣٦ - إِنَّمَا جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا ؛ لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ ، وَحَرَكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ ؛
لِيَتَدْرَمَ إِقْبَالَكَ عَلَيْهِ .

٢٣٧ - مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضِعًا . . فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا ؛ إِذْ لَيْسَ التَّوَاضِعُ
إِلَّا عَنْ رِفْعَةٍ ، فَمَتَى أَثْبَتَ لِنَفْسِكَ تَوَاضِعًا . . فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ .

٢٣٨ - لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ . . رَأَى نَفْسَهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ ،
وَلَكِنَّ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ . . رَأَى نَفْسَهُ دُونَ مَا صَنَعَ .

٢٣٩ - التَّوَاضِعُ الْحَقِيقِيُّ : هُوَ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ ،
وَتَحَلِّيِ صِفَتِهِ .

٢٤٠ - لَا يُخْرِجُكَ عَنِ الرِّضْفِ . . إِلَّا شُهُودُ الرِّضْفِ .

٢٤١ - الْمُؤْمِنُ : يَشْغَلُهُ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ
شَاكِرًا ، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللَّهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذَاكِرًا .

٢٤٢ - لَيْسَ الْمُحِبُّ الَّذِي يَزْجُو عَنْ مَحْبُوبِهِ عِوَضًا ، وَلَا مَنْ يَطْلُبُ
مِنْهُ عَرَضًا ؛ فَإِنَّ الْمُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ ، لَيْسَ الْمُحِبُّ مَنْ يَبْذُلُ لَهُ .

٢٤٣ - لَوْلَا مَيَادِينُ النَّفُوسِ .. مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ ؛ لَا مَسَافَةَ
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَطْوِيَهَا رِخْلَتَكَ ، وَلَا قُطْعَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَمُحُوَهَا
وُضْلَتَكَ .

٢٤٤ - جَعَلَكَ فِي الْعَالَمِ الْمُنْتَوَسِطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ ؛ لِئُعَلِّمَكَ
جَلَالَهَ قَدْرِكَ ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَضْدَافُ مَكُونَاتِهِ .

٢٤٥ - وَسِعَكَ الْكُونُ مِنْ حَيْثُ جُنْمَانِيَّتِكَ ، وَلَمْ يَسْعَكَ مِنْ حَيْثُ
رُوحَانِيَّتِكَ .

٢٤٦ - الْكَائِنُ فِي الْكَوْنِ وَلَمْ يَفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الْغُيُوبِ .. مَنْسُجُونَ
بِمُحِيطَاتِهِ ، وَمَحْضُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ .

٢٤٧ - أَنْتَ مَعَ الْأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدْ الْمَكُونِ ؛ فَإِذَا شَهِدْتَهُ .. كَانَتْ
الْأَكْوَانُ مَعَكَ .

٢٤٨ - لَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ ، عَدَمُ أَوْصَافِ الْبَشَرِيَّةِ ؛ إِنَّمَا
مَثَلُ الْخُصُوصِيَّةِ : كَاشْرَاقِ شَمْسِ النَّهَارِ ، ظَهَرَتْ فِي الْأَفْقِ وَلَيْسَتْ
مِنْهُ ؛ نَارَةُ تَشْرِيقِ شُمُوسِ أَوْصَافِهِ عَلَى لَيْلِ وُجُودِكَ ، وَنَارَةُ يُقْبَضُ
ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدُّكَ إِلَى حُدُودِكَ ؛ فَالْتِهَارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ ، وَلَكِنَّهُ وَارِدٌ
عَلَيْكَ .

٢٤٩ - دَلَّ بِوُجُودِ أَنَارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسْمَائِهِ ، وَبِوُجُودِ أَسْمَائِهِ عَلَى
ثُبُوتِ أَوْصَافِهِ ، وَبِثُبُوتِ أَوْصَافِهِ عَلَى وُجُودِ ذَاتِهِ ؛ إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ
الْوُصْفُ بِنَفْسِهِ ، فَارْتِبَابُ الْجَذْبِ : يَكْشِفُ لَهُمْ عَن كَمَالِ ذَاتِهِ ، ثُمَّ
يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ صِفَاتِهِ ، ثُمَّ يُرْجِعُهُمْ إِلَى التَّلَقُّ بِأَسْمَائِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ

إِلَى شُهُودِ آثَارِهِ ، وَالسَّالِكُونَ : عَلَى عَكْسِ هَذَا ؛ فَنَهَايَةُ السَّالِكِينَ بَدَايَةُ
الْمَجْدُوبِينَ ، وَبَدَايَةُ السَّالِكِينَ نَهَايَةُ الْمَجْدُوبِينَ ، لَكِنْ لَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ ؛
فَرُبَّمَا اتَّقَى فِي الطَّرِيقِ ، هَذَا فِي تَرْقِيهِ ، وَهَذَا فِي تَدْلِيهِ .

٢٥٠ - لَا يُعْرِفُ قَدْرَ أَنْوَارِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ إِلَّا فِي غَيْبِ الْمَلَكُوتِ ؛
كَمَا لَا تَظْهَرُ أَنْوَارُ السَّمَاءِ إِلَّا فِي شَهَادَةِ الْمَلِكِ .

٢٥١ - وَجِدَانٌ تَمَرَاتِ الْأَعْمَالِ عَاجِلًا . . . بِشَائِرِ الْعَامِلِينَ بِوَجْدَانِ
الْجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلًا .

٢٥٢ - كَيْفَ تَطْلُبُ الْعَمُوسَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَّصِدِقٌ بِهِ عَلَيْكَ ۱؟ أَمْ
كَيْفَ تَطْلُبُ الْجَزَاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ ۱؟

٢٥٣ - قَوْمٌ نَسِبُوا أَنْوَارَهُمْ أَذْكَارَهُمْ ، وَقَوْمٌ نَسِبُوا أَذْكَارَهُمْ أَنْوَارَهُمْ .

٢٥٤ - ذَاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَيِّرَ قَلْبُهُ ، وَذَاكِرٌ اسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِرًا .

٢٥٥ - مَا كَانَ ظَاهِرٌ ذِكْرٍ ، إِلَّا عَنِ بَاطِنِ شُهُودٍ وَفِكْرٍ .

٢٥٦ - أَشْهَدُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ اسْتَشْهَدَكَ ، فَتَطَقْتَ بِالْوَهْيِيِّهِ الطَّوَاهِرِ ،
وَتَحَقَّقْتَ بِأَحَدِيَّتِهِ الْقُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ .

٢٥٧ - أَمْحَرَمَكَ بِكَرَامَاتِ ثَلَاثٍ : جَعَلَكَ ذَاكِرًا لَهُ ، وَلَوْلَا فَضْلُهُ . .
لَمْ تَكُنْ أَهْلًا لِجَرِيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكَورًا بِهِ ؛ إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ
لَدَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكَورًا عِنْدَهُ ، فَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ .

٢٥٨ - رَبُّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ أَمَادُهُ ، وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ ، وَرَبُّ عُمْرٍ قَلِيلَةٌ
أَمَادُهُ ، كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ .

٢٥٩ - مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمُرِهِ .. أَذْرَكَ فِي بَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مَا لَا يَدْخُلُ
تَحْتَ دَوَائِرِ الْعِبَارَةِ ، وَلَا تَلْحَقُهُ الْإِشَارَةُ .

٢٦٠ - الْخِذْلَانُ كُلُّ الْخِذْلَانِ : أَنْ تَتَفَرَّغَ عَنِ الشُّوَاعِلِ ثُمَّ لَا تَتَوَجَّهَ
إِلَيْهِ ، وَتَقِلَّ عَوَائِقُكَ ثُمَّ لَا تَرْحَلْ إِلَيْهِ .

٢٦١ - الْفِكْرَةُ : هِيَ سَيْرُ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ الْأَغْيَارِ .

٢٦٢ - الْفِكْرَةُ : سِرَاجُ الْقَلْبِ ؛ فَإِذَا دَهَبَتْ .. فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ .

٢٦٣ - الْفِكْرَةُ فِكْرَتَانِ : فِكْرَةُ تَصْدِيقِ وَإِيمَانِ ، وَفِكْرَةُ شُهُودِ وَعِيَانِ ؛
فَالْأُولَى : لِأَرْيَابِ الْأَعْتِبَارِ ، وَالثَّانِيَةُ : لِأَرْيَابِ الشُّهُودِ وَالْأَسْتِنصَارِ .



المكاتب

وَمِمَّا كَتَبَ بِهِ لِيَغْضِ إِخْوَانِهِ بِقَوْلِهِ :

أما بعد :

فَإِنَّ الْبِدَايَاتِ مَجَلَّةُ النِّهَايَاتِ ، وَإِنَّ مَنْ كَانَتْ بِاللَّهِ بِدَايَتُهُ .. كَانَتْ
إِلَيْهِ نِهَائَتُهُ ، وَالْمُسْتَعِيلُ بِهِ : هُوَ الَّذِي أَحَبَّهُ وَسَارَعَ إِلَيْهِ ، وَالْمُسْتَعِيلُ عَنْهُ :
هُوَ الْمُؤْتَرُّ عَلَيْهِ .

وَإِنَّ مَنْ أَتَى أَنْ اللَّهُ يَطْلُبُهُ .. صَدَقَ الطَّلَبَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الْأُمُورَ
بِيَدِ اللَّهِ .. اجْتَمَعَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِسَاءِ هَذَا الوجودِ أَنْ تَنْهَيْدُمْ
دَعَائِمُهُ ، وَأَنْ تُسَلَبَ كَرَائِمُهُ .

فَالْعَاقِلُ : مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أَبْقَى ، أَفْرَحَ مِنْهُ بِمَا هُوَ يَغْنَى ؛ قَدْ أَسْرَقَ
نُورَهُ ، وَظَهَّرَتْ تَبَايُسِيرُهُ ، فَصَدَفَ عَنْ هَلِكِهِ الدَّارِ مُغْضِيًا ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا
مُؤَلِيًا ، فَلَمْ يَتَّخِذْهَا وَطْناً ، وَلَا جَعَلَهَا سَكْناً ، بَلْ أَنَهَضَ أَلْهَمَةً فِيهَا
إِلَى اللَّهِ ، وَصَارَ فِيهَا مُسْتَعِينًا بِهِ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهِ .

فَمَا زَالَتْ مَطِيَّةُ عَزْمِهِ لَا يَفْرُقُ قَرَارُهَا ، دَائِمًا تَسْبَارُهَا ، إِلَى أَنْ أَنَاخَتْ
بِحَضْرَةِ الْقُدْسِ ، وَبِسَاطِ الْأَنْسِ ، مَحَلِّ الْمَفَاتِحِ وَالْمُوَاجِهَةِ ، وَالْمُجَالَسَةِ
وَالْمُحَادَثَةِ ، وَالْمُشَاهَدَةِ وَالْمُطَالَعَةِ ، فَصَارَتْ الْحَضْرَةُ مُتَعَسِّنًا قُلُوبِهِمْ ؛
إِلَيْهَا يَأْوِنُونَ ، وَإِلَيْهَا يَسْكُنُونَ .

فَإِنْ تَرَلُّوا مِنْ سَمَاءِ الْحُقُوقِ وَأَرْضِ الْمُحْطُوطِ .. فَبِالْإِذْنِ وَالشُّمُوكِينَ ،

وَالرُّسُوحِ فِي الْبَقِيَّةِ ؛ فَلَمْ يَنْزِلُوا إِلَى الْحُقُوقِ بِسُوءِ الْأَدَبِ وَالْعَفْلَةِ ، وَلَا
إِلَى الْحُطُوطِ بِالسَّنْهَةِ وَالْمُنْتَعَةِ ، بَلْ دَخَلُوا فِي ذَلِكَ بِاللَّهِ وَاللَّهِ وَمِنَ اللَّهِ
وَاللَّهِ ، ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ لِيَكُونَ
نَظْرِي إِلَى حَوْلِكَ وَقَوْلِكَ إِذَا أَدْخَلْتَنِي ، وَأَسْتَسْلِمِي وَأَنْقِيَادِي إِلَيْكَ إِذَا
أَخْرَجْتَنِي ، ﴿ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ : يَنْصُرْنِي وَيَنْصُرْ بِي ، وَلَا
تَنْصُرْ عَلَيَّ ، يَنْصُرْنِي عَلَى شُهْرِدِ نَفْسِي ، وَيُنْفِيْنِي عَنْ دَائِرَةِ جَيْسِي .



[وَمِمَّا كَتَبَ إِلَىٰ بَعْضِ إِخْوَانِهِ]

إِنْ كَانَتْ عَيْنُ الْقَلْبِ تَنْظُرُ إِلَيَّ أَنْ اللَّهُ وَاحِدٌ فِي مَبْنِيِّهِ .. فَالْشَّرِيعَةُ
تَقْتَضِي أَنْ لَا بُدَّ مِنْ شُكْرِ خَلِيقَتِهِ .

وَإِنَّ النَّاسَ فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ :

غَافِلٌ مُنْهَمِكٌ فِي غَفْلَتِهِ ، قَوِيَتْ دَائِرَةُ حِسِّهِ ، وَأَنْطَمَسَتْ حَضْرَةُ
قُدْسِهِ ، فَتَنْظَرُ الْأَخْسَانَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ، وَلَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛
إِمَّا اعْتِقَادًا .. فَيُشْرِكُهُ جَلِيًّا ، وَإِمَّا إِسْنَادًا .. فَيُشْرِكُهُ خَفِيًّا .

وَصَاحِبٌ حَقِيقَةٌ غَابَ عَنِ الْخَلْقِ ، بِشُهُودِ الْمَلِكِ الْحَقِّ ، وَفَنِيَ عَنِ
الْأَسْبَابِ ، بِشُهُودِ مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ ؛ فَهَذَا عَبْدٌ مُوَاجِهٌ بِالْحَقِيقَةِ ، ظَاهِرٌ
عَلَيْهِ سَنَاهَا ، سَالِكٌ لِلطَّرِيقَةِ ، قَدْ اسْتَوَلَىٰ عَلَىٰ مَدَاهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ غَرِيبٌ
الْأَنْوَارِ ، وَمَطْمُوسُ الْأَقَارِ ، قَدْ غَلَبَ سُكْرُهُ عَلَىٰ صُحُوبِهِ ، وَجَمَعَهُ عَلَىٰ
فَرْقِهِ ، وَفَنَاؤُهُ عَلَىٰ بَقَائِهِ ، وَغَيْبَتْهُ عَلَىٰ حُضُورِهِ .

وَأَكْمَلُ مِنْهُ عِنْدَ شَرِبِ فَازِدَادِ صُحُوبِ ، وَغَابَ فَازِدَادِ حُضُورِ ؛ فَلَا
جَمْعُهُ بِخُجْبِهِ عَنِ فَرْقِهِ ، وَلَا فَرْقُهُ بِخُجْبِهِ عَنِ جَمْعِهِ ، وَلَا فَنَاؤُهُ بِضَرْفِهِ
عَنِ بَقَائِهِ ، وَلَا بَقَاؤُهُ بِضَرْفِهِ عَنِ فَنَائِهِ ، يُعْطِي كُلَّ ذِي قِسْطٍ قِسْطَهُ ،
وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ .

وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَمَّا
نَزَلَتْ بِرَأْيِهَا مِنَ الْإِفْكِ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا
عَائِشَةُ ؛ أَشْكُرِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ : وَاللَّهِ ؛ لَا
أَشْكُرُ إِلَّا اللَّهَ .

دَلَّهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمَقَامِ الْأَكْمَلِ ؛ مَقَامِ الْبَقَاءِ
الْمُقْتَضِي لِإثْبَاتِ الْأَثَارِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْ أَشْكُرَكَ وَلَا لِيكَ ﴾ ،
وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ : « لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ » .
فَكَانَتْ هِيَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُضْطَلِمَةً عَنْ شَاهِدِهَا ، غَائِبَةً عَنِ الْأَثَارِ ،
فَلَمْ تَشْهَدْ إِلَّا الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ .



[جواب المؤلف عن سؤال ورد إليه]

وَهَذَا سُؤَالٌ ، سَأَلَ الشَّيْخَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعْضُ الرِّجَالِ الْمُتَعَرِّضِينَ
لِنَفَحَاتِ الْوِصَالِ ، فَسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ، هَلْ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِ كَسَائِرِ مَا
أَخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْمَزَايَا وَالْفَضَائِلِ ، أَمْ لِغَيْرِهِ مِنْ تَابِعِينَ هَدَيْتُهُ نَصِيبٌ مِنْهُ ؛
كَمَا لَهُمْ فِي أَشْوَاجٍ مِنْ فَضَائِلِهِ ؟

فَأَجَابَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِمَا هُوَ الصَّوَابُ مِنْ رَاسِقِ الْجَوَابِ وَفَصِيحِ
الْخِطَابِ :

إِنَّ قُرَّةَ الْعَيْنِ بِالشُّهُودِ ، عَلَى قَدْرِ الْمَعْرِفَةِ بِالشُّهُودِ ؛ فَالرَّسُولُ
صَلَّواتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ مَعْرِفَةُ أَحَدٍ كَمَعْرِفَتِهِ ، فَلَيْسَ قُرَّةُ عَيْنِ
كَفَرَّتِهِ .

وَإِنَّمَا قُلْنَا : إِنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي صَلَاتِهِ ؛ لِشُّهُودِهِ جَلَالَ مَشْهُودِهِ ، لِأَنَّهُ
قَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « فِي الصَّلَاةِ » وَلَمْ يَقُلْ : بِالصَّلَاةِ ؛ إِذْ هُوَ
صَلَّواتُ اللهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ لَا تَقَرُّ عَيْنُهُ بِغَيْرِ رَبِّهِ ، فَكَيْفَ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى
هَذَا الْمَقَامِ وَيَأْمُرُ بِهِ مَنْ سِوَاهُ صَلَّواتُ اللهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ : « أَهْبِدِ اللهُ
كَأَنَّكَ تَرَاهُ » ، وَمَحَالٌ أَنْ تَرَاهُ وَتَشْهَدَ مَعَهُ سِوَاهُ !!

قَالَ لَهُ الْقَائِلُ : قَدْ تَكُونُ قُرَّةُ الْعَيْنِ بِالصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهَا فَضْلٌ مِنَ اللهِ
تَعَالَى ، وَبَارِزَةٌ مِنْ مِثْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَكَيْفَ لَا يَفْرَحُ بِهَا ؟ وَكَيْفَ
لَا تَكُونُ قُرَّةَ الْعَيْنِ وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ؟

فَاعْلَمْ : أَنَّ الْآيَةَ قَدْ أَوْمَأَتْ إِلَى الْجَوَابِ ، لِمَنْ تَدَبَّرَ سِرَّ الْخِطَابِ ؛ إِذْ
قَالَ : ﴿ فَيَذَلِّكَ فَيُنْفِرْخُوا ﴾ ، وَمَا قَالَ : فَيَذَلِّكَ فَأَفْرَحْ ، يَا مُحَمَّدُ ؛ قُلْ لَهُمْ :
لِيُنْفِرْخُوا بِالْإِحْسَانِ وَالشَّفَقِصْلِ ، وَلِيَكُنْ فَرَحُكَ أَنْتَ بِالْمُتَّفَضِّلِ ؛ كَمَا قَالَ
فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ قُلِ اللَّهُ تَرَدَّدَهُمْ فِي حَوَاضِهِمْ يَتَصَبَّرُونَ ﴾ .



[الناس ثلاثة أقسام في ورود المنن]

فَقَالَ فِي بَعْضِ مَا كَتَبَ بِهِ لِبَعْضِ خَوَاصِّ الْأَخْوَانِ :

النَّاسُ فِي وُرُودِ الْمَنَنِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ :

فَرِحَ بِالْمِنَنِ لَا مِنْ حَيْثُ مُهْدِيهَا وَمُنْشِيهَا ، وَلَكِنْ بِوُجُودِ مُنْعَتِهِ فِيهَا ، فَهَذَا مِنَ الْغَافِلِينَ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً ﴾ .

وَفَرِحَ بِالْمِنَنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مِنْهُ مِمَّنْ أَرْسَلَهَا ، وَنِعْمَةٌ مِمَّنْ أَوْصَلَهَا ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وَفَرِحَ بِاللَّهِ تَعَالَى مَا شَغَلَهُ مِنَ الْمِنَنِ ظَاهِرٌ مُنْعَتِهَا ، وَلَا بَاطِنٌ مِنْتِهَا ، بَلْ شَغَلَهُ النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ عَمَّا سِوَاهُ ، وَالْجَمْعُ عَلَيْهِ فَلَا يَشْهَدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ اللَّهُ تَرَدَّدَهُمْ فِي حَوَائِجِهِمْ يَتَّبِعُونَ ﴾ .

وَفِي أَخْبَارِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (قُلْ لِلصَّادِقِينَ مِنْ عِبَادِي : بِي فَافْرَحُوا ، وَبِدِكْرِي فَتَنَعَّمُوا) وَاللَّهُ يَجْعَلُ فَرَحَنَا وَإِيَّاكَ بِهِ ، وَيَالرِّضَا مِنْهُ ، وَالْأَجْعَلْنَا مِنَ الْغَافِلِينَ ، وَأَنْ يَسْئَلُ بِنَا مَسْئَلُ الْمُتَّقِينَ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .



المساجاة الإلهية

فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مُنَاجَاتِهِ :

إِلَهِي ؛ أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فِقْرِي ؟!

إِلَهِي ؛ أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي ؟!

إِلَهِي ؛ إِنَّ اخْتِلَافَ تَدْبِيرِكَ ، وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ ، مَنَعَا عِبَادَكَ
الْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إِلَى عَطَاءِ ، وَالنَّيَاسِ مِنْكَ فِي بَلَاءِ .

إِلَهِي ؛ مِنِّي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي ، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ .

إِلَهِي ؛ وَصَفَتْ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي ، أَفْتَمَنَعُنِي

مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي ؟!

إِلَهِي ؛ إِنْ ظَهَرَتِ الْمَحَاسِنُ مِنِّي . . فَيَفْضَلِكَ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ ، وَإِنْ

ظَهَرَتِ الْمَسَاوِي مِنِّي . . فَيَعْدِلِكَ وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ .

إِلَهِي ؛ كَيْفَ تَكِلُنِي وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي ؟! وَكَيْفَ أَضَامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ

لِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَحْيَيْتَ وَأَنْتَ الْخَفِيُّ بِي ؟!

هَذَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفِقْرِي إِلَيْكَ ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ

مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ أَشْكُو حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ ؟!

أَمْ كَيْفَ أَتَرْجِمُ إِلَيْكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ تَخِيْبُ

أَمَالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ لَا تَحْسُنُ أَحْوَالِي وَبِكَ قَامَتْ

وَإِلَيْكَ ؟!

إِلَهِي ؛ مَا أَلْفَطَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي !! وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ
فِعْلِي !!

إِلَهِي ؛ مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي !! وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ !! مَا أَرَأَيْتَ بِي !! فَمَا أَلَذِي
يَحْجُبُنِي عَنْكَ !؟

إِلَهِي ؛ قَدْ عَلِمْتُ بِأَخْتِلَافِ الْأَثَارِ ، وَتَنَقُّلَاتِ الْأَطْوَارِ : أَنْ مُرَادَكَ مِنِّي
أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ .

إِلَهِي ؛ كُلَّمَا أَخْرَسَنِي لُزْمِي .. أَنْطَقَنِي كَرْمُكَ ، وَكُلَّمَا آيَسَّنِي
أَوْصَافِي .. أَطْمَعْتَنِي أَوْصَافِكَ .

إِلَهِي ؛ مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِي .. فَكَيْفَ لَا تَكُونُ مَسَاوِيهِ
مَسَاوِي !؟ وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِي .. فَكَيْفَ لَا تَكُونُ دَعَاوِيهِ
دَعَاوِي !؟

إِلَهِي ؛ حُكْمُكَ اللَّافِذُ وَمَسِيئَتُكَ الْقَاهِرَةُ .. لَمْ يَثْرُكََا لِيذِي مَقَالِ
مَقَالًا ، وَلَا لِيذِي حَالِ حَالًا .

كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا ، وَحَالَةٍ شَبِدْتُهَا ، هَدَمَ اعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ ،
بَلْ أَقَالُنِي مِنْهَا فَضْلُكَ .

إِلَهِي ؛ إِنَّكَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدِّمِ الطَّاعَةَ مِنِّي فِعْلًا وَجَزْمًا .. فَقَدْ دَامَتْ
مَحَبَّةٌ وَعَزْمًا .

إِلَهِي ؛ كَيْفَ أَعْرِمُ وَأَنْتَ الْقَاهِرُ !؟ وَكَيْفَ لَا أَعْرِمُ وَأَنْتَ الْأَمْرُ !؟

إِلَهِي ؛ تَرُدُّدِي فِي الْأَثَارِ ، يُوجِبُ بَعْدَ الْمَرَارِ ، فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ ،
بِخِدْمَةِ تُوَدُّبِي إِلَيْكَ .

إِلَهِي ؛ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ ، بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ ؟! أَيْكُونُ
لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ ؟! مَتَى غَبَتْ
حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ؟! وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ
الَّتِي تُرْصَلُ إِلَيْكَ ؟!

إِلَهِي ؛ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا ، وَخَسِرَتْ صَفْقَةٌ عَبْدٍ لَمْ
تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا .

إِلَهِي ؛ أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ ، فَأَزْجِعْنِي إِلَيْهَا بِكُنُوسَةِ الْأَنْوَارِ
وَهِدَايَةِ الْأَسْتَبْصَارِ ؛ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا ، مَصُونٌ أَلْسِرَ عَنِ النَّظَرِ
إِلَيْهَا ، وَمَرْفُوعٌ أَلْهَمَةً عَنِ الْأَعْتِمَادِ عَلَيْهَا ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

إِلَهِي ؛ ذُلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَحَالِي لَا يَخْفَى عَلَيْكَ ، مِنْكَ أَطْلُبُ
الرُّصُولَ إِلَيْكَ ، وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ ، فَأَهْدِنِي بِبُورِكَ إِلَيْكَ ، وَأَقِمْنِي
بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ .

إِلَهِي ؛ عَلِمْنِي مِنْ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ ، وَصُنِّي بِسِرِّ أَسْمِكَ الْمَصُونِ ؛
الَّذِي إِذَا قُلْتَ بِهِ لِلشَّيْءِ : ﴿ كُنْ ﴾ .. فَيَكُونُ .

إِلَهِي ؛ حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ ، وَأَسْأَلُكَ بِي مَسْأَلِكَ أَهْلِ
الْجَذْبِ .

إِلَهِي ؛ أَغْنِنِي بِتَذْيِيرِكَ عَنِ تَذْيِيرِي ، وَبِاخْتِيَارِكَ عَنِ اخْتِيَارِي ،
وَأَوْفِقْنِي عَلَى مَرَاكِزِ أَصْطِرَارِي .

إِلَهِي ؛ أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي ، وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشُرْكِي قَبْلَ
حُلُولِ رَمْسِي .

بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَأَنْصُرْنِي ، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكِلْنِي ، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ
فَلَا تُخَيِّبْنِي ، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تَحْرِمْنِي ، وَلِجَنَابِكَ أُنْتَسِبُ فَلَا
تُبْعِدْنِي ، وَبِإِيَّاكَ أَيْفُ فَلَا تَطْرُدْنِي .

إِلَهِي ؛ تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ
مِنِّْي ؟! أَنْتَ الْغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ النَّفْعُ مِنْكَ ، فَكَيْفَ لَا
تَكُونُ غَنِيًّا عَنِّي ؟!

إِلَهِي ؛ إِنْ أَلْقِضَاءَ وَالْقَدَرَ عَلَيَّ ، وَإِنْ أَلْهَوَى بِوَثَاقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي ،
فَكُنْ أَنْتَ النَّصِيرَ لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّى
أَسْتَعْنِي بِكَ عَنْ طَلْبِي .

أَنْتَ الَّذِي أَسْرَفْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ .
وَأَنْتَ الَّذِي أَرَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحْبَابِكَ حَتَّى لَمْ يُجِئُوا غَيْرَكَ ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَطْلُوبٌ سِوَاكَ .

أَنْتَ الْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ الْعَوَالِمُ ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ
حَتَّى اسْتَبَانَ لَهُمُ الْمَعَالِمُ .

مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟! وَمَاذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟! لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ
عَنْكَ بَدَلًا ، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوِّلاً ، وَخَيَّبَتْهُ ظَاهِرَةٌ ، وَتَجَارَتْهُ
بَاطِنَةٌ .

إِلَهِي ؛ كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ ؟! وَكَيْفَ يُطَلَّبُ
مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْإِمْتِنَانِ ؟!

يَا مَنْ أَدَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلَاوَةَ مُؤَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ ، وَيَا مَنْ

أَلَسْنَ أَوْلِيَاءَهُ مَلَائِسَ هَيْبَتِهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ .

أَنْتَ الذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ الذَّاكِرِينَ ، وَأَنْتَ الْبَادِئُ بِالْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوْجِهِ
الْعَابِدِينَ ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْعَطَاءِ قَبْلَ طَلَبِ الطَّالِبِينَ ، وَأَنْتَ الْوَهَّابُ لَنَا
ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْتَنَا مِنَ الْمُسْتَفْرِضِينَ !!

إِلَهِي ؛ أَطْلُبُنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ ، وَأَجِدُنِي بِمِثْلِكَ حَتَّى
أَقْبَلَ عَلَيْكَ .

إِلَهِي ؛ إِنْ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصِيَّتُكَ ، وَإِنْ خَوْفِي لَا
يُزِيلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ .

إِلَهِي ؛ قَدْ دَفَعْتَنِي الْعَوَالِمَ عَلَيْكَ ، وَقَدْ أَوْقَفْتَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ .

إِلَهِي ؛ كَيْفَ أَحْيَيْتَ وَأَنْتَ أَمَلِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَهْيَيْتَ وَعَلَيْكَ مُتَكَلِّبِي ؟!

إِلَهِي ؛ كَيْفَ أَعَزُّتَ وَفِي الذَّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ
نَسَبْتَنِي ؟!

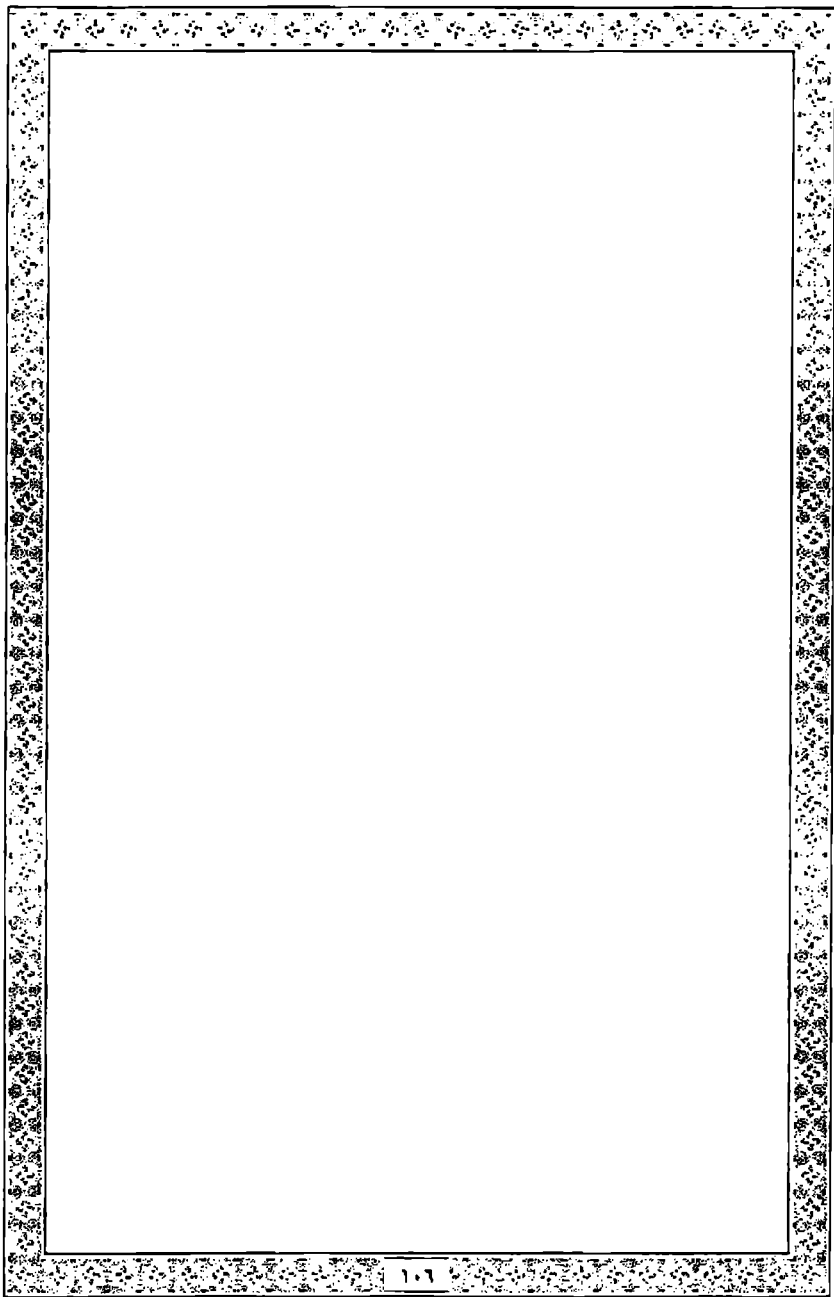
إِلَهِي ؛ كَيْفَ لَا أُنْفِقُ وَفِي الْفَقْرِ أَقْمَتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ أُنْفِقُ وَأَنْتَ
الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي ؟!

أَنْتَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُكَ ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَمَا جَهَلَكَ شَيْءٌ ،
وَأَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَزَأَيْتُكَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛
فَأَنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

يَا مَنْ اسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَى عَرْشِهِ ، فَصَارَ الْعَرْشُ غَيْبًا فِي رَحْمَانِيَّتِهِ ؛
كَمَا صَارَتْ الْعَوَالِمُ غَيْبًا فِي عَرْشِهِ ، مَحْوَةٌ الْأَنْوَارِ بِالْأَنْوَارِ ، وَمَحْوَةٌ
الْأَغْيَارِ بِمُحِيطَاتِ أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ .

يَا مَنْ أَحْتَجِبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنِ أَنْ تُذْرِكَ الْأَبْصَارُ .
يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الْأَسْرَارُ ، كَيْفَ تَخْفَى
وَأَنْتَ الظَّاهِرُ ؟! أَمْ كَيْفَ تَغِيْبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ ؟!

والله الموفق ، وبه استعين



شرح الحكمة العظيمة

المسكرة

شفاء السقم وما
فتح خزائن الكلام
في معاني الحكمة

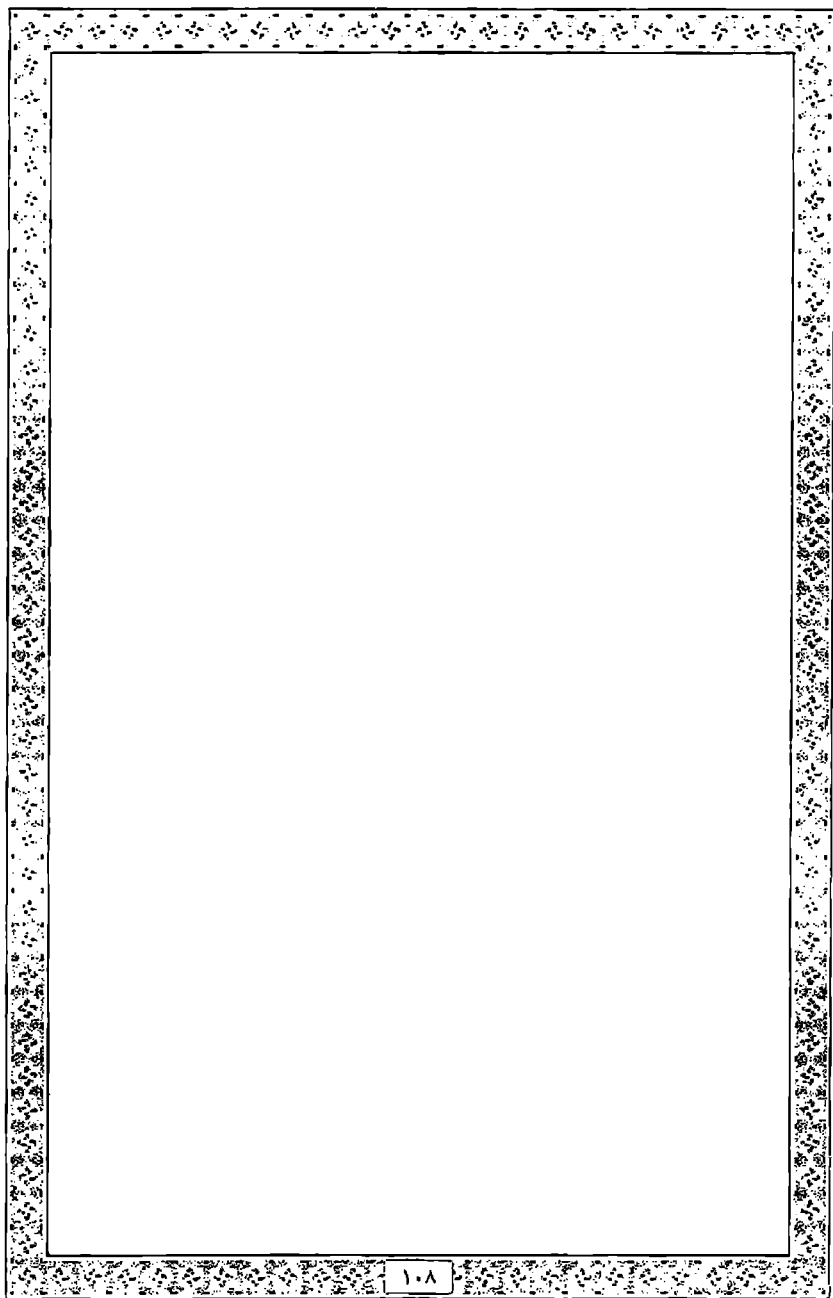
تأليف

الإمام العالم العلامة

أبو محمد علي بن عبد الله بن أحمد باراسين
الكندي الدونمني الحضرمي الشافعي

رحمة الله تعالى

(١٠٢٧-١٠٩٤ هـ)



خطبة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِهِدَسْتَيْنِ

الجمد لله منور الظلم ، ومُظهِر الوجود من العدم ، الموصوف بالقدم ، ومفجر ينابيع الحكم ، من خضم تيار الكرم ، ومُمنح من اختصه من البرايا بمزيد العطايا المكنونة في خزائن الحكم ، وشرح صدور ذوي الاختصاص بالتنزه في فسيح صفيح سروح شروح رياض الحكم^(١) .

فتبادرت جباد عتاد أرواحهم ، وطوالع بوالغ همهم بمطالعة أسرار القدم ، فوقعت عندما شهدت ذلك في يَمّ العدم ، فصادها ما توهمت اصطياده ، فرجع كل فصل لأصله ، فصدق عن كشف تحقيق ليس كمثل .

والصلاة والسلام المتصلان بدوام تجلياته بأحدية ذاته ، المستمران بمظاهر جماله وجلاله ، الساريان الظاهران على خفايا وظواهر آياته ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً ؛ على دُرّة صدف الوجود ، ومَحْتِدِ مقامات الشهود^(٢) ، وأصل حقيقة كل موجود .

أول من أومات روحه في الوجود لله بالسجود ، فتوجهت الأرواح الجمالية إليه فوجدته لها إماماً ، ومن الفتن والأهواء لها هداية وعصاماً ،

(١) الصفيح : جمع صفيحة ؛ الحجر العريض يسطر عليه ، والسروح : جمع سرح ؛ المال السائم .

(٢) المعتمد : الأصل .

محمد الحامد بجوامع المحامد ، ورسوله الداعي إلى أكمل المقاصد .
عبد الله وبنعم العبد ، سيد ولد آدم الناطق بالقول الأقوم ، والقائم
بدائرة الاسم الأعظم ، المؤتى جوامع الكلم ، الذي أبان الله به الوجود
من العدم .

وعلى آله ثمرة دوخته النبوية ، وبسراج شمسه الخفية ، برازخ
النشأتين ، وخلاصة الصفوتين ، وأصحابه كذلك ، كما اختصهم الله
لذلك ، وأهلهم لما هنالك ، نجوم هدايته ، وبُذور ولايته ، وشموس
عنايته .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادته لنفسه بنفسه ،
والملائكة وأولي العلم من خلقه .

أما بعد :

فإني استخرت الله سبحانه بعد أن صدرت لي إشارة في طيتها بشاراً ،
من صدر زمانه ، وقطب أوانه ، العارف بالله ذوقاً وكشفاً ، وتحققاً
وعلماً ؛ سيدي عمر بن عبد الرحمن بن عقيل بن سالم بن عبد الله
باعلوي السقاف . . أن أضح تعليقاً لطيفاً على كتاب « الحكم » للشيخ
العارف بالله أحمد ابن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن
محمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله الشاذلي الإسكندري ،
نفع الله به ويعلمه ، وأبان لنا من لوائح فهمه ، ما يكشف لنا ولكل
مسترشد إلى طريقه عن غوامض إشاراته ورموزه ، ويفتح لنا ما تضمنته
كلامه من الحقائق واللطائف والرقائق .

فوجدت عند ذلك أثر الاستخارة ، وبركات قبول الإشارة ، فقدمت
معتمداً على ما ينقدح بنور الفهم ، ولم أكن بعد قد وقفت لهذا الكتاب

على شرح غير شرح الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن عبَّاد النَّفْرِي^(١) ، فجعلت في بعض ما أضعه كلامه لأوائل كلامنا أمناً ، وقد كان كثيراً يعرضُ واضحاتِ النقول وجلياتِ المعقول ، وأنا منتظر ما يُلقَى في الفؤاد من لوائح الوداد ، فيكون أخذه بلا تقليد ، وهو الذي نريد .

فتكلمنا بحسب ما يظهر لنا من لوائحه ، متيمين ببركاتهم الشاملة^(٢) ، ومستنزلين المواهب والفتوح من سماء ساميات أسرارهم القدسية ، ومتهدفين للألطاف والمنوح بالانتماء إلى مذاهبهم ، ومتمسكين بأذيال طرائقهم ، ومتعرضين لاستعطاف أطراف مصنونات حقائقهم ، مع اعترافنا بالقصور عن شأوهم وعزيز منالهم ، مستشفعين بهم إلى الله في أن ينيلنا عزيزاً وصالحهم ، وطالبيين من جدواهم كل منحة^(٣) .

ونستمطر التحقيق من سحب أقوالهم وشرائف أحوالهم ، ونستنشق الأنفاس العلوية في كل نفحة ، ونستهدي التوفيق في كل ما ينسب إلينا من قولٍ وفعلٍ ونية .

ونسأل الله أن يجعلنا ممن سمع الخطاب فوعى ، وشهد التحقيق فدعا إلى الله على بصيرة ، وصفو سريرة ومحجة منيرة ، ووفقنا لحسن الاتباع ، ويجنبنا الزيغ والابتداع ، وأن يجعلني مترجماً عنه ، لا متحكماً بنفسي .
وأن ينفعني والمسلمين بما أوردته في هذا الكتاب وغيره من كل

(١) النَّفْرِي : نسبة إلى نفرة ، نقل العلامة ياقوت في «معجمه» (٢٩٦/٥) أنها بفتح

التون ، وعن السلفي كسرهما ؛ قبيلة كبيرة من البربر

(٢) في (ب) : (متيمين ببركاتهم الشاملة) .

(٣) الجدوى : العطفة .

فعل وخطاب ، وأن يجعله لنا حجةً يوم الحساب ، ومحجةً إلى كشف الحجاب ، وأن يجعلنا ناطقين بالصواب ، وأن يجمعنا مع الأحباب ؛ مع النبيين وخواصِّ المقرَّبين من الأقطاب ، والأئمة والأوتاد والبلاء والأنجاء ، ومشايخنا في الدِّين ومن والانا فيك ووالينا والقربات والأصهار والأنساب ، وأن يعمَّ بنفعه كلَّ طالبٍ منيبٍ أوَّابٍ ، ولي في ذلك :

كل الوجود مشيرٌ إن رأيت إلى نحو الأجابة دونك هذه الخيم
واسمَعْ خطابِ ندا الحقِّ المبينِ ولا يدخلكَ ريبٌ بما في مجمع الكلمِ
ففي الصدورِ سطورُ النورِ منه علي صفائحِ النفسِ أسرارِ من القَدَمِ
إذا بدا ذاك نَارَ الكونِ منه فلا غَيْرُ يرى غيرَ عِزَّةِ عِزَّةِ أممِ



وكان هذا أوان ابتدائنا في شرح كلام المؤلف رضي الله عنه ، مستعيناً بالله ومتوكِّلاً عليه ، ومستنداً في أموري إليه .

ومن وجد في كتابي هذا لفظاً أو معنى مخالفاً لما عليه أهل السنة والجماعة . . فأنا بريءٌ عن ذلك المقال ، وهذا أسدُّ المقال ؛ إذ قال المؤلف رضي الله عنه :

مِنْ عَلَامَاتِ الْأَعْتِمَادِ عَلَى الْعَمَلِ : نُقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ

هذه علامة كافية ، ودلالة وافية ، وهذه أحدُ علامات الاعتماد على العمل ، وله علاماتٌ ودلالات يطول تعدادها ، ومن جملتها : الإدلالُ وازدراءُ مَنْ لم يعمل بمثله . . . إلى غير ذلك ^(١) .

والفرقُ بين من يعتمد على الله دون علمه وعمله : أنه لو بات قائماً وغيرُهُ نائماً إلى الصباح . . لم يرَ نفسه عليه بمزية .

وهي للواقف على عمله وعلمه وجميع ما منه دون الاعتماد على الله علامةٌ حجابيةٌ ووقوفيةٌ دون محض العبودية على مقتضى طبعه وطلب حظه ؛ من نيل ثواب ، والهرب من العذاب ، وهذه العلة تناقضُ العبودية .

وأما العارفون والسادة المقربون قصرُوا نظرهم ، وعكفوا بهمهم على امتثال أمر سيدهم ، دون حفظٍ عاجل ، أو جزاءٍ آجل . . فهم مع الله ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً ، وفي جميع حركاتهم كائنة ما كانت .

فإن كان ما يصدر منهم من قبيل الموافقات . . استغرقهم جماله وحسن أفعاله ، ومع ذلك تصحبهم هيئةٌ سطوات جلاله ؛ لأنه حيث ظهر وصف الجمال . . فالجلال باطن ، وحيث ظهر سلطان الجلال . . فالجمال باطن ؛ لذلك لا ينفكُ خوف العارف من رجائه .

وإن ظهرت منه صورة زلّةٍ أو مخالفة . . هذبهم سلطانُ جلاله ،

(١) وللعارف بالله تعالى أبي يعقوب الرازي لسانٌ في هذا ؛ فقد روى السلمي في « طبقاته » (ص ١٨٨) : (يتولد الإعجاب بالعمل من نسيان رؤية المنة فيما يجري الله لك من الطاعات) ، وانظر « غيث المواهب » (٥٣/١) .

فأورث لهم حالاتٍ سيئةً ، ومقاماتٍ عليَّةً ؛ كالحياء والرهبنة ، والالتجاء والخشية ، والانطواء تحت سلطان الرهبوت .

وإن أقامهم في تجلي جماله .. أسكرهم شرابُ جماله ، وأذهلهم لذيذُ وصاله ، وأدهشهم كماله ؛ فانبعثت منهم القوى الباطنة والحركات الظاهرة بمقتضى الشكر ؛ من خالص ذكر ، وصافي فكر ؛ فهم بين رَوْحِ مشاهدة الجمال وتهذيب الجلال .

وحيث سمعتَ بزلَّةٍ أو هفوةٍ صدرت في عبارة ^(١) .. فاعلم : أن زلاتِ العارفين وهفواتهم غالباً في الرخص والمباحات ، وعلى الندور تكون في كبيرة ، وحيث كانت .. فهم يطالعون سابق العلم على علم منهم قبل وقوعها على يدهم أنها ستكون ولا بدُّ ؛ إما بأن يشهدوا ذلك في أم الكتاب مسطراً ، أو يُحدِّثوا به بلا امترا ^(٢) ، ولكن الله يقرن لهم البشري بقبول توبتهم وغفران ذنوبهم ؛ فلذلك حجَّ آدم موسى كما

(١) وإنما عبَّر المصنف رحمه الله تعالى بالزلة والهفوة ولم يقل : معصية .. تشبيهاً لها بمخالفة الأنبياء ؛ كما ذهب إليه بعض المتكلمين .

(٢) قال العلامة المحقق عبد الكريم الجبلي رحمه الله تعالى في « عينته » المشهورة :

ولسي نكتةً غزاً هنا سأقولها	وحنَّ لها أن ترعوها المسمعُ
هي الفرقُ ما بين الوليِّ وفاسقِ	نبتةٌ لها فالأمرُ فيه بدائعُ
وما هو إلا أنه قبلَ وقعه	يخبِرُ قلبي بالذي هو واقعُ
فأجني الذي يقضيه في مرادها	وعيني لها قبل الفعالي تطلعُ
فكنت أرى منها الإرادة قبل ما	أرى الفعلَ مبني والأسيرُ مطاوعُ
إذا كنت في أمرِ الشريعةِ حاصياً	فإنِّي في حكم الحقيقة طائعُ

انظر « حاشية الصاوي على الخريدة » (ص ٥٦) .

ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١)، ولو لم يكن ذلك..
لذابت أرواحهم، وتلاشت أشباحهم؛ حياةً وتعظيماً.

وحال وقوعهم فيها وصدورها عنهم يحجبون عن شهود العلم،
والإ.. لم يتمكنوا من فعلها؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فمراتيم
تعطيهم التعظيم والإجلال؛ كما يكون لغيرهم من الخوف والإذلال،
خارجين عن كونهم بأنفسهم قائمين، وعن حولهم وقوتهم متبرئين
في جميع ما يصدر منهم أو عنهم، وكيف يشهدون ذواتهم وصفاتهم
- فضلاً عن أفعالهم - وهم متلاشون بين مشرقات جماله، ومضمحلون
تحت محرقات جلاله؟!

فإن أشهدهم ذاتة.. غيَّبهم عن ذواتهم؛ فيكون مقامهم الهيبة
والأنس، وإن أشهدهم صفاته.. أخذهم عن صفاتهم؛ فحالهم القبض
والبسط، وإن أوقفهم تحت أحكام أسمائه^(٢).. قاموا بحكم الخوف
والرجاء، هذه مقامات الرجال والسادات الأبدال.

وأما عامة الخلق.. فواقفون في مضيق الحجاب عندما يتوهمون
صدوره عنهم أو كونه منهم؛ من طاعة أو عصيان، أو عطاء أو حرمان،
فلا يفارقون الشرك؛ إما الخفي أو الجلي، فإذا نظروا إلى ما يبرز منهم
في صورة طاعة.. عدَّوه أرحى بضاعتهم، وعمدة نُفاعتهم^(٣)، وغابوا
عن معونة الله لهم، وسابق هدايته لهم، وعظيم منته عليهم، وأجلُّها:
إيجادهم بعد أن لم يكونوا، وتوالي إمداده^(٤)، وإرسال أنبيائه وإنزال

(١) رواه البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وجلُّها دالٌّ على غلبات أفعاله.

(٣) النُّفاعة والمنفعة بمعنى.

(٤) كما سيأتي (ص ٤٢٢) في الحكمة (٩٨).

كتبه ، وبسط أرضه ورفع سماواته ، وتسخير موجوداته ، ﴿ وَإِن تَقُدُّوْا
ضَمَّتْ اللّٰهُ لَا تَخْضَعُوْهَا ﴾ .

ومن جملتها : طاعتهم المنسوبة إليهم مجازاً^(١) ، وإن وقعت
منهم زلةٌ وحصلت منهم هفوةٌ .. سلبتيم ما كان عندهم من الرجاء ؛
لشهودهم صدورها عنهم ، واستنادهم إلى حولهم وقوتهم ؛ فرؤيتهم
حولهم وقوتهم في إيجاد شيءٍ أي شيءٍ .. أشدُّ من معصيتهم ، والحزنُ
المطلوب للعباد لا لكونهم لهم فيها حقيقة إيجاد واختراع ، ولكن
لكونها برزت على أيديهم ؛ فهي من نوازل البلاء ، وسطوات القضاء .

فإذا فهمت ذلك .. تبيّن لك حالات العامة ومقامات الخاصة ، وما
يعطيهم الحال من الفناء عن أفعالهم وأوصافهم وذواتهم ، وحالات
العامة وما تُعطى من الحجاب ، وما يقاسون من رؤية أنفسهم من النَّصَبِ
والعذاب ؛ فالعذاب : فرعٌ عن ضرب الحجاب ، قال الله جل ذكره : ﴿ كَلَّا
إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُورُونَ ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾^(٢) .

والعارف : إما متحقِّقٌ متمكِّن ، وإما مصطلَّمٌ متلَوِّن ؛ فالتمكِّنُ :
يعطي كل ذي حقٍ حقه ، ويوفي كل مقامٍ مستحقه ؛ فمع كونه فانياً عن
أفعاله وأوصافه وذاته .. فهو باقٍ بربه ، يَأْتَمِرُ لأمره ، وينتهي لنهيهِ ،
ويعرف حكمة الله في إثبات العبد مع الله مع أن الله قال : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ ﴾ ، وقال في مقامٍ آخر : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ .

وهنا علومٌ تخرجنا عن شرح الكتاب ، ولكن كُنْ وقايةً له فيما
لا يليقُ إضافته إليه ، واجعله وقايتك فيما يحسن أن يُضافَ إليه من

(١) كما سيأتي (ص ٢٠٤) في الحكمة (٥٨) .

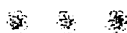
(٢) نَبْءٌ بتقديم الحجاب على العذاب أنه فرع عنه .

المحامد^(١) ، وكلُّ ما في إطلاقه ذمٌّ أو إشارة إلى ذمٍّ ولو من بعض الوجوه .. فكن وقابته فيها ؛ فما كان من المحمودات .. فإليه خلقاً وإبداعاً ، وما كان فيه ذمٌّ أو يتوصل منه إلى ذمٍّ ولو من بعض الوجوه .. فإليك إضافةً واستناداً ، وما كان فيه من وجهٍ مدحٍ ومن وجهٍ ذمٍّ .. فوجهُ المدحِ إليه ، ووجهُ الذمِّ إليك . هذا مشهدُ الأدياء .

وأما العامة .. فإنهم بالضدِّ من ذلك ؛ يضيفون ما كان ممدوحاً إليهم ، وما كان مذموماً تبرؤوا منه وأضافوه إلى الله !!

فهذا بعض ما أبرزته إشارةً الوقت ، ووراء هذا علومٌ وأسرار لا يسع كشفها لغير أهلها ، ولي في ذلك :

فكن على كرم الرحمن معتمداً لا تستند لا إلى علمٍ ولا عملٍ
ففضل ربك لا تمنعه معصيةٌ ولا يضاف إلى الأغراض والعللِ
فنسأل الله هدايةً وتوفيقاً ، وصواباً وتحقيقاً .



قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) قال سبحانه في بيان هاتين الواقيتين : ﴿ مَا أَسْلَمَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَرِحَ اللَّهُ ﴾ فجعلته وقابتك ، ﴿ وَمَا أَسْلَمَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَرِحَ بِكَ ﴾ فكت أنت وقابته ، جلُّ رؤنا وعزُّ ، وإلى الله ترجع الأمور .

إِرَادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي الْأَسْبَابِ .. مِنَ الشَّهْوَةِ
الْخَفِيَّةِ ، وَإِرَادَتُكَ الْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي التَّجْرِيدِ .. أَنْحِطَاطًا
عَنِ الْهَيْمَةِ الْعَلْبِيَّةِ

الإرادة: حالة من حالات القلب ، ووصف من صفات العبد ، وهي جائزة كهر ، وهي بتخصيص الأمور وتدبيرها ، وقد علمت ما العبد عليه من القصور والعجز ؛ لجهله بتقدير الأمور ، والمعجز من لوازم إرادته الأشياء واختيارها .

والمطلوب من العبد حيث كان كذلك : أن يكون بتدبير الله واختياره ، تاركاً لإرادته وسائر أوصافه وأفعاله ، ويبقى بتدبير مَنْ له الإرادة الكاملة ، والقدرة النافذة في حركاته الظاهرة والباطنة ، فعلى ذلك : لو أبيع له أن يختار .. لكان من حقِّه ترك الاختيار ، فكيف والعبد مأموراً بترك الاختيار ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ ؟!

وبعض الأمور أظهر من بعض في ظهور الحكمة ؛ فطلب التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب .. الشهوة فيه خفية غامضة جداً ؛ من حيث إنه طاعة ، لكن بدقيق النظر في دقائق الحقائق : يتبين لك شهوة النفس ومخادعة الشيطان .

أما شهوة النفس .. فمن حيث استعجال الراحة ، وأما مخادعة الشيطان .. فمن حيث إخراجك من تدبير الله ^(١) الذي لم يقترب به مذموم شرعاً إلى تدبيرك لنفسك المشوب بالحفظ .

(١) في (ب ، ج) : (عن تدبير الله) بدل : (من تدبير الله) .

وأما طلب الخروج من التجريد إلى الأسباب .. فقبحه ظاهرٌ جلي .
واعلم : أن الأسباب هي كل ما يوصل إلى غرضٍ دينوي ، والتجريد :
هو التفرغ عن كل شاغلٍ يشغل عن الله ، وعائقٍ يعوق عن طاعة الله .
واعلم : أن التجريد حال شريف ، ومقام منيف ، يقيم الله فيه خاصةً
أصفيائه ، وصفوة أوليائه ، وعلامةً من أقامه الله فيه : كثرة الرضا ، وعدم
الشكوى ، وعدم الركون إلى المعلوم ، وتجنبُ كلِّ فعلٍ ملوم ، وخلق
مذموم ، والاستغناء بالله ، وإنزال جميع حاجاته ومهامته بالله ، والبذل
عند الوجد ، والصبر عند الفقد ، والرأفة بعباد الله والشفقة ، ورفع الهمة
عن التشوُّف إليهم في أمرٍ من الأمور ، إذا نزلت به الحاجة .. لم يتوجَّه
في قضائها إلى غير الله .

وهم في ذلك ثلاثة : منهم : من لا يسأل ولا يأخذ ، ومنهم : من لا
يسأل ، وإذا أعطي .. قَبِل ، ومنهم : من يسأل عندما تنزل به الحاجة (١) .
فالأول : روحاني ، والثاني : تارك للاختيار ، قائم مقام الافتقار ،
والثالث : كفارة سؤاله صدقُهُ في فاقتة .

والمجرد تجرَّد عن أسباب وتلبس بأحوال ، فما يتجرَّدون ليتفرغوا ،
ولكن يتجرَّدون عن أسبابٍ دنية لأحوالٍ سنية ؛ فمن لم يكن في حال
تجريده ذا همةٍ عالية ، وعلوم وافية ، وأخلاق رضية ، وعلوم سنية ،
وأذواق روحية .. فتجريدهُ بطالة ، وطريقته ضلالة .

وإذا كان بهذه الشروط .. تولَّى الله رعايته ، ونشر عليه سرَّ ولايته ،
وتوجهت إليه الكائنات بسرِّ التسخير ، وكُفي همَّ التدبير .

فإذا توجهت همته إلى غير الله كائنًا ما كان ذلك الغير .. فقد انحطَّ

(١) في (ب) : (الفاقة) بدل : (الحاجة) .

الباب ، واستخار البعدَ عن الاقتراب ، وأثر مجالسة الأجناب على مشاهدة الأحباب ، وأشد حالاتك : الطرد والحجاب ، وأليم العذاب .
فهذه بعض إشارات إلى تقبيح حال من انحط عن التجريد إلى الأسباب .

وأما المتسبب الذي أقيم في الأسباب وأريد بها . . فعلامة ذلك نسيئها ، وحصول النتائج فيها من المنافع الدينية ؛ من صلة أرحام ، وإرفاق ذوي الفاقات ، مع حفظ الأوقات ، وعدم الفرح بما أتى ، والتأيس على ما فات (١) .

فإذا ظهرت هذه العلامات . . علم بأنه مراد بالمقام فيها ، فليحسن في مقامه بتحليل حلاله وتحريم حرامه ، ولا يطلب الخروج عنها بنفسه ؛ حتى يكون الحق هو الذي يتولى إدخاله وإخراجه ، ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ على هواي وسائر أعدائي ؛ فالمدخل الصدقُ والمخرج الصدقُ : أن تدخل في الأشياء وتخرج عنها كما ذكرنا لك .

ومن آداب المتسبب بل وظائفه وعلامة صدقه : ألا يحتجب بالأسباب عن مسبها ، ويكون اعتماده على حول الله وقوته في جميع ما يأخذ ويدع .

ومن وظائفه : مراعاة القوانين الشرعية فيما يصحُّ له الإقدام عليه ، وما يطلب منه فيه الإحجام عنه ، ويأخذ من الفقه كل ما يحتاج إليه من كل ما يريد الدخول فيه والتلبس به ؛ فما يقوم بوظائف الأسباب إلا الأقوياء الكُمَّل العالمون بدقائق المعاملات .

(١) التأيس والتأيس بمعنى .

وإذا قام بما ذكرنا . . فقد أدى حق السبب ووفى بمقامه ، وهو أيضاً مقام شريف أقيم فيه جماعة من أكابر الصحابة وجهابذة العلماء ، فإذا قام بما ذكرنا وتحقق بما وصفنا . . فلا يطلب الخروج منها ؛ حتى تدفعه الأسباب إلى الله ؛ أي : تتركه .

والمستجرد إذا تركته الأسباب . . فلا تتيسر له أسبابها ، وتُغلق دونه أبوابها ، وتخطفه الحقائق ، وتنسلخ عنه العوائق ، فإذا كان كذلك . . الله يقيمه مقاماً حسناً ، ويكلؤه كلاءة مرية ، ويحيه حياة طيبة ، ويغذيه بعيشة هنية ؛ بأن يملأ قلبه نوراً ، وفرحاً وحبوراً ، ويوصل إليه ما قدره له ، ويكفيه همّ ذلك ؛ بأن يُيسر له من يوصله إياه : إما من أبناء جنسه ، وإما أن تمدّ له موائد الغيب ، فتكون له أرزاقاً معنوية ، وأقواتاً خلدية قزيبية ، تتلون له كما تتلون لأهل الجنة ، فقد يكون من ذلك في الدنيا لبعض المرادين ؛ كما كان لابنة عمران ، ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْزِيلُهُ رَبِّي إِنَّ لَكَ هَذَا هَدًى قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ولا نصّب ولا عقاب ، فهكذا يعامل الأحياب .

من قام لله في الأحوال قام له كل الوجود بتسخير وتيسير

ولنرجع إلى شرح كلام المؤلف بلا تطويل ولا إكثار ، قال رضي الله

عنه :

سَوَابِقُ الْهَمِّ لَا تَحْرِقُ أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ

الهِمَّةُ : قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ يَتَحَصَّلُ عِنْدَ تَوَجُّهِهَا إِلَى الشَّيْءِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَأثِيرٌ .

وقد أشار بالسبق إلى قوة التأثير وسرعته (١) ، وحيث أطلقت . . فتعلقها بالفضائل واستعمال كل وسيلة من وسائل الخيرات ؛ لطلب المنازل العالية ورفع الدرجات ، وسنني الحالات ، والنزوع عن مواطن الرذائل والغفلات ، إلى فسيح المكارم ونيل المقامات ، وبواهر الكرامات .

وكل هَمَّةٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ . . فِيهِ مِنَ الْمَكْرِ ، وَلَكِنْ [تَدْخُلُ] مِنْ حَيْثُ حُدَّ الْهَمَّةُ .

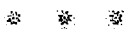
ومع ذلك - أي : كونها مؤثرة سريعة التأثير - فهي موقوفة على مشيئة الله وقدرته ، فمتى لم تجد نفوذاً في سُورِ الْقَدْرِ الإلهي . . لم يكن لها تأثير في شيء ألبتة ؛ فالتخصيص الإرادي والإبراز القُدري أصلُ بروز الممكنات ، والهمم السوابق والعزائم الخوارق آثاؤُ وفروع عنهما ؛ فلا تتعدى هَمَّةٌ دُونَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ .

والهمة : قوتها وضعفها على قَدْرِ ما عند الإنسان من الاستعداد ، والهِمَّةُ سفينة العارف في بحار الوجود ؛ بها يترقى عن حضيض الحظوظ والشهوات ، وبها يخترق المنازل الروحانيات ، وهي بُرَاقُ السالكين ، وبرهان الواصلين ، وبها سار من سار على الماء ، وبها طار من طار في الهواء ؛ لَكِنَّ قُوَّةَ نَفْوَذِهَا وَسُرْعَةَ تَأْثِيرِهَا عَلَى قَدْرِ ما عند السالك من

(١) في النسخ : (وقد أشار بالسبق بشير إلى قوة التأثير وسرعته) .

الاستعداد ، فإذا توجَّهت في فعل شيء لم تبرزه القدرة .. عادت كليلة ،
أو في دفع شيء وقد سبق في سابق العلم تقديره .. ظهر في الوجود
تأثيره ، ولم تدفع عنك الهمَّةُ تقديره ، ولي في ذلك :

إِنَّ الهمَمَ تحت حكم الأمر دائرةٌ فليسَ تنفذُ فيما صانه القدرُ
فهمة المرء ما لم تلقَ منفذها في سور الأقدارِ لا يظَهَرُ لها أثرٌ



فحيث علمت : أن لا لشيء تأثير في شيء دون إرادة الله وقدرته ..
فعلام العناء؟! وفيم الاعتناء؟! فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

أَرِحْ نَفْسَكَ مِنْ هَمِّ التَّدْبِيرِ ؛ فَمَا قَامَ بِهِ عَنْكَ غَيْرُكَ . . لَا تَقُمْ بِهِ
أَنْتَ لِتُنْفِكَ

إراحة النفس في الكفِّ عما ليس من شأنها ، والتدبير من نعت
الربوبية ، قال الله جلَّ ذكره : ﴿ يَذَرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ ، ﴿ يَذَرُ الْأَمْرَ مَنْ
أَسَمَاهُ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ، فالتدبير فيما كفيت ، والتعرض لما عنه نهيت . .
أشدُّ تعباً وأعنى نصباً .

فما لك - أيها المسكين - والتدبير في أمورك وقد كفاكها عنك
غيرك؟! ومع كونك تتعب وتنصب فلا يغني عنك تدبيرك ، ولم ينفذ
تقديرك ، فكن بتدبير الله لك ، لا بتدبيرك لنفسك ؛ فالتدبير والاختيار
لمن له الإرادة والاعتقاد ، وذلك الله الحكيم القهار ، فشان العبد : ألا
يزاحم مولاة فيما انفرد به .

وكل تدبير ندبك الشرع إليه فليس يدخل تحت مطلق الذم
على التدبير ؛ فكل تدبيرات الشرع لا منك ولا إليك ، فاسمع وأطع ،
وإنما التدبير المذموم : أن تدبّر في المقسوم ، أو تتهم في المعلوم ، فما
قدّر . . فلا بد أن يكون ، وما لا . . فلا ، فماذا يغني تدبيرك ، وماذا يجدي
اختيارك وتقديرك ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ
وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ معه من تدبيرهم واختيارهم ، ولي في ذلك :

يا من يدبّرُ أمراً وهو ليس له في خيرة الله تدبيرٌ ولا قدرٌ
إن كنت لا بد مختاراً فخيرةٌ من بيده الأمر والتدبيرُ والقدْرُ
فدبّر أن لا تدبّر في الأمور وكن كالميت الفان لا عين ولا أثرُ



فشأنك أيها المسكين : أن يكون فكرك وتدبيرك فيما ندبك إليه
سيدك من القربات ، ودعاك إليه من الموافقات ، وتدبر ما مضى ، ولا
تهتم بما هو آت ؛ من الأسباب الدنيويات إن كنت ذا بصيرة ناظرة ،
وسريرة صافية ، وروح حاضرة ؛ فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

اجْتِهَادُكَ فِيمَا ضَمِنَ لَكَ ، وَتَقْصِيرُكَ فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ .. دَلِيلٌ
عَلَى انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ مِنْكَ

الاجتهاد : هو بذل المجهود في طلب المقصود ، وليس مقصوداً
غير الله أو ما يقرب إلى الله ؛ فمن بذل مجهوده لمقصود غير الله .. فهو
ذا بصرٍ مطموس ، وعقل معكوس .

والمضمون : هو الرزق المقسوم ، والنصيب المعلوم بقوله وقوله
الحقُّ : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا
مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، وقوله : ﴿ تَحْنُ تَرْزُقَكَ ﴾ ... إلى
غير ذلك من الآيات .

وقال في المطلوب منك : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادِي ﴾ ، وقوله :
﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ، وقال : ﴿ قَائِلِينَ فَاتَّبِعُونِ ﴾ ...
إلى غير ذلك .

فتقصيرُك فيما خلقت لأجله ، وتُدبِت إلى فعله ؛ وهو العبادة لله
بالذلة والانكسار ، والمسكنة والافتقار ، وكثرة الأذكار ، وصفو الأفكار
آناء الليل والنهار ، واجتهادُك فيما ضمن لك ، واعتراضك على الأقدار ،
ونظرك إلى الأغيار محجوباً بسحب الآثار عن النافع الضارِّ ، المقدير
المختار .. دليلٌ على انطماس البصيرة منك ؛ أي : غيبتها واستتار
نورها عنك .

والبصيرة : هي نظر القلب بنور الله ، فليس للبصيرة نظرٌ إلى غير
جمال الله وجلاله ، وكمال قدرته ، وحسن أفعاله ، فمن نورَ الله عين
بصيرته ، وجلا صفو سريرته .. لم يؤثِر على الله غيره ، ولم يترك فيه

لغيره بقية ، ورضي بالله رباً وحاكماً ، ومدبراً ومقدراً ، وبذل وسعه في عبادته ، وسلك طريق هدايته ، ولم يجتهد إلا فيما يقربه لديه ، ولم يعول إلا عليه ، فضلاً عن أن يتهمه في ضمانه ، أو أن يقاومه في مملكته وسلطانه .

وقد أحسن الأدب في عبارته وبديع إشارته ؛ فعبارته أقرب للأدب ، وأوفق لنيل الأرب ؛ حيث عبّر بـ (طَلَبَ) بصيغة ما لم يسم فاعله ؛ إشعاراً منه بشرف الطالب ، فبين عبارة (طَلَبَ) و (طَلَبَ) ما لا يخفى لمن له أدنى ذوق في فن الأدب ؛ لأن طلبه على سبيل التعبّد والملك والسلطان ، لا على سبيل التلقي والاسترفاد ، وطلبه لك لا لحاجته إليك ، ولكن من عظيم منته عليك ، وسبوغ نعمته لديك : أن عرفك طريق نجاتك ، وما فيه سعادتك في حياتك ومعادك .

وقوله : (اجتهادك) ليس تقبيح على طلب المضمون على الإطلاق ، ولكن إن اقترن به تقصير فيما طلب .

يا من سعى في طلب ما كان يطلبه مِمَّا تَضَمَّنَهُ الرَّزَاقُ فِي الْقِدَمِ
يأتيك رزقك من لا حيث تحسبه إن تتق الله تُعْطَ مِنْ يَدِ الْكَرَمِ
فبادرن بما في الوقت يطلبه ولا تطالبن بما قد خطأ بالقلم
فأكمه القلب مَنْ يَطْلُبُ مَا رِيَهُ وَمُطَمِّنُ النُّورِ مَجْبُوسٌ فِي الظُّلَمِ
فحيث اجتهدت فيما ضمن لك ، وتركت ما طُلبَ منك . . فحقيق أن
بنوه عليك بطمس البصيرة ، والازورار عن المحجّة المنيرة ؛ فالمضمون :
هو ما يقوم بالأود^(١) ، ولا يتقيد بوقت دون وقت ، ولا طعام دون طعام ،

(١) الأود : الاعوجاج .

ولا يقدر من كثرة أو قلة ، وقد قدر الله الأرزاق وأوقاتها وأقدارها
وأوصافها - في أي وقتٍ وحالٍ ومكان وما هي - قبل بروز المرزوقين إلى
عالم الخلق .



وكذلك كل ما وعدك به من إجابة دعاء . . هو أعلم بوقته ومكانه ،
فيايك واستبطاءه ؛ فقد وعد عباده بإجابة دعائهم ؛ كما وعدهم بإيصال
أرزاقهم . . فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا يَكُنْ تَأَخَّرُ إِمْدَادِ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ .. مُوجِباً لِيَأْسِكَ ؛
فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الْإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُ لَكَ ، لَا فِيمَا تَخْتَارُهُ لِنَفْسِكَ ، وَفِي
الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ ، لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ

العتاء هنا : هو ما رفعته إليه من حاجاتك ، أو أنزلته به من مهماتك ،
فيما نزع من أنه عطاء ، أو تظنُّ أنه رفع بلاء ، فلا يكن همُّك من دعائك
الظفر بمطلوبك .. تكن متحكماً عليه ؛ فالمنع منه عطاء لمن كُشِفَ
عنه الغطاء ، والبلايا حيث أشهدك تعرُّفه إليك .. هدايا ، فلا يكن تأخُّرُ
ما طلبت موجِباً لِيَأْسِكَ .

قال صلى الله عليه وسلم : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ؛ يقول :
دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لي » ^(١) ؛ فالاستجابة إليه لا إليك ، وفيما يختار لا
فيما تختار لنفسك ، فلا تختص بمرادك دون مراده ، بل مرادك إن وافقَ
الدعاء وقتَهُ ، وخصصت الإرادة فعله .. برز على وَفْقِ مرادك ، وسُيِّبَ
استجابة عاجلة .

وقد خاف الأكابر من سرعة ذلك ؛ لما روي : « أن الله سبحانه إذا دعا
العبد .. يقول الله : أَجْرُوا حاجَةَ عبدي ؛ فإني أحبُّ أن أسمع صوته ،
ويقولُ لآخر : عَجِّلُوا حاجته ؛ إني أكره أن أسمع صوته » ^(٢) ، وهذا
على التدور .

وأما في غالب الأحوال .. فإن الله يكرم أوليائه بإجابة دعائهم ،

(١) رواه البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٦٦/٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٣٤٤)

بنحوه عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه ، وفي (ب ، ج) : (أخروا إجابة عبدي ..) .

وتعجيل مرادهم ، ولكن موقف علي مراده ، فلا يتقدم وقته ، ولا يتعدى حده ؛ فمتى استعجلت الإجابة . . فقد تحكمت عليه في ملكه ، ولم ترض بقضائه ، ولم تصبر على بلائه .

ولا تخفى عليك مضادة هذه الأحوال للعبودية ، ومنازعتها للربوبية ، واتهمت من لا يخلف الميعاد في وعده ، فيعود وبال ذلك عليك ؛ فإنه قال : « أنا عند ظن عبدي بي »^(١) ، وقد آيست من الإجابة ، فيخشي أن تعامل بسوء ظنك ، حيث قطعت بعدم الإجابة ، فيقال لك : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ﴾ .

فالإجابة لها أوجه ومقاصد ، فمنها ما يؤخر لأخرتك ، وهو الأنفع لك ، وفي بعض الأخبار : « يبعث الله رجلاً ، فيقول الله له : يا عبدي ؛ لم لا تدعني وقد أمرتك بدعائي ؟! فيقول : قد دعوتك ، فيقول : ألم أمرك برفع حوائجك إلي ؟! فيقول : بلى ؛ وقد رفعتها إليك .

فيقول الله : ما سألت شيئاً إلا أجبتك فيه ، لكن أنجزت لك البعض في الدنيا ، وما لم أنجزه في الدنيا . . فهو مدخر لك ، فخذها الآن ، فيقول ذلك العبد : ليته لم يقض لي حاجة في الدنيا »^(٢) .

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من داع يدعو إلا استجاب الله دعوته ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، أو حط عنه من ذنوبه بقدرها ؛ ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم »^(٣) .

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» (٤٩٤/١) بنحوه عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما .

(٣) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٤٣/١٠) ، وهو عند الترمذي (٣٥٧٣) من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

فإذا علمت ذلك . . فاعلم : أن الدعاء أيضاً قد يتلقى من البلى
ويُدفع من الذنوب والخطايا ما لو تحققت بعض ذلك . . لكنك تودُّ
على الكشف أنها لم تقض لك حاجة ؛ كما يُرى ذلك في الآخرة عياناً .
ومن الدعاء : ما يظهر أثره في المدعو فيه إلا أنه قد يكون عاجلاً ،
وقد لا يأتي وقته إلا بعد ؛ كما في دعاء موسى صلى الله عليه وسلم
على آل فرعون حيث قال : ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا مَوَاطِنَهُمْ وَأَشْدُدْ عَلَيْنَا مَبِئَاتِهِمْ ﴾ ،
قال الله جل ذكره : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ ﴾ لكن لم يأت إلا بعد
إبان وقت نفوذها ، وظهور تأثيرها ﴿ وَلَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ ﴾
وهم الذين يستعجلون الإجابة ؛ لجهلهم بالمقادير الإلهية في الأزمنة
والأحوال والأعمال ؛ هنذا في الإجابة .

أما في الدعاء . . فالخلق فيه ثلاث طبقات : عامة ، وخاصة ، وخاصة
الخاصة .

فأما العامة . . فحالهم في دعائهم وغاية مقصدهم الظفر بحاجاتهم ،
ونيل مراداتهم ، فلا يخفى قصور هذه الطبقة ، ودنو همهم ، وقلة
أدبهم بين يدي سيدهم .

وأما الخاصة . . فهم في الدعاء بحكم العبودية ، حيث سمعوا
قوله جل ذكره : ﴿ أَذْعُونِي أَسْتَجِبْ لِكُرِّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ فسمى الدعاء عبادة ، بل محض العبادة ؛
كما ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) ، وذلك من

(١) روى الترمذي (٢٩٦٩) ، وأبو داود (١٤٧٩) ، وابن ماجه (٣٨٢٨) عن سيدنا
النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن
الدعاء هو العبادة » .

رحمته بعباده ؛ حيث ندبهم إلى ما فيه غاية آمالهم ، وأقصى رغباتهم ،
وأشرف مقاماتهم ، وأيُّ شرفٍ أشرف من مناجاة الحبيب ، والدنو إلى
مقامات التقريب ؟!

وما اكتفى لهم بمطلق الدعاء حتى قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله
يحبُّ المُلجِّين في الدعاء »^(١) ، فما أعظم فضل الله عليك ، وأجزل
مواهبه لديك !! ومع الإلحاح أيضاً يقال : إن الله يقول : « أُخِرُوا حاجة
عبيدي ؛ إني أحبُّ أن أسمعَ صوته » كما قدمنا ذلك^(٢) ، فالحمد لله
على ذلك .

فحاجة العبد إلى الله وإن قُضيت حاجة . . تجدَّدت له إليه حوائج
اضطرارية في دوام أنفاسه ، وتوالي حالاته ، وكرور أوقاته وأيامه ،
وشهوره وسنينه ، وهذه من سوابغ نعمه ؛ حيث لم يقطعك عنه ، ولا
جعل حوائجك إلى واسطة دونه ؛ لتكون له نجياً .

وأما الطبقة الثالثة ؛ وهم خاصة الخاصة . . فالباعث لهم على الدعاء
منازلة سيِّدهم ، وتعطفُ عليهم ؛ حيث يقول مولانا جلَّ ذكره : (لبيك
يا عبدي) إذا قال العبد : (يا رب) كما روي ذلك في بعض الأخبار :
(أن موسى صلى الله عليه وسلم قال : يا رب ؛ قال الله له : لبيك ،
فقال : يا رب ؛ هذا لي خاصة ، أو لعبادك عامة ؟ قال : بل لكل من
دعاني بهذا الاسم) أو كما قال .

(١) رواه الطبراني في « الدعاء » (٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٧٣) من حديث
السيدة عائشة رضي الله عنها ، وعند البخاري (٢٩١٥) من قول الصديق رضي الله عنه :
(حسبك يا رسول الله ؛ فقد ألحَّختَ عليّ ربك) .

(٢) انظر ما تقدَّم (ص ١٣٠) ، وفي (ج) : (أُخِرُوا إجابة عبدي . . .) .

فهؤلاء ليس لهم غرض في مطلوب ، ولا خوف من مرهوب إلا حب تلبية ربهم ، وتعرضاً لمجاورته ، ولذيد محاورته ، وصافي مواصلته ، فأبى عطاء أفضل من ذلك؟! وأي حاجة أنجح مما هنالك؟! وفقنا الله لذلك ، وأتحفنا بما هنالك ، وسلك بنا أشرف المسالك ، وصرفنا عن المعاطب والمهالك ؛ إنه ولي ذلك .

فاليأس من رُوحِ الله وصف الكفر ، ونعت الجاحدين ، حيث أخبرنا على لسان نبيه يعقوب حيث قال : ﴿ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾ وهو تفريج ما هم فيه من الكروب ، والظفر بالمطلوب ، ونيل المرغوب على أسر حالٍ وأهنا ، وذلك ثمرة حسن ظنه بالله ، حيث أمر به من لم ينله ما ناله من الحزن والكرب^(١) ، فهنا يتحقق حسن الظن أو اليأس والإبلاس ، فلم يوجب له ما ناله بأساً ، ولم يلحقه بأساً ، فعلى مثل هذه الحالة فكن ، وأما مع مساعدتك بقضاء حوائجك ونيل مآريك . . فلم تتحقق لذلك إلا هنالك ، ولي في [ذلك] :

ففي دعا العبد إلى مولاه مكرمة ونيل حاجته من كلٍ مرغوبٍ
فكن طريحاً على أبواب عزته عن اختيارك وعن حالتك منسوب
لا يئس العبد من تأخير حاجته فالعبد للرب بالتسليم مطلوب

فإياك والشك ؛ فالشك أيضاً من صفات الكفر وشيم المُبَعِدِينَ ، قال الله جل ذكره : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ هذا في الشك في الله ،

(١) إشارة لقول سيدنا يعقوب - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لأولاده : ﴿ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْمَكْرُورِينَ ﴾ ، فكان ما كان من أمر سيدنا يوسف عليه السلام .

والشك فيما عند الله ، وما وعد الله : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا ﴾ أعاذنا الله
من الشك بعد اليقين ؛ فلذلك قال المؤلف بإثر هذه الحكمة مشيراً إلى
معناها ، وناصراً لمبناها ، قال رضي الله عنه :

لَا بُشْكِكَ فِي الْوَعْدِ عَدَمٌ وَقُوعِ الْمَوْعُودِ بِهِ وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ ؛ لِئَلَّا يَكُونَ
ذَلِكَ قَدْحًا فِي بَصِيرَتِكَ ، وَإِخْتِمَادًا لِنُورِ سَرِيرَتِكَ

فحيث وعدك الحق وعداً .. فهو لا يخلف الميعاد ، فمتى شككت
في صدق وعده ، واستبطأت وجود عونه ونصره .. فذلك قدحٌ ؛ أي :
نقصٌ في بصيرتك ، ولهذا دون ما سبق من اليأس عند تأخر العطاء ؛
فإشارته في اليأس إلى طمس البصيرة أبعد وأكثف من القدح فيها ؛ فإن
القدح فيها مع وجودها أخفٌ من الطمس لأصلها .

فإذا فهمت ما ذكرنا لك .. علمت أن الشك هنا ليس من الشك
في الله ، ولا من الشك فيما عند الله ، من حيث التأكيد بما وعد ،
ولكن من حيث تجويزُ عدم وقوعه من حيث العدل ، وإن له أن يمنع
ذلك أو يفعل مثلاً .

ومثل هذا التشكيك في عدم وقوع الموعود به قد يخالج قلوب
بعض المؤمنين سيما إذا تعيَّنَ زمنه ، ولكن من علامات مباشرة الإيمان
للقلوب ، وانكشاف أستار الغيوب بصريح الإيمان ، وإشراق أنوار
الإيقان : أن يكون الإنسان حسنَ الظنِّ بالله ، ويقطع بصدق وعد الله ؛
ثقةً منه بأنه يفعل معه الفعل الحسن ، كما جرت به سنة الله بأنه يفي
إذا وعد ، ويلوي - أي : يعفو - إذا أوعد .

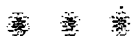
فإذا عُدِمَ وقوعُ الموعود به .. فليعلم العبد عند ذلك : أن الله في
الأمر علماً استأثر به دون خلقه ، وليعلم أن هناك حكمةً اقتضت التأخير
أو عدم الوقوع ؛ إما لتأخر شرطٍ قد قدر مقارنته له في سابق علمه ونافذ
حكمه ، فلا تتغير الحكمة الإلهية لأجل حظك وتحقيق مرادك .

فمتى شككت في وعد الله وأردت غير مراد الله .. كان ذلك قادحاً في بصيرتك ، مُخْمِداً نور سريرتك ، والبصيرةُ هي للقلب كالبصر للقلب ، والسريرةُ : هي نور ذلك البصر القائم بذلك البصر ، والخمودُ : خبوءُ إضاءتها وانتشارها في أرجاء القلوب ، وكمونها تحت أستار كنايف الشهوات وظلم الذنوب مع بقاء أصلها .

فالشكُّ في الطرف الأقرب إلى جانب اليقين من اليأس ، كما أن الظنَّ أقرب أيضاً من الشك ، فكأنك تيقنت وعدَّ الله ، ولكن حيث لم يأت على ما ظننت سيما وقد وجدت مخايل إبان وقوعه ؛ كاضطرار ، ووجود إعسار ، واحتباس أمطار ، وصبر عند مقاتلة عدو لطلب الانتصار ، وغير ذلك مما وعد به من اليسر مع العسر ، والنصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ؛ فمع عدم وقوع ذلك عند تعين أزماته .. فلا ينبغي لمن كان ذا بصيرة وصفو سريرة أن يشكَّ في وعد الله .

فالموعد صادق والوعدُ حقٌّ ، فلا يشك العبد في وعد سيده ومولاه ، وليطمئن إلى وعده ، ويعلم يقيناً أنه واقعٌ ليس له مانع ، قال الله جلُّ ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ، فإياك أن تسيء الأدب .. فينالك التعب والنصب ، ولي في ذلك :

فلا تشكَّنْ في الموعود إن له . وقتاً متى حان جا بالفتح والفرج
لا تخمدنْ لنور اليسر وأغزلهُ . مِن هَمِّكَ أَوْ سَكِّكَ المَقْرُونِ بالحرَجِ
كم ما تضيق أمر العسر كان له . من الفَرْجِ مَخْرُجٌ والضيقُ منفرَجِ



قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا فَتَحَ لَكَ وَجْهَهُ مِنَ التَّعَرُّفِ . . فَلَا تَبَالِ مَعَهَا وَإِنْ قَلَّ عَمَلُكَ ؛ فَإِنَّهُ
مَا فَتَحَهَا لَكَ . . إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ
هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ ، وَالْأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ !؟ وَأَيُّنَ مَا أَنْتَ مُهْدِيهِ
إِلَيْهِ سِوَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ !؟

هذه الحكمة أصل لما بعدها ، وهي تحتوي على معانيهما ، وإنما
أنتى بهما زيادة إيضاح ، وتفصيلاً لما أجمله ، وتحقيقاً لما فضله ؛
فلذلك عبر بـ (فتح) .

فالفتح : أثرٌ من آثار اسمه الفَتَّاح ، وهو لأعيان الوجود ومنازلات
الشهود مفتاح ، فإذا اختص الله به عبده . . كان له من أخصى العطايا ،
وأعظم المن وأشرف الهدايا ؛ فلذلك كان آية محمد صلى الله عليه
وسلم من بين الأنبياء ، وكان لخواص أمته من ذلك نصيب : ﴿ وَأَخْرَجْنَا
مُجُوبَهَا صَهْرًا مِنْ لَدُنِّي وَقَفَّحَ قَرِيْبًا وَيَسِّرَ التَّوْمِيْنَ ﴾ .

والفتح : هو واردٌ رباني ، ونفسٌ رحماني ، تُفاجأ به القلوب
من مصونات الغيوب ، وهو يعطي الكشف العرفاني ، والاختصاص
الامتثاني ، فإذا أُتجفَ به عبد ، وكُشِفَ له عن مصونات الأسماء ،
وقام لها بما تستحقه من آداب العبودية ، وتلقى ما تعطيه من ذخائر
العطاء تحت أستار الابتلاء . . فكلُّ ما واجهه منها عطيةً وافية ، وحكمة
شافية ، ومرتبة قريبة ، فيكون معها العبد بحكم ما تعطيه ، لا بحكم
طبعه وتميِّيه ، فيكون بحكم ما أقيم فيه : إما شكراً أو صبراً ، أو شهوداً
منةً أو توبةً ؛ فهي لم تأت إليك إلا بما أودع فيها من أسرار تعرفه ،
لو لم يكن الذنب في بعض الأحيان خيراً للمؤمن من العجب . . ما

قَدَّرَ عَلَيْهِ ... « الْحَدِيثُ »^(١) ، فَإِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا تَجْهَلَ فِي شَيْءٍ .

فَفَرَضَ الْعَارِفُ : الْفَنَاءَ فِي الْأَفْعَالِ ، وَنَوَافِلَهُ : الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ ، وَغَايَةَ مَطْلَبِهِ وَمَخْتِنِدُ هِمَّتِهِ : الذَّاتُ ، كَمَا أَنَّ فَرَائِضَ الْعَمُومِ : الصَّلَوَاتِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَاتِ ، وَنَوَافِلَهُمْ : سَائِرَ طُرُقِ الْخَيْرَاتِ .

فَإِذَا تَقَرَّبَ الْخَلْقُ بِصِيَامٍ وَصَدَقَةٍ وَصَلَاةٍ .. تَقَرَّبَ الْعَارِفُونَ بِمَحْوِ صِفَاتِهِمْ ، وَاسْتَهْلَكَ ذَوَاتَهُمْ ؛ فَمَنْ كَانَتْ حَالَتُهُ الْفَنَاءَ وَالْأَضْمَحْلَالَ .. فَلَا يَبَالِي وَإِنْ قَلَّتْ مِنْهُ الْأَعْمَالُ ، كَيْفَ يَبَالِي بِمَا فَاتَ وَهُوَ مَطَالَعٌ لِحَمَالِ الذَّاتِ فِي جَمِيعِ الذَّوَاتِ ، وَتَجَلِّيِ الصِّفَاتِ عَلَى دَوَامِ الْأَوْقَاتِ ، وَوُجُدَانِ الْمَوَاصِلَاتِ وَالصَّلَاتِ ، الْمَوْهَبِيَّاتِ فِي الْمَلَائِمَاتِ وَالْمَوْثِقَاتِ ؟!

فَإِذَا طَالَعَ حَسَنَ التَّدْبِيرِ وَبَدِيعَ التَّصْوِيرِ وَعَجَائِبَ التَّقْدِيرِ .. عِلْمَ أَنْ تَدْبِيرَ اللَّهِ وَاخْتِيَارَهُ لَهُ أَتَمُّ مِنْ تَدْبِيرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَتَحَقُّقُ أَنَّ مَا أَوْدَاهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ صِنُوفِ الْبَلَاءِ مُتَضَمِّنٌ لَهُ عَلَى مَنْنٍ وَأَلْطَافٍ وَإِسْعَافٍ بَعْطَاءٍ جَزِيلٍ ، وَعِلْمُ يَقِينًا أَنَّ الْمَنْعَ عَيْنَ الْعَطَاءِ .

وَتَعْبيرُ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِـ (الْفَتْحِ) .. مِنْ بَدِيعِ حِكْمَتِهِ ، وَذِكَاةِ فِطْنَتِهِ ، وَبِـ (الْوَجْهِ) وَبِـ (التَّعْرِفِ) ، فَإِنَّ الْفَتْحَ يَعْطِي الشُّهُودَ ، وَمَعْرِفَةَ حَقَائِقِ الْوُجُودِ ؛ فَلَقَدْ أَحْسَنَ وَأَتَقَنَ .

(١) وَهُوَ مَا رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ سَيِّدِنَا كَلِيبِ الْجَهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا فِي « كَنْزِ الْعَمَالِ » (٧٦٧٢) ، وَهُوَ عِنْدَ الدَّيْلَمِيِّ فِي « مَسْنَدِ الْفَرْدَوْسِ » (٤٤٧١) قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : لَوْلَا أَنَّ الذَّنْبَ خَيْرٌ لِعِبْدِي الْمُؤْمِنِ مِنَ الْعُجْبِ .. مَا خَلَيْتُ بَيْنَ عِبْدِي الْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ الذَّنْبِ .
وَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي « الشُّعْبِ » (٦٨٦٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ سُئِلَ : مَا الذَّنْبُ الَّذِي لَا يَغْفَرُ ؟ قَالَ : (الْعِجْبُ) .

وتعبيره أيضاً بـ (فتح) باستتار ضمير الفاعل . . . ينبى أيضاً أن ذلك من قبل الله ، لا للعبد فيه علة ، ولا يتوصل إليه بحيلة ، بل ذلك من باب المنة التي لا تترقب بوقت مخصوص أو عمل ، بل لا سبيل إلى فتوح المعارف ، وإشراق وجوه اللطائف ، ومحو ظلمات الكشائف إلا بمساعدة عناية ربانية ، وجذبة اختصاصية ونفحة إلهية ، وتعريضة وقتية ، ونفس رحمانية دُرِيَّة غيبية ، في الأيام الجمالية الأزلية .

والفتح يكون في كل مقام بحسبه ؛ فيكون في أسرار الشرائع والأعمال ، وفي دقائق طرائق الأحوال ، وفي مطالعة صفاء الأسرار وفسيح تنزُّه الأرواح في مسارج الجمال ، ومناجح المعارف وروائح نفحات الوصال ، وفي مطالعات محرقات الجلال ، وقد يكون لأهل الوصال ، بالتلاشي والاضمحلال ، عند ظهور سلطان الكمال .

وراء ذلك فتوح ومنوح لم تجر ولا يفي بها التعبير والمقال ، ولم تدخل تحت التكييف والمثال ، ولم تخطر بعدُ على بال ؛ مما لو بدت غبرة من رمال بحورها الطافحة وأسرارها اللاتحة . . . لذابت لها صمُّ الجبال ، ولم يقوَ على سماعها سمع ، ولم يحتمل أثقال مقالها حال .

وفتوح وجهة التعرُّف لا يكون إلا عند مطالعة الجمال والجلال ، والجمال في الجلال ، والجلال في الجمال ؛ فهو موردٌ ذلك عليك ، فافهم الإشارة في قوله : (مورده عليك) : أنه مما لا يلائم طبعك ، فهو مورد ذلك إليك ، ومع كونه موردٌ عليك . . . فهو متفضِّل ومتطولُّ به عليك ، فاعرف قدره ، فذلك خارج عن وسعك ، وقاصر عنه فهمك حتى فتح وجه تعرُّفه إليك فيه .

ووجه التعرُّف : هو أن يرزقك الفهم عنه فيما منَّ به عليك ؛ من رفع

درجات ، وزيادة حسنات ، وتكفير خطيئات ، مما لا يحصى شكره من الفضائل والنعم واليمن ، في بواطن البلايا والمحن ، وإليه الإشارة بقوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطِنَةُ ﴾ .

الظاهرة : ما ظهر من نعم الطاعات والموافقات ، والدلالات النبويات ، والطرق العلمية ، والأعمال البدنيات ، وغير ذلك من سائر النعم الحسنيات ، وباطنة : من المثوبات والقربات ، والتعريفات الربانيات ، في بواطن المحن الدنيويات ، وما لك في ذلك من المصالح الدينيات والدنيويات ، مما يطول تعدادها ، وتكثر أعدادها ، وقد أومأت إلى بعض ذلك الآيات القرآنية ، والأحاديث النبويات ، وشرحت أبعاضاً منها أفاضل السادات ، وقد شوهدت بركاتهما وبواهر آياتها عليهم ، وأينعت ثمراتها لديهم .

وأين ما أورده إليك من ذلك مع غيبتك فيه عن حولك وقوتك ، وإدراكك بأعمالك وعلومك مما أنت مهديه إليه من أعمالك وطاعتك المشوبة بظلمة نفسك وإعجابك وطلب حظك من الجزاء ؟!

وماذا تطلب من جزاء على عملٍ هو متفضّل به عليك ، ومقبل بهدايته إليك ، وما عسى أن تخلص من مطالبة الإخلاص فيه من الرياء وآداب الاقتداء ، وما علمت أنك في عملك وطاعتك أحوج إلى الاعتذار مما اقترفته في حال تلبّسك من الأوزار ، مما تستحق به دخول النار ، لولا فضل الكريم الغفار ؟! فإذا ؛ أنت فيه أحوج إلى الاستغفار .

وما هو مورده عليك سالمٍ من ذلك ، بل فيه من مضادة هوى النفس ما لا يخفى على من تحقّق بمجاهدة النفس ، فمن ذلك ضعف قوتها وسدّ أبوابها ، سيما ومن ذلك الحمى والفقر وغير ذلك من منغصاتها ؛

من وخيم مرعاها، ومشؤومات هواها، فألى ذلك أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «إنها - أي: الحمى - ظهور»^(١) أي: عن الخطايا والأوزار، وحديث: «يدخل فقراء أمي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وذلك خمسن مئة عام»^(٢)، وغير ذلك مما لو بسطناه.. لأدئ إلى الإكثار، وقصدنا في ذلك الإشارة والاختصار.

فإذا علمت ذلك.. ظهر لك وجه استلذاهم للبلاء، ورؤيتهم لها أنها منح؛ مثل ما يروى في ذلك عن الحكيم الترمذي^(٣)، وما يحكى عن أبي العباس ابن العريف، فيما حكاه عن السادة الأصفياء، الذين اقتصوا بطريق الابتلاء، الذي [هو] ثمر شجرة الاصطفاء، وتحقيق طريق الاجتباء؛ إذ دُكر فيها أبو الخير رضي الله عنه ونفعا به ومن والاه من البدلاء الأصفياء^(٤)، والمقربين الأخفياء كمحمد الإسفنجي، وما حكاه عن شيخ طرسوس، حيث قال: أشرفنا على خزائن العطاء، فلم نجد عند الله شيئاً أقرب ولا أشرف من البلاء، فسألناه إياه.

ثم قال يباثر ذلك مستحقراً ما نزل به، راوياً عمّن هو أعظم منه حالاً، وأعلئ مقاماً، وأشد بلاءً: كيف بك لو رأيت سيد الزهاد، وقطب العباد، وإمام الأولياء والأوتاد، في غار بأرض طرسوس

(١) رواه البخاري (٣٦١٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٥٣)، وابن ماجه (٤١٢٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «غيث المواهب العلية» (٧٢/١).

(٤) يعني: ذكر في الحكاية أبو الخير... إلخ، وفي «غيث المواهب» (٧٣/١): (أبو الخيار) بدل: (أبو الخير)، والخير منقول عن كتاب «مفتاح السعادة» لابن العريف رضي الله عنه.

وجبالها ، لحمه يتناثر ، وجسده يسيل قيحاً وصديداً ، وقد أحاط به الذباب والقمل ، فإذا كان الليل . . لم يقنع بذكر الله وشكره على ما أعطاه من الرحمة ، وأسكن جسده من العافية^(١) حتى يشد نفسه بالحبل ، فيستقبل القبلة ، فيصلي عامة ليله حتى يطلع الفجر . انتهى ما أردنا إيراده في هذه .

فهذا يصدق قوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء أشدُّ بلاءً ، والأمثل فالأمثل »^(٢) ، فانظر كيف استلذوا ما تألم منه غيرهم ، واستلنوا ما استوعره البطالون ، ولم يروا أن ذلك بلاء ، بل رأوه مئةً وعطاءً ، يجب عليهم القيام بالشكر عليه .

فهذا وجه التعرّف فيما يأتي من المنغصات والمؤلمات ، على خلاف ما تطلبه النفس من السكون إلى الراحة والمستلذات ، فإذا أشهدهم ذلك وحققهم به . . فحريّ ألا يبالي وإن قلت الأعمال البدنيات .

من بعد ما يفتح المولى تعرّفه فلا تبال إذا أقللت في العمل
فما من الله تظهز فيه منته وما من العبد منسوب إلى الخطي
فكل ما منه محفوظ بلا ريب وكل ما منك لا ينفك عن خلل
فلا فلاح ولا نجاح للعبد إلا في الخروج عن المرادات النفسانية ،
والشهوات الحيوانية ، وذلك حاصل فيما يتعرّف به إليك ، ومرادها أن

(١) في (أ ، ب) : (من العامة) بدل : (من العافية) ، والمثبت من (ج) ، وهو موافق لما في « غيث المواهب » (٧٤ / ١) ، وهو الأليق .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٨) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (٧٤٤٠) واللفظ مقارب عنده ، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

تعيش عيش المترفين ، وتتوصل بصالح أعمالها إلى سعادة الآخرة ،
فقل أن تصفَ تلك الأعمال مع ما ذكر من الإتراف وإسعافها بمراداتها
وحظوظها ، فكان اختيار الله لعبده أن يخرجهُ عن مراده إلى مراد سيِّده
ومولاه ، وفي ذلك منتهى الصلاح وغاية الفلاح .



قال رضي الله عنه كالمفترع إلى ما أشار إليه من التعرف ، وأن تلك
التعرفات آثَارٌ عن الأسماء ؛ فلذلك قال :

تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ الْأَعْمَالِ ؛ لِتَنَوُّعِ وَارِدَاتِ الْأَحْوَالِ

فالأعمال : فروع ، والأحوال : أصول تلك الفروع ، والأسماء : أصول فروع الأحوال ، والصفات : أصول للأسماء ، والأسماء : فروع ، وآثار الأسماء تظهر على القلوب ، وآثار الصفات تتجلَّى على الأسرار ، والقلوب تظهر آثارها على الأعمال الظاهرة ، والأسرار تظهر أنوارها على النفوس الطاهرة .

فغاية الإفاضة القلبية الأعمال القلبية ، ومنتهى التجليات السريَّة الأخلاق السَّنية والحالات السَّنية ؛ فكل فرع من الأعمال بحسب ما شاكله من الأحوال ، والأحوال بحسب ما تقتضيه مظاهر الأسماء ؛ فمن ذلك تنوَّعت أجناس العبادة ، فالعبادات أنواع ، وهي للأحوال أتباع ، كما أن الأحوال تحت حكم الأسماء ، فكلُّ اسم يقتضي ظهورَ عبادة ؛ فالذكر باللسان ، والصلاة بالأركان ، والزكاة في الأموال ، والصيام بكف الشهوات واجتناب الآثام ، والحج أيضاً بالأركان .

فهي عبادة ، واختلفت أنواعها لما علمت من افتراق الأحوال بحسب اختلاف ظهور الأسماء ؛ فالأحوال آثارٌ للأسماء ، وإن شئت قلت : أنوارها ، فكل اسم يطلب مقتضى مظهرٍ من العبادات غير ما يطلبه غيره ؛ فلذلك تنوعت الأعمال بحسب تنوع الأحوال التي هي آثار الأسماء .

فمن الأسماء : ما يقتضي مظهر التعلق والتأله ؛ فله من الأعمال الذكر ، ومن الأحوال الفكر .

ومنها : ما يقتضي مظهره من العبد الذلة والخضوع والخشوع ،

والتمسك والتعلق ؛ فله من الأعمال الصلاة ، ومن الأحوال الهيبة
والتعظيم .

ومنها : ما يقتضي ظهوره من العبد الصبر والكف ، والخروج عن
الوصف والهيكَل التجويفي إلى التعلق والتخلق بالاسم الصمداني (١) ؛
فله من العبادات الصوم ، ومن الأحوال الاستغناء .

ومنها : ما يقتضي ظهوره وإشراق نوره التوجُّه والإقبال ، والقصد
والامثال ؛ فله من العبادات الحج ، ومن الأحوال الاستغراق والإقبال
بكلية إلى المعبود ، والانطماس تحت مظاهر الشهود .

فهذا تنوع تجليات الأسماء ، واختلاف أجناس الأحوال ، وافتراق
أنواع الأعمال ، وحال ما تلقي الأسماء على القلوب آثارها ، وتجلِّي
عليها أنوارها .. نسمِّي أحوالاً .

وحال بروزها بمقتضاها ؛ أي : ما تقتضيه من التعبد .. نسمِّي
أعمالاً ، وما يرد على الأرواح من أنوار الصفات .. فتسمِّي مقاماتٍ من
حيث العبد .

وما يتأثر به من آثارها .. فهي تقتضي قيام القلب بمقتضى وارداتها ؛
كما قام القلب بمقتضى تجليات الأسماء .

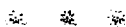
فحالات القلب أيضاً متنوعة ، ومقامات الأرواح متميزة وإن
اجتمعت من حيث الشهود .

فحالات القلب كاليسط وله أنواع من جنسه ، والقبض وله أنواع من
جنسه ، ومقامات الأرواح كذلك متميزة كالهية والأنس .

(١) إذ من معاني (الصمد) : مَنْ لا جوف له .

وما تتلقاه الأرواح عن الأسرار . . فليس هذا محله ، وسيأتي إن شاء الله ، ولي في ذلك :

تنوع أجناس أعمال الوري فهم بحسب ما تثمر أخوال كذا أنواع
إن الفروع على الأصل دائرة بحكم ما تُعطي الأسماء أتباع



فالأعمال لها من التزكية واللفظ بحسب المحل القابل لما يرد
عليه ، والمحل له من الصفا والوفا بحسب ما يلقي عليه ؛ فلذلك قال
المصنف رضي الله عنه :

الْأَعْمَالُ : صُورٌ قَائِمَةٌ . وَأَرْوَاحُهَا : وُجُودُ الْإِخْلَاصِ فِيهَا

فالأعمال تتفاوت بحسب العاملين ، فصورة كل عمل مشاكلة لحالة من صدر عنه ذلك العمل ، ﴿ سَيَجْرِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ .

فمن العاملين : من أعوز وجود الأنوار ؛ فعمله صورة بلا روح ، ومن العاملين : من يقتبس من المشكاة القلبية ، وهم الأبرار المستصبحون بمضيئات الأنوار .

وإخلاص كلِّ عاملٍ بحسب مقامه ؛ فحالة الأبرار تخلص الأعمال عن شوائب العلل ، وإخلاص العمل من غير تشؤف إلى جزاء آجل ، أو حظ عاجل ، فهؤلاء عاملون لله بصدق المعاملة ؛ فهم مطالبون بتصفية الأعمال عما يفسدها ويبطلها ؛ كالتخلُّص عن الرياء وحبِّ الشناء والعُجب والسمعة ، والالتجاء إلى الله بحسن الإنابة في قبول ذلك .

وكل عمل بلا إخلاص صورة بلا روح ، فلا يصلح للعَرْضِ ، ولا تقبله سماءٌ ولا تشهد به أرض ؛ فهؤلاء مقامهم ووصفُ حالهم : ﴿ إِنَّا لَنَنبُؤُكَ ﴾ .

وأما إخلاص المقرِّبين .. فهو خلاصة الإخلاص ، وتحقيق الصدق ؛ فإخلاصهم بعدم رؤيتهم نفوسهم في جميع الأعمال والأحوال ، فهم قائمون بالله فانون عنهم ، فوصف حالهم وتحقيق مقامهم : ﴿ إِنَّا لَنَسْتَعِينُ ﴾ .

فلما استوى على قلوبهم مشهد الفردانية ، وسلطان الوجدانية .. فبالحري : ألا يشهدوا لهم فعلاً ولا وصفاً ، وعند شهود شمس الأحدية

ألا يشهدوا لهم ذاتاً ولا نعتاً ولا مقاماً ؛ فكم بين العامل لله مع وجود نفسه ، وبين القائم بالله مع غيبته عن نفسه !؟

فالأول : مطالب بالإخلاص ، يعمل على خروج الخلق عن رؤيته ، فهو يترقى في مراقبي الإخلاص .

والثاني : طالبُ الخلاصِ عن شهود نفسه ، ينتزعه في رياض خلاصه .

فبان لك تنوعُ أنواع الأعمال بتنوعِ أجناس الأحوال ؛ إلى أبرارٍ يتقربون بأنواع القرب إلى الله ، وإلى مقرِّبين يتوصلون بتحقيق الفناء عن أفعالهم وأوصافهم وذواتهم بالله .

فانظر ماذا ترى في قومٍ فارِّين إلى الله عن الخلق ، وفي قومٍ لاثنين بالله وعائدين به عن أن يشهدوا لأنفسهم مع الله وجوداً ، ولأفعالهم مع أفعاله شهود حسنة أو اقراف سيئات ، ولي في ذلك :

والمسابقون لهم في القرب آياتُ	أعمالُ أشكالُ والإخلاص حالاتُ
تخليص أعمال أو تحقيق حالات	فكلُّ حالٍ له في العاملين به
تري في العالم الأعلى دلالات	شواهدُ ظهرت في العاملين كما
في مشهد العلم تحقيق الهدايات	إخلاص حالات أرباب اليقين لها
كما لأحوال أصحاب المقامات	وأرواح أجساد أعمال العباد هنا

ثم لما كان في الخمول ما يُحمدُ كلُّ صاحب مقامٍ على مقامه ، ويثبت فيه أقدامه ، ويعينه على بغيته ، ويحصل به في أقصى مُنْبِيهِ . . .
قال بائر ذلك :

إِذْفِنِ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخُمُولِ ؛ فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنِ . . لَمْ يَبْمِ نِتَاجُهُ

قوله : (ادفن) هنا فيه إشارة عجيبة ، وترشيحة بديعة ، بل نقول : غب عن شهودك بوجود معبودك ، وتمثيله بالدفن يشير إلى أن الأولي بالمريد إيثار الخمول على الاشتهار ؛ لكونه معيناً له على الإخلاص ، ووسيلة إلى الخلاص ، وأزكى لأخلاقه وأعماله ، وأصفي لأحواله .

والاشتهار غالباً أبعد عن ذلك في حق المبتدئين ؛ فما يقوم ويثبت مع شهرة الحال إلا كُمل العلماء وسادات الأبدال ، الراسخين في المعارف ، المتمكنين من الأحوال ؛ فلذلك حث المشايخ على الخمول ؛ لما فيه من السلامة من القواطع عن نهج الوصول ، مع ما يحصل من صفاء الوقت عن المكدرات والمحركات لكرامن الأخلاق المذمومة والأحوال الملوثة ؛ فلذلك حذروا كل مرید وسالك ، وعملوا كتباً ورسائل ؛ نصحاً وشفقةً على عباد الله ، وحذوا في طريقت الأكاير ؛ لما فيه من الراحة العاجلة والسلامة .

وحد الخمول : هو ضعة النفس في المنازل ، عندما يتكزع القلب في المناهل ، فيتحرّونه ويستديمون التخلق به حتى يكون لهم التواضع خلقاً وحالاً ، فلا يجدون ألم ضعة النفس ، بل يستمرثونه ، ويستحلون ذوق الذلة ، فتتغير حالاتهم لفقدائها ووجود العزّ والجاه ، حتى زويت عنهم في ذلك أحوال ينكرها عليهم ظاهر العلم .

وجوّز لهم ذلك تداوياً لما ألم قلوبهم ، وكدر حالاتهم ، وأمراض أحداق بصائرهم ؛ حتى يتوجّه إليهم الخلق بالذم وعدم المنزلة عندهم ؛

فيعدوا حيثئذ إلى أحوالهم بالذم والإيذاء بمحو صفات النفس المذمومة ،
بل بعدم رؤيتها بالكلية .

فتنصفو لهم الأوقات ، وتنجلئ لهم أسرار الصفات ، مثل ما
رأيت فيما يروى عن السادات ؛ كأويس القرني وأبي تراب ، ممّن
جعلوا الغلوات والمفازات والخرابات لهم مأوى ، فعاد تراثها لهم
حلوى ، وصاروا للسالكين قادة في محو الهوى وقبيح العادة ، فيحثون
إلى الخمول والخلوة ؛ لِمَا فاجأ قلوبهم من الجلوة ، فعَلَّتْ منهم
الأحوال ، وصَفَّتْ منهم الأعمال ، من شوائب الرياء ، ومهاوي الضلال ؛
كالعجب والفخر والإدلال ، بعكس ما عليه أبناء الدنيا المغرورون
الجهّال ، المستدرجون الضّلال ؛ من طلب العلو والظهور من غير نية
لهم في ذلك إلا مجرد هوى ومحض دعوى ، فترى نفوسهم اللثيمة
تستروح إلى رفع الصيت بالمنصب والمال ، ويخيل إليها أنها من أهل
المقام والحال ، من العارفين والعلماء الأبطال ، وهو راكب للمحال ،
مقتحم لُجّة ضلال .

فانصح نفسك أيها المسكين ، ولا تذبحها بغير سكين ؛ ففي
الخمول تحت أذيال الذلة غاية المأمول .

وفي دفن وجودك في تراب ذلة العبودية ، وسكوتك تحت سلطان
السكينة ، وانطراحك في تراب فناك ، وترك دعواك . . فعند ذلك تتفتّق
الحبّة القلبية ، المعبّر عنها باللطيفة الربانية في الأرض القلبية ، فهي
البذرة الأزلية في الفطرة الإنسانية ، فيفتح فيها بابان : باب يعلو
ويسمو ، ويتسع وينمو ، وباب ينزل إلى أرض العبودية في العوالم

الشهادية ، وتجري^(١) في ذلك الباب أبواب نازلة تدور على الطرق
السنية ، وإخراج الأخلاق النفسانية ، والدواعي الهوائية ، كما تدور
العروق في الأرض .

فلا يزال الباب العالي يستقوي نموه وارتقاه ، وتفتق الأزهار ،
وتسرق منه الأنوار ، وتينع ألوان الشمار ، وتكثر منه الشعب العرفانية ،
والأوراق والأزهار الإيمانية ، وتتعالى وتتسع في هوى الملكوت الحَقَّاني
أغصانهُ ، وتظهر في الفسيح الرباني أعيانه ، وتتلوّن في حقائق الأسماء
أفئانه ، ولا تزال هذه الأبواب الملكية تتسع في طرق العبودية ، وتمتدُّ
إلى أصلها وتربتها ، فتتمو تلك الصاعدة بحسب تمكُّن هذه ورسوخها ،
وتربو هذه النازلة بحسب صعود تلك وسُمُوها .

وكل نبتٍ لم يدفن كذلك . . لم يتم نتاجه ؛ لأنها لم يفتح [له]
البابان ، فتبقى في رتق الجهل والعدم وإن انفطرت أبوابها ، فلا تجد
نزولاً إلى أرض السنة ؛ لأنها لم تدفن فيها ، ولا ترقى إلى سماء
الحقيقة ؛ لعدم نموها وعود سيرها ، فلم تصعد في سماء الحقائق
أغصان ، ولم تنفتح له في أرض الشريعة أعيان .

فانظر ما أبدعها من إشارة ، وأوضحها من عبارة ، وما أسناها من
بشارة لمن ستر وجوده بوجوده ، وغاب عن شهوده بوجوده معبوده !! وما
أدري ذلك مراد للمؤلف أم لا ؟

وأما فضل الخمول قبل أوان التحقق بالأصول ، والتحلي بملابس
الوصول . . فله فضائل ودلائل من الكتاب والسنة .

(١) وفي (ب ، ج) : (وتجرُّ) بدل : (وتجري) ، وكلاهما مناسب .

قال الله جل ذكره : ﴿ يَلِكُ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا ﴾ ... إلى غير ذلك من الآيات الدالة على فضيلة الخمول ،
والتقلُّل من الدنيا والذبول عن رونق الشهرة قبل تحقق المأمول ، ولم
يتحقق ذلك إلا بمفارقة الدنيا والعبور على الصراط وكل أمر مهول .
وأما الدلائل من الحديث المنقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم . .
فأكثر من أن تحصر ؛ فمن ذلك : حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نَوَّه فيه بأويس القرني رضي الله
عنه ، وأشاد ذكره ، ونَبَّه فيه على عظيم أمره ، رضي الله عنه أنه قال :
بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حلقةٍ من
أصحابه ؛ إذ قال : « ليصليَنَّ غداً معكم رجلٌ من أهل الجنة » ، قال أبو
هريرة رضي الله عنه : فطمعت أن أكون أنا هو ذلك الرجل ، فغدوت
فصليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقمت في المسجد
حتى انصرف الناس ، وبقيت أنا وهو ، فبينما نحن كذلك ؛ إذ أقبل
رجلٌ أسود متَّزرٌ بخرقه ومرتد برفعة ، فجاء حتى وضع يده في يد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا نبي الله ؛ ادع الله لي
بالشهادة ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم له بالشهادة ، وإنا لنجد
منه ريح المسك الأذفر .

فقلت : يا رسول الله ؛ هو هو ؟ قال : « نعم ؛ وإنه لمملوك بني
فلان » ، فقلت : أفلا تشتريه فتعتقه يا نبي الله ؟

فقال : « وأنتى لي بذلك ؛ إن كان الله تعالى يريد أن يجعله من
ملوك الجنة وساداتهم ؟! يا أبا هريرة ؛ إن الله عزَّ وجلَّ يحب من خلقه
الأصفياء الأخفياء الأبرياء ، الشعثة رؤوسهم ، المُغبرَّة وجوههم ،

الخمسة بطونهم من كسب الحلال ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء ..
لم يؤذن لهم ، وإن خطبوا المنعمات .. لم ينكحوا ، وإن غابوا .. لم
يفقدوا ، وإن حضروا .. لم يدعوا ، وإن طلعموا .. لم يفرح بطلمتهم ،
وإن مرضوا .. لم يعادوا ، وإن ماتوا .. لم يشهدوا » .

قالوا : يا رسول الله ؛ كيف لنا برجلٍ منهم ؟ قال : « أوس القرني ... »
الحديث بطوله ، قال فيه : « وإنه لرجل أشعث ذو صهوة ، بعيد ما بين
المنكبين » أو كما قال ^(١) .

وحديث : « رب أشعث أغبر ذي طمرين ، تنبو عنه أعيين الناس ،
مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله .. لأبره ... » الحديث ^(٢) .

وحديث أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال : « يقول الله عز وجل : إن أغبط أوليائي عندي لمؤمنٌ خفيف الحاذِ ،
ذو حظٍّ من الصلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه في السر ، وكان غامضاً
في الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك ، ثم
نفض يده فقال : عجلت منيته ، قلَّت بواكيه ، قلَّت ترائه ... » الحديث ^(٣) .

قلت - والله أعلم - : إن هذه حالة الملاستية من الأولياء ، وبذلك
الاسم عند طائفة عرقوا ^(٤) ، وبذلك الرسم بين الأولياء وُسُموا .

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨١/٢) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق »
(٤٢٣/٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرک » (٣٢٨/٤) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/١) عن
سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٧) ، وابن ماجه (٤١١٧) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه ،
و« حقیف الحاذ : كناية عن قلة ماله وعياله .

(٤) انظر « تهذيب الأسرار » للمخروشي (ص ٦٥) .

فمن جملة ما يعرفون به : أن عباداتهم فيما بينهم وبين الله لم يطلع عليهم ، يحبون لو ظهرت عنهم ما يسقطهم عند الناس ، ولا يحبون الشهرة بالطاعات والورع ، فتراهم لا يسألون عن ورعهم ؛ لما عندهم من الشاهد القلبي ، فكلما حاك عندهم . . تركوه ، ولم يحتاجوا إلى من يخبرهم جواز أخذه أم لا ؛ وذلك لما أشربت قلوبهم من صرف الصدق ، فهم النياييون باصطلاح القوم ، الذين تكشف بهم عن الخلق أزمات الأمور ، لا يظهرون خيراً ولا يبطنون شراً ، هم بين الناس وقلوبهم عاكفة بين الرفيق الأعلى ، صلاتهم في الأماكن المعطلة عن الخلق ، وفي أماكن غيبية تحت أكناف الغيرة وأستار الغيب ، لهم التصرف النافذ في الوجود بالروح والقلب والجسد ، قد نزع عنهم الغل والحسد ، محلهم : الصفيح الأيمن من العرش ، رضي الله عنهم ، ونفعنا بهم ، ولو شرحنا بعض حالاتهم . . لخرجنا عن مقصود الكتاب .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يسير من الرياء شرك ، وإن من عادي أولياء الله . . فقد بارز الله بالمحاربة ، وإن الله تعالى ليحب الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا غابوا . . لم يفقدوا ، وإن حضروا . . لم يدعوا ولم يعرفوا ، قلوبهم مصاييح أهل الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة . . » الحديث^(١)

فيكفيك هذا القدر في مدح الخمول وإيثاره ، وطلبه بالتستر بأثواب الذلة والمسكنة ، هذا وما كاد أن يخرج عن الحصر من حكايات الصالحين في شأن ذلك .

واعلم : أن الخمول وما ورد فيه من الفضائل ، وما ورد في أفضليته

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) .

على الشهرة .. لا على الإطلاق ، إلا إذا اقترن بالخمول فضيلة خلا
عنها في الشهرة ، و[كذلك] ذم الشهرة إلا إذا اقترن بها مذموم ، ولكن
الخمول أقرب إلى جانب السلامة ، لهذا في السالكين المبتدئين .

وأما أهل التمكين والسادات الواصلون .. فلا عليهم إن أقامهم الله
في مقام الشهرة أو الخمول ، فليس لهم في شيء طلب وتعمد ؛ لأنهم
متحققون بالعبودية ، مأخوذون عن أنفسهم تحت أحكام الربوبية ، فلا
يعطيهم مقامهم أن يتَّجروا مع الله على مقتضى إرادتهم واختيارهم ،
بل يكونون في قبضة مملكته ، يجرون حيث أجراهم ، ويقومون حيث
أقامهم ، غابوا عن الخلق بل عن أنفسهم ؛ فلم يروا من يختفون عنه
غير الله ، وهؤلاء هم الصوفية حقاً ، فلا يحبون دونه محبواً ، ولا
يطلبون غير مراده مطلوباً .

فبعد الله يكون مع الله حيث ما تقلبت به الحالات واختلفت به
الشؤون ؛ فمن أحب مع الله حالاً دون ما أقامه الله فيه .. فقد تحكَّم
على الله ، ونقض عقد العبودية على مذهبهم ، فهم المقرَّبون الذين
حسنا قوم سيئات عندهم .

فبعد الله لا يبالي أظهره الله أو أخفاه ، فلا أظهر ولا أستر من
مناصب الأنبياء والخلفاء ، ولكن هنا غور بعيد المهوى ، زلت فيه
أقدام كثير من المدَّعين ؛ لظنهم أنهم قائمون بالله لا بأنفسهم ، ولو
تغيَّرت عليهم حالة من حالاتهم أو عادة من عاداتهم .. إفتضحوا
بدعواهم القيام بالله ، فلو كانوا بالله .. لم تغيَّرهم الحادثات ، ولم
تنقض عزائمهم العادات .

فليحذر الإنسان من ذلك ، وليصح نفسه ويعرف منزلته ، ولا

يدّعي ما ليس له فيظن أنه اتصف بصفات الأكابر من الخلفاء والسادات الأولياء ، أو أنه تزقّى في مقامهم وهيئات !! أين أنت من ظهورهم واشتهارهم ؟! فإنهم قائمون في الأمور بالله ، يعدّون نفوسهم من جملة غمار خلق الله ، لا يتميّزون عنهم بشهوة دنيوية ، بل يضيّقون على أنفسهم ويوسّعون على عباد الله ، ومن تتبّع أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحواله وأخلاق الخلفاء الراشدين من بعده . . علم ما أشرنا إليه ، وتحقّق ما أوأنا إليه .

ومن ذلك : ما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يطوي الأيام المتتابعة ، حتى قالت له بعض نساائه قبل أن يتوفاه الله بأيام : لو دعوت الله أن يوسع عليك ؟ فقال : « ما أحبُّ إلا أن يُلحِقني بإخواني من أولي العزم » أو نحو ذلك^(١) .

وما روي عن عمران بن الحصين : لما زار رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة وكان معه عمران ، فاستأذن عليها ، فلما دخل هو وعمران . . فقالت : (ما أجد ما أواري به جسدي) فلقّت على جسدها بعباءة ، ووارت رأسها بملاءة خلّقة^(٢)

فانظر هذا التواضع مع شامخ عالمي منصبه ، وشهرة مقامه ؛ فهذا [حالهم]^(٣) في عالمي شهرتهم ، ورفعة منصبهم ، ومع ذلك : فهم في

(١) روى النسائي في « السنن الكبرى » (٧٤٥٤) عن أبي عبيدة بن حذيفة : أنه صلى الله عليه وسلم ألتمت به الحمى ، فقالت له عمته - أي : عمّة الراوي أبي عبيدة - فاطمة رضي الله عنها : لو دعوت الله فكشف عنك ؟ قال : « إن من أشد الناس بلاء الأنبياء . . . الحديث .

(٢) رواه الأجرى في « الشريعة » (١٦٠٧) .

(٣) في النسخ (فإنهم) بدل : (فهذا حالهم) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله تعالى أعلم .

غاية التواضع والذلة لله ، وغموض العين عن الدنيا وزهرتها ، ولي في ذلك :

اذْفِنِ وجودَكَ وِغِبْ في أرضِ مَسْكَنَةٍ مُنْكَسِرِ الرأسِ باكي العينِ ذا حزينِ
وفارقِ الأهلَ والجيرانِ منتزحاً عن التأنُّسِ بالمألوفِ والوطنِ
لا تَلُوْ عن جيرةِ السوادي فإن به حورَ المعارفِ يَخْطُبُها ذوو الفطنِ

فحيث عرفت شرف الخمول وإشاره ، وضرورة طلب الاشتهار
وأفاته . . قال :

مَا نَفَعَ الْقَلْبَ شَيْءٌ مِثْلُ عَزْلَةٍ ، يَدْخُلُ بِهَا مَبْدَانٌ فِكْرَةٌ

فاعلم : أنه لا أعون على الخمول من العزلة ؛ فهي دواءٌ مرض الخلطة المضرة ، وهي خلطةٌ من لم يتقيّد بالأدب ، وهم الأحداث المشبطن عزمات المريدين ، الذين لم تحتنكهم الرياضة ، والعوام الغافلون المتهوِّرون في العادات ، المعرضون عن العبادات ، المنتهكون أعراض الخلق بالغيبة والشتم والتحقير والتخييط في الأقوال والأفعال ، فلا أضرّ على القلب من مخالطتهم ، ولا أبقح على المريد من مجالستهم ، وغاية نصحهم وفرط حبهم : أن يحزّضوا مَنْ جالسهم على جمع الدنيا ، والحرص على الرئاسة والصلف وحب الثناء ؛ فمخالطتهم أعظم ضرراً على القلوب .

وأما من كان مساعداً وعوناً لك على ما أنت طالبه .. فداء القلب : مصارمته ومقاطعته ، ودواؤه : مجالسته ومصاحبته ؛ فإن لمرايا الصادقين استشفاف بعضها من بعض ؛ فلذلك إذا عُدِمَ الشيخ المربي .. قام الإخوان مقامه ، كما يقوم التراب في استباحة الصلاة مقام الماء .

ونفاة القلب : سلامته عن أمراض الأعراض ، والانهماك في مهلكات الشهوات ، والوقوع في ورطات الهفوات ، ودواعي الأغراض البشرية . والقلب : هو لطيفةٌ نورانية ، فمتى أوردت عليها هذه الكوائف الظلمانية .. أضرت بها لا محالة ، وضرره طمس نوره ، وإخفاء مشرقات بدوره تحت سحب سجع ظلمات أسباب الدنيا ، وأراجيف الخلق ، وأباطيل تزوير الشيطان بترويجات الغرور ، وسفساف مذموم الهوى الطبيعي النفسي ، ﴿ ظَلَمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ .

فهذه أمهات الحجب الكونية الظلمانية ، وبالعزلة ينقطع معظمها ،
لكن بشرط كون المعتزل يعلم ما يلزمه فيها .

فمن ذلك : علم العين^(١) ، والقيام بكل ما طلب الشرع منك القيام
به ، واستصحاب الفكرة الصافية في بديع الصنع ؛ فمعظم الدواء في
الحمية ، فعند القيام بحقها يرجئ له الشفاء من أمراضه ، والإقبال بعد
إعراضه .

والعزلة من أحد أركان طريق أهل الله ، بل هي الركن الأعظم إذا
صحابها الصدق ؛ فلذلك لم تزل دأب الصادقين ، وديدن أولي العزمات
من الأنبياء والصالحين ، بل أفضلهم وأكملهم محمد سيد المرسلين
كان يتخلَّى في حراء الليالي ذوات العدد^(٢) ، حتى قالت قريش : إن
محمدأ يدخلو بربه في حراء ، حتى فاجأه الوحي وهو فيه .

والعزلة عزلتان : عزلة بالأبدان ، وعزلة بالجنان ؛ فأما عزلة الأبدان ..
فهي للعباد السالكين والزهاد المريرين ، ولها شروط ظاهرة ؛ وهو ما
قدمنا ، وأركان باطنة ؛ وهي تحقيق الإرادة بالصدق وصریح الإيمان .
واعلم : أن لله على الإنسان حقوقاً ، وللنفس وللخلق ؛ كما ورد
الخبير^(٣) .

(١) أي : علم فرض العين .

(٢) إشارة إلى ما رواه البخاري (٣) ، وأحمد (٢٣٣/٦) من حديث السيدة عائشة
رضي الله عنها .

(٣) روى البخاري (١٩٦٨) ، والترمذي (٢٤١٣) عن سيدنا وهب بن عبد الله رضي الله
تعالى عنه قال : أخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان
أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس
له حاجة في الدنيا ، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً ، فقال : كلْ ، قال : فإنني صائم ،

ومن الحقوق ما يمكن أن تُقضى بدون مباشرة الإنسان ، وبعضها لا يُقضى إلا بالمباشرة ، ولم تسقط عنه هذه الحقوق بوجوه ما دام بين أظهر الخلق إلا أن يغلبه حالٌ ويحكم عليه ، فلم يبق له تصرف من تصرفات نفسه ؛ لغيبته عن حسيته ، وفنائه عن أنسه ، أو يكون صاحباً ، لكن جعل لديه منازلَ خفية^(١) ، عرّفه الله إياها بتعريف إلهي لا يدخله ريب في أنه من أمر الله الخاص ؛ فذلك بحكم حالته ، وموكل إلى صدقه في مقالته .

فإن كان صادقاً . . فهو قائم لله بأتمّ طاعة ، فلا يدانئ ، فذلك مما اختص الله به أنبياءه وخواصّ خلاصه أصفياه ، وإن كان على غير ذلك . . فليتنق الله في دعواه ، ولينزع عن متابعة هواه إلى متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ندبه إليه ودعاه ، وإن تغيرت حالته بمخالطة الناس في ذلك . . فطريقه : أن يخرج من بين أظهرهم إلى محلّ يسقط عنه ذلك .

ومن ذلك - والله أعلم - : ما حمل العُبّاد والزهاد الصادقين على الخروج إلى الفلوات وسكون الجبال ويطون الأودية ، والفرار عن الأوطان ، ومهاجرة الأقران ، لكن ذلك يحتاج معه إلى قوة يقين ، وحقيقة توكل وتمكين ، وحسن تولّي من الله ، وإلا . . فالبادية ميدان

قال : ما أنا بأكل حتى تأكل ، قال : فأكل ، فلما كان الليل . . ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل . . قال سلمان : قم الآن ، فصليا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ؛ فأعط كل ذي حقٍ حقه ؛ فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق سلمان » .

(١) في (ب ، ج) : (حقية) بدل : (خفية) ، وكلاهما مناسب .

فرسان الشياطين ، فإن لم تكن معه قوة تعينه على ذلك ، وتدفع عنه شر ما هنالك ؛ وإلا .. خيف عليه أن تستوليَّه بطغيانها ، وتخوفه بتلؤن سحرتها وتغؤل غيلانها ، فالأولى بضعيف اليقين : السكون في الديار لصحة الأخيار ، وتجنب الأشرار ، وتحزّي الاستغفار بالأسحار ، ودوام الأذكار آناء الليل والنهار ، فيلحقه الله بالصالحين ، وينيله مراتب الصادقين من البلاء الأبرار ، وتداركه العناية بحسن الرعاية ، وتتولاه بالاختصاص والولاية ، فيلحق إن شاء الله بمن تفرّد ، وزيادة فوائد ؛ فمتها : رؤية التقصير ، واعتماده على فضل الله دون تدييره واختياره .

ومن علامات دلالاته الباطنة : أن يكون متعلقاً بالله ، ومتحققاً بأوصافه ، ومتخلقاً بأسمائه ، ولا يرى نفسه في ذلك فضلاً عن أن يرى لها ، ولا ينظر إلى الخلق بالمقت والازدراء ، ولكن يشكر الله على ما أولاه من نعمه ، وعافاه مما يشغله عنه من دواعي هواه ، ويكون على الخلق مشفقاً ، ولهم راحماً ، وعليهم متحنناً لطيفاً عطفياً ، ويكون ذا فكرة صافية ، وبصيرة وافية ، دائم الذكر لله ، متوالي الشكر على نعم الله ، دقيق النظر في مواقع الخطر ، غاضب البصر عن الدنيا وما فيها ومن فيها ، كثير السهر والجوع ؛ ففي السهر تنوير البصيرة ، وفي الجوع صفو السريرة ، وبذلك بعد توفيق الله ومعونته صارت الأبدال أبدالاً ، فهذا من بعض شروط عزلة العبّاد والزهاد السالكين ، والمريدين الصادقين .

وأما عزلة الأكابر العارفين ، وأفاضل الصّديّقين .. فعزلتهم بالخبان دون الأبدان ، مباينين الخلق بالقلوب والقوى القائمة بالأركان ، دون التغيب بالأبدان .

فمن كان مقامه الإحسان ، ولم يشهد معه ثانٍ . . فعَمَّنْ يعتزل ، ولمن يتذلل؟! فهو مع الله مستغرق الجنان ، سامع عنه ناظر إليه بالعيان ، في كل حين وأوان ، في الفطر والأعيان ، متجلياً وعليها متولياً ، مشغلاً بذكره باللسان ، وطاعته بالأركان .

كيفما تقلبت به الأحوال . . فهو جليسه ، ومن بين جلسائه أنسه ؛ كما قالت رابعة رضي الله عنها في بعض ما يروى عنها من الأقوال في صفحات الأحوال :

(١) ولقد جعلتُكَ في الفؤادِ محدّثي وأبختُ جسمي مؤنساً لجليسي
فمن كان كذلك . . فخلطته عزلة ، وعزلته خلطة ، ومعنى ذلك : أنه إذا خالط الخلق . . [كان] مباينهم بقلبه ، معتزلاً عنهم بوجوده لربه ، وإذا اعتزلهم . . كان مصاحبهم بربه ؛ لشهوده الكثرة الخلقية في الوحدة الحقية اضمحلالاً واندراجاً ، والوحدة في الكثرة الخلقية إحاطة وعلماً وشهوداً ، وحفظاً وقياماً ، وكلاءةً وتصرفاً واحتكاماً .

واعلم : أنه وإن كان كذلك . . فيبغني له - وإن بلغ من القرب مبلغاً - [ألاّ يستغني]^(٢) عن ساعةٍ ووقت يخلو فيه ؛ لتعود بركة خلوته على متفرّق جلوته ، فيكون في الخلوة ملحوظاً ، وفي الجلوة محفوظاً .

ومن ذلك ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لي وقتٌ لا يسعني فيه غير ربي »^(٣) .

(١) انظر « عوارف المعارف » (٢٩٦/١) .

(٢) في النسخ : (فلا غنى له) ولعل الصواب ما أثبت ، والله تعالى أعلم .

(٣) ذكره الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٧٠) .

وفي ذلك أقول :

بعزلة المرء يسلم من معاطبه ويبرأ القلب من الأمراض والعلل
بصافي الفكر يدرك من مآربه ويتلغ السؤل والمطلوب والأمل^(١)

❖

فلما كان القلب لا يصفو بدون ما ذكره من العزلة عن مكدرات
القلوب ، ومويقات الذنوب . . قال كالمتعجب من حال من يطلب أن
تشرق القلوب ؛ وهي متلبسة بقبائح العادات ومشؤومات العيوب ، قال
رضي الله عنه :

(١) أغلب الأبيات التي أوردها المؤلف رحمه الله تعالى مستقيمة الوزن من البحر البسيط ،
وأما الإعراب في الغافية . . فهو من باب :

لحنتنا معرّبٌ وأغرّبٌ من ذا أن إهراب غيرنا ملحونٌ
مع أنه يمكن التكلف في توجيه ذلك .

كَيْفَ يُسْرِقُ قَلْبٌ وَصُورُ الْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةً فِي مِرْآئِهِ !؟

إذا علمت استحالة اجتماع الضدين !؟^(١) والإشراق : هو وجود الحق ، والأكوان ظلمة إذا اعتبرت وجودها من حيث هي^(٢) ، والنور والظلمة ضدان لا يجتمعان في آن واحد ، ولكن لم يكن وجود أحدهما مانعاً من ورود الآخر عليه في ثاني الحال^(٣) ، وإنما العجب ممَّن يظن أحدهما وسيلة لوجود ضده !! ولكن الله ببالغ حكمته وسابق إرادته جعل لكل مقصد وسيلة^(٤) ، ولكل عمل صناعة وحيلة .

وهذه المقامات سردها المؤلف في هذه المقالات ؛ لقرب تناسبها ، وإلا فإذا نظرت بدقيق الفهم .. رأيت لكل مقام منها عملاً ومقالاً ، فجعله الإشراق للقلوب ؛ لأنها محتدُّ النور والظلمة ، وهو معترك الجيшин ، فكلُّ ما قام به .. ظهر أثره في الجوارح ؛ فكل ما ظهر من الآثار الظلمانية الداعية إلى الإضلال والإغواء .. فمن المادة الظلمانية واللمة الشيطانية^(٥) ، وكل ما ظهر أثره من الشهوة الهوائية .. فمن المادة النفسانية ، وكل ما ظهر أثره من الأعمال السنية والأخلاق النبوية .. فمن المادة الروحانية واللمة الملكية ، وما كان من الأحوال العرفانية والمقامات القُربية .. فمن الوازادات الربانية والتنفُّسات الرحمانية .

ولكل أثر بابٌ نافذٌ إلى القلب ، وعرقٌ متصلٌ من القلب إلى النفس ،

- (١) وسيأتي نهاية شرح الحكمة مزيد بيان عما يترتب على استحالة اجتماع الضدين .
- (٢) فهي معدومة لنفسها ، موجودة بربِّها .
- (٣) في النسخ : (ولكن لما لم يكن وجود ...) بدل : (ولكن لم يكن وجود ...) .
- (٤) في النسخ : (ولكن الله ببالغ حكمته وسابق إرادته أن جعل لكل مقصد وسيلة) .
- (٥) في النسخ : (فكلما ظهرت الآثار ...) بدل : (فكل ما ظهر من الآثار ...) .

وحركة من النفس إلى القلب ، ونورٌ مشرقٌ من الرب إلى العبد ، ومن مراتب عالم الفضل ودركات عالم العدل ، وفي كل بابٍ من تلك الأبواب صورٌ شتى ، وكل صورةٌ منها حجابٌ على وجه القلب ، كما أن كل خلقٍ حسنٍ له إشراق .

فجملة مادة عالم الفضل ومادته من لَمَّةِ الملك الروحاني ، والجانب الرحماني ، والتفضل الرباني ، واللفظ الامتنائي ؛ كما أن جملة مادة عالم العدل من اللَمَّةِ الشيطانية ، والدواعي الهوائية ، والشهوات النفسانية ، ولا يمكن اجتماع هذين الضدين .

فإن أردت ورود هذه الأنوار ، وظهور تلك الأسرار . . فعليك بتخلية القلب عن ظلمات الأغيار ، وكشغ غبار الآثار ، وكنس الأوساخ الشهوانية والأقذار ، ولذلك معاملةً ومعالجةً ؛ فمن أنجح المعاملة ، وأوجز المعالجات عن كشفها عن^(١) القلوب بالذكر التلقيني ، وهو ذكر النفي والإثبات الممهود عند أهله ، مع القيام بالوظائف الشرعية ، والسلوك في جميع ما يأخذ ويذر على يد شيخٍ بصيرٍ بأفات النفوس ، مؤيِّدٍ بأنوار القدوس .

وعندما تنجلي عنه هذه الظلم . . يُرجى له أن تُجلى له هذه الأنوار ، وتبدوله هذه الأسرار ، فيمحو عن مرآة قلبه بمصقلة (لا إله إلا الله) طوابع المكوّنات ، ويجلوها بصافي الفكر في بدائع المصنوعات ؛ فعند ذلك تقابل مرآة القلب الصقيلة العوالم العلويات ، والأسرار الملكوتيات ، فتبدو فيها عجائبه ، وتظهر عليها غرائبه ، وتمنح لديها مواهبه ، وتحقّق بساحتها رغائبه ، فيفيض آثار ذلك على ظواهر الأعمال ، وزواكي الأخلاق ، وسوامي الأحوال .

(١) في (ب) : (من) بدل : (عن) .

وبسط ما تضمنته عبارته ، وأومت إليه إشارته . . واسع الأنحاء ،
غزير المعنى ؛ فلنقتصر على ما يفهم مما أشار إليه ؛ فإشراق القلوب
شموس المعارف ، وبدور اللطائف ، لا تجتمع مع ظلمات الكنائف
الكونية ، وفي ذلك أقول :

لا يُشْرِقُ النُّورُ فِي قَلْبٍ إِذَا طَبَعَتْ بصورة فيه طابع ظلمة العدم
إِلا إِذَا زَالَ لَيْلِ الطَّبَعِ وَانْبَعَثَ بصحبة الذكر ثم الفكر في الحكيم
لِذَلِكَ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟

يفهم من قوله هنا : (يرحل إلى الله) : أن الشهوات عوائق عن
السير في منازل السلوك العلمية ، وعبارته في الأولى تُفهم التعثر في
البقايا الظلمانية عن الأسرار القلبية ، وعبارته دالة على التنصل عن
القيود العادية ، ومفارقة الأخلاق الأرضية والطبائع الحيوانية ، وهذا
طريق إلى المعاملة القلبية ؛ فالاختيال بالأسباب الدنيوية والمحجوبات
الكونية قيد عن السير^(١) إلى الحضرة القربية .

وهي معانٍ متقاربة ، لكن لكل شيء منها ملحظ ؛ فطريق محو
الظلم : ما ذكرناه آنفاً من إخلاص الذكر وصفاء الفكر ، وطريق ذلك :
في الرياضة النفسانية من باب التروك ، ولا أعون عليها من التفكر في
انصرام الأجل ، وفوت الأمل ، وزوال الشهوات ، وحصول المصائب

(١) في (ب) : (العير) بدل : (السير) .

والحسرات عند فراقها وندامة القوات ، فتنقُصُها بخوف القطيعة ، وتنظر
فيمَن خَوَّلته الدنيا نعيمها كيف تقسَّصَتْ عنه سحائب خُلِيها ^(١) ،
وسراب خُدَعِها ؛ فالرحيل إلى الله يقطع عقبات النفس ، وأُهْبِتُهُ الأخلاق
السنية ، وطريقه : اتباع الآثار النبوية ، والأخذ بعزائم السنة .

ومخاوف تلك الطريقة : الشبه ، وقواطعها : الحظوظ الدنيوية ،
والشهوات النفسانية ، والتغريرات الشيطانية ، والتزيينات الهوائية ،
وزادها : التقوى ، ومطبتها : الهمة ، وحادي تلك المطية : الشوق ،
وسائقها : الخوف ، وزمامها : العزم ، وآلات رحيلها : العلم ، وقوتها :
الحكمة ، ومراحلها : الأنفاس ، ومقصدها : الحضرة ، وضافتها : الجنة ،
وكرامتها : الرؤية ، وسرورها : الرضوان ، ومقبلها : الأمان ، وتحيتها :
السلام ، وعرائسها : الحور الحسنان ، وفي ذلك أقول :

إن القيودَ عن الترحال عائقةٌ ^(٢) إن سئتَ فأزِمَ قيودَ الطبعِ واستَبِقِ
كُبُولَ شَهواتِكَ أَلَى فيكَ حاكمَةٌ فبادِرْنَ واخرِجْنَ عَمَّا عليكِ بقي
فكلُّ الأكوانِ عن مطلبِكَ قاطعةٌ واقطعِ عرى الكونِ واتركِ من بذاكِ بقي

أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ
جَنَابَاتِ ^(٣) عَقَلَانِهِ ۚ

أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ بعدما علم بأن حضرة الله الخاصة بأنبيائه وأوليائه -

- (١) الخلب : الخداع ، ويوصف به السحاب فيقال : سحابٌ خَلْبٌ ؛ لا غيب فيه .
(٢) لعله يشير إلى ما ورد : أن الجوارح تخاطب اللسان كل يوم تقول له : (اتقِ الله ؛ فإنما
نحن بك ، فإن استقمتم . . استقمنا ، وإن اعوججت . . اعوججتنا) .
(٣) في هامش (أ) : (جنابة) بدل : (جنابات) .

وهي حضرة الإحسان ، ومحلُّ تجلِّي العيان ، عند ذهاب صور الأكوان ،
وفناء الأعيان - ألا يدخلها من لم تكمل طهارته من جنابات غفلاته ؟
كأنه لما اجتهد في تلطيف كثائف ظلماته ، وطرح شهواته ، وترك
مقعداته عاداته . . ظهر منه رائحة طمع أنه بذلك دخل حضرة الله ،
وهو بعدُ لم يدخل ، وهو يرى نفسه في ذلك ، حتى يغيب عن كونيته ،
ويتطهر بماء التقديس ، من جنابات الدعوى ونجاسات التلبيس ؛ فلا
يدخل تلك الحضرة وهو يرى له من نفسه بقية ؛ فمتى حصل على تلك
الحضرة ، وحظي بتلك النظرة . . فحينئذٍ يرى ظهور جنابته .

وقد منعك شرعاً حضرته الحسيّة حال قيام الجنابة الحسية بك ،
فأولى أن يمنعك عن الحضرة الخاصة حال تلبُّسك بالجنابة الخاصة ؛
ففي عبارته إشارةً لطيفةً إلى أن حضرة الإحسان خاصة في المقامات
القريبة ، كاختصاص المسجد في الحضرات المكانية ؛ فالمسجد حضرة
صورة العبادة ، والإحسان حضرة تجلِّي المعبود ، وأين هذه من تلك ؟
وقد حظر الشرع دخول هذه الحضرة مع وجود الجنابة ، وما سُمِّيَتْ
جنابة إلا لإجنابها بمن قامت به عن حضرة القُرب ومستوى الاستقامة
إلى البُعد تحت كثيف غطاء الشهوة على جميع الجوارح ، فالفُسلُّ
حياتها ، وردّها إلى مواطن إقبالها ، فيعم بالماء جميع الجوارح لتحيا ؛
لأن في الماء سرّاً الحياة ، فتحيا بالماء بعد موتها واحتراقها بنيران
بعادها ، فالحمد لله الذي منّ بلطفه ، وتفضّل بعطفه .

فبإزاء الحياة للجنابة المعنوية تجلِّي اسمه الحيّ على ما أمات
الحجابُ من وجود الشهود ، فالماء أثّر اسمه الحي ، فالأثر تحيا به
أموات الصور ؛ كما تحيا الأرض بوابل المطر ، ويوجود المؤثر وشهوده

يحيا المعنى القائم في الإنسان بصورة ذلك التجلّي الذي الماء أثره ،
وبحياة المعنى يغيب عن شهود كونيته وظهور أَيْتِهِ (١) ؛ فجنابة الصورة
الحسية التي هي أثرٌ عن ذلك المعنى تحيا بالماء الذي هو أثر عنه
أيضاً .

والمعنى المذكور : هو وجود الحق القائم بها ؛ فبالماء تحيا الصورة
عن أجناب جناباتها ، وبتجلّي اسمه الحي يحيا ذلك المعنى ، وحياته :
رجوعه إلى أصله ، واجتماعه بعد فرقه ، واتحاده بأصله بعد فصله ،
وفي ذلك أقول :

فكيف تطمَعُ أن تدخلَ لحضرته ولم تطهّر عن الأعراض والجنبِ
وكيف تطلب أن تدنو لوصلته وأنت في غفلةٍ محفوفٌ بالحُجُبِ
ولما كانت ظلمات الجنابات والذنوب مانعةً عن إشراق القلوب ،
وصادّةً عن السلوك إلى المحبوب ، وحاجةً عن نيل المراد والمطلوب ،
حتى تعود عن إعراضك وتتوب . . قال المؤلف رضي الله عنه :

أَمْ كَيْفَ يَزْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الْأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَسُبِّ مِنْ هَفَوَاتِهِ !؟

الرجاء هنا : ضد القنوط ، وهو في أصله محمود حيث اقترن بالتقوى
عن المخالفات ، واجتناب المنهيات ، والإتيان بالمأمورات ، وإلا . . فهو
أُمْنِيَّةٌ (٢) ، وإذا صحح التوبة . . يرجى أن تفتح له أبواب العلوم ، وتظهر
من أكتنّها دقائق أسرار الغيوب ، وتسري إليه الأحوال الوهيّات ، وتلقى

(١) في (ج) : (وظهور أَيْتِهِ) بدل : (وظهور أَيْتِهِ) .

(٢) كما سيأتي (ص ٣٧٣) في الحكمة (٧٨) .

عليه العلوم الموهبيات ، ودقائق الحكم الغيبيات ، وتترأى له الأسرار الملكوتيات ، والحقائق الجبروتيات ، والشواهد الملكيات ، قال الله جلّ ذكره : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُ كُرَّ اللَّهُ ﴾ .

والنوبة عن الهفوات : أوّل مقامات التقوى ، وله مراتب ، ولكل مقام رتبة في التقوى^(١) ، فلم يدرك دقائق العلوم في رقائق المقامات حتى يتوب عن الخطرات فضلاً عن الهفوات الظاهرات ، وبعد ذلك مقامات ورتب .

وأركان التوبة ثلاثة إذا لم يتعلّق بها حقٌّ للخلق ، وإلا . . فأربعة . ولكل أهل مقام توبة على حسب مقامه ؛ فكلما لطف المقام . . لطف سرُّ التوبة ، وظهرت له ذنوبٌ خفّيات ، ولا يزال يلطف حتى يتوب مما يصدر منه من سائر الأحوال والأقوال والحركات والسكنات ، ومما يُعدُّ من الطاعات ، وذلك يعرفه من تحقّق به ؛ فالتوبة مفتاح الخيرات ، وكل أهل مقام يفتح في توبتهم بحسب مقامهم وفهمهم عن الله .

والتوبة : هي الرجوع إلى الله ، فتفتح فيها دقائق علوم ، ولطائف أسرار ، ولوائح أنوار ؛ فالعوام : يُعطون الفهم في الشرائع والأعمال ، والخاصّة : يعطيهم مقامهم في التوبة الفهم في الحقائق والتأمّن في الأحوال ، وخاصّة الخاصة : يعطيهم مقامهم في توبتهم المعارف في لطائف الوجود والتحقّق بالوصال ، فهذا من ثمرات التوبة لأهل كل مقام في توبتهم ، ووراء ذلك ما لم تمكن إذاعته من مكنونات العلوم

(١) وعليه : فلا تنفك التوبة عن مقام من المقامات ؛ ولذا عبّروا عنها بأنها روح جميع المقامات ، قال جل ذكره : ﴿ وَرُفِعَ إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّهُمْ قَرِيبُونَ ﴾ .

ومصونات الأسرار ، وبواهر مشرقات الأنوار ، ومحرقات الأغيار ، وأحوال
عالية ، ومعارف سامية .

وفي ذلك أنشد وأقول :

دقائق أسرارٍ مكنونِ العلومِ وما تحتَ الكنائفِ من محجوبةِ القدرِ
مفتاحه التوبةُ الصِدْقُ النصوحُ كما يكون مفتاحُ فَلْتِ الحَبِّ بالمطرِ

*

فإذا علمت استحالة اجتماع الضدين ؛ وهو الظلمة والنور . . فاعلم :
أن العبد ذاتاً ووصفاً وفعلاً دون الله عدم محض ، وهو المشار إليه
بالظلمة ، ورؤيته لذاته دون موجد . . هو البعد الذي أشار إليه بالجنابة ،
وهو أيضاً الجهل ؛ فلقرّب هذه المعاني جمع المؤلف شملهنّ ، ونظم
سلكهنّ في سلك لفظه بالتواتر^(١) ، ثم قال كالشارح لذلك :

(١) في (ج) : (في سبك لفظه بالتواتر) بدل : (في سلك لفظه بالتواتر) .

الْكُونُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ ؛ فَمَنْ رَأَى الْكُونُ وَلَمْ
يَشْهَدْهُ فِيهِ أَوْ عِنْدَهُ أَوْ قِبَلَهُ أَوْ بَعْدَهُ . . فَقَدْ أَعْوَزَهُ وُجُودُ الْأَنْوَارِ ، وَحُجِبَتْ
عَنْهُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ بِسُحُبِ الْأَنْوَارِ

الكون : هو كلُّ ما سوى الله عز وجل ، وما هو صادرٌ عن تكوينه ،
وهو بجملته وتفصيله دون مكوّنه ظلمة ، والظلمة - كما علمت - هي
العدم ، والنور : هو الوجود .

فالكونُ كُلُّهُ : من عرشٍ وكرسيٍّ ، وسماءٍ وأرضٍ ، وجنةٍ ونارٍ ، وإنسٍ
وجانٍ ، ومعدنٍ ونباتٍ وحيوانٍ ، وهواءٍ وماءٍ ، وأملاكٍ وأفلاكٍ وجبالٍ ،
وخيالٍ وعملٍ وحالٍ ، وحياةٍ وموتٍ ، وطمسٍ وظهورٍ وخمولى ، وفروعٍ
وأصولٍ ، وظلمةٍ ونورٍ ، وجنسيٍّ ونوعيٍّ ، وليلٍ ونهارٍ ، وشمسٍ وأقمارٍ
ونجومٍ ، وعلومٍ ومعلومٍ وموهومٍ ، وغير ذلك مما يطول تفصيله من
جملة الكائنات وتفصيلها ، واختلاف أعيانها وألوانها . . عدمٌ باطلٌ
دون وجود الحق .

فحَقِّقْ أن كل ما كان وجوده لا بنفسه . . فهو عدم ، وحقيقة الوجود
لمن هو موجود به ؛ وذلك الله الذي شهدت بوجوده أعيان موجوداته ،
﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والنور هو الوجود ، كما قدمنا أن النور هو
الوجود ، والظلمة هو العدم ؛ فهذا من مقام من شهده فيه .

ومن شهده عنده . . يصدق عليه قوله : ﴿ سَرَّيْهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَقَاوِ وَفِي
أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعُونَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَىٰ يُكْفِي بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . .
ومن شهده بعده . . فمشهده قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبْرِيلِ كَيْفَ
خُلِقَتْ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ والتذكير لا يكون إلا بعد سبق نسيان ؛

فمن لم يشهد المَكُون قبل الكون ، ولم يعثر على المَصُون قبل الصون . .
فلا يخلو :

إما أن يكون من الذين يشهدونه عند الأشياء عندئذٍ منزَّهةً عن الجهة ،
ولكن عندية استغراق وقيام .

وإما أن يشهده بعده ، فيستدل بالأثر ، ويتجسَّس الخبر ، فيستدل
بالأثر على المؤثر ، وبالصنعة على الصانع ، وهذه آخر مقامات
الموَجِّدين .

وأما من لا يشهده ، بل يثبت الأكوانَ عريةً عن وجوده . . فقد طمس
على عين بصيرته ، وأظلمت عليه نور سريرته عن شهوده وحقيقه
شهوده ، فبقى تائهاً في ظلماته ، غافلاً عن شهود آياته ، مقهوراً عن
شهود الأنوار ، محجوباً عن شمس المعارف وبدور الأسرار ، ونجوم
العلوم بسحب العوائد وكثائف الآثار ، فظهر عليه سلطان العدل وتجلي
الجبار ؛ كما ورد : أن « حجاب النار »^(١) .

وما ذكره مما يوهم الظرفية أو المثلية أو وجود زمان القبل أو البعد
أو جهة . . فليس على ما يفهم من ذلك ؛ فالزمان والمكان ، والآن
والأوان . . حادثٌ موسومٌ بوسم الحدثان ، ولكن تجلياتٍ وتنزلاتٍ
وتلطُّفاتٍ يعرف ذلك أربابُ الشهود والعيان ، فليس له في ذاته ولا
وصفه ولا فعله شريكٌ ولا نظيرٌ ولا ثانٍ .

فالذي يشهده قبل الأكوان مستهلكٌ في شهوده ، غائبٌ عن شهوده
بنفسه ، مختطفٌ عن وجوده وحسِّه ، متلاشٍ تحت تجليات الأوصاف ،

(١) أخرجه أحمد (٤٠١/٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٠٢٢) من حديث سيدنا أبي
موسى الأشعري رضي الله عنه .

فنا ب عنه فقسمن به ، وهله رةب فف المةبة القربة ، والنابة الوصففة ،
فقام عنه فأبفر عن شهوه لنفسه بنفسه .

وهذا الشهود له ديمومف لا ینفك عنه ، مستمر الشهود لنفسه أزلأ
ووجودأ وأبدأ .

والذف شهده عند الكون شاهد ظهور صفاته من تحت أسار حکمه .
والذف شهده بعده یرلب الدلف علی وجود المکون ؛ لغلبة شهود
المکونات علی قلبه ، فلا یرممکن من غیبتها عن نظره إلا بعد إمعان
نظر .

فهلذا - والله أعلم - مراد المؤلف بـ (قبل) و (بعد) و (فی) لا علی
ما یرفهم من ظاهر الكلام ؛ فالأولون ؛ أرباب الكشف والعیان ، والذین
یلونهم ؛ أرباب النور والبیان ، والذین من بعدهم ؛ أهل الدلف باللسان
والإیمان بالجنان .

ومن لم یرشهده بعد ذلك . . فقد أعوزه - أی : أعدمه - وجود الأنوار ،
﴿ وَمَنْ لَمْ یَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴾ فحجب عن الأنوار العرفانیة ،
والهدایة الإیمانیة ، والدلالة البیانیة ، وحجبت عنه هذه الشمس
الظاهره ، والبذور الباهرة ، والنجوم الزاهرة ؛ فهو حائر فی ظلمات
البشریة ، والعوائد الطبیعیة .

والسحب الأرضیة : هی الشهوات الحیوانیة الةف تنشأ عن أرض
النفس الظلمانیة الهوائیة ؛ فكلما كان تمکنها من النفس أقوى . .
كانت سحب جهلها علی شمس المعارف أكثف وأظلم ، فإذا ارتفع
عنها سحب طباعتها بعواصف هوائها . . حجبت المعارف القلبیة ،
والشمس الإیمانیة ، والأخلاق الروحانیة السماویة .

وفي ذلك أنشد وأقول :

من يشهد الحقَّ قبل الكون كان له
من المعارف أعلى رتبة فيها
ومن شهدَ ذاك عند الكونِ عامله
من حالة الصدق ما عزَّت مراقبها
من كان مشهده بعدُ فليس له
إلا الدلائل والأقوال يحكيها
ومن تخلف عن هذا تقابله
سحائب آثار عادات ثوى فيها



فإذا علمت أن الكون عدم ، وأن لا موجود سواه ، ولا ظاهر في مظاهر
الأكوان إلا إياه . . استشهدَ باسم القهر ، وعرفك أن ذلك مما لا يكون ؛
[أي] : أن الباطل [لا] يحجب الوجود الحق إلا من حيث تجلي قهره
وغلبة أمره ، فقال رضي الله عنه :

مِمَّا بَدَّلَكَ عَلَيَّ وُجُودَ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ : أَنْ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ
مَوْجُوداً مَعَهُ

قد علمت ممّا تقدّم : أن الكون كلّه ظلّمة ؛ أي : عدم ، ومع ذلك -
أي : كونه عدماً - إنك محجوبٌ به عن مكوّنه ؛ فذلك دليلٌ على وجود
قهره وغلبة أمره ، وإلا .. فكيف يظهر العدم مع الوجود ؟! أم كيف
يظهر الغيب في الشهود ؟! أم كيف يثبت الحدّث مع القِدَم ؟!
فإذا قارن الحدّث القديم .. اضمحل ولم يَبْقَ له أثر ، والحجاب إنما
هو أثر القهر على بصيرة المحجوب ، وإلا .. جلّ أن يحويه مكان ، أو
يحدّه أوان ، أو يكيّفه عيان ، أو يتقدّمه زمان .

والحجاب ينقسم إلى : ما هو حجابٌ ظلماني كثيف ، وإلى
ما هو نورانيٌّ لطيف ، والحجاب الظلماني : يكون في توحيد
الأفعال للعوامِّ الجهّال ، والمبتدعة الضّلال ، والحجاب النوراني :
يكون للخواصِّ في توحيد الأسماء والصفات ، الآخذين في طريق
الأعمال ، الشاهدين لما يصدر عنهم من حسن الأفعال ، وسننّيات
الأحوال .

ولكل حجابٍ علامةٌ على من قام به ؛ فإلّا حجاب العوامِّ برؤية
الخلق وأفعالهم دون الله ، وعلامةٌ حجاب الخواصِّ برؤية أعمالهم ،
وأن لهم فيها حولاً وقوة ؛ فالحجاب الظلماني يقتضي العذاب وسوء
الحساب ، والثاني يقتضي الالتفات إلى الأغيار وكثائف الأستار ،
والتعزُّق عن اللحوق بأهل التحقّق والعيان .

فمن كان مشهده أفعال الخلق دون الله .. فهو بعدٌ لم يخرج عن

حيز المبعدين ، ولم يعد في أصحاب اليمين ؛ فضلاً عن أن يكون من المقربين السابقين .

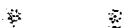
ومن شهد أن لا فعل لهم دون الله . . فهو معدود في غمار عامة المؤمنين ، ومن جملة أصحاب اليمين ، فهو موجِّد في الأفعال ، وذلك متعين على كل مسلم متدين ؛ فحيث صحَّ له ذلك . . فقد نجا بحمد الله من ورطة الجحود ، وانتظم في نظام الإيمان ، وتكفل له بالأمان ، من جملة عباد الرحمن .

ومن ترقى عن ذلك بأن شهد أن لا حياة لهم . . فذلك رتبة في التوحيد ، ومقام في التفريد الخاص بالمقربين ، وهو أول رتبة في طريق الإرادة ، وشروق شمس السعادة ، وقد آن له في الدخول ، وأذن له بالوصول ، والظفر بالمأمول .

ورتبة القرب الخاص في الخاص : أن يشهد وجودهم عينَ العدم ؛ لاستغراق روحه في شهود القَدَم ، بمطالعة أنوار الذات المحرقة ، وأسرار الصفات المشرقة ، فهذا هو الواصل والإمام الكامل ، فلو كُلف على رؤية الغير . . لم يستطع إلى ذلك سبيلاً ، ولم يظهر له وجود ، فكيف يرى الأكوان مع شهود العيان ، أم كيف تحجبه الأعيان عن التحقق بكل مَنْ عليها فان ؟

فلم تنزل الأكوان في فنائها أزلًا ووجوداً وأبداً هالكة من حيث نسبة غيريَّتها ، باقية من حيث حقيقتها ؛ فالوجه الحقيقي هو الظاهر على صفحات الأكوان ، المشهودة به الأعيان ، القائمة به الذوات والأوصاف والأفعال والأبدان ، تنزَّه عن أن يحجبه كون ، أو يطلق عليه باتصالٍ أو بون ؛ فهو سبحانه مبين الأشياء من حيث ذاته ووصفه

وفعله ^(١) ، محيطٌ بها من حيث علمه ، مُدْبِرٌها بحكمه ، مستغرقٌ
بجميع أفعالها وصفاتها وذواتها من حيث قيوميتها وشهوده وقيامه .
مما يدلُّ على قهر الإله بما حَجَبَكَ عنه بما هز باطلُ عَدَمٍ
أَنَّ الحجابَ من المَحجوبِ ليسَ كما يَظُنُّه الجاهلُ الغرُّ الغبي القَديمُ



فلما تحقق وجوده ، واستغرق الأشياء بشهوده . . قال المؤلف
رضي الله عنه :

(١) أي : مخالف للحوادث ، لا يشابهونه في شيء سبحانه وتعالى ؛ كما قال شيخ الطائفة
الجنيد : (التوحيد : أفراد القدم من الحدث) .

كَيْفَ يُتَّصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؟!

كيف يحجبه الشيء وهو الذي أظهره ، وبلطف حكمته وبتدبير صنعه ، دبره وقدره ، ومن العدم أبرزه ، وبما أشرق عليه من نور وجوده أوجده ، وبالشبه عرّفه ، فكيف تحجبه الأشياء وليس من الوجود إلا ما أظهره فيها ؟! مثل الزجاجية ينظر من تأملها أن ليس موجوداً إلا نور باربيها فلما كان الظاهر فيها نوره ، والحاكم عليها سلطان ظهوره .. قال المؤلف رضي الله عنه :

كَيْفَ يُتَّصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ ؟!

فكل شيء تراه ظهر به وجود موجد ، وكمال مبدعه ، وحكمة صانعه ، حتى استدل بها المستدلون عليه ، واهتدى بها السالكون إليه ، فقال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، وفي ذلك أقول : وجود الأشياء تدلّ العاقل الفطن وتوجد الطالب المشتاق للوطن فهذه الحكمة تدل على شهود تجلي وصفه ، والتي تليها تنبؤ عن تصرفه في الأشياء بنافذ قدرته وبالغ حكمته ؛ لذلك قال :

كَيْفَ يُتَّصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟!

قوله : (كيف) صيغة تعجب ، كيف يتصور ؟! والتصوّر : هو ثبوت

صورة الأمر في الخارج أو في الذهن ، وقوله : (يحجبه) يستر وجوده ،
 وذلك الشيء من جملة أفراد حكمته ، وصورة من بديع صنعته ، فلا
 تخلو الأشياء : إما أن تكون عن تجلّي جماله ، أو ظهور جلاله ، أو
 تحت حكم اسم من أسماء فضله ، أو قهر عدله ، وفي ذلك أقول :
 ظهورُ أوصافِهِ في كلِّ كائنةٍ أو نورِ أسمائه الأفعالِ تحكيها
 إن المظاهرَ في الأوصافِ كائنةٌ كالماءِ في سائرِ الأشجارِ يُحيها
 تفرقتَ حسبَ ما تعطيه من صفةٍ قامت به الكلُّ علقمها وحاليها

كَيْفَ يُتَّصَرُّ أَنْ يَحْجِبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ ؟!

في وجوده ، فأوماً له بالإقرار ، وسبّح له بلا إنكار ؛ وذلك لما شهد
 من الاقتدار ، وتجلّى له من الأنوار ، في مختلفات الأطوار ، وقامت له
 من الأسرار ، من وراء الحجب والأستار ، فَمِنْ مُشَاهِدِ ظَهَرَ لَهُ فِي صَمِّ
 الأحجار ، ومن مشاهدٍ شهده في الكواكب والشموس والأقمار ، أو من
 وراء حجاب النار . . . إلى غير ذلك ، ومن مشاهدٍ للحقائق متبرجةً بلا
 خمار ، وظاهرةً له بلا استتار ، فشهد صِرْفَ التوحيد ونعته بما أشهده من
 صريح تمجّده بلا ريبٍ ولا إنكار ، أولئك الصفوة الأخيار ، والسادة
 الأبرار ، الذين شاهدوا صرف اليقين ، وتحقّقوا بحقائق التمكين ، الأميون
 المحمّديون .

لقد عمّ الظهورُ لكلِّ شيءٍ وسبّح كلُّ موجودٍ بحمده
 وأنقذ أمةً من زورٍ غيبيٍّ وفرّج عنهم كرباً وشدةً
 ونالت رحمته من كان حياً بأحمد صفوته خيرته عبده

كَيْفَ يَنْصَوِّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ الظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ ؟!

لثبوت أوْلِيته وتحقُّق أزليته ، وهو الظاهر لنفسه في أزله وأبده ، فلم يفده وجود الأشياء ظهوراً لم يكن له ، فكيف يحجب الحادث الجائز القديم الواجب ؟! أم كيف يحجب الصانع صنعته ؟!

فكيف يحجبه مَنْ كَانَ صنعتهُ وحادثٌ بعدما قد كَانَ في العَدَمِ قد كَانَ موجوداً قَبْلَ أنْشَأَ برئتهُ فكيف يُحْجَبُ نورَ الحقِّ بالظلمِ ؟!

فإذا كَانَ ظاهراً قَبْلَ وجودِ الأشياءِ .. فهو أظهرُ منها بعد وجودها ؛ لذلك قَالَ رضي اللهُ عنه :

كَيْفَ يَنْصَوِّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟!

هَذَا إِذَا ثَبِتَ وجودُ الشَّيْءِ .. فمُوجِدُ الشَّيْءِ ومُخْتَرِعُهُ أَظْهَرُ مِنْهُ ؛ مِنْ حَيْثُ سَبَقَ شَهُودُ الشَّاهِدِ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ ، فَالْحَقُّ أَظْهَرُ بِالْوُجُوبِ وَالْقُدْرَةِ وَالتَّخْصِيسِ وَالحِكْمِ ، وَالأشْيَاءُ جَائِزَةٌ الوجودِ ، نَاقِصَةٌ القُدْرَةِ ، عَاجِزَةٌ عَنِ التَّخْصِيسِ ؛ فَمَنْ كَانَ وجودُهُ بغيرِهِ وَقُدْرَتُهُ عَنِ غَيْرِهِ .. فَحُكْمُهُ كَالعَدَمِ ، فَقُدْرَةُ العَبْدِ وَإِرَادَتُهُ مَحْكُومٌ عَلَيْهَا بِالقَهْرِ تَحْتَ أَحْكَامِهِ الغَالِبَةِ وَأَقْدَارِهِ النَافِذَةِ ؛ فَأَصْلُ العَبْدِ وَقُدْرَتُهُ : العَدَمُ ، وَفَصْلُهُ : العَجْزُ وَالتَّقْصُ ، هَذَا بَرهَانٌ ظَهَرَ الحَقُّ عَلَى الأَشْيَاءِ لِمَنْ كَانَ تَحْتَ كِيَنِ الحِجَابِ .

وَأَمَّا أَهْلُ الكَشْفِ .. فَرَوَيْتَهُمُ لِلأَشْيَاءِ عَيْنُ العَدَمِ ؛ كَمَا قَدَمْنَا ذَلِكَ قَرِيباً ، وَفِي مَعْنَاهُ أَقُولُ :

الله أظهر أن تُخْفِي مظاهره وجود الأعيان أو شيءٍ مِنَ الْغَيْبِ
الله أكبرُ أن يوجِدَ مناظره وجلَّ عَنْ مِثْلِ مَا يَخْطُرُ فِي الْفِكْرِ

كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ ۱۹

ثبوت وحدانيته لم تُثَبِّتْ لغيره معه وجوداً ، وظهور تجلّيه لم يبيّن لغيره شهوداً ، فإذا قرنت الحوادث بالقديم . . اضمحلَّ وجوده وانطمس شهوده ، فكيف يكون معه وقد وجب تنزيهه عن الثاني في ذاته وصفاته وأفعاله ۱۹ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ مَالَهُ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا لِيَ ذِي الْعَرْشِ سَيْكًا ﴾ ﴿ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَنَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ، ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَاءُ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَنَّا يَصِفُونَ ﴾ .

والكلام على الوحدانية يقتضي البسط والتطويل ، وفي الإشارة بذلك كفاية لمن شرح الله صدره بنور اليقين .
الله واحد لا يُثَبِّتْ له ثاني فليس له جلٌّ أمثالٌ وأقراني

كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ ؛ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۱۹

كما نطق بذلك الكتاب ، وشهدت به السنة ، قال الله عزَّ وجلَّ :
﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ ، وقال أيضاً : ﴿ أَلَمْ نَكُفِ بِرَبِّكَ أَنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ .
وأقربيته لا تشبه أقربية الأجسام ، بل هو القائم على كل نفس بما

كسبت ، بل قربه قربُ شهود وإحاطة ، وكلاءة وقدرة وعلم ، واستغراق جميع الأحوال والقوى ، « لا حول ولا قوة إلا بالله كُنزٌ تحت العرش » أو كما قال صلى الله عليه وسلم ^(١) ، بل وبذاته ، وإنما عبّرنا بالصفة ؛ لأن الصفة لا تفارق الموصوف ، وفي معناه أنشد :

لَلَّهِ أَقْرَبُ إِلَيَّ ^(٢) الْأَشْيَاءُ بِقُدْرَتِهِ فليس يشبهُ قَرَبُ الخلقِ بالصُورِ
فهو القريبُ إِلَيَّ كُلِّ قُرْبَتِهِ من كل شيءٍ هو التأثيرُ في الأثرِ

كَيْفَ يَتَّصِرُ أَنْ يَخْجِبَهُ شَيْءٌ ، وَلَوْلَاهُ . . لَمَا كَانَ وُجُودُ شَيْءٍ ؟

أي : لولا وجود ذاته . . لما ظهر تجلّي وصفه ، ولا برزت أعيان مخترعاته ، ولا وجدت أرضه وسماواته ؛ لأن الأشياء مخترعة ومبتدعة ، فلا بد لها من مخترع ومبدع ، ولا يكون كذلك إلا عالم مرید قادر حي كامل متنزّه عن النقائص ؛ إذ لو لم يكن كذلك . . للزم ألا يوجد شيء ، أو يكون أكمل من خالقه وموجده ، ولا يخفى استحالة ذلك ؛ فوجود الأشياء صادر عن فعله ، ومقتضيات أحوالها بارزة عن أمره .

لَوْلَاهُ مَا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ بَارِزَةً وَلَا ظَهَرَ مِنْ عِيُونِ الْكَوْنِ مِنْ أَثَرِ
قَدْ كَانَ نَمًّا وَلَا شَيْءٌ وَلَا سِمَةً وَهَوَّ كَمَا كَانَ جَا هَذَا فِي الْحَبْرِ

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٥٩/٥) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) في (ب) : (وعلم ، بل وبذاته ، وإنما عبّرنا بالصفة ؛ لأن الصفة لا تفارق الموصوف واستغراق جميع الأحوال والقوى ، « لا حول ولا قوة إلا بالله كُنزٌ تحت العرش » أو كما قال : لله أقرب إليّ) .

يَا عَجَبًا كَيْفَ يَظْهَرُ الوجودُ فِي العَدَمِ !؟

لأن العدم باطل ، والوجود حق ، والباطل ظلمة ، والوجود نور ، ولا يخفى عدم اجتماع الظلمة والنور ؛ فكل ما سوى الله عزَّ وجلَّ عَدَمٌ باطل ، والله هو الموجود في الوجود ، ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، فكيف يظهر ليل العدم في صبح نهار الوجود !؟ وفي معناه أنشد :

فكيف يظهر في صبح الوجود عمى أم كيف يخفى نهارُ الحقِّ بالعدم

أَمْ كَيْفَ يَنْبُتُ الحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ القَدَمِ !؟

فإذا جاء الحق .. زهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ؛ أي : بطل واضمحل وتلاشى ، فإذا ظهر الوجود الحقيقي .. ذهب التوهم الغيري ، وتلاشى العالم الخلق .

لو لآخ أدنى باري من وجهها صارَ الوجودُ إلى الفناء المفظع
ولزال الالتباس ، وذهب الباس ، ونطقت الحواس ، وبرزت مخدرات
الحقائق ، لكل محب صادق ، من تحت أستار البشر ، وتحقق الخبر ،
وانطمس الأثر ، عند ظهور مؤثره ؛ فحقيق أن يتزلزل ولا يثبت ، فتزلزل
أراضي النفوس ، وتخرج أنفالتها ، وتحديث أخبارها ، وتكشف أستارها ،
وتكون الناس أشتاتاً ؛ ليروا أعمالهم .

وفي هذه إشارة لطيفة لذوي الأسرار ، عند البروز من الآثار ، لله
الواحد القهار ، فعند ذلك تظهر لهم لطيفة المحبة الكامنة في لباب

الحقائق ، الكائنة في لطائف الأعمال ، المودوعة في أصداف المعاني ؛
بأن ما سوى الواحد هالك فإن .

كيف يثبت حادثٌ فانيّ عدمٌ إذا قرنته بالموصوف بالقديم
واعلم : أن عبارته هذه بديعة ، وهي متعلقةٌ بعضها ببعض ، وبعضها
ألطف من بعض ، وهي كلها من علوم الكشف الحقي ، والتجلي
الوصفي ، والمظهر الاسمي ، فلا شيء منها متعلقٌ بالمعاملة القالبية ،
وإنما هي حقائق مصونة ، وأسرار مضمونة ، ودررٌ مخزونة ، ولم تُبين
منها إلا ما يصلح بيانه على طريقة العلم .

فقوله في معظمها : (كيف) اعلم : أن علماء الكلام اختلفوا : هل
يجوز إطلاق الكيف أم لا ؟ فعامة المحققين يجيزونه حيث لم يقتن
باعتراض على الله ، ودليلهم من الكتاب والسنة قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ
يَبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ... إلى
غير ذلك من الآيات ^(١) .

(و) (الحجاب) في عبارته كلُّ ذلك معروفٌ من الكتاب ^(٢) والسنة
قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله سبعين حجاباً من الظلمة ، وسبعين
حجاباً من النور » أو ما لهذا معناه ^(٣) .

فلما أنهى الكلام على ذلك .: أخذ يتكلم في حكم العبد مع الله
فيما تقتضيه منه ربيوبته ، فقال رضي الله عنه :

- (١) والكيف هنا للأفعال ، ولتعلقات القدرة الأزلية ، وكلها حوادث ، أما تكييف الذات
والصفة . . فكما نبّه المصنف قبل بمنعه ، وما ورد مأثوراً . . فمؤول إلى التنزيه بانفاق .
(٢) كقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَخْشُورٌ ﴾ ، فأثبت الحجابية لهم عن الله تعالى .
(٣) عند مسلم (١٧٩) مرفوعاً : « حجاباه النور » عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

مَا تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ شَيْئًا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ فِي الْوَقْتِ غَيْرَ مَا
أَخَذَهُ اللَّهُ فِيهِ

فكل من نازع الله في أحكامه ، واعترض عليه في أقداره . . فقد برز في حلة الجهل التي هي أقبح لبسة ؛ كما روي : أن الله خلق الجهل في أقبح صورة ، فقال له : « وعزتي وجلالي ؛ ما خلقت خلقاً أخطأ منزلة عندي منك ، لأجعلنك في أبغض خلقي وأحطهم منزلة عندي »^(١) ؛ فالكافرون ذوو نفوس و جهل ، والمؤمنون ذوو قلوب وعقل ؛ فكل من أراد غير مراد الله له . . فقد جمع الجهل ، ومن جهل بالله . . فهو بغيره أجهل ، وحكم العبد التسليم لأمر الله فيما قضى ، والسكون فيما أبرز وأمضى^(٢) ؛ كما قال القائل :

خَلِيلِي لَوْ دَارَتْ عَلَيَّ رَأْسِي الرَّحِي مِّنَ الذَّلِيلِ لَمْ أَجْزَعْ وَلَمْ أَتَكَلَّمْ
فحيث أقيم العبدُ في أمرٍ لم يكن للمشرع عليه فيه اعتراض ، ولم يطالبه الحق بنقيضه . . فحَقُّه الرضا بعلم الله دون علمه ؛ لأن الله عالمٌ من كل الوجوه ، والعبد جاهلٌ من كل الوجوه ؛ فاللائق به : ألا يطلب غيرَ ما أقامه فيه سيده ومولاه إن كان مرضياً .

وإلا يكن كذلك : بأن كان مما يخالف الأمر ؛ كأن رضي بالكسل والوقوع في المناهي . . فذلك من المكر الخفي ، وتلبيس من الشيطان المغوي ؛ بأن يجعل القضاء حجةً له ويظن أنه بحكم مولاه ، وإنما هو

(١) أورد نحوه في « كشف الخفاء » (٧٢٣) وعزاه للاوود بن المحبر في كتاب « العقل » ولغيره .

(٢) في (ب ، ج) : (والسكون تحت ما أبرز وأمضى) .

بحكم هواه ، فالرضا بالقضاء من حيث كونه قضاءً ، والقضاء أيضاً من حيث كونه قضاءً دون المقضي من حيث كونه عملاً .

فهنا أمورٌ غلط فيها جهلةٌ من ينتمي إلى التصوف دون علمٍ بمجرد الزيِّ دون التحقق بمقامه .

فتراهم يحتجُّون بالقضاء ويبرِّؤون نفوسهم عن ذلك ، فاللائق عكس ذلك ، وبالأول الذي هو وقوفٌ على رؤية الأشياء دون الله ، وبذلك هلك الجسمُ الغفير باعتراضهم على الله فيما قضى ، وتبرُّمهم مما في مملكته أمضى ؛ كمن أحال أفعاله الملمومة على التقدير ، وجعله ذريعةً له إلى التقصير . . فقد أخطأ الحكمة .

والوقت عند الصوفية له إطلاقات :

فمنهم : من ذهب إلى أنه ما طلبه الحق منك .

ومنهم : من ذهب إلى أنه كل تجلٍّ فيه من الشؤون الإلهية .

والوقت أيضاً عندهم : مراعاةُ الأنفاس وإعطاؤها ما تستحقه من عبادةٍ أو عبوديةٍ أو عبودة ، فيستخرقهم ذلك عن الماضي والمستقبل ؛ لذلك يقال : الصوفي ابن وقته ؛ أي : كلُّ ما اقتضاه تجلِّي الوقت عليه كان نعته ذلك التجلي ؛ فكلُّ من لم يقطع الأنفاس فيما طلبه الحق منه . . كانت عليه حسرة ، فحريٌّ أن يندم على فواتها ، ويتحسّر عند انكشاف خزائنها .

فالوقت إذا لم تقطعه بما طلبه الحقُّ منك . . قطعك عن الطاعات بالموت .

الوقت دُرٌّ ثمين لا مردَّ له والموت يقطع عنا غالي الدُرِّ
كُنِ ابنَ وقتك إياك أن تصاوله فلا تُردِّ غير ما يبرزه مُقتدر

فَسَلِّمْ أَنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ فَلَيْسَ لَهُ مَرَدُّ يَمْنَعُهُ مِنْ سَائِرِ الْبَشَرِ
فَمَنْ يُرَدِّ غَيْرَ مَا قَدَّرَهُ فَاعْلُهُ فَوْضُهُ الْجَهْلُ يُحْكِي ذَا عَنِ الْأَثَرِ



فإذا علمت أن الوقت سيفُ قاطع سريع المرور، يفوت نفائس الأعمال^(١)، وسننات الأحوال . . قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في (ج) : (يفوت نفائس الأعمان) بدل : (يفوت نفائس الأعمال) .

إِحَالَتَكَ الْأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ .. مِنْ رُغُونَةِ النَّفْسِ

العبد مركزه الجسماني في دار الدنيا ، ومحتدُّه الروحاني في دار الآخرة ، والمركز الجسماني فإن ومطالبهُ شتى ، والمحتدُّ الروحاني باقٍ ومطلبُهُ واحد ؛ فالأعمال وإن كثرت أجناسُها وتعدَّدت أنواعها .. فمرجعها إلى شيءٍ واحدٍ وهو الله عزَّ وجلَّ .

فإذا طالبه هذا العالم الروحاني بالعمل بسائر أنواعه ؛ سواء كان العمل بالأركان أو بالجنان .. فالواجبُ عليه : إجابتهُ وقطع دواعي أشغاله الجسمانية ؛ فإن أجاب العالمَ الروحاني ، وترك أشغال العالم الجسماني .. فذلك هو الكيسُ الفطن بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وثناء الله عليه بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَلُونَ فِي الْحَيَاتِ ﴾ ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكيسُ : من دانَ نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والرغونة : هي الحماقة ، قال صلى الله عليه وسلم في شطر الحديث : « والأحمق : مَنْ أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » (١) .

ومن جملة ذلك : أنه منهمكٌ في أشغاله الدنيوية ، كيف وكلُّ شغلٍ منها تتولَّد منه أشغالٌ كثيرة ، فإذا لم ينهض عن فترته ، ويستيقظ من رقاد غفلته .. فجدبيرٌ أن تطول حسرته ، وتتوالى عليه مدلهماتٌ ظلمته ؛ إما بأن يختطفه الموت على حين غفلته ، أو يركن إلى الدنيا وينسى قُرْبَ نقلته .

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله تعالى عنهما .

والموفق الميمون : من استغنى فرصة الإمهال ، وقطع علائق الأشغال ، ويادر الأيام والليال ، ولم يلهه عن ذكر الله مأل ولا عيال ، وقام بعبادة الله على كل حال ؛ مرضاً أو صحة ، فقراً أو غنى ، صيفاً أو شتاء ، سفراً أو حضراً . . . إلى غير ذلك من تقلب الأحوال ، فلم يدر متى تفجؤه قواصف الأجال ، وتغييرات الأحوال .

يَا مَنْ يَرِيدُ خُرُوجاً مِنْ مَآرِبِهِ
عَلَّامٌ تَطْلُبُ مُحَالاً لَيْسَ تُذَرِكُهُ
فَأَنْهَضْ عَلَى ضَعْفِكَ الْمَقْدُورِ فَأَنْتَ بِهِ
إِنْ شِئْتَ تَفْرُغْ عَنِ شُغْلٍ فَأَنْتَرِكُهُ
غيره :

رَعُونَهُ النَّفْسِ أَنْ تُوعِدَكَ بِالْعَمَلِ
وَتَسْتَبِيدُ إِلَى الشَّهَوَاتِ وَالكَسَلِ
وَتُنْسِي الْمَرَّةَ مَتَا سُرْعَةَ الْأَجَلِ
ويعتريه بذلك الهمُّ والمللُ

فإذا أقامك الحق في عبادته ، واستعملك بأعمال طاعته . . فلم تنمَّ عبوديتك إلا بالتسليم له في أمر ربوبيته ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تَطْلُبُهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لِتَسْتَعْمَلَكَ فِيمَا سِوَاهَا ؛ فَلَوْ أَرَادَ ..
أَسْتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجِ

لا تطلب أيها المؤمن الراضي بتدبيره واختياره ، الخاضع تحت أمره
واقداره : أن يخرجك من حالة هو مرتضيها لك ، ومقدّرها عليك ، وإن
خالفت مرادك ، وناقضت طبعك ، ونافرت هواك ؛ فهو أعلم بما فيه
منفعتك ، فلا ينبغي لك أن تعرّفه بما يصلحك ، وتذكّره بما ينفعك ،
فإذا طلبت منه .. فاطلب أن يرزقك حسن الأدب معه ، وترك الاعتراض
عليه ، فافهم ما على العبد من الأدب مع الله تعالى ، سيما فيما استأثر
بعلمه دون خلقه .

فإذا أقامك في حالة دينية أو دنيوية لم يطالبك العلم بالخروج عنها
ولم يذمها منك .. فالأدب : ألا تتحكّم وتختير على الله بالخروج عنها ،
فلو أراد ذلك .. لاستعملك فيما طلبت من غير استعمال خروج منك ؛
كما أدخلك واستعملك فيما أنت فيه ولم تكن طلبت الدخول فيها
قبل ، فطلب العبد لذلك لفرط غباوته وجهله بربه ؛ حيث استدرك عليه
في علمه .

وإن كانت تلك الحالة غير ملائمة له ومنغصة لذّته .. فحقن
العبودية : ألا يتعرّض ولا يتبرّم ، بل يقبل كلّ ما أبرزته الربوبية ، وتكون
حاله الرضا ، فإن لم يقوَ على ذلك .. فالصبر ؛ فهو رخصة في العبودية .
والحالة : هي كلّ ما كان العبد فيه ، سواء كان من قبيل الحركات
الجسمانيات ، أو من قبيل الخطرات والإرادات القلبيات .
وأما إذا كانت تلك مما فيه مناقضة للعلم ، ومباينة للأمر .. فيتبغى

أن يتضرع إلى الله تعالى ويستهل في إخراجه ؛ فليس ذلك مما نهى عن
الطلب فيه المصنف . بل ذلك مما يقتضيه كلامه . أو في حالة قصور
وفتور . . . فينبغي أن يطلب من الله المزيد ؛ كما ندب نبيه صلى الله عليه
وسلم المتخلق بأعلى مراتب العبودية ، الذي حُصِرَ من الأدب بأكمله ،
ومن العلم بأفضله ؛ حيث قال الله عزَّ وجلَّ في حقِّه وتبنيهاً لأدبائه أمته :
﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، وقال في حق من طلب الخروج من المآثم :
﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَعْمَالُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ
نَصِيرًا ﴾ فالطلب المحظور : هو أن تطلب الخروج من حالة مرضية إلى
حالة أخرى لم ينصَّ الله ولا رسوله على تفضيلها على ما أنت عليها ،
فتكون كالمستدرك عليه في علمه ، والمعترض في حكمه ؛ فلا يخفى
ما في ذلك من سوء الأدب ، وفي معناه أقول :

لا يطلب العبد أن يخرجهُ سيِّدُهُ من حاله يرتضيها قامه فيها
فلو أرادك لأنَّ الحكم في يده لأستعملك قبل أن تظهر مباديها



فنسأل الله حسن العافية وتمام العافية فيما قضى ، والخيرة فيما
استعمل وأمضى ؛ فشان العبد : أن يمضي في مراد سيده ، ولا تتشوّفت
نفسه إلى جزاء عاجل من قبيل الأحوال ، ولا ثواب آجل في الآخرة من
قبيل الدرجات ، بل يكون عبداً محضاً ، أمره سيِّدُهُ فامثل أمره ، ونهاه
فاجتنب نهيه ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَا أَرَادَتْ هِمَّةٌ سَالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَمَا كُشِفَ لَهَا .. إِلَّا وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ
الْحَقِيقَةِ : الَّذِي تَطْلُبُ أَمَانِكَ ، وَلَا تَبْرَجَتْ ظَوَاهِرُ الْمُكُونَاتِ .. إِلَّا
نَادَتْهُ حَقَائِقُهَا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ وَنِنَّةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

الإرادة : حالةٌ قلبيةٌ يتبعها العزم ، وهي أثر اسمه المرید ،
وهي واجبةٌ في حق الله تعالى ، أحد صفات المعانسي ، وبرهائها :
التخصيص ، وفي حق العبد جائزةٌ ناقصةٌ ، وهي أن نفوذ إرادة العبد
متوقفةٌ على سبق إرادة الله ، فإن وافقتها .. عملت حسب ما قدر أن
تعمله .

والهمة : هي العزيمة التي تصدر عن الإرادة ، وهي مبادئ الحركات
القلبية ، ومنها تظهر على الحركات الأفعال المرادة ، وهمةُ السالك أبلغ
الهمم ؛ لأن همته مجموعةٌ من متفرقات الأشغال ، فلذلك عند توجيهها
للأمر المهمم به .. تنفعل بها أمورٌ خارجةٌ عن اقتدار البشر .

وهمة السالك الصادق جادةٌ في سيرها في مفاوز المجاهدة ، وعاكفة
بكليتها على إرادة المواجهة والمواصلة ، فإذا كُشفت لها الأنوار ..
نادتها الأسرار من وراء الأستار : إياك والوقوف مع الأغيار .

والهواتف : يكون معنوياً علمياً ، وقد يكون حسيّاً جسمياً ، والهواتف
الإلهية تطرق طروقاً^(١) ، وترمق رموقاً ، يفهمها من أيّده الله بنور
المعرفة الحقيّة ، فإذا أراد أن يقف يظن أنه وصل إلى المراد .. ومقته
الأعين السرية ، وطرقته النفثات الروحية ، ونادته الألسن القُربية : إن

(١) في (ج) : (والهواتف الإلهامية تطرق طروقاً) .

الحقيقة المطلوبة أمامك ؛ فجُذَّ في السير ، فعن قريب يرفع عنك حجب
الغيب ، وتقول بعدُ : لا ضير .

وأين الوصول وأنت باقي بأوصافك؟! فمتى بقي لك وصف .. فأنت
محجوب ، فعند تحقيق الوصول تفنى إرادتك وتُحجى نعمتك ، فإياك
والوقوف مع وصفك ، فتكون محجوباً بما تظن أنه كشف ، ومبعداً بما
تظن أنه قرب ، فأمامك المقصد حتى يكون أمامك وراك ، وصباحك
مساك ؛ فأنت ما دمت بين جهاتك ، وفي مضيق صفاتك ، وتحت
حجاب ذاتك .. فأنت بعدُ لم تصل إلى بغيتك ، ولم تنل منيتك .

ولا تبرجت ظواهر المكونات .. إلا نادته حقائقها : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ
فِتْنَةٌ ﴾

التبرج : هو التكشفُ عن الزينة ؛ أي : ما تكشف للسالك الصادق
ظواهر زينة المكونات الدنيويات ، والدرجات الأخريات ، والمقامات
الملكوتيات ، والعوالم السماويات ، والكواكب العلويات ، والأفلاك
الروحيات ، والصور الكرسيات ، والعلوم اللوحيات ، والأسرار العرشيات ،
والكراسي الجبروتيات ... إلى غير ذلك مما لا يسع كشفه لغير أهله ..
إلا نادته حقائقها التي بها حُست وبها وجدت ، ومن بديع سناها
اشتهرت ؛ لأنها لأهل الله ناطقة ، ولهم مفاوضة : (إنما نحن) دون
موجدنا ، ومبدع حستنا ، ومظهر نورنا ، ومالك أمرنا ، ومدبر خلقنا ،
ومعبرنا من باهي جماله جمالنا .. (فتنة) واختبار لمن وقف دونه عند
ظهورنا^(١) ، فإياك والوقوف .

فهذه وما أشبهها من نصائح هواتف الحقائق لمن سبقت له

(١) في (أ، ج) : (فتنة واختباراً لمن وقف دونه عند ظهورنا) .

من الله هداية ، ومنَّ عليه بنور ولاية ؛ فكل مَنْ كان الله معه بالعون والتوَّبي . . كانت سائر الأكوان تناديه بأسرارها ، وتشرقُ عليه بأنوارها ، وتخبره بمنافعها ومضارِّها ؛ فلا يزال يترقَّى في مراتب الوجود ، ومنازل الشهود ، وهي تكسره علوماً ، وتمنحه فهوماً أبداً كذلك حتى يخرج عن العوالم الكونية سالمًا من فتنها ، معافى من وبيل محنها ، ويلقى في يَمِّ التوحيد ، ولجَّة التفريد ، وقضاء تفرقة التعديد ؛ فمن وقف مع شيء دون الله . . فهو كافر ؛ أي : ساتر ، بمعنى : أنه ساتر وجود الحق بشبوت شيء معه ، وقد علمت أنه لا يثبت مع ظهوره شيء ، فما ثبت شيء إلا وقد ستر عنه وجود وحدانية الحق .

فلا تقف همّةً من دون مقصدها إلا وخاب لديها السعي والأمل فكيف مِنْ وابلِ التحقِيقِ يُقْنِعِها شفانٌ وهمٍ ومصُّ الظَّنِّ بالوشل^(١) يا من تبرَّج له الأكوان ظاهرُها هل لا تخاطبك الأسرار بالمقل^(٢) إن كنت تطلُب من الأقوال أحسنها فأسمَع نصائح لا تغتَرَّ بالكلل فإن كانت الزينة دنيوية . . ففتنتها ظاهرةً جليلة ، وإن كانت من قبيل الدرجات الأخروية والأحوال السنية . . ففتنتها باطنةٌ خفية ؛ فالوقوف مع زينة الدنيا غرور ، والتمسك بها قطيعة ، وإن كانت من قبيل الدرجات والأحوال . . فالوقوف حجاب عن منازل الشهود والاقتراب .

فالنظر إلى زينة الدنيا . . حال الضلال والجُهمال ، والنظر إلى بهجة الأحوال والوقوف دون مراتب الكمال . . شأن مَنْ لم يؤهَّل للمواصل ، ولم

(١) الشفان : بقية الماء في الإناء ، وآخر البيت فيه تضمين لبعض قول الطغرائي :

فيم اعتراضك لِح البحر تركبه وأنت تكفيك منه مصّة الوشل

(٢) كذا في النسخ : (هل لا) ولعلها : (هلاً) .

يطالع مشرقات الجمال ، ومحرقات الجلال ، ولم يجتئل لروحه مخدرات
الحقائق من أفق مشارق شمس الأسرار ، فنسأل الله هداية وتوفيقاً ،
وصواباً وتحقيقاً .

وفي معناه :

فليس للسالك المحفوظ من أرب إلا اقتناصُ صريحِ الكشفِ والأدبِ
إن الحقائق نادت كلَّ مكتسبٍ إلى سلوك طريق الحق بالسببِ
فلا تقف فالذي تطلبه مغتربٌ ورا خبا الكونِ جُزْ الأكوانِ وأقترِبِ



فإذا كان الأمر كذلك ؛ أي : لم يصل رتبة الوصل الخاص إلا بمحو
الأوصاف ، ومحو الأوصاف يقتضي الحضور ، ومع هذا : فالعبد مطالبٌ
بالأدب في الطلب ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

طَلَبْتُكَ مِنْهُ أَيْتَهُمْ لَهُ ، وَطَلَبْتُكَ لَهُ غَيْبَةً عَنْهُ ، وَطَلَبْتُكَ لِغَيْرِهِ لِقَلَّةِ حَيَاتِكَ
مِنْهُ ، وَطَلَبْتُكَ مِنْ غَيْرِهِ لَوْجُودِ بُعْدِكَ عَنْهُ

فهذه أربعة أقسام : قسمان حُجِبَتْ ظلمانيةً كثيفةً لأهل البعد والضلال ، وحجبت نورانيةً لطيفةً لأهل الوقوف مع الأسباب ، وكل حجابٍ أكثف من قسيمه ، فطلبك منه ما ضمنه لك ووعدك إياه . . . انتهاؤم له في وعده ، واستعجالُ لما ضمنه ؛ فذلك ذنب عند العارفين ، وقلّة أدب عند الموحيدين ، ولا يخفى ما في ذلك من المناقضة لحالة العبودية ، فلا ينبغي للعبد : أن يعرف سيده الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

والذي تطلبه : إما أن يكون نفعاً أو دفعاً ، وكل صادر عن تجلي اسمه وظهور وصفه ، فكيف تطلبه رفع ما أنزله وهو لم يبرزه إلا وقد قدّر وقته ومحله وعينه وماهيته ووصفه ؟! اللهم إلا أن يكون طلبك لإظهار وصف ضعفك ، وتحقيق ففرك ، وتعلقاً بقوته وغناه ، وامتنالاً لأمره حيث نديك إلى دعائه ، لا كراهةً وتبرُّماً لقضائه .

وكذلك دعاؤك لجلب منافعك ، وإنزال مصالحك . . . كذلك لا ينبغي أن تكون في دعائك له متحكِّماً عليه ، بل تدعوه مع تفويض الخيرة إليه فيما هو الأنفع لك من حصول غرضك أو عدمه ، وإظهاراً لفاقتك إليه وقلّة حيلتك في إيصال منافعك ، ومنال مآربك .

فليكن العبد في دعائه مراعيّاً الأدب ؛ فلا يكون الباعث له غير امتثال الأمر ، لا لأغراضه ؛ فهو أعلم بوقت حصولها ، ففوض ذلك إلى علمه ، وليكون اعترافاً وإظهاراً لفاقتك وتحقيق ضعفك ، وعدم حولك

وقوتك ، وشهود وصفه ، ونفوذ قدرته ، وشمول حوله وقوته .

فمتى كنت كذلك .. كنت عبداً مصيباً ، مهذباً أديباً ، وإذا كنت تطلب منه ولا تطالب نفسك له .. كنت بالجهل موصوفاً ، وبالحماسة معروفاً ، وقد اتهمته فيما وعد ، واستبطنته فيما ضمن ، وذلك غاية الجهل بالله وبأوصافه .

وطلبك له لوجود حجابك عنه ؛ فأى وجود لغيره معه ؟! فلو كنت ذا كشف جلي ، وشهود قلبي .. لم ترَ لغيره وجوداً ، ولم يظهر لسواه شهود ، فكيف تطلبه وبه قام وجودك ، وتحقق شهودك ، وبقيوميته قام الوجود بأجمعه ؟! فمتى غاب حتى يصدق عليه الفقد ؟!

فالعارف : يطلب وجود نفسه ؛ ليقضي بوجودها حق معبودها ، فلم يجد هناك إلا عبودية لمعبود في صورة عبد قام لمعبوده ، وفي معناه :
كَيْفَ يَتَّبِعُ الْمَخْلُوقُ خَالِقَهُ فِيمَا وَعَدَ جَلَّ مِنْ قَدَرِ الْقِسْمِ
فَلَا يَطَالِبُ بِالْمُضْمُونِ رَازِقَهُ أَلَا كُنَّ الْقَلْبُ لَمْ يَسْتَنْجِحِ الْحَكْمِ
غيره :

ما غاب مَنْ أَبَدَعَ الْأَعْيَانَ وَأَوْجَدَهَا مِنْ قَبْلِ مَظْهَرِهَا فِي عَالَمِ النِّسْبِ
كَيْفَ يُطَالِبُ وَالْأَكْرَانَ أَجْمَعُهَا تَشْهَدُ بِمَظْهَرِهِ دَانَ وَمُقْتَرِبِ
وطلبك لغيره لقلّة حياك منه ؛ فكيف تؤثر عليه .. وجميع المحاسن والمآرب وعاليات المطالب لديه ؟! وباهيات المحاسن وغرائب طرائق الجمال صادرة عن سنا محاسنه ، ومجتاة من دوحه روض كماله ؟!

كفكيف لا تستحيي منه وهو معك - كما ترى - بجميل رأفته ولطفه ، ومحبته وعظم رحمته ، وحفظه وكلاءته وجميل مودته ، يرقبك حين

تغفلُ عنك العيون ، ويحفظك إذا خلا عنك الأنيس ، ويؤنسك إذا
أوحشك المجلس ؟!

كيف تطلب غيره وهو يطلبك ، وترغب إلى سواه وهو يقربك ؟!
ما هذا الجفاء وقلة الرفاء ؟! أتطلب من إذا رأى لك عورة هتكها ،
ولو بيده نعمة عنك أمسكها ، ومع ذلك هو عاجزٌ عن إيصال منافع
لنفسه ، وعن دفع مضارّه ، وهو عن إيصال المنافع ودفع المضارّ عن
غيره أعجز ؟! فكيف تطلب وتدعو من هو عنك غافل ، ونجم وجوده
أقل ؟!

أما يطرقك الحياء من الله : أنه يطلبك لحضرتته ومحل رضوانه
وشهوده في فسيح جنانه وأنت شاردٌ عنه سُرود البعير عن أهله ، وتطلب
ما ليس ينفعك دونه ، وهو أيضاً غير غافلٍ عن دعائك ، في صباحك
ومسائك .

وما تريد شيئاً دون وصاله ؟! وماذا يغيبك عن شهود جماله وظهور
كماله ؛ وهو يريدك أن تكون من الخدّام ، وينزلك في داره دار السلام ،
ويحييك فيها بالسلام ، ويتحفك بلذيق الكلام ، ويجعلك من أهل
حضرته ، وخواصّ محبّيه ^(١) .

فإذا علمت ذلك .. فجدّ بكَ ألا تطلب سواه في أرضه وسماه ،
وإلا .. نودي عليك بالملامة في عرصات القيامة ، وتوسم بالملامة
حيث طلبت غيره .

يروى عن الشيخ الجنيد رضي الله عنه : أنه كان جالساً في مسجد
في أصحابه ؛ إذ أتته امرأة تخاصم زوجها إليه ، فقالت : يا شيخ ؛ أنا

(١) في (ب ، ج) : (وخواص محبته) بدل : (وخواص محبيه) .

زوجة هذا الرجل ، وقد تزوج عليّ امرأة غيري ، فقال لها الشيخ : له ثلاث غيرك - أو كما قال - فقالت له : يا شيخ ؛ لو يجوز كشف وجه الأجنبية .. لكشفت لك عن وجهي ، فلو رأيتني .. لحكمت بأن مثلي لا يؤثر عليه ، فصاح الشيخ عند ذلك حتى غشي عليه ، وفي معناه :

من طلب غيره بآء منه بعثب ووبيل قبح وشين ملام
كل شيء دونه من قصور وعرب وفتسوح ونيل مقام
فهو للواقفين غرورٌ وحجبٌ ومُنَى العارفين هو والسلام
وطلبك من غيره لوجود بُعدك عنه ، فأدل شيء على بُعدك عنه : أن تطلب من غيره ، وهل لغيره من العطاء دون ما له حتى تطلب منه ؟!
كيف تطلب من غيره ما هو موجوده ، ويده خزائنه ؟!

فهذا أبعد الحُجُبِ الظُّلُمَانِيَّةِ ، وأكثف الأغشية القلبية ، وأقبح الحالات النفسية : أن تنزل حوائجَكَ بمن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، ولا عطاء ولا منعاً ؛ فحيث أنزلت حاجتك بمن هو كذلك .. فجديراً أن يخيب أملك ، وتوكل إلى من يسلمك أحوج ما تكون إليه ، ويتبرأ منك ، وتفتضح بين الأَشْهَادِ ، وتمقت عند العارفين ، وتهان عند الموحدين ، وتنسى عند الذاكرين : « من أنزل حاجته بغير الله .. لم تقض حاجته ... » الحديث^(١) .

فلو أردت قضاءها .. لقصدت بابه ، وتعلقت بجنابه ، وابتهلت في طلبه ، وقل : (اللهم ؛ إني أنزل بك حاجتي وإن قصر رأبي وضعف

(١) روى أبو داود (١٦٤٥) ، والترمذي (٢٣٢٦) مرفوعاً من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس .. لم تسد فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله .. فيوشك الله له برزق عاجل أو أجل » .

عملي ، فأسألك يا قاضي الأمور ، ويا شافي الصدور (١) .

فمن نزل عن هذه الرتبة .. فقد انكفأ به صراط الاستقامة في نار
البعث عن الكرامة ، وبهان في الأعيان عن القاص والدان ؛ فلا يرى له
حرمة ، ويستعبده الأخصاء اللثام ، ويحقر في أعين الكرام ، فهو أضلُّ
من الأنعام سبيلاً .

وفي هذا المقام تظهر المعاصي والآثام القلبية ؛ كالنفاق وطرقه ،
كالرياء والعجب والشح ، ونتائجه القلبية ؛ كالكذب والخلف للوعد
والخيانة والفجور ولدادة الخصام ، وغير ذلك مما يطول تعداده من
المعاصي الظاهرة والباطنة ، عافانا الله والمسلمين منها .

وفي معناه أقول :

فكل أمر تحاوأه وتطلبه

فأنزله بالله تَلَقَّ العِزَّ والظفر

فَمَنْ طَلَبَ مِنْ سِوَاهُ تَبَلَّ مَطْلَبِهِ

نَأَى عَنِ القُرْبِ بِأقصى البعد في النظر

فإذا طلبت .. فاطلب من الله ، وإذا استعنت .. فاستعن بالله ، وأهم
ذلك : أن تطلب منه أن ييسر عليك ، ويقيمك فيما هو مطالبك به
من أداء حق العبودية ، والقيام بالحقوق ، ونسيان الحظوظ ؛ لذلك قال
المؤلف (٢) رضي الله عنه :

(١) بعضه دعاء رواه الترمذي (٣٤١٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) سقطت من (ب ، ج) .

مَا مِنْ نَفْسٍ تُبَدِّيه ، إِلَّا وَلَّهُ قَدْرٌ فِيكَ يُمَضِّيه

الأنفاس : ظروفٌ ورسُلٌ حاملة إلى العبد من الله ما أودعه فيها من أسرار قدره ، وأصنافٍ عِبره ، والرسول راجعٌ إلى مرسله إما مكرماً شاكراً لمن نزل به إذا أكرمه واحترمه ، وكرامتهُ باستعماله فيما خُلِق من أجله ، واحترامه صيانتَه عن استعماله في قاذوراتِ المعاصي ورتائل الشهوات .

فإذا استعمله بحسبٍ ما يعطيه الوقت : إن تجلّى عليه بالنِّعم ..
فبالشكر ، أو بالطاعة .. فبشهود المنة ، أو بالبلية .. فبالصبر ، أو بالمعصية .. فبالاستغفار ، فيعود بمقابلة ما أهداه بعملٍ مرضي أو خُلِقَ سني ، أو حال سُتِي ، فيشكرك بين الملاء الأعلى ، ويكون ذلك العمل خزانة مدخرة عند الله ، لا يتطرق إليها تغيير ، ويصير ذلك النَّفْس حياً في صورة نورانية ، قائماً لله إلى أن يعيده الله إليك في يوم الجمع ، فيعود إليك شاكراً ، ولفضلك ذاكراً ، فيذكرك عند الله كذلك ، ويشفع فيك من جملة الشفعاء ، ويشني عليك غاية الثناء ؛ حيث أكرمه في دار الدنيا أن يكرمك في كل موقفٍ من مواقف الآخرة ، وحيث أحببته أن يحييك ، وحيث آنتسته أن يؤنسك ، وحيث رفعته أن يرفعك كذلك جزاءً وفاقاً ، هذا إن كان مما يقابل الشكر .

وإن كان من قبيل الصبر ، أو شهود المنة ، أو الاستغفار إذا قمت بها كذلك حيث اقتضاها وارد الوقت ؛ إن كان الصبر .. عاد مستحاً ، أو شهود المنة .. عاد مشاهداً ، أو الاستغفار .. عاد مستغفراً ، ثم يعود في يوم الجزاء يؤدّي إلى صاحبه ما ائتمنه فيه من سرِّ ذلك العمل .

فحق العبد : ألا يشتغل إلا بأداء حقوق واردات الأقدار ؛ فللرسول
حقُّ على من نزل به أن يكرمه ويحترمه ؛ لكرامة سرسله وحرمة ، كيف
وذلك عائد عليك ، وراجع سره إليك ؟!

فلا يهمل الأنفاس إلا الغافلون الأنجاس ، الذين يحويهم الإبلاس
عند ظهور الياس^(١) ؛ كما قال الله عز وجل : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ ﴾ أي : حذِّرهم
﴿ يَوْمَ الْخُسُوفِ ﴾ وهو يوم يعود عليك ما أسلفته ﴿ إِذْ نُصِيَ الْأَمْرُ ﴾ وهو الموت
المحتوم ، والأجل المعلوم ﴿ وَهَرَفِي عَفَلَةٍ ﴾ عن الله وعن حقوق الله ﴿ وَهَرَفِ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بما وعد الله وأوعد .

فإذا لم تكرمها ، وقتلتها بالغفلة ، وأهنتها باستعمالها في غير ما
يحمد .. فترجع إلى الله وهي لك ذائمة ، ولك مخاصمة ؛ وتعود عليك
في يوم الجزاء بما أودعته عندها : إما حية أو عقرباً ، أو ناراً أو ظلمة ،
أو غير ذلك من أصناف النكال حسب ذلك العمل الذي أودعتها إياه ،
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا ﴾ .

قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى : « ابن
آدم ؛ إنما هي أعمالكم أحصيها ، ثم أوفيكم إياها ؛ فمن وجد خيراً ..
فليحمد الله - يعني : الذي وقَّفه لها ، وحفظها له ، ونمَّأها عنده ، وأعانه
على القيام بها ، ومدحه على ذلك ، وأجزاه وألهمه إياها بعد أن لم يكن
يعرف مقاصدها - ومن وجد غير ذلك .. فلا يلومنَّ إلا نفسه »^(٢) ،
فهو أمات أنفاسه بالغفلة ، وضيَّع أمانة الله لديه ، فأمات الأنفاس
بالمعاصي ، وعطلها بالغفلة ، فما أجدره بالندامة حين أتته أمانة الله

(١) في (ب ، ج) : (البأس) بدل : (الياس) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً .

وأضعها ، وهدية الله ولم يكرمها بقبولها ، بل تركها خزائن فارغة عن متاعها !!

فالأنفاس [القائمة] بالعبد ثلاثة ^(١) :

إما جوهرة لا قيمة لها لنفاستها ؛ وهو كل نفسٍ أحياء بذكر الله ، أو عمل من أعمال الطاعة ، وإما بعرّة لا قيمة لها لخستها ؛ وهو كل نفسٍ خرج مع غفلة ، وإما حسرة لا آخر لها ؛ وهو كل نفسٍ استعمله في معصية .

فهذه الثلاثة الأحوال لازمة لكل نفسٍ من أنفاس الإنسان ، وله من الأنفاس في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس ، فماذا ترى حال من أضاع في يومه وليلته أربعاً وعشرين ألف جوهرة من جواهر الحقائق الإلهية ، والأسرار الربانية ، والدرجات الأخروية ، الذي انتهى صاحبها إلى دار السلام ، الذي موضع سوطٍ منها خيرٌ من الدنيا وما فيها ^(٢) ، فكيف حال من استبدل بها أربعة وعشرين ألف نوعٍ من أنواع النكال والدركات الظلمانية العبدية ؟!

وفي معناه أنشد :

إن النفائسَ في الأنفاس مودعةٌ فليقتنضها أولو الأبواب والقطنِ
فكم حوثٌ من عجائبٍ سِرٍّ مكرمةٍ يذوقها من تجافى لذةً الوسنِ
في طيِّها علمٌ تكوينٍ ومعرفةٍ من نالها قام منهاجّةً على السننِ
فمن يرى ذا يرى الأكوانَ مُحكمةً على دوائرٍ أنفاسٍ من الجننِ

(١) في النسخ : (فالأنفاس قيام بالعبد ثلاثة) .

(٢) إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري (٢٨٩٢) ، وأحمد (٤٣٣/٣) من حديث سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنهما .

فلا يقوِّمُ الأنفاسَ إلا أقطابها الذين كُشف لهم عن مراد الله فيهم
 وبهم في كل نفس ، فيتلقَّونها بالإكرام قبل بروزها عنهم ، وعند بروزها
 يقومون بحق عبودية الحق ، فيكتسبون من علم التكريس والتعرُّف ما
 يرجح بأعمال الثقلين ، وذلك لهم في كل نفس ؛ كما يروى : أن شَمَّةَ
 من عارف توازي عمل الثقلين ، وهو الذي رَجَّح به أبو بكر الصديق
 رضي الله عنه الأمة .

وهم أرباب الحقائق ، ولهم علامات يعرفون بها أقطاب هذا المقام ؛
 فمن جملتها : أنهم في عالم البرزخ أحياء بحياة خاصة بهم ، يشهد بها
 أسرار الأعمال ، ويتلذذون بذلك ، لا يقطعها عليهم الموت كما يقطعها
 على غيرهم ممن كان يهمل الأنفاس ، ولا يعبأ بها ، ولا يعرف زيادته
 فيها من نقصانه منها ، فما يقوم بها غير من خرج عن أوصاف البشر ؛
 كما يروى عن بعض ساداتنا العلوية رضي الله عنهم - وذلك سيدنا
 ومولانا عمر بن عبد الرحمن السقاف رضي الله عنه - أنه قال : (إن لي
 في كل نفس ألفاً من « يا حفيظ »)^(١) .

انظر كيف وسَّع الله له في نفسه حتى يقضي فيه حق الله الذي يقتضيه
 منه ، وأهم ما هناك : حفظ المقام على الدوام ؛ لذلك كان تعلقه بالاسم
 الحفيظ ، هذا لمن شهد دقة المقام على الأنفاس ونفاستها ، فأقل قائم
 عندهم : من قام بشكر ظاهرها ؛ وهو أربعة وعشرون ألف حمد ، فأين

(١) وحكى الإمام الياقيني في « الإرشاد والتطريز » (ص ٢٤١) عن العارف نجم الدين
 الأصبهاني أنه رأى إنساناً من أهل اليمن ختم القرآن في شوط - أو سبع ، شك - ثم
 ختمه بين يديه في الحال ، ثم قال الياقيني رحمه الله تعالى : (كما يطوى المكان
 لهم .. يطوى الزمان ، وكذا تطوى الحروف ، ويذهب جرمها تحت الأنوار الواردة
 عليهم)

من كان هذا مقامه وحاله من حالات المحتبئين بحبائل البشرية ، الذين
شغلتهم الشهوات الحيوانية ، عن القيام بالوظائف الحقية !؟
فنسأل الله أن يلحقنا بأوليائه ، وينظمنا في سلك أصفياته ؛ إنه ولي
ذلك ، والمأمول لما هنالك .



فلما كان المطلوب من العبد مراعاة الأنفاس في كل آن ، من غير
انتظار زمانٍ ولا مكان . . قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تَتَرَقَّبْ فَرَاغَ الْأَغْيَارِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَفْطَعُكَ عَنِ وُجُودِ الْمُرَاقَبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمُكَ فِيهِ

وذلك لأن فراغ الأغيار ، وانقطاع الآثار .. لا ينقطع عنك ما دمت مقيماً في هذه الدار ، فمن راقب فراغها .. ضيَّع ما هو المطلوب منه ؛ وذلك مراقبة الله فيما يقيمك ، فلا تجتمع مراقبة الله ومراقبة غيره ؛ فالمراقبة لما يتحلَّى به من الأوصاف والنعوت ، والمحاسبة على ما يظهر على العبد من الكلام والسكوت ، والأعمال في سائر الأحوال ، فمن فاتته مقام المحاسبة .. فاتته حق العبادة ظاهراً ، ومن فاتته المراقبة .. فاتته العبودية باطناً ، فمتى يخلون عن المطالبة بالقيام بالعبادة والعبودية حتى يترقبها في آن ثان ؟!

وترقَّب فراغ الأغيار وانقطاع الآثار .. حجابٌ عن شهود الأنوار ، فالفقير الصادق يقطع كل ما عرض له من عوارض الأغيار ، ويزيل عن وجه قلبه كثيف الآثار بموالات الأذكار وصافي الأفكار ، فلا يترقَّب فراغ الأغيار ، وليكن بحكم وقته ، فترقب العبد إلى ما هو آت ، وضياع الحال .. ضلال .

فإذا لم تحكم الوقت الذي أنت فيه .. فما تدري ما يأتي الوقت الآخر وأنت باقٍ على ما أنت عليه ، أو قد خرجت عن الإمكان : إما بمفارقة الحياة ، أو عدم مساعدة الوقت الآخر بذلك العمل ، قال صلى الله عليه وسلم : « بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنتظرون إلا سبعاً .. » ، وذكر منها : الموت ، والمرض ، والهزم ، والفقر ، والغنى ، والدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أذهى وأمر^(١) .

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فعلى العاقل : أن يبادر وقته قبل أن يبدره ، ويقطعه بالطاعة قبل أن
يقطعه بالفوت ، فيقوم على حسب حاله من صحة أو مرض ، أو غنى
أو فقر ، أو حضر أو سفر ، فلا يدري ما يحدثه الله بالغد ، فإذا أحكم
الحال .. لم يندم في المستقبل ؛ لأنه إن أدركه سالمًا .. ازداد خيرًا ،
وإلا .. فقد حصل على خير ؛ ولأن تدخل النار وأنت طائع .. خير من
أن يُدخلك الجنة وأنت عاصٍ ، فرحم الله ابن الفارض حيث قال في
ذلك المعنى :

فَقُمْ زَمِنًا وَانْهَضْ كَسِيرًا فَحَطُّكَ الْدُّ

بَطَالَةُ مَا أَخَّرْتَ عَزْمًا لِصِحَّةِ

وَكُنْ صَارِمًا كَالْوَقْتِ فَالْمَقْتُ فِي عَسَى

وَإِيَّاكَ عَلَّ فَهِيَ أَخْطَرُ عَلَّةٍ^(١)

فهذا وما شاكله من الروايات والنصائح ، والتحريض على المبادرة
بالمقدور ، والإتيان بالميسور .

يا من يريد فراغ القلب عن أرب

ذا لا يكون فإن شئت أبدر المهل

فلا تقف دون ما تطلب على سبب

إن الوقوف عليها أصعب العليل



فلما كانت شواغل الدنيا لا تنقضي ، وآفاتها لا تنتهي .. قال
المؤلف رضي الله عنه :

(١) ديوان ابن الفارض (ص ٦٣) .

لَا تَسْتَفْرِبُ وَوُقُوعَ الْأَكْذَارِ ، مَا دُمْتَ مُقِيمًا فِي هَذِهِ الدَّارِ ؛ فَإِنَّهَا مَا
أَبْرَزَتْ لَكَ . . إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ وَصَفِيهَا وَوَاجِبُ نَعْمَتِهَا

ولا يستغرب وقوع المكدرات ، ووجود المنغصات للعيش ، المؤلمات
للقلب والبدن ، ووقوع المصائب ، ونزول البلايا وحدوث المعاطب . .
إلا مغرورٌ خبيـل ، وذو عقلٍ قليل .

فالمكدرات للعيش في هذه الدنيا من قبيل المصائب الدنياوية ،
والحوادث الكونية ؛ وذلك إما بفراق محبوب ، أو نزول مرهوب ، أو
قصورٍ عن مطلوبٍ حاصلٍ لعبدٍ من المقاساة والتعب^(١) إذا لم يعتدَّ
له بعدة الرضا والتسليم ، وفوات الثواب والأجر إذا لم يتلقاه بالصبر ،
ومع كونه يفوته ذلك الحال الشريف ؛ فلا مردَّ له عنه بحيلةٍ ولا
تصريف .

فمن أعون الأسباب على حصول هذه الأحوال - التي هي الرضا
والتسليم - الفناء عن أوصافك والتعلق بأوصافه ؛ فعند فنائك عن وصفك
والتعلق بوصفه . . تستلذُّ البلاء وتستحليه ؛ لأنك بوصفه لا بوصفك ،
فلا تستبعد ذلك ، كيف ودلال الحبيب أعظم لذة من إقباله ؛ كما يرى
ذلك من ذاق هذا المشهد ، وتحقق بذلك المقصد !؟ وحكاياتهم في
ذلك تكاد تخرج عن الحصر .

وفي معناه :

بلا الحبيب إلى المحب عطيةً ودلاله عطف ولطف يشغل
لا يلهي المشغوف نيل هديةً تشبه عن وجه الحبيب المقبل

(١) في (١) : (وحاصل العبد منه : المقاساة والتعب) .

وأما الصبر . . فأحسن ما يستعان به على احتمال البلاء بذكر ما
أعدَّ الله للصابرين من عظيم المدح ، وجزيل الحظ في الآجل ، والثناء في
العاجل ، وتوطين القلب على نزول تلك المصائب قبل نزولها ، ويعطي
هذا المقام الفناء في الأفعال ، والتحقُّق من التمكُّن في الأحوال ، وانتظار
اللطف من دقائق الأوقات ، وفي معناه أقول :

من كان من تحت القضاء أمره فليس سوى الصبر الجميل يعينه
إن المصاب وإن تشدَّد عسره فاليسر يتبعه بنور يقينه
هكذا في المصائب الدنياوية .

وإما أن يكون ذلك التكدُّر من قبيل الأحوال ؛ مما يعرض للسالكين
في طريقهم من العوائق عن مقاصدهم ونيل مطالبهم ، وذلك لما رُكِبَ
فيهم من الشهوات ، فيلحقهم من الغفلات ، فما داموا في هذه الدار . .
فما تنفك عنهم هذه الحالات ، ولو على الندور في الأوقات ، ولكنها
لهم سائفة إلى اللجأ إليه ، الذي هو أشرف حالات العبودية .

لا توحشَنَّ إذا ألمَّ بك البلاء فالصبر يعقبه هنا والمغنمُ
فاستصحبني الصبر ما عشتَ أَنَّهُ ما خاب ذو صبر ولا يتندَّمُ
هلا ترى من عارف تسألته عما هناك من المكارم تغنمُ
من علقم الصبر المرير لأنه صعبٌ على الغيْرِ الذي لا يعلمُ
فألَقَ البلاء بصبر ساعةٍ أَنه لا بد يُجلى ليله المتعتم
فلئن صبرت لتحمدنَّ في غيِّه إن المصائب لا تهين المكرم
هكذا في الصبر على البلاء الدنيوي المنقضي بعدما ذكر الله من

كرامة الصابرين ، وما ورد من الأخبار والآثار في ذلك .

وأما علم ما الدنيا محتوية من مكدرات العيش ، وذلك حكمة ؛
لئلا يرغب فيها ، ويسكنَ إليها عباده . . فهي تضيق عما أعدَّ لهم ، وما
يريد أن يكرمهم به من عظيم الكرامة التي لا تدخل تحت علم عالم ،
ولم تخطر على قلب بشرٍ من خفي الألفاظ ، وجزيل الإسعاف ، وصفو
المواهب .

وذلك التأكيدُ هو ما عجنها به من شوب الشهوات ، والدواعي
البشرية ، والأغراض المختلفة ، فلا ينفكُ ما دام في هذه الدار
إقامته ، فلا تستغرب أيها المؤمن وقوعها ، ولا تستغربَ طلوعها ؛ فهي لم
تأتك بغير حقيقة وصفها .

والدنيا من حيث ما يطلق عليها من الذم : هو كلُّ ما شطَّ بك عن
الطريق ، وتعوَّقت به عن الرفيق ، وهذه هي بعينها شهوات الدنيا
المعتادة ، وأنى لك بالخلوص عنها ما دمت مقيماً فيها ؟

ومن مكدراتها أيضاً : لوازمها ؛ من وجوب زوالها ، وسرعة
ارتحالها ، وقرب انتقالها ، فلا تُنمَّت بغير ذلك ؛ لأنه لا يوجد فيها
غيره ، وكل ما كان فيها من لذة وصفو بطاعة ، أو ارتياح بروح وصلة . .
فمكدرُهُ خوف سلبه ، وعدم تحقيقه بكلية المقام على التمام ؛
لأنه يتخلَّف عنه من التحقيق بقدر ما عليك من الأوصاف الطبيعية
الترابية .

ولا بد وإن قل ذلك . . فبحسبه ؛ إذ كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يطلب اللحق بالرفيق الأعلى^(١) ، فما ذاك إلا ليستكمل مقام
التحقيق ؛ وهو الكامل المكمل صلى الله عليه وسلم .

(١) رواه البخاري (٣٦٦٩) ، ومسلم (٢١٩١) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

ولي في ذلك :

في هذه الدار لا يستغرب الكدر
إلا جهولاً عن التحقيقِ والمبر
فكيف يطمع ذو عقلٍ وذو بصير
في أن يعيشَ في الدنيا بلا ضررٍ
وقد تنفص فيها أشرفُ البشرِ
وسائرُ الأنبياءِ والأولياءِ الفررِ



فلما كان الرجوع إلى الله في جميع الأحوال أصوب ، والانتكال عليه
أنسب . . قال المؤلف رضي الله عنه :

مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ ، وَلَا تَيْسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ

أي : ما استصعب ولا تأخر مطلب - من المطالب الدينية والديناوية المرادة لله بحسن النية وصدق الطوية - أنت طالبه وداخل فيه بربك ، مُنْخَلَعاً عن فعلك ووصفك ، متبرياً فيه عن حولك وقوتك ، متمسكاً فيه بحول الله وقوته . . إلا أنجح الله لك ذلك المطلب ، ويسر عليك أسبابه ، وفتح لك مغلقات أبوابه .

ولا قمت في شيء بحولك وقوتك ، معتمداً على علمك وعملك ، ملتفتاً إلى حيلك وتدبيراتك . . إلا وكُفِّتَ إلى ذلك ، ولم تنل بغيتك ، وخاب سعيك ، وبطل جهدك .

فأهم أحوال المرید : الاستعانة بالله في كل أمرٍ وحالٍ من فعلٍ أو ترك ، ويكون نظره واعتماده ، وعونه واستمداده إلى الله وبالله ، فإذا كان على ما ذكرنا . . قابله الألفاف ، وساعدته العناية ، ومن ساعدته . . أدرك من كل أمرٍ مراده .

فالتوكل على الله نعت المؤمنين ، والاعتماد عليه وصف المرحدين ، ولي في ذلك :

من كان بالله في الحاجات مطلبه فلا تشك بأن يعطى الذي سالا
ومن عطى ذاك فالتوفيق يصحبه وكل ما حاوله من أمره نالا
ولا تيسر من بالنفس يطلبه إن اعتمادك على الأغيار إضلالا



فلما كانت المطالب لا تقضى بدون الاعتماد على الله ، وأعظمها :
تيسير طريق السلوك إلى الله . . قال المؤلف رضي الله عنه :

مِنْ عَلَامَاتِ النَّجْحِ فِي النَّيَابَاتِ .. الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ فِي الْبَدَايَاتِ

فالرجوع إلى الله في بدايات الأمور ، وعدم رؤية النفس في شيء .. علامة من علامات النَّجْحِ في نهايات المطالب .

والتَّجَحُّجُ : هو الظفر بالمطلوب على التمام ، والاعتماد على الله نعتُ المریدین الصادقین ، والسالكين المرادين المتداركين ، والاعتماد على غير الله علامة على القطيعة ، والرجوع عن الرتبة الرفيعة ^(١) ، فما رجع من رجع عن الله إلا لعلَّةٍ مستصحبةٍ له في بدايته ، فحُرْمُ نُجْحِ نهايته .

فَمَنْ بالله تعلقه وحسن توكله .. كان إلى الله نهايته ، وتولاه بحسن ولايته ، ورعاه وكلاه في مصادره وموارده ، وكان مع الله بلا علاقة ، وفرَّ إليه من جميع أحواله وقواه ، وعلمه وعمله ، وخرج عن حوله وقوته ، ولم يستند إلى سواه ، ولم يأوِ إلا إليه ^(٢) ، ولا يتوكَّل إلا عليه . فجديرٌ أن ينال بغيته ، ويظفر بمُنِيته ، ويحمل عنه كل ما يعباُ به غيره .

ومن كان على غير هذا النعت ، ولم يتصف بهذا الوصف .. خيف عليه أن يُوكَل إلى ما منه .

فلا يفلح إلا أن يتداركه الله ، فيفتح له باب الفهم عنه ، فيعود عن مشهده هذا ، ويرجع عن زلته .

(١) في (ب) : (المرتبة) بدل : (الرتبة) .

(٢) في (ب ، ج) : (ولا يأوي إلا إليه) بدل : (ولم يأوِ إلا إليه) .

ولي في ذلك :

فأرجع إلى الله فيما أنت طالبه تظفّر بغايات أقصى السؤل والأمل
ولا ترى النفس في شيءٍ تقابله وأترك دعاويك في علمٍ وفي عملٍ

فإذا كان الرجوع إلى الله في البداية علامةً على النّجح في النهاية ..
عبر المؤلف رضي الله عنه بعبارةٍ أخرى لهذا المعنى فقال :

مَنْ أَشْرَقَتْ بَدَايَتُهُ .. أَشْرَقَتْ نِهَائِيَّتُهُ

فإشراق البداية : بالفناء عن أفعالك وشهود فعله ، والتبيري عن الحول والقوة في كل فعل ، والاعتماد على حول الله وقوته .

وإشراق النهاية : فناؤك عن وصفك بوصفه ، وذهاب ذاتك عند لوامع تجليات ذاته ، وفقد إِيَّتِكَ عند توالي ظهور مشرقات جماله ، واحتراق أوصافك بمحركات جلاله ، وذهابك وفقدك عند تجلي سلطان كماله ، فهذا وما شاكله من جملة إشراق النهايات ومبادئها ، وأما كلياتها ونهاياتها .. فلا تفي به العبارة ، ولم تومع إليه الإشارة ؛ لقصر الأفهام عن ذلك .

فالفناء عن الأفعال : هو إشراق البدايات ، والإشراق : لا يكون إلا عبارة عن النور الذي علمت فيما تقدم أنه الوجود ، والظلمة : هي العدم ، فما لم يشرق نور أفعال الله تعالى على ظلمة أفعالك .. بقيت رؤية أفعالك حُجْباً ظلمانية ، وما لم تشرق أوصافه على وجود أوصافك .. بقيت محجوباً بحُجْب كونية ، ولي في ذلك :

إشراق أفعاله نورٌ يُشَابُ به وجود وصفك فأخرج عنه وأرتحل
إلى شهود كمال الذاهبين به عن كل وصف وعن ذات وعن عِلِّ



فلما كانت النهايات غيباً ، والبدايات شهادة .. ظهر في شهادة البدايات ما استودع في غيب النهايات ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَا اسْتُودِعَ فِي غَيْبِ السَّرَائِرِ . . ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ الظُّوَاهِرِ

ما استودع من نور الذكر ، وحقيقة الصدق ، وبذر الهداية ، وسرّ الولاية ، ولطيفة الإيمان ، وتجليّ الإيقان ، وإشراق شمس الإحسان ، وشهود العيان في سريرة الإنسان وفطرته . . فلا بد وأن يلوح على هيكله آثاره ، وتشرق عليه أنواره ، وتزكّي ظواهر أعماله ، وتصفو سرائر أحواله ، وتنغمر بنور القبول في مسامع الخلق أقواله ، وتجليّ لديهم إشارته ، وتفصح بالصواب عبارته .

ولذلك دلالات وظهور آيات ، يعرف بها من أودع الله نور الإيمان في سريرته ؛ كما سنذكره قريباً إن شاء الله تعالى عند قوله : (لو أشرق نور اليقين) .

ومن جملتها : الطمأنينة بذكر الله ، والنفرة عن معاصي الله ، والتوكل على الله ، والرضا عن الله ، والصبر في مُسِمِّرات الأمور لله ، والتعلّق على دوام الأوقات بذكر الله ، والتولُّه في شهود جمال الله ، والتحير في جلال الله ، واستعمال الجوارح باستفراغ الجهد في طاعة الله ، واتباع محابّ الله ، واحترام حرّمات الله ، واتباع رسول الله ، وإجلال الله ، ومحبة أولياء الله ، ومناصرتهم وموادتهم وامتثال أوامرهم ، وبغض معاصي الله ، ومجانبة من ينتهك محارم الله وإن كان أقرب أحمائه ، وأحب أولاده ، وأحنى إخوانه ، وخواص عشيرته ؛ لذلك قال جلّ ذكره : ﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ .

فَحُسْنُ أَسْرَةِ الْمَرْءِ دَلِيلٌ عَلَى حَسَنِ سَرِيرَتِهِ ، كَمَا أَنَّ قَبِيحَ الْأَسْرَةِ
يَدُلُّ عَلَى قَبِيحِ السَّرِيرَةِ ؛ لِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ
خَشَعَ قَلْبٌ هَذَا . . . لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ » أَوْ كَمَا قَالَ (١) .

فَمَنْ ادَّعَى أَنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ وَهُوَ مَهْمَلٌ لِأَمْرِ اللَّهِ ، غَيْرَ مَكْتَرِبٍ
بِمَعَاصِي اللَّهِ . . . لَمْ يَقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُ ، بَلْ يَحْمَلُ عَلَيَّ مَا أَظْهَرَهُ مِنْ أَمْرِهِ ،
وَنَكِلُ سَرِيرَتَهُ إِلَى اللَّهِ .

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (إِنَّا كُنَّا نَأْخُذُ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ - يَعْنِي : وَحْيِ
النَّبُوَّةِ - وَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنَا نَأْخُذُ مَا ظَهَرَ لَنَا ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا . . . قَبْلَنَا
وَأَمْنًا ، وَنَكِلُ سَرِيرَتَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا غَيْرَ ذَلِكَ . . . لَمْ نَأْمَنَّهُ وَلَمْ
نُصَدِّقْهُ وَإِنْ قَالَ : إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ) (٢) .

وَأَمَّا وَحْيُ الْإِلْهَامِ وَالتَّحْدِيثِ . . . فَهُوَ بَاقٍ مُسْتَمَرٌّ أَبَدَ الْأَبَادِ ؛ كَمَا وَرَدَ
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَصْفِ عَمْرِ نَفْسِهِ : « إِنْ يَكُنْ مِنْ
أُمَّتِي مُحَدِّثُونَ . . . فَعَمَّرُوا مِنْهُمْ » (٣) .

وَكَلٌّ مِنْ غَلَبَتْ عَلَيَّ سَرِيرَتُهُ الْأَدَابَ الْإِلَهِيَّةَ ، وَتَوَالَتْ عَلَيَّ سِرَّتُهُ
الْأَخْلَاقَ الرَّبَّانِيَّةَ . . . ظَهَرَتْ عَلَيْهِ آثَارُهَا ، وَسَطَعَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُهُ أَنْوَارُهَا ،
﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَرَى السُّجُودَ ﴾ فِي عَالَمِ الْأَرْوَاحِ ، يَظْهَرُ خَشْوَعُهَا

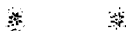
(١) رَوَاهُ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فِي « نَوَادِرِ الْأَصُولِ » (٨٢٠) عَنْ سَيِّدِنَا أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ ، وَهُوَ عِنْدَ ابْنِ الْمُبَارَكِ فِي « الزُّهْدِ » (١١٨) مِنْ كَلَامِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى ، وَفِي (ب) : (أَسْوَةٌ) بَدَلُ : (أَسْرَةٌ) فِي الْمَوْضِعَيْنِ .

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٤١) .

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٦٩) عَنْ سَيِّدِنَا أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَمُسْلِمٌ (٢٣٩٨) عَنْ
السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

في الأشباح ؛ فكل ما أكنّته السرائر .. فلا بد وأن يلوح على صفائح
الظواهر ، ولي في ذلك :

لأشباح تحكي بما في السِر منكم كما الزجاجَةُ للأنوار تحكيها
فما بطنٌ في مصون الغيب من حكَم لا بُدَّ أن يشهد التحقيق رائيها



فلما كان الأمر مبنياً على غيبٍ وشهادة ، وهو عالم الغيب والشهادة ،
ولكن الغيب : شهود الحق مجرداً عن نسبة الأسباب ^(١) ، وظهوره في
الشهادة مقرونٌ في نظر الخلق بوجود الأسباب .. خطب من سرادقات
الغيب قلوب الأحياب ، واختطفت غيرة المحبة أسرار المجذوبين
المحبوبين ، واستخلصت حضرة الأزل أرواح المجذوبين المرادين ،
ويقيت قلوب السالكين تحت حكم سلطان اسمه الظاهر ، في متعدّدات
المظاهر ، قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في النسخ : (مجرد ...) بدل : (مجرداً ...) .

شَتَانَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ ، وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ ؛ فَأَلْمُسْتَدِلُّ بِهِ : عَرَفَ
 الْحَقَّ لِأَهْلِيهِ ، وَأَثَبَتِ الْأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَصْلِيهِ ، وَالْإِسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ : مِنْ عَدَمِ
 الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا .. مَتَى غَابَ حَتَّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ ؟! وَسَتَى بَعْدَ حَتَّى
 تَكُونَ الْأَنْوَارُ هِيَ الَّتِي تُوَصِّلُ إِلَيْهِ ؟!

شَتَانٌ ؛ أَي : بَعْدَ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَبِوَسِيلَةِ مَا بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ ؛ أَي : طَرِيقِ
 الْمُسْتَدِلِّينَ بِهِ عَلَى وُجُودِ الْأَشْيَاءِ ؛ لِأَنَّهُمْ مَا خُودُونَ عَنْ رِقَى الْأَغْيَارِ ،
 وَشُهُودِ الْأَنْوَارِ بِظُهُورِ وَحِدَانِيَةِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَتَمَلَّاشُونَ فِي مَتَلَطَمَاتِ
 بَحَارِ الْأَنْوَارِ ، وَمَسْتَغْرِقُونَ فِي شُهُودِ الْأَسْرَارِ .

فَأَنْتَ يَثْبِتُ فِي مَشَاهِدِهِمْ رُؤْيَا سَوِيًّا رُؤْيَا مَلِكِيهِمْ ، أَوْ يَلُوحُ لَهُمْ
 غَيْرُهُ وَهَمَّ عَاكِفُونَ فِي حَضْرَةِ الْقَدَمِ ، غَائِبُونَ عَنِ الْحَدُوثِ وَالْعَدَمِ ؟!
 فَاسْرَرَاهُمْ عَلَى كِرَاسِي الْوَلَايَةِ ، لَمْ تَلَسْ إِلَى رُؤْيَا مَرْتَبِي : حَسِيٍّ أَوْ
 مَعْنَوِيٍّ ، دَنْبِيٍّ أَوْ أُخْرَوِيٍّ ، مَلِكِيٍّ أَوْ مَلِكُوتِيٍّ .

وَإِنْ تَعَاقَبْتَ عَلَى ظَوَاهِرِهِمْ مَخْتَلِفَاتِ الْعَادَاتِ .. فَلْأَحْكَامِ سَبَقَتْ ،
 وَأَقْسَامِ قَدَرَتْ ، يَدْخُلُونَ فِيهَا قَبْلَ رُؤْيَيْهَا ، فَهَمُّ بِهِ وَلَهُ ، لَا بِأَنْفُسِهِمْ وَلَا
 لِأَنْفُسِهِمْ ، فَاتَوَّنَ عَنْهَا حَالَ وُجُودِ ظُهُورِهَا فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَالْمَلِكِ ،
 غَائِبُونَ عَنْهُمْ لَا تَشْعُرُ أَسْرَارَهُمْ بِسِوَاهِ ، وَلَا تَنْظُرُ إِلَّا إِيَّاهُ .

فَهَنْوَلَاءُ صَفْوَةُ أَوْلِيَائِهِ ، وَخَيْرَةُ أَتَقِيَّائِهِ ، لَا يَسْلُكُونَ إِلَيْهِ إِلَّا عَلَى
 طَرِيقَةِ الْمَحْوِ فِي وُجُودِ الصَّحْوِ ، يَرِبْحُونَ مِنْ تَابِعِهِمْ ، وَيُوصِلُونَ إِلَيْهِ بِهِ
 مِنْ وَأَصْلِهِمْ ؛ نِعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ سَابِغَةٌ ، وَرَحْمَةٌ مِنْ اللَّهِ بِالْغَةِ .

يَأْلَفُونَ وَيُؤَلَّفُونَ مِنَ الْفَهْمِ فِي اللَّهِ ، لَا تَتَدَنَّسُ بِوِطَانِهِمْ بِلُوثِ الْغَلِّ ،
 وَلَا تَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ ، نَفُوسُهُمْ طَاهِرَةٌ ، وَأَنْوَارُهُمْ بَاهِرَةٌ ، وَأَعْمَالُهُمْ

دائمة ، وهم في أمانٍ وعافية ، والخلق منهم في أمانٍ وعافية ، لا يؤذون جليهم ، ولا يمارون نديمهم ، هَيِّنُونَ لِيَنُونَ ، تحكُّمُ أحوالهم على كل من رآهم بالاحترام لهم والإجلال ، ويثبت الحب لهم في قلوب أهل الإيمان ، تجدُّ إليهم نجائب القلوب المحجَّدة في طلب المحبوب ، ويلوح من أنفاسهم بوارق الغيوب ، يغنى طالب القرب برؤيتهم ، وتوصله محبتهم .

فلو ذهبنا نَصِفُ ما جَلَّلَهُم اللهُ به من عظم المنَّة ، وما أتخفهم به من جزيل النعمة . . لطفى علينا طوفان الألفاف ، وغطى جبال أعلام وجودنا ، وفي الإشارة كفاية لمن أشمه الله نسيماً قربههم ، وأذافه حلاوة حيتهم ، ولي في ذلك :

يغذيهم الحب من ألبان منته	شهد التجلي ونعت الذات في الأزل
بغير تكييف يحكى كيف كئته	فجل عن كيف يحويه ولا مثل
فكل محبوب يشهد ذلك سنته	قد صار محفوظ عن عمد وعن زلل
من لاحظته عيون الطاف رأفته	لم يعتريه كربة الجبن والملل

فهذا في المجذوبين المحبوبين .

وأما السالكون المنجَّبون ، الذين غطت حقائق إيمانهم وجود أعيانهم . . فالإيمان والعلم فيهم مغيب تحت أسجاف القوالب البشرية ، والحُجُب الطبيعية ، والشهوات الحيوانية ؛ التي هي لأهل الكشف دلائل الكمال ، فخطبوا بالرجوع إلى أوطان الحقائق القدسية ، بعدما دنستهم الظلمات الأرضية ، فأمرت أصلاً أراضي نفوسهم السحائب النبوية ، والدلائل الرسالية ، والشواهد القرآنية ، بعدما أيسستها حرارة

نيران الجهل ، فوسمتها بوسمَي الحياة^(١) ، فسمعت النداء ، فشارت
البذرات الإيمانية الكامنة فيها ، فاهتزّت بهزة خوف البُعْد والقطيعة ،
وربت بالترتبي في طريق السلوك إلى ملك الملوك ، وأبنت من كل زوج
من أزواج الحقائق الأسمائية بهيَج رائق .

فهكذا يتدرجون في مدارج العلوم ، ويعرجون في معارج الأحوال ،
ويترقّون في بروج المعارف ، وشرح ذلك يطول ، فليفهم ذلك من عرف
هذه الطريق ، وحقّق في سلوكه أتمّ تحقيق .

ومن لم يحقق ذلك ولم يعلم ما هنالك .. فليلقِ نفسهُ إلى شيخ
يمرّفه حقائقها ، ويفهمه دقائقها ، ويرقيه في بروج معارفها ؛ فإنّ جلّ
هذا الأمر ما يحققه على كماله إلا صاحبُ كشفٍ دائم .

وأما من يأخذ علمه وطريقه لا عن شيخ .. فلا تتضح له الطريق
غالباً ، بل يبقى في حجاب نفسه ، وموضع حبسه ، لا ينفك عن قيد
التلبيس ، ولو بلغ في ظنه ما بلغ ؛ لكشافة حجاب النفس ، فما يلفُ
حجابها إلا مشاهدةً من يستشف بصافي مرآته حقائق الغيوب ، وتنجذب
بصفاته القلوب ، ومثل ذلك قلّ في الأقطار - سيما في هذه الأعصار -
وجوده .

فالسالكون يهذبهم سلطان الجلال ، ويربّتهم تربية الأطفال ،
ويتقلبون في أطوار الأفعال ، فأخذوا أولاً يستدلون بوجود الأشياء على
وجود موجدها ؛ وذلك لطمس أنوارهم الإيمانية تحت غياهب ظلمات
الجهل الطبيعي ، وإلا ؛ لو لم تنطمس أنوارهم الإيمانية وشواهدهم
الإحسانية .. فمتى غاب عن الشهود وهو لم يزل موجوداً منعوتاً بنعوت

(١) الوسمي : مطر الربيع الأول ، سمي به لأنه يسمُ الأرض بالنبات .

كماله؟! متى تصدَّق عليه الغيبة حتى يحتاج أن يستدل عليه بما هو أثر
من آثار قدرته ، وعين من أعيان حكمته؟!

فمن عرف الأشياء بالله ، واستدلَّ به على الأشياء . . فقد عرف الحق
لأهله ، وأثبت الأمر من أصله ؛ إذ المعرفة وصريح العلم يعطي ألا
ترى الصنعة دون صانعها ، والمبدعات قبل مبدعها ، وأن تعرف الفرع
بالأصل ، لا العكس الذي هو دليل على العكس ، وهو شهود الأثر دون
مؤثره ، والصنعة دون صانعها .

ومتى بُعد حتى تكون الآثار توصل إليه؟! فلا يستدل عليه إلا به ،
ولا يتوصَّل إلى معرفته إلا بتعريفه ، ولا يعمل بطاعته إلا بتوفيقه ؛ فهو
الموصل بإعانتة ، والموفق بهدايته ، والحافظ بولايته ، وإليه يرجع الأمر
كله .

وكلا الفريقين مجذوبون محبوبون ؛ إذ لولا سابق عنايته . . لم يُهدَ
إليه السالكون ، ولا حقق شهودهُ المحبوبون ، فإذا علمت أن الكل
على الحقيقة مجذوبٌ ومخطوب . . علمت أن الاصطفاء قد شمل
الفريقين ، فالحمد لله على ذلك .

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَكْتَبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ قيل : هو لا إله
إلا الله ، قال صلى الله عليه وسلم : « سابقنا سابقٌ ، ومقتصدنا ناجٍ ،
وظالمنا مغفورٌ له » أو كما قال ^(١) .

وعند أرباب الفهم فيما يعرفونه من طريق الإشارة والاقْتِباس : أن
الظالم لنفسه هو الأكمل ^(٢) ، ولهم في ذلك معانٍ ورموز تظهر من كنوز

(١) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٦١) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) على أن الظلم للنفس بمعناها شهواتها ، وإجامها عن رغباتها ، ومحو صفاتها .

خزائن المعارف ، ولا سبيل إلى ضرب بعض الأقوال ببعض وتناقضها ، بل فسيح المعرفة يعطي : أن لكلِّ مقامٍ كلاماً ، ولكلِّ حالٍ رجالاً ، ولكلِّ حالٍ مقالاً ، فلا مشاحَّة في اللفظ ؛ فاللفظ الواحد قد يوضع لمعانٍ كثيرة ، والمعاني الكثيرة قد تعبَّرَ بعبارة واحدة ، وقد يكون الكلام واحداً ويأخذ كلُّ إنسانٍ ما يناسب حاله ، ويليق بأفعاله .

وفي معناه :

فكيف يفقدُ مَنْ هو ظاهرٌ وبنا قيوماً قائمٌ لا يخفى ولم يزل
هو أولٌ في بطونٍ قبلَ مظهرنا وظاهرٌ آخرٌ بلا انتهاء يلي
ودائمٍ كيفما كان الزمان بنا لا زاد مظهرنا شيء ولا قللٍ



فلما كان المجذوبون المحبوبون أخذ بهم طريق المنة من غير اكتساب
ولا ترُقُب واحتساب . : كان إنفاقهم من خزائن معارفهم على الطالبين
كذلك حسب ما أمدهم الله به .

والسالكون المحبُّون ليسوا كذلك ؛ لأنه سلك بهم طريق الكدِّ
والتكليف ، فيكون إنفاقهم من وسع ما هم عليه ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَدِهِ ﴾ : أَلْوَابِلُونَ إِلَيْهِ ، ﴿ وَنَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ :
السَّائِرُونَ إِلَيْهِ

هذه إشارة عجيبة ، وترشيحةٌ بديعة ، حيث عبّر بالإنفاق ، والإنفاق لا يكون إلا في خير ، والخسارة ضدهُ ، وإنفاق الواصل من خزائن المنح الربانية ، والتنفحات الرحمانية على أطفال التلقيات الفهمية ، والأركان العملية ، والمشاهدة العلمية التخلُّقية ، وأهل الاقتداء والتبعية .

فالأولون - وهم المجذوبون المحبوبون - ينفقون من سعة وسع المواهب ، والسالكون ينفقون من قَدْرِ المكاسب ، من وراء الفحص وتحري المذاهب .

فالأولون خارجون عن مضيق عقولهم المحصورة القاصرة عن درك الحقائق إلى فضاء وسع التوحيد ، فينفقون من معارفهم بلا تعب ، ولا عناء ولا نصب ، فيريحون الجليس ، ويفسحون صدور الطالبين بالشرح المبين لما عندهم من الوسع لما هنالك .

والسالكون يشدّدون المسالك ، ويخوّفون المهالك ؛ لما عندهم من ذلك ، ولي في ذلك :

مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ فِي التَّحْقِيقِ مَشْهَدَهُ لَا شَكَّ يُنْفِقُ بِلَا ضَيْقٍ وَلَا تَعَبٍ
وَمَنْ يَكُنْ فِي مَضِيقِ الكَسْبِ مَقْصُدُهُ أَنْ يَحْمِلَ أَنْقَالَ أَعْبَا الكِبَرِ وَالتَّعَبِ



ثم قال كالشارح لحالتبي الفريقيين بعبارةٍ أخرى ؛ وهي تعبيره بالاهتداء للسالكين ، والاجتناء للواصلين :

إِهْتَدَى الرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ ، وَالْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارِ الْمُوَاجَهَةِ ؛
فَالْأَوْلُونَ لِلْأَنْوَارِ ، وَهَذَا لِأَنَّوَارِ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَهُ لَا لِشَيْءٍ دُونَهُ

فلا هتداء : هو تتبُّعُ الآثار ، والبحث عن الأخبار ، من وراء
الحُجُبِ والأستار ، ومختلفات الآثار ، والرحلة : هي الأخذ في السير
إلى المقصد ، والرحلة غالباً كثيرة الأخطار ، وشديدة الأوعار ، ومعرضة
لفترات الأعمار ، ونكبات المخاوف والأضرار ؛ لذلك ورد : « السفر قطعة
من النار »^(١) .

فإذا صدقت العزيمة ، وقويت الهمة ، وأخلصت العِملَةُ^(٢) ، وأفردت
النية .. أثمر لك صدقُ العزيمة ، وإخلاصُ العمل ، وتجرُّدُ النية أنوارَ
الهداية لسبيل المشاهدة ، وتحقق الولاية ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

وأما الواصلون .. فلهم أنوار المواجهة ؛ وهي المشاهدة ، وهم
المعنيون بآخر الآية ؛ وهو قوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ومقام الإحسان : هو الاستغراق بمشاهدة المحبوب ؛ كما فسره
صلى الله عليه وسلم بقوله : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه »^(٣) .
ومحال أن تراه وترى معه سواه^(٤) ، ومن كان الله معه .. كانت
الأشياء معه وله ، لا هو معها ؛ إذ الله معه ، فلم يكن فيه معية أخرى ،

(١) رواه البخاري (١٨٠٤) ، ومسلم (١٩٢٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) العِملَةُ : هيئة العمل وحالته ، ويضم العين : أجر العمل .

(٣) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) فقد روى البخاري (٣١٩١) عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما مرفوعاً :

« كان الله ولم يكن شيء غيره » .

فهو غائبٌ عن شهود وجوده فضلاً عن فعله مع فعل موجوده ، وهو الله سبحانه وتعالى .

فمن لم يكن كذلك .. فمن لازمِهِ شهودُ الأغيار ، والتقيدُ في محابِل الأخطار ، ويشهد الوسائط ، ويراعي الشرائط ، فيطالب بمقتضى مشهده ، ويرتقى إلى مَحْتِدِهِ ، وفي معناه :

مَنْ كَانَ مَشْهُدُهُ الْإِحْسَانَ كَانَ لَهُ كُلُّ الْوُجُودِ بِعَوْنِ اللَّهِ مُحْتَكِمٍ وَمَنْ تَعَسَّرَ فِي أَذْيَالِ (إِنَّ) لَهُ ^(١) أَنْ يَحْتَكِمَ تَحْتَ مَا يَشْهَدُهُ مِنْ عِلْمٍ

ثم استشهد المؤلف على مقام الواصلين الكُمَّل الموحدين بهذه الآية ؛ لما فيها من التصريح الخالي عن التلويح ببطلان ما سوى الله عزَّ وجلَّ بقوله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ولمن فهم عنه سِرَّ خطابه ، من خواصِّ أصفيائه ، ونجائب أحيائه :

﴿ قُلِ اللَّهُ تَرَدَّدَهُمْ فِي حَوَاصِرِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

ففي هذه الآية كفاية لمن فهمها ، وعلم سر ما أشارت إليه : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ فليس بعد الله ؛ فهذا فيه مرتبة توحيد الإشارة ، وهو مختصُّ بنبينا صلى الله عليه وسلم ؛ وهو قوله : ﴿ قُلِ ﴾ فحارت الحقائق القريبة ، واللطائف الحبيبة في هذا البحر الذي لا ساحل له ولا منتهى ، ولا يعرف لأوليته ابتداء ، ورأت تعدد مظاهره ، فقال لها هادياً لحيرتها ، وأخذاً بأزمة بصائرها : ﴿ اللَّهُ ﴾ كل ما رأيته فليس

(١) أراد المقيد بإيئته .

سواه ، ولا مشهود إلا إياه ، ولا بعد ذلك إلا خوض ولعب ؛ لأنه إذا
ظهر الحق .. فما فائدة التطلب إلا الخوض في الباطل .

واللعب : هو كثرة ترديد ما لا جدوى له ، وهو كثرة ترديد بلا غرض ،
ومن ذلك اللعاب ؛ وهو الريق الخالي عن الخليط ، وسمي كذلك ؛
لكثرة ترديده والله أعلم .

والوقوف على الحق عند ظهوره .. وصف المرّجدين ، والخوض
واللعب .. وصف الجاحدين الضالين عن سبيل الهداية ، والسالكين
طريق الغواية .

اللَّهُ قُلٌّ فَهَوَ الْمَقْصُودُ بِالطَّلِبِ وَلَا تَزِدْ بَعْدَ ذَا فِي الْخَوْضِ وَاللَّعْبِ



فإذا كان العبد منظوياً تحت عظمة أولية الحقّ .. كان حكمه ووصفه
ترك الفضول ، وإيثار الخمول ، فيتحقّق بصرف العبودية لله تعالى ، وإذا
كان كذلك .. كان أجل همّه تصفية أوصافه ، وتهذيب أخلاقه ؛ لذلك
قال المؤلف رضي الله عنه :

تَسْوُفَكَ إِلَى مَا بَطَنَ فِيكَ مِنَ الْعُيُوبِ .. خَيْرٌ مِنْ تَسْوُفِكَ إِلَى مَا حُجِبَ
عَنكَ مِنَ الْعُيُوبِ

لأن تَسْوُفَكَ إِلَى ما بطن فيك من العيوب حقّ الحقّ منك ؛ لأن الله
مدح أهل تزكية النفوس عن الأخلاق اللثيمة بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
رَكَعَهَا ﴾ ، وذمّ من تركها متدنّسة بقبیح أوصافها وسفاسف مركزها فقال :
﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴾ أي : دنسها .

ولأنّ تخرّج عن ذم الله وتدخل في مدحه .. خيرٌ وأحب من أن
تتطلّع إلى فضول النقول ولمحات الوصول ؛ فمن لم يحقّق الأصول ..
لم ينل الوصول .

فالأصلُ : التزكية عن الرذائل ، ثم التحلية بأوثق الوسائل ؛ وهو
التمسك باتباع ذوي الفضائل ، وهم الأنبياء وسادات الأولياء ، وفحول
العلماء ، سيما أفضلهم وأجلّهم وأكملهم ، وأنهم خلّقاً وخلقاً ،
وأعلاهم مقاماً .. محمد صلى الله عليه وسلم .

فتحلية الأوصاف بحلية الاتباع هو قرع باب المحبة التي يكون بها
التحلية ، قال الله منبهاً على ذلك : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ ووجدتم
ذلك في مرایا إيمانكم ، وظننتم أن ذلك صادرٌ عنكم .. ﴿ فَأَتَّبِعُونِي ﴾
بمحو أفعالكم ، وفناء أوصافكم .. يظهر لكم أصل محبّتكم ، وبين
لكم من أين وجدتم ذلك ؛ فعند فنائكم عن أفعالكم وأوصافكم ..
يتحقق لكم أنه السذي أحبيكم ، وتبدو لكم ثمرة الاتباع ما أودع فيها
من سر المحبة السابقة ، فيعود الأمر عوداً على بدوّه ، فهلذا مقام
التحلية .

وشاهد ذلك : الحديثُ القدسي ، حديث النوافل ؛ حيث قال :
 « لا يزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبُّه »^(١) ، ولا نافلة إلا ما
 صدرت عنه صلى الله عليه وسلم ؛ قولاً وفعلًا وأمرًا صريحاً ، أو ضمناً
 وتلويحاً ، ولكن لم تصل إلى صفاء النوافل عن الشوائب إلا بطهارة
 النفس عن رذائلها^(٢) .

ولم تعثر على ذلك إلا إن عرضتها على بصيرٍ بعيوبها ، فتجري
 أمورها على يد عالمٍ بهذبيها ، فارغٍ عن تهذيب نفسه ، متفرغٍ لإصلاح
 غيره ؛ فحينئذٍ يعزفك بدسائس النفوس ، ومخادع الشيطان ، ومعاطب
 الهوى ، وكوامن الشهوات ، وقبح الدنيا ، وبهجة الآخرة ، وحسن
 الأخلاق وسيئها .

وتكون حالتك بين يديه كحالة الميت بين يدي القاسل ، مسلوب
 الاختيار ، مطموس الأعلام والآثار ، لا خبر لك عنك ، وما أعزَّ في هذا
 الزمان شيخٌ يوجد كذلك !! وما أعزَّ من المریدين من يطلب ذلك !! فالله
 المستعان ، وعليه التكلان .

وإذا صدق الله المریدُ في إرادته . . كان الوجود كله له أستاذاً ؛ إن
 كان عدواً . . ساقه إلى الله باللَّجأ [إليه] من شره ، ونَبَّهه على دسائس
 خفايا عيوب لم يطلع هو عليها ، يرى قبح الجهل فيجتنبه ، أو صديقاً
 محبباً يشني . . فيشهد ثناء الله ؛ فيزداد لذلك شكره لله ؛ حيث أظهر
 جميله لذلك المثني ، وستر عنه قبيحه .

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ولعزَّة هذا المقام - صفاء النافلة عن الشائبة - ألمع البوصيري رضي الله عنه بقوله :

ولا تزودتُ قبيلَ الموتِ نافلةً ولم أصلِ سوى فرضٍ ولم أصم

وما أحسن من كانت نفسه أرضاً ، وقلبه سماء ، وأحواله نجوماً ،
وروحه شمساً ، وعقله قلماً ، ونفسه لوحاً !!
وفي معناه :

تشوُّفُ المرءِ عيبٌ فيه مستترٌ أتم له من ترقُّبِ غائبِ القدرِ
فرؤية النقص توفِّفه على الحذر وفي ظهور غيوب الحق يعتبر



فلما كان الحق ظاهراً ، وإنما حُجِبَتْ عنه بما قام بك من الأوصاف
الظلمانية والكثائف الأرضية . . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

الْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ ، وَإِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ ؛ إِذْ لَوْ
حَجَبَهُ شَيْءٌ .. لَسْتَرَهُ مَا حَجَبَهُ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَائِرٌ .. لَكَانَ لِيُجُودَهُ
حَاصِرٌ ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لَشَيْءٍ .. فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾

هذه براهين عقلية ، وشواهد نقلية ، جمعها في هذه الألفاظ
المتقاربة ، تحتوي على جملي من معاني التنزيه ، وتشير إلى نفي
التشبيه ، وتبطل اعتقاد التجسيم والتحليل والجهة ، وتبين أن جميع
حركات المكونات دائرة على مقتضى علمه ، وجارية تحت سلطان
قهره .

فقوله : (الحق ليس بمحجوب) إذ ما سوى الله باطل ، والحق
هو الله ، فهو ليس بمحجوب ؛ إذ الباطل لا يحجب الحق ،
وما سوى الله دون الله ؛ فهو باطل ، وإنما المحجوب أنت من
حيث إِيْتِكَ ووصفك وفعلك ، فلو فنيت عن إِيْتِكَ ، وتبت عن
تثنيتك .. لرأيت الحق ظاهراً ، ورأيت الكائنات من حيث ذواتها
وأوصافها وأفعالها ودونه لم تخرج عن العدم ، فالحجاب عليه
نعالي محال .

فمن البراهين : أن الحجاب لشيء قاهره ، وقد علمت وجوب قهره
سبحانه لما سواه .

وأيضاً : فالحجاب دلالة الانقهار ، وما سواه مقهور به ، فتحقق
أن الحجاب عن الله إنما هو في ذوات الكائنات ؛ إذ وصف العدم
الحجاب ، والكائنات من حيث ذواتها عدم ، فلما أراد أن يكشف سر
وجوده ، ويظهر تجلي شهوده .. رش على عدم ذوات الكائنات من نور

ذاته وصفاته وأفعاله ما أظهر به وجودَ ذواتها وأوصافها وأفعالها^(١) ،
فاستعدت بذلك لتجلي الظهور ؛ فمن شاهد بنور الذات ، ومن شاهد
بأنوار الصفات ، ومن متحقق في الأحوال والمقامات .

وبحسب هذه التنزلات تكون الدرجات ، والرؤية في الجنات ، وتظهر
حقائق المعاملات ؛ رب رجلين يستويان في العمل ، وعمل أحدهم إلى
جنب عمل الآخر كالذرة إلى جنب أُحُد كما ورد ذلك .

وما ورد : « إن لله سبعين حجاباً من الظلمة ، وسبعين من
النور »^(٢) ، فالحجب الظلمانية : هي ما انطوى عليه تركيب ،
والسبعون التي من النور : ما حواه ترتيبك لا غير ، وتعدادُ هذه الحُجُب
في التركيب والترتيب مما يطول تعداده ، ويحتاج إلى معرفته ما
احتويت عليه من مجموع السبع الأرضيين ، وما انطوى عليك من أنوار
السبع السماوات من كل واحد ، مجموع هذه عشرة حجب ، تحتوي
على متعددات أنواع ، حتى إن السالك يستعين في تطيف بعض
هذه ببعض .

فكلُّ حجاب ظلماني يقابله بنوراني حتى تفتنى عنه الحجب
الظلمانية ، فيؤخذ في التوحيد في فناء الحجب النورانية حتى يخلص
عنها ، فيشهد الحق بالحق ، وهو الشاهد والشهود والمشهود ؛ وهو
قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

(١) روى الترمذي (٢٦٤٢) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً :
« إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك
النور .. اهتدى ، ومن أخطأه .. ضل ، فلذلك أقول : جفَّ القلم على علم الله » .
(٢) انظر « المعظمة » لأبي الشيخ (٢/٦٧٥ - ٦٨٦) .

ومن البرهان على استحالة الحجاب عليه : أن الظرف قبل المظروف ،
وقد علمت وجوب قدمه ، ووجوب حدوث ما سواه .

وبرهان وجوب القدم : بروز الممكنات ، وبرهان حدوثها : مشاهدة
انعدامها^(١) ؛ لأن ما وجب قدمه . . استحال عدمه ، وهذا بحمد الله
ظاهر لا يحتاج إلى زيادة بسط .

وتلك الفوقية فوقية حكم وولاية وقهر ، ولاية الرب للمريوب ،
والسيد للعبد ، [والحاكم للمحكوم عليه]^(٢) ، والاستيلاء والاستعلاء
والتولي ، ولي في ذلك :

الحق ظاهرٌ لا تحجُّبه صنعته والكون في غيبةٍ من ظلمة العدم
فكيف من بعد ما شهدت أدلته أن الحوادث لا تثبت مع القدم



فحيث علمت : أن الحق ليس بمحجوب ، وإنما المحجوب أنت
عنه . . علمنا أيضاً أن ليس هناك حجاب سوى أوصافك ، وما أنت
عليه من التركيب البشري ؛ فإن أردت كشف ذلك الحجاب . . فاخرج
عن أوصافك ، وفارق مقتضياتك ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) يعني : مشاهدة انعدام أعراضها ، فتكون حادثة للتلازم .
(٢) في النسخ : (والمحكوم عليه للحاكم) ولعل المثبت هو الأقرب .

أُخْرِجَ عَنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ ، مِنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعِبُودِيَّتِكَ ؛ لِتَكُونَ
لِنِدَاءِ الْحَقِّ مُجِيباً ، وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً

الخروج عن الأوصاف البشرية المناقضة لوصف العبودية من أنفع
الوسائل لكشف الحقائق التي هي حلية الأسرار ، وبهجة الأرواح ، وروح
القلوب ، وشرح الصدور ، والخروج عن هذه الأوصاف البشرية أول
مبادئ إرادة مريدي سلوك الطريق إلى الله .

والأوصاف هذه ؛ منها : ما يكون ظاهراً في قوالب الأفعال ، ومنها :
ما هو باطن في القلوب .

والظاهرة : هي كل فعلٍ أو قولٍ ندبك الشرع إلى تركه ؛ من محرّم
أو مكروه بسائر أنواعه ، ومجموعها سبعة أبواب في ظاهر الجسم ؛
فمنها : اللسان وهو أشدها ضرراً ، والعينان ، والأذنان ، والفرج ،
والبطن ، واليدان ، والرّجلان ، وحدث كل عضو من هذه الأعضاء من
المحرمات والمكروهات معروفٌ عند مريدي سلوك طريق الله ، وهي
مواضعُ ظهور المقدورات ، ومظهر ما انبهم في غيب القبضات ؛ قبضة
اليمين والشمال .

فهذه على إجمالها : قسمٌ ممّا يجب على المريد الخروج منه من
الأوصاف البشرية المناقضة للعبودية .

والقسم الثاني : هي أوصاف القلوب الحاجة لها عن أسرار الغيوب ،
وهي أيضاً كثيرة ، وصعبٌ علاجها إلا على ذي بصيرة ؛ فمنها : الكبر
والحسد والرياء والعجب ، وما يتولّد عن ذلك من رذائل الأخلاق ،
فالخروج عن ذلك وصف العبودية ، وهو الذي يشير إليه الصوفية

بالتخلية ، والتحلّي بأضداد هذه الظاهرة بصفو الأعمال الظاهرة عن الشوائب الهوائية ، وتصفية الأعمال الباطنة عن المكدرات الظلمانية .
 والتصفية الظاهرة والأخذ في الأعمال الظاهرة . . يسمّى شريعة وديناً ، والأخذ في الأعمال الباطنة وتصفيتها عن كدوراتها . . يسمّى طريقة وتصوفاً ، وعند صفاء الأعمال الظاهرة والأحوال الباطنة والأخذ في طريق المواهب والأحوال . . يسمّى حقيقة ومشاهدة ، والغيبة عن الإحساس . . يسمّى استغراقاً وفناء ، والشبوت معه على مقتضى الأمر والنهي . . يسمّى صحواً وبقاء .

فإذا فني عن الأوصاف البشرية . . فقد صفا عن مناقضات العبودية ، وإذا صفت العبودية . . تواتت عليه ألطاف الربوبية ، وإذا كان كذلك . . كان لنداء الحق محبباً ؛ تحقيقاً بقوله : ﴿ يَبْعِدُنِي الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ، ﴿ يَبْعِدُنِي لَأَخَوْفُ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنتَ تَحْزَنُونَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ ﴾ ، فيقول الله تعالى له : يا عبدي حقاً ، فيقول : لبيك يا ربّي صدقاً ، وهذه غير عبودية القهر التي لعموم من في السماوات ومن في الأرض .

وإذا بعد عن أوصافه وعن نفسه . . كان قريباً إلى حضرة ربّه ، فكلما كان عن نفسه أبعد . . كان إلى ربّه أقرب ، وليس حضرة ربّه إلا فناء عن فعله ووصفه وذاته ، وبقائه بوصف عبوديته .

فخرج عن هذا ما لا يطالبك الحق بالخروج عنه من أوصاف البشر ، فليس من ذلك في شيء ؛ لأنه أباح لك منها ما تتوصّل به إليه : من كل فعلٍ أو قول ، أو نظيرٍ أو سمع ، ورتبة المباح بين الأمر والحظر ، وتتجاذبها الحضرتان ، ويتناوبها المقامان ؛ فإن كان الغالب على الإنسان الأمر . . فلا بدّ أن يسلك بمباحاته مسلكتها .

فمن الصادقين : من يسلك بالمباحات البشرية طريقَ الواجبات الأمرية بحسن النية وصدق الطوية ، ومن السالكين : من يسلك بالمباحات طريقَ المندوبات ؛ لما هو عليه من المحافظة للمطلوب ، والتباعد عن ورطات الذنوب ، ومن المتهورين المنهمكين : من يسلك بها مسلك كباثر الذنوب ؛ لما هو الغالب عليه من التهور وعدم الحضور مع الله في الأمور .

ومن بدل المباحات والمحرمات بالواجبات والمندوبات .. استحق أن يسمى بدلاً ، ومن هنا سُمي الأبدال ؛ لأنهم بدلوا الأوصاف البشرية بالنعوت الروحية ، وهذه بعض إطلاقات اسم الأبدال .

وأما اسم البديل الخاص .. فهو مَنْ فني عن الذات الغيرية ، وبقي مستغرق السرِّ في المشاهد القُربية ، والصفات الأزلية ، لا شعور له بسوى الواحد الحق ، لا نفسه ولا غيره ، ولي في ذلك :

يا مَنْ يريدُ دنو القُربِ فابتدرِ اخلعْ عذارَ قيودِ الحسِّ والبشرِ
ويادرنْ تُدرِك المأمولَ والظفرِ وكلُّ وصفِ تُرذهُ صحةَ النظرِ
فاتركِ وسرِّ في طريقِ السادةِ الغُزْرِ تلقى من اللطفِ فيها أَلطفِ العِبْرِ

وأصل كل خُلُقٍ مذمومٍ وطبعٍ ملومٍ .. هو الرضا عن النفس ، ورؤية الكمال لها ؛ فالرضا عن النفس أصلُ كل بليةٍ ديناً ودنياً ، فما أهلك عامَّة الخلق إلا الرضا عن أنفسهم ، واستحسان أفعالها ، ورؤيتها بعين التعظيم ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَعَفْلَةٍ وَسَهْوَةٍ .. الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ
وَعَفَةٍ وَيَقْظَةٍ .. عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا

هذا أصلٌ كليّ ؛ إذ مجموعُ المعاصي الظاهرة والباطنة ، كبيرةٌ أو صغيرة .. رضا الإنسان عن نفسه بعد سبق تقدير الله وإرادته ، فإذا سبق على العبد أن تجري على يديه شؤون المعاصي ، وظلمة الغفلة ، ومحرقات نيران الشهوة .. حُجِبَ عن رؤية نقص النفس وعيها ، وضلالها وغيتها ، ورأى حسنَ ما يصدر عنها وإن كان قبيحاً ؛ فعند ذلك : لا يفيد فيه نصح ، ولا يبينُ له من ليل غفلته صبح .

فإذا استحسن أفعالها .. غَفَلَ عن تفقُّد أحوالها ، وعند غفلته عن أحواله .. تستولي عليه دواعي الشهوات في مواطن الغفلات وكبائر الضلالات ، فلا يُحَقِّقُ حقاً ، ولا يبطل باطلاً ، بل متقاداً بقياد الهوى ، تائه في مهامه الجهل ، ومن أشكل عليه ذلك .. فليُنظر إلى أصفياء الله وخيرته من خلقه من الأنبياء وسادات العلماء وخواصِّ الأولياء : هل رضوا من أنفسهم فعلاً أو استحسنوا لها حالاً ؟!

فمن عرف نفسه .. لم يأمن أن تلقيه في مهلكة ، فلا يزال كثير التيقُّظ ، ومن كان حالته اليقظة .. رأى ما يرد عليه من دواعي الهوى وتسويلات الإغواء ، وسَلِمَ قلبُهُ عن ورود ظلمات الشك ، واستنار بأنوار الإيمان ، وأشرقت عليه شمس الإحسان ، وطلعت على سرِّه طلائع الكشف والعيان .

وأصل ذلك : عدم رضاه عن نفسه ، حيث اهتمها ولم يرضَ عنها ، فأمعن التفقُّد في أحوالها ، وصَفَى عند كدر الهوى أعمالها ، فصار

يتعمَّق عن سفاف دواعيها ، ويجتنب وخيم مراعيها ، وألزمها ما فيه فلاحها ، وجرَّعها ما فيه نجاحها ، فأكرمها بكرامة لا إهانة بعدها ، وطهرها طهارة لا تدنس بعدها ، وذلك ينظر بنور الإيمان ؛ لأن نور الإيمان يريه الحقَّ حقاً فيتبعه ، والباطل باطلاً فيجتنبه .

ومرَّ أن النفس من حيث مركزها الجبليُّ ، وطبعها الحيواني .. باطل ، ومن حيث محتدُّها القدسي ، ومظهرها الروحي ، وتجليها السري ، ووسعها الاسمي .. حقٌّ فيتبعه ، فالمستئى بلسان الذم نفساً .. هو المركزُ الجبليُّ الحيواني^(١) ، فالرضا عن هذا المركز ، والهبوط إلى هذا المحتد .. أصل كل معصية ؛ لأن المعاصي لا تظهر إلا فيه ، ولا تعرف الشهوات وظلمات الغفلات إلا به ؛ إذ العالم الهبوطي محلٌّ لمظهر الهوى ، والعالم العلوي بطبعه لا يقبل ذلك كله ؛ لا المعصية ولا الغفلة ولا الشهوة ، ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرُوا ﴾ ، ﴿ يَسْتَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقُرُونَ ﴾ ، طعامهم التسبيح ، وشرابهم التهليل .

وجعل الله ببالغ حكمته الإنسان مجمع العالمين العلوي بقلبه ، والسفلي بنفسه ، فالإي أيهما كان ميله ورضاه .. كان الحكم له والدولة على من سواه ؛ فإذا رضي عن النفس .. أمرها على القلب ؛ فاستعملته في عالمها ، وقادته إلى طبعها ، وحيث كان ساخطاً عليها .. لم يكن الحكم لها ، بل عليها ، وأمر القلب ؛ فاستعملها في محابته ، وقد علمت أن العالم العلوي ما هم عليه من الصفاء واليقظة والحدز من المخالفة .. فحينئذٍ تتَّصف بوصفه ، ويعود فرعها لأصله ، فتستئى

(١) في النسخ : (نفس ...) بدل : (نفساً ...) .

مطمئنةً ، وتدخل في جملة عباده الخاصين بحضرتيه ، الصالحين
لخدمته ، ولي في ذلك :

لا ترض عن نفسك أن النفس مركزها

يحيد بالقلب عن مشهوده السامي

وكن عليها معيناً كي يكون لها

من ربها من شهود القرب إنعامي

وأكثر من يرضى عن نفسه ويستحسن أحوالها : من انتمى إلى حالة
ما يترفع به ؛ إما علم أو نسب أو حسب ، وهو إما ظاهرٌ جلي ، وإما
باطنٌ ؛ فقل من قام به شيء من ذلك أن يخلو عن الرضا عن النفس ولو
في بعض الأحوال إلا من حفظ الله سرّه ، وألبسه لباس الحفظ ، وحفّه
بكلاءة العناية ، وجلّله بنور الولاية ، فلا يعتزّ بذلك ، ولم يخدع لما
هنالك ، وصحبة المغرورين غرور ؛ لأن للصحبة في المصحوب أثراً
ظاهراً ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

وَلَأَن تَضَحَبَ جَاهِلًا لَا يَرْضَى عَن نَفْسِهِ . . خَيْرٌ لَّكَ مِن أَن تَضَحَبَ
عَالِمًا يَرْضَى عَن نَفْسِهِ ؛ فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَى عَن نَفْسِهِ ؟! وَأَيُّ جَهْلِ
لِجَاهِلٍ لَا يَرْضَى عَن نَفْسِهِ ؟!

فالصحبة عند المشايخ لها أصل أصيل ، بل هي عمدة الطريق ،
وهي الركن الأعظم ؛ لأن للصحبة تأثيراً في الجماد والهواء ، فكيف في
النفوس القابلة لما يلقى إليها مشاهدة وفعلاً ونظراً وسمعاً ؟!

وفائدتها : ترقِّي صاحب إلى حالة المصحوب ، وانتقال أوصافه إلى أوصافه ، وأفعاله كذلك إلى أفعاله ، وأخلاقه وجميع هياته ؛ بواسطة المحبة ورابطة التألُّف الروحي ، حتى يصير الذاتان والوصفان والفعالان والهيئتان كشيء واحد ؛ لا ينفك أحدهما عن الآخر إلا من حيث استحالة كون الفردين فرداً^(١) .

فإذا صحبت من يرضى عن نفسه وقد علمت أن الرضا عن النفس أصل كلِّ معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ . . فأبئ خيراً في صحبة من تأصلت فيه المعاصي ، وتحكمت عليه الغفلة ، ورسخت فيه الشهوة !؟
واعلم : أن اسم العلم لمن هذا الوصفُ وصفهُ . . مجازاً لا حقيقة .
والعلم على الحقيقة : إنما هو من عرفَ الطريق الموصل إلى سعادة الأبد .

والجهل على الحقيقة : إنما هو كلُّ ما غرَّك بالله ، وصدَّك عن عبادة الله .

وقد علمت أن أصل كل طاعةٍ وعقبةٍ ويقظةٍ : عدم الرضا عنها ، فأين الجهل لمن تأصلت فيه الطاعة ، وحكمت عليه العقبة ، وغمرته اليقظة !؟

فصحبةٌ من هذا حاله أصل كلِّ الخيرات ، ومجمع المنسرات ، ومفتاح البركات والسعادات ، وسلّم القربات ؛ فهو حقيقٌ بأن يتخذ إماماً ، ويلازم شهوراً وأعواماً ؛ لتسري إلى المصحوب بركات صحبته .
وأما من كان حاله الاغترار بالله ، والإعراض عن أوامر الله ، وانتهاك

(١) فلا اثنينية إلا بهذا المعنى ، وهو مشهد هدر عندهم .

محارم الله .. فصحبته أضُرُّ الأشياء ، سيما إذا كان مترسماً بمراسم العلماء ، ومرتزياً بزَيِّ الحكماء ، وهو غافلٌ عن عيوب نفسه ، ومحجوب عن حضرة قدسه ، متناولٌ في الكلام ، متكالبٌ على الحطام ؛ فضرورة صحبته أشدُّ من ضرورة صحبة من لم يترسَّم بذلك الرسم^(١) ، ولم يعرف بذلك الاسم ؛ لأن من لم يدعِ ذلك .. ترجى تويته ، وتعرف له ولغيره زكُّه ، فلا يُتبعُ فيها .

قال الإمام رضي الله عنه في « بدايته » : (أضُرُّ الأشياء : صحبة عالم غافل ، وصوفي جاهل)^(٢) .

وأصل ضرر هتؤلاء : رضاهم عن أنفسهم بما هم عليه ؛ هذا من العلم ، وهذا من المنصب ، والانتساب إلى أولي الفضائل .

وعبارة المصنف في هذا الأسلوب عجيب ؛ إذ جعل الرضا عن النفس أصلاً للمعاصي الظاهرة والباطنة ، والمعاصي أصلاً للغفلة ؛ لأنها حصلت بسبب ظلمة المعاصي ، والغفلة أصلاً للشهوات ؛ لأنها نتيجة الغفلة ، فلقد أحسن في ذلك ، فجزاه الله خيراً .

ولي في ذلك :

معاصي الله يجمعها وينتجها	رضاك عن نفسك الزوراء يا أنسان
لا تخدعنك في تزوير غرتها	وكن ذكي الفهم إن الحر يقظان
إياك تصحب من لم يدر خبرتها	فصحبة الغافل المغرور خسران
من لم يفتش عن أسرار سيرتها	طاحت بصيرته والقلب حيران



(١) الضرورة في العبارة بمعنى الضَّرَر ، لا بمعنى الحاجة .

(٢) انظر « بداية الهداية » (ص ٢٤٣) وما بعدها ، ولم ينص على ذلك بعينه .

فلَمَّا مَيَّرَ حَالَةَ الْمُحَقِّقِ - وهو الذي لا يرضى عن نفسه لأمرين ؛ إما لظهور نور العقل فيرى نقصها ، أو شهود العلم فيرى عدم إخلاصها ، أو بنور الحق فيرى مصادتها لوجود بارتها بادعائها : (أنها) ، و (أن لها) ، و (منها) - من حالة المبطل الذي عمي عن هذه المشاهد ، ولم تظهر عليه هذه الفوائد . . أضرب عن المبطلين وياطلهم ، وأخذ في تفصيل أحوال السالكين ومشاهدهم ، فقال رضي الله عنه مشيراً لذلك المعنى :

شِعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ ، وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ
لِوُجُودِهِ ، وَحَقُّ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وُجُودَهُ ؛ لَا عَدَمَكَ وَلَا وُجُودَكَ

عبارتهُ بالشعاع تشير إلى أثر نور الاسم الظاهر أثره على ظواهر
الأركان ، ومحسوسات الأبدان ، فتخترُ للأذقان خضوعاً ، وتجري وابلات
سحابب الدموع ، وتهجر المضاجع والهجوع ، وتسلي عن الظماً
والجوع .

فهذا ما ظهر من الشعاع ، وذلك ثمرة رؤية الاطلاع ، رؤية العبد
اطلاع الله على حركاته وسكناته ، ويكون مشهده من الكتاب : ﴿ وَمَا
تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتَلَوْنَاهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا نَسْمَعُ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا
إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ .

فهذا مشهد من شهد اقربية الحق إليه من كل شيء ، فيؤثر حبه على
حب كل شيء ، وذكره على ذكر كل شيء ، وطاعته على كل شيء ،
وصحبته والحياء منه على كل شيء ، وفي كل شيء .

فلا يرى شيئاً إلا ويراه أقرب إليه من ذلك الشيء ، قرباً لا يكيفُ
بكيف ، ولا يحدُّ بأين ، ويجاوز قربه قرب الاثنين ، فلا تُدرك عنده رتبةُ
البين ، فهذا شعاع البصيرة الفائض من إشراق نور السريرة .

وأما عين البصيرة . . فهي عين القلب التي تدرك به المعارف ، وتميزُ
به اللطائف عن الكشائف .

فتشهد اللطائف : أنها أنوارٌ من أنوار الله ؛ إما من أنوار ذاته ، وإما
من إشراق صفاته ، وإما من تجليات أسمائه ، وأسمائه وصفاته وذاته
حق .

والكثائف : ظلماتٌ عديمة ، وصورٌ وهمية ، فيتحقق عند ذلك ضرورة وجود الحق من حيث اللطيفة الوصفية أو الاسمية أو القبضه الذاتية ، وعدم هذه الصورة الوهمية ؛ وذلك ظاهر بالعيان ، ومشهود بالبيان ، ومتحقق بالدليل والبرهان .

وأما حق البصيرة ، وهو نور الحق الظاهر ، وسرُّه الباهر ، وصبح وجوده السافر .. فلا يشهدك سواه ، فإذا جاء الحق .. زهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ، فماذا بعد الحق إلا الضلال !؟ والضلال هو الباطل العدم ، فلا يشهد بنور الحق سواه ، فهو الشاهد والشهود والمشهود .

﴿ سَرُّهُمْ عَائِنَا فِي الْأَقَاقِ ﴾ لأهل الشماع ، ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ لأهل العيان وظهور البيان ، ﴿ حَقٌّ يَتَّبَعَتْ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ لأهل الحق ، فهنا يفنى وجودٌ وهمٍ الثان ، ويخرس اللسان ، ويقبض العنان ، ويتحقق معنا قوله : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ، فتستغرق هويته جزئيات الأعيان ، وينطمس عند وجوده المَلَوَان^(١) ، فإذا ظهرت الأحدية ... ذهبت ثنوية الثان .

والبصيرة من حيث هي : نورٌ وجودي ، تقبل الإفاضات الحقيقية ، وتشرق بشعاعها على العوالم الخلقية ، وهي تقابل عالم الشهود من الوجود ، وهي الأمانة المعنوية^(٢) ، والله أعلم .

ولي في ذلك :

شماع نور البصيرة يستضيء به

من ظلمة الجهل مَنْ هُوَ سَالِكُ السُّبُلِ

(١) الملوان : الليل والنهار .

(٢) بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ... ﴾ الآية .

بِعَيْنٍ مُشَاهِدِهَا يُعْطَى مَا رَبِّه

وَيَغْتَنِي عَنِ عِبُورِ الشَّيْءِ بِالمِثْلِ

وَحَقِّ ذَاكَ وَجُرُودِ لَا يَشَارُ بِهِ

وَتَنْطَوِي دُونَهُ الْأَبَابِ وَالْمَقْلِ

✽ ✽

فإذا تحققت ما هو عليه من صفات الكمال ، وأنه العالم بكل حال ،
وأن لديه وعنده من صنوف الإفضال ما لا يدخل تحت حصر مقال ، وهو
متّصفٌ به من جميل الأفعال . . فلا تتعدّاه المطالب ، ولا ترى من غيره
الرغائب^(١) ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في (أ ، ج) : (ولا ترام من غيره الرغائب) وهما بمعنى .

كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَيَّ مَا عَلَيْهِ كَانَ (١)

لَا تَتَعَدَّيْنِ هِمَّتَكَ إِلَيَّ غَيْرِهِ ؛ فَالْكَرِيمُ لَا تَتَخَطَّاهُ الْأَمَالَ

الكريم : هو الذي يعطي من لم يرجُ نفعه ، ولا يخافُ شرَّه ، ولا يبالي بمن أعطى ولا بما أعطى ؛ لشبوت غناه عن إيصال المنافع إليه ، وتعاليه عن أن يدرك كنهه سواه ، أو يشنِّي عليه حقَّ ثناءه إلا إياه ؛ فهو الكريم المفضل ، الذي لا تتخطَّاهُ الأمال ، ولم تعتره مغبرات الأحوال .

فحيث علمت أنه كذلك .. فلا ينبغي لك أن تتعدَّيْ بهمتك في حوائجك إلى سواه ، ولا تقصد في مهماتك إلا إياه ، فلا لغيره حقيقة وجود في ذاته وصفاته ، فضلاً عن أن يكون عنده ما تطلب ، ولديه ما تقصد ؛ فهو لا يرضاك تقصد غيره ، ولا تعرض عن معرفته وخيره ، كيف وقد علمك ذلك ودلَّك عليه ، ونهَّك على ما عنده من عظيم الفضل فقال : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

ودلَّك على أنك لا يوحشك عظيم جرمك ، وكثير ذنبك ؛ فهو الذي إذا قدر .. عفا ، وإذا اعتذر إليه .. قبل وما استقصى ، فقال : ﴿ أَنْعَمْتُ أَنْتَجِبَ لَكُمُ ﴾ ، وقال : ﴿ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، وقال : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ ، وقال : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ ... إلى غير ذلك .

(١) كذا في (أ) ملحق بهامشها ، ولم يتعرض المصنف لهذه الحكمة .

ومن لطفه بعبده : أن جعل لعباده من كل اسمٍ من أسمائه خُلُقاً ،
 فالحمد لله ، فقلّ من تجد من أهل دائرة الإسلام لم يتخلّق بواحدٍ من
 أسمائه ؛ فلك من اسمه الكريم أن تكرمَ نفسك وتصونها عن ذائل
 أخلاقها ، وتكرمها بالتقوى ، وتتكرمَ على كل عضوٍ من أعضائك
 بإحيائه بالأعمال المقربة إلى الله زلفى ، ولي في ذلك :

إن كنتَ ترجو لديه الفضل والأمل فلا تعدّاه للأسبابِ والحِجَلِ
 إن الكريمَ إذا ما نبِلَ لم يتلَّ^(١) يعطي ويغضي عن الإجمام والزلل
 فكيف تعرفه يوماً وتبتذل إلى الخلائق أو تلجأ إلى العلل



فلما كان هو الذي يورد الحاجات عليك ، كما أنه يهدي الزلفى
 لديك ؛ نعمة منه ليردّك إلى بابه ، لتقرع بكفّ الفقر والاضطرار باب
 الغنى ، وخزائن العطاء المودوعة تحت وجود الانكسار والاضطرار ..
 قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) كذا في النسخ ، ولعل الأقرب : (ما نبيل لم يزل) .

لَا تَرْفَعَنَّ إِلَىٰ غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ
هُوَ لَهُ وَاضِعاً ؟! مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ عَنْ نَفْسِهِ . . فَكَيْفَ
يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعاً ؟!

الرفع : هو الطلب ، وعكوفُ الهمة على باب المرفوع إليه ؛ إما في
رفع نازلة في الحال ، أو خوفاً منها في المال ، أو إرادة عطية ، أو دفع
بلية .

فإذا علمت ذلك ، وأعطى نور التوحيد أن لا فاعل إلا الله . . علمت
أن وجود المنافع ودفع المضار آثاراً لمؤثرات ، وتلك المؤثرات : إما
من مظاهر الأفعال الظاهر آثارها في ظواهر الأعمال والأقوال ، وإما
من آثار نجلي الصفات التي تظهر آثارها في الملكوتيات والمقامات
الأخرويات .

وإذا تحققت بأن لا فاعل ولا مؤثر ، ولا محرّك ولا مسكّن ، ولا نافع
ولا ضار ، ولا واضع ولا رافع إلا الله ^(١) ، ولا موصوف بصفات الكمال ،
ولا ظاهر بالجمال والجلال إلا الله . . علمت يقيناً أنه لا يرفع ما نزل
بك سواه ، وعلمت أن غيرك مثلك في عجزه عن رفع ما أنزله ، أو
تبديل ما قدره ؛ فما جاز عليك . . جاز على غيرك ، فإذا لم تقدر على
رفع ما نزل بك . . فغيرك أعجز .

كيف تُنزلُ الحوائج أو ترفعُ المطالب إلى غيره ؟! أم كيف يجعلُ بك
أن تنضي مطايا الطلب إلى سواه وقد علمت فقر غيره وثبوت غناه ؟! ^(٢)

(١) في (أ ، ج) : (ولا دافع إلا الله) بدل : (ولا رافع إلا الله) .

(٢) أنضى بعيره : هزّله من طول السفر .

وعجز غيره وثبوت عِزِّه واقتداره؟! أم كيف تنتصر بمن هو مفتقرٌ في وجود غناه!؟

يا عجباً؛ أترى يرفع غيره ما أنزله، أو يُطلب من سواه ما لا يوجد إلا في خزائنه؟! أترى لغيره من القدرة ما ليس له؟! أو يوجد معه من هو هالكٌ في وجوده، وغائبٌ في شهوده؟!

ويكفيك من العتب: أن أثبتَّ الباطل مع الحق؛ فكيف وقد أثبتَّ الباطل وأمنت به وكفرت الحق؟! أي: سترته، قال الله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ .

ومن أخسر حالاً، وأخيب سؤالاً ممن رفع حوائجه بمن هو غافل عن دعائه، ومتبرئ عن ولائه؟!^(١) فإذا كانت الأمور صادرةً عنه وقد علمت كمالَ علمه وغناه ونفوذ حكمه، وأنه لا رادٌ لأمره، ولا معقبٌ لحكمه.. فكيف تراك تقصد غيره وهو لا يرضى ذلك لك؟! أليس في ذلك غاية الجفاء وعدم الإنصاف، وترك الوفاء، وترك المبالاة بالجناب الإلهي؟! فما ترجع إلى بابه إلا وقد حاولت كل حيلة، وتلوذت بكل وسيلة.

أترى للوسائل من جلب النفع ودفع الضر ما ليس له؟! أم تراه لا يسمع نداءك ويعلم ضراءك إلا بتذكير المذكرين؟! كيف وهو الذي نصب الدلائل، وأبان الوسائل؟!

هذا العتب إذا غفلت عنه، وتعلقت بسواه، ولم تشهد سرَّ الله في الوسائل والوسائل، وإلا؛ إذا كنت لذلك شاهداً، وله في الأمور ذكراً.. فلا حرج أن تتوسَّل إليه بوسائله، وتتضرعَ إليه بأصفيائه

(١) في النسخ: (متبرئاً...) بدل: (متبرئ...) .

وخواصّ أوليائه وشعائره ، وما احترم لحرمة ؛ فهو الذي نصب
الأسباب ، وعرفك الأبواب ، فقال : ﴿ وَأَتُوا الْبَيْتَ مِنْ أَيْدِيهَا ﴾
فسمّاه بزاً .

وقد علمت ما أمرك الله أن تتشعّع إليه وتدعوه به من أسمائه ، وما
عرفك في كتابه إذ قال : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ .

وقد ثبت أن شفاعة الأنبياء والعلماء كلُّ على حسب جاهه عنده ،
لكن بعد الإذن في ذلك ، فقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ أَرَضَىٰ ﴾ ، وأحقهم
بذلك المقام : أخشاهم له ، فقال : ﴿ رَهُمْ مِّنْ حَتَّىٰ يَبْتِغِيَهُمُ الْمُسْتَقِيمُونَ ﴾ ، ولي في
ذلك :

يا طالبَ التُّجْحِ فِي الْحَاجَاتِ وَالظْفِرِ

اقصِدْ هُدَيْتَ إِلَىٰ ذِي الْجُودِ وَالْكَرَمِ

كن عاكفَ الهَمِّ فِي الْحَالَاتِ بِالنَّظْرِ

إلى الذي خيره جَمُّ النِّدَا عَمِيمِ



وأصل الاعتماد على الله : حسنُ الظن بالله ، وأصل الاعتماد على
غير الله : سوء الظن بالله أعاذنا الله منه ، وحسن ظنك به يلزمك ، إن لم
تحسِّنْ ظنَّكَ به لكونه أهل الفضل ، ولأوصافه العلا ونوعوته الفضلى . .
فليَمَّا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنَ الْإِلَاءِ وَالْإِحْسَانِ ، وَعَظِيمِ الْإِمْتِنَانِ ، فَذَلِكَ مَلَاذِمُكَ
على ممَرِّ الْأَزْمَانِ ؛ لِذَلِكَ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

إِنْ لَمْ تُحَسِّنْ ظَنَّنَكَ بِهِ لِأَجْلِ وَضْفِهِ . . حَسِنُ ظَنَّنَكَ بِهِ لِأَجْلِ مُعَامَلَتِهِ
مَعَكَ ؛ فَهَلْ عَوَّدَكَ إِلَّا حَسَنًا ۱۹ وَهَلْ أَسَدَيْ إِلَيْكَ إِلَّا مِتْنًا ۱۹ ؟

حسن الظن بالله : أصل كل خير ، ومنبع كل فضيلة ، وأنجح كل وسيلة ، وبه نال ذوو الفضائل ، واعتمده كل محقق واصل ، وعنده يكون لك كل ما أنت آمل ، وتصلح معاملة كل عامل ، فإذا أراد الله أن ينيل عبده فضيلة ويوليّه جميله . . جعل حسن الظن بالله له إليه مُلماً .

والمخلق في حسن ظنهم بالله على قسمين - بل أقسام كثيرة - : فمن خاصة وعامة ، وهم أيضاً صنوف وأقسام عديدة .

فالخاصة : لما عرفوا ما هو عليه سبحانه من النعوت العلية ، والصفات الجميلة . . حسّنوا ظنّهم به ؛ لما ترشّح في مشاهد أسرارهم من أنوار صفاته ، وتجليات ألطاف ذاته ؛ فلم تغيرهم اختلافات العوارض الكونية ، والآلام البدنية ؛ لما تمكّن في أسرارهم من لطيف جماله ، وعلوّ كماله ، فهؤلّاء حسّن ظنّهم به لا لشيء ولا بشيء ، بل هو عليه وبه ، لا بحدوث عرض .

والعامة : لما لم يشهدوا ذلك ، ولم يحظّوا بما هنالك . . فحسّنوا ظنّهم به ؛ لكون أيادي فضله عليهم متواصلة ، ومزايبا بزه لديهم متزايدة ، ولم يعوّدهم إلا لطفاً وإحساناً ، وفضلاً وامتناناً .

فالأولون مأمونون الانقلاب عما هم عليه ^(١) ؛ لأنهم حسّنوا ظنّهم لا لعلة ولا بعلة ^(٢) .

(١) في النسخ : (مأمونون الانقلاب عما هم عليه) .

(٢) في النسخ : (ولكن حسّنوا ظنّهم لا لعلة ولا بعلة) .

والعامة غير مأموني الانقلاب ؛ لتقلب الأحوال ، فلربما يضعف
عن حسن الظن به مع وجود المؤلمات ، وحصول المنغصات ، والذين
أحسنوا الظنَّ به لكونه أهلاً لذلك ومستحقاً له . . لا يتطرق إليهم سوء
الظن لأجل حصول شيء مما ذكر ؛ لأنهم مستغرقون في شهود الأوصاف
العلية ، والنعوت السنية .

والأحاديث والأخبار والآثار في حسن الظن : أكثر من أن تذكر ،
وأظهر من أن تشهر :

منها : حديث قدسي : « أنا عند ظنِّ عبدي بي » ^(١) .

ومنها : « لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو حسنُ الظنِّ بالله » ^(٢) .

وأما الآثار . . فما روي عن أحد من أهل الله إلا وكان أغلب أحواله
في عموم أوقاته حسنُ الظن بالله ، فطرزوا به الكتب والدفاتر ، وزيّنوا
به الخطب والمنابر ، سيما من كان مقامه أرفع ، وعلمه أوسع ؛ فلا
يكون جلُّ مقامهم وبالغ كلامهم إلا في حسن الظن بالله ، فهو من أجلِّ
مقامات العبودية .

فلو كان عملٌ أرجى منه ، أو حالٌ أشرف منه . . لكان ينبغي للعبد
أن يتصف به عند خاتمة عمره .

فلما لم يكن أشرفَ منه حالٌ ، ولا أرفعَ منه من أحوال العبد كمالٌ . .
دلنا عليه الناصح الشقيق ، فقال : « لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو حسنُ
الظنِّ بالله » .

فلا ينبغي للعبد أن يفارقه حسنُ الظن بالله لمحمة ناظر ، ولا فلتة

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .

خاطر؛ لأنه لا يأمن هجوم الموت عليه في حالٍ من أحواله، ولا يناقض كونه خاشعاً وخائفاً؛ فإنك إذا قدمت على ملكٍ كريمٍ أوعدك بالعطاء وجميل الوفاء^(١).. تكون على ثقة من ذلك، مع ما أنت عليه من هيبة المملكِ وخوف سطوته؛ فذلك مشاهد.

ويتأكد حسن الظن بالله عند التوازل؛ لأنه قال: «أنا عند حسن ظنٍ عبيدي بي»، فإياك أن تخرج عن حضرة عنديته؛ إن خيراً.. فخير، وإن شراً.. فشر، فالكل ظانٌّ بالله ظناً، فكل ظنٍ على حسب ما حقيقة العبد عليه منظوية، فلا أدلَّ على سابقة الحسنى من الله للعبد من حسن الظنِّ بالله.

ولا يكون حسنَ الظنِّ وهو مخالفٌ للأمر، ومنتهكٌ للمحارم، وأما إذا كان كذلك - أي: منتهكاً للمحارم تاركاً للأوامر - فهو زندقة، وخروجٌ عن الحد المطلوب، فإن تمادى وتدين به وتبذ أوامر الله.. فذلك دليلُ المكر؛ فكلُّ من كان ظنُّه بالله أحسن.. كان لأمره أحفظ، وعلى محابته أحرص، ومن مكره واستدراجه أخوف، وذلك دليل القرب؛ إذ خاصَّةُ الملك أشدَّ خوفاً وهيبة له من أهل البوادي، والقاصين في أبعاد النواحي، ومع كونهم أشد الخلق خوفاً منه.. هم أرجى الناس لفائضات عطاياه، وأحرامهم بمنته ومزاياه، ولله المثل الأعلى، وهو العزيز الحكيم، ولي في ذلك:

فحَسِّنِ الظَّنَّ كِي تَحْظِي بِهِ فَكَذَا يَكُونُ لَكَ كُلُّ مَا تَرْجُو وَتَحْتَسِبُ
إِنْ لَمْ تَنْلُ مِنْ شُهُودِ الْوَاصِلِينَ فَذَا لِمَا إِلَيْكَ مِنَ الْإِنْعَامِ وَالنَّسَبِ

(١) نقل العلامة الزبيدي في «تاج العروس» (وع د) عن قطرب: إتيان (أوعد) للخير مثل (وعد)، والغالب استعمالها في الشر.

فكيف ترجع عن بابِ الكريمِ إذا قصدته عندَ فقدِ الحولِ والسببِ



فإذا أردت حسن كمال الظن بالله . . فعليك في عامة ليلك ونهارك بتعلق قلبك بوحداية الله ، واستعمال جوارحك جهداً فيما يقربك إليه زلفى ، وإبدال الوسع فيما يبعدك من القواطع عنه بعداً .

فعندما تصفو لك المشارب ، وتحقق لك المطالب . . ترى يقيناً أن كل ما سوى الله عز وجل مفارقك ، ومتخلف عنك ، ومتبرئ منك ، وأن الذي لا يفارقك ولا يتخلف عنك . . هو سيّدك ومولاك عزّ وجلّ ، وذلك السوى كائن ما كان ؛ من دنيا ، وأهل ، وأقرباء ، وأصدقاء .

فعندما يتحقق تخلف الكل عنه ، وانفكاك كل مقارن ، وغيبة كل معاین . . قال المؤلف رضي الله عنه متعجباً بعد تحقق ذلك :

أَلْعَجِبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّا لَا أَنْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ ، وَيَطْلُبُ مَا لَا
بِقَاءَ لَهُ مَعَهُ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

العَجَب : هو التعجب من حسن الشيء ومن قبحه .

فإذا بلغ غاية الحسن .. تعجب من بداعة الصنع وكرامة القابل ،
ومن ذلك : « عَجِبَ رَيْكُ مِنْ شَأْنِ مَا صَبَا »^(١) ، و« عَجِبَ رَيْكُ مِنْ قَوْمِ
يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ »^(٢) .

ومن قبح الشيء إذا بلغ الغاية في القبح والحقاقة ، ومنه ذلك^(٣) .
ثم لم يرضَ بالعجب مجرداً ، بل أكدّه بقوله : (كل العجب ممن
يهرب مما لا انفكاك له عنه) وهو الله سبحانه وتعالى ، لا انفكاك للعبد
عنه ، فكيف ينفكُ عَمَّنْ لا يظهر وجوده في مَرِّ وجوده إلا به ، ولم
تنفك عنه معيته أزلاً وأبداً ووجوداً ؟! فكلُّ ما سواه من سائر محبوباته
من جميع شهواته وملذذاته .. متخلف عنه ، ومنفكٌ عنه بالموت
وبعوارض أخرى تعرض له ، وهو الذي أظهرها له من حُبِّ العدم ، ثم
بعد ذلك يهرب عنه ويسكن إليها^(٤) ؛ فذلك دليلٌ على عمى قلبه ،
وانطماس نوره .

(١) رواه أحمد (١٥١/٤) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٣٠٩/١٧) عن سيدنا
عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٣٠١٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والتعجب منه سبحانه
تعظيم لشأن المتعجب منه .

(٣) يعني : الحكمة التي ساقها الإمام ابن عطاء هنا .

(٤) قال العلامة التَّنْزِي فِي « غيث المواهب » (١٤٦/١) : (هرب العبد من مولاه بإقباله
على شهواته ومتابعة هواه) .

وقد علمت أن نظر القلب في عواقب الأمور ، ومكونات المعاني ، ومشاهدة العجائب الملكوتية ، ولا تظهر عجائب الملكوت على من سكنت نفسه إلى الشهوات ، وحارت فكرته في مترادف الظلمات ، فإذا هربت عمّا لا انفكاك لك عنه ، واستوحشت وطلبت من أنت غني عنه وهو الذي يطلبك ، واستأنست بمن هو عين وحشتك وبريد فرقتك . . .
 فذلك دليل على انطماس النور ، وعمى القلوب بالفرار عن المحبوب ، والاستئناس بالمرهوب ؛ فإنها لا تعمى الأبصار ؛ لأن عمى الأبصار مع نظر القلوب قربة وتحفة ؛ لأنها معينة لك على جمعك على نظر القلب ، وأبعد عن التفرقات الشاغلة عن لذيق الذكر وخفي الفكر ، مع ما ورد في ذلك من جزيل المواهب ونيل الرغائب ؛ كحديث : « من أخذت حبيبته ورضي عني . . فما جزاؤه إلا النظر إلى وجهي »^(١) ، لهذا عمى الأبصار إذا استنارت القلوب .

والعمى كل العمى . . هو أن يعمى القلب عن الله ، وعن شهود مظاهر آياته ، وعجائب مصنوعاته ، ويستأنس ويستلذ نظر المحرّمات ، ويستوطن مواطن الغفلات ، فيشارته بالقلوب التي في الصدور احترازاً عن القلوب المدبّرة لظواهر الأمور ، المحجوبة عن الأنوار ، التائهة في ظلمات الآثار ، التي هي مواضع التدبيرات الدنياوية ، والشهوات الحيوانية ؛ فإن الصدر هو المشكاة ، والقلوب المعنية التي المعول عليها في كلام الله وكلام رسول الله وإشارات أولياء الله . . هي المصباح ، فهذه القلوب التي في الصدور ، فإذا فقد ذلك النور ، وأكسفت هذه

(١) روى الترمذي (٢٤٠١) حديثاً قدسياً : « يقول الله عز وجل : من أذهبت حبيبته فصبر واحتسب . . لم أرض له ثواباً دون الجنة » .

البدور .. نُودي : بأنها لا تعمي الأبصار ؛ ولكن تعمي القلوب التي
في الصدور ، ولي في ذلك :

إن العجبُ منك أن تهرب إلى العِبَرِ

من بارئ الكون والموجود في الأثر

لو كنتَ شاهدتَ ما في الكونِ من عِبَرِ

غنيتَ بالقلبِ عن منظركَ بالبصرِ

فلو استأنست به .. لم توحشك المصائب ، ولم تسترقك ملذوذات
الرغائب ، ولغنيت عنها واقتقرت إليك ، ولكن لما استأنست بها
واستلذذتها .. توخشت عليك واستوعرت ، ونفرت عنك الأشياء ؛
لأنها مع الله ، حيث كان الله مع عبده بالعون والنصرة والهداية .. كانت
الأشياء كذلك ، وحيث استوحش من الله .. أوحشته الأشياء ونافرته
وخذلتها أحوج ما يكون إليها .



فلما كانت الأشياء من حيث غيرئُثها متساوية في أنه لا ينبغي للعبد
أن يساكنها وأن يرضاها دون الله .. قَبَّحَ حال مَنْ يرحل من كون إلى
كون ، فقال رضي الله عنه :

لَا تَرْحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ؛ فَتَكُونَ كَجَمَّارِ الرَّحَى يَسِيرُ، وَالَّذِي
 أَرْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي أَرْتَحَلَ مِنْهُ^(١)، وَلَكِنْ أَرْتَحَلْ مِنْ الْأَكْوَانِ إِلَى
 الْمَكُونِ ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُسْتَعَى﴾

الرحلة: هي الإرادة والهمة والعزم على السير؛ إما ظاهراً بالأركان
 القلبية، وإما باطناً بالحركات المعنوية والجمعية القلبية، ولا لنا
 إلى السفر بالأبدان حاجة، ولا له نعي.

ولكن المراد: السفر إلى الله بالقلوب من مواطن الشهوات، ومحالِّ
 الغفلات، في ميدان النفس، وبيداء مراحل العادات الحاجبات عن
 حضرة الاقتراب.

فلا ترحل أيها المرید الصادق من كَوْنٍ من الأكوان وتعلّق همتك
 بنيل حال، أو رفيع مقام، أو مستلذّ وصال، ولكن ارحل من الكون
 جملةً ظلمانياً أو نورانياً من الظواهر والمعاني إلى المكوّن؛ فعند أول
 نظرة هناك يندرج فيه جميع ما في الأكوان من الحسن والإحسان،
 وجميع ما في الجنان من كل ما لا يوصف بلسان ويشاهد بعيان.

فهذا بأول نظرة، وما وراء ذلك مما ادخره في خزائن الإحسان
 وذخائر الامتنان عند الشهود والعيان، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُسْتَعَى﴾ .. فهو
 منتهى الحسن والإحسان، ولقاء منية القاصي والدان؛ فلو لم يكن ذلك
 مأمولاً في الجنان، ومحجوباً في النيران .. لما طاب في الجنة المقيّل،
 ولا ظهر في النار العويل.

فمن رغب عن ذلك، وطلب شيئاً هالكاً؛ إذ كل من سواه هالك ..

(١) في (أ، ج): (ارتحل عنه) بدل: (ارتحل منه).

فهو حقيقٌ بأن يوصف بوصف الحمار من البلادة والانغمار في جملة الأشرار ، الذين حُجبوا عن الأنوار ، ولم يحظوا بمشاهدة الأسرار ، ولم يخرجوا عن ظلمة الإنكار ، وخبطة الانقهار .

وهذه غاية الجهل أن يرتحل إلى ما عنه سار ، فلا يزال كذلك ولم ينفك عن حركة التدوار في الآثار ، وترقُب الانتقال والخروج عن الآثار إلى الأطوار ، فلم تفتح له مطالبه ، ولم تواجهه رغائبه ، ولو كان إلى الله سيره . . لراه قريباً ، ولدعائه مجيباً ، ولقاصده حبيباً .

وبعد السير إليه من الآثار ، واختراق الأطوار ، واحتراق الأسرار . . تظهر له عقار جنة في صورة نار ، فيطير له شرار ، وتبدو منها مبادي المحبة ، وتفتح في خزائن المحبة أسرارُ مفاتيح شهود المحبوب ، وفيها يلاقي ما هو لاقٍ ، وتلتف الساق بالساق ، إلى ريك يومئذ المساق ، وبعد ذلك يفتح باب السباق للعتاق في السير فيه يتغنون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب .

ولنرجع ونقتصر على الإشارة إلى ذلك ؛ فمن كانت همته في سيره نيل مقام ، أو حصول على حال ، دون أن يوفي الربوبية حقها . . فذلك لبقايا خفّيات شهوات النفس ، ودسائس غوامض كوامن الهوى ، ولي في ذلك :

ارحَلْ إلى الله لا تلوي على أربٍ وكُنْ كليلاً عن الأكوانِ والغِيرِ
فمتهى كلِّ مأمولٍ ومنقلبٍ الله قُلْ وكلا الأغيارِ عنك ذرِ



وأخذ في الاستشهاد على معنى كلامه بحديث جامع لفنون المعاني ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم ، قال المؤلف رضي الله عنه :

فَانظُرْ إِلَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ
وَرَسُولِهِ . . فَهِيَ حِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا
بُصِيْبِهَا أَوْ أَمْرٍ بَتَرَوَجْهَا . . فَهِيَ حِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » ، وَتَأَمَّلْ هَذَا
الْأَمْرَ إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ ، وَالسَّلَامَ

قوله : (فانظر) فالنظر في أسرار المعاني وبواطن الألفاظ دأب أولي
الانتباه ، وهو أول مبادئ الفتوح القلبية النظر والأخذ فيه بالأحسن ،
وأحسن ما ينبغي أن تدقق فيه النظر ، وتححر فيه العبر بعد كلام الله :
كلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، الجامع لأشتات المعاني ، فلا
أجمع منه بعد كلام الله كلاماً ، ولا أبين منه برهاناً ، كيف لا وهو
صلى الله عليه وسلم الذي أوتي جوامع الكلم ، واختصر له الكلام
اختصاراً ؟^(١) .

واستشهاده على كلامه بهذا الحديث مرضي موافق لغاية المراد .
(فمن كانت هجرته) الهجرة : هي مفارقة الوطن ، وقد علمت ما
النفوس مجبولة عليه من حب الوطن ، والتلذذ بمؤانسة الجار والسكن ،
فما يُفَارِقُ محبوباً إلا لنيل مطلوب .

والمطالب : إما مطلبٌ سَنِيٌّ ومرادٌ عَلِيٌّ ، وإما مطلبٌ دُنِيٌّ ؛
فالمطلب العلي : هو طلب الله ورسوله ، ولا أعلى من الله ورسوله ،
وما سوى ذلك . . فهو دُنِيٌّ ، وصاحبه أدنى منه ، فمن فارق محبوباته ،
واجتنب شهواته . . فقد هاجر عنها ؛ ولذلك قال صلى الله عليه
وسلم : « المهاجر : من هجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد : من جاهد

(١) في (ب ، ج) : (واختصر له الكون اختصاراً) صلى الله عليه وسلم .

هواه^(١١) ، فلا بعد فتح مكة هجرة إلا مهاجرة محارم الله ، وكلّ عائق يُعْوقُ عن الله ، فمن لم يفارق ذلك ولم يهاجر عما هنالك .. ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مِن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ .

فإذا علمت شرف الهجرة .. فشرفها بحسب المقصد ؛ فإن كان لله ورسوله ، لا لحظٍّ عاجل ولا لجزاء آجل .. فنعمّ الهجرة ، ومن كان لحظٍّ من حظوظه دون ذلك من شهواته .. فقد خسرت صفقته ، وخابت بيعته ، وتحققت غيبته ؛ فمجمع الشهوات الدنيوية : مجموعها ما ذكر في هذا الحديث ؛ وهي الدنيا والتنعم بمطاعمها ومشاريها وملابسها ومراكبها وجاهها ، وجميع المآرب العاجلة ، والحظوظ الفانية ، وخصّ لذة من ملذوذاتها بالذكر ؛ إذ هي بمجموع الشهوات كالرأس من الجسد ، وهي حبّ النكاح ، وجمعُ الهَمِّ له ، هذا على السالك الطالب . ومن جعل في عزمه إرادةً لشيءٍ دون الله ورسوله .. فهو حقيقٌ بالذم ؛ إذ المرادات : الشهوات الظاهرة ، أو المطالب المستأثرة .

وقوله : (فافهم) أي : افهم إشارة الحديث الباطنة التي نبّهت أولي العزائم على تجريد الهمة في السلوك إلى الله ، لا إلى شيءٍ دونه ، فما دون الله مقصد يصمد ، ولا مرام يعمد ، (والسلام) فما بعد هذا الكلام كلام ، ولا بعد هذا المطلوب مرام ، وعند السلام ينتهي الكلام .

وفي آخر الحديث إشارة - والله أعلم - تشير إلى المرادات الدنيوية والحظوظ النفسية : إذا أريدت لله ورسوله من عارفٍ بتصحيح النية صادق الطوية .. أنها تكون لله إذا أريدت له ؛ كأن يبتغي الدنيا ليتوصّل

(١) صدره رواه البخاري (١٠) عن سيدنا ابن عمرو رضي الله عنهما ، وآخره رواه الترمذي (١٦٢١) عن سيدنا فضالة بن عبيد رضي الله عنه بلفظ : «المجاهد : من جاهد نفسه» .

بها إلى مقاصد مرضية ، والنكاح ليتحصَّن به عن الوقوع في المعاصي ، وإرادة وليدٍ صالح ، وغير ذلك من المقاصد المحمودة ، والذم إنما يتوجَّه حيث جردت عن هذه النيات ، بل بمقتضى داعي الشهوة وقضاء النهمة ، فهذا ظاهرٌ كما سمعنا ذلك عن شيخنا وإمامنا العارف بالله عمر بن عبد الرحمن فسح الله في مدَّته ، وأفاض علينا من هواطل فتوحه وجزيل مواهبه ، وهو قوله في الحديث : « فهجرته إلى ما هاجر إليه » ، ولي في ذلك :

من هاجر السوء قاصدُ باب مولاهُ ولم يعرِجْ إلى دنيا ولا جاهُ
ولا لمطلبوبٍ دونَ اللهِ يهواهُ عليه من ربِّنا الرِّحْمَاتِ تغشاهُ



فإذا أردت أن تسلك هذه المسالك ، وتصفي من كدورات الأغيار بالكَ ، وتنبِّهَ عن رؤية الأسباب حالك ، وتستقيم على سنن الاستقامة أعمالك وسائر أفعالك . . فعليك بصحبة من استقامت أعماله ، وصفت أحواله ، وحسنت أفعاله ، ومن لم يكن كذلك . . فإياك وصحبتهُ ؛ فإن مخالطته ورؤيته واستحسان حالته أضُرَّ على دين المرید من السم على ظاهر جسمه ^(١) ؛ إذ بالسم فناء الجسم الفاني ، وبصحبة مَنْ هذه حالته هلاك الدين ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في (ب) : (على دين المرء من السم على ظاهر جسمه) .

لَا تَصْحَبْ مَنْ لَا يُنْهَضُكَ حَالُهُ ، وَلَا يَدُلُّكَ عَلَى اللَّهِ مَقَالُهُ

النهي عن الشيء أمرٌ بضده ، كما أن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضده ؛ فترك النهي سلامة ، وفعل الأمر غنيمة ، والسلامة مقدمة على الغنيمة ؛ لذلك أثر جانب النهي بالذكر ، وضمَّنه بالأمر .

فصحبة المثبتين في حضيض الحفظ التي لم تنهض هممهم إلى الأوج العلي ، ولم تجل قلوبهم في المنهج السوي ؛ فرؤيتهم قسوة ، وصحبتهم شقوة ، وأقوالهم في الخوض واللعب مستعملة لا تنتج حكمة ، فالحكيم عنها محجوبة ، والمعاصي لها مصحوبة .

فأيُّ فائدة في صحبة من لا تنهضك أحواله ، ولم تدلك أقواله ، ولم تهذب بأفعاله ، ولم تصلحك أعماله ؟!

فالصحبة في طريق أهل الله أصلٌ كبير ، ومنهجٌ منير ؛ كما مضى عليه أئمة الطريق ، وعلماء التحقيق ، كيف وأول من شرع منهاجها ، وأعذب أجاجها ، وأنار سراجها أصحاب رسول الله ؟! إذ هم الأصحاب ، والسادة الأنجاب ، والصاحب يشرف بشرف صاحبه ؛ لذلك لم تُواز فضائلهم ، ولم تدرك وسائلهم ، مع أن غيرهم اجتهد أعظم من اجتهادهم في الأعمال ، ولم تُساوِ جبال غيرهم أقل ذرات أعمالهم ، وما ذلك إلا لما فاض عليهم من آثار الصحبة ، وهواطل غوامر القربة .

والصحبة مع الله ، ومع رسول الله ، ومع أولياء الله ، ومع خواص عباد الله ، ومع عموم خلق الله ، ولكل صحبة أدبٌ وحدٌّ .

فالصحبة مع الله هي الأصل ، وعليها يبني أساس الدين وعماد اليقين ؛ إما أن تصحبه بامتثال الأمر واجتناب النهي ، ويكون نصب

عيانك ، وعند سمعك ولسانك ، فتحفظ ما استودعك ، وترعى ما استرعاك في جميع أحوالك وأقوالك ؛ فهذا في صحبة العموم لله .
وأما صحبة الخصوص .. فهو أن تفتنى عن أفعالك ، وتغيب عن أوصافك ؛ فتكون لديه حاضراً ، وإليه ناظراً .

وأما صحبة خصوص الخصوص .. فأن تضمحل عن الأوصاف ، وتمحق بقايا شعورك بذاتك وإيئتك وظهور اثنييتك ، مع ما أنت عليه من الصحو ، والقيام بوظائف العبودية ، والانطواء تحت تولىات الربوبية ، والغيبة عن ظهور الحديثية ، ومضادة الثنوية بظهور الأولية والآخرة ، ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ .

والصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ وصيته ، وتحكيم شريعته ، وحسن متابعتة في جميع أخلاقه ، ومنورات أفعاله ، وباهرات أقواله على التمام ، إلا ما اختص به دون غيره ، ولا تحكّم رأيك على سنته ، بل يكون هواك تبعاً لما جاء به دون تعقل أو تأمل ، وإجلاله ومحبته ، ومحبة أصحابه وأهل بيته وموادتهم ، وإجلال من قام بشريعته ، ومحبة الفقراء ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وإحياء مشاعر الدين ، والنصيحة لكافة المسلمين ، وعدم الغش وتبیت ما لا يرضى من القول والعمل ... إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره ولو كانت الخلق كتاباً ، والأشجار أقلاماً ، والبحار مداداً ؛ من كرائم أحواله ، وعظيم أخلاقه صلى الله عليه وسلم .

وأن تحفظه في جميع ما وصل إليك من أمره ونهيه بعد مماته كما في حياته ؛ ليكون لك من الصحبة الخاصة حظٌ ونصيب ، فمن حفظ ذلك .. أتى في يوم الجمع بعد طول الاشتياق إلى التلاق

بمزيتين : مزية الصحبة على الغيب ، ومزية اشتياقه صلى الله عليه وسلم حيث قال : « واشوقاه إلى الإخوان مؤمني آخر الزمان »^(١) ، فينال من الإكرام رتبة الحبيب القادم من الغيبة على أهل المكان ، فيا لها من بشارة لمن صحبه صلى الله عليه وسلم من أهل آخر الزمان ؛ لذلك ضاعف له المثوبة ، وخُفِّف عليه العقوبة حيث قال : « العاملُ منهم كخمسین منهم » ، قالوا : بل منهم ، قال : « بل منكم »^(٢) ، وقال أيضاً في التخفيف : « من عمل بعُشر ما أمر .. نجا »^(٣) ، فالحمد لله .

وأما صحبة أولياء الله .. فهي الموصلة إلى الله ، سيما من كُمِلَتْ فيه مظاهر السنة ، وتوفرت فيه مكارم الأخلاق ، واستنارت بصيرته ، وطابت سريرته ، ونشرت دعوته ، وظهرت محبته ، وانتشرت في القوالب معرفته ، وغمرت حاضريه بركته ، وكان متجافٍ عن الدنيا ، عالماً بكوامن الأهواء ، فما أسرع تأثيره في القلوب ، وأكشفه لحقائق الغيوب ، وأوصله للمحب بالمحبيب !!

وما أعزَّ من يوجد قائماً على طريق الاستقامة قدمه ، وراسخاً في علوم الحقيقة ورسوم الطريقة ، يعطي كل طالبٍ وَفَقَ مزاج حقيقته ؛ فهم الأطباء ، الذين طالعوا علم الأزل بنور مَنْ لم يزل ؛ فينزلون كل

(١) رواه مسلم (٢٤٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « وددت أنا قد رأينا إخواننا » ، قال الصحابة : أولست إخوانك يا رسول الله ؟ قال : « أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ .. الحديث .

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) عن سيدنا أبي نعلبة الخشني رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي (٢٢٦٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

من أتاها منزلته ، و يقيمونه على حسب مقامه ، و يبلغونه فوق مرامه ،
فصحتهم دواء لأمراض الهوى نافع ، و رؤيتهم درياق لأدواء القلوب
ناجع ، فإذا تنفس منهم عارف في زمان .. فبشارة أهله بالأمان ،
والمغفرة والرضوان .

فصحتك معهم بعدم الاعتراض عليهم باطناً و ظاهراً ، و قبول
مشورتهم ، و توقيهم و احترامهم ، و تخرج عن عقلك و نقلك ، و فعلك
و قولك ، و تكون فانياً عنك ، مبادراً لما يأمرون ، محاذراً عما ينهون ،
فما أقرب الفتوح إليك ، و أجزل المواهب لديك إذا كنت كذلك ،
متصفاً بما هنالك !!

وإذا لم تجد من هو على هذه الحالة ، ولم يظهر بكمالها .. فلا
تترك نفسك تبطل ، وهي في هواها تتعلل ، ولكن انظر إلى الإخوان
من اتصف بوصف حسن .. فلا تستقله ؛ فإنه ما أعطي وصفاً مرضياً
إلا وهو عند الله مرضي وإن لم يبلغ الكمال ، ولم تظهر عليه علامات
الوصال ، ولم تلح عليه سمات الأولياء وعلامات الأبدال ، فيكون لك
على أمرك معيناً ، وفي مهامك قريناً ، والخطأ على الاثنين أبعد منه
على الواحد ، لكن تراعي فيه : الدين والعقل ، والمروءة والزهد ، والأمانة
وحفظ السر ، و ألا يكون أحمق ولا فاسقاً ، ولا كذاباً ولا جاهلاً ، ولو أن
يتصف ببعض هؤلاء الأولات ، ويجتنب بعض هذه المذكورات ؛ فما
ترك البعض إلا لما عنده من الإيمان ، ولا فعل البعض - أي : اتصف -
إلا لما عنده من الإيمان .

وشرطه : أن يترك المنهي عند تيسر فعله ، ويتصف بالمأمور مع
تيسر ضده ، وإلا .. كان عاجزاً ، لا تاركاً ولا متصفاً ؛ فهذا حدّه .

وأدب صحبتك معه : إذا أشار بأمرٍ لا ينقضه عليك العلم . . أن تمتثل مشورته ؛ ففي المشورة بركة حيث كانت ممن كانت ، والحرص على حفظه وإيثاره في الأسباب الدنيوية ، وتنبهه على المعائب بالتلطف ، وترك مماراته ورعايته بعد موته في الدعاء له وير أهل مودته . . إلى غير ذلك من وجوه البر .

وأما صحة عامة الخلق . . فمع الجهال بالتعليم ، وترك الدخول في مداخلهم ، وحفظ العين عن النظر إلى أفعالهم ، وصون السمع عن سماع أراجيفهم ، وعدم الحضور في محافلهم إلا ما كان خيراً ، والتحرُّز عن الاجتماع بهم لغير ضرورة ، والدعاء لهم بظهر الغيب ، والاهتمام لمهاتهم ، وستر مساويهم ، وعدم التكبر عليهم ، والتضجر لما يجري من سوء أخلاقهم ، وأن تنظرهم بعين الرحمة والشفقة ؛ فهذه صحة عامة الخلق ، ولا تطيل في ذلك ، فلو ذهبنا نتبع طبقات الخلق . . لطلال بنا ، وقصدنا شرح كلام المصنف ، وفي ذلك كفاية .

وللصحة شرائط وضوابط ؛ فمن الضوابط : أن تكون لله ، لا لعلّة ولا بعلّة ، بل يكون الاجتماع عليه والتفرُّق عليه ، ومعنى التفرُّق عليه : أن يتفرَّقوا وهم مجتمعون عليه لم تغيرهم عمّا هم عليه الحوادث .

وأهمُّ الصّحة : صحبة من لم يفارقك في حياتك وموتك ، وخلوتك وجلوتك ، ويقظتك ونومك ، لكن لم تصل إلى حسن الأدب معه إلا بصحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ إذ هو أعرف الخلق بالأدب معه ، ولم تصل إلى حسن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالتأدّب بأداب أولياء الله الوارثين محاسن أخلاقه ، السادات العارفين ، والعلماء المحققين ؛ فبالتأدّب بأدابهم . . تصل إلى التأدّب بأداب رسول الله ،

وبالتأدب بآداب رسول الله ، واقتفاء آثاره ، والتخلق بشمائله .. تصلح
للأدب مع الله ، وهذا تدرّيج في الوصول إلى الصحبة مع الله .

ولو كان الإنسان يدرك مقام الصحبة مع الله من ابتداء نشأته ..
لما شرع صحبة نبي ولا ولي ، ولكن الله بلطيف حكمته جعل ودائع
التربية الإلهية في الوسائط الخلقية ، وجعل الوسائط الخلقية كالحقيقة
النبوية ؛ ظاهرها من عالم المُلْك والخلق ، وباطنها من عالم الملكوت
والحق ؛ لذلك قبلت الحقائق بباطنها ، وأدّتها إلى الخلق بظاهرها ،
فقبلت الخلق ما يلقي إليها من الحقائق الملكوتية بواسطة ظواهر
خلقية الأنبياء الرسالية^(١) ؛ لأن الحقائق لو تجرّدت لعالم الخلق من
غير واسطة .. لم يكن فيها أهلية لقبولها ، فأدّتها إليها ما هو ظاهر من
جنسها ؛ ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ، وإعطاء كلّ قابلية ما يليق
بها : « أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم »^(٢) .

وهذا حازه الأولياء بقدر أنصبتهم من الوراثة ؛ فالعلماء ورثة
الأنبياء ، فتحقق أن السوارث من أخذ علمه من حيث أخذ مورثه ، وهو
من أخذ العلوم لا عن تعلّم ، بل يأخذها عن الله ، وإن جرت له لسان
معلم .. يكون أخذه عنه ؛ كأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
جبريل صلى الله عليه وسلم ما أدّى إليه إلا ما قد علّمه الله حقيقته ؛
لذلك كان صلى الله عليه وسلم يسابق جبريل في التلاوة حتى أنزل الله
عليه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ ، وهنا سرّ دقيق ،

(١) في (ب) : (خلقه ...) بدل : (خلقية ...) .

(٢) روى البخاري (١٢٧) عن سيدنا علي رضي الله عنه موقوفاً : (حدثوا الناس بما
يعرفون ؛ أتحيثون أن يكذب الله ورسوله !؟) .

ومشهد رقيق ، يفهمه ذوو التحقيق من كل مقرَّب صديق .

فلو أخذنا في كشف هذه الأنوار ، وتحقيق هذه الأسرار .. لشار
ثائر الإنكار ، من طوائف الأعمار ، ولاستطار من ظلمات النفوس شررٌ
وكثيف بخار ، ولكن الله حدًّا لكل قومٍ كلاماً ، ولكل ناسٍ مقاماً .

وأما شرائط الصحبة إذا كانت لله : ألا تزيد عندك بطاعة ، ولا تنقص
بهفوة ؛ لأن هذه علل ، وقد علمت أن الصحبة لله لا لعلّة ولا بعلة ، ومن
شرائطها ما أسلفناه في أول الكلام على هذه الحكمة ، ولي في ذلك :
مَنْ لَا تَدُلُّكَ عَلَى اللَّهِ مَقَالَتُهُ وليس ينهضك منه الحال في الهمم
لَا تَضْحَبُنُهُ فَلَا تُرْجِي سَلَامَتَهُ إن البلا صحبة الجافي الغبي القدم



فلما كان فائدة الصحبة الخروج عن أوصاف البشرية ، والتدرُّع
بملايس العبودية ، ولا تخرج عن أوصاف بشرتك إلا برؤية قصورك
عن أحوال الرجال ، ولم تر قصورك وظهور فتورك وانطماس نورك
إلا عند إشراق أنوار الأبدال ، الكارعين مناهل الحكمة ، المتبويين
منازل الوصال ، المتمكّنين في المقامات والمتصرّفين في الأحوال ؛
فعند رؤيتهم والتعلق بأذيال سيرتهم .. يتبين لك قبح ما أنت عليه
من الاغترار ، وما أنت متلبس به من أخلاق الأشرار ؛ فصحبتهم تريك
قصورك ، وترفع بك عن حضيض تعشرك بمحبطات بشرتك وكثائف
ستورك .

وأما صحبة من هو دونك في المقام ، ولم يخرج عن رقي العادات ،
ولم يحظّ بوصف العبادات .. فهو دليل البعد عن التأهل للإرادة ، وأبعد
عن درك السعادة ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فَأَرَاكَ الْإِحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْوَأُ
حَالاً مِنْكَ

(رُبَّ) تأتي للتعليل غالباً ، ربما كنت مسيئاً في حالك ، مخلطاً
في أفعالك ، مقصراً في أعمالك ، فأراك إحسانك ورفعة شأنك ، وعلو
مكانك على أقرانك ، وظهور نفسك في طول لسانك وبذل بنانك مَنْ
هو أسوأ حالاً منك ، فترى قصوره عن مقامك ، وجهله بكلامك ؛ فتفتقر
بذلك ، وتظن أنك قد حصلت من الطريق على شيء ، فأكثر ما توقفت
الطالبين وتعرض السالكين هذه الآفة الجامعة لآفات لا تحصى ، ومهالك
لا تستقصى .

ولو كان ميموناً ، وإلى النهاية مطلوباً . . لما سلط عليه الأشرار ،
وحُجب عنه الأخيار ، وقع بِزُخْرَفِ هذه الدار ؛ من رفع الصيت وظهور
المنصب والاشتهار ، ورضي عن صحبة المحققين بمجالسة البطالين ،
فما أعظم مصيبيته ، وما أشد بليته !! أعاذنا الله من سوء القدر ، والوقوع
في مصائد الحذر .

فسأل الله أن يعافينا من هذه البلية وسائر البلايا في الدين ،
ويلطف بنا ولنا في كلِّ حال ، ويوالينا بسائر أنواع المنن ، وتزايد النعم
والإفضال ، ولي في ذلك :

فربَّما رأيت ممن دونك الحسناء ولو صحبت الرجال السادة الأئمة
لما اغتررت بظنِّ فيك قد كمننا يربك أنك فوق الدون حين ثنا



فلما كان الزهد عزوف القلب والتجافي عن المزهود فيه لما هو

أشرف منه حساً أو معنى ، وكان منبع الأعمال وقطب رحاها هو القلب ؛
لأن عليه مدار النيات ، والأعمال بالنيات . . كان حقاً أن يُنزه ويُصفى
عن مكدرات الأشغال ؛ لتصلح الأعمال ، وتزكو الأحوال ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبِ رَاهِدٍ ، وَلَا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبِ رَاغِبٍ

الأعمال مقاديرها بحسب صفاء القلوب ، وطهارتها عن شوائب العيوب ؛ فقلوب الزهاد صافية ، وأحوالهم وافية ، فأعمالهم كثيرة ، وأحوالهم مستنيرة ، فأى قلة في عملٍ خرج محفوظاً بالأنوار ، سالمًا عن الأكدار ، بنسبة قلب طاهر ، ذي نور ظاهر؟! وعمل الراغبين بحسب ما قلوبهم مثلثة من ظلمات الأشغال ، وتكدير الأحوال ، بمصائب المال والعيال ، فلا يكاد يصفو قلبه ساعة ، ولا تزكو له طاعة .

والزهد : منه واجبٌ ومندوب ، وزهدٌ ثالثٌ لأهل المقام الثالث ؛ فالواجب : في الحرام ، والمندوب : في الشبهة والفضول ، والثالث : هو الزهد في الزهد ؛ وهو أن يكون في الأشياء بلا اختيار ، ويدخل في الأسباب بمسبب الأسباب ، ولا يكون ذلك إلا لمن أحكم مقام البقاء بعد استيغناء مقام الفناء حقاً ، فيرجع إلى الأشياء بالله بعد أن خرج عنها لله .

فالزهد على حسب تفاوت مقاماتهم يكون زكاة أعمالهم ، وصفاء أحوالهم ؛ فأعمالهم مأمونة عن دخول القوادح فيها والشوائب لديها ؛ لما هم عليه من الإعراض عن الأغيار ، والتعلق بالله في جميع حركاتهم وسكناتهم ، فلا تنزع قلوبهم إلى غيره ، ولا تسرح همهم إلى سواه . والراغبون لا ينفكون عن الشوائب ودخول الآفات عليهم ؛ لما هم عليه من التعلق بالأغيار ، وطلب الأعراض في سائر الحركات ؛ لذلك قل ما يصدر عنهم لعدم الإخلاص فيه لله ، وكثر أعمال الزهاد وإن

كان قليلاً لخلوصه عن الشوائب التي هي سبب عدم قبول الأعمال ؛
كالرياء ، والسمعة ، وحب الثناء ، وطلب العلو ، والإعجاب ، وغير ذلك
من رذائل الأوصاف وقبح الأحوال ، التي هي نتائج حب الدنيا .

فإذا كانت رغبة الدنيا في القلب . . قل أن يسلم عمل ، وإذا خرج
حب الدنيا عن القلب . . خلصت منه النيات ، وصفت الحالات ، وتزكّت
الأعمال ، وبورك في الأوقات .

فإذا حصل زهدٌ وعلمٌ وعملٌ . . فقد استكمل أنواع الخيرات ، وتوالت
لديه صنوف المسرات والبركات ، فلو وزنت في جنب عمله أعمالٌ سائر
أهل العبادات . . لخفضت في جنب عمله ، ولي في ذلك :

ما قلّت أعمال ذي زهدٍ وذو ورعٍ ولا كثرَ عملٌ مقرونٌ بالعللِ
فليس راغبٌ في الدنيا بمكترعٍ موارد القرب ذي هي خانة العمل



فلما كان متعلّق الأحوال القلوب ، ومتعلّق الأعمال الجوارح ،
وقد علمت أن الأصالة للقلوب في ظهور الأعمال ؛ فالأعمال نتائج ،
والأحوال أصول ، وبحسب الأصل تظهر النتيجة ، وحسن الحال
بحسب ما ينزله الحق من المقامات في العلوم الوهبية . . قال المؤلف
رضي الله عنه :

حُسْنُ الْأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الْأَحْوَالِ ، وَحُسْنُ الْأَحْوَالِ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي
تَقَاتِمَاتِ الْإِنْزَالِ (١)

لَا تَتْرُكُ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللَّهِ فِيهِ ؛ لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ
أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ

أخذ يتكلم في الذكر ؛ لأنه أشرف العبادات ، ومقدمها فرضاً ونفلاً ، وهي
له وسيلة ، وهو المقصود ، قال الله جلُّ ذكره : ﴿ رَأْفِعِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ .
والذكر هو ذكر الله ؛ إما باللسان ، وإما بالقلب ، وإما بهما معاً ،
وهو المقصود .

والذكر : إما في الأفعال ؛ وهو الواجب على الكافة ، وإما بطريق
الوصف وهو للخاصة ، وإما بطريق الذات ؛ وهو لخاصة الخاصة .

وكلُّ عملٍ أريد به وجه الله . . نوع من أنواع الذكر ، لكن بالوسيلة
لا بالقصد ، وأما الذكر المقصود . . هو ذكر (لا إله إلا الله) ، أو ذكر
(الله) ، أو (هو) أو غير ذلك من سائر أسماء الله الحسنى ، ولكن
يجمع سائر الأذكار في معارج الأفكار ذكر (لا إله إلا الله) ، وهو الاسم
الأعظم بإجماع من يعتد بهم ، وقال غيرهم : الاسم الأعظم : (هو) .

وكل من مشى على اسم . . كان عنده هو الاسم الأعظم ؛ فأسماء الله
كلُّها عظام ، ولكن كل الأسماء مندرجة تحت هذا الاسم ؛ كاندراج
الكواكب تحت نور الشمس ، قال الله : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

(١) لم يتعرض المصنف لشرح هذه الحكمة بالنص .

فكل اسم ذكرت به كنت ذاكراً لله ، وإذا ذكرت باسمه (الله) .. كنت ذاكراً لله بأسمائه كلها ، فانظر ما أشرف هذا الاسم وأعظم مقدار الذاكِر به : أنه ذاكَرَ اللهُ بجميع أسمائه تعالى !!

وفي بعض الأحاديث القدسية : « أنا جليْسٌ مَنْ ذَكَرَنِي » ^(١) ، فناهيك أنك جليْسٌ اللهُ إن كنت جالساً أو قائماً أو مضجعاً .

وفضائل الذكر وآدابه لا يحتمل هذا الشرح استيعابها ، وفي الحديث : « كَأَنِّي بِأَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَنْفُضُونَ رُؤُوسَهُمْ مِنَ التُّرَابِ - بِأَجْسَادِ عَلَيْهِمُ نُورُ الْبَقَاءِ مُشْرِقٌ ، رَمَى الذِّكْرَ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ ، فَوَرَدُوا الْقِيَامَةَ خِيفَافاً - قَائِلِينَ : ﴿ لَمَّا دُبِّيَتْ بِهِ أَلَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْخَيْرَ ﴾ » أو كما قال ^(٢) .

ويقال : إن رفع الأصوات بالذكر .. يحلُّ ما عقدته الأفلاك الدائرة وغير ذلك .

فإذا عرفت فضيلة الذكر وعظم شأنه على سائر العبادات .. كأنك تقول : قلتم فيما تقدم : إن العمل باللسان دون القلب لا جدوى له ولا طائل ، فماذا يعني عملٌ بلا جدوى؟! فأترك العمل رأساً !!

يقال لك : لا تترك العمل لعدم حضورك مع الله فيه ؛ لأن الله يكون جليْسٌ جارحتك التي ذكرته بها ، فأولئى بك أن تكون لك مع الله مجالسة ببعض أعضائك وإن تخلَّفت بقية أعضائك من أن تسد سائر أبواب أعضائك وقواك .

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤٢/٦) عن كعب رحمه الله تعالى .

(٢) رواه الطبراني في « الدعاء » (١٤٨٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٦٣/١٠) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

فإذا واضبتَ على ذلك ، وأدمتَ قرع الباب .. فحريٌّ أن تجاب ؛ لأن غفلتك عن الذكر بالكلية دليلٌ على طمس حقيقتك وقطع وثيقتك ، فهذا أشدُّ من كونك ذاكراً غير حاضر ، فكونك غير ذاكِرٍ أشدُّ بُعداً من كونك ذاكراً غير حاضر .

فإذا كنت ذاكراً غير حاضر .. فقد ثبت لك اسم الذاكرين ، ودخلت في غمارهم ، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم ؛ كما ورد : « أن الله يباهي الملائكة بالذاكرين ، فيقول : ما تركتم عبادي ؟ فيقولون : يذكرونك ويحمدونك ، فيقول : وماذا يخافون ، وماذا يرجون ، وما يريدون ؟ فيقولون : يخافون النار ، ويرجون الجنة ، ويريدونك ، فكلما قالوا خصلة .. قال : هل رأوها ، أو هل رأوني ؟ فيقولون : لا ، فيقول : أرايتم لو رأوا ؟ قالوا : لكانوا أشد شوقاً إليك ، وخوفاً من النار ، وطمعاً في الجنة ، فيقول الله لهم : أشهدكم أنني قد غفرت لهم ، فيقولون : إن فيهم فلاناً لم يأت إلا لحاجة ، فيقول الله : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » أو كما قال (1) .

لا تتركِ الذكرَ في الأوقاتِ يا أنسانُ لفقْدِ يَقْظَتِكَ في المعنى وتبيان فداومَنْ سوفَ تُدْرِكُ لُطْفَ مَنانٍ من الحضور وفضل منه وأحسان

وذكر اللسان أولاً مجرداً دون القلب غالباً تصحبه الغفلة ؛ لكن يظهر بكثرة ملابسته وإدامة مجالسته قدحٌ خفيٌّ يطير إلى الحرّاقة اللطيفة القلبية ، فلا بد وأن يعلق بها شرره ، ويظهر فيها أثره ولو بعد أزمان ، بشرط الملازمة والإدمان ؛ إن أخطأت هذه .. لم تخطئ الأخرى وهلم جراً ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(1) رواه البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) بنحوه عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فَعَسَىٰ أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ بَقْظَةٍ ،
وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ بَقْظَةٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ
حُضُورٍ إِلَىٰ ذِكْرٍ مَعَ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى الْمَذْكُورِ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ

(فمعى) من الله واجب ، ومن الخلق رجاء وطمع ، ولكن يغلب
الطمع مع وجود إدمان اللسان : أن يرفع الذّاكر عن اسم الغفلة الذي
هو وصف الذّاكر باللسان دون القلب إلى اليقظة التي هي وصف
القلب المتنبّه عن نومة الجهل وجمود الطبع إلى يقظة العلم ونور
العقل ؛ فعند طلوع فجر الشّمس العرفانية من المطالع الأزلية ..
يكون يقظاناً .

وإذا علق الذكر بلطفة القلب .. يكون شأنه تقويته وصونه
عن عوارض تعرض له حتى يتسع في أرجاء القلب ، ويستنير
في النفس ، فيخس عند ذلك الخناس الكناس في ليل الجهل ،
فيتحقّق بالإفلاس ، وتنزل على مشكاة القلب فيه ثمينة عنوانها :
﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ
وَالنَّاسِ ﴾ فتطلع بدوره ، ويدنو حضوره ، فينطق لسان الروح في
كل صورة ، ويعطى مسطوره ، فيقرأ سطوره سورة سورة ، فتتحقّق
حقيقته ، ويمحى تزوير زوره ، فيستكمل الذّكر كلّ ذرّة من ذراته ،
وحركة وسكنة من حركاته وسكناته .

فعند ذلك يحضر في حضرة الروحانيين ، حضرة الحضور والتطلّع
إلى مشاهدة المذكور ، فلا يقرّ دونه قرأته ، [وتحلق] في هواء الهوية

أطياره^(١) ، ويرتفع من واسطة الجنود نوراً ينادي : الرحيلَ معشرَ الرعيل ،
 فلا إلى القرار دون اللقاء سبيل ، فتدخل بعضها في بعض ، وتفنى
 جهات الأمام والوراء ، واليمين والشمال ، والطول والعرض ، وتنزل
 الأرض ، ويجمع الفرق ، وتبدو شمس الشهود من سماء سمو الاسم ،
 فتدور دائرة الجمع ، فيذهب البصر والسمع ، وعند نزول هذا الذكر
 الهوي يكون الغيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزير ، ولا
 أعظم منه .

وعند ذلك تفتح روزنة البقاء^(٢) ، ودوام اللقاء ، وذهاب الأكوان ،
 وطمس الأعيان ، وتزايد على ممر الزمان والأوان : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ،
 ولا لأيام الله انقضاء ، ولا لشؤونه انتهاء ، فانظر ما تعطيه هذه الكلمة ،
 وما يفتح بهذا المفتاح من مواهب الفتح ، ولو بسطنا ذلك . . لخرجنا
 إلى حدٍ لم يتضمَّنه الأصل من المقامات وأسرار الفتوح الموهبيات ،
 ولكن في الإشارة إلى ذلك كفاية .

فلنقبض العنان عن جواد اللسان في ميدان الامتتان ، ولنرجع ونقول :
 ذكر اللسان تصحبه الغفلة ، وذكر القلب تصحبه اليقظة ، وذكر الروح
 يصحبه الحضور ، وذكر السرِّ يصحبه الشهود والغيبة عما سوى الموجود ،
 ووراء ذلك مقامات من مقامات الذاتيين ، وبعده استغراق المهيمين في
 الذات ، الفانين عن الأحوال والمقامات ، فماذا بعد الحق إلا الضلال !؟
 ولي في ذلك :

ذكرُ اللسانِ بدونِ القلبِ يصحُّبه آفات ما يعميُّ البصرُ عن الخليلِ

(١) في النسخ : (وتحقق ...) بدل : (وتحلق ...) .

(٢) الروزنة : الكؤوة .

ويثقل المرء فحواه ويُعبئه ويعتريه مريضُ الكدِّ والمللِ
والقلب يوقظهُ ذكْرٌ ويصحُّهُ أنسٌ يُعينُ ويُسلي عن عيا الثَّقَلِ
والروحُ يحضره في طيبِ مشربهِ ويكسبُ القُربَ ممَّن لا له مثل
والسِرُّ يَفْني ويغني نيلَ مطلبه عن كلِّ مشهودٍ تنظرُ ذا بلا عِلِّ
ومن ثمرات الذكر وفوائده : معية الله الخاصة ، « وأنا معه حين
يذكرني » (١) ، وهذا الذكر - أعني به ذكر الغيبة عما سوى المذكور
- هو الذي هاج عن الوارد ، ولا للعبد فيه تعمُّلٌ ، ولا عليه فيه كلفة ،
يجري عليه ، وتتوالى تنزلاته لديه ؛ كتوالي المطر على بقاء الأرض ،
﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .



فليحسر عن أوصاف البشر عند نزول المطر ، ومن فقد هذه
المواهب ، ولم يحظ بهذه الرغائب ، ولم يجد لذلك المأ . . فليستدل
بذلك على موت قلبه ، ووجود سلبه ، أعاذنا الله من ذلك ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

مِنْ عَلَامَاتِ مَوْتِ الْقَلْبِ : عَدَمُ الْحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ الْمُوَافَقَاتِ ،
وَتَرَكُ الْنَدَمِ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ (١)

العلامة : هي الدلالة على الشيء وبيان كليته ؛ إذ هي بعض ،
والدلالة : إما حسية أو معنوية ؛ وهي غالباً تكون فعلاً حسيّاً على أمر
معنوي كهذا .

والقلب : هو لطيفة نورانية ، وحقيقة ربانية ، والقلب أرضٌ وهي
له سماء ، والإيمان النازل من سماء السرِّ يسمى إيماناً ، وبه حياة تلك
الأرض واهتزازها ، وله علامات تظهر على الأركان القلبية والصفات
النفسانية ؛ كما تظهر على وجه الأرض نتائج المطر ؛ من حياة الشجر ،
وظهور الثمر .

وموته أيضاً له علامات ، فموته بخلوّه عن الإيمان ، ومعنى (أنه
ميت) أو (مُظْلَم) : معدوم ، فإذا خَلِيَ عن الإيمان . . مات ، ومعنى
(مات) : عدم ؛ إذ حياته بالإيمان .

وعلامه موته : عدم الحزن ، وهو ضد الفرح ؛ إذ لو كان حياً . . لحزن
على فوت الموافقات ؛ لأنها قوامه ، وفيها راحته وفرحته ؛ لأنها دليل
الرضا من الله ، وذلك غاية مطالب المؤمنين ، ورضا رب العالمين .

وعدمُ الندم على فعل المخالفات دليلٌ على موته ؛ إذ هي من
مؤلماته ؛ لأن فيها البعدَ عن الله ، والسخط من الله ، وأيّ ألم أشد
على الإيمان من ذلك ؟

(١) في هامش (أ) : (في نسخة : من وجود الزلات) .

فإذا لم يتألم بذلك . . دلَّ على موته ؛ لأن الميت لا يجد ألم
المؤلمات ، ولذة الملائمات ، وفي الفرح بالموافقات من حيث دليل
الرضا من الله على عبده ووجود الروح بعدم استعماله في المخالفات
أيضاً . . يستلزم ذلك ؛ لأن في الحديث : « من سرَّته حسنته وساءته
سيئته . . فهو مؤمن »^(١) دليلاً على وجود الإيمان وحياة القلب .

ومن فوائد الحزن على فوت الموافقات : الانبعاث في الإتيان بها ،
وعلامة الندم على فعل المخالفات : شدة الحذر من الوقوع فيها ،
والتباعد عن الأسباب الموصلة إليها ، وليس أنه يحزن ولم ينبعث في
الطلب ، ولا أنه يندم ولا يتباعد عن العطب ، ولي في ذلك :

حياة قلبك بالإيمان تعرفها إذا سررت بفعل المُرَضِي الحَسَنِ
و ضد ذلك لا تدري تصرفها في أي فعلٍ يخالف واضح السُّنَنِ



فإذا عرفت أن الحزن على فوات الموافقات : هو الانبعاث إلى
فعلها ، والندم على الذنب : تركه لا الأيمن ولا القنوط . . لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه الترمذي (٢١٦٥) ، والنسائي في السنن الكبرى (٩١٨١) عن سيدنا
عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

لَا يَعْظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظْمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى ؛ فَإِنَّ
مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ . . اسْتَضَعَّرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ

لا يعظم عند العارف شيء وإن اتسع ظهوره ؛ لأن الله سبحانه هو
الظاهر بأوصافه وبواهر آياته ، والذنب أثر من آثار قدرته ، وحكم من
أحكام مشيئته .

والذنب إذا قرنته بعظيم فضله وعميم كرمه . . رأيته كلا شيء ، وإذا
عرفت ذلك . . فاعلم أن استعظام الذنب على وجهين :

أحدهما : استعظام حياء وهيبة من عظمة الله ، وخوف وبيل
عقاب الله ، ولكن الله بعميم فضله قد وعد - ووعد الحق - التائبين
بالمغفرة ، وأتحفهم بالمحبة ، وبيّن لهم طرق ذلك ، وأن ذلك إذا
رجعوا إليه بالتوبة والانكسار . . لا يضرهم ؛ فإذا العظمة الحاملة للعبد
على التوبة والرجوع إلى الله محمودة ، وهي دأب المؤمنين وأكابر
العلماء وخواص المقربين ، واستعظام الذنب شرط من شرائطها ؛ إذ هو
الحامل لها على الندم ، والعزم على ألا يعود إلى مثله .

وأما استعظام يفضي بصاحبه إلى القنوط واليأس من رحمة الله . .
فهذا استعظام مذموم^(١) ، وصاحبه ملوم ؛ لأنه بجعله استعظام الأثر
على المؤثر ، فكيف تستعظم ذنباً أو غيره مع وصف الله سبحانه ؛ إذ
وصفه الكرم والفضل ؟! فكيف وقد علمت أن الذنب مظهر أو صاف
فضله ، وشمول رحمته وعفوه ، فإذا لم يُعص . . فعلى مَنْ يظهر آثار

(١) هذا بيان للوجه الثاني لاستعظام الذنب ، وهو استعظام ناشئ عن الجهل بصفات الله
تعالى .

الكرم^(١)، وشمول الرحمة، وعظيم العفو؟! وفي الحديث: «لو لم تذبوا.. لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»^(٢).

وفي الحديث أيضاً: «إذا أذنب العبد ذنباً، فقال: يا رب اغفر لي.. يقول الله تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً، علم أن له رياء يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اذهب فقد غفرت لك، فافعل ما شئت»^(٣) أي: ما دمت تذب فتستغفري.. فأنا أغفر لك.

وفي الحديث القدسي: «ابن آدم؛ لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ولم تشرك بي شيئاً.. لأتيتك بقرابها مغفرة»^(٤) وقرابها: ملؤها، أو ما يقارب ملأها.

والتائب راجع إلى ربه، مُذِبرٌ عن نفسه، منكر مفتقر، وهذه أخصُّ أوصاف العبودية.

وأما إذا لم يحمله على الرجوع إلى الله، بل بقي مصراً عليه غير منزجر عنه، ومستخفاً بالذنب ومحتقره، ومستكثراً ما يظهر عليه من الطاعة، ومعجباً بها.. فهذه من أوصاف المنافقين؛ لأن المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يراه كالذباب قال به هكذا عن وجهه، كما ورد ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه^(٥).

(١) في (ب، ج): (أوصاف الكرم) بدل: (آثار الكرم).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٢٦٨٧)، والترمذي (٣٥٤٠) عن سيدنا أبي ذر وأسر رضي الله عنهما.

(٥) رواه البخاري (٦٣٠٨).

وما يعامل الله به أهل الانكسار من الكرم .. أعظم من طاعاتهم ،
وما يعامل به أهل اليأس والقنوط .. أعظم من سيئاتهم ، فحسنُ الظن
بالله وإن كثرت الخطايا وعظمت البلايا .. شأن أهل الإيمان ، وضده
شأن أهل الكفر والطغيان .

يروى أن بعض الخطائين لما حضرته الوفاة .. أوصى إلى أمه : إذا
أنا مت .. فلا تعلمي بي الجيران ؛ فإنهم يشمتون بموتي ، وهذا خاتم
مكتوب عليه : لا إله إلا الله ، إذا مت .. فاجعليه في ناحية قبري ؛
لعل الله يرحمني ، وإذا مت .. فضعي رجلك على خدي ، وقولي : هذا
جزء من عصي الله ، وإذا مت .. فابتعلي إلى الله وقولي : اللهم ؛ إنني
رضيت عنه ، فارض عنه .

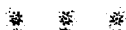
قال الراوي : فخرجت من عند أنس بن مالك بالبصرة ؛ فإذا بجنابة
يحملها أربعة من الزنج وامرأة تتبعها ، فقلت : سبحان الله !! جنابة
في البصرة يحملها أربعة من الزنج ، لأكوننَّ خامسهم ، فدنوت ،
فقلت لهم : تقدموا وصلُّوا عليها ، قالوا : كلنا فيها سواء ، إنما نحن
استأجرتنا هذه المرأة ، فتقدَّمت فصليت عليه ، فلما فرغنا من دفنه ..
إذ بهذه المرأة قد ضحكت وحمدت الله وأرادت الانصراف ، فقلت
لها : لا ينجيك إلا الصدق ، ممَّ تضحكين ؟ فأخبرتني الخبر ، قالت :
ففعلت جميع ما أوصاني به ، فلما دفن .. سمعت صوتاً لا أشك
فيه أنه صوته يقول : اذهبي يا أماه ، قدمتُ على ربِّ كريم راضٍ غير
غضبان^(١) .

فانظر - رحمك الله - معاملته مع أهل الانكسار ، الذين لم تصدهم

(١) الرسالة القشيرية (ص ٣٦٠) .

عنه كثير الجرائم والأوزار ، بل كان اعتمادهم على كرمه وعظيم عفوه ،
وقاموا مقام الأذلاء البائسين بين يدي المولى الغني الكريم ، المحسن
البر الرحيم ، فماذا ترى ما يكرم به من أتاه بذلته وانكساره ، وخضوعه
واستكانته وافتقاره؟! ولي في ذلك :

فلا يصدِّك عن بابِ الكريمِ وإنْ كثرَ منكَ خطيئاتٌ وأوزارُ
فليس يعظم عند العفو ذنب وإن كانت عظاماً فإنَّ الربَّ غفارٌ



فإذا تجلَّى بفضله .. صغرت الكبائر ، وإن واجهك بعدله .. عظمت
الصغائر ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه كالمفسِّر لما أسلفه في هذه
الحكمة :

لَا صَغِيرَةَ إِذَا قَابَلَتْكَ عَدْلُهُ ، وَلَا كَبِيرَةَ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ

الصغيرة من الذنب : كل ما كُفِّرَ بالطاعات عند أهل الفروع ،
والكبيرة : كل ما أوجبت حداً ، أو نصرَ عليها الشارع ، وبينهما أوساط
للنظر فيها مجال .

وعند بعض أهل الأصول : أنك إذا نظرت إلى كبرياء من عصيت ..
كانت كلها كبائر ، والأدلة الشرعية تفضّل وتحذّر لكلّ حدّاً .

وحيث علمت أن الصغائر هي التي تكفّر بفعل الطاعات ، وبالتوبة
المجملة ، وعلمت أيضاً أنه إذا حصل الإصرار على الصغائر ..
لحققت بالكبائر ، وأنه أيضاً إذا قابلتك بعدله .. كانت صغائرك
كبائر ؛ علي ما قاله مَنْ قال : عند نظرك كبرياء من عصيته .. تصير
كبائر ، وإذا تفضّل عليك بالتوبة وإحسان العمل وإصلاح الخلل ،
وتجلّى عليك بوصف الفضل .. صغرت الكبائر ، وصارت في جنب
العفو كغبرة في رمال ، وقطرة في جنب بحار ، بل أقل من ذلك
وأحقّر ، بل لا شيء .

وعبّر في العدل بالمقابلة ؛ لأنه إذا قابلت بالعدل .. كفأك ، وأوبقك
أقلّ شيء من الذنوب ، واستغرق طاعاتك أقلّ شيء من النعم ،
والمواجهة من الإكرام ، ومن قبيل الإنعام ، فإذا أحب الله عبداً .. تقبّل
حسناته وأدّخرها ، ومحا سيئاته وغفرها ، وإذا أبغضه وناقشه .. أحصى
قبائحه ، وعدّد عليه فضائحه ، وفتّش عليه في العمل ، وبيّن من حسناته
مواضع الخلل ، فيستقبل منها كما يستقبل من بقية السيئات ، ويستغفر
منها كما يستغفر من الهفوات .

ولي في ذلك :

إن واجه الفضل صارت كلُّ معصية صغيرة مثل شَفَانٍ على حَدَبٍ
أو قابلَ العدلِ عادت كلُّ معصية صغيرة مثل أعظَمَها في النسبِ



فإذا كان اعتماد العبد على فضل الله تعالى وكرمه .. صغر عنده كلُّ شيءٍ دون ذلك ، بل إذا استحکم رؤية الفضل .. أثمر رؤية المفضل الكريم .

وعند رؤية الأوصاف الأزلية .. تضحل الصفات البشرية ؛ فضلاً عن أن يكون لها عمل أو علم أو وصف ؛ فعند ذلك : تزكو أعمال العبد ، وتفيض على القلوب أنوارها ، وتكسى الأحوال أسرارها ، وتنشط الجوارح والقوى ، ويصحو من سكر الهوى ، وذلك ثمرة غيبة العبد عن كونه عاملاً ، فيكون كالآلة في يد الصانع يحركها ويسكنها كيف شاء ، وعلى ذلك المعنى صح أن النسخة على ما هي عليه ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا عَمَلَ أَرْجَى لِلْقُلُوبِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ ، وَتُخَفَّرُ
عِنْدَكَ وُجُودُهُ

(لا عمل أنفع للقلوب) ونفع القلوب بالعمل : ما يفيض عليها من
أنوار القبول ، ويخلع أسرار الوصول ، والأعمال إذا غاب العامل لها عن
كونه عاملاً .. تزكَّت عن ظلمات القوادح ، وسلمت من آفات الرياء
والإعجاب ، ولا يكون كذلك إلا من قد انمحقت بقاياه ، وتلاشت
أوصافه ، ومحيت ذاته تحت مشرقات أنوار التوحيد ، وسحقت تحت
عظمة التفريد ، وإلا يكون كذلك .. فلا ينفك غالباً عن محبطات
الأعمال ، من رذائل الأوصاف وشوائب الأحوال .

والمجاهدة وإن كان لها أثرٌ في الظواهر بعد مزيد المجاهدة ، وتحرِّي
طرق الإخلاص والصدق ، لكن لا كمن كان مأخوذاً عن نفسه ^(١) ، غائباً
عن حقيقته ، مع بقاء الصحو في الأعمال ، والحفظ في الأحوال ، فسبحان
من رفع شأن قومٍ وأعلى مقامهم ، وتمم عليهم ساياغات فضله ، وجنَّبهم
ما ابتلى به غيرهم من الآفات .

فرجاء العمل للقلب - أي : لصلاحه وحصول نجاحه - بالغيبة عن
رؤية النفس ؛ فكل عملٍ تظهر فيه .. لا يعتدُّ به وإن كان خطيراً ، وكلما
غابت عن رؤيتها فيه .. فهو العظيم وإن كان حقيراً ، ولي في ذلك :
فلا شيءٌ من الأعمال أرجى لجلب الخير والقدر الخطير
من أعمالٍ تغيب النفس فيها ولا يقدر لها وزنٌ نظير



(١) في (ب) : (لكن لا يكن كمن كان مأخوذاً عن نفسه) .

فلما كانت الواردات تبعث على النهوض ، وتعين على أداء النوافل
والفروض . . كان إيرادها عليك من الله ؛ لتكون عليه بها وارداً ، لا
لتكون عنه شارداً ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِنَّمَا أُورِدَ عَلَيْكَ أَلْوَارِدَ ؛ لِتَكُونَ عَلَيْهِ بِهِ وَارِدًا

(إنما) كلمة حصر ، يريد : إنما أورد عليك الوارد ؛ سواء كان ذلك الوارد من قبيل الملائمات ، وضروب المسرات كالنعم وصنوف الطاعات ؛ لتكون عليه وارداً من طريق الشكر وشهود المنة ، أو من المؤلمات والمنغصات ، وسائر وجوه التعرّفات ؛ لتكون عليه وارداً من طريق الصبر ، أو أورد عليك وارداً من طريق الأحوال كالرجاء والخوف ، والقبض والبسط ، والهيبة والأنس ؛ لتكون عليه وارداً .

فالرجاء بزيادة الأعمال ، وحسن الأخلاق ، وصفو الأحوال ، والخوف ؛ لتردّ عليه من طريق الفرار من المخالفات ، والحذر من الوقوع في الهفوات ، أو أورد البسط ؛ لتردّ عليه من باب الأدب والانكماش ، أو أورد عليك وارد القبض ؛ لتردّ عليه به من باب الالتجاء ، وصدق الافتقار ، ووجود الاضطرار ، أو أورد عليك وارد الأنس ؛ لتكون وارداً عليه من طريق الفناء تحت مشرقات الجمال ، فارغ السرّ عن سائر الأشغال ، أو أورد عليك وارد الهيبة ؛ لتتلاشى وتضمحل عند ظهور سلطان الجلال ، فانياً عن سائر المقامات والأحوال ، فقيراً عن الأعمال ، وغير ذلك من ضروب الواردات ؛ لتردّ عليه بها ، لا لتقف معها دونه ، فالوقوف معها : إما غرور ، وإما دعوى وزور ، عاقبنا الله من الفتن في الدين .

ومراد المؤلف رحمه الله بـ (الوارد) : الوارد العرفاني ، والفيض اللدني الامتثاني ، وما أورده عليك إلا ليصحّ لك دخول حضرته ، وتمسّئى لك أفعال خدمته ، ولم يورده عليك لتنصب نفسك ، وتظهر

به على الخلق ليستقيم الجاه ، وتنال به الحشمة والتقدمة ، فهذه كلها
وما نحا نحوها من محبطات الأعمال .. شاردة بك عن بابه ، وجانحة
بك عن جنبه .

فكلُّ واردٍ لا يدخُلُ بصاحبه على الإله فإن المكرَ يصحُّهُ
فردُّ عليه بما اختصَّيت جانبه فذلك لمَّ به كيما يُقرِّبهُ



وما أورد عليك من أخصِّ عطاياہ ، وأفضل مواهبه وهداياہ إلا
ليستخلصك ويستفدك من رِقِّ الأغيار^(١) ، وظلمات الآثار ، فلا تعد
إليها بعد أن أخرجك عنها .. تكن مستحقاً لأصناف العقوبات ، وأنواع
النكال ؛ لأنك رجعت إليها بعد أن استخلصك منها ، واستخرتها عليه
بعد أن استخارك ، ولا يخفى ما في ذلك من قلة الأدب معه ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

(١) في هامش (أ) : (لعله : ويستفدك ...).

أُورِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ ؛ لِيَسْتَلِمَكَ مِنْ بَدِ الْأَغْيَارِ ، وَيُحَرِّكَ مِنْ رِقَى الْأَنْارِ

أورد عليك مواهب قدسية ؛ ليخرجك من مضائق حسية ، أورد عليك عطاءه ؛ ليشهدك كرمه ووفاءه ، أورد عليك الواردات ؛ ليستلمك من رِقَى العادات .

فالأغيار استأسرتك عن سعة التوحيد وروح التفريد ، وسجنتك في مضيق التعديد ، وقهرتك الآثار عن شهود الأنوار ، فاسترقتك واستعبدتك بما فيك من الطمع فيها ، والركون إليها ، والإقبال عليها ، فتداركك بلطيف فضله وعميم كرمه ، فأورد عليك من أنواره ، وأنزل عليك أسراره ، واستخلصك لخدمته ، ومَنَّ عليك بمحبته ، فجذبك من بين أعدائك ، وأولاك فضله وامتنانه .

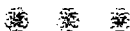
وعرَّفك قبح الدنيا وفناء الأشياء ، فاقتداك وجعلك له عبداً خالصاً بعد أن كنت بين تشاكس الدواعي الهوائية ، ومطالبات الشهوات الحيوانية ، والظلمات الأرضية ، والحظوظ العرضية .

وأشهدك الحضرة الربوبية ، وبوَأكَ المنازل القدسية ، فأصبحت ذا ملكٍ كبيرٍ وعزٍّ خطير ، فله الحمد أهل الشناء والمجد ، ولي في ذلك :
قد كنتَ تحت حجابٍ الغير مقهوراً

وتحت رِقَى من الآثار مأسوراً

فاستسلمك بلطيف الفضل مأسوراً

وحررك فأظهرك منك التباشيراً



فلما كان قهرك واستثسارك هو وقوفك مع رؤية وجودك دون وجود
موجدك . . فكان ما أوردته عليك هو ظهور شهوده عند غيبة وجودك ، ولا
يغيّب عنك وجودك إلا بوارِد موهبي ، وفيض امتناني ، وكشف عياني .
قال المؤلف رضي الله عنه :

أُورِدَ عَلَيْكَ أَلْوَارِدَ ؛ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وَجُودِكَ ، إِلَى فِضَاءِ شُهُودِكَ

عبارته لوجودك دون موجودك بالسجن ، ولشهودك لموجودك دون رؤية وجودك بالفضاء . . إشارة منه إلى ضيق البشرية ، والعوالم الخلقية ، والحظوظ النفسية ، وإلى سعة العوالم الحقية ، والأطوار الأمرية ، والتنزّهات الروحية .

ولقد أحسن في ذلك ؛ فلا أضيق من الظلمة ، ولا أوسع من النور ؛ فالحق نور والأغيار ظلمة ، فَأَيَّتُكَ وظهور خلقيتك سجن ضنك ، وظلمة حلك .

فإذا أراد الله أن يمنَّ على عبده . . أورد عليه واردات الشهود المفينية لسائر الوجود ، فاختطفته من يد الشهوات ، وأنقذته من مهالك الهفوات ، واستسلمته من ظلمات الجهل ومعاطب الغفلات .

فنتسلط الأنوار القلبية والقواهر الحقبية ، على الدواعي الهوائية والحواجب النفسية ، فتستأسرها وتستعبيدها ، وتحلُّها معها في رفيع محلِّها ، فتطمئن لربِّها ، وترجع بالإقبال إلى خالقها .

فتصير من جملة الرفيق الأعلى ، وتحلُّ في فسيح الملكوت الأنهوى ، فأكرم بها منةً !! وأعظم بها نعمة !!
ولي في ذلك :

استخلصك من يد الأغيار والصور إلى فسيح كريم المشهد النضر



ثم اعلم : أن مفازة السلوك في ميادين النفوس أرض سحيق ، وطريق عميق ، لا تُسلك إلا بمطايا وأزواد ، وجيدة الروايا .

ومطايبا هذه الطريق الموصلة إلى أعلى رفيق ، وأنزه فريق . . هي
الأنوار القدسية والأسرار القُربية ؛ فالقلوب لا تقوى على سير هذه
الطريق الكثيرة التعويق . . إلا بورود هذه الأنوار .

قال المؤلف رضي الله عنه :

الأنوارُ : مطايا القلوبِ والأسرارِ

الأنوار الواردة هي : إما من تجلي الصفات ، وإما من تجلي الأفعال ، فالقلوب مطاياها الأنوار الواردة من مظاهر الأفعال الحقية ، فتكون حاملة عن القلوب ، ما تجد من الآلام والكروب ، والأنوار الوصفية الغيبية تحمل عن الأسرار ، ما تجد من ألم الأغيار ، والوقوف في محيطات الآثار ، فيظهر سر الاقتدار وحسن الاختيار ، فيحمل عنها ثقل ظلماتها .

فعندما تستمطي القلوب مطايا الغيوب ، وتجدُّ في السير إلى المحبوب . . يشرع لها أنبوب ماء من أنابيب ميازيب المشارب الفهمية ، وعندما تركب الأسرار نجائب الأنوار . . تجري لها أنهار العلوم اللدنية الغيبية ، والأسرار الملكوتية ، والأعيان العلمية ، والأزهار الحقية ، والثمرات المطوية في غيب الكلمات الأزلية .

فالحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ولي في ذلك :

مطايا القلوب النازلة من سما العلا

تنسخ بها في موطن البوصل والقرب

ونوق رحيل السرّ تسري بها إلى

رياض الحكّم في موطن القدس والحبّ



فهذا الكلام يشير إلى معنى واحد ، ثم أخذ في تعبيره بقوله :

النُّورُ جُنْدُ الْقَلْبِ ، كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ
يَنْصُرَ عَبْدَهُ .. أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الْأَنْوَارِ ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ الظُّلْمِ وَالْأَغْيَارِ

النور هنا : عبارة عن وجدان الحق ؛ إما بعلم اليقين ، أو بعين
اليقين ، أو بحق اليقين ؛ لذلك وَحَدَّ اسْمَ النور^(١) ، ثم عَدَّدَ مظاهره ،
فقال : (جنود) جمع جند ؛ فمن تلك الجنود : الوارد من طريق
العلم ؛ وهو أضعفها تأثيراً في قهر العدو وقمع الهوى ، ومنها :
الوارد بطريق العين ؛ وهو أقوى من الوارد بطريق العلم في التأثير في
ذلك ، وأضعف بالنسبة إلى الحق ، فالحق لا يبقى للباطل وجوداً ،
والعين لا تبقى للشكِّ مجالاً ، والعلم ينفي الشرك والجحود ، والعين
تكسب الفناء في الشهود ، والحقُّ يُلْحِقُ بالبقاء السرمدي ، فهذه
جنود ، وفي كل مرتبة من هذه المراتب تعداد مقاماتٍ ، وسنئي
حالات .

والجنود هي ركن المملكة الأعظم ، فلا ينتظم أمر المملكة الإنسانية
بدونه ؛ فالمملكة الإنسانية قصرُها الأعظم : القلب ، وسلطان تلك
المملكة : الإيمان ، ووزيرها الأعظم : العقل ، وبوابه : العلم ، ورئيس
الجيش : الذِّكْرُ .

ولا تغاير بين تعبيرنا بالإيمان عن القلب وبين عبارة المصنف
رحمه الله تعالى بالقلب ، وعيِّر بالقلب إذ هو الملك إذا اعتبر كون
القلب المعني هنا نوراً من نور الله ، والقلب اللحمي قصرُ ذلك الملك ؛

(١) ووقع في النسخ في متن الحكمة : (الأنوار جند ...) بدل : (النور جند ...) ، وذكر
في هامش (أ) : (النور) ورمز لها بنسخة ، وهنا رجَّح الأفراد .

فلذلك عبّرنا بالقلب المعني النور الرباني بالإيمان ؛ لتمييز عن القلب
اللحمي ، وعبّرنا بالقلب اللحمي بأنه قصر الملك ؛ لتعرف القلب الذي
نسبته إلى الله ، والقلب الذي نسبته إلى العبد .

ووزيره الأعظم : النور ، وسلاحه : الزهد ، وترسه : التقوى ، ودرعه :
الورع ، وحاكمه : السنة ، وخدمته : الحواس ، ومطايبه : العزائم ،
وخيوله : الهمم .

كما أن جند النفس : الظلمة ، ووزيرها الأعظم : الهوى ، وقائدها :
الشیطان ، وحاكمها : الجهل ، وسلاحها : الحرص ، وملاك جيوشها :
الطمع ، ورئيس جيشها : طول الأمل .

فالظلمة اسم لهذه الجيوش ، كما أن النور يشمل جنود القلب
المتقدم ذكرهم .

فإذا أراد الله أن ينصر عبده . . أنزل سلطان الإيمان في سويداء
الجنان ، وثبته بالشهود والعيان ، وأيده بنصرة العقل ، وتدبير العلم ،
وقوة الذكر ، وسلاح الزهد ، ودرع الورع ، وثواقب البصائر ، وصلاح
الضمائر

وحكّم عليه السنة فيما يأخذ ويذر ، وأخدمته الحواس ، وأصلحه
عن الأشر والبطر ، وسدّده بصواب النظر في معاني الصور ، وحسم
عنه مواد الظلمة ، وقهر له جنودها ، ومكّنه من سلطانها ، وعرفه
مخادع مكامن قطعها ، وكفاه همّ عوارض الطريق ، والقوادح في
التحقيق .

وكفاه همّ الأغيار ، والاعتزاز بوجود أنوار دون تحقق بحقائق الشهود
والاستبصار .

وإذا أراد أن يخذله . . كان الأمر بالعكس من ذلك والعياذ بالله ، فلا
أجدد بالعبد من اللجأ إلى الله ، واللياذ به في أن يكفيه هذه الأعداء
والقطّاع عن طريق المولى .

ولي في ذلك :

النورُ جنْدٌ لقلب العبد ينصرُهُ وَيَهْدِي الحائرَ المسجونَ في الظلمِ
كما ترى العكس جند النفس تخذله ويسلمه كل موعودٍ من الألمِ



ثم بيّن حالات القلب وصفات كشفه ، فقال رضي الله عنه :

النُّورُ لَهُ الْكَشْفُ ، وَالْبَصِيرَةُ لَهَا الْحُكْمُ ، وَالْقَلْبُ لَهُ الْإِقْبَالُ وَالْإِدْبَارُ

النور كما علمت أنه العلم ابتداءً والحق انتهاءً ؛ فابتدأه يكشفُ عن وجه القلب حجابهُ ، ويؤدُّهُ باقترابه ، وتفتَحُ به إلى العلا أبوابه ، والبصيرة كما علمت أنها عين القلب . . إذا كانت العين صحيحة^(١) ، ولكن لا بد لها في حصول النظر من نور ، فلو كانت العين صحيحة ، ولكنها في ظلمة لم تَرِ ضَوْءَ نَارٍ ولا نَجْمٍ ولا قَمَرٍ ولا شَمْسٍ ولا شَفَقٍ ولا فَجْرٍ . . لم تدرك بمجرد العين نظراً ؛ فالعلم هو نجوم ليل هذا القلب ، والعين قمره ، والحق شمسهُ .

وإن شئت . . قلت : النجوم شريعته ، والقمر طريقته ، والشمس حقيقة .

فإذا كشف عن عين القلب ظلمة الجهل بأي نورٍ من هذه الأنوار . . أبصر ما انطوى عليه المقام من الأسرار ؛ فلذلك يحكم به ، فلا يدخله شك ولا يحتربه تردُّد ، فإذا كان كذلك . . كان للقلب الإقبال على ما حكم بصحته ، والإدبار عمَّا تحقَّق بطلانه وتبيَّن ضلالته ، فالقلب كشخصٍ قائمٍ وله أوصافٌ شتى ، فالموصوف بتصرف الأوصاف هو الشخص بجملته ، لا الصفة مجردة عن ذاتها .

وللقلب أيضاً : سمعٌ وحياءٌ ، وقدرةٌ وإرادةٌ ، وعلمٌ وكلامٌ^(٢) ، فهو الواسطة بين الملك والملوك .

(١) في النسخ : (فإذا كانت العين صحيحة) بدل : (إذا كانت العين صحيحة) .

(٢) ولو زاد البصر . . لتَمَّ وصفهُ ، وبنات المقابلة بتماها للصفات الأزلية ، وقد أشار لهذه الصفة فيما مضى من الحكم ، انظر (ص ٢٤٥) .

فالصفات الخلقية تستشف من وراء هذه الصفات القلبية ، والصفات القلبية مواجهة ومقابلة الصفات الأزلية ؛ لذلك كان له الإقبال على الله والإدبار من حيث ما يفيض عنه إلى عالم الخلق .

ولو أخذنا نبيُّنُ مقابلة كل صفة وما تقبله ، وما يفيض عنها على الصفات الخلقية القلبية . . لانكشف سرُّ نحن بصدده صونه عن الإذاعة ؛ لأن القوابل لا تطيق سماعه ، وفي الإشارة إلى ذلك كفاية لمن فتح عين بصيرته ، وأطلع شمس سريرته ، ولي في ذلك :
النور يفتح باب القلب بالمدد وفي البصيرة يظهر سره الصمد



فلما كانت الطاعات بارزة على الظواهر ما استشفته القلوب من السرائر يفرح بها من وجهين : وجه من حيث كونها من الله ، ووجه من حيث كونها منك ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تُفْرِحْكَ الطَّاعَةُ ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْكَ ، وَأَفْرَحَ بِهَا ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْ اللَّهِ
تَعَالَى إِلَيْكَ : ﴿ قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِيهِ فَيَذَلِّكَ فَيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

الفرح : هو ابتهاج القلب بأمر محمود ؛ عاجلٍ أو آجل .

وفرح الجهَّال بالأمر العاجل ليس هو من هذا القبيل ، لكن الفرح هنا بالطاعة على ضربين :

إما بوجودها من حيث هي طاعة ومثوبة ، وسلامة من عقوبة ، لا من حيث إنه أبرزها من خزائن فضله ، فذلك فرح المحبوبين ، والعامَّة الجهَّال الغافلين ؛ لذلك نهى المؤلف رحمه الله عن الفرح بها من حيث كونها برزت منك ؛ لأنك لا تفرح إلا بما تيقنت بقاءه ، ومتى تيقن براءة أعمالك من مفسداتها والقوادح فيها وإخلاصها !؟

وأعظم من ذلك : أنك حُجبت بها عن أبرزها ؛ فلو كنت ذا كشفٍ واهتدا . . لرأيت من ألهم ذلك وهدئ ، وأعان عليه ووعد بالجزا ، فإذا كنت كذلك ؛ أي : علمت من أين صدرت ، ولماذا أتت . . علمت أنها من جملة عنايته بك ، وأنت بعد لم تهتد إليها إلا بهدايته ، ولم تقوَ عليها إلا بإعانتة ، فعند ذلك تفرح بها ؛ لكونها دليلاً على عناية سيدي بك ، فيكون فرحك بفضله ، وقد أمر بذلك : ﴿ قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ ﴾ وهدايته من أعظم الفضائل عليك ﴿ وَرَحْمَتِيهِ ﴾ وهي إعانتة من أتحف الهدايا لديك ، وفرحك بفضله ورحمته ﴿ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ مما يصدر منهم من مجموع أعمال ، وتحسين أحوال ، فأين ما تجمعهم مما تُمنحهُ !؟

فلو كان على عدد أنفاس العالم زواكي أعمال ، وسننات أحوال ،
وأنت فرح بها معتمدٌ عليها . . لم تغنِ عنك من الله شيئاً ؛ فذرةٌ من
عارف بالله ، معتمدٍ على فضل الله ، فرح بنعمة الله . . لا توازيها أعمال
العاملين وأحوال السالكين مع رؤيتهم لها دون موجدتها .

ولي في ذلك :

فافرَحَ بفضلهِ فإنَّ الفضلَ مقصودٌ لمن له المنُّ والإحسانُ والجلودُ
ولا تكن به دون الله مردودٌ يكن بلا شئٍ إن الغير مفقودُ



فلمَّا كان الغيبة عن رؤية الأعمال دأب السالكين الأنجاب ، والواصلين
الأحباب . . قال المؤلف رضي الله عنه :

قَطَعَ السَّائِرِينَ إِلَيْهِ وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ ؛
 أَمَّا السَّائِرُونَ .. فَلِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا ، وَأَمَّا
 الْوَاصِلُونَ .. فَلِأَنَّهُ عَيَّبَهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا

(قطع) : لم يمكنهم ، (السائرون) : هم السالكون على قدم الصدق
 في ببدء الإرادة وميادين الأعمال ، على نجائب الأحوال ، وقد قطعهم
 عن رؤية أعمالهم وصفو أحوالهم عدم تحقق الصدق ؛ إذ هو شرط في
 قبولها ، وهم بعد لم يخرجوا عن رؤية نفوسهم في الأشياء ، ولا تصفو
 الأعمال مع رؤية النفس فيها ؛ فلذلك لم يعتدوا بها ، ولم يعتمدوا
 عليها ؛ وذلك أنك لا ترى إلا ما خلص عن شوائبه ، وتطهّر من معايبه ،
 ولم تأمن دخول الآفات ما دامت النفس ظاهرة .

وأما الواصلون .. فحجبهم عن رؤيتها شهوده ، وإذا تحقق شهوده ..
 لم يبق لغيره فعلٌ ولا وصف ؛ فالأعمال مصادر الأفعال ، والأحوال
 مصادر الأوصاف ، فلم يبق لغيره فعلٌ فيرى له عمل ، ولا بقي لغيره
 وصفٌ فيرى له حال ، فهذا يعطيه مقام الشهود ، والتحقق بالوجود لا
 يرى معه موجود .

فصَحَّ أن رؤية الأعمال دون الله حال المحجوبين الذين لم يحفظوا
 بعزير الصدق ، ولم يَشْمُوا رائحة نسيم الوصل ، فالواصل : الذي يشهد
 مجري الأعمال ومنشئها ، والصادق : الذي يتهم نفسه فيما يصدر عنها ،
 ويرى عدم الإخلاص ، وشهود النقص والتقصير عن الجد والتشمير ،
 حتى لو رأى ما رأى من الأعمال والأحوال .. لم يرها إلا بعين الدعوى .
 وفي ذلك المعنى كثرت حكاياتهم ؛ كما روي عن الواسطي مع

أصحاب أبي عثمان ، حيث قال لهم : إنما أمركم بالمجوسية المحضة
حيث قالوا : كان يأمرنا بالأعمال ورؤية التقصير فيها ، وقال : هلاً أمركم
بالغيبه عنها برؤية منشئها^(١) .

هذا في مقام الواصلين ، وأما ما يروى في ذلك المعنى في طريق
السالكين . . فكثير ، يروى عن بعض ساداتنا العلوية - وهو سيدنا عمر
المحضار بن عبد الرحمن السقاف رضي الله عنه - : أنه قال : لو نُقِلت
لي تسيحة . . لفعلت لجميع أهل بلدي دعوة ، أو كما قال .

وأفة السالكين رؤية أعمالهم ، والاعتماد في سلوكهم على ما يصدر
من أفعالهم ، ومنه ينتج الإدلال والإعجاب وضروب من الآفات سَلِمَ
منها الموقفون ، وتحصَّن عنها المتقون .

فالواصلون قطع عن عين رؤيتهم شهوؤُ سيدهم عن كل منظور
والسالكون سبيل الصدق منهجهم ألا يروا صورَ الأعمال مسطور



فلما أنهى الكلام على ذلك . . أخذ يتكلم على ما يعتور المريدين
من مقاطع الطريق ، وما يلتبس على الجهال المغرورين ، فقال رضي الله
عنه :

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٢٩ - ٢٣٠) وقال : (إنما أراد الواسطي بهذا صيانتهم عن
محل الإعجاب ؛ لا ترميهاً في أوطان التقصير ، أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب) .

مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ دُلٍّ .. إِلَّا عَن بَدْرِ طَمَعٍ

عبّر بحالة الدلِّ للمخلوقين كشجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم ، طَلَعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ، وبالبسوق إلى الطول في العالم الهبوطي ؛ فَإِن طَوَّلَهَا مَعْنَوِي ، تتصل ثمرته بالرعييل الظلماني ، والمحند القاصي عن الله .

والأغصان : هي ما يتشعبُ من أصل هذه الشجرة من الأخلاق اللثيمة ، والصفات المشوومة ؛ التي هي أصول النفاق ، ومنبع طرق الفساق ، ولا تبسق هذه الأغصان ، وتمتد هذه الأفنان ، وتخر عزيرات الأذقان .. إلا على بذر طمع .

والبذرُ : هو الحب الذي يراد للاستنبات ، ويطلب منه النبات ، والطمعُ في المخلوقين دليل الحجاب عن ربِّ العالمين ومالك الدارين ، وهو علامة المنافقين ، وسيما المبعدين .

والعزة بالله من أشرف أخلاق المؤمنين ، وأعز أحوال الموقنين ، والعزة بالله لا تكون لمن في قلبه قبح الطمع المبين لحالة الورع ، وقد وصف الله الفريقين ونعت الطريقتين بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فلو كان لهم في غيره طمع ، أو إلى غيره مطمح نظر .. لتخلف بهم عن هذا المقام ، ولقام الكرام مقام اللثام ؛ حيث قال في الفريق الآخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ والفرقة الأقلين يوم القيامة .

والطامع أبدأ في عناء وقلة غناء ؛ إذ منشؤه الشك في الله ، والياس من روح الله ، والطامع لا يشبع ، والحريص لا يقنع كيف ما تقلبت به الأحوال .

والطمع على ضربين :

طمع ظاهر جلبي يعرفه كل أحد ؛ كالطمع في الأغراض الفانية ، فلا يخفى قبحه ، والإعراض عنه محمودٌ لكلِّ أحد ، والتنزُّه عنه مطلوب عند كل أحد ، حتى عند من يتعاطاه من الجهَّال ، والغواة الضالِّل .

وطمع باطن خفي لا يعرفه أكثر الخلق ؛ كالطمع في المستلذِّ الأخروي ، فلا يترك الطمع فيه إلا محجوبٌ دنيوي ، أو مقرَّبٌ بمقام الشهود حظي ، فلا يطمع في شيء دون سيده ، والقرب منه والشهود له ، ولا يترك الطمع في الفضل الأخروي احتقاراً ، ولكن لما ظهر له وبادر قلبه من الامتلاء بشهود المولى ، وبدا له من الجمال الذي حسن به كل مستحسن ما أخذه عن الأكوان ، وشغله عن التلذُّذ بالجنان ، وما فيها من الحور الحسان ، وبان له من العرفان ما استغرق الأركان ، واستملك الجنان والعين واللسان .

فالخاصة يوصفون بترك الطمع في الأغراض الفانية الدنيوية دون الفضائل والدرجات الأخروية ، وخاصة الخاصة يوصفون بترك الطمع فيما سوى سيدهم ، ومنتهى مطلبهم ، وغاية آمالهم شهود الواحد الحق ورضوانه عنهم ، لا يلتفتون إلى غرضٍ فإن ، ولا يعزِّجون على حظِّ كائناً ما كان ذلك الحظ ؛ دنيوي أو أخروي .

ويقابل الطمع الورع ، والورع أيضاً على درجاتٍ شتى ؛ فورع العامة ، وورع الخاصة ، وورع خاصة الخاصة ، وورع ظاهر ، وورع باطن ، وورع فرض ، وورع فضل ؛ وهو يتفاوت بحسب تفاوت الأحوال .

والورع في الأفعال والأقوال والأحوال .

فورعُ الفرض في الحرام الصِّرْفِ في الأفعال والأقوال ، وهو وورعُ العامة ، وهو في الظاهر لا بالباطن .

وورعُ في دقائق الأعمال وخفيات الأفعال ، تظهر لأهلها بشواهد السنة ، والتطَّلُع على خفيات الآثار ، والفحص عن أحوال الأخيار ، وورع خاصة الخاصة ؛ وهو في الأحوال بمراعاة التعظيم والإجلال ، وورع خاصة خاصة الخاصة بالفناء والاضمحلال .

وورعُ العامة عن الحرام ، وورعُ الخاصة عن الشبهات ، وورعُ خاصة الخاصة عن الفضول من الحلال ، وما زال بهم الورع يترقى في مدارج الأحوال حتى وقف بهم وأشرف بهم على السرِّ المصون ، والعلم المخزون ، تحت حيلة : ﴿ حَكْنٌ فَيَكُونُ ﴾ .

فيكون ما أرادوا من غير تكلفٍ وتحزٍ في إقدام على شيء أو إحجام ، فيأخذون بالله ، ويتركون لا بأنفسهم ، فوقعوا على حقيقة الأمر ، ونزلوا على بصيرة ، تراءى لهم في كل شيء علامة تدلهم على أخذه أو تركه ؛ لأن الله وليهم ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، لا يهجمون بالظنون ، ولا يحجمون كما يكون لأصحاب الظواهر الذين لم تستنز منهم القلوب ، ولم تصف الضمائر ، بل واقفون مع ما يتوهمون ، ومتبعون ما يظنون ، ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ وقصروا عن الهدى الذي جاءهم من ربهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ ومن الدلالات القرآنية والمعجزات النبوية ، فوقفوا عند رسمهم المحصور وحدهم المقصور ، ولم يحظوا بالشاهد القلبي الذي أرشدهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال : ﴿ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ

أفتوك»^(١) ، فالفتوى القلبية هي الهدى الذي جاءهم من ربهم ، هذا في حال من يتحرى الورع .

وأما المنهمكون الذين لم يبالوا من أي شيء أخذوا ، ولا بأي شيء فعلوا . . فلا يتوجّه إليهم هذا الخطاب ، ولم يعنهم في هذا الجواب ، بل نقول كما قال ربنا فيهم : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْآجِلَةَ الدُّنْيَا - ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعَمَلِ ﴾ .

وأحوال السلف في الورع مشهورة ، وهي أكثر من أن تحصر ، وأظهر من أن تشهر ، ويكفيك في ترك الحرام زاجراً قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتِنَا ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ ، وأموال غيرهم كأموالهم ، وكالأكل غيرُهُ من الشرب واللبس والمسكن ، وغيره من وجوه الانتفاعات ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « من لم يبال من أين أكل . . لم يبال الله به في أي وادٍ من أودية النار هلك » أو كما قال^(٢) .

والذي يتعبّد من غير ورع كالذي يبني على السرجين ، وقالوا : إن الغذاء بذر ، والأعمال نتيجة ؛ فمن أكل الحلال الصرف . . خرجت منه الأعمال الخالصة الصرف ، ومن أكل الشبهات . . خرجت منه الأعمال المشبوهة ، ومن أكل الحرام . . نتجت منه الأعمال المحرمة ، ولو أخذنا في تبيين أحوال الناس في ذلك . . لطلال ، ويحتاج إلى أفراد كتاب .

وأما تنوير القلب . . ففي أدقّ من ذلك من دقائق اللحظات ، ولطائف الخطرات ، فأثر ذلك يظهر في القلوب تنويراً وظلمة ، وثقلاً وخفة ،

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٢٨/٤) عن سيدنا وابصة بن معبد رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٣٩٩/١) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

فروع الخاصة في تتبّع ذلك ، والبحث عما هنالك ، ويظهر ورع خاصة
الخاصة في أدق من ذلك ؛ من تضييع حقوق الله في الأنفاس ودقائق
الأوقات ، أو عدم الصدق في ذلك ، وأدق من ذلك : الالتفات إلى ما
منك ، أو رؤية وجود لسوى الواحد المعبود .

قالوا : وكل رتبة أدنى من ذلك تعمّ سائر المراتب زيادةً ونقصاً ؛
فأما في العامة .. فما ذكرنا من نتيجة الأعمال الخالصة بأكل الطيب ،
وضدّها بضدّها ، وتؤثر في أصحاب الأحوال ثقلاً وقلّة انشراح ، أو ضدّها
من خفة وانشراح إن كان الضد ، وأما في أهل المقامات والمعارف ..
فكثرة الخواطر من غير جدوى ، واختلاط المعارف واشتباهاها ، وضدّها
بضده ^(١) - أي : بالطيب - : ضبط الخواطر ، وحفظ الوقت ، وتمييز
المعارف .

فانظر اتصال هذا الدين ، وعمل ما يعمل في الأصاغر والأكابر ،
لكن بحسب الحال ، ففرق بين من يكون في الحرمان وبين من تشتبه
عليه صنوف الأعيان ، ولي في ذلك :

إن الطمع حرفه التجويف يعرفه من يقتره ويدري ما هو الخبر
فاجعل بدل ذلك واوّاً ورا تصرفه عين بها قام نور الله في الصور

فمبنى الطمع : الوهم ، وغايته : الذل والعبودية لمن لم يستحقها ؛
لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في (أ) : (وضدها ذلك بضده) بدل : (وضدها بضده) .

مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ آلَوْهَمِ

القنود : هو القهر من القائد ، والانقهار من المنقاد ، والحكم من القائد ، والاستسلام من المنقاد ، وما أقبح حالة من انقهر للوهم وانقاد للشكِّ المعدومين في أنفسهما !! فالطمع في الخلق طمع في وهم لا حقيقة له ؛ إذ من كان عدم في ذاته دون الله . فكيف يطمع فيه ؟!

ولكن النفس من حيث مركزها الجبلي خلقت من الظلمة ، فلم تعرف غيرها ؛ فلذلك ناسبت حالها أفعالها .

وأما نفوس أهل العرفان . لم تلتفت إلى ثانٍ ؛ لبسوت أن كلَّ موجود دون الله فان - أي : معدوم الأصل - فلم يطمح نظرهم ولم تحول همهم إلى غيرٍ ؛ لقناء الأغيار ، وانطماس الآثار تحت أحذية الواحد القهار ، فقتعوا به عوضاً عمّا سواه ، فأورثهم الرضا عنه ، وعوّضهم لذة المشاهدة وطيب المؤانسة .

فعرفوا ما جهل الأغبياء ، ونظروا ما عمي عنه الأشقياء ، فحيّوا حياة طيبة ؛ لغراغ بواطنهم عن التعلُّق بالأوهام ، وسلامتهم عن ورود الظلم ومقارفة الآثام ، ونبهتهم الأحرار عن استرقاق الأغيار ، وخلصوا عن نار الطمع والإذلال ، إلى جنة الورع والاتصال ، واستظلوا تحت شجرة الحكمة ، فأينعت عن ثمار العلوم اللدنية ، « إذا رأيتم زهد الرجل . . فادنوا منه ؛ فإن الحكمة تلقى عليه ، والمواهب تدنو إليه » (١) .

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠١) بنحوه عن سيدنا أبي خلد رضي الله عنه .

ولي في ذلك :

الوهم أكذب ما يلقى إليك فكن على يقين فإن الوهم معدوم
من نازلة صرف أنوار اليقين يكن برته لا يحبل الوهم مخطوم

*

وانقياد المنقاد إما على سبيل الرغبة في المنقاد له ، أو على سبيل
الرهبة ، وكلا الأمرين يقتضي العبودية من المنقاد للمنقاد له ؛ لذلك
قال المؤلف رضي الله عنه :

أَنْتَ حُرٌّ عَمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ

ذكر الحرية أولاً لأنها الأصل ؛ إذ الأصل : أنك حرٌّ من الأغيار ، ومنطلق من وثاق الآثار ، فإذا عدت إلى أصلك .. علمت أن الأشياء طالبة لك ، ومتوجهة بالإقبال عليك ، وذلك قبل طروء الجهل الجبلي ؛ لكونك متصفاً بالعلم ومتحلياً بالشهود ، فأنت في ذلك المشهد آيسٌ عما سوى الواحد الحق ؛ لأن الوهم الظلماني لم يظهر بعد ، فلم تتوجه ناصيةً لعبودية لغيره .

فإذا عاد السالك إلى ذلك ، وتحقق بما هنالك .. وُصِفَ بالحرية عن الغيرية ، وعبوديته للأغيار مترومةً لا حقيقة كهي^(١) ؛ إذ لم تكن العبودية لغيره في أي معبود ، ولم يشهد سواه في كل مشهود ، وإنما سبب العتب في ذلك^(٢) .. توهم الغيرية بكثيف حجاب البشرية ، عافانا الله والمسلمين من التوجُّه إلى غيره والعبادة لسواه .

فالموجدون عن الأغيار آيسون ، وبالله مستأنسون ، وعليه متوكِّلون ، قد سقط عن قلوبهم الطمع ، وأصبحها صفو الورع ؛ وذلك لما كشف عن قلوبهم ظلمة الأوهام والشكوك ، بصدق المجاهدة في فيافي السلوك ، فرأوا عجزاً من سواه عن إيصال ما يُرجى ، وذفع ما يُخشى ، وتعلقت مطامعهم فيمن بيده ملكوت كل شيء ، وإليه ترجع مصادر الأمور ، وبه تطمئن وجلات القلوب ، وعنده خزائن الخيرات ، ومفاتيح المرات ،

(١) كذا في النسخ : (لا حقيقة) ، والمعنى : عبوديته للأغيار والأغيارُ كلاهما لا حقيقة له في ذاته .

(٢) في (ب) : (سبب الغيب في ذلك) ولعل الأقرب للمعنى : سبب العيب .

ودفع المضرات ؛ دنيا وأخرى ، فأبسوا عن الأغيار ، وتحزروا عن رقي الآثار ، وكانوا له عبيداً ، فوجدوه واجداً مجيداً ، لطيفاً حليماً ، غافراً متفضلاً كريماً . . . إلى غير ذلك من صفات جماله ، وفضائل نعوته ومننه ، وسوايغ نعمه وغوامر رحماته .

ومن آيس عن الله ، وتعلّق طمعه بالأغيار ، وسأل مآربه ، وعلّق رغائبه ، وأنزل حوائجه بالخيالات المتوهّمة ، والآراء المتخيلة ، واستولى عليه رؤية الأعراض الكونية ، والظلمات الهوائية . . . ﴿ كَمَثَلِ الْأَعْمَكُوبِ لَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا وَقَالَتْ إِنَّهُنَّ أَبْيُوتَ لَبَيْتُ الْأَمْنَكُوبِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ولي في ذلك :

إن الطمّح يملك الحرّ الكريم إذا رام التوصل منه انحاز وامتنع
ومن يكن آيساً يأتي إليه كذا كل الذي كان في الأوهام ممنعاً



فلما نظر العارفون إلى الأغيار بنور اليقين تحقّق زوال نعيمها ، وذهاب ظراوتها ، واستمرار حلاوتها^(١) ، وواجههم الله بعظيم فضله ، وتجلّى لهم بجميل نعته . . لم تسترقهم الأكوان ، ولم تحكّم عليهم الشهوات ، بل تحزروا عنها ، وأعرضوا عنها ، وركبوا الفلوات ، وأنسوا بذكره ، وجعلوه عوضاً عن كل محبوب ، ونسوا في دونه كل مطلوب .

إذا سترتهم الغيايب . . افترشوا له الأقدام ، وتملّقوا له تملّق مؤانسة وإكرام ، وإجلال وإعظام ، فأفاض على قلوبهم مواهب الإنعام ، وخطبهم من أسرارهم خطاب حبيبٍ لحبيبه ، ودنو قريب إلى قريبه ،

(١) يقال : استمرّ المريض ؛ وجده مرأً .

فَعَادُوا الْأَكْوَانَ لِذَلِكَ ، وَخَرَجُوا عَنْ كُلِّ مَا يَعْوُقُهُمْ عَنْ خِدْمَتِهِ ، وَيَعْتَرِ
عَنْ نَيْلِ مَحَبَّتِهِ .

وَأَخْبَارُهُمْ مَأْتِيَةٌ ، وَحِكَايَاتُهُمْ فِي ذَلِكَ مَشْهُورَةٌ ، وَأَعْلَامُهُمْ
مَنْشُورَةٌ ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ بِطَرِيقِ الْمَحَبَّةِ وَالْمِنَّةِ ، لَا مِنْ طَرِيقِ الْاضْطِرَارِ
وَالْمَحَنَةِ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَرِيدُ تَوَجُّهَ عِبَادِهِ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْهُ الرَّحْمَةُ ،
وَأَفِيضَتْ عَلَيْهِمُ الْمِنَّةَ ، فَلَا بَدَّ وَأَنْ يُوَصِّلَهُمْ إِلَيْهِ : إِمَّا بِطَرِيقِ الْاِخْتِيَارِ ،
وَإِمَّا بِطَرِيقِ الْاضْطِرَارِ ؛ لِذَلِكَ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

مَنْ لَمْ يَقْبَلْ إِلَى اللَّهِ بِمُلَاطَفَاتِ الْإِحْسَانِ . . فَيَدِّ إِلَيْهِ بِسَلْسِلِ الْأَمْتِحَانِ

فهذا خطابٌ لفريقيين ، وبيان طريقيين .

أما الطريق الأول : هم أهل الإقبال ، الذين أقبلوا إليه بطريق الطوق والفرح ، وهم الذين استجابوا لله من غير توقُّفٍ ولا تعوُّقٍ ولا تعثُّرٍ ، كما أشار إليه بالإقبال ، والإقبال لا يكون إلا عن رضاً وفرح ، واستئناس وطرب ؛ وذلك لما أراهم من جميل وصفه ، وعميم فضله ، وسابق منته ، وتوالي نعمته ؛ فهم الشاكرون لله الذين تعرَّضوا لزيادة إنعامه ، وتوالي أفضاله .

وقوم آخرون لم يرجعوا إليه كذلك ولم يقبلوا ، وقد سبقت لهم من الله عناية ، قيدوا إليه بسلاسل الامتحان ، والقود لا يقع إلا عن قهر ، سيما بالسلاسل ؛ فإنها أبلغ في ظهور القهر ؛ إذ القود بالسلاسل أبلغ ما يقهر به المستعصي عن الانقياد ، فعبَّرَ بالمصائب وضروب المتاعب للمؤمن في الدنيا بالسلاسل ؛ ليردَّه إلى حضرته ، وليختصَّه برحمته ، « عجباً للمؤمن !! أمرُهُ كله خير له ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن » (١) .

وتلك السلاسل هي ما يبتلى به المؤمن في هذه الدنيا من المصائب في الأهل والمال ، والعرض وتغير الأحوال ، فتردُّه إلى الله بالتضرُّع والابتهاال ، وانكسار النفس بذلك ، وما ينالها من التعب ، ممَّا يُقْلُ زغبتهَا ويزعجها عن الركون والطمأنينة في الدنيا ، وفي ذلك غاية السعادة وجزيل الزيادة .

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩) بنحوه عن سيدنا صهيب رضي الله عنه .

فسبحانه من كريم ما أظفه بعباده وأرحمه بهم !! فلو تركهم وما
يحبونه .. لهلكوا هلاك الأبد ، كما يكون ذلك لأهل البعد ، حيث قال :
﴿ نُوْفِ إِلَيْهِنَّ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهَرَفِيهَا لَا يُبْحَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ .

فالحق سبحانه يستدعي عباده إلى عبادته ومحبه بدرور النعم
والأرزاق والعافية وملاطفات الأحوال ؛ فإن لم يجيبوا بذلك ..
دُعُوا مِنْ طَرِيقِ الْإِبْتِلَاءِ ، ﴿ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَتَقْصِيرِ مَنِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
وَالكَمَرَاتِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَيَتَّبِعِ الصَّابِرِينَ ﴾ أعقب ما ابتلوا به مع وجود الصبر بالشرى
والممدح من الله عز وجل ؛ كما مدح من قام بصنوف الطاعات ، ووظائف
الأوقات .

ثم بيّن قولهم ما هو الحال ، فقال : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ قَالُوا
إِنَّا لِلَّهِ ﴾ ملكاً وخلقاً وعبودية ، ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ في جميع الأحوال
والأقوال والأفعال حقيقة .

فانظروا ماذا حصل عليه من قيّد إلى الله بسلاسل الامتحان ، كيف
صاروا في مرجعهم إليه محوياً ؛ لا قولاً ولا فعلاً ولا وصفاً !!
وهذه مرتبة العبودية الخاصة ، فوصلوا إلى مقام الشكر ؛ وهو
رجوعهم إليه في جميع ما منهم ، وهذه طريقة السالكين طريق الترقى
في مدارج السلوك ، ومعارج الأحوال في بروج الوصال ، في سماوات
الأوصاف ، وكرسي القرب ، وعرش المستوى الرحموتي .



فإذا علمت أن ابتداء السلوك الصبر على مُمرّات كؤوس المجاهدة ،
وانتهاؤه الشكر على الكشف والمشاهدة .. عَقَّبَ ذلك بقوله شارحاً
لما أسلفه في الحكمة قبلُ ، ومبيناً لأحوال الشاكرين ، وحاتاً على ما
هو المطلوب الأعز ؛ وهو الشكر على النِّعم المُؤذَن بدوامها ، والجالب
لشئاتها ، فقال رضي الله عنه :

مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ .. فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا ، وَمَنْ شَكَرَهَا .. فَقَدْ
قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا

الشكر : هو الثناء ، إلا أنه أعم من ذلك ؛ إذ هو : الثناء باللسان ،
والاعتراف بالجنان ، واستعمال الأركان فيما هو المطلوب من خلق
الإنسان ؛ إذ قال عز من قائل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾
والشكر : موردُهُ عام ، ومتعلِّقُهُ خاص ، فالحمد بذلك الاعتبار فردٌ من
أفراده ^(١) ، وهو - أي : الحمد - بالضد من ذلك ، خاصُّ المورد ، عامُّ
المتعلِّق ^(٢) .

والشكر بحسب أحوال الخلق له ثلاث مراتب : شكر العموم ، وشكر
الخصوص ، وشكر خصوص الخصوص .

فالمرتبة الأولى : ألا تعصيهُ بنعمةٍ أنعم بها عليك .

والرتبة الثانية : أن تصرفَ جميع نعمه فيما خُلقت لأجله .

والرتبة الثالثة : أن يشغلك شهودُ المنعمِ عن رؤية النعمة .

والنعم : إما خاصة ، وإما عامة ، وإما ظاهرة ، وإما باطنة ، وإما
دينية ، وإما دنيوية ، وإما حسية ، وإما معنوية .

(١) وخصوصه : أنه لا يكون إلا في مقابلة نعمة ، وعمومُ موردِهِ : أنه غير مختص باللسان
كالحمد ، بل زاد عليه بالأركان - الجوارح - والجنان ، عرفاً لا لغة .

(٢) خاص المورد ؛ لأنه لا يكون إلا باللسان ، وعام المتعلق ؛ لعدم اختصاصه بالنعمة
ومقابلتها .

وبهذا يظهر : أن الحمد أعم من الشكر باعتبار المتعلِّق ، وأخص منه باعتبار المردود ،
والشكر أعم من الحمد باعتبار المورد ، وأخص منه باعتبار المتعلق ، فبينهما عموم
وخصوص من وجه ، يجتمعان في صورة ، وينفرد كل منهما بصورة .

فأما النعمة العامة . . فنعمتان لم يخرج عنهما موجود ؛ وهي :

نعمة الإيجاد أولاً بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، فذكرك ، ومن ذا يقوم بنعمة مَنْ ذكره قبل أن يذكر ؟! وأي عقل يقوم بشكر ذكر الحقِّ له وهو لم يكن ؟! وفي هذا الذكر دخل كل موجود توجَّه إليه الإيجاد ، بمجموع العلم البالغ والإرادة النافذة والقدرة الكاملة ، فأني نقص في هذه الأوصاف ؟! ومن أنت حتى تتوجَّه إليك هذه الصفات الكمالية بعد ذكر الذات لك ؟! ولو أخذنا فيما انطوت عليه هذه النعمة . . لاستغرق الوقت .

والنعمة الأخرى : نعمة الإمداد ؛ أي : الإمداد بالقيام على ممرِّ الأنفاس ؛ فما من نفسٍ إلا والحق سبحانه يمدُّ العالم - حسية ومعنوية - بإمداد بحسب مراتب الوجود ؛ فللروحانيين إمدادٌ ، ولأطوار الخلق : من إنس وجن ، وحيوان ونبات ، ومعادن وجماد . . إمدادٌ .

وتلك الأمداد : هي ما تلقيه الأملاك على دوائر الأفلاك ، وتتصل من الأفلاك بحسب اختلافها على مراتب عالم الملك ، والأركان الأربعة فلها أرواح أربعة ، على أربع مراتب من مراتب العالم الخلقى ، وكل عين من أعيان الحيوانات تلقى مجموع الأربع المراتب ، وهذه النعم العامة يكثر تعداد مراتبها ، ونسب استنادها ، وكل من وصل إليه شيء من هذه الأمداد ما عدا الثقلين . . فهو شاكر ؛ لأنه لم يضع ما وصل إليه في غير المراد منه ، فبقي مطالباً بالشكر لهذا النوع الإنساني ؛ لأنه الذي أعطي التصرف في الأشياء كيف شاء ، وركبت فيه طبائع أرضية ولطائف سماوية ؛ فالسما من شأنها الطوع والتمكُّن ، والأرض من شأنها الكره والتلُّون ، فما كان من الأفعال بالوضع السماوي . . فهو

الشكر ، وما كان من الأفعال بالوضع الأرضي الظلماني . . فهو الكفر .
وأما النعم الظاهرة : فما يعجز عن عدّها الحصر ؛ فمنها : ما هو في
تركيبك ، ومنها : ما هو في ترتيبك .

فمن جملة ما هو في التركيب : السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ،
وتسوية الخلقة على أعدل هيئة وأتم بُنية ، والحركة ، والسكون ،
والنطق ، وسائر نعم الجسم القائم بتركيبه ، وإيصال الأغذية ، وسائر
المنافع المختصة بالجسم .

وأما النعم الترتيبية . . فكالعقل ، والعلم ، والقابلية ، والأوصاف
القلبية ، والمقامات الروحانية ، والمراتب الملكوتية .

وأما الباطنة . . فما أدخره واستأثر به مما هو الأصلح ، وما اختص به
روحانيتك من بين الذرات في عمى الجهل وظلمة العدم ؛ من إلباسها
وتحليتها بفيض تجلّي أوصافه ، وأودع في تلك اللبسة سائر المقامات
الدينية ، وقابلها بجميع أسمائه ، فعرفته بكلّ مظهرٍ من مظاهر مراتب
الوجود ، فلم تجهله في كل مُعاین مشهود ، فتكون في كل ما تجلّى عليها
من الأسماء بحكمه ، لا بما يعطيها الطبع الحيواني والمشهد الظلماني .
وهذه النعم لا مطمع في إحصائها ؛ لأنّ تجليات الحقّ في مراتب
الوجود لا نهاية لها ، وقد علمت أن في كلّ تجلٍّ نعمةٌ : إما ظاهرة وإما
باطنة .

وتعبيره بالقيّد : هو إشارة إلى إدامة النعمة بوجود الشكر والمزيد
منها ، قال الله جلّ ذكره : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ؛ إذ ثواب كل
طاعةٍ غير ما وعد به من التضعيف والتنمية . . طاعةٌ أعظم منها ، فيكون
تضعيف في الظاهر بذلك ، وتضعيف في الباطن ما أدخره عنده ، حيث

يرببها كما يربي أحدكم فَلَوْه^(١) ؛ إذ القيد : هو ما يمسك به الشيء المغتبط به ، ولكل شيء قيد . وقيد النعم بالشكر لله ؛ لأن الملك إذا أهدى إلى أحد خاصته هديته ، وقبلها على أحسن وجه . وعمل بها فيما يرضى منه الملك عمله . . فحري أن يزيده من نعمه ، ويسدي إليه من منته ، وإن لم يقبلها كذلك ، ولم يصرفها فيما هنالك . . فما أجدره بالعقوبة !! وما أبعد عطايا الملك عنه !!

والعقال : هو أبلغ في الحفظ من القيد أو زيادة عليه ؛ فحيث لم يعصه بنعمه . . فقد قيدها ، وحيث أطاعه بها وصرفها في محاب سبده . . فقد عَقَلَهَا ، فهو أحرى بالزيادة ، وأجدر بعدم الانفلات وسوء الانقلاب .

والشكر على كل نعمة دينية أو دنيوية ، وإذا كان [على] النعم الدينية . . فالشكر من أجل النعم ، فلعمري ؛ لقد عجز العبد عن شكر الله إذا كان شكره لله نعمة تقتضي بانفرادها شكراً ، فغاية الشكر من العبد : أن يعترف بأن ما به من نعمة فمن الله .

وفي أخبار داوود عليه السلام : (يا رب ؛ كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك ؟ قال : يا داوود ؛ إذا عرفت ذلك . . فقد شكرتني)^(٢) .

فأبلغ الشكر : شكرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال : « لا أحصي ثناءً عليك ؛ أنت كما أثنيت على نفسك »^(٣) .

(١) روى البخاري (١٤١٠) ، ومسلم (١٠١٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - وإن الله لينقلها يمينه ، ثم يرببها لصاحبه كما يربي أحدكم فَلَوْه ، حتى تكون مثل الجبل » ، والفلو : الشُّهر ؛ وهو الصغير من الخيل .

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥٦/٦) عن أبي الجلد رحمه الله تعالى .

(٣) رواه مسلم (٤٨٦) ، وأبو داوود (٨٧٩) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

والكف عن استعمال الجوارح ؛ إذ هي من جملة النعم ، بل من أعظمها ، وصرف النعم في معاصي الله .. أول مراتب الكفر ؛ كما قررنا ذلك .

وشكر الوسائط أيضاً من الشكر ، قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر القليل .. لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس .. لم يشكر الله » ^(١) .

وشكر الناس ؛ بأن تدعو لهم في مقابلة ما أوصله الله من النعم على أيديهم ، أو دفع من الأذى على أيديهم كذلك ، وتراهم أسباباً نصّبها الله ، لا لهم ولا منهم ولا بهم .

والعبد : إما ينسب الأشياء إليهم نفعاً ودفعاً ويغيب عن الله .. فهذا شركٌ ظاهرٌ جلي ، ومن ثمرته : الذلة لهم ، وتحسين أفعالهم وإن كانت قبيحة ، فهذا نفاقٌ لا مربة فيه .

وإما رجلٌ مصطلمٌ لا يرى للوسائط أثراً ، ولا يشهد لها عيناً ، ولا يسمع لها خبراً ، غاب عن الأكوان ، ورأى أن ليس معه ثان ، فحجب عن الأكوان ، ولم يطلع على ما أودع الله في الموجودات من سرِّ القدرة ، وأبدع فيها من غرائب الحكمة .

والكمال يعطي هذا المقام على التمام ، فيرى انفراد الله في الأمر في سائر الأعيان ، فيشهد الوحدة في الكثرة ، والكثرة في الوحدة ، فلا تطفى حقيقته شريعته ، ولا تحجب شريعته ظهور حقيقته ، فالحمد لله على ما ألهم ، ونشكره على ما أنعم .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٧٨/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٦٩٨) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

ولي في ذلك :

الشكرُ قيدٌ ويجلبُ غائبَ النعمِ من لم يُقَيِّدْهَا فليقبلِ النقمِ

إذا علمت : أن الشكرَ قَيْدُ النعمة ، والكفران مفتاح النعمة . . كأنك
تقول : إنَّأ نرى من يتعاطى المعاصي ولا يعمل الطاعات تتزايدُ عليه
سوايغ النعمة !!

فاعلم : أن ذلك من علامات المكر ؛ كما قال المؤلف رضي الله

عنه :

خَفَ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ ، وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ . . أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ
 أَسْتِزْجَاً : ﴿ سَكَنَتْ رِجْلُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْتَمُونَ ﴾

الخوف : من أحوال المؤمنين ، والأمن : من صفات الغافلين ؛ فأرياب
 العقول يخافون من الاستدراج بالنعم أكثر ممَّا يخافونه بغيرها ، كما
 عرفوا ذلك من أحوال المبعدين ، وسيئما المطرودين ؛ حيث قال الله
 فيهم مخوِّفاً لعباده ، وزاجراً عن التشبُّه بأفعالهم ، ومحدِّراً عن الاقتداء
 بأحوالهم من الفرح بالأعراض الفانية الدنيوية ، والانهماك في الملاذِّ
 البشرية : (فلما فرحوا بما أوتوا)^(١) من النعم والحفظ العاجلة ،
 ونسوا الحقوق الربانية ، ونسوا بها الأقسام الآجلة . . ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ
 كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من المطالب الشاغلة عنَّا وعن أداء حقِّنا ، التي توصلهم
 إلينا ، ويؤدُّون بها حقَّ شكرنا ، فاغترروا بذلك ، وأنسوا إلى ما هنالك
 من الملاذِّ الفانية ، وقالوا : إن الله ما أعطانا هذا إلا وسيعطينا إن كان
 رجعتنا إليه .

فاستطالوا بذلك على الفقراء ، وظنوا أن الله ما أعطاهم وزوى الفقراء
 إلا لحظِّهم وهوان الفقراء ، فرغبوا عن طريق العبودية ؛ التي قطب
 دائرتها الافتقارُ إلى الله في جميع الأحوال ، والذلَّة التي هي مقتضى
 حال العبيد ، وتازعوا في أوصافه من الاستغناء والعظمة والكبرياء ؛
 فبذلك سَلَطَتْ عليهم دواعي الأهواء ، وانفتحت طرائق الإغواء ، فأخذوا
 أخذَ ذي قوة متين بغتة من حيث لا يظنون ذلك ، ﴿ فَإِذَا هُمْ مُتْلِسُونَ ﴾ .
 فانظر واعتبر ؛ فلو كان الذي يُعطى حظوظه الدنيوية أحظى ممَّن

(١) كذا في النسخ ، والمراد : قوله تعالى : ﴿ حَقَّقْ إِذَا فِجْرًا يَمَأُؤُوهَا لَمَذَمْتُمْ نَفَقَةً ﴾ .

يُنْعَمُهَا . . لانعكس الحكم ؛ بأن تكون أحوال المبعدين من الفجَّار والطغاة الكافرين أحسن من أحوال الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ؛ لأن أحوالهم في الأغلب العزوف عن الملاذِّ الدنيوية ، والابتلاء بالمحن في عموم الأوقات .

ولم يفعل ذلك معهم هواناً لهم ولا احتقاراً ؛ بل ليوقر لهم ما لديه ، وجبراً لقلوب الفقراء ؛ حيث سلك بأنبيائه وخيرته وأصفياهه مسلَّكَهُمْ ، سيما أعظمهم وأكملهم وأرفعهم لديه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال : « الحياةُ حياتكم ، والمماتُ مماتكم » (١) أي : حياتي حياتكم ، ومماتي مماتكم ؛ ليظهر عدله في كافة خلقه ؛ لئلا يظن ذو فهمٍ سقيم أن الأنبياء والأولياء ليسوا بشراً ، كما وقع لبعض من قوم عيسى ، فردَّ الله عليهم ما قالوا ، وأبطل ما حكموا ؛ بأن قال جلَّ ذكره : ﴿ مَا الْمَسِيحُ أَنْ مَرِّمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ .

فهذا ما يلقي في الفهم من حكمة ما يصاب به الأنبياء وأكابر الأولياء ، مع ما يريد أن يدَّخره لهم عنده ، ويزلفهم به من جزيل الكرامات ورفيع المقامات ، وهو يقدر على أن يعطيهم من غير ابتلاء ، ولكن يتعرَّف إليهم من سائر الأسماء ؛ ليشهدوه بكلِّ مشهد ، فلا يجهلونه في شيء ، فيصير في حقِّهم بهلذه المثابة عطاء .

وأما المُستدرجون - والعياذ بالله من وبيل استدراجه ومكره - فإنهم إذا عملوا سيئةً . . جِدَّدَ لهم حظُّ دنيوي ، وإذا عملوا حسنةً . . ظهرت بلية ، فيرون أن هذه البلية عقوبةٌ على هذه الحسنة ، وأن ذلك الحظُّ

(١) رواه مسلم (٨٥/١٧٨٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

الذي نالوه ثواب تلك السيئة ، فيخيل إليهم أن المشوبة في مقابلة
السيئات ، والعقوبة في مقابلة الحسنات ، فيثبت عندهم ذلك ، فهذا
من أشد وجوه الاستدراج والمكر ، أعاذنا الله من ذلك .

فمن هنا : اشتدَّ خوفُ الأكابر عند تجدد النعم الدنياوية عليهم ،
ودوام العوافي البدنية لديهم ، وعظم فرحهم بوجود المصائب وضروب
المتاعب ؛ وذلك لا من النقم من حيث هي نقم ، ولا للمصائب من
حيث هي مصائب ، ولكن لِمَا تَرَبَّبَ عليهن من العواقب ، فإذا لآخَ لهم
من هذا لائح .. طاشت العقول ، وانزعجت القلوب من خوف المقام
المرهوب ، ولي في ذلك :

خَفَّ كُلُّ إِحْسَانٍ يَسُدُّ بِهِ إِلَيْكَ عَلَيَّ مَا أَنْتَ مَجْتَرِحٌ مِنْ فَعْلِكَ الزَّلِيلِ
وكل مكرره نال العبد منه فلا يجزع لذلك إن المثل بالمثل



فإذا عرفت ذلك .. فاعلم : أن الإحسان الذي قد يكون به الاستدراج
والمكر : إما أن يكون من قبيل النعم الظاهرة ، فذلك ظاهرٌ قد يُبتلى
به عموم الخلق ، ويعرفه كلُّ أحد ، وإما أن يكون من قبيل الآيات
والعلوم والكرامات ، فهذا ممَّا يبتلى به المريدون وطوائفُ السالكين
المبتدئين ، وهذا أشدُّ من كل بليّةٍ غيره ، وأخفى مما ذكر من الابتلاء
بالنعم الظاهرة ؛ لذلك عَقِبَ بذكر هذا الصنف ، وأبلغ في كشفه ،
وحقَّق في وصفه ، فقال رضي الله عنه :

مِنْ جَهْلِ الْمُرِيدِ : أَنْ يَسِيءَ الْأَدَبَ ، فَتَوَخَّرَ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ ، فَيَقُولَ : لَوْ كَانَتْ هَذَا سُوءَ آدَبٍ . . لَقَطَعُ الْإِمْدَادَ ، وَأَوْجِبَ الْبِعَادَ ؛ فَقَدْ يُنْقَطُ الْمَدَدُ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنَعُ الْمُرِيدِ ، وَقَدْ يَقُومُ مَقَامَ الْبُعْدِ مِنْ حَيْثُ لَا يَذَرِي ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يُخْلِيكَ وَمَا تُرِيدُ

(من) هنا تبعيضية ، والجهل له وجوه ظاهرة ووجوه باطنة ، والجهل بمجموعه أقبح حالات العبد ؛ فظاهره حالات الكفار والعتاة الفجار ، وباطنه سيما المنافقين والضلال المغرورين .

والمريد : هو كلُّ طالبٍ لمقصدٍ أو مآرب ، وأشرف المقاصد وأحسن المآرب وأتحف الرغائب . . هي إرادة الله مجرداً من غير تعلقٍ بمطلب أو تشوُّفٍ لمآرب ، وقد يكون مريداً لما عند الله من الفضل ، وكلهم يشملهم اسم الإرادة ، وأحاطت بهم دائرة السعادة .

وخفاء الجهل في تحقيق الإرادة أولاً ، ثم تحقيق المراد ممّا يصعب ، إلا على أفراد المجذوبين ، وجهابذة السالكين المحققين .

والجهل : ظن الأمر على حقيقته واستقامته طريقته ، والتحقيق فيه على خلاف ما ظنه ، فجهل الكفار ظاهر ؛ حيث آمنوا بالطاغوت وكفروا بالله ، وجهل المنافقين حيث خادعوا الله بإظهار الإسلام والبواطن على خلاف الظواهر ، فجهلوا عموم العلم ، وأنه لا يعلم من خلق ، وعلى هذا المنوال من هذا حدوهم ممن يظهر خلاف ما يبطن .

وأتى هنا ببعض أحوال المرید في جهله ، والمرید يعزُّ عليه أن ينخرط من سلك الإرادة جملة ، ولكن يسيء الأدب ويَرِدُ موارد العطب ، وسوء الأدب : هو إتيانُه فعلاً حضره الله عليه تحريماً أو كراهة ، أو تركُ

أمرٍ ندبه إلى فعله وجوباً أو استحباباً .

والمريد إذا أبتعت له شجرة الأعمال ، وأشرقت عليه أزهار العلوم ، وبرزت عليه مخدّرات الأحوال من كمائم الوجود . . ربما يطول عند ذلك ، ويصول بوجود ما هنالك ، فيستفزّه الحرص على إظهار ما أودعه ، وإذاعة ما استودعه ، فيبرز قبل أوان بروزه ، فتجفّ عن وابل المريد أشجاره^(١) ، وتأفل عن مشاهد اليقين أنواره ، وتبقى عنده آثارٌ من تغني تلك الطيار ، ويأنس بما يجده من نسيم الأسحار .

فلا يزال يتمادئ به ذلك ، ويمتاز عن مواطن القرب ، ويدخل في مداخل السوء ، ويبعد عن لذيق الأنس شيئاً شيئاً من حيث لا يشعر ؛ فحيث لم يحجب جملةً واحدة . . فالحجاب شيئاً بعد شيء ، كما أن الكشف شيئاً بعد شيء ، كما جرت بذلك سنة الله ، إلا على الندور يكون الكشف في أقرب وقت ، كما يكون كذلك أيضاً السلب ، كما كان من الكشف لجماعة من المجذوبين ، وكان أيضاً من السلب لجملة من المحرومين ، وتسبب انجرار بعض الحجب إلى بعض : حتى تستولي جنود الظلمة ، فينقاد بقياد الهوى ، ويتبدخ بفضيح تقبيح الدعوى^(٢) ، واستحسن من حاله وأعماله ما يستوجب به البعد ، وكلما انكفأ عن رتبة . . وقع في ظلمة ، فثار دخان الهوى ، وشهد مقاله باستحسان أفعاله ، ورضي عن نفسه بعد أن كان لها متهماً ، وقام لها بعد أن كان قائماً عليها .

ويقول عند تعاطيه سوء الآداب المقصية له عن الباب : (لو كان

(١) في (أ ، ج) : (عن وابل المزيد أشجاره) بدل : (عن وابل المريد أشجاره) .

(٢) البِدْخ : تطاول الرجل بكلامه وافتخاره .

هَذَا سَوْءُ أَدَبٍ . . لِقَطْعِ الْإِمْدَادِ) وَقَدْ انْقَطَعَتِ الْأُمْدَادُ التَّائِيدِيَّةُ وَالنُّصْرَةُ
الرُّوحَانِيَّةُ ؛ فَلَوْلَا الْجَهْلُ وَانْطِمَاسُ نُورِ الْعَقْلِ . . لَمْ يُخَفَّ قَطْعُ الْمَدَدِ
عَلَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ ؛ فَالْمَدَدُ إِذَا تَوَالَتْ وَارْدَاتِهِ ، وَأَشْرَقَتْ أَنْوَارُ آيَاتِهِ . .
اضْمَحَلَّتْ عَنْهُ دَوَاعِي شَهْوَاتِهِ ، وَانْمَحَتْ مَظَاهِرُ صِفَاتِهِ ، وَتَلَاشَتْ
مَظَاهِرُ ذَاتِهِ ، فَكَيْفَ يَخْفَى ذَلِكَ عَلَيَّ مَنْ لَهُ أَدْنَى مُسْكَةٍ بِصِيرَةٍ !؟

وَتَأْخِيرِ الْعَقُوبَةِ مَعَ نَسْيَانِ التَّوْبَةِ ، وَالتَّمَادِي عَلَى الْأَخْلَاقِ اللَّثِيمَةِ
وَالْأَعْمَالِ الْمَلُومَةِ . . مِنْ دَلَائِلِ شِدَّةِ الْإِنْتِقَامِ ، وَالطَّرْدِ عَنِ الْمَقَامِ ، وَقَدْ
أَوْجِبَ الْبُعَادَ أَيْضاً ؛ فَالْبَعْدُ عَنِ اللَّهِ بِإِنْتِهَاكَ مَحَارِمِهِ ، وَالْجِرَآءُ عَلَى
جَرَائِمِهِ ، فَلَيْسَ مِنْ بَعْدِ الْمَسَافَةِ بِشَيْءٍ ، وَالْبَعْدُ عَنِ مَنَازِلِ الْإِقْتِرَابِ ،
وَالْوَسْمِ بِسَمَةِ الْأَجْنَابِ ، وَمَنَازِلِ الْإِقْتِرَابِ أَيْضاً لَيْسَتْ حَتِيَّةً ، وَإِنَّمَا هِيَ
مَقَامَاتٌ وَأَحْوَالٌ مَعْنَوِيَّةٌ ؛ مِثْلَ مَقَامِ التَّوْبَةِ وَالصَّبْرِ ، وَالْوَرَعِ وَالتَّوَكُّلِ ،
وَالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ ، وَأَحْوَالِ الْمَوَاجِيدِ ؛ كَالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ ، وَالْهَيْبَةِ
وَالْأَنْسِ ، وَالْمَحَبَّةِ وَالخَلَّةِ ، وَالمَعْرِفَةِ وَالقُرْبَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ
الشَّرِيفَةِ ، وَالمَقَامَاتِ الْمُنِيفَةِ .

فَمَا أَبْعَدَ مَنْ يَسِيءُ الْأَدَبَ مَعَ اللَّهِ عَنِ ذَلِكَ !! وَمَا أَقْصَاهُ وَمَا أَجْدَرَهُ
بِضِيَّةٍ مِنْ طَرَقِ الْهَوَى ، وَدَرَكَاتِ الْبَعْدِ وَمَهَاوِي الْإِغْوَا !!

قَالَ : (فَقَدْ يَقْطَعُ الْمَدَدَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ) وَلَكِنْ الْغَالِبُ شَعُورُهُ ،
وَلَكِنْ حِلَاوَةُ الْهَوَى تَحْكُمُ عَلَيْهِ ، وَلَا تَفْلَتُهُ مِنْ بِيَدِهِ ، فَيَتَحَسَّرُ ، وَيَسْخَرُ
بِهِ أَعْدَاؤُهُ ، فَلَا هُوَ يَقْدِرُ عَلَيَّ تَرِكَ مَا هُوَ مَلَابِسُهُ ، وَلَا يَنْسِي مَا كَانَ
مَوَانِسُهُ ، وَتَرْجِيئِي مِنَ اللَّهِ التَّوْبَةَ لِمِثْلِ هَذَا .

وَالْمُصِيبَةُ : أَنْ يَنْقَطِعَ عَنْهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ؛ كَمَا عَبَّرَ بِهِ الْمُؤَلِّفُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ ، فَيَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ الَّذِينَ صَلَّى سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رُحْمًا

يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٤﴾ ، وقوله : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ ، عافانا الله وأحبابنا والمسلمين من مكره واستدراجِه ، ولطفَ بنا وبهم كذلك فيما جرت به مقاديره وقضاؤه ، ووفَّقنا لما فيه رضاه ، وأذاقنا حلاوة محبته ، وأراحنا من مكابدة الهوى بجذبة وهبية ، ونفحةٍ لطفية .

روى الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراوي في كتابه المعروف بـ « العهود » : بأنه سمع منادياً يقول : إذا أردت ألا يمكرك بك . . فقل بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من المكر والاستدراج من حيث لا أشعر ، إنك جواد كريم » ثلاث مرات . قلت : ويحسن أن يقول في قوله : (من حيث لا أشعر) أن يقول أيضاً : (ومن حيث أشعر ؛ إنك جوادٌ كريم) .

ولو لم يكن من عقوبة مسيء الأذب إلا منع المزيد ، والتخلُّفُ في زمرة أهل التقليد وأهل العدد من العبيد . . لكفى بذلك له زاجراً ، فكيف وهو لم يقطع عنه المزيد إلا ويخلد إلى مألوف عاداته واتباع شهواته؟! فلا يبقى للعبد نفس إلا وهو في قُربٍ وازدياد ، وإما في تقاصٍ وابتعاد . ويبيِّن أنه إذا أخذ بالاستدراج . . يقام مقام البعد ؛ وهو ما وصفنا من اتباع الشهوات ، والتشرُّبِ في قلبه بحب العادات ، وينسى الترقِّي في المقامات ، والتلذذ بالواردات الموهوبات من حيث لا يدري ذلك ، ولكن على الندور ؛ كما في حال من قطع عنه المدد من حيث لا يشعر . ومقام البعد : هو قطع المدد الرباني والفتح الامتثاني نفسه ، وعبرَ في قطع المدد بـ : (حيث لا يشعر) ، وهنا في مقام البعد بـ : (لا يدري) ، وفرقٌ ما بين الشعور والدرية ؛ فالشعور أبعد عن الدرية ؛ لأن الشعور يعم الحسن والمعنى ، والدرية لا تكون إلا في المعنى ؛ فالشعور

قد يشعر بالشيء ولا يدريه ، ولا عكس ؛ أي : لا يدري الشيء ولا يشعر ، فكان عدم الشعور بقطع المدد أظهرَ على بُعد مَنْ قام به من عدم الدراية . والتخليةُ والنفسَ من أعظم المصائب ، فلو كان له عند الله قدم .. لم يخل وما يريد ، ولكان بمراد الله لا بمراد نفسه ؛ فعلامات المقرّبين : فراغ قلوبهم عن جميع إراداتهم في حركاتهم وسكناتهم ، إلا عند كل مراد ندبهم الحق إليه ، واجتناب منهجي زجرهم الحق عن الإقدام عليه ، فهم أشدُّ الناس اعتناءً ، وأكثرهم اهتماماً بذلك ، فالأدب : أساس مبنى الإرادة ، ومفتاح أبواب السعادة ، وكل اهتمام أهل الله وخاصته بتحقيق النظر في طريقه .

ولا أوفر حظاً وأعظم قسماً في ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذ الذي تولّى تأديبه وأحسن تهذيبه هو سيده ومولاه ؛ لذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أدبني ربي فأحسن تأديبي ، فقال : ﴿ حُذِرَ الْعَفْوُ وَأُمِرَ بِالْعَزْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْكَيْهَلِينَ ﴾ ^(١) ، كسائر الأنبياء ؛ فإن الله مؤدّبهم وولي تربيتهم ومهذبهم ، لكن لا كتأديب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله جمع له أدب جميعهم ، وخصّه بمزايا من الآداب ، ولطائف من التربية ، فقال عزّ من قائل بعدما عدّ أجلاء الرسل : ﴿ أَوْلِيَاكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُدَّتْهُمْ أَفْتِدَى ﴾ ، ولا يؤمر بشيء إلا ويقوم بما أمره به سيده . والمجدوبون والواصلون أيضاً من الأولياء قد يتولّى الله تربيتهم من غير واسطة ؛ كما كان الخضر حيث قال الله فيه : ﴿ وَعَلَّمْتَهُ مِنْ لَدُنَّا

(١) رواه ابن السمعاني في « أدب الإملاء والاستملاء » فاتحة كتابه من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً .

عَلَمًا ﴿ ، وبواسطة كما السادات الصحابة وسائر [الأئمة] (١) .

فالشيخ للجميع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأودع أسرار الآداب النبوية يوم برز للأرواح قبل ظهور الأشباح في ذرّات مخصوصة ، ألبسها حلّة من السرّ الرسالي ، وحلّة من السرّ النبوي ، وحلّة من السرّ الإيماني ، وحلّة من العلم الإلقائي ، وحلّة من العلم النقلّي والفهمي ، وحلاها بحلية الهيبة ، وزيّنها بزينة الأُنس ، ودرّعها بشعار الخشية ، وتوّجها بتاج المعرفة ، وبهاها بيهجة الجمال . . . إلى غير ذلك من مصنونات التفائس ، وفاخرات الملابس .

فلما برز صلى الله عليه وسلم إلى عالم الأشباح . . . خرج متحلّياً بكل حلية نفيسة ، ومتلبساً بكل لبسة أنيقة أريسة (٢) ، فلما نظرت الذرات إلى هذه الصورة الجامعة لمحاسن الجمال ، والمتدرعة بمدرة الجلال ، وعليها من كل زينة (٣) من مراتب الوصال لطيفة . . . تعشّقت تلك الملابس والتفائس إلى أصلها ، فعرفّت بعدما جهلت ، ووجدت بعدما فُقدت ، فتعشّقت إلى أصلها تعشق الحديد إلى المغناطيس ، فتعطفّت هذه الروح الكاملة عليها تعطف الوالد الشفيق على الوليد ، فشكّت إليه فرطاً البعد عن تلك المربع ، والتنائي عن الأوطان ، فقال لها : عندي لكم الدلالة والرجوع إلى أوجكم العليوي ، والتنزّه في مشهدكم الأقدس والمحل الأنفس ، وفتح لهم في كل رتبة باباً ، وأفصح لهم في كل مسؤولٍ عنه جواباً ، وقال لهم : اتبعوا هذه المقالة ، واقتدوا

(١) في النسخ : (الأمة) بدل : (الأئمة) .

(٢) الإرس : الأصل الطيب .

(٣) في (ج) : (من كل رتبة) بدل : (من كل زينة) .

بهذه الدلالة ، فقالوا : ومن لنا بعد أفول هذه الشمس المحمدية دليلاً ،
ولما نطلبه منيلاً ؟

فأبرز تلك الحقائق المودوعة من خباء أرض النفوس الطاهرة ،
وأشهدهم : أني قد استخلفتُ فيكم من يدلُّكم على طريقي ، ويهديكم
على محجتي ؛ « علماء أمتي كأَنْبياء بني إسرائيل »^(١) ، ومن قام
بالدعوة . . قام بالرسالة نائباً ، فكان الاقتداء بمن تحلَّى بتلك النفائس ،
وتلبس بتلك الملابس . . اقتداءً بالمستخلف .

وإذا نظرت علاماتها ، وطلبت دلالاتها . . وجدتها على أئمة الصوفية
لائحة ، وعلى ألسنتهم الآداب فائحة ، وبأحوالهم يترقَّى كل سالكٍ
أواب .

فكل من لم يأخذ من المرذبين بقي بطالاً ؛ وذلك لأنَّ جلَّ آدابهم في
التفتيش عن أخلاق النفس واتهامها ، ومن صدَّقها في دعواها ، وانقاد
بقيادها . . دعته - لا محالة - إلى مرادها ، فلا يقف على غوائلها ، ولا
يستكسب فضائلها إلا بالاقْتداء بإمام بصيرٍ بعيوب النفس ، ينظر بنظر
أولي البصائر ، المطلعين من الله ما تكُنُّ الضمائر .

فإن لم تجد من هذا وصفه . . فاجعل لك صديقاً دينياً ، وأديباً مشفقاً
هيناً ليناً ، فإذا وجدت فارغاً عن تهذيب نفسه ، متفرغاً لإصلاح غيره . .
فقد عثرت على كثرٍ جزيل ، ونعمةٍ سابعة ، ورحمةٍ صابغة ، فاشدد عليه
بديك ؛ فما أعزَّ من هذا وصفه ، وأغرب من هذا نعته !!

(١) انظر «المقاصد الحسنة» (ص ٢٨٦) ، و«شرح الزرقاني على المواهب» (٣٩٠/٧) ،
وفي «سنن أبي داود» (٣٦٤١) من حديث سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه : «العلماء
ورثة الأنبياء» .

فلا تغتر بكثرة الأعمال من غير آداب ؛ فإنها لا طائل لها دون التأدب
في الأحوال والأقوال والأعمال^(١) ، فمن اغترَّ بحالة صدرت منه من غير
اقتداء فيها بشيخ من مشايخ الطريق ، وإمام من أئمة التحقيق . . فقد
عدم التوفيق ، فكل من لم تجر أفعاله على يد غيره . . فهو مردودٌ من
حيث يظن الوصول ، ومن لا له شيخ . . فشيخُه الشيطان .

وإياك وصحبةً من ينتمي إلى الطريق من غير تحقق بآداب السلف ،
والسلوك على منوالهم ، واقتفاء آثارهم .

ومن سوء أذب المرید عذر النفس فيما يصدر عنها ، ومعاداة الأقران
لأجل استحقاقهم إياها ، ومنه : اتباع شهواتها ، وإجابتها إلى ما دعت
إليه من شهواتها ، وطلب المعاذير لها من الرخص في تناول مباحات
الشهوات ، وترك العزيمة ، والركون إلى الدعة والراحات ، والانهماك
في الحظوظ العاجلة من غير مبالاة ؛ فمن تتبع أحوال السلف ، ونظر
في سيرهم ، وشاهد أحوالهم . . علم يقيناً : أن كل مرید يطلب الدعة
والراحة ، ويترك الجهد والاجتهاد ، ويؤثر الملاذ الدنياوية . . أنه لم
يجئ منه شيء في طريق الإرادة ، وإن بقي على الطلب . . فعلى رسم
العادة .

فأول قَدَمٍ يخطوه المرید : الدنيا وما حوته ، والقدم الثاني : الآخرة ،
حتى يكون معشعش طائر روحه الحضرة الوصفية ، وفضاء طيران سرِّه
في فضاء الوسع الذاتي ، فمتى يكون له إلى هذا العالم الضنك التفاتٌ
فضلاً عن أن ينافس فيه ويطمئنَّ إليه ؟

وعوارض المرید فسي طريق إرادته كثيرة ، ومهالكه ومعاطبه أكثر

(١) الطائل : الفضل والغنى والسعة والعلو .

وأخطر ، سيما إذا كان مقيماً بين أظهر الخلق ، فمنها : الافتتان بطلب القبول عندهم ، والحشمة ، وقبول القول ، وارتفاع الصيت ، والإكرام ، والتبرُّك ، وقضاء الأوطار ، والاعتراض على الأقدار ، بل هي أعظمها ؛ لأنه استدراك على الجناب الإلهي ، ومنازعة في السرِّ الرباني .

ومنها : التسخُّط في الأفضية الجارية ؛ لأنه مناقضٌ للعبودية التي من أجلها أنزلت الكتب ودُوِّنت الصحف ، والركون إلى أبناء الدنيا الراغبين الأتنان ، والأحداث والنسوان ، الذين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجالستهم فقال صلى الله عليه وسلم : « إياك ومجالسة الأتنان » ؛ فإن صحبتهم مبدأ البعد والهجران ، ومبينة لأحوال الإخوان ، أهل الصفاء واليقين والصدق والإيمان ، وقد انعزل عن ميدان فرسان المجاهدة في طريق العرفان ، وركن إلى أوهام وآراء تخذله في مجالس أهل الصدق ، وتحقره عند مواجهة أهل الحق ؛ فما أقبح حال من استبدل بصحبة الصادقين والسادات المقربين صحبة البطالين ، والأغبياء المغرورين !!

وحالات الصادقين لا تعود من الصفاء في الأحوال ، والإخلاص في الأعمال ، ومبينة مرادات النفس إلى الظُّلْمة والتخليط ، واتباع هوى النفس . . إلا لطرود وعدم أهلية أزلية لمقام القرب ، وعدم إخلاص في ابتداء الطلب .

وكان من أحوال السلف : أنهم إذا وقفوا فيما يناقض العزيمة . . استأنفوا الإرادة ، وعدُّوا ذلك من أعظم ذنوبهم ، فيجددون له توبة ، ويتوسَّلون إلى رجوعهم إلى مواطن العزائم بمجاهدات وأعمال ، وتبدو لهم عقوبة الاسترسال مع الشهوات المباحة ، كما يعاقب

غيرهم على الذنوب المحظورة ؛ فالزلة في القرب تعدل سبعين زلة مع الحجاب^(١) ، وكانوا يؤاخذون نفوسهم على الخطرات ، وخفايا الخطيئات ، ودقائق النظرات ، ويحاسبونها على خفيات الشهوات .

فهؤلاء لا يَقْرُنُ اللهُ عليهم حسابين ، ولا يجمع عليهم عتابين ؛ لأنهم حاسبوا نفوسهم وأوقفوها بين يديه بالاختيار ، فلم يقم عليهم الحساب في مقام الاضطرار ، فلم يجمع اللهُ على عبده حسابين ولا موتين ؛ فمن مات عن الشهوات ، وطوى بساط اللذات .. لم تكن عليه إلا الموتة الأولى ، والوقاية من عذاب الجحيم ؛ كما وَقَّوْا الجَنَابَ الإلهي بنفوسهم ، وآثروه عليها .. وقاهم عذاب الجحيم ، فانظر قوله صلى اللهُ عليه وسلم : « موتوا قبل أن تموتوا »^(٢) .

فمن لم يفهم دقائق الخطاب ، ورقائق فحوى المعاني .. فليس من الإرادة في شيء ، فهَمَّنَا اللهُ عنه ، ورزقنا حسن التلقي عنه ، وجعل لقلوبنا في كل باب من أبواب التنزيل مفتاحاً ؛ إنه المفضل الفتح ، ولي في ذلك :

الجهل أقبح حال العبد يعرف من شم الوجود بنور العلم يا فطن
ولي أيضاً في ذلك :

إن الأديب بنور الله مقتبسٌ يدركهُ تأييد عون الله والمنن
ومن يكن ذا يقين فهو محترسٌ في حصنٍ أمينٍ من الأخطار والفتن
من ساء تأديبه فالنور مختلسٌ منه كما يختلس ثوبٌ عن البدن

(١) في هامش (ب ، ج) : « يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد ... الحديث » .

(٢) انظر « المقاصد الحسنة » (١٢١٣) .

قد كان محفوفَ أَلطافٍ ومحتسباً عنه العناضائر المفضي عن الوطن
فأصبَحَ كما يصبح الحيران مبتلساً ناءً عن الحي بعد الأُنس بالخدن



فهذا كله في حال المرید السالك ، وهذه الآداب من وظائفه ،
والسلوك والترقي حالة أكثر أهل هذه الطريق ؛ فلذلك لما عرف العارفون
ذلك . . نزلوا عن أعلى مقامهم الذي يعطي فناءهم عن أحوالهم وأقوالهم
وأفعالهم وصفاتهم وذواتهم إلى مقام المعاملة ، وتهذيب الأخلاق ،
ورائة محمدية ، تشريع لعامة السالكين مناهج الطريق ، وتبيين لمعالم
التحقيق .

ومقام المقربين لا يسوغ للمبتدئ الأخذ فيه إلا بعد إحكام أساس
طريقته ؛ لأن مقام الأبرار مقام شريف ، وهو عمدة السالكين ، ومقام
المقربين يقتضي أن ذلك سيئة حيث رأى نفسه ، فربما تقف على
أحوال أجلاء المقربين ، وأئمة العارفين والمخطوبين المحبوبين ، من
سيما أحوالهم ما يقلل عندك هذه المعاملة ، ويصغر في عينك ما
أقام الله فيه عامّة هذه الطائفة .

فاعلم : أن الكلّ محببون ، فلولا محبته وسابق منته . . ما استعملهم
في أصناف خدمته ، وأدام لديهم واردات موارد القربات ، ووعدهم عليها
جزيل المثوبات ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا رَأَيْتَ عَبْدًا أَقَامَهُ اللَّهُ بِوُجُودِ الْأَوْزَادِ ، وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ طُولِ الْأَمْدَادِ .
فَلَا تَسْتَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلَاهُ ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا الْعَارِفِينَ ، وَلَا
بَهْجَةَ الْمُحِبِّينَ ؛ فَلَوْلَا وَارِدٌ . . مَا كَانَ وَرِدٌ

إذا رأيت أيها المتفلسف في أحوال القوم ، ومتحزري الأحسن من
سالكهم فلا تخلو إما أن تكون من المقربين ، مملوكاً بك طريق
المحبوبين ، مخطوباً لمواهب العارفين ، متنزهاً في حظائر المجذوبين . .
فلا جرم أنك إذا رأيت ما هم عليه من البقاء بربهم ، وموافقة إرادته ،
والسكون تحت جريان مقاديره ، وما يفاض عليهم من غير طلب منهم ،
ولا مزيد تعب ، وطول نصب . . أنك تستحقق أحوال من يتحرزون في
طريق الأعمال بالتخلص عن رؤية الناس ، والتحرز عن ورطة الإعجاب ؛
وذلك لِمَا أبقى عليهم من رؤيتهم ورؤية ما منهم ؛ فلا ينبغي لك أن
تستحقق ما منحوا من دوام الأوراد وورود الإمداد ، فلو لم يكن وارد
من الله اختصاصي . . ما كان ورد .

وفي تلك الحكمة تسكين وتطمين لقلوب المريدين ممّا أزعجها من
عظيم العتب ، وخوف وبيل المكر ، فلا يكاد سالك إلا ويوجد منه سوء
أدب ، ومن الذي وفق الأدب مع الله حقه !؟

فتزعج القلوب لذلك ، وربما تستحقق الأعمال ، فلا تلتفت إليها ؛
لأنها لا تؤمن من دخول الآفات عليها ، فعقبها بهذه الحكمة ؛ تسكيناً
لانزعاجها ، وتقويماً لميلها واعوجاجها ؛ فاستحقق الأعمال جهلاً
واغتراراً ، وما يوجد به في طريق العارفين والمقربين ، والمحبوبين
المجذوبين إلا القليل ، وانتهاء سير السالكين ، ومحتد مقصد المريدين ،

هذا المقصد الشريف ، فلا بدّ وأن يوصل كل سالك مقصده ، وكل صادق محتده .

وأقل حالاتهم : الأجر الجزيل ؛ حيث قال الله فيهم : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، فقد غمر الجميع بعميم فضله ، وأحاطت بهم دائرة إحسانه وامتثانه .

والأوراد : هي أصناف وظائف العبادات ؛ من صلاة وتلاوة وذكر وسرد وهو الصوم ، وأفضل الأوراد البدنية : الصلاة ، وأفضل الأوراد القولية ذكر : (لا إله إلا الله) ، أو : (الله الله) ، أو : (هو هو) ، ولهذا في طريق الفتح والترقي في المعارج الروحية ، والبروج السماوية ، والمدارج النفسية .

وأما في طريق الكسب والتضعيف .. فيجمع فضائلها ويلئم متفرقها مجموع الباقيات الصالحات ؛ وهو عند العلماء : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيها فتح أيضاً ، وتقوية على الواردات الحقيّة ، يستعين بها من غلبته وقهرته ، وفيها من الفضائل الدينية والدينيّة والحالية والبرزخية والحشرية وللجواز ما لا يحصى كثرة ؛ فمن ذلك : كفاية الهموم ، وتفريج الكروب ، ودفع الغموم ، ومنها : الشفاعة ، ومنها : المحبة في القلوب ، ومنها : قضاء الحوائج الدينية والدينيّة والأخروية ، ومنها : البركة في الرزق ، وقرب المناسبة النبوية في المجالس العلوية ، والدرجات الفردوسية ، وغير ذلك كما صحت به الأحاديث ، وتركنا إيثار الأحاديث الواردة في ذلك ؛ لطول إسنادها ، وتعدد وجوها ،

وعِدَّ رجالها ، وليس هذا الشرح موضوعاً لذلك .

والاستغفار ، وقد ورد فيه أيضاً أحاديث منها : « من لزم الاستغفار .. جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً »^(١) ، وغير ذلك .
وأما الصوم .. ففيه من تنوير القلب ، وضعف حجاب النفس ، وإرغام الشيطان ، ومجازفة الأجر ممّا لا يرغب عنه إلا كلُّ بطالٍ متهاونٍ في الطلب لطريق الآخرة .

وأما الأوراد القلبية .. فكالفكر في باهر صنع الله ، ومحاسبة النفس على دقائق الخطرات ، والمراقبة على ممر الأوقات ، والمشاهدة للأرواح ، والاستغراق للأسرار .

والإمداد : هي هذه الوظائف القلبية ، والمشاهد الروحية ، والتنزّلات الوصفية ، فهذه هي الإمداد الواردة على أسرار العارفين وأرواحهم وقلوبهم من الله تعالى بلا علة في ذلك ؛ لأن هذه من باب الأحوال ، والأحوال وهيبة لا كسبية ، والأوراد من طرق الكسب ، والعبد مخاطب بالسعي فيها ، فتنسب إليه بحسب ورود الخطاب إليه ، وإلا .. فالكلُّ حقيقة من باب الوهب .

وعلامه أنه مرادٌ من الله بها - أي : الأوراد - إدامته عليها ، وحصول النتيجة ، ومن أقامه في خدمته .. فقد أظهر عليه آثار عنايته ، ومنحه سرّاً ولايته ، فلولا أنه من الله بمكانة .. ما أقامه في خدمته ؛ إذا أردت أن تعرف ما أنت عند الله .. فانظر إلى ما أقامك فيه^(٢) ؛ فإنه لا يختصُّ

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرى » (١٠٢١٧) ، وابن ماجه (٣٨١٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) كما سيأتي (ص ٣٦٣) في الحكمة (٧٣) .

لخدمته إلا صفوة برئته ، وأهل تقيته ؛ وهم أولو التقية الذين بنهون عن
الفساد في الأرض ، ولا نطيل في ذلك ؛ ففي الإشارة إلى بيان كلام
المصنف كفاية ، ولي في ذلك :

إقامة الله لك في الورد يا أنسانِ فضلٌ ومكرمةٌ من جُودِ مَنْانِ
لا تحقرن ما منخ من بزٍ وأحسانِ لولا العناية ما أهل لذا الشانِ

*

ثم أخذ في بيان حال الفريقين المسلوبك بهم سبيل التعريف ،
والمسلوبك بهم طريق التكليف ؛ وهم العباد ، وعامة السالكين الزهاد ،
فقال رضي الله عنه :

قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْحَقُّ لِعِزَّتِهِ ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُمُ بِمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ :
 ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَا رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَا رَبِّكَ مَطْطُورًا ﴾

(قوم) أي : جماعة كثيرة ، وهم : مَنْ قاموا من غير مقومٍ لهم من جنسهم ؛ لكثرتهم وغلبتهم ، وشدة استقامتهم على محبتهم ، (أقامهم الحق) وهو الله ، وإشارته بالحق لينفي الوسائط والأسباب ؛ لأن الحق : ما لا يبقى للباطل معه ذكرٌ في إيجادٍ ولا إعدام ، ولا إحجامٍ ولا إقدام ؛ بل يذهب ويضمحل ؛ قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ .

وأتى بلفظ الإقامة ؛ لأن القائمين في مقامات الخدمة لا يكاشفون بعدُ بطريق الاختصاص والمنة ، والإقامة فيها إشارةٌ إلى راحة فهرية ، وبقية أرضية ، فهم السالكون طريق التكليف ، يهدبهم بخوف سلطان جلاله ، ويرببهم بلطف تعطف جماله .

(وقوم اختصهم بمحبته ومعرفته) فالاختصاص من غير استحقاق وتقدُّم سبق طلب ، وهو من باب المنة واللطف والفضة ، ولا وسيلة لهم إلى ما اختصوا به إلا محضُ تكرُّمٍ بسابق المشيئة .

والمحبة أشرف خلعة ، وأرفع رتبة يختصُّ بها أفراد الرجال ؛ لذلك كانت نصيبَ الحبيب صاحبِ المقام المحمدي ، والمحبة لها مقام عظيم عند أرباب الكشف ، ومحبة الله فردانية ، لا مناسبة بينها وبين محبة الخلق ، كما لا مناسبة بين الله وبين خلقه ، ولا يزال يرتقى إلى الله والله يقربه إليه ، ويوالي الحق والله يتولاه ؛ فالحق نائبٌ عنه في عالم خلقته ، والعبد نائبٌ عن الله في ظهور حقيقته ، وهكذا .

والمعرفة : فرع المحبة للمحويين ، والمحبة : فرع المعرفة

للسالكين ، وبين علماء هذا الشأن خلاف في أن الأصل المعرفة ،
والمحبة متفرعة عنها ، وعند قوم : المحبة أصل ، والمعرفة فرع عنها ،
والحق - والله أعلم - : أنه ينظر في ذلك إلى ما أشرنا إليه من حالة
السالك والمجذوب ، والمحب والمحبوب .

والمحبة من الحُب ؛ وهو الإناء الذي يجتمع فيه الماء .

والمحبة تشير إلى رتبة الجمع ، وذهاب الأوصاف الحدثانية من
البصر والسمع ، وكلا الفريقين القاتمين بعمارة تَيْنِكَ الطريقين ممدودون
بالعطاء الرباني ، ومجموعون تحت تجلي اسم المعطي الصادر عنه كل
عطاء وهبي أو كسبي ، ﴿ وَمَا كَانَ عِظَّةَ رَبِّكَ مَحْطُورًا ﴾ ، فكلُ مريوبٍ له
عطاء مخصوص ، ونصيبٌ غير منقوص ، فلا حصر لعطائه ، كما لا
حصر لوصفه ، كما لا حصر لذاته ، ولكن التفاوت من حيث المعطون
لا من حيث المعطي ولا من حيث العطاء بالنسبة إليه ، فالكثير كالقليل
إليه ؛ لأن الوصف توجهٌ إلى الكل الحقيقير والخطير ، ولا تفاوت في
وصفه ، وإنما التفاوت من حيث مراتبُ المخلوقين من حيث نسبتُهُ
إليهم ، وهنا لوائح تلوح ، وروائح تفوح ، تشم من قوله عزٌّ من قائلٍ :
﴿ مَا تَرَىٰ فِي عَنَقِ الرَّحْمَنِ مِن نَّوْوَرٍ ﴾ من حيث نسبتها إلى الوصف وقبام
الرحمة بها ، فأضاف العطاء إليه وأتى بنون الجمع ؛ ليفهم ما رمزنا
إليه ، ويتحقق ما أشرنا إليه ، ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ .

فصدور مدد المجذوبين المحبوبين بتجلي وصفي ، وصدور عطاء
السالكين بتجلي فعلي ممزوج بمظهر خلقي ، علم ذلك من علمه ،
وجعله من جهله ، ولي في ذلك :

مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْتَعْرِيفِ قَامَ لَهُ كُلُّ الْوُجُودِ بِتَعْظِيمِ وَإِكْرَامِ

ونال من ربه ما لا ينال له إلا بتوفيقٍ مخفوفٍ بإنعام
ومن يكن في مقام الكد كان له إلى مقام الرضا والصدق إقدام
فالكل مشمولٌ والتوفيقُ نائله من رتبة أحسانٍ وإيمانٍ وإسلامٍ

وذلك لحكمةٍ منه بالغة ، لا لعلّة ولا بعلّة ، ﴿ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
يَسْأَلُونَ ﴾ ، فلا للعبد فيما يرد من الله تعمّل ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله
عنه :

قَلَّمَا تَكُونُ أَلْوَارِدَاتُ إِلَّا بَغْتَةً ؛ صِيَانَةٌ لَهَا أَنْ يَدْعِيَهَا الْعِبَادُ
بِوُجُودِ الْأَسْتَعْدَادِ

قَلَّمَا تكون - على الموجودين المحجوبين بالكون - الواردات إلا
بغته ؛ يعني غالباً إتيانها بغتة من غير ترئص وترقب .
والواردات : هي ما يردُّ على القلوب والأرواح والأسرار من الله من
الأنطاف والفتوح الوهية ، والمنوح الوقتية .
وهي : إما من طريق تجلِّي الأفعال ، أو من طريق الصفات ، أو من
تجلِّي الذات .

وهي أيضاً مختلفة التأثير ، واحدة المورد ، فمن الوارد عليه : من
يتجلَّى له الاسم البصير ، أو السميع ، أو العالم ، أو القادر ، أو الحي ،
أو المتكلم ، أو المرید ، أو من بقية الأسماء ؛ إما أسماء النعوت ، أو
أسماء الأفعال .

فإذا ورد الاسم البصير . . نفذت بصيرته لسائر المدركات
والمتخيَّلات ، والمعاني المتجسِّدات المتشكِّلات بالصور الحثيَّات .

أو ورد وارد تجلي الاسم السميع . . فيسمع كلَّ المسموعات بالحسِّ
والمعنى بسمع لا يشك فيه ولا يمتري ، بل يسمع نطق الجمادات ،
بفصيح التسبيح ناطقات ، وصرير الأقلام العلويات ، على الألواح
السفليات ، ويفهم سائر اللغات الكونيات ، والإشارات الغيبيات ،
وهكذا يسمع الخطاب الأزلي بسمع ثابت من غير أصوات حرفيات .

وكذا ورود تجلي الاسم القادر والمرید . . فتفعل له سائر المقدورات ،
وتمثل إرادته سائر المرادات المكونات .

وإذا ورد تجلي الاسم العالم . . يعلم كل المعلومات من حيث القَدْر اللائق علمه بالإنسان ، وهو علم كليات العالم لا جزئياتها ، والله أعلم ، فلا تعزب عنه علوم المكوّنات الملكيات والملكوتيات والجبروتيات ، ويعلم سرّ الكلمات التي ينفذ البحر لو كان لها مداداً ، والشجر لو كانت أقالماً دون إحصائها ، والوقوف على غايات نهاياتها ومبادئها .

وكذا المتكلم يفصح عن غرائب الكلم ومجموعها بتعبير قدسي ، ولسان أزلي .

وكذا الحي إذا ورد من تجلي الاسم الحي . . يحيي موات النفوس والجهل ، وكذا كل ما توجه إليه . . حَيَّي ، فتحيا به العباد والبلاد .

وهكذا اختلاف مواجيدهم باختلاف هذه التأثيرات ، وقد تتعاقب على الواحد هذه الواردات ، ويطلق له التصرفُ بسائر هذه الصفات ، وكذا إذا ورد وارد اسم نعت أو اسم فعل . . كان حالة من ورد عليه ذلك الاسم .

ولا تحصى الواردات ؛ لعدم حصر الأسماء التوقيفيات ، وما استأثر به على عالم الغيب والشهادات ، فلا تُحصى متعلقاتها ، ولا تنتهي آياتها ، ﴿ قَائِي آيَاتِ اللَّهِ تُكْرَوْنَ ﴾ .

ومن استودع سرّاً من هذه الأسرار ، وحظي بهذه الأنوار . . فعليه أن يصونها كما صانها الله عن دعوى العباد ، والصيانة : هي ستر الشيء النفيس الغالي ، ولا أنفس من مواهب الله ، ولا أعلى ولا أغلى من أسرار الله عند عباد الله العارفين ، فهي حريّة أن تُصان ، وتُكرم ولا تُهان .

والدعوى من جهل النفس المفطورة عليه ، فإذا وافق فعلٌ من الله إليها فعلاً آخر من أفعال الله قد ظهر عليها . فتجهلُ كونَ الفعل الأول من الله ، وتضيفه إليها .

وإذا وافق الفعلُ المتأخراً وجوده الفعلُ المتقدم . . نسبت الفعل المتأخراً إلى الفعل المتقدم ، ونسبت المتقدم إليها ، وجعلته أصلها ، وأضافت بعض الأفعال إلى بعض ، وهكذا تنسب الأول إليها ، وتنسب الثاني للأول ، فتظنُّ لعباوتها وجهلها أن الأفعال بها ومنها ، وهذا من الجهل المركَّب من جهلين :

فالأول : نسيانها بروز الفعل الأول من الله وهي بعدُ لم تكن شيئاً مذكوراً .

والجهل الثاني : حيث ظنَّت أن الفعل الثاني مستندٌ غير مستمد . والاستعداد : هو ما خلقه الله في كل فطرةٍ لما فطرها عليه من خير وشر ، فأعدَّ أفعال الخيرات وطهارة الأخلاق لظهور السعادات ، وردائل الأخلاق وقبائح الأعمال لما سبق من الشقاوة .

وبالإشارة إلى ذلك يقال : الطيبون للطيبات ، والخبيثون للخبيثات ، فلما قد جعل الله ذلك الاستعداد في سائر الذرّات . . لطف بعباده ، وتلطف لهم في إيصال ما منَّ به عليهم ؛ لئلا يوافق فعلُ الله الذي لم يلبسه المظهر الخلقي واللبس البشري ما قد لابسَه ذلك واستتر به ، وامتزج صريح بروزه من الله صرفاً بظهور الخلق المتوهم ، فيقوم الجهلُ الكامن فيدّعي أنه وجد ذلك باستعداده .

فأوردها الله بفتنةٍ رحمةً منه بعباده ؛ ليعرفوا بذلك عناية الله بهم ، وتمام نعمته عليهم ، وورود منته إليهم ، فيقزعون إلى الله بالشكر على

ذُلك ، فيزدادون من الألفاظ المتوالية ما لا يتناهى من الأضعاف ، ولي
في ذلك :

الواردات على حَسْبِ المواجيدِ لها مظاهر والمجموع توحيدِ
فلا ترد في مظاهرها بتوريدي لأنها من خزينِ الفضلِ والجودِ
فليس فيها سوى المنانِ محمودِ وكل غيرِ سوى المفضالِ مفقودِ



فإذا علمت أن المواهب النفيسة تُصان ولا تُذاع ؛ لأنها من أسرار
القدر والإبداع . . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيباً عَنْ كُلِّ مَا يُسْأَلُ ، وَمُعَبِّراً عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ ، وَذَاكِرًا كُلَّ مَا عَلِمَ . . فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ جَهَنَّمَ

إذا أردت أن تعرف حالك أين أنت من أهل العلم والأمانة ، أم أنت من أرباب الجهل والخيانة . . فاعرض نفسك على مثل هذه العبارة ؛ فالإجابة عن مصونات العلوم ، ونفائس المعارف ، ولطائف الحقائق ، وجواهر الدقائق ، وغوالي الرقائق . . لا يسمح بالإجابة بها لكل مَنْ سأل عنها من غير أهلها ، إلا إذا أريد التشويق إليها ، والدعوة بها بجواب يليق بالسائل ، ويحسن عنده طلبها ، ولا يجيب على غير هذه النية كلُّ سائلٍ إلا جاهلٌ بها ؛ إذ لو عرف قدرها ، وتحقق سرّها . . لضنَّ بها ، وغار على ظهورها ، فكل من عرف نفاسة شيء . . لا يسمح بظهوره ، بل يغيّبه ما أمكنه بتورية وتغيب وإن كان عند من يجله ، فترى الوحوش وسائر الحيوان يغيّب ولده ما أمكنه ؛ لأنه أنفس ما عنده ، وأحبُّ ما لديه .

(ومعبراً عن كل ما شهد) فالإجابة عن العلم على حقيقة ماهيته ، والتعبير عن الحقائق المشهودة ؛ لأنها لا يمكن تفهيمها على ما هي عليه إلا أن يعبر عنها إلى مشهود في الحسن ، والاعتبار من صفات أولي البصائر والاستبصار ، ﴿ فَاتَّبِعُوا بِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ؛ فالعبور عن مشهود حسي إلى كل غائبٍ معنوي . . شأن أولي النهي من كُمل العلماء ، والتعبير عن المغيبات بالحسيات غير منكور ؛ كما عبّر صلى الله عليه وسلم باللبن الذي رأى أنه شربه : أنه العلم^(١) .

(١) رواه البخاري (٨٢) ، ومسلم (٢٣٩١) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

والتعبير سيما كل عالم بصير ، وهو من شواهد التنوير على حاسة الضمير ، فإذا عبر عن كل مشهود من أسرار الوجود . . فقد تنطمس الحدود ، وترفع الستائر ، فتتكشف الأسرار المأمور بصيانتها ، المندوب إلى حفظها عن إذاعتها ، ولكن التعبير فيما يحسن عنه التعبير ، والسكوت عما يحسن فيه السكوت . . شيمة الأكياس ، ودليل على وفور العقل والأمانة والحفظ ، وضد ذلك بضده^(١) .

(وذاكرأ كلما علم) يتبذخ ويتمدح بما علمه ، ويطول بكل ما فهمه ، فيذكره في معرض الفخر بزيادة الفطنة ، وكمال القريحة ، وصحة الحافظة ، وتمام العقل ؛ فهذه صفات الجهال ، وطريق الضلال ، وأحوال العلماء بالضد من ذلك كله ؛ فإنهم كانوا يراعون فيها أحوال السائلين ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعي أحوال السائلين ، ويفصح لكل عما يليق به ، فكذلك العالم ينبغي له أن يتفرس أحوال السائلين ، ولا يفشي الأسرار ، بل يكون في الأمور الذوقية اعتماداً فيها الإشارة ؛ لأنها لا تفهم إلا بها ، ولا يدعي على الله الإحاطة بجميع المعلومات ، وأنى لك فيما سبق من قولنا : (إذا تجلئ عليه بوصف العلم . . علم سائر المعلومات الداخلة تحت حيطه الكون ، لا الخارجة عنه ١٤) (٢) ، فالعالم بأجمعه معلوم من معلوماته .

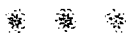
(١) وفي « منهاج العابدين » ، (ص ٣٧) عن زين العابدين رضي الله عنه :

إنني لأكتم من علمي جواهره	كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن	إلى الحسين وأوصى قبله الحسن
يا زُبَّ جوهر علم لو أبوح به	لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحلَّ رجال مسلمون دمي	يروون أقبح ما يأتونه حسنا

(٢) تقدم قريباً (ص ٣٤٩) في الحكمة السابقة .

وأيضاً فالعلم بذلك لا من حيث هو ولكن من حيث ما تجلّى عليه
 واستغرقه عن وجوده ؛ فالعلم باقٍ على وصفيته لله عزّ وجلّ لا لغيره ،
 وإنما ظهر على من تجلّى عليه إلا من حيث المقابلة والاستشفاف^(١) ،
 كما يقابل الصورة المرأة الصقيلة ، فتحكي الصورة من غير انتقالٍ
 للصورة عن ماهيتها ، ولا خروج للمرأة عن كونيتها ، وكلما ازدادت
 المرأة صفاء .. اختفى جرمها ، وظهرت الصورة ، حتى يظن من لا علم
 له أن الظاهرة الصورة مجردة من غير واسطة ، ويظن انعدام المرأة فلا
 وجود لها ، وكلاً ؛ إن المرأة على صورتها ، والصورة على ماهيتها ،
 وهنا قال من قال من أهل الشطح والاصطلام بما قال ، وفاه بما فاه ،
 وعلم من علم من أهل الكمال والتمكين ، فأعطى كلّ شيء حقه ، ووفى
 كل مستحقّ مستحقّه^(٢) ، ولي في ذلك :

ما كل مسؤول يُحسِن أن يجيبَ به نَعَمَ ولا كل تعبيرٍ بمشهود
 وكل معلومٍ فأذكره لطالبه وامنعهُ عن غيره أن الفضلَ محسود



وإذا رأيت أنك لم تظهر لك الكرامات ، ولم تسامحك المقدورات ،
 ولم تواتك المسرّات الدنياوية ، ووردت عليك صنوف المصائب وأنواع
 المتاعب والضرورات .. فلا تحزن لذلك ، ولا تهن لما هنالك ؛ لذلك
 قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) الاستشفاف : الإيصار من خلال الغير ، وفي النسخ : (الاستشفاق) .

(٢) وللصاحب بن عباد كما في « من فاب عنه المطرب » (ص ١٦٨) :

رَقُّ الزجاجة ورُقَّت الخمرُ فتشابهها فتشاكلُ الأُمُرُ
 فكأنه خمُرٌ ولا قدحُ وكأنه قدحٌ ولا خمُرُ

إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الآخِرَةَ مَحَلًّا لِحِزَابِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ
لَا تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ ، وَلِأَنَّهُ أَجَلَ أَقْدَارِهِمْ عَنْ أَنْ يُجَارِبَهُمْ فِي
دَارٍ لَا بَقَاءَ لَهَا

(إنما) هذه يؤتى بها للحصر ، والحكمة في تأخير الآخرة الصافية
عن المكدرات ، والسالمة عن التغييرات ، الدائمة المأمونة الانقطاع
والفناء ، وأخرها عن هذه الدار الموصوفة بهذه الصفات . . إلا ليجازي
بها عباده الخاصين به دون غيرهم ، الذين لم تستعبدهم الأهواء ،
ويجعلها محلاً لما أذخره لهم من الكرامة ، وأخفاه من قرّة الأعين ممّا
لا تسمعه أذن ، ولا تراه الأعين .

وذلك من أجل كراماته ، وأعظم عطياته : أَنْ أُخِّرَ الْمُسْتَحْسَنَ وَقَدَّمَ
الكرهية ؛ لتزول كراهته بوجود إراحته ، فكأنه لم تمسّ الضراء حيث
عقّبها بالسراء ، ومن عظيم عذابه ووبيل عقابه : أَنْ يُقَدِّمَ الْمُسْتَحْسَنَ
المستلذذ ويعقب المؤلم المستقبّح ، فكأن لم يكن ؛ لِمَا تقدم وجود
بالنسبة إلى المتأخر عنه ^(١) ، كما ورد ذلك : « إن أشد الناس بؤساً في
الدنيا من أهل الجنة يغمس في الجنة غمسة ، فيقال له : ابن آدم ؛ هل
مرّ بك بؤس قط ؟ هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا ، وعزّتك وجلالك
ما مرّ بي بؤس قط ، ولا رأيت بؤساً قط ، وإن أنعم أهل الدنيا من أهل
النار يغمس في النار غمسة ، فيقال له : يا بن آدم ؛ هل مرّ بك خير
قط ؟ هل رأيت خيراً قط ؟ فيقول : لا ، وعزّتك وجلالك ما مرّ بي خير

(١) يعني : تقدّم المستقبّح على المستحسن صيره كأن لم يوجد أصلاً .

قط ، ولا رأيت خيراً قط . . . » الحديث ، أو كما قال (١) .

وسُميت الدار - والله أعلم - لأنها دورةٌ من دورات الفلك الأطلس ؛
فله دورات عرشية ، ودورات سماوية وملكوّية ، ودورات أرضية شهادية
ملكية دنياوية ، ودورات برزخية خيالية ، ودورات أخراوية نشرية
حشرية تحقيقية ، ودورات حسابية ، ودورات صراطية جوازية ، ودورات
ديمومية : خلدية فضلية ، أو نارية عدلية ، ودارات جمالية ، وتجليات
كشفية ، لا تتناهى دوراتها في العوالم الوصفية ، والخزائن الرحموتية ،
واليها الانتهاء : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَزْوَاجًا حَقْنِي يُؤْمِدُهُ ﴾ .

ولو أخذنا في بيان تدوار هذه الفلك في الأطوار . . . لانقضت
دون الوصول إلى بيانه الأعمار ؛ لأنه لا حدّ لمبتدعات الأقدار ، من
ابتداء نقطة هذا البيكار ، إلى منتهى ما إليه استدار ؛ لأن منه دورات
ظلمات ، ودورات أنوار ، ودورات أرزاق ، ودورات أعمار ، ودورات
سعادات ، ودورات شقاوات ، ودورات هواء ، ودورات ماء ، ودورات
ضياء ، ودورات شتاء .

والدار واحدة في الكثير والقليل ، والكبير والصغير ، والحقير والخثير ،
حتى رأيناها مستغرقة جميع الذرات ، والحركات والسكنات ، والخطرات
والنظرات ، ابتداءً وانتهاءً ، ورأينا في ذلك الفلك أن الحركة الواحدة
كسائر حركات الوجود من ابتدائه إلى انتهائه على حد سواء ، وأصغر
الموجودات كأكبرها ، وأحقرها كأخطرها من حيث النسبة الدورية ؛ وهو
سرُّ قوله عزّ من قائل : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْزُبُكُمْ إِلَّا كَفَّيْنِ وَوَجْدَةً ﴾ .

ولم أقف على من أفصح بعلم هذا التدوار ، ولا من أظهر منه هذا

(١) رواه مسلم (٢٨٠٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

المقدار ، إلا أن إشارات الإمام الطائي الحاتمي تشير إليه ، وتوصي
 بطريق الإشارة ، وكذلك أكابر الأولياء عند إمعان النظر في إشاراتهم
 تَسْمُ عبيره ، وتظهر تباشيره ، وترفع أساريره ، وعندما ظهر لي لمحة
 بارقة من علم ذلك . . كاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار ، وعند انتهاء
 كل دارة تظهر عجائبها ، وتبدو محاسنها من قبائحها بصورة الدارة التي
 تليها ، ثم بصورة الدارة التي تلي التي تليها ، وهكذا حتى تنتهي إلى
 نهاية محتدها ، وابتداء دارتها .

وسمي جزاء لإجازة ذلك العمل على وَفَقِه كائناً ما كان ؛ لأن كل
 دورة تدور في مجرتها ، وتسعى في مجرتها ، وأصول الدارات : دارتان
 صادرة عن دارة ، وتشعبت من الداوثر داوثر ، وخلق دارة فضلية نورانية
 جمالية ، وخلق أعمال مرضية ، وأرواح جمالية لُطْفِيَّة ، وخلق دارة
 برزخية جامعة للراحة والتعب ، والوسع والضيق ، والظلمة والنور ،
 والصفاء والتكدير ، وغير ذلك من الأضداد ، وخلق محل تمييز يميز فيه
 الخبيث من الطيب .

وخلق دار فضل ونعمة ، ودار عدل ونقمة ، فأجرى الأرواح الجمالية
 الصافية السماوية في مجرة الفضل في الأعمال المرضية والراحة
 البرزخية ، وميزتها في المحالِ الطيبية في دار الفضل والنعمة ، وجرت
 الأرواح الأرضية الظلمانية بالمعكس من ذلك ؛ إنما هي أعمالكم تردُّ
 عليكم فتجوزون تلك المجرات ، فتجوزون هذه المسرات ، وإما أن
 تجوزوا في مفاوز الهلكات ، في بروج النحوس والشقاوات ، فتجوزون
 هذه العقوبات ، والنكال وسائر المؤلمات الجلايات ، ﴿ قَالُوا نُجِزُونَ
 عَذَابَ آلِهَتِنَا بِمَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .

فكل بجزائٍ بوفقه في المقام الأخرى ، ويظهر عليه تعبير المثال
الديني بالعمكس مما كان عليه في الدنيا ؛ فالكبر جعله بالهوان ، والذل
بالعز ، وقس على ذلك سائر الأفعال في الدنيا يعبر عنها إلى تأويلها
في الدار الآخرة .

وقد جرّ سفينة الخضر طوفان المظهر الحقي ، في بحر العلم الإلهي ،
الذي لا ساحل له ولا غاية يوصل إليها ، فلنرجع إلى شرح كلام المؤلف
رضي الله عنه حيث قال :

([إنما جعل] الآخرة محلّاً لجزاء عباده المؤمنين ؛ لأن هذه الدار
لا تسع ما يريد أن يعطيهم) لضيقها وكدرها ، وما هي عليه من التغيير
والانقلاب ؛ لأنه ورد : أن آحاد المؤمنين في ملك واحد منهم مسيرة
سبع مئة عام ؛ هذا لأحاديهم ، وأما ساداتهم .. فما لا يصفه الواصفون ،
ولا يحيط بعجائبه المعبرون .

(ولأنه أجلّ أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها) إذ لم
يجاز فيها إلا أعداءه ، ويزوي عنها أوليائه إكراماً لهم ، وإدامة لتنعيمهم ؛
لأن الدار الآخرة هي مستقر النعيم ، وفيها دوامه ، وبها تمامه ، ولأنها
مأمونة الانقلاب ، بل متزايدة المسرات ، ومتواترة البركات ؛ لذلك
أدّخرها لجزاء عباده ، وصرف عنها أعداءه ، وجعل جزاءهم في الدار
الفانية الحقيرة قليلة الجدوى ، كثيرة البلوى ، ولي في ذلك :

جزا العباد في الأخرى يُسرُّ به مَنْ كان لله في الطاعات مجتهدا
ينال من ربِّه الإكرام مطلبه أن يشهد الله جل الواحد الصمدا
أخر جزا عبده كيما ينال به في جنة الخلد جار السادة الشهداء
وأكبر الكرامات وأرفع المقامات : النظر إلى وجه الله ، وتعظيم الله ،

حيث يسميه باسمه ، ويرسم إليه رسمه ؛ كما ورد : أن العبد المؤمن يأتيه مكتوب من الله عنوانه : من الحي الذي لا يموت ، إلى الحي الذي لا يموت ، فإذا فتح الكتاب . . وجد فيه : عبدي ؛ اشتقت إليك فزرتي ، فيقول : هل جئت بالبراق ؟ فإذا ركب البراق . . غلبه الشوق ، فيحمله الشوق ويتخلف عنه البراق إلى بساط اللقاء^(١) ، ولي في ذلك :

إن البراقَ براقُ الشوقِ يحملُ مَنْ نأى عن القُرْبِ فاستدعاه مولاهُ
ومن يكن دأبه الكأس اللذيذ فمن دنوه يدنو ويدنو منه إياهُ
يدار لهُ خمرة السّاقى العقار إذاً من غير مزج شهّي الوَضلِ يهواهُ
فكأسه الوصل إن حَقَّقَتْ ذلك لمن حظي به فيه والمشروب معناهُ
بارئداً للحِمَى المعهود صوب حياً استمطرت من سحب الإسم محياهُ



فالعمل شجرةٌ طيبة ، وثمرته وجدان سرِّ ذلك العمل ؛ إما من طريق الإيمان ، وإما من طريق العيان ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) تفسير القرطبي (١٩ / ١٤٤ - ١٤٥) ، غيث المواهب (١ / ٢١٦) .

مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلاً .. فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْقَبُولِ آجِلاً

الوجدان مختلفة ؛ فمن وجدان في الأعمال بطريق الإيمان على صدق الوعد بالموعود ، فيسهل لديه عسيره ، وتهون عليه وعوره ، ويتحقق لديه ظهوره ، ويشرق عليه نوره ، وإما بطريق الشهود والعيان ؛ فتتكشف له ستوره ، وتستولي عليه تباشيره ، وتزفُّ إلى العامل عرائشُه وحوره ، وتتغشاها أنوار القرب ، وتشوقه لوامع الحب .

وأول ذلك : مكابدة ومجاهدة ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، وهو طريق الفناء فينا ، ونعوضهم بما ذهب منهم معيّننا ، ونشهدهم حسنا وإحساننا ، فنصفهم به ، ونجعله لهم نعتاً ، فنعتهم محسنون ؛ وذلك لما ظهر عليهم من حسن معيّننا التي لم تبق عليهم من أوصافهم وصفاً ، ولم تدغ فيهم من رؤية نعوتهم نعتاً .

وورد في ذلك : إذا أخلص العمل لله ، ولا يقبل الله إلا ما كان له خالصاً ، مثل قوله في الحديث : « من أخلص لله أربعين يوماً .. جالت روحه في الملكوت الأعلى ، وعادات بطرائف الحكم ، فنطق بها قلبه على لسانه »^(١) .

فهذا من ثمرات العمل المقبول ، ولا يقبل الله إلا من المتقين ؛ لذلك قال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ كُرْهُهُ ﴾ ، فهذا من ثمرات التقوى ، والتقوى : منها ما هو عمل ، ومنها ما هو علم ، والكل عمل ، وقوله صلى الله عليه

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٠١٤) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١٨٩/٥) عن سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .

وسلم : « من عمل بما علم . . ورثه الله علم ما لم يعلم » (١) ، وإذا علمت أن ليس ثم ثمرة للعمل إلا العلم اللدني ، الذي يظهر لك به وجه الصواب في كل عملٍ وحالٍ من الله بلا تعلم ولا تعمل ، بل يكون الحق لصاحبه يداً ومزيداً ، وقلباً وعقلاً . . فهذا وما شاكله من ثمرات العمل المقبول .

ولا بد لكل سالكٍ في ابتدائه في الأخذ في العمل من كلفة ، وتجشم تعب ومشقة ، ثم تعقبه الراحة والمسرة ، والشمر لا يُوصلُ إليه إلا بعد حركات حسيّة ، وتدبيرات معنوية ، يعجز عن الوصول إلى الثمرة من لم يتحمّل العناء في غراس الشجرة ، وهذا معروف لا يمتري فيه ذو قلب سليم ، وعقلٍ سالم ، بل شواهد في الحسّ ظاهرة ، وأمثاله على الأعمال في المحسوسات متظاهرة .

ومن عمل ولم يجد لذلك ثمرة ، ولا للإقبال على الأعمال مسرة ، ووجد ضد ما يطلبه ، ولم يصابر الأعمال على ممرّ الأحوال . . فليفتش عن إخلاصه في عمله ، ولينظر فيما يقتضي الرد عليه من أحواله ؛ فإنه منه أُتِيَ ، وليجتهد في التفتيش على دسائس الأعمال ؛ فإنه ربما كان ذلك في اعتقاد في الله غير موافق لما هو الصواب عند أهل الحق ، أو في شيء مما يوجب رد عمله عليه ، أو في الأعمال مما يحبط الأعمال ؛ كالقيام على حالة من أحوال الضلال في الأعمال والأقوال ، فإن ردائل الأحوال واجتراح الأوزار ترتدُّ به الأعمال ؛ كما ورد في حديث معاذ : « إن عمل العبد يعرض على أهل كل سماء ، فيرد بذنوبه ؛ حتى يعرض على الله ، فيرد بعدم إرادته به وجه الله » (٢) .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٤/١٠ - ١٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » كما في « إتحاف السادة المتقين » (٢٦٦/٨) .

فانظر ذلك وأمعن النظر فيما برؤ عملك عن القبول الذي توجد به ثمرات الأعمال ، وتزكية الأخلاق ونمو الأحوال ؛ فإنه ربّ ذنبٍ يحرم قيام ليلة ، وربّ ذنبٍ يحرم قيام سنة ، وربّ كلمةٍ تقلدُ عنه باباً لم يفتح ذلك الباب إلا بالنزوع عنها^(٣) ، وتبديلها بضعها ، ولربما لم يعد إلى ما كان عليه قبل ذلك ؛ فإن الكتاب على البيضاء قبل أوقع من الكتاب فيه بعد المحو من السواد ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ .
ولا أعظم من الافتتان بالأكوان ونسيان مكوّنها ، والحجاب بالأعيان عن مبدعها ومعينها ، وأول الفتنة - أعادنا الله وأحبابنا وسائر المسلمين منها - مخالفة الأمر .

فيا إخواني ؛ إياكم وإياها ، فمخالفة الأمر مصارمةً ومقاطعةً للأمر ، فماذا يجد من قاطع الله وصارمه ؟! فهذه نفثة إلقائية ألقتها المفضل الوهاب على قلب عبده ، وأبداها على شهادته وأجراها على يده ، ولي في ذلك :

فَمَنْ وَجَدَ ثَمْرَةَ الْأَعْمَالِ عَاجِلَةً فليحمد الله أهل الفضل والمِنَّينِ
عنايةً الله في الإنسان حاصلةً فيما تقبله من سرٍّ ومن علنِ

ومن جملة ثمرات الأعمال : إدامتها عليك ، والاعتباط بها ، والمصارعة إليها ، والنشاط فيها ، وإذا كنت كذلك .. فاعلم : أنك عند الله بمكانة ، وأنه قد رضيك لخدمته ، واصطنعك لنفسه ، واصطفاك لمحبتة ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(٣) قوله : (تقلد عنه) أي : تعلق .

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ . . فَانظُرْ فِي مَادَا يُقِيمُكَ

إن أردت أيها المرید ، والطالب المستفید أن تعرفَ قدرک عند الله ؛ هل أنت ممن اصطفاه وأحبَّه وقربه ، ورفع ذكره وأكرمه وأعزه ، أم أنت ممن أدلَّه وأهانته ، وحرمه وطرده ، ورسمه في جريدة أعدائه ؟ . . فانظر ؛ فإن لكلِّ فريقٍ علامة ، ولكل قوم مقامه ؛ فعلامه فريق الكرامة طريقُ السعادة ، وعلامة فريق الإهانة والبعد طريقُ الشقاوة ، والطريقتان معلومتان .

فالسعادة : هي الأعمال الموافقة للأمر المرضي ، واجتناب النهي المفضي ، وقد ورد في الحديث : « من أراد أن يعرفَ منزلته عند الله . . فلينظر منزلة الله عنده »^(١) .

فإن كان الله معظماً ومكرمًا ، ولأوليائه محبباً وموالياً ، ولأعدائه مجانباً ، وعن مناهيه متباعدًا ، ولنعمائه شاكراً ، وبمئته معترفاً ، وعلى صروف قضائه صابراً ، وعلى كل ما يقربه منه مثابراً . . فليعلم أن الله له معظم ، ولقدومه مكرم ، وعن كل ما يكرهه صارف ؛ فإن الله يوفي عبده بما عامله : ﴿ هَلْ بَرَكَاتٍ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ .

والكل حقيقة من الله ابتداء ، وإليه يعود انتهاء ؛ فهو المتفضل بما عامله به عبده ، إذ هو الذي أوجده ووفقه وأعانه ، وتقبله وأهله ، ومنه جزاءه في دنياه وآخره .

وإذا كان العبد عن طاعات الله متباطئاً ، وإلى معاصيه مسارعاً ،

(١) رواه الحاكم (٤٩٤/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٢٥) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .

ولمحارمه منتهكاً ، وبأوليائه مستهيناً ، ولأعدائه موالياً ومكرماً . .
فليستدل بذلك على أنه عند الله مهان ، وبعلامة البعد موسوم ، وعن
الخيرات محروم ، ما لم يتداركه بتوبة وعفو وغفران ، وهو المرجو من
فضله أن يهدينا ويعفو عمَّا نحن عليه من الجرائم ، وانتهاك المحارم ،
وأن يوفقنا لمرضاته ، ويسلك بنا طريق خواصِّ أهل تقاته ؛ إنه الجواد
الكريم ، البر الرحيم ، وكذلك سائر أحيابنا ومشايخنا وسائر المسلمين ،
ويجنبنا وإيَّاهم مضلَّاتِ الفتن ، ويقينا من شؤم المعاصي وضروب
المحن ، ولي في ذلك :

إذا أردت أن تقف يوماً على قدر

هل أنت من أهل قُربِ الله في الأزل

فانظر إلى ما يقيمك فيه مقتدرًا

من فعل مكروه أو من خالص العمل

إن العلامة تُظهر كلَّ مستتر

في طبي مكنون ما قد كان في الأزل

فمن يكن في طريق الخير منتشرًا

فذاك محبوبٌ مثل المثلِّ بالمثل

ثم قال متمماً لما قدَّمه ؛ لكلا يفتنُّ ذو رأيٍ ضعيفٍ بالطاعة دون الله

تعالى ، فلذلك قال :

مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ وَالْغِنَى بِهٖ عَنْهَا .. فَأَعْلَمُ أَنَّهُ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَةً
ظَاهِراً وَبَاطِئاً

متى رزقك أيها الطالب والمتعبّد الآيب الطاعة ؛ وهي كل أمرٍ محبوب موافق مرضي ، والطاعة : رزقُ القلوب ، ورزقُ الأرواح : مشاهدة المحبوب ، ورزق الأسرار : الاستغراقُ في متلاطّات بحار الأنوار ، ورزق النفوس : بمستلذّات الأطعمة .

والطاعة : هي رزق القلوب السماوية ، والنفوس الزكية ، والطعام : رزق النفوس الأرضية الحيوانية ، ومتى رزقها ورزقك الاستغناء به - وهو رزق الأرواح - هو الاستغناء به عن كل شيء ؛ لإقبالها عليه دون كل شيء ، وهو الفناء به عن الأشياء ، وهذا هو العبادة الظاهرة ؛ أي : الطاعة ، والاستغناء به هي العبودية باطناً ، وهذا المطلوب من العبد ؛ أن يكون قائماً لله ظاهره بما يقتضيه الأمر ظاهراً ، فانياً عنه باطنه بما يقتضيه الحق باطناً ؛ فإذا كان كذلك .. فقد أكمل الله عليه نعمته وأسبغها ، وأفاض عليه منته وأوسعها ، ومع العلم بذلك يكون له شاكرًا ، ولآلائه ذاكرًا ، فيستحقُّ المزيد مما لديه ، ومع الجهل بذلك ربما ينسى الشكر على هذه النعم الجليلة ، ولا يذكر هذه المنن النبيلة ، فيتعرض لسلبها ، ولي في ذلك :

رزق القلوب في الطاعات يعرف ذا من كان ذا قلبٍ للعلية مخطوباً
متى رزقُ ذلك فليعلم بأن إذا^(١) ما قام بالشكر صار الخير مجلوباً



(١) في (ب) : (بأن ذا) بدل : (بأن إذا) .

وهذه من أجلى نعم الله على عبده ؛ حيث أقامه في عبادته ، واختاره
لخدمته ، وشغله به عن رؤيته ، فكان لله ظاهراً وباللّه باطناً ، وهذا هو
مطلب الصفوة الأخيار ، والنجباء الأبرار ؛ لأن خير ما عندهم أن يقيمهم
في خدمته ، ويسلمها عن الآفات القادحة فيها .
ومن كان حاله الاستغناء باللّه عن الأشياء .. فقد سلمت عبادته ،
وتمت استقامته ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ . . مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ

خير مطلبٍ للعبد من الله : أن ينال رضا سيِّده ، ورضاه متعلِّق بطاعته بشرط سلامته عن محبظاتها ، فليكن العبد لذلك مراعيًا في جميع أحواله وأعماله وأقواله ؛ لينال رضا ربه ، ورتبة القرب منه ، التي إليها تطاولت أكابر الأنبياء ، وسادات المقربين الأصفياء ، وكل مطلوب دون ذلك فهو مشوب وموسوم بالحظ ، ولأن يطلب العبد حق مولاه الذي هو العبادة ظاهراً والفناء عن الأوصاف والأحوال والأعمال باطناً . . أولئ به ، وأتم له من أن يطلب ما لا يدري عاقبة أمره ، ومصدر ورده ، أفيه الخير أم لا ؟

وإذا كان فانيًا عن اختياره ، قائماً بأمر الله . . تولَّى الله رعايته ، واختار له ما هو الأفضل في أفضل الأمور ، فلا تعلمه بما يصلحك ، وقم له بما أمرك .

واعلم : متى كنت كذلك . . كنت من العبيد الأدباء ، فيصلح من يكون حاله ذلك أن يكون من أخصِّ الوزراء ، فيدعى لذلك المقام ، ويخطب ويحظى ، ويزداد في الملاء الأعلى ذكراً .

ومن كان مشتغلاً بحظه ، غافلاً عن سيده ، منازعاً له في تقديراته ، ومشاركاً له في تدبيراته . . فيوشك أن يُبعد عن الحضرة ، ولا يثبت له في ديوان الوزراء اسم ، ولا يرفع له هناك ذكر ، بل يدخل في غمار العوام ، والجهال الطغام ، إلا أن يستأنف المقام ، ويعود يقتدي بإمام ذي مقام تام ، فيرجى أن تستقيم أحواله ، وتهدَّب أخلاقه ، وتصفو أعماله .

فأحسن ما طلب الأدباء ، واشتغل به النجباء : قصرُ الطلبِ على ما هو مطلوب الحق منهم ، فكانوا يستعبدون من أن يكون طلبهم لمقتضى حظوظهم العاجلة ، بل كلُّ همهم متعلقة بتصفية عبوديتهم لله ، وخائفون من كل قاذح يقدح فيها ؛ خوفاً منهم ألا يتقبَّلَ منهم ، فأكبر مشيئة لديهم قبولها منهم ، وغيتهم عن رؤية ما منهم ، فهم مطالبون نفوسهم لله على ممزِّ الأنفاس ، متبرِّثون عن الحول والقوة في الأفعال والأقوال وسائر الأحوال ، لا يشغلهم همُّ ما هو آتٍ ، ولا تدبير ما لا يؤمرون بالتدبير فيه ، بل هم وقوف على مقتضى ما أبرزه الوقت ، يقومون بمقتضى ذلك من العبادة ، لا يلتفتون إلى ماضٍ ولا مستقبل ، ولي في ذلك :

اطلُبْ مِنَ اللَّهِ تَوْفِيقاً لخدمتهِ فخيرُ ما يطلب أن يرضاهُ مولاهُ
وكن بحقِّه وأشهد سبقَ مِنتهِ ولا ترى في جميع الكون إلاههُ



فإذا علمت شرف القيام بالخدمة ، وانقطاعها عنك بعوارض الأقدار . .
فدليل الصدق : الحزنُ على فواتها ، كما يحزن كل محب على فوات محبوبه ، وعلامة الحزن : الحثُّ على النهوض ، وتلافي بقية الوقت ما أمكن ، وإذا لم ينهض الحزن على النهوض ويحثُّ على التلافي . . فهو الحزن الكاذب ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

الْحَزْنَ عَلَى فُقْدَانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ التَّهَوُّصِ إِلَيْهَا . . مِنْ عَلَامَةِ الْأَغْتِرَارِ

الحزن : هو تألُّم القلب إما لفوات محبوب ، أو خوف مرهوب ،
والحزن على فوات المحبوب أظهر .

وكل ما يوصل إلى المحبوب ويرضي المحبوب . . فهو محبوب ،
والطاعة أقرب وسيلة إلى رضا الله سبحانه فكانت محبوبة ؛ إذ هي
وسيلة إلى رضا المحبوب ؛ فلذلك يحزن المحبُّون على فواتها ،
ويغضبون بوجودها ، فإذا وجد الحزن ولم ينهض إلى الإتيان بها . . فدلُّ
ذلك على أنه حزنٌ كاذب ، ولو كان صادقاً . . لبادر المَهَلَّ ، وشمرفي
تلافي المطلوب .

وإذا كان حزن وبكى من غير نهوض إلى الإتيان بالأوامر والانزجار
عن النهي . . فذلك علامة الاغترار ، ودليل المكر من الله ، وهو حزن
كاذب ، وهو بكاء المغرورين ، فإذا منع ما ينفعه وأعطى ما يغتر به . .
فلا مرية أنه محروم .

وأما الحزن الذي يبعث على النهوض . . فهو من أشرف أحوال
السالكين ، وأحسن سمات المريدين ، كيف والقلب إذا خرج منه الحزن
حرب !؟

والحزن من علامات الخائفين ، وشعار العلماء والزهاد ، ودثار
الناسكين والعباد ، وللبيلة من حزين تعدل قيام أهوام من الفرحين ،
أهل الرفاهة المترفين ، المطمئنين إلى زهرة الدنيا ، الراغبين فيها ،
المشتغلين بها عن التعلُّق برب العالمين ؛ إله الأولين والآخرين .

وحكاياتهم في ذلك كثيرة ، وأحوالهم فيها شهيرة ؛ كما يروى عن

بعض زهاد هذه الأمة وأخبارها ؛ كالفضيل بن عياض ، ومن حدّثنا حذوه ،
ونحا نحوه ، يقال : إنه لم يَرِ ضاحكاً أربعين سنة ^(١) .

ولا أحق بالاتباع ، وأوصل لمريد الانتفاع ، من الاقتداء برسول الله
صلى الله عليه وسلم ؛ فمن شمائله : أنه متواصل الأحزان ، دائم
الفكر ^(٢) ، ويقال : إنه إذا أحبَّ الله عبداً . . . نصب في قلبه نائحة من
الحزن ، وإذا أبغضه . . . نصب في قلبه مزماراً من الضحك ^(٣) ، ويروى
أن الله يحب كلَّ قلب حزين ^(٤) ، ولي في ذلك :

الحزنُ حالةٌ أريابِ السلوكِ ومَنْ خلي عن الحزنِ يحرمُ كلَّ مطلوبٍ
إن قارن الحزنَ عزمٌ فهو بغيةٌ مَنْ يَطْلُبُ إلى الله في الأحوالِ مرغوبِ



فلما أنهى الكلام على ما تقدّم . . أخذ في تبیین حالة العارف المحقق
من غيره ؛ ممن ينتمي إلى المعرفة دون حقيقتها ، فقال رضي الله عنه :

(١) الرسالة القشيرية (ص ١٠٢) بنحوه .

(٢) رواه الترمذي في «الشمائل» (٢٣١) عن سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٣٦٢) ونسبه للتوراة .

(٤) رواه الحاكم في «المستدرک» (٣١٥/٤) مرفوعاً من حديث سيدنا أبي اللرداء
رضي الله عنه .

لَيْسَ الْعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ . . وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ ، بَلِ
الْعَارِفُ مَنْ لَا إِشَارَةَ لَهُ ؛ لِقَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ ، وَأَنْطَوَائِهِ فِي شُهُودِهِ

ليس العارف المحقق ، والعارف باسم التعريف هو هذا ، وهو الذي ينطق عن وجود ، ويشير عن شهود ، قد انطوى في مشهده أعيان الوجود ، واضمحت لديه تعديلات الحدود ؛ إذ الإشارة : حجاب عن الجمع الذي يذهب فيه ظهور الأغيار ؛ لأن الإشارة والمشير والمشار إليه فلا يخفى ما في ذلك من ظهور التفرقة ^(١) ، والبعد عن مقام الجمع الذي هو نعت العارف المحقق ، والواصل المقرب .

كيف تكون له إشارة ، أو إفصاح عبارة ، وقد غاب عن وجوده ، وفني عن شهوده ، فانطوى واندرج ليل أفعاله ، ونجوم علومه ، وسائر أفعاله وأعماله وأوصافه ، فتلاشت ذاته بظهور شمس المعارف من أفق الإحسان ، الذي تنطوي تحت ظهوره مقامات الإيمان ، ومعالم الإسلام ، انطواء النجوم والأقمار عند ظهور النهار ؟! فمن التحق ذاتاً ووصفاً وفعلاً بالعدم عند تجلي أسرار القدم . . فأين له الإشارة ، والإفصاح بالعبارة ؟!

وفي اصطلاح الطائفة : أن الإشارة الإفصاح عما يتضمّنه الوجد ؛ قولاً في الأقوال ، وفعلاً في الأفعال ، وحالاً في الأحوال ، ومقاماً في المقامات ؛ فمنهم من يجد المشار [إليه] قبل الإشارة ؛ وهم العارفون ، ومنهم من يجده مع الإشارة ؛ وهم الواصلون إلى مبادئ المعرفة ، ومنهم من يجده بعدها ؛ وهم السالكون الآخذون في طريق

(١) كذا العبارة في النسخ ، ولا يخفى مراد المصنف .

السلوك ولم يصلوا بعدُ ، ولي في ذلك :

إن الإشارة تفصّخ كلّ منهم من المعاني مكنون عن الغيّر
والعارفون لهم من فوق ذا همم نالوا مقاماً خلي عن ذلك النظر
ومن يَكُنْ دون ما قلناه محتكماً في حيلة العلم محبوبس في الصور
والإشارة على ضربين : إشارة حق ؛ وهي : الإشارة إلى الحق بالحق .
وإشارة مردودة غير مقبولة ؛ وهي : إشارة الخلق إلى الحق ؛ لأنه
يتعالى عما يقولون علواً كبيراً ؛ إذ لا أين ولا كيف ولا ليم .



ثم أخذ في بيان الرجاء الحق من الرجاء الباطل الصادق عليه بالأمنية ،
فقال رضي الله عنه :

الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ ، وَإِلَّا .. فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ

الرجاء مقامٌ شريفٌ من مقامات السالكين ، وحالٌ مرضيٌّ من أحوال الأبرار ، والعلماء الأخيار ، وتلتبس به حالة غاظةٌ وخصلة ضارةٌ تسمى الأُمْنِيَّةُ ، وهي تلبسُ على من لا علمَ عنده بطريق الرجال ، ولا تحقيق بسننات الأخلاق ورفيعات الأحوال^(١) ، فيظن بجهله ويتخيَّلُ : أن الرجاء المحمود ، والخير الموعود .. هو الأُمْنِيَّةُ الكاذبة ، التي يتخذونها المفاليسُ من الأعمال عُدةً ، فيعدُّون نفوسَهُم الأمانة بوسع الرحمة وعظم العفو مع ما هم مقارفوه من انتهاك المحارم ، والتبذُّخ بالمآثم ، والتظاهر بالجرائم ، من غير مبالاةٍ بالجناب الإلهي ، فيجعلون جنباه أهون الأشياء عندهم ، ويقولون : نرجو حيث لم يؤخذنا في الدنيا ، ولا قطع عنا الرزق ، وأنعم علينا بأصناف النعم ، وألبسنا العوافي في الدنيا .. أن يكون لنا في الآخرة أحسن من ذلك ، ونحن عبده ، وهو يعطي الآخرة كما يعطي الدنيا ، وما شاكل ذلك من الأُمْنِيَّةِ والتفريرات الكاذبة ، وما علموا أن الدنيا محلُّ التكديرات ، والآخرة مستقرُّ الراحة ، وأصناف النعيم ، فلم يتعم في دار التكدير غالباً إلا من لم يؤهَّل للنعيم الأخرى ، والسرور السرمدى .

والرجاء على الحقيقة : هو أن تمتثل الأمر ائتماراً وانتهاءً^(٢) ، وترجو أن يتقبَّلَ ذلك منك ، وأن يثيبك عليه كما وعدك بذلك ووعدُّه الحق ، وليتك إذا امتثلت كما أمرت .. تُقْبَلْ منك .

(١) في (أ) : (وهي تلبس على من لا علم عنده بطرق الرجاء ، ولا تحقق ...) .

(٢) كذا في النسخ ، ولعل الأقرب : (ابتداءً وانتهاءً) .

ولك في حرث الدنيا مثل ، يعرف ذلك من أرسل نظراً الاعتبار ،
وحقق الاستبصار ؛ فلم تجد الأثمار ، ومفتقات كمائم الأزهار إلا عند
من اتخذ الجهد صاحباً على ممر الأيام .

فإذا حان إبان أوقات الأمطار . . رجا أن يصب أراضيه ، فإذا أصابها . .
رجا أن يخرج له صنوف الأثمار .

وأما من اتخذ البطالة له ديدناً ثم رجا ما رجا صاحب الجهد في طول
سنته . . فلا مرية أن ذلك اغترار ، واستهانة بجناب الواحد القهار ، أولم
يعلم المغرور أنه إذا لم يُجَازَ في هذه الدار ببطالته إلا حسرةً وندامة ،
أبى الأخرة أقل منها حتى يجازى فيها على بطالته غنى؟! أو يرى
أن الذي يجزي في الدنيا غير الذي يجزي في الآخرة؟! والله سبحانه
يقول : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۖ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ
الَّذِي كَسَبَ ۖ فَهَلْهَا يَحْسِنُ الرَّجَاءَ .

وقد أطلق الذم على قوم اغترؤوا بالأعراض الدنياوية ، وتمنوا المغفرة ،
فقال عز من قائل : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكَيْبَ يَأْتُونَ عَرَضَ هَذَا
الَّذِي وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ۖ

وقال صلى الله عليه وسلم في وصف من أتبع نفسه هواها حيث قال
صلى الله عليه وسلم : « الكَيْسُ : مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ،
وَالأَحْمَقُ : مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِي » (١) .

وقال عز من قائل في وصف قوم جهال ، توهموا أن العطاء الديري
دفع عنهم ما سيحل بهم من العقاب واليَم العذاب : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَأْكُرَّ

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وزيادة (الأمانى) عند الديلمي في
« مسند الفردوس » (٤٩٣٠) عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنهما .

أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿ ، فقال سبحانه رداً عليهم خطأهم ، ورادعاً
جهلهم وسوء رأيهم : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلِي تَقْوَىٰكُمْ عِنْدَنَا زُرْقًا ﴿ .

ثم بيّن أن نبيل الكرامة والرفق بالإيمان الجازم ، والرأي الحازم ،
والعمل الصالح ، فقال جلّ ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ ءَاتَىٰ وَوَعِيلًا صَلِيحًا فَأُولَٰئِكَ
لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْفِ يَمَا وَعَىٰهُمْ ﴿ ، ولم يثبت الجزاء إلا في مقابلة الأعمال ،
وتصفية الأحوال بالإيمان ، وتهذيب الأخلاق والأقوال والأعمال ، فبيّن
لكل عاملٍ جزاء ، ولكل عملٍ من جنسه رداً ، ولي في ذلك :

إن الرجا يبعث الطالب على العمل

ويزعج السالك الصادق عن الكسل

فلا تظن الرجا تزوير مختدع

يدعو إلى فعل محظور من العمل



وربما يقول : إني حسن الظن بربي ، ولو كان به حسن الظن . . لكان
له حسن المعاملة ، ومعه مهذب الأخلاق ، صفّي الآداب ، متبعاً ما هو
له أمر ، ومجتنباً ما هو له عنه ناو .

وهذا مقامٌ فسي اليقين ، وقدمٌ في التحقيق ، ولكن العارف له كلام
رفيع ، ومثال منيع ، فوق ذلك ، وعنده يحصل حسن الظن على التمام ،
ويراه على الكشف والعيان ، بلا تلبيس فيه ولا غرور ، بل على المحجة
البيضاء^(١) ، يعطي الأمور حقها ، قد خرج عن الحظوظ والأغراض ،
وقام بالحقوق ، لا يعتريه فتور ، ولا يمازجه اعتراض ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

(١) المحجة : جادة الطريق .

مَطْلَبُ الْعَارِفِينَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى : الصِّدْقُ فِي الْعُبُودِيَّةِ ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ

المطلب : هو المقصود من الفعل ، والمطالبُ شتى بحسب الأفعال والفاعلين ؛ فلكل فاعلٍ مطلبٌ يطلبه ، ومحتد يقصده ، والمطالب : إما طلب نفع وجلب ، أو طلب دفع مؤلمٍ قلبٍ أو قلب ، وهو أيضاً : إما دنيوي ، أو أخروي .

فالخلق ثلاثة أصناف من حيث إجمال المطالب : إما عارفين مقربين ، وإما علماء أبرار ، وزهاد أخيار ، وعباد أحرار ، وإما جهال أشرار ، وغافلين أعرار ، لا يميزون بين ظلمة الليل وضوء النهار ؛ فهؤلاء مطالبهم المنافع الدنيوية ، ودفع الضرائر الجسمانية ، فلا ترفع لهم ذكراً ، ولا تشغل الوقت بالخوض في تفاصيل أصنافهم .

وأما العباد والزهاد .. فمطلبهم في الحال : سلامتهم عن ملاحظة الخلق ؛ كي لا يبطل ثوابهم ، ويحق بهم عقابهم ، وعند انبعاثهم على العمل يكون الداعي لهم رجاء ما يعود عليهم من الثواب والسلامة عن العقاب ، وأليم العذاب .

فهؤلاء وإن كان مطلبهم محموداً ، ومقامهم مشهوداً ، وهم الأكياس من حيث إنهم عملوا لله كي ينالوا ذلك ، ويسلموا من محذورات الذنوب .

وأما من عمل للجنة دون الله ، أو من النار دونه .. فلا خفاء في أن ذلك باطل ؛ كما أفتى به الفخر الرازي ^(١) .

(١) أشار إلى ذلك في « تفسيره » ، (٤٤ / ٣٢) .

وكلامنا فيمن يعمل لله لينال الثواب ، ويسلم من العقاب ، ومن كان كذلك . . فمقامه محمود ، ومطلبه عزيز بالنسبة إلى من دونه .

وأما العارفون ، والسادات الموحدون ، والخواص المقربون . . فإنهم يعملون على غيبة نفوسهم عن العمل ، وإخراج رؤيتهم عن شهود صدره عنهم .

فلا يشهدون لهم ولا منهم ، وجلُّ مطلبهم وكل بغيتهم القيام بحقِّ سيدهم ، والمثول على بابه ، والإقبال على جنابه ، لا يلتفتون إلى عاجل حظ ، ولا آجل جزاء .

والعارفون هم الحكماء ، والمعرفة هي الحكمة ، وهم المهذبون الأدباء ، واليامينُ الأمناء ، غريباء الأوقات ، محبوبون من السنة ما مات ، والمتداركون من الأوقات ما فات .

والمعرفة هي الخير الكثير ، والحيا المطير ، ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدَّكُرُ ﴾ ، والذكرى : هي فهم الأسرار ، وتحقيق المعارف بزوال الأستار الكونية ، وفناء مظاهر الأغيار ، وانطماس معالم الآثار ، فمن خلص عن رؤية ذلك ، وتخلّفت عنه مقاطع الاغترار . . فقد قام التذكار ، وحصل من كل شيء على لبايه ، ﴿ وَمَا يَدَّكُرُ إِلَّا أَزُولًا الْأَلْبَابِ ﴾ .

فستان بين من همته القيام بحقوق ربه ، وبين من يريد حظّه من ربه .
هموم العارفين كذا وقوفٌ على ما يرضي المولى تعالى
ومطلبٌ غيرهم دائمٌ عكوفٌ على نيل الثواب وصفو حالا
وهم في نيل مطلبهم صنوفٌ ولكنّ الشهود له رجالا

ثم أخذ كالمفتبر لأحوال الأبرار ، ومشيراً إلى حالات الموحدين ،
وخواص العارفين ؛ فالتبض والبسط أحوالٌ ترد على قلوب الواجدين
من الله تعالى ، وله في كل واردِ حكمةٌ يترقن في سُلّمها السالك ،
والتبض : أثرٌ من آثار جلاله ، والبسط : أثرٌ من آثار جماله ، وهو
المسمى بالقابض والباسط ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

بَسَطَكَ ؛ كَيْ لَا يُبْقِيَكَ مَعَ الْقَبْضِ ، وَقَبَضَكَ ؛ كَيْ لَا يَتْرُكَكَ مَعَ الْبَسْطِ ،
وَأَخْرَجَكَ عَنْهُمَا ؛ كَيْ لَا تَكُونَ لِشَيْءٍ دُونَهُ

بسطك أولاً من قبض الجهل وظلمة الحجاب ؛ بأن كشف عنك
غطاء الطبع ، وأشهدك فسيح الجمع ، وأخرجك من ظلمة الهوى إلى
نور العلم ، ووسيع المشهد الرفيع ، ثم قبضك بشهود الآثار الجلالية ،
والسطوات الانتقامية ، والزواجر الحجابية ، المؤذنة بالبعد والطرده
والمكر ؛ وذلك كي لا يبقيك مع البسط ، فيفوتك من المعرفة به حسب
ما يفوتك من هذه المظاهر .

فكمال المعرفة يقتضي ألا تجهله في شيء ، بل تعرفه بجمبع
أوصافه ، ولا نهاية لها ، فلا نهاية لترقي المعارف في الدنيا والآخرة ، وما
أظهرها عليهم في هذه الدار . . إلا رحمة بهم في دار القرار ، فبانقضاء
هذه الدار تنقضي عنهم هذه المظاهر ، وتندرج معارفها لهم ، وتفتح
عليهم الخزائن الرحموتية ، وتزفُّ إليهم المواهب الامتنائية ، ويظهر سرُّ
التضعيف السرمدى .

والقبض والبسط : حالان يردان على قلوب السالكين ، يتولد عنهما
الخوف والرجاء ، وعندما ترد على السالك بسط المواهب . . يخاف
عليه من برد الأمن ، المفضي بصاحبه إلى أن يُدِلَّ على الله ، ويصول
على عباده ، وينزل عن علو العزيمة إلى حطيط الرخصة ، فيتداركه الله
بأن يورد عليه واردة القبض ، فلا يبقيه مع البسط ، بل يفتيه عن الوجود ،
وتنطمس معالمه ، فلا يرى له بقية ، ولا يشهد لنفسه قدراً ، ولا يسمع
لها خبراً ، بل يكون حاله الانطماس والانكماش في الأعمال ، وترك

الدعاوي ؛ لما يرد على قلبه من محرقات الجلال ، المزعجة له عن
الركون إلى الدعة ، فهذه من نعم الله على عبده .

وأشار بقوله : (كي لا يبيك) وتعبيره بقوله : (بسطك كي لا يبيك
مع القبض) لأن القبض يقتضي بقاءك ومعرفتك ، وبقوله : (كي لا
يتركك مع البسط) لأن البسط يقتضي فناءك وجمعك .

فإذا تركك كذلك .. فاتك من مقام العبودية حظاً وافياً ، فعبر بـ :
(كي لا يتركك) فانياً عنك ، وعبر بقوله : (كي لا يبيك) ليزيحك
عن ظلمة حجابك ، وغمة عتابك ، في إيابك ومآبك ، ثم قال :
(وأخرجك عنهما) أي : القبض والبسط ؛ لأنهما من مقتضى التغيير ،
والبقاء معهما حبس عن مقام عدم التقييد بالأغيار ، وقيد عن الذهاب
فيه والوصول إليه .

فالتمكنين رتبة العارفين ، وسمة الموحدين ، والتلوين حالة
السالكين ، وسمة المرئيين المبتدئين ، فالخروج عن مضيق الوجود
إلى فضاء الشهود لا يكون للعبد فيه مدخل ، ولا منه فيه تعمل ، بل
محض مئة ، وظهور عناية على من بدورك به ، واختص به لأن العطايا
الوهمية والمنازل القريبة لم يكن للعبد بها شعور ، ولا لها في مخيلته
ظهور ، وإن كان لا يسمع بها لكنه يسمع بذلك ، فإذا ظهر له .. تحقّق
بعد أنه لم يكن ذلك ما يحتسبه ، ونظر ما لا يتخيله ، فالقبض والبسط
آثار ومظاهر أسماء الأفعال ، والخروج عنهما إلى فضاء الوصف الذي لا
حصر له ولا نهاية .

وتكون حالته الهيبة بدل القبض ، والأنس بدل البسط ، والهيبة
تكون لا لشيء من الأسباب ، ولا بشيء من الأعراض ، ولكن يكون

مقتضى المقام من غير شيء ي زيد على ذلك ، والأنس أيضاً كذلك ؛
لا بشيء من الأسباب ، ولا بجنس من الأجناس ، ونوع من الأنواع ،
بل لمقتضى المقام ، فلا يعطيك غيره في حالة تجليه عليك ، وتدليه
إليك ؛ لأن الجمال مانوس ، والجلال مهاب .

وإن ظهر في الجلال ما يقتضى الأنس ، وفي الجمال ما يقتضى
الهيبة . . فلا يكون حال العبد في ذلك المقام إلا مقتضى المقام ، ولا
حكم بعد لما يظهر من الآثار ؛ إذ الحكم لله العلي الكبير .

ومن كان كذلك . . لا يكون تحت حكم الآثار ، ولا يتغير بتعاقب
الأطوار ، ولا يتكدر برؤية الأغيار ، ولا ينبسط بجنه ولا ينقبض من نار ،
بل يكون مع ربه فانياً عن الأغيار .

كما يروى في مثل ذلك المعنى عن إبراهيم بن أدهم لما رُئي
منقبضاً ، فجعل يقول له السائل : أمن كذا ؟ أمن كذا ؟ وهو يقول : ما
كذا ، ما كذا .

والهيبة والأنس أصل القبض والبسط ، إلا أن القبض والبسط يظهر
أثره في عالم الأفعال ، والهيبة والأنس غيبٌ يظهر عن تجلي الأوصاف
القدسية ، والنعوت الأزلية في عوالم الإجمال .

وبالنظر إلى تفاوت هذين المشهدين يكون الجمع والفرق ؛ فالنظر
في عالم التفصيل يقتضى الفرق والتغاير لا محالة ، والنظر في عالم
الإجمال يقتضى الجمع لا محالة ؛ فلذلك لم يكن للأغيار ظهورٌ في
عالم الإجمال ، بل لم يكن ثمَّ إلا موصوف بوصف ، ومنعوت بنعت ،
وذلك لا يقتضى التعدد ؛ فلذلك قال : (أخرجك عنهما كي لا تكون
لشيء دونه) .

ومتى نظرت لسبب وجود في إيجاد شيء أو إعدامه ، أي سبب في
أي شيء . . فأنت له حتى تتخلص عن رؤيته ، إن له أو منه أو به ، فعند
ذلك تنظر انفراد الحق بالاختراع والإبداع ، فتكون له ؛ لأنك لم تر لغيره
شهوداً ولا حقيقة وجود ، ولي في ذلك :

القبض والبسط غير إن وقفت به دون الحقيقة إن حققت يا أنسان
جز المقامات والحالات وأفن به فم تشهد بعد الحالة الشان
فإن تفرقت في التفصيل كنت به أعشى البصيرة في الأكوان حيران
فجائل الطرف تحكم إن نظرت به أنك ترى منه أن الواحد اثنان
ثم لما كان القبض والبسط حالين ، ولكل حال في العبد أثر
يقتضي أن يكون العبد متصفاً به ؛ فحالة القبض تظهر على العبد أثراً
بالانكسار ، والانقهار تحت أحكام القهار ، وهذا هو حالة العبد القائم
بين يدي السيد الجبار ، ومن هنا كان خوف العلماء على حسب قربهم ،
وصفاء مشهدهم .

والبسط حال انبساط في فسيح متسع الجمال ، يظهر أثره
على العبد بصولة الفرح ، والتردد بين رياض الحكم ، وتغني أطياف
السرور على أرائك سرر المقامات ، وتدي أشجار الكلم ، فلا يشك
أن العبد عند ذلك يخشى عليه صولة الإدلال ، فتقطع عنه أمداد
الوصال ، وتسد عنه أبواب الاتصال ؛ فلذلك اشتد خوف العارفين
عند البسط .

والقبض حق الحق من العبد ، والبسط حظ العبد من الحق ، ولأن
يكون بحق سيده . . أولى من أن يكون بحظ نفسه ، فإذا كانوا بالبسط . .
كانوا أخوف منهم إذا كانوا بحالة القبض .

والقبض أسلم لحالة العبد الضعيف ؛ إذ لم يقف على الأدب مع
البسط إلا القليلُ من كُمَّلِ العارفين ، الذين ملكوا أزمة الأحوال ،
وضبطوا الأفعال والأقوال على تغاير الأحوال .

ثم قال كالمفسر لحالتي البسط والقبض ، وحكماً عند أرباب
المواجيد العارفين بأسباب الحقائق ، السائرين على أوفق الطرائق ،
فقال :

الْعَارِفُونَ إِذَا بُسُطُوا . . أَخْوَفَ مِنْهُمْ إِذَا قُبِضُوا ، وَلَا يَتَفَعَّلُونَ عَلَى حُدُودِ
الْأَدَبِ فِي الْبَسِطِ إِلَّا قَلِيلٌ

العارفون بالله ، وبأوصافه ونعوته ، وتجليات أسمائه ، ولا يكون
عارفًا إلا كذلك ، والمعرفة أخصُّ من العلم ، وترادفها الحكمة ، بل
غالباً ما يطلق عليهم بأنهم الحكماء ، وأنها المعرفة ، وهي من أجلِّ
منح الله على من قامت به ، والعارف يكون له التمكن ، والعالم له
التلون .

وهم خواصُّ أهل هذه الطريق ، وسادات سائر الطوائف ، وهم
درجات عند الله ؛ فمنهم الفاضل ، ومنهم الأفضل ، ومنهم المحققون ؛
وهم المتمكِّنون الذين يعرفون الله في سائر المظاهر ، فيعطونه الأدب
في كلِّ مُعَايِنٍ ، وكلِّ متخيَّلٍ ، وهم الأدباء ، الخواصُّ الغريباء ، محييون
ما ألمات الناس من السنن ، الناجون عند ظهور الفتن ، المصلحون من
الدين ما أفسده الناس ، الذين يحيون في عافية ، ويموتون في عافية ،
ويُبعثون في عافية .

يحشون بين الناس بالنصيحة بأجسام ميتة عن الدنيا ، وقلوبٍ
عاكفة في الصفيح الأعلى ، بأوون إلى جناب الحق كما تأوي
الطير إلى أوكارها ، ويحشون إلى لقاءه حين الشكلى ، لا يكتهم
مأوى ، ولا تقلهم أرض ، ولا تظلمهم سماء ، تتقلَّبُ قلوبهم في
الملا الأعلى ، تُخلع عليهم ملابس الرحمة العرشية ، وتنزل عليهم
السكينة الكرسية ، ويحيون من الله بالسلام بين الأنام ، فقليل
ما تراهم الأعين ، بل هم تحت القباب ، مخدَّرون تحت أسجاف

الحجاب ، لا يُطَّلِعُ اللهُ عليهم إلا من اختَصَّهُ بقربه ، وأتحفه بحبِّه ،
فيرفه إياهم ، ويحبِّه إليهم .

وقد أشار المؤلف في هذه الحكمة إلى بعض علاماتهم ، وأنهم
إذا بُسِطوا أخوفُ منهم إذا قبضوا ، وهذه من جملة سماتهم ؛ وذلك
لخوفهم الوقوع في سوء الأدب مع سيدهم ، والسقوط من عين مليكهم ،
وغاية سرورهم ومنتهى حبورهم في كلّ فعل يكونون فيه بحق الله ،
ومنتهى شرفهم ومطمع نظرهم الانكماشُ في خدمته ، والدؤوب على
إتيان محابِّه ، وغاية حذرهم من ضد ذلك ، أو الوقوع في محذور سوء
أدب معه .

ويخافون ذلك الوقوع فيه مع البسط أكثر منه في القبض ، والقيام
بالحقوق الشرعية بحالة القبض أقرب ؛ فلذلك يكونون أخوف في البسط
منهم في القبض لذلك المعنى ، وخوفهم في البسط من الوقوع في حالة
تضادِّ حالة العبودية والأدب ، فيخاف الوقوع في العطب ، وكيف لا وهو
لم يقف على الأدب مع البسط إلا قليل ؟! فيخافون - لا محالة - أن يبدر
منهم ما هو خلاف الأدب مع الله ؛ كما هو مشاهد أن أكثر الهفوات
تكون مع الانبساط ، ولذلك قالوا : فف على البساط ، وإياك والانبساط ،
ولي في ذلك :

البسط أخوف عند العارفين إذا كانوا مع الله يطلب منهم الأدب
والقبض حال يكون العبد فيه كذا بحق سيده في مشهد السبب
لأن تكونَ بحقِ الله مُجتهداً أحب منك بحظ النفس في النسب
والعارفون بنو يُسْرِ تراه إذا ما لمَّ بالبسط ضاعف عنده الأدب

فالبسط تأخذ منه النفس حظها ، وحظها بل أجل حظوظها : تبخترها
واختيالها ، وادعاء ما ليس لها مما هو حقُّ موجدها ، ونعت باريها ،
والقبض عن ذلك بمعزل ؛ لذلك قال المؤلف هذا المعنى وهو قوله :

الْبَسْطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ الْفَرْحِ ، وَالْقَبْضُ لَا حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ

البسط : هو ما علمته أنه حالة تَرِدُ على القلب من الله تعالى ، وهو حالة في القرب ؛ لأنه من الله وبالله ، لا من غيره ولا بغيره ، وكل بسط بشيء من الأسباب الدنيوية والمثويات الأخراوية . . فليس من ذلك في شيء ، وكل بسط ورد بسبب . . فهو بحسب ما أورده ، وليس هو من البسط الذي قلنا : (وارد يورده الله على القلب بتجلٍ وصفي) ، وهذا هو الذي يشير إليه الطائفة في اصطلاحهم بالبسط .

وإذا أردت أن تعرف البسط الوارد عليك : أهو واردٌ من الله ، أم مورده بسبب . . فاعرض عليه سائر الأسباب الدنيوية والأخراوية ؛ فإن لم تجده صادف شيئاً منها . . فاعلم : أنه من الله ، فاشكر الله حيث وجّه إليك عنايته ، وساق إليك وارداتٍ مواهبه ، وحالك فيه مع الله الأدب ، ومع الخلق الإرشاد ، واللطف بهم ، وعدم الترفع عليهم .

وأن ما أورّد ذلك البسط إلا بسببٍ من الأسباب ، فلا يكون لك به اعتداد من حيث الأحوال ، بل يكون من جملة النعم التي يجب الشكر عليها .

والفرح لازم البسط ، وقد ذمّ الله الفرحين ؛ بغيره والأغيار كيفما كانت ، سواء كانت من الأعراض أم من الأحوال ، قال الله جلّ [من] قائل : ﴿ لَا تَفْرَحُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ ، وقال أيضاً : ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ، فالفرح بالأغيار ولو من الأحوال والكرامات فضلاً عن الأعراض الفانية . . من علامات الاغترار ، والجهل بما تحت مستورات الأقدار ، ولكن الفرح بالله هو المطلوب ، ولا يعرف مقام الفرح بالله إلا

الصديقون الخواصُّ المقرَّبون ، وأما غيرهم . . فقد يلبس عليه المقام ،
ولا يوفيه على التمام .

والقبض سالم عن هذه المخاوف ، لا حظُّ للنفس فيه ، ولا فيه
الفرح ، ولا يصحبه المرح ، بل هو أسلمُ أحوال السالكين ، وآمنُ
مقامات الواصلين .

وحالة العبد مع الله في البسط الضبط والأدب ، وفي القبض السكون
حتى يمضي وقته ، وتستوفي دولته دورها ، ويكمل طورها ، ولا يطلب
الخروج منه قبل إبان وقت انقضاء ذلك ؛ فلربما يكون ذلك سوء أدب ،
منافياً للاستسلام والسكون تحت جريان الأحكام ، ولا يخفى ما في
ذلك من سوء الأدب ، ولي في ذلك :

قد تأخذ النفسُ حظَّ العبدِ إن وردت موارد البسط واستولت على البشرِ
والقبضُ لا حظُّ فيه أصلاً إذا نظرت في مشهد القبضِ يرجعُ خاسع النظرِ



فإذا ورد عليك ما يوجب البسط من الأسباب . . فلا ينبغي لك أن
تفرح به ؛ لجهلك بعاقبته ، واندماج سرِّ خاتمته ؛ فربما كان ما تفرح به
مما يكون فيه الترح ، وضده كذلك ، قال المؤلف رضي الله عنه :

رُبَّمَا أُعْطَاكَ فَمَنْعَكَ ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ

(رب) تأتي للتقليل ، وقد تأتي للكثرة ، وهنا المراد بها أكثرية ؛ لأنه إذا أعطاك مراداتك وساعدك على نيل شهواتك . . منعك أسباب العطايا الهنية ، والمشتهيات المرية ، التي لا يعقبها زوال ، ولا يعترىها تغير ، ولا يعتورها كدر ، فالمنع في مثل ذلك العطاء ظاهر .

وربما منعك من شهواتك ، ونغصَ عليك مستلذاتك ، وعوّقَ عليك أسباب دنياك ، فأعطاك الجزاء الأوفى ، وأنالك المقام الأعلى ، وأدخلك في زمرة الكرماء ، ونظمتك في سلك الأصفياء ، فأعطاك أعالي الكرامات ، وأئى عطاء أوفى من ذلك ؟! وأي زلفى أعلى مما هنالك ؟! فكان العطاء الذي باختيارك وبذلت [له] كل تدبيرك منعاً ، ويكون كل منع خالف هواك وياين إرادتك عطاءً ، فاختر عطاءً يكون حقيقته منعاً ، أو منعاً يكون حقيقته عطاءً ، ولي في ذلك :

إن العطا خبيرٌ ما تُعطي بخيرته إن كان منعاً فذاك أقرب إلى الظفر
وكلمًا اخترت أن تُعطي فخيرته فذاك منعاً بلا ريب به الضرر

ولا يُعرف وجهُ المنع في العطاء ، والعطاء في المنع إلا بفتح لدني ، وفهم اختصاصي ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَتَى فَتَحَ لَكَ بَابَ الْفَهْمِ فِي الْمَنَعِ . . عَادَ الْمَنَعُ هُوَ عَيْنَ الْعَطَاءِ

متى فتح لك من خزائن الفهم المكنون ، واطلعت على دقائق العلم المصون ، فرأيت ما في المنع من عظيم النفع دنيا وآخرى . . علمت - لا محالة - أن المنع عن مراداتك فيها ذخائر سماداتك ، فلا جرم أن يعطيك نور الفهم أن المنع عن إراداتك الفانية ، وحفظك العاجلة . . عطاءً لا ينفد ، وذخراً لا يفقد .

ومن أمدّه الله بالفهم عنه . . أراه عواقب الأمور قبل أن يغترّ بأوائلها ، وكشف له عن باطنها قبل أن يختدع بظواهرها ، والفهم من أعزّ علوم الصوفية ؛ لأنه نور خلقه الله في القلب يدرك به الأشياء إصابة وخطأ ، فيعطيه ألا يأخذ ولا يذر ، ولا يسمع ولا ينظر ، ولا يتحرّك ولا يسكن ، إلا بما كان محبوباً موافقاً لما في باطن الأمر عند الله .

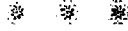
وإن ظهر في ظاهر الأمر أنه موافق أو مذموم ، وفي الباطن على العكس من ذلك . . فيأخذ صاحب ذلك المشهد ما هو الحق عند الله ، ويذر ما سواه وإن أفتى بضده ، ولا يدرك ذلك المشهد من كان قياده بيد هواه ، وسياسته بنفسه ، دون اقتداء بمن يطلعه على كوامن الهوى ، ويخرجه عن زين محبة الدنيا ؛ لأن الفهم في الأمور لا يكون إلا عن صفاء سريرة ، ولا تصفى وهي ملوثة بكثائف الهوى ، ومدنسة بمحبة الدنيا ، ولي في ذلك :

الفهم يعطيك في الأشياء أحسنها

ويخرجك عن مضيق الجهل بالخبر

إذا علمت أنّ ذاك الفهم يعلم من

ينظر به أن العطا في المنع منتظر



فلما كان الفهم يعطي مَنْ قام به أن ينظر إلى يواطن الأمور ، ولا يفتّر
بظواهرها ، وينظر عواقبها ، ولا ينخدع بأوائلها . . لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

الْأَكْوَانُ ظَاهِرًا غِرَّةً ، وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ ؛ فَالْنَفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ غِرَّتَيْهَا ،
وَالْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتَيْهَا

الكون : هو ما عدا المكوّن ؛ وهو كل ما دخل تحت (كن) من سائر أصناف المكوّنات الحسيّات والمعنويات ، والمراد هنا : كل ما يمكن أن يكونَ للنفس إليه نظرٌ وحظ ، والنفس من حيث الطبع والجبلة مجبولةٌ ومطبوعة على الجهل ؛ وهي النفس الحيوانية .

والقلب : هو عبارةٌ عن لطيفةٍ نورانيةٍ ربانية ، ألبسها الحقُّ من نور أوصافه ما أخرجها عن وصف النفس ، وحلاها بنور أوصافه ، وأفاض عليها من تجلّيات أسمائه ؛ فهي أبداً تتقلّب في حلال تجليات الأسماء ، وتتنزّه في فسيح الأوصاف الأزلية ، تتلقّى من صفة العلم ، ومن صفة الكلام ، ومن صفة البصر والسمع والحياة والقدرة والإرادة بقدر ما أعطاها وقسم لها ، ويظهر عليها من تجلّي كل اسمٍ ما يظهر به من سلطان ظهوره ؛ فهي لأوصاف الحق وأسمائه كالمرأة الصقيلة ، تحكي ما تتجلّى به عليها ، وتفيض ما تلقّيه إليها ، والقلب الصنوبري اللحمي كالعود الكثيف الذي تلصق به المرأة مجاورة لا ممازجة ، ومظهره في الجهة اليسرى الإنسانية ، ومشهده في الجهة اليمنى مواجهة ، والنفس من حيث هي حيوانيةٌ أرضيةٌ أمّاريةٌ في الجهة اليمنى ، وهي مواجهة لجهة الشمال .

ولو أخذنا في تبيين ذلك . . لخرجنا عن مقصود الشرح ، فلنرجع ونأخذ في بيان قوله : (الأكوان ظاهرها) وهو محل الحظ النفساني ، والطبع الحيواني ، (غرة) يغتر به من أعوزه الفهم في بواطن الأمور ،

ولم يحظ من النور القلبي بما يخرجه عن صفة الجهل ، وينمته بنعت العلم الفهمي ، بل كان جبلاً نفيّاً وجمياً أرضياً ، يتصنع ظواهر الأكوان في متحينات الألوان ، ومصقلات الأبدان فتفتنه بحسنها ، وتملكه وتستسخره تحت خدمتها ، وتستعبده بمحبتها ، ويكون كما قلت في ذلك :

إذا لم ترى ما تحت أبواب حسنها بقيت بها مفتون ولهان حائرا
ولو كنت ذا قلبٍ بصيرٍ بقُبْحِها نظرت إلى ما الأمر في ذلك صائرا
(وباطنها عبرة) يعتبر بها ذوو البصائر ، فيرون فناءها في حال وجودها رؤية كشف وبصيرة ، وحجة منيرة ، بتحقيق قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ، ووجهه في كل شيء سرٌّ وجوده في الأشياء ، فيعتبر أولو القلوب بما هي عليه من الانعدام في حال وجودها عارية عن وجه الحق ، فلا يكونون مع الأكوان ، بل مع مكوتنها ، فيرون وجود الحق في كل قطرة ، فيكونون مع الأكوان ظاهراً ، ومع الحق باطناً ، فإن خاطبوا . . فمعهم ، وإن نظروا . . فإليه ، وإن سمعوا . . فعمه ، فتخاطبهم الأسرار الحقيقية ، من وراء كشف الأستار الخلقية ؛ كما يروى في مثل هذا المعنى عن معروف الكرخي رضي الله عنه حيث قال : لي نحو من عشرين سنة أخاطب الحق والخلق يظنون أنني أخاطبهم ، أو كما قال .
هذا للعارفين ومشهد المحققين ، وأما الأبرار والمريدون وعمامة السالكين . . فعبيرتها أن يروا تغيّر أحوالها ، وسرعة انتقالها ، وكثرة عنائها ، وقلة غنائها ، وخسة شركائها ، فيكسوهم العزوف عنها ، والتنزّه منها ، فمتى دعت إليها النفس بظاهر غرتها . . صرفهم عنها القلبُ .
باطن عبرتها .

فسبحان من أوصل قوماً بما قطع به آخرين ؛ فعبرة المريرين بالقلوب
بأن ينظروا إليها بالاستحقار ، والتجافي والاستصغار ، وعبرة الأسرار
للعارفين بأن يشاهدوا وجود موجدها عند رؤيتها ، فهم الذين يوفون
الحقوق ، ويكملون في الآداب ، ولا يذمون شيئاً ، ولا يستصغرونه ، ولا
يحقرونه ، روي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذمَّ طعاماً^(١) ،
ولا استحقرَّ عطاءً ، ولا جفاً ، بل وفى وعفا ؛ وذلك لما أعطاه المشهد
الحقِّي في المظهر الخلقى .

وبالجملة : فالعبرة شأن ذوي البصائر ، والعبرة : هي العبور من
الصور إلى المعاني ، فما من صورة خلقية إلا وهي تشير إلى لطيفة
حقيقية ، فمظاهر التركيب مشيرة إلى حقائق الترتيب ، ولي في ذلك :
إن الشهود يريك الحق موجوداً في كلِّ مظهرٍ في الأكوان والصورِ
فالبسر خاطبٌ من لهُ سرٌّ موجود في الحقيقة ما يخفى ذوي العبرِ



وكل شيء دون الله هالك ، والهالك لا وجود له ، فمن استند واعتزَّ
بالعدم . . فلا جرم أن عزَّه به خذلان ، واستناده إليه حرمان ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه البخاري (٣٥٦٣) ، ومسلم (٢٠٦٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لَا يَفْنَى .. فَلَا تَسْتَعِزَّنْ بِعِزِّ يَفْنَى

إن أردت أيها المسترشد والطالب المسترشد عزاً - وهو رفعة وثناء - لا يفنى ؛ وهو العز بالله ، إذ لم يستحق سلب هذا الوصف - وهو الغنى - غير الله سبحانه ، وكل من سواه فذلك من لازمه ، فكل عز يفاني فإن ، وكل عز يباقي باقي .

وإذا أردت العز الباقي المخلد ، والفضل الدائم المؤبد .. فلا تتوصّل إليه بضده ؛ إذ تطلب الباقي بالفاني ، ولكن إن أردت ذلك .. فاستعزّن بالباقي ، والعز بالباقي : هو دوام التعلّق به ، واليأس من غيره ، ودوام الالتجاء إليه ، والانكماش في خدمته ، وانتظاره في كل أزمة ، وكشف كل غمة ، فلا يكون إلى فإن له استناد ، ولا على مخلوقٍ دونه اعتماد . ومن أنزل مهماته بسواه .. فقد أعوزه ما أراد ، وفاته ما قصده ، فإذا استعزيت بالأكوان وطلّمت بها ، واعتمدت عليها .. أسلمتكم أحوج ما تكون إليها ؛ فإنها مع مليكها ، وتحت حكمه ، وطائفة لأمره ، فمن أعزّه الله .. أهرّته ، ومن أهانته .. أهانته ، ومن أكرمه .. أكرمته ، ومن خذله .. خذلته ، فعليك بالتعزّز به ، والتعلّق بجنابه ، ومن دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ إنني أنزل بك حاجتي » (١) ، ولي في ذلك :

العز بالله شيمة كلّي أدب يُعني عن الكون في الأحوال ذا بصر
ومن تعزّز بالأكوان كان له ذلّ طويل كما جا-ذاك في الخبر



(١) رواه الترمذي (٣٤١٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

فإذا كان عزك بالله عن كل شيء . . لم يقدر أن يذلَّك شيء ، وإن
استعزيت بغيره ، واستهونت بجنايته . . أذلَّك كل شيء ، وسلط عليك
كل شيء .

واعتراز المؤمنين بصدق عبوديتهم لسيدهم ، وصدق العبودية لا
يكون مع وجود حظ النفس ، فلما نظر العارفون إلى ذلك . . كانت
جلُّ أشغالهم في الخروج عن أوصاف النفس ؛ لتصفى لهم العبودية
من شوب الحظوظ النفسانية ، فيطلبون الانطواء والانطماس عن رؤية
نفوسهم وأوصافهم ، ولم يطلبوا أن تطوى لهم المسافات البعيدة ؛
لغناهم عن ذلك الطي ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

الطِّيُّ الْحَقِيقِيُّ : أَنْ تَطْوِي مَسَافَةَ الدُّنْيَا عَنْكَ ، حَتَّى تَرَى الْأَجْرَةَ أَقْرَبَ
إِلَيْكَ مِنْكَ

طي مسافة الدنيا هنا طيٌّ معنوي لا طي حسي ، وطي مسافة الدنيا برؤية فنائها ، وسرعة انقلابها ، وقرب الآخرة ، فتضمحل الأسباب الدنيوية ، وتزول المستحسّنات الكونية ، فتنطوي بفكره ساعة جمع الدنيا ولداتها ومحبوباتها بشروق نور اليقين في القلب ، وهو الذي يعطيك رؤية الأشياء على ما هي عليه من الحسن والقبح ، فعند شروقه في القلب ينظر الآخرة ويقاءها ، وحسنها ودوام نفعها ، والدنيا وخستها ، وقرب فنائها ، وسرعة زوالها ، وكثرة عنائها ، وقلّة جدواها ، وكثرة بلواها ، فتنطوي - لا محالة - وتنزوي ، وتتحقّق الآخرة وتترأى ، فيغيب الباطل الفاني ، ويتحقّق الحق الباقي .

وعند تمكن اليقين من القلب يظهر له الجمال الأزلي ، والمشهد الأقدس العلي ، فتنطوي الآخرة عنده كما انطوت مسافة الدنيا عند شروقه في ابتدائه ، لكن طي الدنيا طيٌّ حُجِبَ ظلّمانية ، وفي مسافة الآخرة طيٌّ حُجِبَ نورانية ، فهذا عندهم هو الطي حقيقة ، لا طي المسافة في لحظة ، فقد يكون لكن على الندور من باب المكر ، ولا طي الأيام بوصول الصوم ، فليس هو المراد مع ترك القلب مكبلاً في مضيق الدنيا وأسبابها ومراداتها ، بل يكون ذلك محموداً إذا أخلص لله ، وكان لمحض العبودية ، وأعطاهما حقّها وكان ذلك مشكوراً ، وفضله مشهوراً .

ولكن أين السير بالأحوال من السير بالأعمال ١٩ فالسير بالأحوال

سير المرادين الواصلين ، والسير بالأعمال سير المرادين السالكين ،
وستان ما بين الفريقين ، ولي في ذلك :

الطَّيِّ طَيِّ مَسَافَاتِ النَّفُوسِ إِلَى حِظَائِرِ الْقُدْسِ وَاسْتِعْلَا مَرَاqِيهَا
لِيَهَنَّ رَكْبٌ سَرَى شَوْقاً يَسِيرُ إِلَى مَنَازِلِ السِّرِّ وَاسْتَنْزَةِ بَوَادِيهَا



فإذا طُويت المسافات الخلقية ، وبانت لك الفتوحات الوهية . . بان
لك يقيناً أن ما أشار إليه المؤلف ههنا من قوله :

الْعَطَاءُ مِنَ الْخَلْقِ حِرْمَانٌ ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللَّهِ إِحْسَانٌ

وذلك أن رؤية العطاء منهم حجابٌ عن الله كثيف ، ورؤيتهم دون أن منهم أو لهم حجابٌ ، لكنه أَلطَفُ من إضافة أن لهم فعلاً معه ، فإذا رأيت العطاء منهم . . فقد حُرمت من اليقين بقدر ما أضفت إليهم ، ولذرةً من اليقين ما تقوم لها الدنيا وما حوته من جميع نعمها ومحوباتها ، وذلك يتولد منه - أي : عدم اليقين - تَقَلُّدُ منتهم ، واستعبادهم إياك ، وسقوط منزلتك وابتدالك .

وأيُّ منع أعظم من منع العطاء ؛ الذي إذا نلته . . أتت جميع خيرات الدنيا والآخرة ، والعز السرمدي الذي لا يعقبه ذلٌّ ، وهو اليقين ، فإذا فقدت اليقين . . فقد حُرمت خير الدنيا والآخرة .

والمنع من الله إحسان ؛ لأنه يوقفك على الله ، واللجأ إليه ، والافتقار لديه ، والذلة والانكسار بين يديه ، وأيُّ عطاءٍ أفضل من ذلك ؟! وأيُّ فضيل أعظم مما هنالك ؟! فأعياد الصادقين ومواسمهم وجودٌ فاقاتهم إليه ^(١) ، ووقوفهم بين يديه ، فأَيُّ إحسانٍ يزيد على ذلك ؟!

وإذا أحبيته . . كان كل ما يصدر منه محبوباً عندك ، وإذا أعدمك اليقين . . كنت بالضد من ذلك ؛ أنك تؤثر محبة الأغيار ، والوقوف على الخلق عند ورود الحاجات ، وحصول توازل المهمات ، فتقف على من لا يغنيك ، وتستند إلى من لا يأويك ، ولي في ذلك :

إِنَّ الْعَطَاءَ حَيْثُ لَمْ يَصْدُرْ مِنَ اللَّهِ حِرْمَانٌ يَحْرُمُ مَا هُوَ صِرْفُ إِحْسَانٍ

(١) كما سيأتي (ص ٤٢٩) في الحكمة (١٠٠) .

وكلُّ منعٍ من المولى فيأبُ به كل العطاء وكل الفضل يا أنسان

وإذا علمت ما أرشدناك إليه من أن العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان . . علمت أن الله سبحانه يجازي عباده في الدنيا والآخرة على أعمالهم ، فجزاؤهم في الدنيا ما يجدونه من اليقين والانشراح ، والترقي في سني الحالات ورفيع المقامات ، وما يوصله إليهم من صنوف النعم وضروب المنن التي لا تحصى ، مع ما يدخره لهم في العقبى ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ الْغَبْدُ نَقْدًا ، فَيَجَازِيَهُ نَسِيئَةً

أي : ترفع وتعالى وتعظم عن ذلك الوصف ؛ لأن ذلك ينبىء عن العجز والعدم ، وهو منزّه عن أن يعجزه ذلك ، بل له - وهو الأغلب - أن يفيض على عباده جزاءهم في الدنيا ، ويشبههم في العقبي ؛ لأن خزائن جوده لا تتوقف على محلّ دون محل ، بل فائضة الجود ، مستمرة الوجود ، كيف ما كانت الأحوال ، أو تغيرت الأزمان والآوان .

فهو الذي يجازي عباده في الدنيا بأعمالهم بما يجدونه من ثمرات الأعمال ؛ من تضعيف الطاعات على الطاعة ، وزيادة اليقين ، والترقي في مراتب الإيمان ، ومقامات الإحسان ، وما لا يقدر قدره غيره من فواضل المِنَّ ، وفوائد الامتنان ، مع ما يدّخره لهم من الثواب في العقبي ، وما أعدّه لهم من ضروب النعم والإحسان ، وما أعدّه لهم في الجنان ، مما لا يخطر على جَنَان ، ولم تفصح به لسان ، ولا تحده عيان ، وسوف يعلم ويرى وتشاهده الأعين ، ويعلمه الجَنَان ، ولي في ذلك :

فجَلَّ ذُو الْجُودِ وَالْإِفْضَالِ وَالشَّانِ أَلَّا يَجَازِي فِي الدَّارَيْنِ بِأَحْسَانِ
هُوَ الْكَرِيمُ إِذَا مَا سُئِلَ يَا أَنْسَانَ يَجِيذُهُ طَالِبُهُ فَرْدٌ وَمَنَّانُ

فمن جملة جزائه وفيض عطائه : أن رضيك لخدمته ، وأهلك لطاعته ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

كَفَى مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيكَ لَهَا أَهْلًا

أي : يكفيك من جزاء الطاعة من الله لو لم يكن غير أنه رضىك لها أهلاً ، كيف وهذا جزءٌ من جملة أصناف الجزاء العاجلة والآجلة !؟ وهذا من أعظم النعم ، وأوفر القسم ؛ أن أهلك لها قبل ظهور وجودك ، وأنت بعد لم يأتِ إِيَّاكَ ظهورك ، وقد جعلك من أهل طاعته ، وكتبك في جريدة أهل محبته ، ورسمك في مرسوم خاصته ، وزينتك بنور خدمته .

فماذا بعد ذلك تطلب ولم يكن لك هناك إخلاصٌ عمل ، ولا وسيلة ، ولا تضرُّع ولا طلب ، بل ابتدأك بالنعم ابتداء ، وخوَّلَكَ الممالك انتهاء ، وأمدَّكَ بالإمداد قبل ظهورك في الإيجاد !؟ فكيف تطلب جزاءً على عملٍ هو ممتنٌّ به عليك ، وفضلٍ هو موصله إليك !؟

ولكن بوعدده الصديق ، وقوله الحق أنه كما ابتدأك بالإحسان من غير سؤال .. أن يثيب عباده بعظيم الأفضال ، وجزيل النوال ، فمن أنت وما أنت حتى تكون أهلاً لخدمته ، أو محلاً لمحبته !؟ فاعرف قدرك ، والزم شكري .. تكن لفضله مستزبداً ، ولإحسانه عتيداً ، ولي في ذلك :

كفأك إن كنت ذا عقلٍ وإيمان أن الإله رضىك أهلاً لذا الشَّان
لطاغته فكفى ذا منه إحسان فالكل آلاؤه حق وتبيان

ثم بيّن من جملة ما يورده الحق على عباده صنوف الجزاء في الدنيا
دون ما يدخره في العقبى ، فقال رضي الله عنه :

كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ ، وَمَا هُوَ سُورِدُهُ
عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودِ مُؤَانَسَتِهِ

فلما كان النظر فيما تقدّم من كون رضاه العبد أهلاً لطاعته جزاءً أخفى . . أخذ في بيان ما يظهر أثره عند كل عاملٍ صادقٍ من وجود الفتوح ، وورود المنوح ، في أصناف الأعمال ؛ من وجود صفاء الأحوال ، والتمتعّ بلذيق الوصال ، واللطف بمؤانسة تدليّيات الجمال ، مما يصغر في جنبه كل جزاء ، ويتضاءل عنده كل عطاء ؛ فذكر الثمرات العملية بوصف الفتوح ، وذكر المؤانسة بإيراد المنوح . . يشير إلى أن المؤانسة والمشاهدة لا تدخل تحت أحكام المجاهدة ، ولكن المجاهدة طريقٌ إليها ، وتعرضُ لذيها .

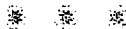
وأما الفتوح التي يريهم إياها [إما] من طريق الدليل والبرهان ، وإما من طريق الكشف والعيان . . فتتشكّل لهم صور الأعمال صوراً نورانية ، ومقامات أخروية ، ونعائم خلدية ، وسرر وأرائك ملكية ، وأنهار مائية لبنية ، وأنهار عسلية ذوقية ، وأنهار خميرية لطفية كشفية . . إلى غير ذلك ممّا يفتح على قلوبهم في كل سورة ، وفي كل كلمة ، وفي كل حرف ؛ من منائح الفتوح ، ومما يندرج فيه نعيم الجنان ، وتختفي عند ظهوره حيس النيران ، ولا يقدر أحدٌ أن يصف ما يفتح به قلوب العاملين على البصيرة البيضاء ، والمحجة السمحاء .

وما لم يجد العامل شيئاً مما وصفنا ، بل فوق ما أشرنا . . فهو بعدُ لم يخرج عن مضيق الهوى ، ودهليز الدعوى ، ولم تخلص طاعته عن شرب الحظوظ .

وأما ما يورده من المؤانسة . . فلا يقدر أحدٌ علي وصفه ؛ لأنه لا تكون غاية كماله وكلية وصاله إلا بعد استقرار أهل الدارين حين يسألهم الحق سبحانه : اسألوني عبادي ، فيقولون : ماذا نسألك وقد أعطينا ما لم تُعْطِ أحداً؟! فيقول : رضي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١) .

فهذا وما شاكلة من لذيذ الخطاب وشهي الجواب . . من المؤانسة ، وقد يجد أهل الله في الدنيا طرفاً من ذلك ، ونسيم لطف مما هنالك ، فيتلذذون به ، ويترَوِّحون من عناء البعد ؛ ولذلك يقولون : ليس شيء يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده المحبُّون من التملُّق مع الحبيب ، وتدلي القريب ، ولي في ذلك :

إنَّ الجزا في قلوبِ العاملينَ لَهُ فتحَّ يَجِدُهُ أولو الألبابِ والفظن
ولذَّةِ الحبِّ في الدُّنيا يحاولُهُ مَنْ كان ذا شغفٍ في السِّرِّ والعلن



ثم بيَّن أن عبادة المحجوبين معلولة ، ونياتهم مدخولة ، فقال :

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩) ، ومسلم (١٨٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

تَنْ عَبَدَهُ لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ ، أَوْ لِيَدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وَرُودَ الْعُقُوبَةِ عَنْهُ . . فَمَا
قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِهِ

من عبده وقام بعبوديته على حسب امتثال الأمر ، واجتتاب النهي ،
والعبادة هي هذه ؛ لأن الله سبحانه تعبد عباده على أن يعبدوه لا
يشركون به شيئاً ، ومن أشرك حظاً نفسه في انبعاثه على العبادة . . فما
أدَّى حقَّ وصف الحق ؛ لأن حقه الطاعة على العباد مجرداً من غير
جزاء ؛ لأنه خالقهم وسيدهم ومالكهم .

ولا يستحق المملوك على مالكة جزاء ، وإن جزاءه . . فمحض تكريم ،
وإذا طلب العبد على عبادته جزاء أو سلامة من عقاب . . فما وقى بحق
العبودية ، ومنشأ ذلك الجهل بأوصاف الله وما هو عليه من الغنى ، وما
العبد عليه من الافتقار .

وقد وردت أحاديث دالة على أن العبد لا يكون باعته على العبادة
إلا محض المحبة لله ؛ كحديث : (لا يكون أحدكم كأجير السوء ؛
إن أعطي . . عمل ، وإن لم يُعط . . لم يعمل ، ولا كعبد السوء ؛ إن
خاف . . عمل ، وإن لم يخف . . لم يعمل)^(١) .

والقلب إذا امتلأ بمحبة الله . . لم يبق فيه متسع لذكر الجزاء .
فغاية مطلب العارفين ، ومنتهى نظر المحققين إلى تخليص
العبادة لله لا لشيء من الحظوظ العاجلة ولا الآجلة .

وما ورد من طلب الجنة والانتعاضة من النار . . فليس يناقض هذا

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢٤٢/٣) من كلام سلمة بن دينار رحمه الله تعالى .

المعنى ؛ لأن طلب الفضل من جملة وظائف العبودية ، والفرار من الانتقام أيضاً من جملتها ؛ فالطلب يحقِّق مقام الفقر والفاقة ، والفرار من الانتقام يحقِّق مقام الضعف ، ويظهر الذلة وقلة الطاقة ؛ لمقارمة أوصاف الجلال ، وهذا لا يخفى أنه من جملة مقامات الرجال ، في مقامات الأحوال .

وأما عند خلوصهم عن رؤية الأغيار ، وارتفاع الأستار عن مصونات الأوصاف العلية . . فلا يكون للعبد شعوراً بالأغيار ، ولا طلب لجنّة ولا هرب من نار ؛ لاندراج كل ذلك تحت أوصاف جماله وجلاله ، فلذلك قال قائل منهم في حال الخطاب ومراجعة الجواب : لا عبدتك لجنّتك ، ولا لخوف من نارك ، بل حباً لك ، وقياماً بربوبيتك ، ووفاء بما أنت له أهل ؛ فأنت أهلّ بأن تُطاع ولا تُعصى ، وتُشكّر ولا تُكفّر ، وتُذكر ولا تُنسى^(١) .

فمن أقيم في مقام المحبة . . وفى هذا المقام حقُّه على الذوق الصريح ، والكشف الصحيح ، ومن لم يحظ من مقام المحبة بحاله . . فلا يمكنه الوفاء بذلك ، بل لا بد من علة تبعته ، وخوف ينشطه ، والعقل سواء ؛ سواء كانت دنيوية أو أخروية .

ومن كان باعشه الجزاء والحظ . . فلا يخلو : إما أن ينبعث لله لينيله ذلك ؛ فالمرجئ من فضل الله : أن يجزيه الجزاء الأوفى ، ويقبئه ما هو خائف منه ، وإما ألاّ يخطر له غير ذلك الحظ المرغوب ، والعقاب المرهوب ، فلا تصح عبادته على الفتوى عند العلماء .

(١) انظر «غيث المواهب العلية» (٢٤٤/١) ، وتمّ أثر رواه الخطيب في «تاريخه» (٣١٢/٦) بهذا المعنى .

والذين قاموا لله متفاوتون ؛ فمنهم : القريب ، والأقرب ، ومنهم : من يرغب إلى الله ويفزع إليه في تحقيق مطلوبه والأمان من مرهوبه ؛ فهذا من الأبرار .

ومنهم : من يرغب في تحقيق الصدق في عبادته له لا لشيء ، ومنهم : من يفزع إليه ويرغب ويضرع في فناء وصفه وغيبته عن رؤية عمله ، وإخراجه عن مضيق وجوده إلى فضاء شهوده ، قد شغفه عشق الحبيب عن أن يرجو أو يخاف غيراً ، ويطمح نظره إلى سواه ، أو يشهد إلا إياه ، فهذه رتبة في القرب ؛ وهي أوائل مقامات المقرّبين .

ومنهم : من لو كلف على رؤية الأغيار ونفسه من جملتها . . لم يجذ إلى ذلك سبيلاً ؛ فهذا هو الذاهب في الله عن نفسه ، والمأخوذ عن حبه ، المفارق لحبه وأنسه ، الغائب عن الوجود ، المختطف في الشهود ، ولا خفاء أن ذلك كل الوجود له ؛ لأنه لله لا لشيء دونه ، تكلُّ عن وصفه الفهوم ، وتعجز عن تحقيق حالته الرسوم ، فلا يقدر قدره ، ولا يحقق أمره سوى من بيده ملكوت الأشياء ، وتحت حكمه حقائق الآخرة والدنيا .

وأما من سوى ذلك . . فهم الآخذون في التفاني ، الذين تتغير فيهم الحقائق والمعاني ، والقيام لله لا يكون إلا بالله ؛ إذ لم يتم بحق وصفه من بقيت فيه من البقايا الغيرية ، والنوعت البشرية ، كيف والذين خلقوا من عالم الصفاء ، المجبولون على الوفاء ، من الأنبياء والأصفياء والعرفاء ، وأهل المحل الرفيع ، والمنزل المنيع ، ملائكة القرب يقولون : ما عبدناك حقَّ عبادتك ، وسيد الأنبياء ، ومقدم الأصفياء ، أكرم أهل

الأرض والسماء يقول : « سبحانك ؛ لا أحصي ثناء عليك »^(١) ، ولكن بحسب منازل القُرب ، ونتائج الحب يكون بحسبها القيام ، فكلما كان منزلته أقرب ، وتحقيقه في المحبة أصوب .. كان قيامه بحق العبودية أتمّ ، ونتيجة محبته أعظم .

وكل من الصوفية في هذه المشاهد تكلم ، وأعرب عما سنع له وترجم عما منح ؛ فمنهم من قال : إني لأستحيي أن أعبدهُ لشيء ، ومنهم : من يقول : ما عبدتك لجنتك ، ولا خوف ناركَ ، بضمير الحاضر ، ومنهم : من جعل ذلك بضمير الغائب على مواجدهم .

وأما تحقيق هذا الأمر .. فما قام بحقه سواه ، ولا قدر حقَّ قدره إلا إياه ، وللذاهبين عن رؤية وجودهم ، المستغرقين في حضرة شهوده ، والمتعلقين بوصف معبودهم .. نصيبٌ من ذلك ، ولي في ذلك :

مَنْ كَانَ يَعْبُدُهُ لِنَيْلِ مَطْلَبِهِ مِنْ حِطِّ عَاجِلٍ أَوْ مَرْغُوبٍ فِي الْأَجْلِ
أَوْ أَمِنْ خَوْفٍ فَذَلِكَ الْحِطُّ يَحْجُبُهُ عَنْ رَتْبَةِ الْقُرْبِ مَنْصَافٍ إِلَى الْعَلِيِّ
كُنْ عِبْدَهُ لَا تَكُنْ تَطْلُبُ سِوَاهُ وَلَا تَرْغَبُ وَلَا تَجْزَعُنْ مِنْ صَوْلَةِ الْأَسَلِ
فَمَا وَفَى حَقَّ مَوْلَاهُ وَسَيِّدِهِ مَنْ كَانَ يَطْلُبُ مِنْهُ الْحِطُّ بِالْأَصْلِ
لَنْ يَكُنْ يَطْلُبُ الْفَضْلَ الْعَمِيمَ فَمَا فِي ذَلِكَ لَوْمٌ وَلَا عَتَبٌ وَلَا زَلِيلِ

فعندما يفتح للعارف الفهم عن الله في جميع ما يصدر من التعرُّفات .. يكون يشهد معرفه ، وينال بغيته ومطلوبه في كل ما برز عليه من تحت سجاف الحكمة ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٢٤) .

مَتَى أَعْطَاكَ .. أَشْهَدَكَ بِرُّهُ ، وَمَتَى مَنَعَكَ .. أَشْهَدَكَ قَهْرُهُ ؛ فَهُوَ فِي كُلِّ
ذَلِكَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ

العطاء : محبوبٌ بالطبع ، ومستلذٌّ بالجيلة ، والمنع : ثقيلٌ
على النفوس ؛ لأنه من تجلِّي القهر ، لكن إذا فتح للعارف باب الفهم
عن الله .. ظهر له من تعرُّفِ الله إليه ما يخفِّفُ عنه ثقل القهر ، ويعرفُ
فيه وجهَ الأمر ، ومطلوبه : أن يعرف الله بكل اسمٍ من أسمائه ، ووصفٍ
من أوصافه ، ونعتٍ من نعوته .

فإذا كان كذلك .. فلا جرم أن يكون البر والقهر سبيين ؛ لأنه إن كان
طريقه الكشف .. استوى ذلك لديه ذوقاً وحالاً ؛ لشهود أحدية الفاعل ،
وواحدية أوصافه ، وفرادانية نعوته ، وتقابل أفعاله .

وإن كان من أهل الحجاب لكن له بطريق العلم والإيمان نظر ..
فلا جرم أيضاً ألا يجهلُهُ في ذلك ، وأن يشهد اللطف في القهر كما
يشهده في البر ، لكن لا ذوق وحال ، بل علم وتصديق إيمان ، فهذا
له من إقبال اللطف بحسب إيمانه ، ووفور علمه قوة وكثرة ، فهم أهل
المشويات والحسنات .

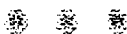
وأهل الكشف الذين يشهدون على الكشف والذوق .. هم أهل
الدرجات الرفيعة ، والمقامات الشامخة المنيعة ، والمطلوب من العباد
- والحكمة في خلقهم - معرفة سيدهم على ما هو عليه من الصفات
والنعمت ، ولا طريق في الوصول إلى ذلك إلا بما يتحلَّى به من الأفعال
الموافقة البريئة ، أو المؤلمة القهرية ، والأسماء : إما أسماء جمال ،
أو أسماء جلال ، ولا بد لكلٍ من ظهور بمقتضى تجليه يغير غيره ،

فينبغي للعبد أن يكونَ طلبه لمعرفة ربه بجميع أسمائه وإن خالفت طبعه وباينت جبلته ؛ ليكونَ لله لا لنفسه .

وإذا علمت أن الله تعالى قد توجهَ إليك باللطف قبل وجودك وخزائنتُ العطاء لديه ، ودفعُ البلاء موقوف عليه ، وأنت تعلم نفوذَ قدرته ، وبلغ حكمته . . علمت أنه لم ينزل بك بلية ، ولا منعك عطيةً إلا لمصلحة تعود عليك ، وعلمت - لا محالة - وجودَ اللطف في كلا الحالين ؛ فقد يكون العطاء سبباً لمنع العطاء ، وقد يكون البلاء سبباً لدفع البلاء ، ولا يعرف ما قلنا إلا من مارسَ مطالعة كتب المحققين ، ووقف على أحوال العارفين ، وما هم عليه من الثبات عند تغَيُّر الأحوال ، وأما من استرقه الهوى واستعبده . . فلا يكاد يصدق بذلك ؛ فضلاً عن أن يتحققه .

فإن أردت أن تعرف لطفه بعباده في جميع ما يتجلى به عليهم ، ويورده من صنوف التعريفات لديهم . . فاعمل على جلاء مرآتك ، واخرج عن مرادك ، وادفن وجودك تحت تراب الآثار الحقية . . تَر ذلك عياناً وتحقيقاً وبياناً ، وإلا . . فمن لازمك طلب الحظوظ ، وطلبُ الحظوظ حاجة عن صفو العبودية ، ولي في ذلك :

إن العطا يشهد العبد اللبيب إذا رأى من البر ما يورد من النعم
ومشهد القهر يهديه ويكشف عن وصف الإله في الأزال والقدم
إذا شهد ذو تحقق لا محالة أن اللطف في ذاك مصحوب فلا سام



فإذا تحققت أن العطاء نعمة ظاهرة ، وفي المنع نعمة باطنة . . لم تتأثر بتغاييرهما ؛ إذ هما نعمتان من الله ، لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِنَّمَا يُؤَلِّمُكَ الْمَنَعُ ؛ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللَّهِ فِيهِ

قد تقدم في قوله : (إذا فتح لك باب الفهم في المنع . . عاد المنع هو عين العطاء)^(١) ، وإذا تألم العبد عند ورود صفات القهر ، وتجليه عليه بمثل المنع وسائر الآثار الجلالية . . دل ذلك على عدم فهمه عن الله فيه ذلك الوارد ، ووجود حجابيه عن أوصاف الله تعالى وما هو عليه من الكمال ، فليستأنف الإرادة إن كان مريداً ، ويتخذ له في طريقته دليلاً ، وليعمل على تلطيف مرآة قلبه بأنواع الرياضات ، وأصناف المجاهدات ، فعند ذلك يُرَجَى له من الله أن يفتح عليه باب الهداية ، والفهم عنه في جميع ما يواجهه من تعاقب الأحوال .

والفهم - كما علمت - : أن يريك ما أعدَّ الله فيه للراضين ، وما ينيل الصابرين ، إن لم تكن من الموحدين ، الذين غاية مطلبهم من الله أن يعرفوه بجميع أوصافه ، وأن يحققوا وجوده في جميع الآثار الصادرة في جميع الأحوال ؛ لئلا يجهلوه في شيء .

فإذا كان مراده المعرفة كما وصفنا . . كان كلُّ ما ظهر عليه له فيه الزيادة الكبرى ، والمنزلة الزلغلى ، فلا شك أن تستوي لديه الأحوال ، ولا يشتمتر من منع ، ولا يأخذه العطاء ، بل يكون مع الله كيفما كانت الحالة ، إن مُنِع . . كان مشهده الاسم المانع ، وإن أُعطي . . كان مشهده المعطي ، وهو أحديُّ الذات ، واحديُّ الصفات .

والمريد لذلك السبيل دائماً يتصمَّحُ وجود الحق في أعبان الوجود ، فيراه موجوداً بكماله في كل موجود ، فلا غرور أن يعطي الله الأدب في

(١) انظر ما تقدم (ص ٣٩٠) في الحكمة (٨٤) .

جميع مظاهر أسمائه ، ومبادئ آياته ، ولي في ذلك :

فلا تألّم إن لَمَّ البلاء إذاً ولا ترى غيره في كل مشهود
فالفهم عنه في الأثياء يكشف ما ستره عنك جمود الطبع محمود



والفقير المعتمد على الله يكون جلُّ مرمى نظره إلى عواقب الأمور
ومصادر الأفعال ، والمنورور الجاهل بالضدِّ من ذلك ؛ أي : ينظر إلى
حاصل ما يفعله ، ولا ينظر إلى ما تتضمَّنه العاقبة ؛ لذلك نبّه المؤلفُ
على هذه الخصلة بقوله :

رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الْقَبُولِ ، وَقَضَى عَلَيْكَ
بِالذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبَ الْوُصُولِ

(رُبَّ) تأتي للتقليل كما قدمنا الإشارة إليه ، وقد تأتي للتكثير ،
فهذا تنبيه منه للمريدين ، ونصيحة للطالبيين ، وتحقيق لقصد
العاملين ، فينبغي للبصير ألا ينظر إلى صور الأعمال حسنيتها وسيئها ؛
فلربما يصحب ما يفعله من الأعمال الحسنة ما يحججه عن القبول ،
مثل الخصال القادحة ؛ كالأعجاب والإدلال ، ورؤية أنه خير ممن لا
يفعله ، فيوجب إحباطه وردة وإحباط كل عملٍ يعمله ، وهو مستشعرٌ
لما ذكرنا من إعجابه أو ريبائه أو إدلاله ؛ فإن العامل حال عمله وهو
مستشعر لذلك يكون باب القبول عنه مسدوداً ، وسبيل الوصول عنه
مردوداً .

فلا تنظر إلى عمل حتى تعلم أنه قد قُبِلَ ، وأنتى لك بذلك ؟! ومتى
أراك تقف على خفايا الرياء ، ودقائق الإعجاب ، ودقائق الحسد ، وبقايا
المنازعات للأوصاف الريانية ؛ مثل التكبر والتعظم ؟!

فيإذا علمت ذلك . . فاعمل واعتمد على فضله ، ونخف من اقتراف
شيءٍ من هذه المحبطات ؛ فإنها على من ظهرت عليه الأعمال ،
واشتهرت عنه الأحوال . . أقرب ممن لا يكون بهذه المثابة ، لذلك
اشتد خوف العاملين العباد ، والمجاهدين والزهاد ، فإنها ترد في بعض
الأحيان على حين غفلة منه عنها .

ولا يوحشك أيضاً وجود الذنب وحشة تفضي بصاحبها إلى أن
يقطع بالبعد بسبب ذلك ؛ فلربما كان أنفع له من طاعة بصحبها ما

ذكر ، ولم يتحقق خلوصها ، فالذنب يوصل صاحبه إلى الانكسار ، واستحقار نفسه واستصغارها ، وتعظيم غيره ممن لا يفعله ، ويوقفه في خضوع التائبين ، وخشوع الخائفين طولَ عمره ، كلما مرَّت عليه صورة ذلك الذنب . . تجدُّد عنده من الحزن والانكسار ، وتنفس الصعداء بالاستغفار ، ولوم نفسه واحتقارها ما لا يوازيه كثيرٌ من الأعمال في كثيرٍ من الأعصار .

فانظر إلى عاقبة الفعل وباطنه ، ولا تنظر إلى صورته في الحال ، قالوا : رب ذنب أدخل صاحبه الجنة ، وهو مقتبسٌ من قوله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ يُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ .

فالأصلح للعبد : أن يعمل الطاعات ويجتنب المنهيات وهو غير حاكم بخيرية هذا ولا شرية هذا من هذه الحيثية ، لا من حيثية نفس الطاعة والمعصية ، وأما نفس الطاعة مع سلامتها من القوادح وقبولها . . فهي خير بلا شك ، وكذلك المعصية إذا لم تقترن بها التوبة منها ، والإتيان بضدها ، والحزن على فعلها ، وصحبها التماذي والإصرار عليها . . فهي شرٌّ بلا شك ، ولكن الكلام هنا فيما يترتب على وجود المعصية من شرائف الأخلاق والطاعة ، وما يترتب على الطاعة من سيئات الأخلاق والمعاصي ؛ كالأعجاب وما كان من قبيله ، فلذلك عبَّر بـ (ربما) .

وأما الغالب . . فالطاعات شهادةُ العناية بمن أقيم فيها ، والمعصية علامة الشقاء لمن أقام عليها ، بشرط سلامة الأول مما ذكر ، وبقاء هذا على ذلك ، ولم يبقَ إلا أننا لا نقطع على هذا بالشقاء ، ولا نحكم

للأول بالسعادة ؛ للجهل بالسابقة وما تكون الخاتمة ، وذلك حكمة بالغة ؛ لئلا يطلع السعيد على سعادته فيكُل ويترك العمل ، ولئلا يطلع الشقي فيزداد في غيِّه ويأتي الأشياء من غير مبالاة ولا توقف ، أو لغير ذلك مما لا يُطَّلَع عليه من خفي الحكمة ؛ فقد ورد : « والذي نفسي بيده ؛ إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع - أو قال : شبر - فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع - أو قال : شبر - فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » (١) .

فمن ذلك لم يقطع بسعادة ولا شقاوة ، ولكن لكل شيء دلالة ، ولكل رسم علامة ، ولي في ذلك :

فربما يفتح الأعمال خالقها وما فتح باب ما يصلح به العمل
وأيضاً المعاصي لا توجب لصاحبها بُغداً إذا صلحت الأحوال والخلل
إذا صحب صاحب الأعمال رؤيتها كانت كما جملة الأوزار والزلل
وصاحب الذنب لا يقنطه رؤيتها إن سال من حزنه الأجفان والمقل

إذا علمت أن حكمة الطاعة إظهار العبودية ؛ وهي لزوم أوصافك ، ومعرفة نفسك ، والتعلق بأوصاف الله فيها .. تحصل معرفة الله عز وجل ، فإذا صحب الطاعة ما يناقض ذلك ، وصحب المعصية ذلك .. كان ما قاله المصنف ههنا ؛ وهو قوله رضي الله عنه :

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَأَفْتِقَارًا . . خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَأَسْتِكْبَارًا

هذه زيادة بيان لما أسلفه ، (معصية) جرت ، وقضية حكمت ، وهفوة سبقت ، ثم صحبها الندم والانكسار ، والذلة والافتقار ، واستصغار النفس ؛ فمعصية أعقبت هذه الأحوال ، وأثمرت هذه الآداب ، وأقامت صاحبها على جادة العبودية التي هي سلّمٌ إلى تحقيق كمال الربوبية . . (خيرٌ) بلا شك ولا ريب من طاعة باينت هذه الأخلاق ، ونازعت في أوصاف الخلاق ؛ وهي العزة والاستكبار ، فإذا صحبت الطاعة ذلك . . فلا شك أن معصية أثمرت لك صرفَ العبودية خيرٌ من طاعة نازعت بها أوصاف الربوبية .

وكان ذوو البصائر الناظرون إلى ما من الله من الفضل يكرمون الخلق على قدر ما هم عليه من الانكسار والذلة والافتقار ؛ فقد يأتي عاصٍ منكسر ، وناظر إلى الله بالحياء منه ، والخوف ، والخشية ، وتعظيم جنابه ، ومقت نفسه ، واحترام غيره ممّن لا يكون على مثل حاله ، فيكونون معه كما يكون الله له ، فتزيد له الرحمة عندهم ، ويضعف له الكرامة ، ويأتي غيره على غير هذه الأخلاق ، فيكونون عليه كما يكون الله عليه بالمقت والإهانة ؛ لرؤية نفسه دون الله ، ويرى أن له عند الله المنزلة بما هو عليه من الطاعة ، ولا يرى لغيره ما يوجب له الرحمة ، فيعامل هو بذلك .

فإذا أتى هذا المنكسر على مثل هذه الحالة . . نظر الله إليه بالمغفرة والرحمة ؛ لما هو عليه من اضطراب الحال ، وهو يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وقد يأتي المطيع بالضد من ذلك ؛

العز ، والصولة ، والتكبر ، وازدراء عباد الله ، وتعظيم ما هو عليه ، واعتماده عليه دون فضل الله ، فمقت وبيعد ؛ كما يروى في مثل ذلك المعنى في عابد بني إسرائيل وخليعهم ، حيث جلس الخليع إلى جنب العابد وهو متشفع به إلى الله ، ومحترم لجنابه ، ومعظم لشأنه ، ومحتقر لنفسه وماقتها ، والعابد معظّم لنفسه ، ومستصغر للخليع ، ومترفّع عنه ، وعلى رأس العابد غمامة تظله ، فحولت الغمامة على رأس الخليع ، ومقت العابد على رؤيته أنه عند الله بمحل رفيع ؛ لما هو عليه من العبادة^(١) . نعوذ بالله من سوء القدر .

هذا إذا صحب المعصية الندم والرجوع وعدم الإصرار ، وكانت منه على غير معاندة ، وأما أنه يرتكب المعاصي ، ويطلب التقرب . . فلا يقول بذلك قائل ، والطاعة أيضاً إذا صحبها العز والاستكبار المناقضة لها ، والمباينة لحكمتها التي لها أقيمت ، ومن أجلها طُلبت ، وإلا . . فالطاعة لا يقول عاقل : إنها تكون دون المعصية ، أو إن صاحبها يهان ، بل هي التي بها الزلفى والكرامة دنيا وأخرى ، وتعظيم أهلها من أجل القربات ، وإهانة أهل المعاصي المقيمين عليها ، والمصيرين المتهورين في معاصي الله كذلك من أعظم الرتب .

فالسود والحب لأهل الطاعة من صريح الإيمان ، والبغض والمنابذة لأهل المعاصي والطغيان دليل على كمال الإيقان ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، وقال في وصف أهل الإيمان : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقال فيهم أيضاً : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَبَةً مِمَّا أَوْقَوا ﴾ .

(١) الرعاية (ص ٣٨٨) ، ورواه مختصراً أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٢٦) .

فينبغي لمريد سلوك الإرادة أن يتحرّى أخلاء الصدق والوفاء ،
ويجنب أهل الخيانة والجفاء ؛ فإن مؤانسة أهل الغفلة ظلمة ، ومباينة
أهل الصدق وحشة وغمة ، فإياك ثم إياك والركون إلى الفساق ، والفرار
من أهل الحق وأهل التفرد والإشفاق ؛ فإن ذلك من الغرور ، وما ذكر
ذلك إلا لئلا يركن مريدٌ إلى نفسه وما يصدر عنه ، فيكون محجوباً
بفعله ومبعوداً ، فلا يظن أن المقصود بذلك نفس الطاعة والمعصية ،
ولكن الممدوح : ما يصدر من الأخلاق السنية ، والمذموم : ما يظهر من
الأحوال المذمومة والأخلاق الملوثة ، ولي في ذلك :

فالتَّوَّابُ مَنْ كَانَ يَصْحَبُهَا وَيَصْحَبُ مِنْ

قَامَتْ بِهِ فَعَلُّ مَذْمُومٍ هِيَ الْعَطْبُ

وَمَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذَلًّا وَمَسْكَنَةً

كَانَتْ لِصَاحِبِهَا مِنْ جَمَلَةِ الْقُرْبِ

فَلَا تَكُنْ تَنْظُرُ الْأَشْيَاءَ بِصُورَتِهَا

وَانظُرْ لِمَا تَتَمَرُّهُ مِنْ خَالِصِ الْأَدَبِ

ولما كان العبد مطلوباً بالعبودية لله تعالى على الدوام ، والقيام له
على اللزام ؛ لدوام إنعامه ، وتوالي إحسانه . . عرّفك بأنك لا تخلو عن
نعمة نَفْساً ؛ فمن جملة تلك النعم : ما قاله المؤلف رضي الله عنه ؛
حيث قال :

نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْهُمَا : نِعْمَةُ الْإِبْجَادِ ،
وَنِعْمَةُ الْأَمْدَادِ

النعمة : هي ما يحمد عاقبتها وإن كانت غير ملائمة لطبع البشر من حيث مطلق اسم النعمة ، والذي يستحق عليه الشكر : هو المستلذ طبعاً ، ولا ألدَّ من الوجود ؛ إذ به تدرك سائر الملاذ الحسية والمعنوية ، والعدم : لا يوصف بلذَّةً ولا بألم ، ونعمة الوجود : هي التي أبرزت الوجود من العدم السابق ^(١) ، ونعمة المدد : هي التي يحفظ بها من العدم اللاحق .

والممدُّ لهذه النعم وغيرها مما يعجز عن حسابها ولا تقف قرائح العقول إلى الوصول على عدِّ أصنافها .. هو الله سبحانه وله الحمد .

فلو كان فيما كان .. فلا انفكاك له عن هاتين النعمتين العظيمنتين ، والمئنتين الجليلتين ، ولكن نعمةً مستمرةً غير منقطعة ؛ وهي التي تستحق بأن تسمى نعمة حقيقة ، ونعمةً منقطعةً منقضيةً معقوبةً : إما بالعدم ، وإما بوجود الألم ؛ فمن هذا التقسيم تعرف النعمة من اللذة الاستدراجية .

وهذا قدَّمه ليبين افتقار الكل إليه ابتداءً ودواماً ؛ فلا غنى عنه لشيء ، وانفراده بالغنى المطلق دون الأشياء ، فكل ما توجه إليه التكوين .. فله هاتان النعمتان ، ونبةً عليهما ؛ لأنهما أكثر ما يغفلُ عنهما الجهال ، فلذلك تراه يتقلَّب في نعم الله وهو لا يشعر بكونه في نعمة ، ولو خُلِّي

(١) في النسخ : (أبرزت الوجود من العدم السابق) .

عنه المدد الإلهي ، والقيام الرحموتي ، واللطف الرباني . . لاضمحل
ولانعدم .

فكم من الله أمدادٌ يجودُ بها على الوجودِ بفيضِ الفضلِ والكرمِ
فنعمةُ الله ما برحت يجودُ بها على البريةِ في الأشباحِ والنسمِ



فنعمة الإيجاد هي الأصل ، وهي التي قبلت الإمداد ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوْلًا بِالْإِيجَادِ ، وَثَانِيًا بِتَوَالِي الْإِمْدَادِ

أنعم وتفضلَ ومنَّ وتطوَّلَ بالإيجادِ قبل أن تكون شيئاً مذكوراً ، بل كنت نسياً منسياً ، لم تكن أهلاً لإيراد مدد ، ولا لجزيل عدد (١) ، ثم أمدُّ بأمداد عظيمة ، وآلاء جسيمة ، وتفصيل أمداد النعم ، كل شيء على حدته . . مما لا مطمع فيه .

ولكن الإشارة إلى البعض منها تدلُّ على الكل ، والمعرفة بالجملة منها تُغني عن التفصيل .

فمن النعم : ما كانت نعماً أزلية سرّية ، ومن النعم : ما هي نِعْمٌ روحية ملكوتية ، ومن النعم : ما هي نِعْمٌ قلبية علمية ، ومن النعم : ما هي نِعْمٌ مُلكية حسية .

فالنعمة الأزلية : هي أن رضى من نور وجوده على ظلمة عدمك ، فوجدت وتهيأت فيك القابلية لكل ما يُلقى إليك من الأسرار التوحيدية الحقية .

وأما النعمة الروحية . . فهو أنه توجه إليك بالخطاب ، وألهمك الصواب في الجواب .

وأما النعمة القلبية . . فهي أنه أنزل في قلبك نور الإيمان بما سبق من سرِّ خطابه ، وأنتج فيه نتائج الزينة ، والشبوت عليه من غير تردّد ولا توقّف ، وفتح فيه خزائن العلوم الغيبية ، وروازن الرحمات العرشية ، والصور النورانية اللوحية ، على الصفائح الكرسية ، وجعله مرآة تظهر

(١) في (ب ، ج) : (ولا تحويل عدد) بدل : (ولا لجزيل عدد) .

تجلياتِ الأسماءِ الإلهية ؛ ففيه تظهر هيولى الحقيقة^(١) ، ومنه تفيض
سبل الطريقة ، وتجري أنهار العلوم وخلجان الفهوم ، وعليه يكون
مستقر المملكة الإنسانية ، والسلطنة الإيمانية .

وأما النعم المُلكية الحسية . . فهر ما منَّ به من القيام على ما
أرشدك إلى القيام به ، والقوة على القيام بالوظائف الشرعية ، والدوام
عليها ، والصبر عن مناقضاتها ، واجتناب قوادحها ، وصرف النفس عن
شهواتها ، ودواعي تزويراتها ، وهي لا تنحصر ، ومع كونه منَّ عليك
بذلك وأنعم . . مدحك عليه وأثابك ، ووعدك عليه جزيل العطاء ،
وعظيم الفضل ، ووجَّه إليك جميع الأسباب ، وجعلها لك بسرِّ التسخير
متوجَّهة ، وإليك مقبلة .

فلا تحصي نِعَمه ، ولا تنحصر أيادي جوده ، فمن لم يتفقدها . . لم
يشكرها ، ومن لم يشكرها . . فقد تعرَّضَ لزوالها وانتقالها عنه ، فمن
أين للقوى البشرية الترابية أن تتأهَّلَ لشيء من هذه النعم لولا فضله ،
وعميم جوده ، وحفظها ، والثبوت عليها . . مما لا يقدر ضعف البشر
عليه ؟!

فإن الأحوال معرضةٌ للتغيير والزوال ، وسرعة الانتقال ، فينبغي للعبد
أن يضرع إلى الله ، ويديم اللجأ بين يديه في حفظ ذلك عليه ، ودوام
توجُّهه إليه ، وصرفه عن ضده ونفرته منه .

ولو أخذنا في عدِّ ما في صورة الإنسان من النعم الإمدادية على ممر
الأنفاس ، في سائر الحواس . . لاستدعى إلى طول في تقسيم أصنافها ،
وتعديد أنواعها .

(١) الهيولى : أصل الشيء ، ومادته .

ولي في ذلك :

أنعم عليك بإيجاد وتصوير ومد من فضله إيمان وتنوير
فلم تزل تتوالى أصناف نعمته مقدر الكل من الأشياء بتدبير

فإذا عرفت هاتين النعمتين : نعمة الإيجاد أولاً ، ونعمة الإمداد ثانياً
ودواماً . . تبين عندك حقيقة افتقارك ، وظهر لك وجود اضطرارك إليه
أبدأ سرمداً ؛ إذ لا يستغني وجود عن المدد الذي به يكون موجوداً دنياً
وأخرى ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

فَاقْتَكْ لَهُ ذَاتِيَّةً ، وَوُرُودُ الْأَسْبَابِ مُذَكِّرَاتٌ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا ؛
وَالْفَاقَةُ الذَّاتِيَّةُ لَا تَدْفَعُهَا الْعَوَارِضُ

فاقتك - أيها الإنسان - ذاتية لك ، والفاقة : هي شدة الاحتياج إلى مدد يدفع عنه ما يناقض حالة الوجود ؛ وهو ما يدفع عنه العدم .

فاقتك أيها الإنسان ، إلى وجود اللطف والإحسان ، من المحسن المنان . . ذاتية ؛ أي : أصل ذاتك تطلبُ ذلك ، ولا انفكاك لها عنه ؛ فذاتك أبداً طالبة مستمِدةٌ لا غنى لها ، وإن وجدت لديها الأسباب العرضية . . فلا ترفع هذه الفاقة الذاتية ؛ إذ الأسباب خارجةٌ عنها لا تغني عنها .

لأنها أيضاً - أي : الأسباب - مفتقرة ومستمِدةٌ ، فكيف ترفع عن غيرها أو تمد غيرها ما هي محتاجةٌ إلى من يدفع عنها ويمدها ؟

فثبت عموم افتقار جميع المسببات ، وأسبابها ، في ذاتها ، وأوصافها ، وسائر أفعالها ؛ من حركاتها وسكناتها ، دنيا وأخرى ، وبرزخاً ومقرراً ، والغنى لله ذاتي في أوصافه ، وأفعاله ، وجميع مقدراته ومراداته .

وعلى هذا الأسلوب فاعرف مباينة الله لمكوّناته في جميع أوصافه وأفعاله ؛ فله الوجوب ولها الجواز ، وله الكمال ولها النقص ، وله الغنى ولها الافتقار ، وله القِدَم ولها الحدوث ، وأوصاف الحق لا تفارقه ، فلا تتغير بتغير الأحوال ، ولا تختلف باختلاف المظاهر ، وأفعاله أيضاً لا تحتاج ولا تفتقر إلى الآلات والارتباطات ؛ كما تكون أفعال الخلق بذلك موصوفة .

فإذا علمت أن الفاقة لك ذاتية لا تفارق وجودك على أي حالة كنت . .
فلا تزيلك هذه الفاقة ؛ وهي - كما قدمنا - : افتقارك في نفس وجودك
إلى من يقيمه ويديم بقاءه .

ثم هذا لا يكون مفهوماً لكل أحد ، بل أكثر الناس لا يعلمون
هذا الافتقار الذاتي لهم ، فرحم الله عباده بورود الأسباب المناقضة
لما هم عليه من الوجود ؛ ليرجعوا إليه في كشف ما نزل بهم ، وإيصال
ما هم إليه محتاجون ، فذكرهم ذلك وصفهم الذي هو لهم بحكم
الأصالة ، فيكونون في جميع أوقاتهم وتغاير أحوالهم شاهدين لوصفهم
من الافتقار والاضطرار ، ومستمدّين من الله فضله ، شاهدين لما هو
عليه من صفات الكمال ، فيقومون لله بحق عبوديته ، ويعرفون له سرّاً
ربوبيته ، فلا يتازعون في صفاته ، ولا يدعون نعوت كماله .

فكلما ورد عليهم سبب يناقض ما هم عليه من وجود الغنى . . ردّهم
إليه بقهره ، فكان القهر يردُّ إلى الله خلقه بالطوع والخضوع ، ودوام
الخشوع ؛ لأن النفس من شأنها ادعاء الأوصاف الربانية .

فرحم الله نفوس المؤمنين فلم يتركها وما هي عليه من الاستطالة ،
فأظهر لها سرّ قهره ، فأجابته خاضعةً لسلطان جلاله ، معترفةً بوحدانيته
في ذاته وصفاته وأفعاله ، معترفةً بافتقارها ، ومقرّةً بعجزها واحتقارها ،
فإيراد الأسباب لهذه الحكمة ظاهر .

ولو تركها وما هي عليه من دوام مساعداتها في أغراضها وانهماكها
في حظوظها . . لبقيت على دعواها ، ولقيت الله وهي له معاندة ، وفي
حلل دعواها ووخيم مرعاها ساذجة ، فأخذها بقهره الذي لا يطاق ،
ويطشه الذي لا يغلب ، ولا يفلت منه من أرثق ، ولا يتخلص منه من

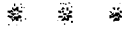
فيه علق ؛ كما يفعل بأعدائه فيما يروى عن أشد الناس عتواً ، وأكثرهم على الجناب الإلهي تكبراً وتجبراً ؛ تركهم وما هم فيه ، فلم يزعجهم بما يعرفهم وجود افتقارهم ، ويوقفهم على وصف اضطرارهم ، بل تركهم يتقلبون في العوافي ، وساق إليهم من الدنيا ما ينسيهم الرجوع إليه ، والوقوف بين يديه ، حتى انقضى أمرهم ، وانتهى عددهم ، فسَلَط عليهم من سِرِّ القهر ما لا يقدرّون على دفعه ، ولم يتفرّغوا إلى معرفة من أورده عليهم وسلطه ، بل أخذ على القلوب أن تفقه ، وعلى الألسن أن تنطق ، والأعين أن تبصر ، والأذان أن تسمع ، فوردوا الآخرة بهذه الوصف صتماً يكماً عمياً .

فانظر إلى حكمة الله في إيراد الأسباب على العباد أنها لهم نعمة ، ووجودها لديهم رحمة لهم ، ولكن الخلق في وجودها يتفاوتون بتفاوت أحوالهم ؛ فمنهم : من يتلقاها بالرضا والفرح ورؤية المنّة لله فيها ، كما يرى غيره ذلك في الملائمات ، ومنهم : من يتلقاها بالصبر والتجمل لله ، ومنهم : من يتلقاها بالتبرّم والتضجر ؛ فللأول : الرضا ، وللثاني : العطاء ، وللثالث : نفوذ القضاء .

ولكن إذا نظرت في فافتك الذاتية . . علمت أن الأسباب العرضية لا تدفعها ، فلا تستغني وإن أعطاك ووقاك ؛ فلا يفارقك وصبك ، ولا يزايلك نعتك في الدنيا ولا في الآخرة ، ولكن قد يفيض على وجودك فائضات الامتنان ، فيغمرك وجود الإحسان ، فتضمحل أوصافك ، وتبقى هذه الملابس الإحسانية ، والخلع الامتنانية ، فلا تكاد تظهر أوصافك إلا بالعلم بها ؛ وذلك في العالم الأخروي حين يلبسهم ملابس فضله وامتانه في محلّ رضوانه ، وتجلي إحسانه في أرجاء جنانه .

ولي في ذلك :

الفقر للعبد ذاتي وإن بلغت منه العطايا إلى أقصى نهايتها
قد يورد أسباب تؤلم من تلّم به لكن بها يعرف الإنسان غايتها
وترجعها لأضل فاقته وحاجته ويذكر أوصاف في ذاته بدايتها



فإذا علمت أن خير أوقاتك وقت تعرف فيه مقام عبوديتك لسيدك ،
وتشهد فيه كمال ربوبيته . . سلط عليك من الأسباب ما يشير ذلك منك
من الأوصاف القهرية ؛ ليقمك في خير مقاماتك ، لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتُ تَشْهَدُ فِيهِ وُجُودَ فَاقَتِكَ ، وَتُرَدُّ فِيهِ إِلَى وُجُودِ ذَلَّتِكَ

خير أوقات العبد : مثوله بين يدي سيده ممتلئاً بمحبته ، متهجياً بقربه ، راضياً عنه في قضائه ، ساكناً خاضعاً تحت جريان أحكامه ، منطرحاً في أرض ذلِّ عبوديته ، يرى الخير فيما يختار له لا فيما يختار هو لنفسه ، خارجاً من حوله وقوته ، واثقاً بحول الله وقوته .

فهذا وما شاكله من كل ما يكون خارجاً عن ملائمة طبعه ، ومقتضى هواه ، ومبايناً لمراده من مطلوباته النفسانية ، وشهواته الحيوانية ، واثقاً بربه ، معتمداً عليه ، وناظراً إليه ، ومستكيناً بين يديه . . فهذه أعياده ومواسمه ، وغاية رغبته فيما يعامل به ربه من نفسه ، فلا أحسن من حالة العيد إذا كان فرحه بقرب سيده ، والدخول في غمار أهل حضرته الأدياء ، وخاصته الأئمة .

فخير أوقاتهم أوقات الضرورات ؛ لأنها تخرجهم عن الاعتماد على الأغيار ، وتباين لهم الأسباب الحاجبة لهم عن شهود مليكهم ؛ فمتى زالت عنهم ، ووقعوا في ضرورة الالتجاء إلى الجناب الإلهي ، وصمدت بهم الفاقات ، وملمات الحاجات إلى من لا يصمد في الحوائج إلا إليه ، ولا تطلب المواهب إلا منه . . فأَيُّ وقتٍ أحسن من هذا وقد أوقفهم مع الله ، وردَّهم من بعد الأسباب الغيرية والأوهام العدمية إلى اليقين ، والتحقُّق بمقامات القُرب والتمكين ؟!

وكان السلف الصالح يشكرون الله تعالى على الفاقات ، والممام الحاجات والضرورات ، كما يشكر غيرهم على الظفر بنيل الحاجات ، وقضاء الأوطار ودفع المهمات ، حتى إنهم يقومون لله بحق الشكر في

ذلك ، ويرون أنه ما يفعل ذلك بهم إلا لعنايته بهم ، وحسن تربيته لهم ،
ويرون ضد ذلك مِنْ قِلِّ الحِظِّ عنده إلا على الندور ؛ لأنه مسلك خواصِّ
أنبيائه وخير أصفياه ، يسلك بهم مسلك الاضطرار إليه ، ووقوف
الحاجات عليه ، حتى إن بعضهم يقبضه وحاجته تتلجلج في صدره
لم تقض له في الدنيا ، وعدَّ ذلك من خير عبادته ؛ لوقوفه بين يديه ،
واعتماده في ذلك عليه ، ورضاه بعلمه به ونظره إليه ، ولي في ذلك :

فخيرُ أوقاتِ سَلَاكِ الطَّريقِ إلى جنابه العالِي السَّامِي ذوي الهممِ
أن يشهدوا فيه فاقنهم وذلتهم لديه ذلَّة محتاجٍ إلى الكرمِ
فنازلٌ بجناب الله حاجته لم يخشَ همّاً ومكروهاً من الألمِ



ولم ينقِرْ عنك الخلق ، ويعتبر عليك الأسباب .. إلا وهو يريد أن
بصافيك ويستخلصك من يديها ، ويعتقك من رِقِّها ، ويطلقك من
وثاقها ، فتكون عبده صدقاً ، وطالبه حقاً ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله
عنه :

مَتَى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ .. فَأَعْلَمَ : أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الْأَنْسِ بِهِ

الوحشة : هي انقباضٌ في القلب يوجد عند مواجهة مبادئٍ ؛ إما في الحسنِ وإما في المعنى ، وإذا أوحشك من الأغيار .. فذلك دليلٌ على مياينة قلبك من الأغيار ، ورفع الحجب عنه والأسطار ، وقد نزلت منازل الأغيار ، في حظائر القرب والأنس ، وتبوأت فسيح القدس ، ومنبع التمتع بالوصال ، وياينت الانفصال ، وترقيت أعالي المقامات ، وسنيات الأحوال ، فلا جرم أن تستوحش من الأغيار ، وتهرب من التعثر في كثائف الآثار .

وله علامةٌ في النفس وفي الخلق وسائر الأسباب ؛ فمن علامات الأنس بالله : الانقطاع إليه ، والتعلق في جميع الأحوال به ، والتولُّه بذكره ، والهرب من النفس ودواعيها ، وعدم الاعتماد على الأشياء ، وسقوطها عن القلب بالكلية ، فلا يلتفت إلى محبوبها ، ولا يخاف من مكروهها ، بل هي عنده في عين عدمها لم تخرج عنه ، ولم تبرز منه ، فيرى أسباباً متحركات بتحريك أفضية قدريات ، تحت أستار غيبيات ، بيد قادرٍ مريدٍ لجميع المقضيات ، ويرى هذه الأسرار تحت أستار عديمات ، حُجب بها من حجب ، وعبدها من عبد ، وعرفها من عرف ، فيستأنس بالوجود الظاهر الذي باشر قلبه ، ويستوحش من العدم الذي باينه ولم يجتمع معه ؛ إذ الوجود مياين العدم ، والنور ينافي الظلم .

والخلق : كل موجودٍ غير الله ، سواء كان من الصور الحسية ، أو من العجائب الغيبية ، فلا تسكن قلوب المشتاقين إلى غيره ، ولم تطمئن نفوس المحبين إلى سواه كائناتاً ما كان ذلك الغير والسوى .

والأنس مقامٌ من مقامات الوصال ، وحالٌ عالٍ من سنّيات الأحوال ؛
فمن حالة الأنس : ألا يوحشه شيء ، وأن يستأنس بوجوده كل شيء ،
حتى الجماد وسائر الحيوان ، فلا تنفرُ منه البهائم والطيور الوحشية ، بل
تستأنس به وتسكن إليه .

وكان بعض ساداتنا العلوية رضي الله عنهم يقول : بلغت من الأنس
أن لو وُضعت المنشار على مفرقي وأنشَقُ نصفين . . لم أحسَّ بذلك ،
ولو أُلقيت في النار . . لم أجد لذلك ألماً .

والحكايات في مقام الأنس أكثر من أن تحصر ، وكان يروى عن
الجنيد رضي الله عنه أنه قال : كنت أسمع من السريِّ كلاماً في هذا
المعنى وكان في باطني منه شيء ، حتى بلغت ذلك ، فوجدت الأمر
على ما ذكر ؛ أي : لو وضع المنشار على مفرقي ما حسستُ به ، أو ما
هذا معناه ، ولي في ذلك :

الأنس بالله حالٌ ما يُقاس به حالٌ ولم يعتري صاحبه تغيير
يستوحش الخلق سر لا يقال به إلا لمن بان عن شاهده تصويرٌ
هذه رموزٌ خفِيّاتٌ يُشار بها إلى معانٍ بلا كيفٍ وتقدير

إذا استغنى الإنسان عن الله بوجود الأعيان . . صمت عن إطلاق
اللسان عن الطلب ، وإذا أطلق اللسان ، وأيقظ الجنان ، واستعمل
الأركان . . فليعلم العبد أن ذلك دليلٌ على فتح باب العطا ، وإقبال عليه
بوجه الرضا ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

مَتَى أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِالطَّلَبِ .. فَأَعْلَمُ : أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ

متى أطلق لسانك ، وحلَّ قيد جنانك ، وحركَ في خدمته أركانك ، وجعل لك الهمة مطيةً سفرك ، والصدق في الطلب حالتك .. فاعلم : أنه لم يبعث ذلك فيك ، ولم يحركَ به عزمك .. إلا وهو يريد أن يعطيك ، وما فتح لك باب السلوك إليه .. إلا وهو يريد أن يواليك ، ولا ألهمك تصفية أحوالك وسائر أفعالك .. إلا وهو يريد أن يصافيك . وإطلاق اللسان بالتضرُّع إليه والشناء بجميل أوصافه من علامة توجُّه الإرادة إلى العبد بنيل مطلوبه ، وإسعاف مرغوبه .

فمتى وجد العبد ذلك .. فليعلم يقيناً أنه قد توجَّهت إليه العطايا الإلهية ، والمنوح الربانية ، علم ذلك أو لم يعلم ؛ لذلك قال الصديق رضي الله عنه :

لَوْ لَمْ تُرِدْنِي لِمَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ مِنْ نَيْلِ فَضْلِكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلْبَا
أو كما قال .

والطلب بصدق النية من أشرف أخلاق العبودية ، وأجل مقامات القرب ؛ إذ لم يلهمه إلا من توجَّهت إليه العناية ، واللسان يطلقه في ميدان الدعاء باعث قلبي تترجم عنه بما هو عليه من الالتجاء ، وصدق الرغبة إلى الله فيما عنده من الفضل ، والهرب إليه من سطوات العدل ، ويعقله غفلة القلب عن ذلك ، واستغناؤه بالأسباب ، والركون إلى ما يظن أنه به مستغن ، وإلى ما يظن أنه يدفع عنه ، فيعقل اللسان ، ويخرس الجَنَان ، ويعمى الروح ، وتلهو النفس ، وتتعمَّلُ الأركان ، وتظهر منه الجرائم والطغيان ، ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴾ .

وبوجود ما يناقض ذلك من ورود الفاقة ، ونزول الحاجة . . يتبعث بلا شك في الدعاء ، ويرغب في الطلب ؛ وذلك علامة عناية الله بعباده ، وإرادة إيصال فضله وعظاياه إليهم ، وتوالي إحسانه وامتنانه لديهم ، فالحمد لله رب العالمين ، فما أطف الله بعباده !! إنه يحسن إليهم ، ويتقرب منهم فيما تنفر عنه طباعهم ، وتأباه نفوسهم من مُمِرَّات القضاء ، وورود ما يناقض أغراضهم ، وذلك من أتحف ما منحهم ، وأعظم ما حوّلهم ، ولي في ذلك :

أورد عليك صنوف الضّرِّ والألم كيما تكون به من جملة الخدم
وأطلق لسانك لنيل الفضل والكرم سبحان ذي الحكمة المَنَّان بالتَّعَم
من ظنَّ شيئاً سوى هذا فلا جرّم أن يبرمه كلُّما وافى من الألم



فإذا علم العبد دوام افتقاره إلى الله ، وأنه لا غنى له عنه لفئة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، ولا يصدر هذا الشهود إلا عن صاحب وجود ، مستغرقاً في حضرة المشهود ، وهؤلاء هم الحكماء العارفون .

وأما الجهال المغرورون . . فلا يتأتى لهم ذلك ، ولا يصدر عنهم إلا ما وصفهم الله به ؛ حيث قال جلّ ذكره : ﴿ وَإِذَا أَعْمَتْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِيحَابِنِجْهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاؤٍ عَرِيضٍ ﴾ .

إذا تحقّق أن العارف يشهد قيوميته إياه على ممرِّ أنفاسه ، ومختلفات أحواله . . فلا غرور أن يقال :

الْعَارِفُ : لَا يَزُولُ اضْطِرَارُهُ^(١) ، وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى قَرَارُهُ

العارف : هو من عرف الله ، وعرف حكمته في أفضيته ، وتحقق بأوصافه وأسمائه ، فأعطى كل مشهد حقه ، وأوفى كل اسم مستحقه ، وهو مع ذلك فإن عن ذاته بوحدانية الله ، وعن وصفه بفردانيته ، وعن فعله بقدرته ومشيبته ؛ لذلك يكون محوياً عن ذاته ووصفه وفعله أزلاً ووجوداً وأبداً من كونيته وغيريته ، وجوداً من حيث وجود موجوده ؛ لذلك لا يزول اضطرابه في وجوده أزلاً ووجوداً وأبداً .

ولا يكون مع غير الله تعالى قراره لانعدام الأغيار ، وانطماس ظلم الآثار ، بظهور تجلي الواحد القهار ، فأين تكون معية الأغيار ولا وجود لها ؟ وأين القرار إليها والعدم حاكمٌ عليها ؟ فأتى بهذه الحكمة مبيّنة لما تقدّم في الحكمتين قبلها ؛ لأن الوحشة من العدم ، وعدم القرار لازم ، كذلك الطلب دائم ؛ لوجود دوام الافتقار .

فهذان نعتان من نعوت العارفين ، وصفتان من صفات الموحّدين ، فيعرفون نفوسهم بافتقارها لإدماة وجوده ، واضطرابها إلى إمداده في حركاتها وسكونها ، فمن عرف نفسه بدوام الاضطراب ، ووجود الافتقار . . عرف ربّه باختراع الإيجاد ، وتوالي الإمداد ، فلا يزال مفتقراً ، ولا يبرح مضطراً ، فهكذا حكم العارف .

وأما عامة الخلق وجمّ العبيد . . عبيدٌ التعديد ؛ فهم محبوسون في مضيق الحسنِ الغالب عليهم ؛ كونهم مع ما وافق محسوسهم ، ولاءم نفوسهم ، فإذا وجدوا ذلك . . أعرضوا عن الله ، وإن اضطروا . . رجعوا

(١) في (أ ، ب) : (يزال اضطرابه) ، والمثبت من (ج) ، وستأتي في الشرح على الصواب .

إليه بالصراخ والعيول ، والاستشفاع إليه بالأسباب والوسائل ، فهم أبدأ
محجوبون في كلا الحالين ، بخلاف العارفين ؛ فهم مضطرون إليه أبدأ
سرمداً ، أغنياء عن سواه ، لا يرجعون في مقامهم إلى غيره ^(١) ، ولا
ينزلون حوائجهم بسواه ، ولي في ذلك :

فلا يزال اضطرارُ العارفينَ وإن نالوا من الحظِّ ما يقضى به الوطر
فلا يقربهمُ من دونه أربٌ ولا يروقُ لهم في غيره نظر
قد باينوا كل مألوفٍ كذاكَ فإنَّ المرءَ يفرق بين العين والأثر
فلا تزايلُ ذوي العرفان حاجتهم يروى عن العارفين السادة الغرر



ومن علامة العارف وبعض مشاهدته : أن يكون مع الله باطناً وظاهراً ،
فيرى جميع القوى الظاهرة آثار نور الاسم الظاهر ، والقوى الباطنة آثار
نور الاسم الباطن ، ومن لم يتحقَّق ذلك . . لم تصحَّ معرفته ، فلم يعرف
نفسه ولم يشهد ربه ، فأرشد المؤلف إلى أنه لم يتحقَّق بالاضطرار ما
لم يعرف ذلك ، فيتحقَّق بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، الذي
هو كنز من كنوز العرش ، فقال :

(١) في (ج) : (لا يرجعون في مقامهم إلى غيره) .

أَنَارَ الظَّوَاهِرِ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ ، وَأَنَارَ السَّرَائِرِ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ

إنارة الظواهر المحسوسات الخلقيات بأنوار آثاره ؛ أي : أفعاله ؛ وهو كل ما توجَّهت إليه القدرة والإرادة والعلم^(١) ، فكل مقدور مراده معلوم ، فهو أثر بمؤثر فيه ، وكل مؤثر فيه . . فهو حادث بمحدث ، وما صحَّ حدوثه . . جاز عدمه ، وكل ما سوى الله . . فهو محدثٌ بإحداثه ، وموجود بإيجاده ، فالوجود كله أثر لمؤثره ، ومدبر تحت حكم مُدبِّره ، ومصرف بتصريف مُصَرِّفه ، فالفناء والانعدام متطرِّقٌ إليه ، وأوصاف الله قديمة بقدمه ، باقية ببقائه ، واجبة بوجوبه .

وأنوار الظواهر هو وجودها ، وقد علمت أنها من أنوار الآثار ، وموسومة بسمة الأغيار ، وأنوار السرائر من نور الأوصاف الأزلية ؛ لذلك لم يتطرَّق إليها تغيُّرٌ ، ولا يتوجَّه إليها الانعدام ، بل هي أزلية سرمدية الدوام .

وأنوار الظواهر : هي الحواس الظاهرة ؛ كالسمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، والحس ، وتعلُّقها بالظواهر وما يتعلَّقُ بها ؛ فلا تتعلَّقُ بالأمر الغيبية ، والصفات العلية ، وإنما هي قاصرة عن إدراك الأمور الخلقية حساً ومعنى .

وأنوار السرائر : هي من أنوار الصفات ، فتعلَّقُها بها ، وهي باقية لا فناء لها ، ولا زوال ولا غيبية ولا ارتحال ، بل هي دائمة بدوام ما هي متعلِّقة به ، وموجودة منه ، وهو الوصف الإلهي .

(١) كشافاً وتخصيصاً وإيجاداً .

فالسرائر : هي اللطائف الإنسانية ؛ كالقلب والروح والسرّ ، وإنارتها
 بما أفاضه عليها من نور ذاته وصفاته وأسمائه ؛ فالسرّ بالاستغراق ،
 والروح بالشهود والاستبصار ، والقلب بإفادات العلوم ولطائف الفهم .
 والظواهر إنما تتعلّق بالتدبيرات الكونية ، والإدراكات الحسيّة
 الخلقية ؛ لذلك تطرق إليها الزوال بزوال متعلّقها وغيبته ، لذلك ؛ أي :
 لأجل أن تعلق أنوار الظواهر بالأعيان الظاهرة المحسوسة المحكوم
 عليها بالفناء والزوال :

أَفَلَتِ الْأَنْوَارُ الظَّاهِرَةُ ، وَلَمْ تَأْفُلِ الْأَنْوَارُ السِّرِّيَّةُ

(أَفَلَتِ الْأَنْوَارُ الظَّاهِرَةُ) وغابت شمسها ؛ لتبدّل أرضها ، وانكشاف
 سماها ، (ولم تأفلِ الْأَنْوَارُ السِّرِّيَّةُ) والمشاهد الحقيّة ؛ لثبوت مشهدها ،
 ودوام حقيقتها .
 ثم أنشد المؤلف لنفسه رضي الله عنه مشيراً إلى هذا المعنى ،
 ومؤيداً لهذا المبنى فقال :

طَلَعَتْ شَمْسٌ مِّنْ أَحِبِّ بَلَدٍ : فَاسْتَضَاءَتْ فَمَا لَهَا مِنْ عُرُوبٍ
 إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ : لِشَمْسِ الْقُلُوبِ لَيْسَ تَغِيْبُ

وذلك أن شمس النهار من أنوار الظواهر ، فتطرق إليها الغيبوية
 والأفول ؛ لأنها من جملة الأنوار الظاهرة ، فغيرها كذلك من سائر الأنوار

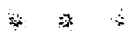
الظاهرة ؛ لذلك قال الخليل صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا أُحِبُّ الْأَفْلَاحَ ﴾ .
 وكل ما كان من الأنوار المحسوسات ، والصور الخلقية . . فلا بد
 من أفوله كائناً ما كان ، فلا ينبغي أن تقصر عليه المحبة ؛ لأنها تزول
 بزواله ، وتذهب بفنائها .

وشمس القلوب - وهي المعارف والعلوم ، والأسرار اللدنية ،
 والإلقاءات الوحيية - ليس تغيب ؛ لأنها أنوار أزلية ، وأسرار حقيية ،
 وواردات ربانية ، ولطائف سرية ، ونفحات وقتية ، ومواهب امتنانية ،
 وعطيات رحمانية ، وملابس قدسية ، ومشاهدات وصفية ، فأين تغيب
 هذه ؟! بل هي مستمرة باستمرار ما عنه صدرت ، وبه تعلقت .

فعلى المرید الصادق الأديب الموافق : أن يكون كل همِّه التعلق
 بهذه الشمس التي لا تأفل ولا تغيب ، وكل طلبه لذلك ؛ عسى أن
 يكون له نصيب مما هنالك ، ولا يشتغل بالأنوار الآفلة ، والحظوظ
 العاجلة ؛ فالإنسان من حيث شرفه وعلو مقامه بالأنوار الباقية ، والحقائق
 الدائمة ، والمشاهدات الصافية ، والعلوم الوافية ، لا بالجسم الفاني
 ومتعلقاته ، وذنبيات حظوظه ، وذنابل شهواته ، وذنبيات مطالبه ومآريه
 الفانية المتوهمة ، التي لا حقيقة لها ولا طائل ، ولا جدوى ولا نائل ،
 ولي في ذلك :

إن كنت تخطب نعيماً لا بقاء له	فبئس ما أنت مهتمُّ به طلباً
الجسم فنان وإن جلَّت مكانته	فعن قريبٍ تزول العين والسبباً
فمطلب الروح أولئى أن يقام له	بغاية الجهد والتشمير والطلباً
إن كنت إنساناً فأعلم ما تراد له	فأنت بالروح معروفٌ لك النسباً
فكن بشأنه حريصاً كي تكون له	جياً لتجتمع الأحباب والقرباً

فكل ما كنت من معنى تحاوله فأعلم بأنك بذاك اليسر مختطبا
كما تمكنت فاطلب وأسع بألته من قبل تفترق الآلات والنسبا^(١)



فإذا كان حالة العبد النظر في الأوصاف العلية ، وكان الغالب على
قلبه التعلقُ بها . . كان كل ما يصدر عنها له بغية ، ولديه منية ، وإن كان
الغالب عليه شهود الأنوار الأفلة ، والحظوظ العاجلة . . كان بالعكس
من ذلك ، فخطب المؤلف مَنْ كان الغالب على قلبه التعلقُ بالأنوار
الأزلية ، والصفات العلية ، فقال :

(١) في (أ) : (تغترب) بدل : (تفترق) .

لِيُخَفِّقَنَّ أَلْمَ الْبَلَاءِ عَنكَ عَلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَبَلِّغُ لَكَ ؛ فَالَّذِي
وَاجَهَتْكَ مِنْهُ الْأَقْدَارُ .. هُوَ الَّذِي عَوَّدَكَ حُسْنَ الْأَخْتِيَارِ

ليخففن ويحملن عنك - أيها المؤمن - بأن كل ما يصدر في الوجود من الأحكام صادرة عن مشيئته ، ومعلومة له ، ومخترعة بقدرته ، وكنت محباً لمن هذه الأوصاف أوصافه ، وراضياً به رتياً وحاكماً وقاضياً ، فلا جرم أن يخفف عنك الألم ، ويكون تألمك باعتراضك على محبوبك ، وعدم محبتك لما أحبب ألبماً أشد مما ابتليت به ^(١) ؛ لأن ما ابتليت به سينقضي وينتهي ، واعتراضك عليه ألم دائم ، ولوم لازم ، يلزم صاحبه في الدار الآخرة عازة .

فإذا علم ذلك .. خفف عنه - لا محالة - ما يجده ، فلا يتألم إلا الجسم والقلب ساكن ، بل قد - إذا غلبه الحب - يلتذ ، وإذا التذ القلب .. فلا عبرة بما يوجد في الجسم ، فإذا سرت محرقات البلايا من الجسم إلى القلب ؛ فإن كان راضياً سليماً .. سكنت تلك الحرارة ، ولانت خشونة الإلمامات ، وانعكست على الجسم لينها وبرودتها ، فيستريح لذلك وإن كان الألم باقياً ، فلا تستبعد ذلك ؛ فلقد تلذذ بالبلاء ما لا يحصون من الصنفوة الصوفية ، الذين باشر قلوبهم صرْفُ اليقين ، وتحققوا بحقائق القرب والتمكين .

وإذا كان الأمر بالضد من ذلك ؛ فإذا سرت البلية بحرارات وهجها إلى القلب ، ووجدته ممتلئاً بالحزن لذلك ، والتبرؤ مما هنالك والسخط .. تضاعفت آلامها ، وانتشرت على الجسم احتراقاتها .

(١) في النسخ : (ألم أشد مما ابتليت به) بدل : (ألبماً أشد مما ابتليت به) .

فهذا من كان ممتكناً بالشهوات ، ومكبلاً في قيود العادات ، قد ضربت على قلبه كسائف الظلمات ، الحاجة عن التعلق بالأنوار القدسيات ، والمشاهد الروحيات ، وإلا : لو انكشفت عن قلوبهم هذه الأغطية الكونيات ، والحجب الظلمانيات ، فتعلقت قلوبهم بالأوصاف العلا ، وتقدّست أسرارهم بالامتلاء بشهود المولى . . فلا تغيّرهم العوارض ، ولا تنزل مواجيدهم عواصف القضا ، بل يكونون محفوظين عند ورود القضا ، موصوفين بالرضا ، وإن تعاقب على ظواهرهم التغييرات . . فالقلوب باقية على ما هي عليه ، فلا يختلجهم زيغ ، ولا يمتريهم رب ، بل تخرج أرواحهم وهي مشتاقة ، وإلى ما هي متعلقة به تواقّة ، فانظر ما يمنح الله عباده من صفو وداده .

فالحمد لله رب العالمين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ؛ فالذي واجهتك منه الأقدار المناقضة لمرادك . . هو الذي عوّدك حسن الاختيار ، فلا يكون ظنك به سبحانه إلا أن الخيرة في ذلك المختار كما عودك ؛ فالعبد قد يكون الاختيار له غالباً فيما يناقض مراده ، ويخالف هواه ، وذلك ظاهر ؛ لأن المصائب الدنياوية مناقضة لمراد الإنسان ، وهي خير له في العقبى بلا شك ولا مرية في ذلك ؛ لأن الإنسان إذا أمعن النظر ، وحقق واستبصر . . رأى كل محبوب عنده مصيبة ، وكلما كان أشد حباً . . كانت المصيبة عنده أعظم ؛ فكل مصيبة تصيبه في دنياه فهو عندها :

إما ذو فرحة لما يحتسبه عند الله من عظيم الأجر بوعده الصادق على ذلك ، وإما متخلص من وييل وجعه وتفجّعه كل حين بتوقّع المصيبة بها .

ولي في ذلك :

يخفف آلام ما ينزلُ بذِي الألم علمة بأن الإله الحق مختارُ
فذا الذي أنزلَ المقدور واحتكم هو الذي أورد أسرار وأنوار
ليحملنَّ مرير الضميرِ والسقم حسن انتظارٍ لفضلٍ منه مدار



وإذا كان للعبد بصيرة ، وصفو سريرة . . حمل عنه ما يشهده من
لطف الله في قضاياه ؛ فلا قضية ينفك عنها اللطف ، واللطف : هو
وجود الحق في ذلك الوارد : إما بطريق الجلال إن كان مما لا يلائم
البشر ، وإما بطريق الجمال والعطف والإحسان إن كان يلائم ، فكل من
نظر بذلك النظر ، واستبصر بذلك المعتبر . . علم ما أشار إليه المصنف
رحمه الله بقوله هنا رضي الله عنه :

مَنْ ظَنَّ أَنْفِكَأَكْ لُطْفِهِ عَن قَدْرِهِ .. فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ

مَنْ ظَنَّ وَحَكَّمَ ظَنَّهُ بِأَنَّ اللُّطْفَ لَمْ يَقْتَرِنَ بِالمَقْدُورِ ، وَيَنْفَكُ عَنْهُ ..
فَذَلِكَ الظَّنُّ الفَاسِدُ صَادِرٌ عَنِ قُصُورِ النِّظَرِ عَلَى مَا هُوَ الحَالَةُ الرَّاهِنَةُ
فِي الوَقْتِ ، دُونَ أَنْ يَرْمُقَ عَوَاقِبَ الأُمُورِ ، أَوْ يَمَعْنَ النِّظَرَ فِيمَا قَارَنَهُ مِنْ
المَصَالِحِ ، وَدَفَعَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ ضَرَرًا ، وَأَكْثَرَ خَطَرًا ، وَلَمْ يَعْطِ النِّظَرَ
فِي العَوَاقِبِ وَخَفِيَّاتِ الأَلْطَافِ إِلَّا ثَوَاقِبَ أنوارِ البَقِيَّةِ .

وَإِذَا كَانَ قَاصِرَ النِّظَرِ عَنِ ذَلِكَ .. فَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى ضَعْفِ يَقِينِهِ ،
بِقَدْرِ مَا يَفُوتُهُ مِنْ شَهُودِهِ فِي المَقْدُورَاتِ مِنَ الأَلْطَافِ ؛ فَلذَلِكَ لِمَا
كَمَلَ يَقِينُ الأنْبِيَاءِ ، وَأَكَابِرِ الصِّدِّيقِينَ وَخَوَاصِ المَقْرِبِينَ الأَصْفِيَاءِ ..
اسْتَلْتَنُوا البَلِيَاءَ ، وَرَأَوْهَا مِنْ جَمَلَةِ الفَضَائِلِ وَالعَطَايَا ؛ كَمَا قَالَ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَحْنُ - مَعَاشِرَ الأنْبِيَاءِ - أَشَدُّ بَلَاءً ، ثُمَّ الأَمْثَلُ
فَالأَمْثَلُ » (١) .

فَمِنَ البَلَاءِ : مَا هُوَ فِي العَرَضِ وَالبَدَنِ ، وَمِنْهَا : مَا يَكُونُ فِي المَالِ
وَالأَهْلِ وَالوَالِدِ ، فَإِذَا تَتَبَعْتَ أَحْوََالَ الأنْبِيَاءِ صَلَوَاتِ اللهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ .
لَقِيْتَهُمْ أَشَدَّ النَّاسِ ابْتِلَاءً ، وَأَشَدَّ مَصَائِبَ ، وَأَكْثَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ صَبْرًا ،
وَأَجْمَلِهِمْ تَجَلُّدًا وَتَحَمُّلًا .

فَمِنَ العَرَضِ : مَا رَأَيْتَ مَا يَنْسَبُونَ إِلَيْهِمْ مِنَ الجُنُونِ ، وَالبَسْحَرِ ،
والتَّكْذِيبِ ، وَالتَّسْفِيهِ ، وَالسَّخْرِيَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أنواعِ الثَّلَبِ .
وَفِي المَالِ : مَا يُرَوَى أَنَّ مِنْهُمْ بَلَّ أَكْمَلَهُمْ وَأَعْظَمَهُمْ عَصَبَ الحَجَرِ

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٨) ، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

على بطنه^(١)، ومات ودرعه رهين^(٢)، ويقال: إن سبعين نبياً ماتوا في السجود من الجوع، ومنهم من قتله القمل.

والولد: ما ترى أن أولاد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كلهم قبضوا في حياته^(٣)، ولم يقل إلا خيراً، ولم يحملهم على تحمل ذلك إلا وفور اليقين، والثبوت في مقامات التمكين، ورؤية ما أودع الله فيها من خفايا الألطاف.

وأما أحوال الصحابة والتابعين.. فأكثر من أن تحصر، وأظهر من أن تشهر، مع ما هم عليه من الصبر الجميل، الذي يراهم من لا يعرف ما نزل بهم في زبي من ترد عليه صنوف النعم؛ بل نعم هي باطنة أودع فيها من أطفاه ما يستحققر إلى جنبها كل نعمة، فكانوا لا يحبسون زوال ما نزل بهم من البلايا، كما لا يحب من نزل به الرخاء زواله عنه، ولا تحويله منه، وما صير البلاء عندهم بمنزلة الرخاء عند غيرهم.. إلا ما يرد على قلوبهم من الألطاف، وما يبشرها من روح اليقين، وما أمرها عند غيرهم.. إلا قصور النظر عن ذلك، وخلو القلب مما هنالك.

فاللطف المقارن للبلايا: إما أن يكون من طريق الإيمان والعلم، وإما أن يكون من طريق اليقين والكشف.

فالأول: إما أن يكون فيما وعد الله الصابرين من الجزاء، وما أعد لهم من المثوبة والمدحة على ذلك، أو ما يدفعه عنهم مما هو أعظم مما هم فيه، فعند إرسال النظر في ذلك الميدان يعلم ما لله عليه

(١) رواه الترمذي (٢٣٧١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٩١٦) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٣) إلا الزهراء رضي الله عنها، فكانت أول أهله لحاقاً به.

فيه من المِنَّة واللفظ الذي لا يوازيه عمله ، ولا يبلغه مطمعه إلا
بذلك الابتلاء ، فيتحمَّلُ ويصبر ، بل يشكر لما لله فيه عليه من عظيم
الأجر ، وخفي اللطف ، فهكذا وما شاكلة من حسن النظر من نتائج
العلم والإيمان .

وأما ما كان من طريق اليقين والكشف . . فهو ما يتعرَّفُ الله به
إلى قلوب أوليائه من خفيات آلائه ، وما يمنح به أسرارهم من لطيف
ولائه ، فيكشف لهم خزائن القرب والعطاء ، فيخيرهم ما يختارون ،
فيرون دنوّه في حال اضطرارهم ، وعنديته عند انكسارهم ، فيختارون
ذلك اختياراً ، وقد حملَ عنهم أثقالَ ما ينزل بهم من البلايا ما يرد على
قلوبهم من المنح والعطايا ، فيتلذذون بذلك ، ويفرحون به فرح غيرهم
بالنعم الظاهرة ، بل أعظم ؛ لأن هذه نِعَمٌ دائمةٌ ولا انقطاع لها ولا
نفساد ، والنعم الظاهرة نافذةٌ منقطعة ، فأين ما بين النعمتين ، وفرق ما
بين المُنْتِنين ؟!

ولا تظن أن ثواب المتحمِّلين وأجر الصابرين يفوت هذه الفرقة ؛ بل
أعظم المثوبات مع ما نالوا من التعرُّفات وأنواع القربات ، وأعظم مشوية
- وأكرم بها من تحفة - أن الحق سبحانه يُنازلُ قلوبهم بلذيق الخطاب ،
وشهي الجواب ، ويكرمهم ويبجلهم بين أهل حضرته ، ويباهي بهم أهل
مملكته .

فانظر ما في واردات الأقدار من الألفاظ ، ونيل الإسعاف ، فأهل
العلم والإيمان يتذكرون ما أصيب به ذوو المقامات العلية ، وما نزل بهم
وما يصدر عنهم عند ذلك . . فلا يرون منهم إلا صبراً جميلاً ، فيكون
لهم عزاء على ما أصابهم ، وجبراً لما آلم قلوبهم ؛ فهم أبدأً يتتبعون

الأثار ، ويتحسسون الأخبار ؛ من نبي أو ولي أو صديق أو شهيد ، فتكون لهم أسوة وبهم عبرة ، فلا شك عند قوفهم على أخبارهم وبيان آثارهم في ذلك أن يورثهم التحمل والصبر .

وأهل اليقين والشهود يكون مشهدهم على وصف سيدهم ، وحسن اختياره لهم ، ورضاه عنهم ، وإيقافهم على فقرهم واضطرارهم ، وما هو المطلوب منهم بين يدي مليكهم ، فلا شك يورثهم الرضا عنه فيما فعله ، واختيار ما اختاره لهم ، فلا يكون لهم معه اختيار ، ولم يتحسسا على الأثار ، وبيحثون على الأخبار لما هم شاهدون من الأنوار ، وناظرون من الأسرار ، وحسن الاختيار لغيبة الأثار بظهور الواحد القهار ، وقل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، ولي في ذلك :

اللطفُ مقروءٌ بالمقدورُ يعرفُ ذا مَنْ حَقَّقَ أَنْ الإِلهَ الحَقَّ مختارُ
فلا يظنُّ انفكاكَ اللطيفِ في نَفْسٍ تشهدُ بذاك أحاديثُ وآثارُ
وكلُّ قاصِرٍ عن هذا فذو نظيرٍ عن ظاهرِ الحقِّ مطموسٌ ومحتارُ
إياك تقصُرُ عن تحقيقِ مشهَدٍ من يشهدُ بعينِ الهدى مستور أنوار

ومن جملة الألفاظ المقرنة بالمؤلمات : العافية من أعظم منها ^(١) ، وما وعد الله عليها من عظيم الجزاء للمؤمنين ، ومعرفة ضدها ؛ فلولا الألم . . لم تعرف نعمة العافية ، ولولا الموت . . لم تعرف الحياة ، ولولا النار . . لم يعرف نعيم الجنة ، ولم يظهر شرف المطيع والمؤمن على الكافر والعاصي ؛ فاللطف لم يخل عنه شيء ، ولولا اللطف . . لم يظهر سرُّ العدل ، ولولا الطول . . لم يعرف نعيم الفضل .

(١) فما من مؤلم إلا وهناك ما هو أعظم منه ؛ فمعافاته من الأعظم عافية ومئة .

فالميمون مَنْ عرف لطفه في سائر أقضيته ، فإن كنت لا تصادف من قلبك شهود اللطف في مبرّات القضاء وملائماته (١) ، وجميع الحركات والسكنات في سائر الأوقات . . فاعلم : أن نظر قلبك قد صَدِئَ ، وأظلم عليه غلبة الهوى ، واستولت على منظره المُكدِّرات النفسانية ، والحاجبات الشيطانية ، والأسباب الدنيوية ، ورؤية الخلق ، وامتلاؤه بما فيه من فسيح العادة ، فاتخذ لنفسك بصيراً تهتدي بهديه ، وتقتدي بحسن أسوته ، وتهذّب بصفات أحواله ، وتتأدّب بصفات أقواله ؛ لتعمل على جلاء بصيرتك ، وتنوير سريرتك ، ويزاح عنك الهوى ، وتلبسه الذي يعمي عن رؤية الحق وأهله .



ومتى عملت على ما ذكرنا ، وانجلى عن عين قلبك صدأ الهوى وظلمة الجهل . . رأيت الطريق قد اتضح ، والباب قد انفتح ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في (ب ، ج) : (في مبرّات القضاء وملائماته) .

لَا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقَ عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلْبَةِ
الْهَوَىٰ عَلَيْكَ

لا يخاف عليك - أيها السالك لطريق الحق ، والطالب منهج الهدى -
أن تلتبس وتشبه عليك الطرق ؛ لوضوح الحق ، وبيان الهدى ؛ لأن الله
سبحانه وتعالى أنزل كتبه ، وأرسل رسله مبينين ومبشرين ومنذرين ؛ لئلا
يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ
مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ
الْسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ .

وما ضلَّ مَنْ ضلَّ ، وغوى من غوى .. إلا باتباع الهوى ، وغلبة
الغفلة والجهل ، فرحم الله ابن الفارض حيث قال :

وَتَهْجُ سَبِيلِي وَاضِحٌ لِمَنِ اهْتَدَىٰ وَلَكِنَّمَا الْأَهْوَاءُ عَمَّتْ فَأَعْمَتِ^(١)

والطرق : هي ما أنزل الله من الهدى والبيّنات ، فكل إنسان من لدن
آدم إلى آخر الخلق يجد فيه طريقاً موصلاً إلى الله ، إذا تمسك به ..
أوصله وهداه سبيل السلام .

ومن هنا قيل على التحقيق عن أهل الحق : إن القرآن كله ثابت
لا يطلق عليه النسخ ؛ لأنها لم تنزل قطرة من ماء التنزيل إلا وجدت
من أرض القلوب لها موضعاً حال نزولها ، وجميع أصناف الخلق كل
منهم على محجة منه : إما لهم ، وإما عليهم ، فكل كلمة منه وكل آية

(١) ديوان ابن الفارض (ص ٥٥) ، والبيت من التائية الكبرى المسماة بـ « نظم السلوك » .

وكل سورة .. لها في الخلق كلمة وآية وسورة ، وكل حرف له طرف ،
ومجموع القرآن بكامله يخاطب كل إنسان على حدته بجميع أوامره ،
ونواهيه ، ومواعظه ، وعجائبه ، وقصصه ، فيجده جميعه متوجهاً إليه
بالخطاب ، وملاحظه بالمراقبة في جميع الحركات والسكنات ، ﴿ وَأَوْحَى
إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنِ لِأَنَّكَ بِهِ وَمَنْ يَلْعَلْ ۚ ۝

فافهم هُديت ، وما أعمى من عمي عن ذلك .. إلا غلبة الهوى ،
والإعراض عن ذكر المولى ، وتحكيم الجهل ، ونبذ العلم ، واستحسان
العادات ، واتباع الشهوات ، ونسيان الرجوع إلى الله ، وطول الأمل ،
وتسويق العمل ، والوقوع في الهفوات ، وكثرة التخليط والزلل ، ولو
انكشف عن القلوب غمرة أهوائها ، وظلمة شهواتها .. لَرَأَتْ الْحَقَّ
ظاهراً لا خفاءً عليه ، والباطل باطلاً لا مريةً فيه .

اللهم ؛ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا
اجتنابه ، ولي في ذلك :

فلا يخافُ أَلْتَبَاسَ الْحَقِّ ذُو نَظَرٍ

صَافٍ عَنِ الرَّانِ سَالِمٌ عَنِ هَوَىٰ خَطَلٍ

إِنْ شِئْتَ أَنْ تَهْتَدِيَ سُبُلَ السَّلَامِ فَلَ

تَسْلُكَ طَرِيقِ ذَوِي التَّخْلِيطِ وَالزَّلَلِ

وَاجْعَلْ أَمَامَكَ خَيْرًا تَسْتَفِيدُ بِهِ

عِلْمًا وَحَالًا وَهَذَا غَايَةُ الْأَمَلِ

وَمَا أَعَزَّ فَتَىٰ فِي ذَا الزَّمَانِ لَهُ

إِلَى الْعَلَاهِمَّةِ تَأْبَىٰ عَنِ الْكَسَلِ

يا طالباً من رغيد العيش أحسنه

إتبع رجالاً سموا عن ثقله الأمل



ثم لما كان الهوى من مقتضى البشر وهو مضاد ظهوره لظهور الحق . .
علمنا أن الله سبحانه بديع حكمته وسابق كلمته ستر الحق بظهوره ،
وقد علمت أن ما سوى الحق باطل عَدَم ، فكيف يستر الحق ؟!
فعلمنا أن ذلك تجلّي سرّ قهره وغلبة أمره ؛ لذلك قال المؤلف
متعجباً لذلك ، ومنزّهاً أن يستره العدم ، أو يدخل تحت غلبة ظهور
الباطل ، فتحقق أن الباطل لم يستر الحق ، وإنما ستر الحق بالحق ،
وإنما حجب الباطل بالباطل ؛ فالحق ظاهر لا غيبة له ، والباطل غائب
لا ظهور له ؛ لذلك صدّر هذه الحكمة بالتسبيح فقال :

سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ
فِي إِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ

التسبيح : هو تنزيه الحق سبحانه عن أن يتصف بوصف يناقض الكمال ، أو يجول في ماهيته المثال ، أو يحد بالحدود ، أو تحويه أكناف الوجود ، أو يخلئ عنه موجود .

والستر : هو الصون والحفظ ، لا من القهر والإحاطة هنا .

وسرّ الخصوصية : هو ما أودعه الله من سرّ توحيده أسراراً خواصّ عبّيده ، فكانوا بذلك الاختصاص غرفاء أدياء ، وأقادهم كل حال سني ، وخلق رضي ، ومقام علوي .

والاختصاص : هو امتنانٌ لا في مقابلة عملٍ ولا وسيلة ، ولا عملة ولا حيلة ، بل لطيفة من نور كماله ، فيها مجموعة تجليات جماله وجلاله ، ومجموع عليّات أوصافه ، أهل لها في سابق علمه وباطن أمره قوابل استخرجها من ظلمة العدم ، ثم أودع تلك القوابل وعين تلك الأعيان ذلك السرّ الاختصاصي ، والوهب الامتثاني ، والفيض الرباني ، والنقّس الرحماني ، ثم غار على سرّه أن يذاع ويبدل لمن ليس له أهلاً ، فألبس تلك اللطائف بمحيطات كثائف البشرية ، فافتقرت إلى مقيم يقيمها ، وربّ يربّيها ، ورزاق يضعمها ويسقيها ، فظهر عظمة الربوبية في ظهور سرّ العبودية ، وعظمة الربوبية : هي أسماء القهر ، ولو لم يفتقر إليها . . لم يظهر سلطان تلك الأسماء ، ولتعيّنت مظاهرها^(١) .

(١) في (أ ، ب) : (ولا تغيبت مظاهرها) والمثبت من (ج) ولعله الأوفق .

فسبحانه ما أطفه في ظهور عظمته !! وما أعظمه في لطيف حكمته !!
 فهذا سرُّ العبودية ، وكلما كانت أصفى .. كان الظهورُ فيها أكمل ،
 فلا يرقى إلى مقامات الكمال ، ولم يعرج إلى سني الوصال إلا في سُلْمِ
 العبودية ، وسُلْمُها له إلى الكمال طريقان لا يتمُّ أحدهما إلا باستصحاب
 الآخر ؛ فأحدهما إلى العلو ، ويسمى قَلْباً ، والآخر إلى الخمول والذبول
 والانكماش والانطماس ، ويسمى نفساً ، فكلما نزلت النفس منزلاً ..
 صفا للقلب منهلاً ، وعلا للروح مقام ، واكتسى السرُّ تجلياً .. فهكذا .
 فالعبودية بالقلوب : وجودُ التعظيم والإجلال ، والانطواء تحت
 محرقات الجلال ، والعبودية بالأرواح : حسنُ التأدُّب والإطراق ، والحياء
 وصيانة الجنب الإلهي .

وعبودية الأسرار : بالاحتراق بنيران التجلي ، والذهاب في صفات
 الحق .

وعبودية النفوس : بالدلة والافتقار ، ودوام الانكسار والاستغفار ،
 وصفو الخدمة عن شائبات الاغترار ، وغير ذلك ممَّا لا ينقض بانقضاء
 الأعمار .

ولو ظهر سرُّ الربوبية .. لانحلَّ نظام العبودية ، فمن هنا : لا يجوز
 لمن انكشف له إظهاره ، بل يصونه ويستره ؛ لبقاء هذا النظام ، والتحام
 هذا المقام ، ولي في ذلك :

ففي العبودية أسرارٌ ظهرنَ بها أسما الإله وشرع الدين والحكم
 فلو ظهرنَ لم يبق دينٌ كذاك ولا تغيبت صورُ الأحكام والكلم
 سرُّ اختصاصات في الآزال منَ بها على لطائف أعيان في العدم



وإذا علمت أن عظمة الربوبية لم يكمل ظهورها ، ولم يشرق نورها إلا في رفعة العبودية ، وهي البقعة المباركة ، والزيتونة المضيئة ، والخصلة الرضية . . فيكون حينئذٍ مَنْ أُقيم فيها وأحسن الاستقامة فيها قد تكملت لديه المنة ، وعظمت عنده النعمة ، والعبودية كما علمت أن لها ظاهراً وباطناً ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تُطَالِبْ رَبَّكَ بِتَأَخُّرِ مَطْلَبِكَ ، وَلَكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأَخُّرِ أَدَبِكَ

لا تطالب ربك وتناجزه في أمرٍ تطلبه منه ^(١) ، فلا تستحق عليه حقاً ؛ فالمريوب محكومٌ عليه ، والربُّ يتصرفُ من غيرِ حَجَرٍ عليه ، ولا بينة فيما أمره إليه ؛ فإنه ﴿ لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَقَعُ ﴾ لكمال ربوبيته ، وقهر ألوهيته ، ﴿ وَهَرُ يُعْلَوْنَ ﴾ عن أداء حق ربهم ، وتعظيم جناب إلههم عن أن يشارك في مملكته ، أو يعارض في أفضيته .

وليس جناب الربوبية محلاً للمطالبة ، ومحل المطالبة مقام العبودية ؛ وهي النفس ، فمن عكس القضية .. فهو بالعقوبة أجدر ، ومن وبيل النكال أحذر ؛ حيث طالب من هو مستبدٌ بالأمر والتقدير لمن هو محلُّ المطالبة بالقيام بحق ذلك المقدير الحكيم ، والسيد العليم ، فلا يخفى ما في ذلك من سوء الأدب ، وفظيخ الجهل من وجوه عديدة :

فمن الاعتراض في أحكام الله بما هو ممنوع عنه ، والآخر : التخير عليه بما لا يعلم فيه بوجه الخيرة ، والثالث : الاستعجال واتهام الله في وعده ؛ وذلك هو الظن السوء ، بل حق العبد : أن يطلب من الله مع التفويض بما هو الخير عنده ، والأصلح لديه ، ويكون طلبه عبوديةً لا لحظٍ يطلبه ، بل إن نال ذلك المطلوب .. فقد ظهر له أثر الإجابة ، وحققه بما لا يظهر ، فهو من العلم المستأثر به دون خلقه ، فليس له أن يطالبه بظهور ما هو مستأثرٌ به ، بل يسكن ويطمئن ويحسن ظنه ، ولا يقطع من فضل الله عزمه ، بل ينتظر على ممرِّ الساعات والأوقات

(١) المناجزة : هي طلب إنجاز أمرٍ حالاً ، أو قضاء حاجة ، وفي (ب) : (وتناخره في أمر تطلبه منه) بدل : (وتناجزه في أمر تطلبه منه) .

والأنفاس ، فلها أوقات تظهر فيها آثارها ؛ فقد تظهر من حيث لا
يحتسب الداعي أن ذلك من آثار الدعاء ، فالدعاء والمدعو به والداعي
بأحكام أزلية مزمومة بيد قادر حكيم ، قد قدر الأوقات والأحوال ومقدار
الأمر ، فلا شيء يتعدى وقته ، ولا يتقاعد عنه .

فإذا علم العبد ذلك . . فأحسن أحواله مطالبته نفسه بالأدب ، فهو
المطلوب منه لهذا الحاكم القادر ، وهو ربه وسيده ومليكه ، ولي في
ذلك :

فلا تطالب بالمطلوب إن له وقتاً متى حان إبانته أتى عجل
وطالب النفس بالحق الذي طلبها منها فذاك مقام العبد في العمل



ثم إذا أقامك الله فيما هو المطلوب منك ؛ وذلك بأن يقيم ظاهرك
في خدمته وامتناله وأمره ، وباطنك مستسلماً لحكمه ومتقادماً لمشيئته ،
يتلقى مواقع القدر بالرضا والتسليم ، ويقيم نفسه في الأحكام على حد
الأمر لا يتعداه ، ولا يطلب القيام في سواه ، بل يكون غاية مطلبه امتثال
أمر سيده ؛ فإذا كان كذلك . . فلا مزية في أنه قد أكمل نعمته عليه ؛
لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنْ جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمَثَّلًا لِأَمْرِهِ ، وَرَزَقَكَ فِي البَاطِنِ الْإِسْلَامَ
لِقَهْرِهِ . . فَقَدْ أَعْظَمَ الْمِنَّةَ عَلَيْكَ

منى جعلك واستخلصك وثبتك في الظاهر ؛ أي : في ظاهر
الأفعال ، وسنيات الأحوال في الأقوال ، وسائر الأعمال ، سواء كانت
من قبيل الأمر ، أو اجتناب النهي ، واجباً أو مستحباً ، محرماً أو
مكروهاً ، ممثلاً لأمره ، ومثابراً عليه ، ومجموع الهمة ، وفارغ القلب
إليه ، مبادراً إلى ما نذبت إلى فعله ، متباعداً عما نهيت عن الإقدام
عليه ، حريصاً على اكتساب المحامد والمكارم ، مستصحب السنة في
جميع ما تأخذ وتذر .

وقوله : (جعلك) يشير إلى خلقك وفطرتك وإقامتك ؛ لأن الجعل
بمعنى الخلق ؛ أي : أقامك في عالم خلقيتك ، وجبل خلقك وسجيتك ؛
إذ هو الذي طلب من العباد ، من غير التفات إلى جزاء على ذلك ، بل
محض تعبد لمن هو أهل لذلك .

(ورزقك الاستسلام) وهو الانقياد للأحكام باطناً ، وعدم التعرض
في الأقضية القهرية ، بل كما أنقذت بالإسلام ظاهراً الذي هو امتثال
الأوامر واجتناب المناهي من غير توقف . . كذلك تكون منقاداً للأحكام
القهرية باطناً ، فهو الإسلام الإبراهيمي الذي قال الله لنبه إبراهيم
صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَسْوَأَ قَالَ أَشَأَنْتَ رَبِّيَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

فافهم أنه لم يكن قبل ورود ذلك الخطاب غير مسلم ظاهراً ، بل
المراد من ذلك : الاستسلام للربوبية باطناً ، فوقى بما قال ظاهراً ؛ إذ
قال ممثلاً حيث أخذ لي طرح في النار : حسبي الله ، فهذا امتثال الأمر

ظاهراً ، فوقى بمعنى قوله ذلك ؛ وهو الاستسلام باطناً لما تلقاه جبريل في الهواء فقال له : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك .. فلا .

فهذا معنى الاستسلام للحكم في حال وروده عليه ، فامتحن ليظهر صدق إسلامه في استسلامه ، مع ما هو عليه في تلك الساعة من الاحتياج إلى السلامة من التلف ، وأظهر سرّاً افتقاره إلى الله وعدم اغتنائه في وقت اضطراره إليه ، ولم يقطع طمعه عنه في هذا الوقت فقال : وأما إلى الله .. فبلى ، فامتحن بالطف من ذلك وأخفى ، سيما في حالة ورود الحكم ، فقال له : سألته أن ينجيك ، فقال مفصلاً عن تسليمه ، وانطوائه عن إرادته واختياره ، وانطراحه عن حوله وقوته ، وصدق لَجَبِّهِ ، وتحقيق شهوده لمعبوده ، ورؤية قُزْبِهِ الذي لا يدانى ، واستغراق معيته في معية ربه ، وارتفاع الحجب الغيرية ، وذهاب المظاهر البشرية .. فقال : حسبي عن سؤالي علمُهُ بحالي^(١) .

فقوله أولاً : (حسبي الله) فناء عن الخلق جملة ، وقوله : (حسبي عن سؤالي) فناء عن نفسه ، فهذا مظهر تحقيق مقام القرب ، وما دون ذلك مقامات في طريق اليقين .

فإذا رزق سرّك هذا الشهود ، وحقّق قلبك بهذا الوجود ، وأقام ظاهرك بالقيام بحق المعبود .. فقد أكمل منته عليك ظاهراً وباطناً ، وأسبغ نعمته عليك ، فلا تطلب بعد ذلك حالاً ، ولا تنتظر وراءه عطاء ؛ فكل من عبده لنيل مأرب ، أو حصول مطلب .. فعبادته مشوية ، وأفعاله محجوبة^(٢) ؛ فالعبد لا ينتظر على خدمته لسيدة جزاء ، بل يرى المنّة

(١) انظر « تفسير البغوي » (٢٥٠/٣) ، و« تفسير القرطبي » (٣٠٣/١١) .

(٢) في (ج) : (وأحوال محجوبة) بدل : (وأفعاله محجوبة) .

لسببه حيث جعله لذلك أهلاً ، وإلا .. فمن أنت ؟! وما قيمة عملك
فيما تظن ؟! وإلا .. فعملك منته منه متى تؤدي حق شكرها ؟! ومتى
تقوم بواجب حكمها ؟!

فما أجدرك بالحياء من الله في حال قيامك بها !! وما أحقك بالازدياد
منها طلباً للقيام بشكرها !! فضلاً عن أن تطلب في مقابلة ذلك جزاء
أو نيل عطاء ، فأعظم بوجودها عطاء ، واستخلاصك لها من بين خلقه
جزاء !! ولي في ذلك :

مَنْ رُزِقَ امْتِثَالَ الْأَمْرِ فَأَرْضَ بِهِ فذالك من أوفر الأقسام والمنين
وَأَمَّا إِذَا كُنْتَ مُسْتَسْلِمًا لِحُكْمِهِ في باطن الأمر سألِمٌ مِنْ هَوَى الْفِتَنِ
فَاعْلَمْ بِأَنَّهُ أَتْمَّ أَفْضَالَ نِعْمَتِهِ لديك فأعرف بحق الله في المنين



فالتخصيص بالأقسام الظاهرة ، والأحوال والمقامات في الأفعال
والأقوال والنيات أولاً ، ثم التخليص عن رؤيتها ثانياً .

فالتخلص منها مقام العرفان ، والتخصيص للعباد من الفضل
والامتنان لذلك ، ولا يلزم من وجود أحدهما وجود الآخر ؛ فقد يخص
بالأقسام الظاهرة من لم يكمل في مقامات العرفان تخلُّصه ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

لَيْسَ مَنْ ثَبَّتَ تَخْصِيصَهُ كَمُلَ تَخْلِيصُهُ

ليس من ثبت في مقام الأعمال ، واختصَّ منها بمزيد الفضل والامتنان ، وظهرت عليه آثار العناية - وآثار العناية : هي ما يقيم الله فيه عبده من صنوف الطاعات ، وأنواع الموافقات ، التي هي شأن أرباب العبادات . . . يثبت لديه تكاملٌ في مقام التخليص عن رؤية النفس وما منها ولها .

فالأول : حال المریدين وفحول السالكين ، والتخليص : حال المراديين والعارفين وأكابر الصديقين المقربين ، فلهم التخصيص بطريق أولوي ، حيث كان لهم التخليص ولا عكس .

فالأولون مطالبون بإخلاص الأعمال ، وتصفية الأحوال عن الشوائب القادحة في صدق العبودية ، والعارفون يطلبون الفناء عن رؤيتهم وشاهدتهم ؛ وذلك لما هم مطالعون من سرِّ التوحيد المفتي لمظاهر التعديد ، الموقف على ذروة التفريد ، فشتان بين من يطلب تخليص عمله ، وبين من يطلب غيبته عن رؤيته وفناء أُنبيته .

فأهل التخصيص لهم الكرامات وخوارق العادات ، فيها يفرحون وإليها يسكنون ، ولا يؤمن عليهم في سكنهم إليها من الصولة بها ، والخروج عن حد العبودية ، فيكون من أداه ثبوت التخصيص إلى حدٍ يخرج عن طور العبودية . . أقرب إلى المكسر إن لم يتداركه بلطفه ، ويتولاه بعطفه ، فيرده عن استطالته ؛ ويوقفه على ذلته وفقره واضطراره .

وكانوا لا يكثرثون بها اغتناءً بوجود الحقِّ عنها ، واكتفاءً بنظره

إليهم دونها ، فلا يستشرفون إليها ، وإن وقعت على أيديهم كفاحاً ..
لم يزدادوا بها فرحاً ، ولا يُوجدُ منهم مرحاً ، بل يكونون عبيد المعبود ،
ولا يتصرّفون مقتاً لأنفسهم أن تكون معه مزاحمة ، أو في أحكامه
مشاركة .

وأهل التخصيص الذين أقيموا في الحال ، وساعدتهم العناية ،
وتصرّفت بتصرّفهم القدرة .. لا يحكم بالإطلاق لهم بالتخلص ،
بل حالهم ألا يأمنوا من أن يكون ذلك لهم اختباراً وامتحاناً لصدق
عبوديتهم ، فهم مع بروزها عنهم غير مأمونٍ عليهم من فتنها ، والركون
إليها .

وأما العارفون وخواصّ المقربين .. فلا يطلبونها تجدياً ، وإن وقعت
على أيديهم .. فيرونها من جملة مقدورات الله ، وإن طلبوها في بعض
الأحيان .. فلأمورٍ اقتضت منهم أن يظهروها ؛ وذلك :

إما أن تظهر لهم في أنفسهم .. فذلك أضعف عندهم ، أو منهم
لغيرهم .. فذلك الغير إما أن يكون مريداً ضعيف الإرادة والنية ..
فيطلبونها تثبيتاً لإرادته وتقوية لنيته ، وإما أن تظهر لهم من غير شعور
منهم ، بل عنايةً من الله بهذا العبد الذي ظهرت له ، ولطفاً بوليّه ،
ويكون الحق يظهر بمثاله لهنداية عباده ، وهذا يكون للخليفة ومن قرب
مقامه من أهل الكمال .

وإما أن يظهروا الكرامة لدفع ضرورة دينية ناجزة عن خصوص الخلق
أو عمومهم .

وقليلاً ما يتصرّفون بها لما نزل بهم ، بل يكونون في النوازل الدنياوية
كغيرهم ، بل أعظم تحملاً وتجلداً ، ولا يلتفتون إلى أن يجمعوا همتهم

في رفع ذلك ، بل بفرحون بنزول البلايا الدنياوية ، ويغتبطون بها ،
ولمن لهم به عناية أيضاً من أصحابهم وخواصهم .

وأما عن عموم المسلمين .. فيبدلون وسعهم في إيصال المنافع
ودفع المضار عنهم ، فيدخل الواحد منهم خلوته فلا يخرج منها إلا وقد
شفعه فيمن اجتمعت له همته ، وإذا أراد الحق ما أنزله به .. إما بأن
يحجبه عنه ، أو يكشف له عن وجه الصواب له في ذلك .

وأكثر خوارق العادات تكون لمن خرق من نفسه العادات ، ومن البله
الذي تجري عليهم من غير التفاتٍ منهم إليها .

وأما العارفون وأكابر الموحدين .. فقد أكرموا في أنفسهم بما فيه
غنى لهم عن ظهور خارقٍ لعادة ؛ فالأكوان لهم مهيع ، والحضرة لهم
منيرة ومتسعة ، والآيات لهم ناطقة ، والبصائر منهم خارقة ، والأنوار
عليهم شارقة .

فرويتهم أكبر الكرامات ، ومحبتهم أعظم المشوبات ، فينظرون من
وراء أستار الكون أسرار القدر تتجلى لهم ، وتناطقهم بما فيها من الأقدار ،
فلا يكون عندهم فرق بينها وبين الأقدار الظاهرة ، بل يرونها من مظاهر
الاسم الباطن ، ويرون ظواهر المقدورات مظاهر الاسم الظاهر ، وإحاطة
الهوية الحقيقية قد أحاطت بكل الاسمين ؛ لذلك لا يلتفتون إليها لغناهم
عنها بهوية الظاهر فيها حيثما تقلبت الحالات .

والا .. فهي - أي : الكرامة - مرتبة الربانيين ، ومسبيل الروحانيين ،
فلا تُجهل ولا تُستقل إلا إن قارنها الركون إليها ، والاعتزاز بها ، فعدمها
عند خوف ذلك .. أتم للمريد ، وأحسن وأكمل ؛ لأنه إذا لم تظهر
عنه .. يبقى في ذلة انكساره واضطراره ، لا يرى لنفسه قدراً ، ولا يشهد

لها منزلاً ولا خطراً ، وذلك أحمد أحوال المریدین ، وعمدة طريق
السالكين .

ولي في ذلك :

ما كلُّ مَنْ ثَبَّتَ التَّخْصِصَ يَكْمَلُ فِي

تَخْلِيسِ أَحْوَالِهِ عَنِ شَائِبِ الْغَيْبِ

فَالْمَكْرَمَاتِ لِذِي التَّخْصِصِ تَظْهَرُ فِي

مَنْ حَالُهُ أَلَّا يَرَى لِلْكَوْنِ مِنْ أَثَرِ

فَلَا تَرَاهَا تُزَايِ غَالِباً هَدَفاً

إِلَّا عَلَى الْبُلْهِ لَا يَدْرِي لَهَا خَبْر

وَالْعَارِفُونَ لَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الشَّرَفِ

يَخْطَوْنَ بِهِ فِي أَعَالِي الْمَنْظَرِ النَّصْرِ

وأحوالهم في ظهور الكرامات وخوارق العادات خارجة عن الحصر ،

وكلُّ علي حسب حاله ومقامه :

فمنهم : من تظهر له التأثيرات الوصفية ؛ وهم العارفون وأكابر

المقربين .

ومنهم : من تظهر له التأثيرات الفعلية ؛ وهم أهل الصدق من الزهاد ،

وأهل الأخذ في طريق الأحوال ، فيتصرفون في الأكوان بالكلمة الجامعة

التي بها تكون المكونات ، وظهرت عنها المبدعات .

وأما بالذات .. فيختصُّ به المقام النبوي ؛ وهو مجموع السبع

الصفات ، وهو الروح القدسي الذي نفخ في الروح المحمدي^(١) .

(١) في (أ ، ج) : (في الروح المحمدي) بدل : (في الروح المحمدي) .

والعارفون يكونون بمتفرّق هذا المجموع : فمنهم البصير ، ومنهم
بالسمع . ومنهم بالحي ، ومنهم بالعالم ، ومنهم بالمتكلم . ومنهم
بالقادر ، ومنهم بالمريد .

وكل من انفتح له في وصفٍ . . كان مقامه أثر ذلك الوصف ، وهم
بالتصرّف بالأفعال أحرى ، لكن الأفعال فروجٌ عن هذه الأوصاف ، فكل
من كان مقامه أصلاً من هذه الأصول أو من غيرها من الأسماء المدخّرة
المستأثرة عنده . . فتصرفه بها وينسحب على ما تفرّع عنها في الوجود
من الأفعال ، والله أعلم بسرّ ذلك وما عداه من الأسرار ، ومصونات
الأسرار ، ومشرقات الأنوار .

فكل مقام من هذه لو أخذنا في بيانه في الأطوار الخلقية . . لأدّى
إلى طولٍ يخرج عن كونه شرحاً ؛ فالشرح حكمه أن يبيّن المراد
من الحكمة وما سمح من تفاصيل أحكامها ومتعلقاتها ، لا كل
التفاصيل ؛ فإنك إن أردت ذلك . . لم تقف له على غايةٍ تنتهي إليه ؛
لأن الانتهاء إلى الله ، ولا غايةٍ تنتهي إليه أوصافه ، بل كل وصفٍ
بحر ، فلا ساحل له ولا قعر ، فلنرجع إلى ما نحن بصدده من شرح
كلام المصنف في ذلك .

والكرامات في البداية ربما تكون امتحاناً للمريد ؛ فإن وقف عند
ظهورها ولم يطلب مقاماً غيرها . . فذلك لقلّة حظّه ، وعدم قسمه في
مقام المعرفة .

ومن لم يقف عندها كذلك ولم يساكنها ، بل بقي مستمراً في طلبه ،
مشيئراً في سلوك إرادته . . ظفر بمراده ، والمراد هنا : الكرامات التي هي
من طريق الأحوال في مظاهر الأفعال .

وأما الكرامات التي هي آثار الصفات .. فهي المعرفة بعينها ،
إلا أن مقاماتها مختلفة باختلاف متعلقاتها ، وكلما كان أوسع في
ذلك .. كان أكمل في المعرفة ؛ فمن عرفه من كل صفاته .. ليس
كمن عرفه من بعضها .

ومن عرفه من بعضٍ أوسع وأعم .. ليس كمن عرفه من بعضٍ أخص
من حيث خصوص الحصر لا من حيث خصوص التشریف .

فإذا أطلق الخصوص في مقام الخلق .. فهو الأشرف ، وإذا ذكر
في مقام الحقيقة .. فالعموم فيها أشرف ؛ لأن عموم الحقيقة اتساع ،
وخصوصها حصر ، وخصوص الخلق تشریف واختصاص ، وعمومها
إطلاق في عموم أكثرية الجهل والغفلة .



وإذا عرفت أن طلب العارفين القيام بحق عبودية الله دون التفاتٍ
إلى الحظوظ .. قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا يَسْتَحَقِّرُ الْوَرْدَ إِلَّا جَهْلٌ ؛ الْوَارِدُ : يُوجَدُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَالْوَرْدُ :
 يَنْطَوِي بِأَنْطَوَاءِ هَذِهِ الدَّارِ ، وَأَوْلَى مَا يُعْتَنَى بِهِ : مَا لَا يُخْلَفُ عَنْكَ
 وَجُودُهُ ، الْوَرْدُ : هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ ، وَالْوَارِدُ : أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ ، وَأَيُّنَ مَا هُوَ
 طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مَطْلُبُكَ مِنْهُ ؟!

الاستحقاقُ : إسقاط النظر عن المستحقر ؛ لقلته وعدم جدواه ، فيسقط
 عن القلب الاهتمام بشأن المستحقر ، ولا يراه بعين التعظيم ، ولا خفاء
 أن استحقاق الأوراد التي هي الأعمال بالسنة ، والائتمار لأوامرها ظاهراً
 وباطناً .. تَبَدُّ للشريعة ، واستخفاف بشأنها ، واستهانة بمقامها ، وذلك
 جهلٌ فظيع ، ومنكر شنيع .

فالورد : ما يستعمل العبد من العبادات ، ووظائف الخيرات ، ومحل
 الاستعمال وآلتها : الجوارحُ ، والجوارح فرصةٌ إمكانها : الحياة ؛ فعند
 فنائها ، وانطواء ظهورها ، وانكشاف نورها ، وانتهاك ستورها ، بمحتوم
 الموت المحتوم ، وانخرام الأجل المعلوم .. تبطل وتندم ، فلا يبقى
 للأعمال آلةٌ تظهر بها ، فلا شك أنها منظويةٌ بانطوائها ، ومنقضيةٌ
 بانقضائها ؛ فالعاقل الميمون أحق بأن يتلافى ما يفوت بفوات حياته
 قبل هجوم مماته ، وفناء أوقاته .

والوارد : هو ما يرد على القلوب والأرواح والأسرار من الألفاظ ،
 ويتجلى على الأرواح من أسرار الجمال ، ويغمرها من لذيذ الوصال ،
 ويستغرق الأسرار ويسببها من بديع الجمال ، وما يغمرها تجلي الكمال ،
 وهذه المراتب - كما قدمنا ذلك - لا تفتنى ، ولا يتطرق إليها الانعدام ؛
 لأنها آثار وأنوار .

وأسرار أسمائه وصفية ذاتية ، وهذه الأوصاف الحقية ، والأسماء الإلهية لا يتطرق إليها الفناء ، ولا يَغْتَوِرُهَا التغير والبلى ، فهي باقية متأهلاً لكل ما يرد عليها ، ومتلقية ما يصل إليها من الواردات وبيدع الآيات ؛ فالعبد إنما يفوت بفوات حياته ويتقضي بانقضائها ، فأولئى بأن يعنى بها^(١) ، ويغتنم بما سئح له منها ، وهي حق الحق من العبد ، والوارد حق العبد من الحق ، وأولئى بالعبد أن يكون بحق سيده من أن يطالب سيده بحقه منه ؛ فلا يخفى ما في ذلك من إساءة الأدب أن تطلب حظك منه ولا تطلب نفسك بحقه منك^(٢) ، فأين المطلبان ؟!

فالعارفون قائمون بحق معبودهم ، ومتمسكون بحبل عبوديته ، وإن تعاقبت عليهم واردات الألطاف ، وتوالت لديهم مزايا الإسعاف ؛ فكلماء أورد عليهم من أطفاه . . تضاعفت أعمالهم ، وتزكت أحوالهم .

فكل وارد أوثق صاحبه عن العمل مع إمكان فعله . . فلا اعتدأ به ، ولا التفات إليه ، بل ذلك نقص ، والعمل من العالم على التحقيق أليق من عقيد على جيد حسناء ، كما حكى ذلك عن الجنيد^(٣) .

وأعمال العارفين مأمونة ؛ لأخذهم لها عن الله ، وقيامهم بها بالله ، فلا يتطرق قاذح ، ولا يداخلها محبط ؛ لفنائهم عن أنفسهم فيها ، وذهاب رؤية الأعيان ، بظهور تجلي الواحد القهار ، فالعجب والرياء عنهم لا يصدران ، والحسد منهم لا يمكن ظهوره .

(١) في النسخ : (أولئى بأن يعنى بها) بدل : (فأولئى بأن يعنى بها) .

(٢) في النسخ : (أن يطلبه حظ . . .) بدل : (أن تطلب حظك منه . . .) .

(٣) وروى البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٧٠) : أنه رُئي في يد الجنيد سبحة ، فقيل له : يا أبا القاسم ؛ أنت مع تمكنك وشرفك تأخذ بيدك سبحة ؟! فقال : (نعم ؛ سبب به وصلنا إلى ما وصلنا لا نتركه أبداً) .

وما لم يصل المرید إلى صریح المعرفة .. لا يؤمن عليه ورود هذه المحيطات .

وما كان العارفون إلا أئمة للمتقين ، ومرشدين للطالبيين ، فليس المعرفة تقتضي أن يترك الأعمال ويطمئن إلى البطالة والملافة ، فلا يظن ذو غباوة : أن العارفين وأكابر الصديقين شأنهم ترك الأعمال ، وعدم التفقد في تصفية الأحوال ؛ فذلك الظن بهم ميلٌ عن طريق الاعتدال ، وانهماك في أودية الضلال ؛ فقد يغترُّ ذو فهمٍ سقيم بظهور صورة كرامة ، أو إفصاح بصورة معرفة من تحقيق ، فيقف عند ذلك .

وقد قالوا : إن التعبير عن المقام قبل العبور عليه^(١) ، والإفصاح عنه قبل وصوله .. مما يبتلى به كثيرٌ من المدَّعين ، ويقف عنده جملةٌ من المغرورين ، فيظنون أن ليس وراء ما هم عليه مقام ، حيث تيسر لهم التشدُّق بالكلام ، وزخارف الخيالات ، من تحسين الحالات ، وذلك انهماك في بحور الضلالات ، ووقوع في حائل المهلكات ، فالله لا يجعل حظنا عند الأقوال دون تحقيق الأحوال^(٢) ، وتصفية الأعمال .

والذي يبقى في الآخرة .. هو ما عاملت به الله سبحانه من الأعمال الحسنة ، والأخلاق المرضية ، والحالات السنية ، والأوراد كثيرة ، وكلها محمودة ، ولكن منها : ما يراد [للكسب ، ومنها : ما يراد] للفتح ، والتي للكسب : عليها تعويل ذوي الرغبات في نيل الدرجات في الجنات ، والتي للفتح هي التي عليها تعويل أهل الصدق والإرادات ، وكلٌّ عبَّرَ عما كان له منهجاً ، ولروحه معراجاً .

(١) في (ب ، ج) : (قبل العثور عليه) بدل : (قبل العبور عليه) .

(٢) في (أ) : (حظنا ...) بدل : (حظنا ...) ، وفي هامش (ب) : (بالطاء المهملة شبيه وجد) .

فواحد قائل : أفضل الأوراد الصلاة ، واستدل لذلك بدلالات
واضحات ، ومنهم من قائل بتلاوة القرآن ، وله في ذلك أكبر دلالة ،
وأفصح مقالة ، ومن قائل بأن أفضل الأوراد : لا إله إلا الله ؛ لأنها لنفي
الأغيار ، وجلب الأنوار ، وتحقيق الأسرار معراجاً ، ولطريق المعرفة
بالتوحيد الخاص منهاجاً .

ومنهم : في التبيح والتحميد ؛ لاستغراق روحه في بحار التنزيه
والآلاء^(١) ، ومنهم : في الاستغفار ؛ لأنه لران الذنوب جلاء ، ولتفريج
الهموم أصل .

ومنهم : في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها
لكفاية الهموم دنيا وأخرى ، ونيل المطلوب برزخاً ومقرراً ، وللمقام
ثباتاً ، وعلى الحب برهاناً ، وللقرب في المنازل الروحية سُلماً ، ومن
المعضلات أماناً ، وكل سالكٍ على طريق من هذه الأوراد محمود .

ومنهم : من اختار الجهر في الأذكار ، وحثه : أنه لجنود الهوى
قاهر ، وعلى جنود الضلال ظاهر ، ومن اختار الإسرار ، وحثه : أنه
أقرب إلى كونه عند المشاهدة أديباً ، ولخطاب السر مجيباً .

ومنهم من جعل هجيره أذكار الروحانيين الصرف^(٢) ؛ وهو إثبات
من غير نفي ، ومنهم : من جعل ذكر الـ (هو) إمامه ، واندرجت في
ظهور الهوية أعلامه ، ومنهم : من كان في أذكار الإشارات ؛ لاندرج
العبارات ، ومنهم : من ورده مراعاة الأحوال القلبية ، وتحقيق الواردات
الغيبية ، ولا يمكن استفصال أوراد جميع المقامات .

(١) في (ج) : (ولا لا) بدل : (والآلاء) .

(٢) هجيره : دأبه وعادته .

فكيف تستحق هذه المواهب الربانية؟! أو تستصغر هذه المنن الربانية؟! أم كيف لا يحافظ على فتح أبواب السعادات ، وأوراد العبادات ، أبواب الأسرار الملكوتيات ، والآيات الغيبية؟! فكيف يرغب عنها فضلاً عن أن يستحقها ذو عقل!؟

فلا يقول بترك الأعمال ، والركون إلى اللذات ، والانهماك في الشهوات إلا كل زائغ عن طريق الحق ، موسوم بسمة البعد والمكر ، أعاذنا الله من ذلك ، وعافانا مما هنالك ؛ فطريق المؤمنين ، وأهل التقوى والدين .. القيام بطاعات الله ، والنفرة عن معاصيه ، واتباع مرضيه ، ولي في ذلك :

الوردُ حقُّ الإلهِ الحقِّ فاحفظه	ووارد اللطف موهوبٌ من الكرم
فلا يفوتُ وإن طالت مسافته	فكن بما ليس يدركُ بُعدُ بالعدم
فالجزم هذا وبعضُ الناسِ يجهلهُ	ويحتقر ما هو المطلوبُ في الأممِ
فقم بما يقتضيه الحقُّ واجعله	بدلاً لما فات من حظٍّ ومن قسم
فتفتح باب العلام من حيث مطلبه	في طاعة الله يدري ذا ذوق الفهم

فالواردات الحقية ، والأمداد اللطفية تكون كما جرت به سنة الله على حسب الاستعدادات ، ونعني بالاستعداد قوة القابلية ، بالتعلق بالأمور المعنوية ، والأسرار الغيبية .

فكلما كانت أعلى وأقوى في الأخذ في الأسباب الموصلة إلى المراد .. كان حظها أوفر من ورود الإمداد ؛ لذلك ترى أرباب العزائم والأخذ في الحزم والقوة في الجهد أوفر الناس حظاً ، وأقربهم رتبة .

فلا أعلى من مراتب الأنبياء ، وأعظمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك ورمت قدماءه ، وشدّ من السغب أحشاه ، حتى أتاه النداء من الله : ﴿ طه مَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْرَحَ ﴾ .

وكذلك كلما كانت المنزلة عند الله أقرب .. كان الأخذ في العزيمة أشد ، ولو كان بالعكس .. لادعى مراتب المقربين الأغبياء البطالون ، ولكن حمتها عن أن تدعى مرهفات جِدادِ المجاهدات ، وأُسود المخالفات للأهواء ، فلا تختلج في صدر بطل ادعاها ؛ لما هو ملاسه من الشهوات ، والانغمار في البطالات ، فلا يستجري أن يدعى نيل أعلى المقامات ، وسني الدرجات ، فيحكم على نفسه إلا إذا تحكّم عليه هوى وقوة جهل ، فربما يقبح ادعاؤه ، ولكن لا يثبت له ما ادعاه ، بل يرد عليه ويفضح ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

وَرُودُ الْأَمْدَادِ عَلَى حَسَبِ الْأَسْتِعْدَادِ

وورود الأمداد الربانية ، والفتوح الرحمانية ، والمواهب الامتنائية ،
والعطايا الإلهية .. على حسب الاستعداد .

والاستعداد على حسب ما ناله من القسمة الأزلية ، والاختصاصات
العلمية ، والأنوار الفطرية ؛ فكلما كان القسم الأزلي ، والاختصاص
العلمي ، والنور الفطري أكمل .. كان الاستعداد والأخذ في الوسائل
والقرب أكمل .

وكلما كان الاستعداد وقوة العزيمة أكمل .. كان ورود الأمداد
ومواهب الامتنان عليها أعظم ، ولديها أتم ، ومنها أقرب ، وبها أحرى .
وعلى الندور : من ترد عليه المواهب من غير شعور .. ربما انطوى
في سرّه عن الاستعداد ، بل يروى عن جماعة من أهل الجذب من يجد
في باطنه الاستعداد وإن كان ملابساً لأمر سبق بها الحكم ، وجرى
بها القدر ، فيكون الاستعداد ثابتاً لا يتغير وإن ورد على المحل ما
يناقض المقام

وكان بعض مشايخ اليمن يقال : إنه صاحب المقام العيسوي أبو
الغيث ؛ إذ كان مقدماً في اللصوص والنهب ، فكان له أورد من أصناف
الطاعات ، وحالات من أنواع المجاهدات في حال ملابسته للفعل ،
وكان في حال نهبه وتلصّصه أحسن حالاً من كثير من الناسكين ، وأتم
مقاماً من جملة السالكين ، فلا يقدر أرباب المجاهدات وأهل السياحات
على أقلّ مجاهداته في ذلك الحال .

فانظر ما أعطي [من] الاستعداد ، وما أثمر له من حسن نتائج

الأعمال ، ثم كان ورودُ فتوحِهِ ومواهبُ منوجِهِ على حسب استعداده ؛
 فما أَلطفَ اللهُ بعباده !! وما أعجبَ حكمته في أقداره ومراده !!
 والاستعداد : هو الذي يعبر عنه بلسان أهل التحقيق بالوعاء الوجودي ،
 ويقولون : الفصُّ على حسب الخاتم ؛ إن الخاتم مثنياً أو مسدساً ، أو
 مربعاً أو مثلثاً . . فالفص بحسبه ولا يتعداه ، ولي في ذلك :
 ورود أمداد سر الغيب يقبلها بحسب ما عند من تأتية من مثل
 من كان ذا حسن إستعداد انزلها من حيث ما تنزل الأسرار في الأزل
 والأمداد مختلفة بحسب اختلاف الاستعدادات في أطوار الوجودات ؛
 وكما تكون الأمداد بحسب الاستعداد . . فكذلك تكون شروق الأنوار
 الربانيات على الأسرار الخلقيات بحسب ما هي عليه من الصفات من
 المكدرات ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

شُرُوقُ الْأَنْوَارِ عَلَى حَسَبِ صَفَاءِ الْأَسْرَارِ

هذه فرغ عما قبلها ، إلا أن هذه في سرِّ التخلية والتصفية عن
 المكدرات البشرية ، والعادات الطبيعية ، والملومات الهوائية ، والدواعي
 النفسية ، والتي قبلها في التخلية والتحلية ؛ فالتخلية : هو الاستعداد ،
 والتحلية : هو ورود الأمداد في تعبيره .
 والتصفية والتخلية أولاً عند السالكين ، وما رتبوه في قانون
 المريدين ، فشروق الأنوار الخفية مثل نور الأسماء على القلوب ،
 ونور الأوصاف على الأرواح ، ونور الذات على الأسرار . . على حسب
 تخليتها عن الحاجبات الطبيعية ، والصفات الحيوانية ، والظلمات

الأرضية الترابية ، فبحسب ما تتخلَّى من هذه .. تشرق عليها ،
وتتجلَّأها تلك الأنوار ، وتواجهها تلك الأسرار ، ويطلع في أفق
النفس قمر الحال ، فتزكَّى منها الأحوال ، وتصلح منها الأفعال ،
وتضاعف عليها الآداب ، ويكشف لها عن مصون الجمال ، وتيسر
لها طرق الوصال .

ثم يطالع الروح شمسُ الشهود ، ويطالع فجر السعود ، فيغيب
لديه فلك النفس ، وتبزغ شمس التوحيد في سماء السر ، فيهتدي
بعد ضلاله ، ويتوجَّه بوجهه للذي فطر السماوات وأبدعها ، والأرض
واخترعها حنيفاً معتدلاً ، غير مائلٍ عن التعطيل^(١) ، ولا قائلاً بالتشبيه
والتجسيم والتحليل ، ولا ملتفتاً إلى ما روعه من شواهد الأغيار ، ولا
واقفاً مع ما واجهه من الأنوار ، ولا مأسوراً مع ما ورد عليه من الأسرار ،
بل دخل في جملة الأحرار عن رِقِّ الأغيار ، وألتحقَ بالصفوة الأخيار ،
مستسلماً للواحد القهار ، غير مشركٍ به أحداً من الأغيار .

فأعجبٌ لذلك من صفي ، وأكرم به من ولي !!

فهذا طرفٌ من معنى قوله : (شروق الأنوار) ، والأنوار جمعٌ ،
والأسرار كذلك ، فسُرُّ القلب ، وسُرُّ الروح ، وسُرُّ السر ، ونور الأسماء ،
ونور الصفات ، ونور الذات ، فتتجلَّى كل مرتبةٍ من هذه على حسب
صفاء القابل ، فصفاء القلب عن الالتفات إلى النفس ودواعيها ، وصفاء
الروح عن الوقوف مع ما يشاهده من بديع الآيات ، وغرائب المصنوعات
دون المبدع الصانع ، وصفاء السر عن النظر إلى وجود سوى ، والفتات
لغير ، وكل ما سوى الله فهو غير ، سواء نفسه وأفعالها وصفاتها ، فضلاً

(١) كذا في النسخ ، أراد أنه غير معطل .

عن شهود موجود غير ، فهو بالأحرورية يكون عنه غائباً ، ومن وجوده
فانياً ، ولي في ذلك :

ورود الأنوار في الأسرار تحكيها

بَحْسِبِ ما هي من التأهيل تأتيها

شروق شمس الصفات أن كنت تديرها

على قدر ما أمحي من وصفنا فيها



ولذلك شواهد في ظواهر الأفعال ، تدلُّ على قدر مقامه في التوحيد ،
وقد علمت أن أول مراتب التوحيد التوحيد في الأفعال ، فإذا تحقَّق
بها . . دلُّ ذلك على ثبوت مقامه ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه ،
أمين :

الْعَاقِلُ إِذَا أَصْبَحَ .. نَظَرَ فِي مَادَا يَفْعَلُ ، وَالْعَاقِلُ إِذَا أَصْبَحَ .. نَظَرَ مَادَا
يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِ

الغافل : هو المحجوبُ السابق إليه نظره ، الغالب على قلبه شهود الأغيار ، والمطموس في ظلمة كثائف الآثار ، ولم يحظ من التوحيد الأفعالي الذي هو أول مرتبة في التوحيد ، فضلاً عن أن يتطلع إلى مقام الفناء في الأوصاف ، فضلاً عما وراء ذلك من التلاشي في شروق شمس الذات .

علامته وظاهر دلالة غفلته عما يرد عليه عند أول مبادئ يقظته ، وانتشار ظهور حركته ، وتأمل ثواقب فكرته ؛ فالغافل أول ما ينظر إلى نفسه ، وظواهر حركته ، فينظر ماذا يفعل ، وماذا يدع ، فتستغرقه الهموم ، وتعمريه الغموم ، وترادف عليه مشؤومات الأحوال ، ويوكل إلى نفسه ، وما يظهر من ظواهر جنسه من الأقوال والأفعال في سائر الأحوال ، وتتشتت إرادته ، وتتشعب همومه ، وتتضاعف غمومه ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من أصبح والدنيا همُّهُ .. شتت الله همُّهُ »^(١)

وهذه أحوال الغافلين ، والحمقى المغرورين ، لا تنزع قلوبهم إلى غير ما هو جلُّ أشغالهم ؛ وهي الدنيا وأسبابها ، ومشتتات أشغالها .
وأما العاقل وهو من عقل عن الله خطابه ، وتأمل محكم كتابه ، فرأى أن للأشياء صانعاً قادراً ، عالماً مريداً ، سميعاً بصيراً ، حياً متكلماً ،

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥) ، وابن ماجه (٤١٠٥) عن سيدنا عثمان وأنس رضي الله عنهما

ورأى كمال تلك القدرة ، ونفوذ تلك الإرادة ، وكمال ذلك العلم ،
وشهود ذلك البصر ، وإدراك ذلك السمع ، ودوام تلك الحياة ، واستمرار
الكلام على الدوام . . فلا جرم أن يذهل لكمال هذه الأوصاف ، ويرى
صدور جميع الكائنات عنها ، وفيضانها منها ، ويرى نفسه من جملة
المفعولات ، وخلقاً من جملة المخلوقات ، مصرفة تحت أحكام
الإرادة ، مقهورة تحت سطوات هذه القدرة النافذة المقدرة ، فلا يعطيه
نظره إلا الانكماش ، والطمس عن أفعاله ، وسائر إراداته واختياراته .

ولغلبة نور العقل في قلبه وإيقاده في أرجائه . . تظهر - لا محالة -
الأسباب المعنوية ، والحركات العلوية ، والتدبيرات الحقية ، والاختيارات
الإلهية ، والتصرفات الغيبية ، فيرى أسباباً سماوية ، بحركات لأجسام
خلقية أرضية ، ويريه نورُ العقل ما وراء ذلك من الأسرار ، وما حملت به
الأرض ، ومسكت به السماء من سر الاقتدار .

فيرى نفسه وغيره من سائر الآثار ، تحت [أحكام] حاكم قهار ،
جارية عليه ، ومنصرفه فيه ، فلا ينظر إلا إلى ما يفعل به ذلك القادر
الجبار ، فيكون فانياً عن التدبير والاختيار ؛ وذلك أول مرتبة في التوحيد
يدركها العقلاء ، ويحظى بها السادة النبلاء .

فيستوي حينئذٍ لديه الشدة والرخاء ، والنعمة والبلاء ، ويكون ناظراً
إلى محبوبه ، وما يتصرف به فيه من الحركات في سائر اللحظات ،
واستمرار الخطرات ، فلا يعتب على أحد ، ولا يلوي على أهل ولا ولد ،
بل الكل منه في أمان ، وهو من الكل في أمان ، وهذه علامة الإيمان ،
إن سرى منه الأمان إلى سائر الحيوان . . فلا يستوحش منه الوحوش ،
ولا تفر منه ؛ لما ترى ما هو عليه من صريح الإيمان .

وبهذا التوحيد الأفعالي صحبوا البوادي والفيافي ، متطلِّبين لظهور
 كماله ، إذا واجهتهم كرهيات الأقدار . تلقَّوها بالرضا ، وصحبوها
 بجميل الصبر لمواقع القضا ، فلا ينال منهم ما ينال من غيرهم عند
 نزول القضا ، قال سيدنا عمر بن الخطاب : (أصبحت وما لي سرور إلا
 في مواقع القضا)^(١) ، ولي في ذلك :

الغافلونَ عن الحقِّ الصريحِ عموماً وكان همهمُ الأكوانِ والغيرِ
 فلا قلوبَ ترى حسنَ التصرفِ في كلِّ الوجودِ من الأرواحِ والصورِ
 وأهلُ العقولِ أولو الأبوابِ مطلبهمُ أن ينظروا فعلَ مختارٍ ومقتدرِ
 لا يبرحونَ وقوفَ لإرادته لا يلمحونَ إلى الأغيارِ بالنظرِ



فلما لم يكن ظاهراً غيره في الوجود ، ولا حقيقة لسواه في الشهود ،
 فهو الظاهر في الوجود بأفعاله ، وتأثير أسمائه ، وشوارق أوصافه ، وهو
 الباطن بذاته ؛ لذلك لا يستوحش عن الأكوان إلا محجوبٌ بوهم وجود
 غيريتها ، ومثبت ثبوتها ، ومتى لم تر لها وجوداً ولا تأثيراً في كل
 موجود . . لم تستوحش منها ، ولم تطمئن إليها ؛ لأنسك بموجدها ،
 والمؤثر فيها ، وغناك عنها به ؛ لأنه مالك أزمته ، لذلك قال المؤلف
 رضي الله عنه :

(١) قوت القلوب (٤٠/٢) عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى .

إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعِبَادُ وَالزُّهَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لِغَيْبِهِمْ عَنِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ . . لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ

(إنما استوحش العباد) هم الذين أقيموا في مقام التكليف ، ولم يحفظوا بعدُ بشهود التعريف ، وحاصل نظرهم : أن يُحْكِمُوا الأَعْمَالَ بِشَرَايِطِهَا ، وَيَقِيمُواهَا بِسَائِرِ وُضَائِفِهَا ، وَتَتَبِعَ آثَارَهَا ، وَالتَّمَسَّكُ بِالْأَخْبَارِ ، وَيَتَخَلَّصُونَ مِنْ كَثَائِفِ الْأَغْيَارِ بِغَايَةِ جَهْدِهِمْ ، وَوَسِعَ طَاقَتِهِمْ ؛ لِأَنَّهَا مَتَحَكِّمَةٌ فِيهِمْ ، وَمَتَرَشِّحَةٌ عِنْدَهُمْ فِي شُهُودِهِمْ ، فَطَرَقَتْ أَسْمَاعُهُمُ الْأَخْبَارَ ، وَشَوَّقَتْهُمُ لَوَاعِجِ الْأَنْوَارِ ، اللَّائِحَةِ لَهُمْ مِنْ غَيْبِ الْأَسْرَارِ ، فَطَلَبُوا الْفِرَارَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْأَغْيَارِ ، وَاسْتَعَاثُوا إِلَى اللَّهِ فِي كِرُورِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَاسْتَأْنَسُوا إِلَى الْبِرَارِيِّ وَالْقَفَارِ ، وَدَوَّامِ التَّضَرُّعِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي الْأَسْحَارِ ، وَمَطْلَبِهِمْ : كَشَفَ هَذِهِ الْأَسْتَارَ ، وَمَحَوَ هَذِهِ الْأَغْيَارَ عَنِ قُلُوبِهِمْ ، وَالمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْ مَحْبُوبِهِمْ .

وَالزُّهَادُ أَيْضاً أَرْفَعُ حَالاً ، وَأَخْصُ مَنْزِلَةً وَمَقَاماً ، قَدْ زَهَدُوا فِي الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عَظِيمِ الْكِرَامَةِ ، وَمَا وَعَدَهُمْ بِهِ فِي دَارِ الْمَقَامَةِ ، وَلَا يَزَالُ بِهِمُ الزُّهْدُ حَتَّى يَكْشِفَ عَنْهُمْ الْحِجَابَ الظُّلْمَانِيَّةَ ، وَيَفْضِي بِهِمْ إِلَى الْأَحْوَالِ الثُّورَانِيَّةِ ، حَتَّى يَتَخَلَّصُوا عَنِ سُؤْمِ الظُّلْمِ ، فَيُلَوِّحُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ كَلِمَاتَ سَنِيَّةٍ .

فَعِنْدَ ذَلِكَ : تَظْهَرُ لَهُمْ مَعَالِمُ الْعِرْفَانِ ، وَتَضَمُّعُحَلُ فِي نَظَرِهِمْ وَجُودِ الْأَكْوَانِ ، فَتَسْرِقُ لَهُمْ فِي صَفْحَاتِ الْوُجُودِ بَوَاهِرُ صِفَاتِهِ ، وَتُجَلِّئُ مِنْ وَرَاءِ سَجْفِ الْغُيُوبِ لَوَائِحَ أَنْوَارِ ذَاتِهِ ، فَلَا يَجْهَلُونَهُ فِي شَيْءٍ ، وَلَا يَعْطَلُونَهُ عَنِ شَيْءٍ ، كَمَا يَنْزَهُونَهُ عَنِ أَنْ يَكُونَ فِي شَيْءٍ ، أَوْ عَلَيَّ

شيء ، أو يشبهونه بشيء ، بل قاموا على حدِّ قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾
 تنزيهاً له عن مشاكلة الأشياء ، أو مماثلة الأعيان والألوان ، ولم يعطلوه
 عن الأشياء ، بل هو السميع بسمع لا يشبهه سمع ، والبصير ببصر لا
 تماثله الأبصار ، بل هو بهيوية باطنة لا تدركها الأبصار ، والوهية ظاهرة
 لا تخفى على أولي الأبصار .

فعندما يرون استغراق معيته لكل موجود بالإحاطة والشهود استغراقاً
 لا يدع للأشياء معه ظهوراً ؛ لأن الحادث إذا قُرِن بالقديم . . اضمحل ،
 فلم يَبْقَ له عندهم وجود ، ولا في بصائرهم شهود ، فلذلك لم يستوحشوا
 عن الأشياء ؛ لانعدام غيرتها في شهودهم .

والمُعْبَاد والزَّهَّاد لما لم يكن لهم ذلك المشهد ، ولم يحفظوا بذلك
 المحتد . . استوحشوا عنها ، وهربوا منها ؛ لغيبته عن كون قيويمته
 هي التي قامت بها أعيان الوجود ، وبحياته حيي كل ذي حياة ، وبسمعه
 سمع كل سامع ، وببصره أبصر كل مبصر ، وبعلمه علم كل عالم ،
 وبكلامه تكلم كل متكلم ، وبقدرته وإرادته تكوّن كل متكوّن ، فكيف
 يغيب الحاضر الرقيب ؟ أم كيف يبعدُ الحافظ المحيِب ؟ أم كيف
 تستوحش عن تام به وجودك ، وظهرت به من دمجة العدم حدودك ؟
 يروى في مثل ذلك المعنى عن ذي النون المصري رضي الله عنه
 قال : مررت ليلة في سواد الليل بوادي كنعان ، فسمعت صوتاً يقرأ هذه
 الآية : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، فوقفت حتى دنا مني ،
 فإذا هي امرأة ، فردت عليّ السلام ، ثم قالت : من أنت ؟ قلت : غريب .
 فقالت : ويحك يا ذا النون ؛ هل معه غريب ؟ أم فكيف ، فقالت :
 إني أرى لك مع الله حالاً ، وما هذا شأن الأقوياء ؛ إنما ذلك سمئتُ

الضعفاء ، إنما حال الأقوياء النحيب والزفير - تعني من غير بكاء ، فكأن
البكاء ينفس بعض ما يجده المحزون الكئيب - ثم ولت عني في الوادي
وتركتني^(١) .

فانظر ، دلته على مقام المعرفة ، فقالت : وهل معه غريب !؟ حيث
استغراق المعية لجميع أعيان الوجود ، ولي في ذلك :

يستوحشون من الأشياء لغيبتهم عن سير من قامت الأشياء به علنا
لو زال عنهم ظلم وهم الوجود لها^(٢) رأوا لمعناه سار في الفؤاد دنا



فلما لم يكن إلى رؤيته في هذه من غير النظر في مرآة الكون
سبيلاً .. أمرك أن تنظر إليه في الدار الكثيفة الضيقة عن اتساع الرؤية
التي لا يمارئ فيها ، أمرك أن تنظر إليه باطناً في بدائع المخترعات ،
وظاهراً في مظاهر المصطنعات ؛ لتري في الظواهر آثار الصفات ، وفي
البواطن وحدة الذات ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣٤١/٩) .

(٢) كذا في النسخ ، ولعل الأقرب : (الوجود نما) .

أَتَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّظَرِ فِي مُكَوَّنَاتِهِ ، وَسَبَّكُشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ الدَّارِ
عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ

أمرك في هذه الدار - أي : دار الدنيا - بالنظر ، والاستكشاف بالفكر ،
على بواهر العبر ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ من
ترتيب أمره ، وأسرار قدره ، ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ من عجائب اختراعه ولطائف
حكمه ، فتقلع بكم سفينة هذا النظر في لطائف الآيات والعبر إلى
ساحل الشهود والعيان ، ولكن في هذه الدار بالجنان ، وفي الدار
الآخرة يكون بالعيان .

ورؤية العباد في الدار الآخرة على قدر ما تجلَّى على القلوب في
الدنيا ؛ فلا تداني رؤية الأنبياء رؤية المؤمنين الأولياء ، كما لا تداني
رؤيتهم رؤية المصطفى صلى الله عليه وعليهم أجمعين ؛ فلعدم أهلية
الدنيا لتلك الرؤية ، وضيقها عن أن تنسع لعظيم النعيم . . آخرها
لدار الآخرة لا عن بخل ، ولكن لعدم اجتماع الفناء بالبقاء ، والظلمة
والضياء ، والكدورة والصفاء

فلذلك كان اختلاف العلماء في رؤيته صلى الله عليه وسلم ، والثابت
عندهم - بل الذي أجمع عليه أكابر العلماء - على وقوعها له صلى الله
عليه وسلم ، وجواز وقوعها لغيره أيضاً ؛ لأن الله سبحانه وتعالى في تلك
الليلة طوى عالم خلقيته ، وأظهر شهود حقيقته ، وطوى له عالم الملك
والملكوت ، وتجلَّى له في عالم الجبروت ، وطوى ظهور الناسوت ، وأبرز
عالم اللاهوت ، فشاهده عياناً ، وحقَّق رؤيته بياناً ، فلم يُمارَ فيما شهد ،
ولم يعارض فيما وجد ؛ فلذلك قال عزَّ من قائل : ﴿ أَقْتَمَرُوهُ عَلَى مَا بَرِحَ ﴾ .

وشاهده المقربون في هذه الدار بالأسرار ، ويشهدونه في الآخرة
 بالأبصار ؛ كما أجمع عليه أهل السنة ؛ بشاهد قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ رُحُوَّةٌ
 يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿١﴾ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « سترون
 ربكم كما ترون البدر لا تمارون في رؤيته » (١)

فيتجلَّى لعباده عن كمال ذاته ، كما تجلَّى لهم في دار الدنيا بمحاسن
 صفاته وبواهر آياته ؛ ففي الدنيا الذات باطنة عن الإدراك ، والصفات
 ظاهرة ، وفي الدار الآخرة تبطن الصفات ، وتظهر الذات بكمالها .

ولا تظن أن الصفات تبطن وتنعدم وتغيب ، ولكن عن ظهور
 الموصوف وحضوره تستغني عن الاستيصاف ، وإلا . . فالموصوف لا
 يفارقه وصفه ، ولكن عند احتجابه تظهر الأوصاف ، ويستدلُّ بها على
 كمال الموصوف بها .

وعندما يكشف لأولياته عن كمال ذاته . . يندرج فيها جميع
 المحاسن ، ويغيب عند ظهورها في لذاتها نعيم الجنان ؛ ففي أول نظرة
 يحظون بها تندرج جميع النعائم المحسوسات والمعنويات ، وكيف ما
 بعد ذلك ؛ وقد أخير بالتضعيف عندما يكشف خزائن الصفات لأسرار
 معاني الذات ؟!

وإدراك التفاوت غير منكور ؛ كما ترى التفاوت بين من قدَّمهم
 الملك إلى مجلسه وأحضرهم في محلته في مجمع واحد ، كيف ترى
 لذة الوزراء على من دونهم في المنزلة عنده من بقية الأمراء ، وأهل
 الوظائف على غيرهم من سائر الخدم ؟

(١) رواه البخاري (٥٥٤) ، ومسلم (٦٣٣) عن سيدنا جرير بن عبد الله البجلي
 رضي الله عنه .

ولي في ذلك :

أمزك بالفكر في الدنيا لتشيده
وسوف يظهر في الأخرى بلا حجب
في الكائنات بعين القلب يا أنسان
لسادة كان في العليا لهم شأن
يمشون في الناس ما يذرون ما حدثت
في الكائنات بروح القدس أخذان
لا يبصرون على الهجران ما هجعت
عيونهم في ظلام الليل ومنان



قلوب المشناقين إلى محبوبهم تواقه ، وأرواحهم إلى لقائه مشتاقه ،
فلما علم ذلك منهم وعلم ألا صبر لهم .. رحمهم ، فأنزل نسمات من
روح الوصال خفاقة ، وأهمى عليهم من سحب الأسرار سيولاً دفاقة ،
وحملهم على نجائب الأنوار ، وتوجههم بتيجان الوقار ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

عَلِمَ مِنْكَ أَنْتَ لَا تَضِيرُ عَنْهُ ، فَأَشْهَدُكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ

علم منك سبحانه ، وعلمه القديم الأزلي ، وقد علم بعلمه ما هو الحال منك قبل بروز روحانيتك ، وشخص جسدانيتك ، قبل أن يتوجّه خطاب التكوين إلى المكونات .

وعلمه وصفٌ من صفاته ، وقد علم سبحانه منك ومن سواك من كل كائنٍ ما كان وما يكون ، وما لا يكون لو كان . . كيف يكون .

ومن أنكر سبق العلم بالأشياء ولوازمها ومتعلقاتها . . فقد أتى عظيمة ، وارتكب وصيمة ؛ كالفلاسفة قَبَّحَ اللهُ رأيهم ، ومن قال بقدوم الأشياء بلا بداية بتخليطٍ وتخييط ، وعكَّزَ عليه رأيه شاهدُ الحدوث ، وطرأَ التغير ، وذلك لا يصح على القديم الأزلي .

ولكن القول الفصل : قدم علم الله بها دونها ، وذلك مما يدلُّك عليه من غير ضربٍ مثَلٍ لله ولأوصافه ، ولكن ليقرَّب فهمك الضعيف ، بمثلٍ فيك لطيف : أنك تريد أن تبني داراً ، فتراها بجميع أجزائها مشهودة لك قبل بنائها ، فكن بما أرشدتكَ إليه في هذه في العلم خبيراً ، ولها متحقِّقاً وجديراً .

وقد كسا الله سبحانه أعيان ذوات المشتاقين حلة الوجدان ، وغذاهم بحلاوة الولوع به ، والتولُّه والتدلُّه في رياض جماله ، وحياض وصاله ، وعلَّسَ طمع أسرارهم في شهود كماله ، فلم تصبر عن شهود ذلك الجمال ، ومنال ذلك الوصال العال ، ولم يطفأ تعطُّشها بدون الكروع في ذلك الينوع .

وهذه الدار لا تصلح لظهور كمال المحبوب ، ولم يكن فيها متسع

لعذوبة ذلك المشروب ، وقد حكم في علمه عليها أن تقيم فيها مدةً يسيرة ، كما حكّم لها بذلك ؛ وذلك ليتم لها كمال نعيمها ، لأنه لا يعرف الشيء إلا بضده ، فلم تستقرّ أسرارهم في هذه المدة ؛ حتى أظهر لهم أثراً من آثار قدرته يؤنسهم بوجود القادر ، ويتحفهم بلطف قربه ، وذلك لطفّ بهم إذا تلطّف بهم ، ولطف بهم بوجود سره وجوده في الأشياء كما حجب به قوم^(١) .

نسبحانه ما أطفه في عظمته !! وما أعظمه في لطفه !! وما أقربه في علوه !! وما أعلاه في دنوه !! وما أظهره في بطونه !! وما أبطنه في ظهوره !! وما أجلاه في ستوره !! وما أغمضه في علّيته !! وما ثم إلا أنه لطف بقوم فعرفوه ، ولو تلطّف بآخرين . . لما جحدوه ، ولي في ذلك :
قد علم الله أن لا صبر عنه كذا

كما حكّم بظهور الكون والغير

فأبرز شواهد آلاءً ظهرن به

فاستأنن البائن المكروب في الصور

ولما كانت النفس هي المطية إلى نيل المطلوب ، وحصول المرغوب ، وهي بطبعها وجبليتها مجبولة على الملل والسامة ، والحدة والسامة ؛ وذلك لما فيها من التركيب التريعي ؛ من الحرارة والبيوسة تكون حدّتها وشرهها ، وعن البرودة والرطوبة تتولد سآمتها ومللها ، وتلك الخصال كلها تحت خبطة الطبع الأرضي ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) كذا العبارة في النسخ ، ولعل الأقرب : (إذ تلطّف بهم بوجود سرّ وجوده) .

لَمَّا عَلِمَ الْحَقُّ مِنْكَ وُجُودَ الْمَلَلِ . . لَوْنٌ لَكَ الطَّاعَاتِ ، وَعَلِمَ مَا فِيكَ
مِنْ وُجُودِ الشَّرِّهِ فَحَجَّرَهَا عَلَيْكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ؛ لِيَكُونَ هَمُّكَ إِقَامَةَ
الصَّلَاةِ لَا وُجُودَ الصَّلَاةِ ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍِّ مُقِيمٌ

هذا تفصيلٌ للحكم العلمية ، وتبيينٌ للمعاني الأزلية ، ففصّل القضايا
على حسب المقضيات ، ورتب المقضيات على حسب قيام الهياكل
واستعداد الآلات ، فأشار بقوله : (علم الحق) إلى علم الحق سبحانه
للأشياء حقاً صرفاً قبل المزج بوسائط الخلقية ، وقد علم ما أنت عليه
من التركيب الجبلي ، فوضع حكمته على حسب علمه ، فلا يأمر بك بما
لم يكن في وسعك ، ولم ينهك عما لم يكن في رسمك ، بل أمر ونهى
وأوعد ووعد على حسب ما أنت فاعل ، وما أنت إليه في مالك واصل .
والملل : فتورٌ يوجد في الطبع ، سببُهُ : طول الأمل وقسوة القلب ،
والشَّرِّهِ : حِدَّةٌ توجد عند ابتداء الأخذ في العمل مع خوف فوت الأمل ،
والقصور في العمل ، ومنشأ هاتين الصفتين - كما علمت - الطبعُ
الجبلي ، والمعدن الترابي الأرضي .

والأرواح العلوية لما كان منشؤهم سالماً عن هاتين الصفتين . . لم
تتلون لهم ، ولم تحجر عليهم ، بل كان كلٌّ منهم على عبادةٍ واحدةٍ
لا ينتقل عنها ؛ فمنهم راعع ، ومنهم ساجد ، ومنهم قائم ، ومنهم في
ذكرٍ واحدٍ لا يخرج عنه أبداً ، ولا يطرقهم الفتور ، ولم تعلمهم السامة
والملل ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْزِرُونَ
سَيْحُونَ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ ؛ وذلك لسلامة نشأتهم عن لوث الطبع
الجبلي ، والثقل الأرضي الترابي .

وقد جعل الله سبحانه الإنسان جامعاً بين العالمين ، وذروة كمال
النشأتين ، فكلفه من حيث نشأته الروحانية جميع وظائف الروحانيين ،
فما منهم أحدٌ في وظيفةٍ إلا وعلى الإنسان كمالها ، ولوئها له وحجرها
عليه في بعض الأوقات ؛ لما فيه من الجمادية الترابية ، لأن عبودية
الجماد لله سكونها وخضوعها واستكانتها ، وإطراحها في حضيض
ذلتها ، وجعل الحركة في الماء ؛ لما فيه من الكونية ، فالماء بحركته
ولينه وبرودته قوام عالم الأمر ، والتراب بسكونه ويبوسته وافتقاره وذلكه
قوام عالم الخلق .

والصلاة بصورتها تجمع الأمرين ؛ فجوارح الإنسان ، وخضوعها ،
وخشوعها ، وإطراقها ، وركوعها ، وسجودها . . عبودية الحق من عالم
الخلق ، ومن حيث ما فيها من المناجاة ، والتملُّق ، والتعلُّق ، والشهود ،
والتولُّه في ذات المعبود ، وشهود أوصافه ، والتحقُّق بأسمائه من
مشرقات أنوار جماله ، ومحرقات جلاله . . عبودية الحق من عالم الأمر .
فقد جمع الله في الصلاة كمال صورة العبودية ، وبحسب ما تكمل
العبودية . . يكون عليها من كمال شهود ظهور الربوبية : وعند القيام
إليها ، والتحفظ على إكمالها بما تدبك إليه من الآداب الباطنة والظاهرة . .
يكون عند الله أحظى ، ويمدحه لك أولي ؛ لإقامتك لعبادته .

فإذا أقمته على حسب ما أمرك فيها ظاهراً ، وتدبك إليه باطناً . .
صارت كصورة من برزت عنه في حسن الهيئة ، وملاحة السمات
والسيرة ، صورة قائمة وهوية دائمة بين يدي المعبود ، تشفع لمن برزت
عنه ، ووجدت بسببه ، تصلِّي عليه وتشتي إلى يوم يعبدُ الله الخلائق ،
ويرد كل ناءٍ إلى وطنه ، وكل ظاعنٍ إلى سكنه ، فتعود من حضرة الجود

مبشرةً بالفلاح ، مبيّنةً لصاحبها منازل القرب ، وحظائر الحب والشهود .
ولا تكون كذلك حية إلا القائمة ، والقيام هو الحياة ، فإذا كانت حية
بالإخلاص باطناً ، والآداب ظاهراً ، وانتصاب القلب بين يدي المعبود . .
يقتضي منه ألا يكون له إلى غيره التفات .

فإذا التفّت عنه باطناً أو ظاهراً . . احتجب عنه جل جلاله ؛ كما ورد :
أن العبد إذا التفّت في صلاته . . يقول الله عز وجل : « أسدلوا الحجاب
بيني وبين عبدي ؛ فقد أعرض عني »^(١) .

وما دام القلب منتصباً قائماً . . فالحق قبلته ، والسر وجهته ، يناجي
قريباً ، ويخاطب حبيباً في موطنٍ بما هو اللائق به ؛ ففي القيام بالثناء ،
والاعتراف والدعاء ، والإجلال والقنوت والإقبال والكبرياء ، وفي الركوع
بالتعظيم والخضوع ، وفي السجود بالاضمحلال عن الرسوم والخشوع ،
وفي الجلوس بالتملُّق والترقي في مراتب الفضائل ، والتوسل بأعظم
الوسائل ، فأعظم بها من رتبة جمعت هذه المراتب ، واحتوت على
هذه الرغائب !! فهي الوصلة بين العبد والمعبود ، وهي سلّم إلى نيل
المقصود ، جعلنا الله من القائمين بها ، الحافظين لأوامرها وآدابها ،
الدائمين العكوف في مشهدها .

وكل وقتٍ يدعوها لها كانت مواجهة عديدة ، وهدية جديدة ،
وكرامة القادم على الداعي جزيلة ، ليس كمن لم يخرج من مجلسه ،
ولا فارق أسوته .

(١) روى البيهقي في « السنن الكبير » (٢٨١/٢) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه
مرفوعاً : « لا يزال جلّ ثناؤه مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت ، فإذا التفّت . .
انصرف عنه » .

وأما من كانت صلواته بغير هذا الوصف ، وعلى غير هذا النعت . . فلا يطلق عليه اسم المدح ، ولم يحظ بشيء من الكرامة ، وإنما يدخل في غمار من في خطر المشيئة وقسم المغفرة من هذه الأمة المحمدية ، ومن جملة أهل القبلة المحكوم عليهم بأنهم متبعون ، وإلا . . فالأمر في صلواتهم كسائر أعمالهم إلى الله ، إن شاء . . جعلها لهم قربة ، وكساها بكشف الكرم كأمثالنا ، وإن شاء . . ردّها بحكم العدل ، ولكن الرجاء من فضله العميم ، وكرمه الجسيم أن يقبل متناً من غير مناقشة ولا تفتيش .

هذا إذا قد بلغ فيها من الآداب الظاهرة والباطنة حدّاً طاقته ومنتهى قدرته ، وإلا : إذا كان لا يكثر بها ولا بآدابها ، ولا يعتدُّ لها ، بل يقوم بحسب العادة المعتادة ، أو ليرائي بها ويقصد بها غير الله سبحانه . . فلا يشك في إحباطها ، ومقت صاحبها ، أعاذنا الله من أن نقصد بطاعته سواه ، وأن نريد مطلباً سواه ، ولي في ذلك :

لما علم جل ما فينا من الملل وما جمَعْنَا من الآفات والعلل
 وما في الطبع من طيشٍ ومن خطل^(١)

لَوْ نَصْنُوفاً من الطاعات مَنَّ بها على النفوس من الإفراط والكلل
 وذلك حكمة باريننا وقدرته ليجعل العبد في الحالات ممثّل

فالصلاة ذروة سنام الدين ، وعماد الإيمان ، وفيها جميع صنوف الطاعات مندرجة قولاً وفعلاً ؛ لذلك عبّر بها من جملة الطاعات ، فقال المؤلف رضي الله عنه :

(١) كذا في النسخ ، ولعله سقط شطر بيت أو أكثر .

الصَّلَاةُ : طَهْرَةُ الْقُلُوبِ ، وَاسْتِفْتَاخُ لِبَابِ الْغُيُوبِ

الصلاة صلة للمحب بالمحبوب ، ومكفّرة لكبائر الذنوب ، ومطهّرة من أدناس أرجاس العيوب ، وجالية كئائف الظلمات عن القلوب ، ومزيحة للحجب عن الأرواح ، ومبشرة بالفلاح ، ومؤذنة بالنجاح ، ومريحة عن أعباء أثقال مقاساة الأغيبار ، وما يغان على القلوب من مختلفات الآثار ، « أرحنا بها يا بلال ... » الحديث ^(١) .

وإشارته بالطهارة بالصلاة من الذنوب حسن ؛ فالصلاة رحمة من الله لعباده ، وتحفة من حضرة رافته ووداده ، لمّا علم سبحانه بأن هذا العالم الإنساني محفوف بصنوف المعاصي .. منّ عليه بما يزيل قذرها ، ويمحو عن محل المناجاة أثرها ، وتلك هي الصلوات الخمس ؛ لحديث : « الصلاة إلى الصلاة ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان .. مكفّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » ^(٢) .

وفي الحديث أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثل الصلوات الخمس كنهرٍ بباب أحدكم يقتحم فيه كلّ يوم خمسن مرات ، فما ترون ذلك يبقى من درنه شيئاً !؟ » الحديث ^(٣) ، وتمثيله صلى الله عليه وسلم بالنهر ؛ لجريانه من غير كلفةٍ في سَوْقه ، ولكن من تعرّض له .. غمرته مئته ، وعمّته رحمته من غير أن يكون له فيه احتيال ، بل تعرّض لنواله ، فكذلك الصلاة هي مجرى الواردات الوهية ، والنفحات

(١) رواه أبو داوود (٤٩٨٥) عن رجل من خزاعة من الصحابة رضي الله عنهم .

(٢) رواه مسلم (٢٣٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٥٢٨) ، ومسلم (٦٦٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

الوقتية ، والاختصاصات القُربة ، واستفتاح أبواب الغيوب الملكوتية ،
والأسرار الجبروتية ، والرحمات العرشية .

فالفغلة عن الله والانهماك في العادات الأرضية والشهوات
الحيوانية . . حُجُبٌ عن تلك المشاهد ، وأبوابٌ عن تلك المقاصد ،
فجعل الله مفتاحها ومجلى كثائف أستارها . . في الصلاة ؛ فاستفتاح
صفة القيومية وانسحاب الديمومية . . بالقيام ، واستفتاح الخزائن
الوصفية والذخائر العرشية . . في الركوع ، واستفتاح سرِّ الأحدية ،
وانفراد الألوهية ، وفناء الموجودات ، واتحاد الذات ، ويطون الأسماء
والصفات . . في السجود .

فما أعظمها من قُربة !! وما أتمها من وُصلة !!

فسبحان المتفضل على عباده بفواضل إحسانه ، والمتطوّل عليهم
بسوابغ امتنانه ، من غير طلبٍ منهم لذلك ، ولا علمٍ لهم بما هنالك ،
ولي في ذلك :

إن الصلاة من الرحمن مكرمة خصَّ العباد بها فضل وإحسانُ
تزيل عنهم حجاب البعد مرحمة من قبل أن يعلموها الإنس والجانُ
يفتحون بها أبواب الغيوب فما بعد البلوغ إلى غاياتها شأنُ
يجلئ بها من مرآة السرما اكتسبت من الخطايا وما يعلوه من ران

فإذا انفتحت أبواب الغيوب ، وطهرت القلوب من لوث الذنوب . .
صلحت لمناجاة المحبوب ، واطلعت على مصونات الأسرار ، وحظيت
بتجليات الأنوار ، وانكشاف الحجب والأستار ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه ^(١) :

(١) هنا انتهت النسخة (ج) ، وبدأت النسخة (د) .

الصَّلَاةُ مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ ، وَمَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ ، تَسَّعُ فِيهَا مَيَادِينُ الْأَسْرَارِ ،
وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الْأَنْوَارِ

الصلاة إذا خلصت عن محبطاتها ، والحاجبات عن بلوغ مرامها . .
هي محل المناجاة ، جعلها الله باب أهل حضرته ، وموعد أهل قربه ،
فيها يناجيهم ويناجونه ، وفيها تَسَّعُ أسرارهم ، وتعلو أحوالهم في
منازل القرب ، وفسيح الحضرة القدسية ، وتشرق أنوارهم في أرجاء
الوجود ، وتحظى أسرارهم بالكشف والشهود ، وفيها المصافاة عند
تجلي الصفات العلا ، تنصفو عند ذلك الأسرار من كدورات الأغيار ،
وتخرج عن مضيق الآثار إلى التنزه في الاتساع الحقي .

يروى : أن المصلي إذا قام إلى الصلاة متوجّهاً إلى حضرة ربه ، طالباً
بعبادته قُربه ، ومبتغياً به حبه . . ضُربت عليه سرادقات من نور ، لم يحم
حوله شيطان ، ولم تشغله الأكوان ، فيكبر الله معظماً ، ويتوجه إليه
مُسليماً مسلماً ، يرى محبوبه قبلته ، وأوصافه وجهته ، وأفعاله محرّكته
ومسكنته ، فيكبره ويمجده ويعظمه بمجده وعظّمته كما هو أهل لذلك
ومستحق له ، لا به ولا منه ، بل صدر ذلك من حضرة اسمه الماجد
العظيم الكبير .

فإذا كثر أو عظم أو مجد . . صدّقه الملك ، وتشعشع نورٌ من قلبه
إلى العرش ، وتبقى صورة مستمرة الوجود ، متصلة بالمقام المحمود .
فإذا كان على غير ذلك الوصف ، وبغير ذلك النعت متلبساً ؛ وهو
أن يكون محجوباً ، وبالظلمات مصحوباً ، ولم يرَ إلا الدنيا وأشغالها ،

والنفس ومطالباتها^(١) ، ودنيّات أحوالها . . احتوشت حوله الشياطينُ
 وجنودها ، واستلبت قلبه ، وحجبت سرّه ، واسترقته بتمانيها وسنديات
 خدعها^(٢) ، فلم تدع له وجهاً ولا جهةً إلا إليها ، ولا تعويلاً إلا
 عليها ؛ إذ أغلقت عنه أبواب الملكوت ، وأسجنته في قفص الناسوت ،
 أعادنا الله من ذلك ، وسلك بنا طريق أصفياه ، وبوّأنا مقعد أوليائه
 الذين أروا إلى جنبه ، والتأذوا بحماه فحماهم ، ولأزموا بابه فاجتباهم
 وآواهم ، ولا جعل للشيطان علينا سلطاناً ، ولي في ذلك :

إن الصلاة محل الأنس بالله ومعدن لمصافاةٍ لمتصرفٍ
 وتشرق أنوار من في الحب آواه ويتسع سر أسرار لمعترفٍ
 فادخل حماها بقلب غير ملتفت إلى الوجود وعن الأغيار منصرفٍ
 ولما علم ما أنت مجبوت عليه من الضعف من حيث بشريتك ، وما
 أنت عنده من القدر والحب من حيث إنسانية روحانيتك . . قلل أعداد
 الطاعات ؛ لتكون لها فاعلاً ، وكثر أمدادها ؛ لتكون بها واصلاً ، لذلك
 قال المؤلف رضي الله عنه :

عَلِمَ مِنْكَ الضَّعْفَ فَقلَّلَ أَعْدَادَهَا ، وَعَلِمَ أَحْتِيَاجَكَ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا

علم سبحانه وعلمه البالغ الذي لا يدخله تناقض وتغيير ، وعلمه
 للأشياء قبل إيجاد أعيانها ، وجميع تفاصيلها وجملها ؛ فلذلك استوت

(١) في (د) : (والنفس ومطالبها ولذاتها) بدل : (والنفس ومطالباتها) .

(٢) كذا العبارة في النسخ ، ولعله أراد : (سندباد خدعها) وهو كناية ؛ كما يقال في

المثل : (مواعيد عرتوب أخاه بيترب) .

في علمه الحالات المتضادات ، ولم تشغله عدة الأعيان المختلفات ، بل قَدَّرَها وأبرزها على وفق ما هو العلم فيها قبل إيجادها ، وسبق إليها ألفتها قبل استعدادها ، وإعداد آلاتها في جميع أطوارها ، وترتيب أحوالها وأفعالها ، وجميع سكانتها وحركاتها ، وسعاداتها وشقاواتها ، فخرجت كل ذرةً متهيئةً لما هو المراد منها .

وأكمل الله سبحانه على هذه الأمة منته ، وأسبغ عليهم نعمته ، فعلم ضعفها وما هي عليه من الثقل الترابي ، وما ركز فيها من الطبع الحيواني ، فلم تستطع أن تعم المراتب الروحية وما ركز في آنٍ واحد ، فجمع جميع اللطائف ، وسرَّ عليها تلك المعارف ، فجعل لها خمس صلوات فيها أسرار خمسين ، وفي كل ركنٍ منها طور أمرٍ ، وفعل خلقي ، فأكمل لها غاية مرامها ، وسرَّ لها طريق تمامها ، وسرَّ جعلها وترأ في العدد الإجمالي^(١) ، وشفعاً في العدد التفصيلي ، مشيراً إلى رتبة الكمال ، واتصاف الواحد المتعال : بأنه واحدٌ في ذاته ، متكثراً في صفاته .

وإن كنت تقول : ما بالك تقول : (إنها في العدد التفصيلي شفع) وصلاة المغرب ثلاث ؟! فقد شفعت صلاة الليل بالوتر ؛ كما صحت بتلك التقول ، وطابق المنقول فيها المعقول ، ولترجع عن ذلك ؛ فإن الدخول في أسرار الصلاة يطول فيه الجولان ، ويكثر فيه القول ، وهو حريٌّ بأن يرنع في ساحة الطرس القلم^(٢) ، وتبدي ما أكتث في طيِّها : ﴿ ت وَالْقَلَمِ ﴾ ، ولكن المراد شرح هذا الكتاب على أوجز

(١) في (أ) : (وسرَّ عددها وترأ في العدد الإجمالي) .

(٢) الطرس : الصحيفة .

مقال ، وأقرب مثال ، ولي في ذلك :

العبد محتاجٌ ألى وصل الحبيب وما

فيه اتساعٌ لَمَا كَلَّفَهُ مِنْ عَمَلٍ

فقربت منه الجود الذي علما

واستودعت ذلك كالألفاظ في المثل

فالخمس خمسين في المعنى الذي فهما

في سر تضعيف سنبل نابت العمل



فمتى عقلت عن منة الله عليك في إقامته لك في العمل ، وعدت

تطلب الجزاء . . لم تكن من مخلصي العمل ، ولم تنل منتهى السؤل

والأمل ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَتَى طَلَبْتِ عِوَضاً عَلَى عَمَلٍ .. طَوَّلْتِ بُوْجُودَ الصِّدْقِ فِيهِ ، وَتَكْفِي
الْمُرِيدَ وَجِدَانَ السَّلَامَةِ (١)

متى طلبت على عمل عوضاً .. فقد فقدت الإخلاص الذي هو شرط
في قبوله ، والإخلاص : هو ألا تقصد بعملك غير وجه الله .

وفقد الإخلاص ينافي طلب الأعواض في مقابلة ما أنت عاملة ،
فيكفي المرید من عدم الإخلاص ، وتقصير في مأمور ، واقتحام منهبي ،
أو فعل على غير أمر من الله وبصيرة .. السلامة من آفات القوادح
نسي الإخلاص ، والنقائص في الأحوال ، والتقصير عن إكمال ظواهر
الأعمال ، فضلاً عن الوصول إلى استقامة بواطنها .

فما أعظم جهل من يطالب سيده بجزء أعماله التي برزت من
حضرة الفضل الأزلي ، الذي ابتدأه به قبل أن يطلبه ، وخوّله إياه قبل
أن يسأله !! فالفضل له عليه حيث أباحه خدمته ، وأظهر عليه آثار
عنايته ومنتته ؛ فالأعواض قيّد عن النزوع عن مواطن القرب ، والدخول
في حظائر الحب ، فما أعرف من قام لله لهذه المعاوزات إلا ناقص
الهمة ، فاتر العزيمة ، ولي في ذلك :

إذا طلبت على الأعمال أعواضاً طُوبِتَ فِيهَا بِإِخْلَاصٍ وَلَمْ تَجِدِ
إن الحرص على الخيرات معتاض بها فلا شك أن يعطى الذي يرد
لكن عن الرتبة العليا يقصّر ذا وعن حياض الهنا الفياض لم يرد



(١) في شروح الحكم عامة : (المرید وجدان السلامة) .

فالأعمال إلى طلب العفو . . أحوج منها لطلب العوض ؛ وذلك لما يلزمها من القصور والآفات القادحة فيها كما قاله الشيوخ رضي الله عنهم ؛ فارتجاء فضله وفيض فضله . . خيرٌ من أن تطلب جزاءً على ما صدر على صورتك من النقص والتقصير .

وإذا نظرت بنور التوحيد . . وجدت ما صدر عنك مجازاً لا حقيقة ، فحقيقةُ صدور الأشياء : من اختراع مشيئته وإبداع قدرته ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تَطْلُبْ عَوْضاً عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلاً ؛ فَكَفَى مِنْ أَلْجَزَاءِ لَكَ
عَلَى الْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلًا

فالحكمة الأولى تشير إلى إسقاط رؤية العمل من حيث التقصير فيه ؛ وهو مشهد أهل الصدق في المعاملة من السالكين بظواهر العلم . وهذه تشير إلى إسقاط رؤية العمل بشهود التوحيد ، ولسان الغناء في الأفعال ، وهي طريقة الأبدال الغائبين عن الأعمال وسائر الأفعال ؛ لتحقيقهم بالوصال ، والتوله في بديع الجمال ، والخضوع تحت خوف سطوات الجلال ، فتسمو بهم الأحوال ، وتركو منهم الأعمال ؛ لخلوصهم عن رؤية أنفسهم فيها فضلاً عن أن يشركوا فيها غير معبودهم ، أو تتوجه قلوبهم إلى غير مقصودهم ، فكيف يُتصور من مشهده هذا الحال أن يطلب عوضاً وهو يرى أنه ليس فاعلاً ؟!

فيكون جل هم الصادقين خوف ردة الأعمال وعدم صلاحيتها لأن تُعرض بين يدي الله ، فأعظم به جزاء إذا ارتضى ذلك منهم وقبله ، فقبوله أعظم جزاء ، ولولا محض كرمه وعفوه عن العاملين . . . لما صلحت أعمال البشر أن تذكر في متنزه حضرته ؛ لما عليها من القصور والتلوث بقاذورات الشهوات وظلمات الغفلات ، ﴿ وَلَا قَوْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ ، ولي في ذلك :

كيفية تطلب أن تُجزئ على عملٍ نزل من آثار قدرة منشئ الصور
كفى جزأ أن يكون الله قابله وسر ما فيه من نقص ومن ضرر



نسبة العمل إلى العباد مجاز ، والحكمة في نسبتها إليهم : ظهور
الفضل والكرم عليهم ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظَهِّرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ . . خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ

إذا أراد أن يظهر فضله عليك أيها الإنسان ، والإرادة متفرعة عن سبق علمه بذلك ، فالإرادة هي التي تخصصت بها الأشياء ، وافتقرت بها مجملات الأمور ، وبرز على وفقها كل كائن مقدور .

والفضل : هو ما قدره لعبده في سابق من سابقة الحسنَى ؛ بأن يخلق فيه الأفعال المحمودة ، ويجنبه الخصال المذمومة ، ويلبسه الألفاظ ، ويحليه بحلية جميل الأوصاف ، فيُتَوَجَّه بمكارم الأخلاق ، ويعامل في جميع أحواله بمعاملة المحب المشفق بحبيبه ، ويدنيه دنو متقرب لقربيه ، فإذا رفع بينه وبينه الحجاب فأذن في الخطاب ، وابتدأه بما يطلب منه فيه الجواب . . انطلق لسانه في مسامرة حبيبه ، فيقول له المولى بمحكم كتابه ، المنزل على حبيبه بإثبات العباد وأفعالهم : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴾ ، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فلما قرع أسماعهم ذكر الجزاء على ما أجره من صالح العمل . . فهموا منه الإذن في نسبة ذلك إليهم ، فسطروا أكف ضراعة القلوب فقالوا : تقبل منا ما حَقَّقَتْ نسبته إلينا ، وأجريت أسباب هدايتك علينا ، ثم لما علموا ما الله موصوف به من جميل الصفات . . غاروا على أن ينسبوا إلى صفته ما لا يليق بشرف رتبتها من نسبة ما لا يوصف به ، فقالوا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، فلو لم يطلق نسبة الأعمال إليهم . . لم تحنو أسرارهم أن تختلج فيها أن لها ومنها .

ولكن نسبة الفعل لم يختلف فيها القول بنسبته إليه ، وما كان

من قبيل تجلي العدل .. فعند أهل السنة : أنه مختارٌ لفعالها في حال إجباره ، ومجبر في حال اختياره ، فلسان الشرع لا تنطق بلسان الذم إلا على العبد في فعله للمعصية ، ولسان الحق لا تنطق إلا بالعدل : ﴿ وَتَنَّتْ كَلِمَتُكَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ وحق العبد : أن يضيف إلى نفسه ما لا يليق نسبته إلى ربه ، مع ما هو متحقق به بأن الأشياء لا تخرج عن حكم إرادته واقتداره .

والسنة في ذلك : كاللبن بين دم القدر وفرث الجبر ، فالعبد يقول عند بروز الطاعة عنه : أنت المقدر والهادي والمعين والمداح والمثيب ، فهذه عدة نعم يقصر دونها ، ويعجز في جنبها شكر الشاكرين ، وعند بروز المعصية عنه يقول : يا رب عصيت وأخطأت فاغفر لي ؛ فأنت الغفور الرحيم ، ولي في ذلك :

إذا أراد إله الخلق يظهر من فضائل في شخص من البشر خلق له كل محبوب ينال به ثناه عند إله جل مقتدر فنسبة الفعل في الأشياء وإن حسنت مجازة ليس للأغيار من أثر

فيإذا علمت أن أصل العبد العدم ، وفصله العجز .. علمت أن العدم ظلمة وليس عليه جل أن ينيرها إلا أن يتكرم ويرحم ، قال جل من قائل : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُ اللَّهُ ﴾ إذ الظالم : من تصرف في حق غيره ، ولم يصادف لغيره ملكاً ، وإذا لم يجعل لهم نوراً .. فلا ظلم منه لهم ، وإذا لم يجعل لهم نوراً ولم يهبهم من فضله .. فمذامهم غير متناهية ، وإذا ألبسهم من نور وجوده ، وأظهر عليهم عنايته وجوده .. فلا جرم لا تفرغ مدائحهم ، ولا تُسامى مراتبهم ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

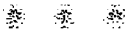
لَا نِهَآيَةَ لِمَذَامِكَ إِنِ أَرْجَمَكَ إِلَيْكَ ، وَلَا تَفْرُغُ مَذَامِيحَكَ إِنِ أَظْهَرَ
جُودَهُ عَلَيْكَ

لا نهاية - يوصل إليها ؛ لبعدها غايتها ، وغموض نهايتها - لمذامك ؛ لأنها متأصلة فيك ، ولا نهاية للعدم الذي هو ظاهر صورته الظلمة ، ومعناه عدم الحقيقة التي يرجع إليها ويعتمد عليها ، فالمذامُ إن أرجعك إلى أصلتك .. لا نهاية لها ، ولا تفرغ مذامحك إن أظهر جوده ، وهو نور وجوده ، وتحقيق شهوده ؛ لأنه إذا ألبس ظلمة وجودك بنور وجوده ، وجلا قبائح صفاتك فائضُ فضله ، وعميم جوده .. اضمحل العدم ، وبقي الأصل الوجود ، والظاهر في الأعيان الشهود ، وكان هو الشاهد والمشهود ، فلا تفرغ لمذامح الصفات العلية ، والتجليات السنية .

فمن أرجعه الله لنفسه .. أرجعه إلى ظلمةٍ ونقص ، وقد رسم عليه يرسم البعد ، وأظهر عليه علامة الطرد عن حضرة القرب ، ومن كان من حضرة الله بعيداً ، ومن بابه طريداً .. فلا نهاية لمذاميه ومخازيه .

ومن أتحنه وقربه وجعله من خواصه وأهل حضرته .. فقد أسبغ نعمته عليه ، وأفاض فائض جوده لديه ، فمتى يُفرغ من مدحه وقد مدحه وقربه خالقه ومالكة ؟! ولي في ذلك :

فلا نهاية لذم العبد إن بعدت به عن القرب من مولاه أسبابا
ومدحه ليس يفرغ منه إن قربت من ربه جلّ من للفضل وهّابا



فإذا عرفت ذلك .. تحققت - لا محالة - أن الممدوح وجود الحق
لا غير ، وإن وجودك [لا يكون] إلا بفنائك عن وجود إيتك ، ومحو
ثنويتك ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

كُنْ بِأَوْصَافِ رَبُّوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقًا ، وَبِأَوْصَافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا

كن بأوصاف ربوبيته متعلِّقًا ؛ بأن تكون شاهداً لوجوده وجميع أوصافه ، غائباً عن وهمية وجودك ، فانياً عن مظهر شهودك ، لا ترى لك برؤية حياةً ، ولا سمعاً ولا بصرأ ، ولا قدرةً ولا إرادةً ، ولا علماً ولا كلاماً ، ولا حركةً ولا سكوناً . . إلا به ، وقائماً بقيوميته ، وحيأ بحياته ، ومريداً وقادراً وعالماً ومتكلماً بإرادته وعلمه وكلامه ، ومتحرِّكاً بتحريكه ، ومتصرِّفاً بتصرفه .

فالتعلُّق بالوهمية الإله للمألوه ، وربوبية الرب للمربوب . . نعت ، وبها يظهر شرفه ، ويثمر له ظهور نسبه .

وحيث تكن القضية بأن تعلق بالأوصاف العدمية ، وغفل عن الصفات الأزلية العلية . . فهو الحقيق باسم الجحود ، والمبعد المطرود - أعاذنا الله من البعد والطرْد - فكلما كنت متحققاً بأوصافك ؛ من قصورك وعجزك وفقرك ، ودُلك وعدم حولك وقوتك . . كنت من التعلق بأوصافه أتم وأمكن وأخص ، ولي في ذلك :

فكن بأوصافه العظمى منتسباً وعن قواك عديم الحول منعدم
واشهد وجود الصفات الست معتمداً بأنْ خالقنا موصوف في القدم
بتلك والسبع مبدا كل كامنةٍ وكل ما استأثر في الغيب منكم
من كل أوصافه أو كل ما نُعِتَتْ به من أسمائها الحسنى بذاك مُمي
فاقطع بهذا وكن في القول مجتنباً عمَّن تجوَّل في الإلحاد أو يَحُم

فإذا فهمت معنى التخلُّق والتعلُّق الذي يشير إليه أهل الأذواق
والعلماء الحدائق .. علمت أن المطلوب من العبد أن يعترف بأوصافه ،
ويكون متعلقاً بأوصاف الله ، ناظراً في بواطن مصنوعات ، فالحكمة في
العبادة : الاعتراف بذلك ؛ ولذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنَعَكَ أَنْ تَدْعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا هُوَ لِلْمَخْلُوقِينَ ، أَفَيُبِيحُ لَكَ أَنْ تَدْعِيَ
وَصَفَّهُ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟

منعك وحظر عليك وأوعدك على دعواك حقوق العباد المالية الدنياوية التي خولهم إياها ، وأنزلهم عليها ؛ مع أن الملوك فيها حقيقة لله ، ومع ذلك قال : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ ﴾ ، والباطل : هو ادعائها بغير حق ، أفيبح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين ، ومالك الدارين ؟! لهذا غاية الظلم والتعدي أن تنازع سيدك وخالقك في صفاته ، أو تشاركه في نعوت كماله ، أو تشرك معه غيره في عبادته ، أو تشهد معه سواه في مملكته .

فلو أباح لك ذلك . . لم تتجاسر على الإقدام عليه حياءً منه ، وإجلالاً وتعظيماً لجنابه العلي عن أن يُنَازَعَ في صفاته ، أو يساهم في نعوت كماله ؛ كما يروى عن سادات الصوفية رضي الله عنهم حكايات في ذلك عديدة وآثار ، ومتواترات أخبار : أن أحدهم يعرض له التصرف المطلق في الوجود بإذن صريح ، وذوق صحيح ، فيمتنع أدباً وهرباً منه فرقاً ، فيستعيذ بالله ويلوذ بجنابه من أن يكون له اختياراً ، ويغار على جنابه أن يكون لغيره ذكر في نهى أو أمر ؛ لأنفسه ولا غيره ، ويغضي عند تبرج الآيات ، وظهور خوارق الكرامات ؛ خوفاً أن يساكنها أو يفرح بوجودها ، فيكون مشركاً في محبته غيره ، فيشتد نكيره .

فلهذا المرمى استعاذوا به مما سواه ؛ مما يتطرق إلى القلب محبته ، أو يخامر النفس مساكنته ؛ لذلك قال قائلهم :

أَشْتَاقُهُ فَإِذَا بَدَا أَطْرَقَتْ مِنْ إِجْلَالِهِ

لَا خِيْفَةَ بَلْ هَيِّبَةً وَصِيَانَةً لِحِمَالِهِ

وعند ظهور تجلي المحبوب على المحب مع فرط التعطُّش إلى اللقاء يشتدُّ عليهم الصبر مع هذه الحالة ، وهذا هو صبر الصيانة والإجلال لمظهر الجمال ، والغيرة على مخدرات غيد المعارف ، ومصونات حجال اللطائف والوصال ، فلا يطبق الصبر في هذا المشهد الرفيع مع إباحته إياه إلا نادر من محققي العارفين ، والتمكِّين من آحاد المقرِّين ، وعندما يتحمل أعباءه .. يتضاعف عليه مظاهر ولائه ، وسواخ آلائه .

فانظر كيف أدبهم الأدب لمقام الربوبية ، في صفو مقام العبودية ، إلى أن صانوا شهوداً وجوده عن أنفسهم ، ونزَّهوا محلَّ محبته عن مقصودهم ، تعلقاً وتحققاً ، فضلاً عن أن يدَّعوا لأنفسهم حالاً ، أو يثبتوا لها مقاماً ، فضلاً عن أن يشاركوه أو يشركوا معه .

فإذا رأيت شرف هذا المقصد ، وتُعد مرماه وعلو شأنه ، ورأيت ما الخلق عليه مكبُّون ، وله محبوبون ، وفيه يتنافسون ؛ من قاذورات الدنيا ، والتطاول في هذا العالم الأدنى .. علمت أن هذا الطريق قد اندرس بالكلية ، إلا البقايا الذين تحت قباب الغيرة أولو البقية ، وليت شعري ؛ من لك بواحدٍ منهم ؟! أو هل ترى مخيراً عنهم ؟! وإن يظهر في زبهم من يدَّعي شرائف أحوالهم ، ويمخرق بتزويق ألفاظ تحاكي ألفاظهم .. كذبُهُ شاهدٌ حاله ، ونمَّ عليه قبيحُ فعاله ، فليتقِ الله المتجاهل المتعامي ، العالم بما هو عليه من قبيح الحال ، وسوء الفعال ، وهو مع ذلك يدَّعي مقامات أبطال الرجال ، ويتبجَّح في بيداء الدعاوي ، وهو عن مقامات القرب نائي ، وفي سندان الأهواء هاوي .

فبالله يا أخي وإياي ؛ هل أحدٌ منا نال من لذيذِ وصالهم ، أو تحلّى
بصفتي أحوالهم ، أو نادَّب بمكارم أخلاقهم !؟

فكيف وقد وعد الحق من نازعه في صفاته ، وأشرك غيره في عباداته
بوبيل عذابه وأليم عقابه ، فقال عزّ من قائل محذراً ، وعن الإشراك
معه زاجراً : ﴿ وَاتَّبِعْ قَوْلَهُمْ ﴾ عن أن تشاركوني في صفاتي : ﴿ وَاتَّبِعْ
قَوْلَهُمْ ﴾ عن أن تشركوا معي أحداً في عبادتي .

وعلى لسان نبيه في القدسيات : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ،
فمن نازعني فيهما . . أدخلته النار »^(١) ، أشار إلى اختصاصه بهذه
الأوصاف كاختصاص الشخص بالرداء والإزار ؟! فلا أبلغ من هذا
إنذاراً ، ولا أعظم علي من نازعه منه إنكاراً ، فإن من نازع شخصاً في
ردائه وإزاره . . فقد بارزه بأعظم إنكاره .

فانظر واعتبر ، وإياك والكبير ؛ فإنه المصيبة الكبرى ، فإن قليله مانعٌ
من دخول الجنة ؛ كما ورد : أنه « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال
ذرة من الكبر ، ولا يدخل في النار من كان في قلبه مثقال ذرة أو حبة من
إيمان »^(٢)

وشرح ذلك غامضٌ عن الأفهام عند النظر في أصله ومبدئه وغايته
وانتهائه ، فالكبر المنهي عنه : خُلِقَ إبليس لعنه الله ، وهو خُلِقَ من
نار ، والنار ما دامت متأصلة في القلب وإن قلت . . فهي تجذبه إلى
أصلها [حتى] لا يتمكن من دخول الجنة ، كذلك الإيمان ؛ لا يزال

(١) رواه أبو داوود (٤٠٩٠) ، وابن ماجه (٤١٧٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داوود (٤٠٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) ، وابن ماجه (٥٩) عن سيدنا ابن

مسعود رضي الله عنه .

يجذب صاحبه حتى يردّه إلى أصله ، وأصله نور الجمال الذي نعيم
الجنة منزله ، وفيها سلطانه ومظهره ، ولقد طال بنا الشرح ، وانجذب
البعض إلى البعض ، ولي في ذلك :

منعك أن تدعي حق العباد فما للعبد أن يدعي وصفاً لمولاه
فما لغيره أن يعبد سواه وما معبود في الملك والملكوت إلاه
من نازع الله في أوصافه قسماً ألا يذوق في الفردوس أحلاه



فإذا سمعت بمن أظهر الله عليه من أوليائه شيئاً ممّا هو من
مقتضى التصرف الإلهي .. فلا يختلج في عقلك أن ذلك بطلب
واختيار ، أو مع بقاء رؤية الأغيار ، والتلطّخ بكثائف العوائد وظلم
الآثار ، وإنما ذلك بعد تحقّق مقام الفناء ، وأما مع الإقامة على العوائد
الطبيعية ، والشهوات الحيوانية .. لا تحرق أستار الغيوب ، ولا تبدو
مخبّات الأسرار تحت سحف الحكمة ، وسرّ القدر لا يظهر إلا بعد
ذهاب وصف البشر ؛ لذلك قال المؤلف مُتَعَجِّباً :

كَيْفَ تُخْرِقُ لَكَ الْعَوَائِدُ ؛ وَأَنْتَ لَمْ تُخْرِقِ مِنْ نَفْسِكَ الْعَوَائِدَ ؟!

كيف يتصور أن تخترق لك أستار الغيوب وأنت بعد لم تتب من هفوات الذنوب؟! أم كيف تخترق لك العوائد والأقدار وأنت متّصف بالغفلة ومقيمٌ على الإصرار؟!

أم كيف تشرق عليك شوارق الأنوار وأنت لم تَصْفُ منك الأسرار عن الظلم والأكدار؟! أم كيف تطمع في نبيل أقصى المرام ، والتحلّي بأعلى مقام وأنت لم تعرف الحقوق على التمام ، ولم تصح منك الإنابة على الدوام؟!

فخرق العوائد : بأن تأتي ويظهر على يديه ما يستحيل في العادة الإتيان بمثله ؛ وذلك عند انكشاف سر القدر ، وذهاب ظلم العوائد وكثيف البشر ، وخرق العوائد النفسانية مفتاح الأبواب الروحانية ، وخرقها : بأن تأتي على خلاف المعتاد مما هي مقيمةٌ عليه ومطمئنةٌ إليه ؛ من الركون والسكون إلى ما يلائمها ويوافقها من ملاذها ، بأن يزعجها عن سائر محبوباتها ، وينغص عليها ملذذاتها ، ويحملها على الاجتهاد ما يخرجها عن معتاد طبعها .

فعند ردها عن مرادها ومقتضى حَظِّها ، وحملها على غاية الوسع ومنتهى الطاقة في عبادة ربِّها . . تخرج عن حيزِ النفوس ، وتلتحق بالعالم القدوس ، مع الأرواح العلوية ، واللطائف السماوية الصافية ، فعند ذلك - لا جرم - أن تخترق العادة البشرية ؛ بأن تطير في الهواء [تمشي] على الماء ، ويستوي عندها البُعد المكاني ؛ إذ لا مسافة في العالم العلوي مكانية ، وتجلّي عليها الصفات العلوية ، فتكون مظهرًا

لها ومجلئ لسرها ؛ لأن كل سماء يتحكّم فيها سر وصفي ، وروح
قدسي ، روحانيته مستمدة ومستعدة لتنزّل نور وصف إلهي ، وهنا علمٌ
يُطلب ستره عن غير أهله ، فلا يذاع ، ولا يستدعه إلا كل قلب قدسي
يشاكلة ، فلا نطيل فيه ، ولي في ذلك :

فكيف تطلب مظهر غائب القدر

وأنت مكبولٌ في سجنٍ من البشرِ!؟

إن شئت تخترق السبع الطباق على

براق عزم وحضرة منتهى النظرِ

هكذا وبعد انتهاء سير الوفود إلى

عزيز وصل بجنح أطيّار ذاك طرِ

إنسان عيني سعدت إن حُزت ثمَّ على^(١)

وجوهٍ جميلٍ بلا تكييفٍ منحصرِ

وهذه الخوارق هي ظهور الآيات ، ووجود الكرامات ، وهي لا تظهر
لمن بقيت عليه من نفسه بقية ، وإن ظهرت صورتها . . فهي عند الرضا بها ،
والسكون إليها ، والفرح بوجودها خديعةٌ ، فعدم ظهورها على من فيه من
بقية الهوى ووجود الدعوى أتمُّ ؛ لصالح حاله ، فستر الكرامات ، وظهور
الآيات على يد من لم يتأهّل للإرادة ، ولم تحتنكه رياضات السالكين ،
ولم يكشف له عن مقام المحقّقين . . من رحمة الله به وعنايته .

والكرامة تكون : إما من قبيل الأفعال ، أو من حيز الأقوال ، أو من
لطائف الأحوال .

(١) في (ب) : (جرت ثمَّ على) بدل : (حزت ثمَّ على) .

فالأفعال ؛ كأن يمشي في الهواء وعلى الماء ، وطى مسافات الأرض البعيدة ، وإحضار الطعام في غير أوان وجوده ، وإجراء الماء من غير أن يكون هناك ، أو زيادة في شيء منه بأن يكون القليل كثيراً ، وانقلاب الأحجار ذهباً ، وما شاكل ذلك مما هو من جازات القدرة .

أو من الأقوال ؛ كإجابة الدعاء ، وتيسير العلوم الغريبة ، والمعارف العزيزة ، وإبراز العلم المكنون الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : « إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعرفه إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به .. فلا ينكره عليهم إلا أهل الغرّة بالله »^(١) .

وأما من الأحوال .. كالاتصاف بصفة الأرواح في تشكّلها وتنقلها من صورة إلى صورة ، أو تكثر الصور ، أو الظهور بهيئة تخالف هيئة البشر ، وذلك من أعز ما يجده أهل المواجد ، ولا يكون إلا بعد أن يذهب في التوحيد ، وينكمش في حضرة التفريد ، ويخرج عن حيز التعديد .

وأما الكرامات بالأقوال .. فعند جماعة من أرباب الكشف قالوا : ما يكون مجاباً فيما يدعو إلا من لم يكتب عليه ملك الشمال عشرين سنة أو أكثر خطيئة ، وهذا لا يبعد عن أرباب اليقظة ؛ سيما وقد ثبت أن ملك الشمال مطاع لملك اليمين ، فيقول : (قف ولا تكتب ؛ لعله يستغفر بعد ساعة)^(٢) ، وقيل : ثلاث ساعات ، واختلف العلماء : هل الساعة هي الفلكية ، أو هي ساعة لطيفة كما هو العرف أن الزمان القريب يسميه الخلق ساعة ؛ كخلافهم في ساعة الجمعة ؟ والله أعلم بالمراد من ذلك .

(١) رواه السلمى في « الأربعين » (٣٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٩١/٨) بنحوه عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

وأما الأفعال . . فطريق الواصلين إليها بعد توفيق الله ، وهدايته لهم
وعونه ؛ بتصفية الرياضات ، وترك المألوفات والمعتادات ، فيها تنخرق
لهم العادات .

وبالجملة : فالسرف في حق الضعفاء أسلم ، والكشف في حق الأقوياء
أقوم وأدوم ؛ فالأقوياء لا يعتمدون على ما يبرز على أيديهم ، ولا يرونه
كثير جدوى ، ولا يزيدهم يقيناً ، بل يرونه من جملة أقدار الله الجارية ؛
لثبوت يقينهم ، وتحقيق تمكينهم ، وجلُّ نظرهم واجتماع همهم في
الاستغراق في جلال الله وجماله ، ولي في ذلك :

العارفون لهم في القدس جُولان يزيد أرواحهم شوق وأشجان
فهم في العلا تدور بهم أحوال قربى لهم في القرب ميدان
وفي مسامر أرجاء الوصال لهم مناقب آيات في الأسما وعرقان
والسالكون على نهج السبيل فلا المطلوب منهم له إلا محولاً عيان
يلقون ثمَّ جيوش النفس خائضة في غمرة الموت ركبان وفرسان

وكان خرق عرائذ النفس بالطلب ؛ لأنها حق الحق من العبد ،
فأولى الأحوال أن يكون في الطلب متصفاً بالأدب ، والأدب : هو أن
يكون طلباً امتثالاً وتعبداً ، لا لوجود حظه وموافقة مراده ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

مَا الشَّأْنُ وَجُودَ الطَّلَبِ ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُرَزَقَ حُسْنَ الْأَدَبِ

ما الشأن المراد من العبد في حضرة سيده وإعطاء ربوبيته حقها بأن تكون طالباً لحوائجك منه ، ولكن الشأن المراد من العارفين والعلماء المحققين : أن تكون متأدباً بين يديه ، لا يكون لك مراد غير مراده ، ولا مطلوب غير شهود ذاته ، والتحقق بأسمائه وصفاته ؛ بأن تدعوهُ عبوديةً ، وتفوض الأمر إليه في كل ما تطلب .

فمن دعاه بلسان العبودية لا لينال شيئاً ، ولا يرى نفسه أهلاً . . . فحقيق بأن يُجاب فيما سأله من المحاب ، وأن يَلج الباب في زمرة الأحاب ، ومن كان مع الله على غير هذه الحالة في سؤاله وجميع أفعاله ؛ يسأل وحاجته أمامه حاجةً لدعائه أن يلج . . فلا جرم أنه ما أوفى الربوبية حقها ، ولا أعطى الحضرة مستحقها .

وحسن الأدب في الباطن : هو تفويض الأمر إلى المشيئة ، والانطمان في حضرة المعية ، لا يشهد في الوجود ثنوية ، والأدب ظاهراً : هو القيام بالوظائف الشرعية ، والحقوق الدينية ، وأفضلها : الآداب النبوية ، التي أدب الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم اتباع أخلاق الأئمة الصوفية ، والعُصبة المصطفوية أولي الأخلاق الرضية ، والتَّسِيم المرضية ، والأحوال السنية ، والهمم العلوية ، والمقامات العلية ، فبهم فأقتد ، وبهداهم فأهتد ، رضي الله عنهم .

ومن تأدب بغيرهم ممن هو محبوس في مضيق الرسوم . . فلا يجيء منه شيء وإن طالت صحبته ، وعظمت أسوته ؛ لأن غاية علماء الرسوم أن يبينوا له ما عندهم مما هو مشاهد ، أو يصفون له وصف الطبيب الذي

يعرف اسم الدواء ولا يعرف عينه ، فما زاد على الجاهل به إلا بمعرفة
الاسم ، فلو احتاجه لنفسه . . لم يهتد إليه إلا بدلالة طبيب عارف بعينه
ولو كان جاهلاً باسمه ، فكيف وهو لم يتخذ الله من ولي جاهل ، وإن
اتخذه . . علّمه !؟

والصوفية هم في عالم الأرواح أقرب الخلق إلى الروح المحمدي في
عالم الخلق ؛ هم أحسن أتباعاً لدينه الحنفي ، ولي في ذلك :
ما الشأن منك وجود اللفظ في الطلب

ولكن الشأن منك منتهى الأدب

فكل من كان بالأخيار مقتدياً

ينال من سرّ ذلك منتهى الأرب



فالأدب : أن ترى نفسك ولا ترى لها ، بل تكون محوياً في وجود
سيدك ومولاك ، وتكون في دعائك مضطرباً فقيراً حقيراً ذليلاً ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْأَضْطِرَارِ^(١) ، وَلَا أَسْرَعَ بِالْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ
الذَّلَّةِ وَالْإِفْتِقَارِ

مَا طَلَبَ بِلِسَانِ الْحَالِ - لِلْعَبْدِ الذَّلِيلِ الْعَاجِزِ مِنْ سَيِّدِهِ الْكَبِيرِ الْمَتَعَالِ ،
لِكَ أَيْهَا الطَّالِبِ الرَّاغِبِ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْمَوَاهِبِ ، وَسِنِي الرِّغَائِبِ -
شَيْءٌ مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا سَائِلٌ ، وَتَرْجُو بِهَا حَصُولَ مَا أَنْتَ
أَمَلٌ وَلَهُ مَحَاوِلٌ ، مِنَ الْأَوْصَافِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ بِهَا نَيْلَ مَطْلُوبِكَ ، وَغَايَةَ
مَقْصُودِكَ ، مِثْلُ حَالَةِ اضْطِرَارِكَ وَافْتِقَارِكَ ، وَذَلِكَ لِمَعْبُودِكَ .

وَالاضْطِرَارُ قَمِينٌ بِالْإِجَابَةِ^(٢) ، وَمَقْرُونٌ بِهَا ؛ كَمَا قَالَ جَلُّ ذِكْرِهِ :
﴿ أَمَّنْ يَجِيئُ الْمُضْطَرَّ ﴾ قَالَهُ بِلِسَانِ التَّمَدُّحِ بِذَلِكَ ، فَمَاذَا تَرَى مَا يُوَاجِهُ بِهِ
الْمُضْطَرِّينَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَلْطَافِ ، وَمَا يَنْبِيْلُهُمْ مِنَ الْإِسْعَافِ ؟!

وَالْمُضْطَرُّ : الَّذِي لَا يَرَى لِكَشْفِ بِلَائِهِ سَبَباً يَسْتَنْدُ إِلَيْهِ ، وَلَا حَوْلَاً
يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، بَلْ يَكُونُ طَرِيحاً فِي فِقرِهِ وَاضْطِرَارِهِ ، وَبِبِدَاءِ التَّجَائِهِ ،
مُتَدَرِعاً ثِيَابَ ذَلَّتِهِ وَمَسْكَنَتِهِ ، نَاطِراً فِي أَرْجَاءِ رَجَائِهِ ، غَرِيْقاً فِي لَجَّةِ
افْتِقَارِهِ ، لَا يَجِدُ غَيْرَآ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ ، وَلَا مَتَوَسِّلاً يَلْجَأُ [إِلَيْهِ] سِوَى مَنْ
يَبْدُو مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمِنْهُ مَبْتَدَأُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِلَيْهِ مَبْتَهَاهُ ، مَتَوَسِّلاً
بِكَرَمِ مَوْلَاهُ ، وَنَاطِراً إِلَى جَنَابِهِ ، وَرَامِقاً إِلَى فَيْسِحِ بَابِهِ ، فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ .
فَالذَّلَّةُ : هِيَ خُضُوعُ الْعَبْدِ بَيْنَ يَدَيْ الْمَعْبُودِ ، وَهِيَ رُوحُ الْعِبَادَاتِ ،

(١) قَوْلُهُ : (مَا طَلَبَ لَكَ) بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَهُوَ (شَيْءٌ) أَي : إِنَّ أَحْسَنَ الطَّالِبِينَ لَكَ
هُوَ الْاضْطِرَارُ ، فَشَبَّهَهُ بِشَخْصٍ طَالِبٍ ، وَيَحْتَمِلُ بِنَاءَ (طَلَبَ) لِلْمَفْعُولِ ، وَالنَّائِبِ قَوْلُهُ :
(شَيْءٌ) أَي : إِنَّ اضْطِرَارَ الْعَبْدِ هُوَ أَقْصَى أَوْصَافِ عِبُودِيَّتِهِ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يُطَلَبْ مِنَ الْعَبْدِ
شَيْءٌ أَجْلٌ مِنْهُ . انظُرْ شرح الشيخ الشرفاوي (ص ٧١) .

(٢) قَمِينٌ : جَدِيرٌ وَخَلِيقٌ .

ومنتهى القربات ، وبها يتدعون ، وفي رياضها يتقبلون ؛ لأن ألدَّ الأحوال عند المحب التملُّقُ لمحبوبه ، وتمسكه بين يديه .

والافتقار : يجلب العطف من الغني ؛ بأن تنادف عليه مواهبه ، وتجلب لديه أطفاه ، وتدنو عليه تعطفاته ، إنما تفتح أبواب العطايا الربانية ، والمنح الرحمانية لمن صحَّ افتقاره ، وتحققت ذلته واضطراره ، ومن احتجب بالعزة النفسية الهوائية ، واستغنى بالأعراض العدمية الدنياوية ، والتجأ إلى ما منه وما لديه كائناً ما كان . . رُدَّ إليه ، ووُكِّلَ عليه ، وهو يسلمه أحوج ما يكون إليه .

فلك فيمن سلف أسوة ، ولك في مشاهدة الغير عبرة ، تدلُّك على المقصود ، وتوضح لك طريق الهدى ، فاعتبر بمن هو المراد من القرية ، ومن هو المعنى بالشهوة ، فقال في أهل السعادة : ﴿ وَالْقَدَّ نَصَرَهُ اللَّهُ يَبْدِرُ وَأَنْتُمْ أَدَلَّةٌ ﴾ ، وقال في أهل الشقاوة والاستكبار : ﴿ وَإِنَّا لَوَقَّهْمَ قَهْرُونَ ﴾ . قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ﴿ فانظر كيف لما كانوا بالله مستعينين ، وعليه متوكلين ، وإليه ملتجئين . . كيف أورثهم الأرض ، ويؤأهم نواحيها ، ودمر من على نفسه عوّل ، وبأمواله ودولته صال وطال ، فقال : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُرْعُونَ وَقَوْمَهُدُ وَمَا كَانُوا يَعْرَشُونَ ﴾ ، ولي في ذلك :

فما طلب شيء للراجين من سبب	مثل اضطرار بصدق ينجح الطلب
فكن فقيراً طريحاً لست منتسباً	إلى احتيال ولا حال ولا نسبا
بذلّة تعتري المحزون في كثب	تأتي مواهب مئان بما طلبا
في ضمن ذاك فنون طيها أدب	بها انتصر من بها في بدرنا غلبا



فإذا حَقَّقْتَ اضطرارك ، وصدقت في دُليكَ وافتقارك . . تولاك
بصنوف الألفاظ والمواهب ، وبوَأَك حَظَائِرِ القرب والرغائب ، وذلك
عند التجائك إلى حوله وقوته ، وبأسِكَ من احتيالك وعملك ، وعلمك
وحالك ، وسائر أفعالك ، فلا منك ولا لك ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله
عنه :

لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ مَخْوِ دَعَاوَيْكَ ، وَقَنَاءِ مَسَاوِيكَ . . لَمْ
تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَدًا

لو أنك أيها الطالب لحضرته ، والراغب في وصلته ، والمقبل في خدمته ، لا تصل إليه ، وتنال ما لديه ، ووصولك إليه ووصولك إلى حقيقة العلم به ، وإلا . . فجلاً ربنا أن يتصل به شيء أو يمازجه ، أو يسامته أو يحاذيه ، أو يشاكله أو يماثله ، تعالى الله علواً كبيراً عن سائر ضروب الأشكال ، أو مضادة الأنداد والأمثال .

بل الوصول بلسان الخاصة وصولٌ شهود لا تكييف ، ومنازلةٌ حق بلا تمثّل ولا تشبيه ، وعلم بلا ريب ولا توقف ، وإيمان بلا نكر ، وإسلام بلا كفر ، ومعرفة بلا نكر ، ومعلوم ذات وصفات وأسماء وأفعال بلا أين ولا كيف ولا ند ، ولا افتقار ولا احتياج إلى الآلات والأدوات ، وارتقَاب الأوقات والساعات ، يفعل ما يشاء كما شاء كيف شاء متى شاء ، موصوف بصفات الكمال ، منعوت بنعوت الجمال والجلال ، ولا تضرب فيه الأمثال ، ولا تختلف في ألوهيته الأقوال .

ولو كنت لا تصل إلى هذا المعتقد في الوصل إلا بعد فناء مساويك ؛ وهي كل فعل تكون به مسيئاً في نظر العلم الحق . . لم تصل إليه أبداً ؛ لأن مساويك لا نهاية لها ، لأنك بكونك فعلت وبكونك أحسنت . . مسيءٌ في دعواك ؛ إذ لا فاعل على التحقيق إلا الله ، والإحسان أمرٌ يقتضي فناءك عن كونك ؛ كما ورد الحديث بمعناه ، فأين الإحسان مع شهود وجود الثان ؟!

لذلك ما دمت متصفاً بوصف الغيرية ، محكوماً عليك تحت حكم

البشرية .. لم تنزل مدَّعياً في أفعالك ، محجوباً في سائر أحوالك ، وما
لم ينفك عنك ذلك .. لم تصل ولم تحسن ذلك ، فلا تصل إليه أبداً ،
دواماً سرمداً ، ولي في ذلك :

لو كنت لا تحظ بالوصل الذي علموا

إلا بمحو دعاوي النفس لم تصل

أو كنت لم تنل العليا التي نسبو

ما لم تكن فانياً في الله لم تنل

ولكن الله سبحانه بلطيف حكمته وبالغ أمره إذا أراد أن يوصل عبداً
من عباده إلى بغيته ومراده .. هيأ له أسباباً مقربة له من مطلوبه ، وميسرةً
له أسباب مقصوده ، فأطلع له من عنايته نجوم سعوده ، وكبت له إبليس
وجنوده ، وأعان على جهاد النفس ، وصغَّرَ عنده الدنيا ، وقَلَّلَ عنده
أيامها ، وأراه من فنائها ، وإقبال الآخرة وما أعدَّ فيها لطلابها ، وغَطَّى
وصفه بوصفه ؛ بأن يكون الله له سمعاً وبصراً ، وبدأً ومؤيداً ، ولهذا ثمرة
المحبة الخاصة .

وسرَّ نعت المرصوف بالمعائب بنعته المنعوت به من جميل الثناء ،
وحسن المعاملة والكمال والوفاء ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَكَ إِلَيْهِ .. غَطَّى وَصْفَكَ بِوَصْفِهِ ، وَعَطَّى نَعْتَكَ
بِنَعْتِهِ ، فَوَصَّلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ ، لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ

الوصول لا يكون ومع العبد منه بقية من حظٍّ أو شهوة ، أو تدبير أو
اختيار ، فإذا سبقت له من الله عناية ، وقسم له من فضله سرّاً ولاية ..

غَطَّى أوصافه الناقصة القاصرة الغانية التي هي لمن يعتمد عليها
دون الله ، وما لم يُفَنَّ عن وجودها . . . صارت له حجاباً .

ومعنى (غطى) ستر ، والستر هنا يشير إلى بقائها ، إلا أنها كلا
موجودة ، وهو كما قال ، وتغطية النعوت الناقصة الملوثة بضروب
النقائص بالنعوت القدسية والصفات العلية . . هو عين ما سبق من
العناية من مواهب الولاية .

وأول ما يقيم الله العبد به في هذا المقام بأداء الفرائض ، مع شهود
التبري من الجور والقوة ، ثم يرقيه في معارج النواقل مع الالتجاء
إلى الله من الفتن العائقة والآفات القادحة ، حتى توصله يد عناية الله له
إلى مقام المحبة الخاص ومكنون العناية ؛ بأن الله قد أحبَّ فلاناً فأجبه
يا جبريل ، فيحبه الشاوش ، وينشر له الذكر الجميل ، والثناء الحسن
في أهل حضرته ، ويؤذن بالقبول في سائر مملكته ؛ وذلك بما تفضل به
عليه ، وأوصله من مواهبه .

ولو كان بنفسه . . لم يتخلص له عمل ، ولم يصل إليه من هذه
الفضائل مدد ، بل ما من العبد دون الله مشوب بضروب النقص
والتقصير ، وأعظم خطيئة رؤيته أنه برز عنه ، أو صدر منه ، ولو نالته
العناية الأزلية . . لرأى تقدير الله ومشيته بسابق علمه وهدايته هي التي
خصَّصته بين أجناسه ، وهو معنى تغطية النعت بالنعوت ؛ بأن يغيب عن
كونه عاملاً وفاعلاً ، ويرى انفراد سيده بذلك ، ويشهد منته عليه دون
استحقاق له في شيء ، فيرى ما من الله ولا يشهد ما منه .

فهذا الشهود تتخلص أعماله ، وتزكَّى أحواله ، وتنمو طاعاته ،
ويشبهه الله مقام المحبة ، وينزله منزل القرب ، ويلبسه ملابس الاتصال ،

ويثبت في المقام ، ويُسَدِّده في الأقوال وسائر الأفعال ، فبذلك يتحقَّق له الاتصال ؛ لأنه شاهد ما من الله له من الحول والقوة والتأييد والنصرة .
 فعندما يتجلَّى عليه بنور أفعاله سبحانه . . يشهده الجزاء الموعود ؛
 وهو أول مبادئ النور الإلهي ، يظهر للسالكين في الآفاق العلوية ،
 والأرجاء الروحية ، فيريه قبح الدنيا والركون إليها ، وحسن الآخرة
 والانزواء إليها ، ثم يشرق من وراء سحجف فِطَر البشر ، ومرايا الصُّور ،
 فيتعلق طلبه بالحسن الأقدس ، والمحل الأنفس ، فيطالع نور القَدَم ،
 فيرى استحالة العدم ، وأن الكل منه من سائر مستحسن ، فيزهده في
 الآخرة طلباً للمشهد الرفيع ، والعالم الواسع ، ويطلب المطلب الذي
 وحدت همم الأنبياء وأكابر الصديقين ومحققي المقربين العارفين إليه ،
 وهو طلب القرب من الله إليه لذاته وجميل صفاته لا لشيء .

فعند ذلك ينزل سرُّ الحبيب على المحب ، ويكسني حلة الاصطفاء ،
 ويتوَّج بتاج الاجتباء ، وهذا - والله أعلم - هو معنى قوله : (غَطَّى نَعْتِكَ
 بِنَعْتِهِ ، ووصفك بوصفه) ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ ﴾ ، ولي في ذلك :

لو كنت لم تدن من قرب الحبيب سوى

بمحو دعواك لم تخلص من العلي

لكن إذا راد أن يوصل إليه فتى

كساه وصف العلا الموصوف بالأزل

وفاض فيأض بحر الفضل منه على

قلب المحب فحقَّق غاية الأمل

يشهدك أنه بما منه إليك بدا

وأنت محجوب بالدعوى وبالحيل

فاستنقذك من يد الأغيار مبتدأ

إليك بالحب قبل الأخذ في العمل



والنعت : هو ما يمدح به من عليّ الوصف وحسن الفعل ، فهو أعمُّ
من الوصف .

ولما كان العبد كما علمت منعتاً بالنقص ، وموصوفاً بالعجز ..
لم تخرج أعماله إلا مشاكلةً لحاله ، فلولا أنه كساها بجميل عفوه
وكثيف ستره .. لم يصلح أن يقابل بها حضرته ، ولم تعرض في ميادين
خدمته ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَوْلَا جَمِيلُ سِتْرِهِ .. لَمْ يَكُنْ عَمَلُكَ أَهْلًا لِلْقَبُولِ

وجميل الستر : هو ما يكسى به من نور جمال الله ، وتحسينه إياه على ما هو عليه من النقائص ، ومتلبس به من المعاييب ؛ فلربما يفتّر ذو علم ناقص ويصر عن مقام التحقيق ناكص ، فيفرح بما يصدر منه من الأعمال معتمداً عليها ، ناظراً بكلية إليها دون الله ، ولربما كان يُدَلُّ بها إذا كانت هذه حالته ، ويرى له على الله الفضل بها ، وينسى فضل الله بتيسيرها عليه ، وإعانتة عليها ، وهدايته إليها ، وما عليه من النقص والقوادح المانعة لها عن حضرة القبول ، الحاجة لها عن الوصول ، كما هو شأن المحجوبين والحمقى المغرورين ، فلا تخلو أعماله عن شوب شرك ؛ إما برؤية الخلق وسمعتهم ، أو برؤية النفس وحولها وقوتها ، وكل ذلك محبباً للعمل ، قادح فيه .

فلذلك يكون اعتماد المرید على الله ، لا على علمه وعمله وكل صنائعه ، بل يعمل ويستحيي من الله من خفايا لا يعلمها ؛ فقد يظن أنه أحكم عمله ، ولربما يُعرّض على الله وفيه شائبة مما يوجب مقتته عنده ، ولكن ستر الله أعظم ، وحلمه أتم وأجمل .

ويقال : إن لكل إنسان مشهداً في العالم العرشي ، يظهر فيه أعماله ، وتعرض فيه أحواله بين أهل ذلك العالم القدسي ، فإذا عمل عملاً صالحاً خالصاً .. أظهره الله في ذلك المشهد ، وأعلنه بين أهل الملأ الأعلى ، فيرى له نوراً كنور الشمس ، فيغبطه أهل الملأ الأعلى ، وإذا عمل سيئاً أو عملاً غير مقبول .. أسبل الله عليه سترة ، وأضفى عليه وفور حلمه ، وأدخله في مكنون علمه ؛ إن شاء .. عاقب صاحبه ، وإن

شاء .. غفر له ؛ لئلا ينكشف ستر عبده المؤمن بين أهل ذلك الملاء ،
ويفتضح في أهل السماء .

فما أعظم كرم الله على عباده المؤمنين !! وما أتم فضله على أوليائه
المقربين !! وما أوسع نعمته على خاصة صفوته العارفين !! وما أوسع
عطاءه وأجزل وقاهه لخواص عباده الموحدين !! وإلا .. فكيف يزكو
عمل عبدٍ وهو متلبسٌ بالمعائب باطناً وظاهراً إلا بتزكية الله له ، ولا
يخلص إلا بتخليصه !؟

فنسأل الله حسن تولىه ، وستر ما نُسرُّه ونُبديه ؛ من فظيح جرائمنا
وقبيح معايينا بين يديه ، وأن يتولانا فيما نأخذ ونذر ، ونسر ونعلن ،
ونتحرك ونسكن ، بل فيما لا اطلاع لنا عليه من خفايا الأحوال ودقائق
الأعمال ، وألا يخلينا عنه في جميع الأحوال ؛ دنيا وأخرى ، وبرزخاً
ومحشراً ومقراً ، وفيما بعد ذلك ، وما بين ذلك ؛ إنه الجواد المفضل ،
ولي في ذلك :

لولا جميل ستور الله كائنة للعبد لم تخلص الأعمال والحالا
ولم يكن فيه أهلاً للقبول وما لم يستر الله أفعالاً وأقوالاً
لم يصف للعبد حال بل يمازجه عيب بصد ونقص منه في الحالا

ولما كانت الطاعة فيها ما لا يخفى من الشرف وعلو المنزلة
عند الله وعند الخلق .. كانت معرّضة - لا محالة - لأخطار شديدة ،
ومهالك عديدة ، وكانت المعصية لمن أراد الإقلاع عنها معرّضة لأحوال
محمودة ؛ لما يعتري صاحبها من ذلتها ، وقبيح رؤيتها ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

أَنْتَ إِلَىٰ جَلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ . . أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَىٰ جَلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ

أنت في الطاعة إلى حلمه وعفوه من جرائمك وملومات فضائحك . .
أحوج منك وأجدُر بطلب الإقالة من عملٍ أدخلت فيه شركاً لسواه ، أو
غبت فيه عن شهود منته ، وتقدّم محبته ، وتيسير قدرته ، وتخصيص
إرادته ، وتوفيق مشيئته ، وإبراز حكمته لذلك العمل ، وتسديد ذلك
الخلل .

كيف لا ؛ وقد علمت ما يصحب الطاعة من معاصي القلوب ،
وكبائر الذنوب إن لم يتولّ الله حالة العبد فيخلصه من ورطاتها ،
ومهاوي مهلكاتها ؛ كالرياء ، والإعجاب ، والسمعة ، وحب الثناء ،
وارتفاع الصيت والشهرة ، والتصنّع ، وغير ذلك مما يطول عدّه ، ولا
يوقف عليّ حدّه !؟

فلذلك يكون العبد أحوج إلى الحلم ؛ لخوفه من أن يتلبس بخصلة
من هذه الخصال ظاهراً : بأن يغلبه هواه على الإصرار على فعلها
ومحبتها ، والمُقام عليها حالة من انتصب لطلب المنزلة عند الخلق ؛
فإنه يعلم أنه غير مصيبٍ في ذلك : ولا يقدر على النزوع عنه ؛ لكونه
مترشحاً في قلبه ، وغالباً على طبعه ، ومع ذلك هو عالم بما هو عليه
من قبيح الحال ، وخسّة الفعال .

وإما بأن يصحبه باطناً فلا يتفطّن له ؛ وذلك لجهله بالتفتيش عن
دقائق الأحوال ، ولطائف الأعمال ، وقلة تيقظه للزيادة والنقصان ،
وخفاء أسرار علم المعاملة عليه ، وغفلته عن التطلع إلى مبادئ تأسيس
العمل ، وطرائق حقائق التقوى ، فيقيم على حاله مستحسناً لفعاله ،

فيهلك من حيث يظن السلامة ، ويحصل على ويبل الحسرة ، ويحترق بنار الندامة عند معاينة حقائق عمله عند كشف الغطاء عن الأعمال ، ورفع الستور عن الأحوال ، بهتك أستار الحياة ، ومعاينة علامات الوفاة ، فكيف لا يكون إلى حلمه وعفوه أحوج ؛ لصحبه لهذه المهالك الخطيرة ، وسلوك هذه الطرق الوعيرة العميقة ؟!

والمعصية عند الإقلاع عنها والرجوع إلى الله منها .. لا يصحبها إلا الذلة والندامة ، والالتجاء والافتقار ، واللجوء بالاستغفار ، وطلب الاعتذار ؛ وذلك أن الله جعل الذلّ مقروناً بالعصيان ؛ إن استقصاه في هذه الدار ، وأقام بالاعتذار مقراً بالخطأ معتذراً من الجفاء .. فقد برئ عنه في الدار الآخرة ، وأمن حلول كل بليّة وفاقره ، وإن أصرّ عليه وتمادى ، وبارز بالمعاصي وعاد .. أظهرت عليه ذلتها ، ونالت ندامتها ، وتعلقت به بليتها في دار الدوام ، ومحل الانتقام ، واعتذر من حيث لم تنفع المعذرة ، وندم من حيث لا يجاب إلى الإقالة ، فيخسر خسارة لا ربح فيها ، ويندم ندامة لا يُقال فيها .

فالمعصية عند الرجوع عنها في الدنيا أسلم من صحبة الآفات في الطاعات منها ؛ وذلك لثلا يئس عاص ، ولا يأمن مطيع ، فما أعظمه في لطفه ، وما أَلطفه في عظمته !! وما أقربه في علوّه ، وما أبعدّه في دُنوّه !!

فاعمل وكن على حذرٍ من هذه الآفات ، وارجع عن الذنوب وبادر من خوف الفوات ، ولي في ذلك :

العبد يحتاج في طاعاته فمتى لم يصحبه حلم من مولاه ذي الكرم
كانت جنابته تريبو فتوبته من ذلك أن يستقيل الله بالندم

ومن تقادم في الأسوا صناعته فليرجعن إلى الإحسان والسلم

والخلق في طلب الستر على قسمين : خاصة وعامة ، فالخاصة :
جلُّ نظرهم وغاية حياتهم من سيدهم ، والمشرف على خفي ضمائرهم
ومكنون سرائرهم ؛ لشهودهم له ، والعامة : بالضد من ذلك ، فحياؤهم
من الخلق ؛ لأن الغالب عليهم : شهودهم وظهور وجودهم ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

السُّتْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ : سَتْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَسَتْرٌ فِيهَا ؛ فَالْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ
السُّتْرَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِ مَرَاتِبِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ ، وَالْخَاصَّةُ
يَطْلُبُونَ السُّتْرَ مِنْ اللَّهِ عَنْهَا ؛ خَشْيَةَ سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ الْمَلِكِ الْحَقِّ

الستر - كما علمت - : هو تغطية المعاييب التي تورث حياء ، وتكسب
ذلةً وخجلاً عند من يحتشم ويخشى .

والستر على قسامين من حيث أحوال الخلق الطالبين ، لا من حيث
كونه سترًا ، أما من حيث كونه [سترًا] .. فهو لا ينقسم .

فالذي يطلبه العامة المحجوبون ، والجهال المسلوبون عن نور
العلم ، الموصوفون بالكثرة ، الذين لا فقه في قلوبهم ، ولا إحصار
للاعتبار في أعينهم ، ولا سمع للآيات والأخبار في آذانهم .. يرون قبح
المعصية وشؤمها ومدلتها في أعين الخلق ، وسقوط رتبة من اتصف بها
في أعينهم وتوبيخهم إياه ، وعز من لم يفعلها ، ورفعة من لم يتصف
بها .

وغاية نطلبهم وننتهي مقصدهم : الرفعة عندهم ، والمنزلة في
أعينهم ، وغابوا عن شهود الله لهم ، وإيعاده على المعاصي بوبيل
العقاب ، وأليم العذاب ، وضرب الحجاب ؛ فلذلك إذا بارزوه ..
بارزوه بقبائح الأحوال ، وخبائث الأفعال ، ولم يبألوا بنظره إليهم ،
ولا باطلاعه عليهم ؛ فلم يكثرثوا بالوقوع فيها ، والإكباب عليها ،
ولكن يطلبون الستر فيها من أعين الخلق ؛ لئلا يطلعوا عليهم فيها
فيمقتونهم ، وتسقط منزلتهم عندهم ، فغاية طلبهم : أن يُستروا فيها
وإن داموا عليها .

والخاصة الذين حظوا من الله بمحبته ، وكشف عن قلوبهم حجب
الجهل والغفلة ، وأباحهم منازلَ القرب والوصلة . . لم يشهدوا سواء ،
ولم يُعُولوا على غيره ، ولم يخافوا إلا إياه ، فكانت بصائر قلوبهم
إليه ناظرة ، وأرواحهم في متنزه حضرته حاضرة ، أسرارهم في بحار
شهوده غارقة ، وأنوار جماله على زوايا نفوسهم شارقة ، لم يلتفتوا
إلى الأغيار ، ولم يحجبوا بالآثار ، سواء عندهم من الخلق الإقبال
والإدبار ؛ يطلبون من الله الستر عنها بأن يحميهم عن الوقوع منها ،
والحوم حول مراعيها ؛ لثلاث تنال منهم فيراهم سيدهم ، وينظرهم
مليكمهم مثلثين ما زجرهم عنه ، ومواقعين ما نهاهم منه ، فتسقط
مراتبهم عنده ، وتحجب مشاهدتهم منه ، فتغيب عنهم شمس
الأسرار ، وتحجب بدور الأحوال ، وتظلم منهم الأنوار ، وتستولي
على قلوبهم ظلم الأغيار ، وكشائف الآثار ، ويستوجبون دخول النار ،
وسخط الجبار .

فستان بين الفريقين في طلب الستر !! فأين المطلوب من
المطلوب ؟! فما أقبح حال من جعل الله في غيره أهون الناظرين !!
وما أسوء أفعال من غاب عن مراقبة أسرع الحاسبين !! وما أحسن حال
من جعله كلَّ مطلوبه ، وفيما لديه جلُّ مرغوبه !! يصون عن جناب
الحق قبائح عيوبه ، ويتباعد عن مصائدها وأسبابها ، ويهرب إليه من
الوقوع في حبايلها ، فما أسعد حال من سلِمَ من شؤمها وبلائها !!
وما أحسن فعال من استمرأ طعام مألوف ضيرها ، واستنكر ما عرفه
من طرائق مساكنها ، واشمأز من حضورها على مخيلته ، واستبدل بها
حلاوة الطاعات ، والتضرع في الخلوات ، واستلذ بمناجاة المحبوب

في غياب الظلم حين يفعلُ عنه التَّوَّابُّ البَطَّالون !! ولي في ذلك :
 المستر منه على قسامين في النظر والخلق في ذاك حسبك أن تكن خبر
 إلى عموم ومحجوبين بالأثر ومن خصوص حظوا من خالق البشر
 بنور قرب عليهم يستضاء به ويستدل بنور الله في الصور
 فالطاعة شريفةً لشرف المطاع ، والمعصية قبيحة ومشؤومة عند
 الخلق ؛ وذلك أن الفِطْرَ فُطِرَتْ على الطاعة ، فلذلك تكون الطاعة
 محبوبة ، وصاحبها محترماً عند من لم يعملها ؛ وذلك لما في أصل
 الفطرة ، والمعصية مذمومة ، وصاحبها ملومٌ عند من يتعاطاها ؛ وذلك
 لما في النشأة الفطرية من النفرة عن المخالفة ، فلذلك يكرم ذو الطاعة ،
 ويهان أهل المخالفات والمعائب والزلات .



وقد علمت استحالة خلوص أعمال العبد عن الآفات إلا بتوفيق الله
 وعونه وتأييده ، ولا يخلو عن العيوب المنفرات إلا بستر الله ، وجميل
 عطفه ، وإحاطة عنايته ولطفه ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنْ أَكْرَمَكَ . . . فَإِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سِتْرِهِ ؛ فَالْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ ، لَيْسَ
الْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ

من أكرمك من العباد ، واحترمك وبجلك ، ونظر إليك بعين
التعظيم ، وتقرب إليك بأصناف التكريم . . . فإنما ذلك الإكرام والتقرب
بالتوقير والاحترام ؛ لما شهد فيك من مشاهد الإحسان ، وظهر عليك
من مظاهر الامتنان ، فغطى عيوبك ، وقبائح موبقات ذنوبك ، وما أكرم
من أكرم إلا ذلك ، وما أعظم إلا بما تفضل به الإله المفضل ، ذو
الكبرياء والكمال ، والجلال والجمال .

فالإكرام على أصناف ؛ منها : إكرامٌ بالثناء والمدح ، وبالبدل
بالمحبوب من أخص ما عنده من المال ، وبالاحترام والتعظيم ،
وطلب الدعاء ، ورؤية المنزلة عند الله ، وأنه من خواص عباد الله ،
وغير ذلك من صنوف الإكرام ، والإكرام نفسه : هو بذلك لمن
أكرمه من غير طلب مجازاة ، بل محبة وطلباً لحصول المنزلة عند
من أكرمه .

ولولا جميل الستر الذي ظهر عليك جماله ، وتمم نقائصك
كماله ، وستر معاييك بإنعامه وإفضاله . . . لما أكرمت وما عظمتم ؛
فعلى الحقيقة : ما أكرم إلا ما أظهره الله عليك من لطيف فضله .

فالحمد - وهو الثناء - لمن سترك فأكرمك المُكْرِم ، وما ذاك إلا لما
أظهره عليك ، وأسبغه من كثيف ستره لديك ، فله الحمد .

فالحمد لله مستحقاً على كل حال ؛ لأن سائر الأحوال وكل مظاهر
الأفعال صادرة عن حضرة واحدة لا تغاير فيها من حيث كونها منسوبة

إليه ، ولكن من حيث ظهورها على صفائح الأغيار ، واكتسائها بملابس الآثار .

والحمد والشكر بينهما خصوصاً وعموماً وجهي^(١) ؛ فحمد غيره سبحانه على المجاز ، وكذا شكره ، ولم يكن مستحقاً إلا له ، فالحمد : ثناءً باللسان ، والشكر : عملٌ بالأركان ، واعترافٌ بالجنان ، وثناءٌ باللسان ، وهي في مقابلة النعم وغيرها ، فهذا وجه عمومه وخصوصه .

ولا يتصور الحمد من الخلق للخلق إلا بمعنى الشكر إلا عند غلبة المحبة ، ولا يكون أيضاً عاماً ، بل خاصاً من أفراد الخلق ببعض أفراد الحمد وهو أقلُّها ؛ إذ كل ما يصدر من الناقص . لا يكون إلا ناقصاً ، وما الحمد الكامل إلا ما كان من حضرة الكمال ؛ وهو حمد الله نفسه بنفسه في أزله قبل ظهور أعيان خلقه ؛ وهو قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، فأخير سبحانه خلقه كيف يحمدونه ، فحمدوه بما حمد به نفسه ، فجمع لهم شتات متفرقات المحامد في هذه اللفظة الوجيزة ؛ لينالوا بها كمال الرتبة العزيزة .

فالحمد حقيقة لمن سترك وجملك ، لا لمن أثنى عليك وأنعم ؛ لأنه لم يشن إلا لما أشهده الله من الجمال ، وأشعره من الكمال ، فالحمد لله ، وما أنعم وأسدى ويذل إلا لِمَا يرى فيك من أهلية الإفضال .

وما أوصله أيضاً ليس حقيقة وصوله ومنتهى حصوله إلا من حضرة فضله ، وعميم كرمه ، وتتابع عطائه وفضله ، فصار حمد الخلق - فيما يصل إليك من الإفضال ، أو يتحدث به من الثناء والجمال - حمداً مجاز

(١) تقدم ذلك تفصيلاً (ص ٣٢١) في الهامش تعليقاً .

بحمدهم ؛ بحسب ما أمرت به من المكافأة بالدعاء ، وبذل الندى ،
وكف الأذى .. من جملة حمد الله وشكره مع ما أنت عاقدة عليه نفسك
أنه آله مسخرة ، وحكمة مدبرة ، ليس منه ولا إليه ، فلا يجمع بين
حقيقة الحمد لله وإتيان حقوق الله إلا كَمُلُ الصديقين ، وأكابر محققي
العارفين .

وغالب الخلق : إما محجوب عن الله يرى الأشياء من الخلق فيجزد
الحمد لهم ، ويوجه الثناء إليهم عند إيصال المنافع على أيديهم ، فلا
تمتري في خطأ رأيه ، وقبح أفعاله ، وإذا وصل الدم منهم بوجه بالمعاداة
وقبائح الأخلاق .. فهو واقع في إحدى المذمتين ، فلا يدري أيُّهما
أقبح : أمدح الخلق وشكرهم على نعم الله مع قطع النظر عن الله ،
كما هو شأن أهل الحجاب ؟^(١) ويقع بسبب ذلك في معاصي القلوب ،
وكبائر الذنوب ، أعاذنا الله منه .

وأما المصطلم في سكر الحال .. فلا يرى للأغيار أثراً ، ولا يسمع
منهم خبراً ، فلو كلف على إثبات الأغيار .. ما استطاع أن يرى لهم فعلاً
ولا وصفاً ولا ذاتاً ؛ حقيقةً ولا مجازاً ، ولكن قصر عن كونهم ثابتين
بإثبات الله نهم ، وهو معذور ؛ لغيته عن شاهده ، متلاشٍ تحت سلطان
الجمال ، مأخوذ عن إحساسه في حظائر الوصال وشهود الكمال ، ومتى
عاد إلى إحساسه ، وحضر معه أناسه .. فلا يكون إلا مثبتاً ما أثبتته الله ،
مؤتمراً بأوامره ، منتهياً عن زواجره .

فحمد الخلق مجاز ؛ كما أن ثناءهم مجاز ، وشكرهم أيضاً كذلك ،
كما أنهم أوصلوه إليك على أيديهم حكمة مجازاً ، وحقيقة الحمد

(١) أو ذمهم على سوء فعالهم ومقالهم ؟

والشكر لمن ثناؤه وإنعامه عليك ثابت ، وفضله إليك واصل ، ولي في ذلك :

من أكرمك من عباد الله مبتغياً حمداً فلا يستحق الحمد إلاه
كم من عيوب في الإنسان خافية وظاهرات تولئ سئرها الله
فليس أهلاً لحمد الخلق قاطبة سوى الذي عمت الأكوان آلاه

*

فمن أدمن صحبتك ، وأظهر محبتك إذا برز منك ما يناقض الكمال . .
نقصك عنده لا محالة ، والعبد أبداً لا ينفك عن نقصٍ وعيب ، فصحة
الخلق معك على ما ظهر من وصف الكمال ، واستتر عنهم من قبيح
الأفعال ، ولا ظهر ما ظهر من الجميل ، واستتر ما استتر من العيوب ،
وتغطس من فضائح الذنوب . . إلا بكشف ستره ، وجميل عفوهِ وبرِّهِ ؛
لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَا صَحَبَكَ إِلَّا مَنْ صَحَبَكَ وَهُوَ بِعَيْنِكَ عَلِيمٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا
سُؤَالَكَ الْكَرِيمِ

ما صحبك حقيقةً وتكرّم عليك تطولاً منه إلا مولاك ؛ إذ هو الذي
لم يقطع عنك إفضاله ، ولم يحرّمك فضله ونواله ، ما يعلمه منك
من قبائح الأفعال ، ومذمومات الأخلاق والأحوال ؛ فالصاحب مَنْ كان
كذلك صنيعه ، فلا أحق بإخلاص الوداد والحب بكلية الفؤاد منه ؛ لأنه
لم يَمَلِّكْ على كثر جنباياتك عليه ، ولم يبعدك لكثرة هفواتك وتهافت
زلاتك لديه .

وَالْخَلْقُ يَقْلُونُكَ وَيَمْلُونُكَ وَيَمَقْتُونُكَ إِذَا اظلموا على أقل فضيحة ،
مع أنهم لم يُكَلِّفُوا ولم يُنَدَبُوا إلى ذلك ، بل مأمورون بعذر الخاطيء ،
وعفو الجاني ، والجنابة أيضاً ليست إليهم ، فكن متعلّقاً بصحبته ،
ومولعاً بجنابه ومؤثراً لخدمته ، ومدمناً قرع أبواب وُصلته ، ومدانياً
لمواضع محبته ، وخاصته من برئته .

والصحبة مع الله ليس هي الصحبة مع الخلق ؛ لأن صحبته مصحوبةٌ
بالتنزيه عن الجنسية والمشاكلية وما في معناها ، إلا ما جاء في تقرير
محبته لخلقه ومحبتهم له ؛ بأن تشاهد القلوب الصفات القدسية ،
والنعوت الأزلية ، فيكون تعلقها بها ، وتوَلُّها فيها ، مغيباً لمشاهدته
المشاهد المُمْتَلِة عن غيرها ، وتُفنيه عن وجود سواها .

فعلنى هذا المثل يظهر وجه الصحبة مع الله والمحبة له ؛ فعيوب
العباد - كسائر أفعالهم - معلومةٌ لله قبل إيجادهم ، وبعد وجودهم ، لا
يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ومع ذلك هو

ريك وكالثك ، ومغذيك وحافظك ومعافيك ، ولا يكون ذلك لغيره ؛ إذ الخلق لا يصحبونك إذا اطلعوا منك على العيوب ، ولم يسبق لهم علم ، ولم يلحق لهم خير فيما مضى وما هو آتٍ وحاضر إلا بعد انكشاف ستر الله عن العبد ، فيعلمون بعض العيوب لا كليتها ، وليس ذلك إلا مولاك الكريم ؛ أي : ليس يصحبك مع العلم بالعيوب وقبائح الذنوب إلا مولاك الكريم ، الذي تکرّم عليك بأصناف النعم وجلائل المنن ، مع ما يعلمه منك من جرائم الذنوب وعظائم الفواحش ؛ فالكريم لا يستقصي ، وعند الاعتراف له لا يستقصي .

فموالاته لعبده لا تنفك عنه على ممرِّ الأنفاس ، وهو يواليك بجميل كرمه وإحسانه ، وعميم فضله وامتنانه ؛ فالموالة خاصة وعامة ، وتطلق على الاستيلاء والقهر والسلطان ، وعلى النصرة والعون والعطف واللطف ، فقال جلّ من قائلٍ في الولاية : ﴿ ذَلِكِ يَأَنَّ اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ أي : لا ناصر ولا معين ، وقال أيضاً : ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَإنْ يَمُرُّكُمْ أَهْمُكُمْ ﴾ ، وقال في الولاية العامة : ﴿ إن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا ﴾ .

والسيد : هو المولى ، ومراد المصنف هنا : ولاية التعطف واللطف والصفح والكرم ؛ لهذا عبّر بـ (مولاك الكريم) ، وفي بعض الإخبارات عن الله عز وجل : (لو يرى العاصي رحمتي به ، والمُذْبِرُ عني . . لتقطع إليّ شوقاً) ، ولي في ذلك :

فما صحبتك وأظهر فيك منتته

إلا من أصحابك وهو يعلم منك بالخطل

وليس يفعل إلا من بنعمته

علم الوجود في الأبد والأزل
وصحة الخلق معلولة مدخولة ؛ فلا يصحبك إلا لعلة دنيوية أو
أخروية ، فلا بد من ذلك ، وحال ينال مطلوبه أو أيس من وجوده على
يديك .. قلاك وتركك .

فالصاحب : من يصحبك لا لشيء منك يعود إليه ، وليس ذلك
إلا الله عز وجل ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

خَيْرُ مَنْ تَصَحَّبَ : مَنْ يَطْلُبُكَ لَكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ يَعُودُ عَلَيْهِ

خير من يُصحب ويُحب ويؤثر ويوالي ويطاع ، ويصبر المتصبرون ،
ويتحمّل في حبه المتحملون ، ويتنافس في قربه المتنافسون .. مَنْ
يطلبك لا لشيء من المنافع ، ولا لدفع مضرة عنه ، وليس ذلك إلا
مولاك كما علمت .

فإنخلق لا تخلو صحبتهم وطلبهم عن علة ؛ للزوم فقرهم ، وهو
سبحانه طلبك لك لا لشيء يعود عليه منك ؛ لأنه الغني بذاته وصفاته
وأفعاله ، فلا يكون ناقصاً فتكمله ، ولا محتاجاً فتوازره وتظاهره ،
يتعالى الله عن الافتقار إلى الأغيار ، أو أن تكمله الآثار ، فندبك
لينبلك ، وزجرك ليقيك ، وحذرك لنفسه وشدة بطشه ؛ لعظم رأفته
عليك .

وإذا نظرت ما أسبغ عليك من الآلاء .. علمت أن جنباه لا يهمل ،
وذكره لا يُغفل ، وعلمت أن جميع تخويفه لك وزجرك من جملة

نعمه الواصلة إليك ، ومنته الحاضرة لديك ، أما تسمعُ قوله سبحانه :
﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَمْتَصِرَانِ ﴾ ، ثم قال بإثر ذلك :
﴿ قِيَاسِي ۚ آلَاءَ رَبِّكُمَا لَكَرِيمَانِ ﴾ فعَدَّ ذلك من جملة الآلاء ، ولي في ذلك :

فخير من يصحب الإنسان خالقه

ذي الطول والفضل والإحسان والكرم

فلو رأيت الذي هو منك طالبه

رأيت ذاك أجل الفضل والنعم



ومن أدام المجالسة مع الله ، وراقب الصحبة وآدابها . . فلا جرم
أن ينكشف عن قلبه غطاء الغفلة ، وظلمة الجهل ، ويشرق فيه نور
اليقين ، فعند ذلك : تزكو أعماله ، وتصلح أحواله ؛ فلذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

لَوْ أَشْرَقَ نُورُ الْيَقِينِ . لَوَأَيْتَ الْأَخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرْحَلَ إِلَيْهَا ،
وَلَوَأَيْتَ مَحَاسِنَ الدُّنْيَا قَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةَ الْفَنَاءِ عَلَيْهَا

لو أشرق نور اليقين من أفق الفتح المبين ، والشروق : هو العلم
الكشفي الذي لا يداخله لبس ، ولا يبقى معه داعي شيطان ولا نفس ،
وهو بمنزلة الإضاءة من الشمس الحاصلة بإزاء ما بسط عليه الشعاع ،
فيبين لصاحبه الكائن فيه - لا محالة - الحق من الباطل ، ويتضح لديك
العالي عن السافل ، والثابت والأقل ، فتختار الثابت ؛ كما قال الخليل
صلى الله عليه وسلم عند شروق كوكب العلم في قلبه : ﴿ لَا أُحِبُّ
الْأَقْلِبَ ﴾ .

وهذا العلم اليقين أول مبادئ الكشف ، وعلامته وبيان حاله من قام
به : العزوف عن الدنيا ؛ لفنائها واضمحلالها ، وزوال نعمها ، وذبول
ورونقها ، وسرعة تقلبها ؛ فعندما ينكشف عن قلبه هذا الغطاء ، وينبسط
في صدره أنوار هذا الضياء . . . ينفسح ويتسع منه الأرجاء ؛ لذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنْ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الصَّدْرَ . . انشَرَحَ لَهُ
وَانْفَسَحَ » قيل : يا رسول الله ؛ هل لذلك من علامة ؟ قال : « نعم ،
التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت
قبل نزوله »^(١) ؛ وذلك بالحرص على وظائف الطاعات في ممر الأوقات
خشية الفوات ، والتباعد عن الهفوات ، ومجانبة الغفلات ، ومبادرة
الساعات بأربح البضاعات ، وأغبط التجارات عند عالم الخفيات .

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (٣١١/٤) ، والبيهقي في «الشعب» (١٠٠٦٨) عن
سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

فحكايات أهل هذا المشهد أكثر من أن تُحصر ، وأبين من أن تُشهر ؛ من اختيار النقلة إلى الأخرى على البقاء في الحياة الدنيا ، وتقدير الدنيا واستقلالها في أعينهم ، ومجانبة المتلطفين بقاذوراتها ، والمتشككين في حباتها .

فمن إذا قيل له : ماذا تريد نشتره لك إذا سافرنا ؟ فيقول : الموت إن وجدتموه لي ، ومن المستعدين من لم يأكل الخبز اليابس ، بل يسف السويق ويقول : بين ذلك ومضغ الخبز سبعين تسبيحة^(١) .

وبين من يطلبه ويشتاق إليه اشتياق الغريب الكئيب إلى وطنه ؛ كما في رواية حارثة الأنصاري وغيره من أجلاء الصحابة ؛ كأنس بن النضر في يوم أحد ، كان مقبلاً لما أدبر الناس وهو يقول : (يا سعد ؛ الجنة تنفخ دون أحد) ويقول : (اللهم ؛ إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني الكفار - وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء) يعني المسلمين ، فدخل العدو ولم يرده ما رآه من شدة بأسهم ، حتى وُجد قتيلاً ، أصيب بضع وثمانين بين طعنة برمح أو نكتة سهم ؛ وذلك أنه لم يحضر بدرأ ، فقال : (أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أحضرها ، لئن أشهدني الله غزوة بعدها .. لبري الله صدقي) .

قالوا : وكانوا يرون أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَيَمْنَعُ مَنِ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴾ (٢) .

فهذا ثمر شروق نور اليقين في صدور المتقين ، الذين صابروا

(١) وهو داوود بن نصير الطائي ، انظر « الرسالة القشيرية » (ص ١١٦) .

(٢) رواه البخاري (٢٨٠٥) ، ومسلم (١٩٠٣) بنحوه عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

الأعداء ، وناجزوا النفوس ، وعمروا معاني الثقوى ، وتجنبوا دواعي
الأهواء ، فأثمر لهم ذلك العلم اليقيني ، ونازلهم الصدق في سائر
الأحوال والأقوال والأفعال .

وهذا العلم لا للكسب فيه مدخل ، بل يقذفه الله في قلوب أهل
الصدق ، فيرون بواطن الأمور إذا رأى المحجوبون ظواهرها ، وينفذون
بصائرهم إلى حقائقها إذا وقف المغرورون على صورها ، فيزهدون
فيما رغب فيه البطّالون ، ويعرفون ما جهله الأغبياء الغافلون ، فهم
يعجبون لغيرهم كيف اغترّ بهذا السراب؟! والخلق يرونهم مجانين من
سُكر هذا الشراب ، فالجهّال : إذا مرّوا بهم .. يضحكون ، وهم عليهم
من حسرة الموت مشفقون ، فاعجب لذلك المشهد المصون !! وأعظّم
بذلك السرّ المكنون !!

وبعد ذلك : تنفتح لهم خزائن الأسرار ، وتلوح لهم لوائح الأنوار ،
من سنا صفات الواحد القهار ، فيرجعون بالاعتذار ، ويبيحون للخلق
الأعداء ، فتخترق لهم العوالم ، وتبين لهم المعالم ، فلا يختارون غير
ما يختار ، والكون في ذلك العلم هو شراب الأبرار ، الممزوج من عقار
تسليم عين المقربين الأحرار ، من رق الأغيار ، ولي في ذلك :

نور اليقين يريك أسرار ما كمنت من الحقائق في مستودع الصور

يريك أن زهرة الدنيا في فناء وغائب في ستور الكون محتضّر

من طهر الله عن الأغيار فطرته يشهد بلا لبس ما في الأفق من عبر

فإذا أحكم المرید هذه المرتبة ؛ أي : مرتبة العلم .. فليطلب المزيد

مما هنالك : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، فليأخذ في الترقّي إلى رتبة العيان ،

وفناء رؤية الأعيان من سائر الحدثان ؛ فالدنيا حجاب المحرومين

والمبعدين ، والأغبياء الجهال المغرورين ، وهي حجابٌ ظلماني ، تنشأ
منه كبائر الذنوب ، والوقوع في ورطات البُعد والجحود .

والآخرة حجابٌ أيضاً عند أرباب الكشف والشهود ، والمشغوفين
بحب الإله المعبود ، فهي بالاعتبار عندهم للواقفين عندها النفوذ إلى
رفع الحجاب ، والدخول في زمرة الأحباب ، المخطوبين المرادين بشهود
الاقتراب ، ولكن حجاب نوراني عنده محتد سير أصحاب اليمين .



فلما كان النفورُ عن رؤية الأغيار ؛ من جنة أو نار مطلبَ المقربين
الأحرار .. لذلك أشار المؤلف بقوله رضي الله عنه :

مَا حَجَبَكَ عَنِ اللَّهِ وَجُودٌ مَوْجُودٌ مَعَهُ ؛ إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَلَكِنْ حَجَبَكَ
عَنْهُ وَهُمْ وَجُودٌ شَيْءٍ مَعَهُ

ما حجبك عن الله - أي : عن وجوده وشهوده ذاتاً ووصفاً وفعلاً -
وجودٌ موجودٌ معه ؛ إذ لا موجودٌ معه فيكون له نداءً ، أو شريكاً فيكون
له ضداً ، وإنما حجبك وَهُمْ قام في سخيلتك ، وإلا .. فيتعالى عن أن
يحجبهُ شيء ؛ إذ لو حجبه .. لستره ، ولو ستره .. لقهره ، ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ
فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ ، ولو حجبه .. لكان به محيطاً ، وهو بكل شيءٍ محيط ،
ولسبق وجود ذلك لوجوده ، وقد علمت وجوب قدمه واستحالة عدمه .
ولو كان كما يظنه من يشبهه بالأجسام المحصورة في جهة ..
لانعكس الحكم ؛ أي : لصار القديم حادثاً ، والواجب جائزاً ، والجائز
واجباً ، ولا قائل به .

بل الحجاب : ما يقبوم بالعبد من صفة القصور عن إدراك حقائق
الأمور ، وعدم قابليته لقوة الظهور ، فكلما قويت قابليته لذلك ، ونما
استعداده لما هنالك .. أنكشف لها من ظهور الحق الظاهر ، والنور
الباهر بحسب ما فيها من الاستعداد ، وذلك متوقف على ما وصلها من
مواهب الإمداد ، ولا تزال هذه الأمداد تتواصل ، ولا تزال هذه الحجب
تنكشف أبداً في عمر الآخرة الطويل ، وتتضاعف بحسب التضعيف
الأخروي ، فكلما كشف لها عن تجلٍ .. ترقّت به إلى أكمل ، فلا نهاية
لكماله ، فكلما شرب كأساً .. زاد إلى الشراب شيقاً .

وثبوت ما سواه شرعاً لا يناقض كونه واحداً بلا ند ، بل إثباته أدلُّ
على توحد موجدته وقدرته وإرادته وياقي صفاته من قدم الصانع ، والظل

لا يحجب عن شخصه المنبسط عنه ، بل يدلُّ من له عقل ، اللهم إلا أن يكون أكمه البصيرة ، مطموس النور والسريرة ، أو كان خفَّاشاً لا يطيق فيضان نور الشمس ؛ فقد يفوته تحقيق وجود ذلك لا العلم به ، ولكن علم قهر وعلم أمر ؛ فعلم الأمر : هو ما نزل في القلوب ، وعلم القهر : هو شهادة أهل الجحود بنفس الوجود ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ، ولي في ذلك :

ليس الحجاب وجود ثالث فلذا قلنا الحجاب توهم صورة الحجب
 فلا نظير ولا ند يكون له ولا شبيه ولا مثل ولا نسب
 فاعجب لمن ينكر أن الله خالقه أو غائب عنه هذا غاية العجب



فبظهوره ظهرت ، وبنوره عرفت ، وبحسب أسمائه تميّزت ؛ لذلك
 قال المؤلف رضي الله عنه :

لَوْلَا ظُهُورُهُ فِي الْمَكُونَاتِ .. مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وُجُودُ إِنْصَارٍ ؛ لَوْ ظَهَرَتْ
صِفَاتُهُ .. أَضْمَحَلَّتْ مُكُونَاتُهُ

لولا ظهوره الباهر ، ونوره الظاهر في سائر المظاهر ، المحيط عليها
بحيطة التكوين .. لما ظهرت جهات التأين ؛ فالمكونات فرغ عن
تكوينه ، والمغيبات من العوالم الملكوتيات والجبروتيات ، ووظاهر
المشاهدات الملكيات الحيات .. مظاهر وآيات ، وبيان دلالات تدلُّ
على ما صدرت عنه من الأسماء والصفات .

فلولا قيامه بها في وجودها واختراعها في قدم أعيانها ، وإبداعه
لصورها في فطرها وأجسامها .. لما ظهرت ولا تعيَّنت ولا تصوَّرت .
فبحكمته في احتجابه بها ظهرت ، وظهر منها ما هو مقتضى علمه
فيها وبها ومنها ، فلو ظهرت الصفات .. لاندرجت آثارها ، وغابت
مظاهر شمسها وأقمارها ؛ لانقهارها تحت سلطان ظهوره ، واحتراقها
بإشراق نوره .

ولكنه سبحانه بحكمته البالغة ، وكلمته السابقة أنصف بالعلم ،
والعلم يطلب ظهوره بمعلوم ، ولا بد من تخصيص معلوم من معلوم ،
فاتصف بالإرادة ، ولا بد لنفوذها من قدرّة تامّة تمضي ما خصّصته
هذه ، فاتصف بكونه قادراً ، وكذلك بقية الصفات يطلب ظهورها بتأثير
خاص ، فافتضى الكمال الإلهي كمال كل وصف من أوصافه ، وظهر
كل نوع من نعوته .

فأبدع الكائنات على حسب ما يقتضيه ظهور هذه الصفات ؛ فلو
ظهرت الصفات بوحدتها وكمالها من ليس التغاير .. لذهب صورة

التكاثر الذي أُلهيَّ به من تفرَّق في وَهْمِ التغيير ، فلو ظهرت الصفات .
لذهبت الجهات ، واحتترقت بنورها كل ما أدركته السُّبُحات ، بذلك
جاءت الأخبار والدلالات^(١) .

فأين البصر والإبصار والمبصر؟! وأين التعدد في ظهور الوحدة؟!
فلم يبقَ إلا وصف الموصوف ، وعند تجلِّي الموصوف يندرج الوصف
في ظهوره ، وتنطمس الأنوار في إشراق نوره ، ويكون هو الموصوف
بوصفه لنفسه بنفسه ، ولي في ذلك :

لولا ظهور وجود الحق في الصور ما بان للكون من عينٍ ولا أثرٍ
ظهرت حتى جعلت الكل منعماً وباطن أنت محجوب عن البصرِ
بحجب عزِّك حتى ظنَّ ذو سفهِ أن نَمَّ غيرُ تعالى الله ذو القدرِ



وعلى الحقيقة لم يكن نَمَّ وجودٌ لموجود إلا ما أظهره تأثير اسمه
الظاهر ، ولا بطون إلا حقيقة اسمه الباطن ، ولا أول إلا وهو من نور
اسمه الأول ، ولا آخر إلا متوجِّه إلى اسمه الآخر ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

(١) كما روى مسلم (١٧٩) مثلاً عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً :
« حجاب النور ، لو كشفه . . لأحرقَت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ؛ لِأَنَّهُ الْبَاطِنُ ، وَطَوَّى وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لِأَنَّهُ الظَّاهِرُ

أظهر وجود الأكوان ، وأبدع صور الأعيان ؛ لأنه الباطن ، فلا يكون معه بطونٌ لشيء ؛ فهويته القائمة وربوبيته الدائمة . . تقتضي ألا يكون معه شريك في اختصاصه برتبة الربوبية .

وطوى وجود كل شيء بنور ظهوره ، وسلطان قهره ، وعظيم ألوهيته ؛ لأنه الظاهر في أعيانها بالحكم والقهر والتصرف والاعتدار ، فكل الأشياء متصرفة تحت حيلة اسمه القهار الجبار ، ومشرق وجودها بقيومية الإله الستار ، الذي ستر وجوده بما أظهر من مخترعات وجوده ، وعمها بأفضاله وجوده ، ولي في ذلك :

أظهرت الأشياء لكيلا أن يكون سوا

بطونك الساري المحجوب في الصور

وأظهرت قهرك فيها كي يكون لها

رباً وتستوجب التنزيه بالنظر

فلذلك ذلك وأحالك على النظر فيها ، وما ذلك لسبب غيرتها ،

ولكن لتعرف نسبة الحقائق فيها ، قال المؤلف رضي الله عنه :

أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمَكُونَاتِ ، وَمَا أُذِنَ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَوَاتِ
الْمَكُونَاتِ : ﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾
فَتَحَ لَكَ بَابَ الْإِفْهَامِ ، وَلَمْ يَقُلْ : أَنْظُرُوا السَّمَاوَاتِ ؛ لِأَنَّكَ يَدُلُّكَ عَلَى
وُجُودِ الْأَجْرَامِ

أباح لك - أيها الناظر - في تحقيق اسمه الفاطر ؛ لتكون إلى وصف
قدرته ناظراً ، ولتعرف حقيقة اسمه القادر ، فقال : ﴿ قُلْ ﴾ أنت ؛ ليفهموا
خطابي من وراء سجع مخلوقاتي ؛ إذ القوالب البشرية لم تقوَ على
مكافحة الخطاب الإلهي من غير ترجمان تأنس به ، ولم تقوَ أيضاً على
شهود ذلك الجمال من غير مرآة في الظاهر ، ومرآة في الباطن ؛ لتنظر
إلى ظهور كماله ، وتتعرف صفة جماله وجلاله .

فجعل مرآة اسمه الباطن القلوب والأسرار ، وجعل مرآة اسمه
الظاهر السماوات والأرض والبحار ، والشموس والأقمار ، والجنة والنار ،
فأحب أن تشهد وتنظر إليه في هذه الدار بالاستبصار ، وبالأبصار في
دار القرار ، فخاطب الترجمان بسر الأسرار ، ونور الأنوار ، القائل عنه
خطابه ، والمتلقي منه الأمر مجملاً ، والمخبر عنه به مفصلاً محمد
صلى الله عليه وسلم ، الداعي من تشتيت الفرق إلى موصلات الجَمْعِ ،
فقال سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ ودلّ على شهودنا بما أعطيناك من أسرار خطابنا ،
وأوضح ظهورنا في مسطور كتاب وجودنا ، فهي رسائل منا ، ووسائل
إلينا لمن له عندنا سابقة في علمنا أنه من خواصّ عبادنا ، ومصطنع
لخالص ودادنا^(١) .

(١) ولسطان العارفين :

قوله : (أباح لك) الإباحة لها معان ؛ ففي لسان الفقهاء : أنها أمرٌ يستوي فعله وتركه من غير ترجيح لأحد الجانبين .
وفي لسان المحققين : هو الإذن في الدخول في حظائر القرب ، والوصول والإغراء على كثرية السرِّ المصون ، الغائب عن نواظر العيون ، ولم تحمَّ حول شهوده الظنون ، بل أباح وفتح وأذن لك في الدخول ؛ وذلك بأن تنظر ما فيها ، فلم تجد غير ظهور وإشراق تجليات نوره ، سبحانه من غير حلول ولا ملامسة ولا استقرار ، بل ظاهرٌ بأوصافه ، وحاكمٌ فيها بمقتضى ظهور أسمائه ، مبين الأشياء بذاته وصفاته وأفعاله .

وما أذن لك أن تقف مع المكوّنات دون شهود مكوّناتها ، فتكون محجوباً بها دون وجود مرجدها ، فقال : ﴿ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ : من الأنوار والأطوار والأسرار ، والأرض من الانقهار تحت أحكام الواحد القهار ، فتفهموا عنه أسرار قدرته ، وتشهدوا ثبوت حكمته ، فتراها في صفاء سماواته وتمكّنها ثبوت أمره وتمكّنه ، فتفهم سرّ قوله : ﴿ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ، وترى ما استولى على الأرض من أسر قبضته ، وأن لا انفلات لموجود من هذه القبضة ، فتفهم قوله : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ ﴾ ، فتلج باب قوله : ﴿ يَدْبُرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُرْسِلُ إِلَيْهِ ﴾ ، ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ .

وقد أرشدناك إلى بابٍ عظيم من أبواب العلم الممكنون ، الذي قال فيه

→ تأمل سطور الكائنات فإنها من الملاء الأعلى إليك رسائل
وقد حُطَّ فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من العلم كهيئة المكنون » (١) ،
 فإن كنت ذا فهم . . . فإليه ؛ فدونك بحاراً يحار فيها ذوو الألباب ،
 وبيته فيها ذوو العقول ، وينكرها كل مغرور جهول ، فلو قال : انظروا
 السماوات . . . لكان دلالة على الأغيار ، وهدايته إلى الأجرام والآثار ،
 ولكن ذلك على ما فيها من ظهور آياته ، ودلالات وجوده واقتداره ، وما
 أودع فيها من أنوار وجوده ، فلا تزال تسير في بحر الوجود في سفينة
 الأفكار ، الجارية بريح الأذكار ، إلى أن تُلقي في باحات المعارف ،
 فتلتقط ثمّ من جواهر الأسرار ، وذُور اللطائف ، ولي في ذلك :

انظر إلى ما في الأكوان من حكم ترى الوجود بنور الله موجودا
 فذاك من نوره يحكي الوجود كما يحكي الظلال بنور الله ممدودا
 فافتح من القلب أبواباً مقفلة تريك في ذاك سر الله مشهودا
 وكل من كان ذا فهم يكون له في كل شيء دلالات وتمهيدا



فالوجود كله ؛ من سماء وأرض ، وكرسي وعرش ، وما حواه اسم
 العالم . . . مختزّ من قدرته ، ومبدعٌ ببالغ حكمته ، ولم يكن غير ذاته
 ظاهراً ، فأراد سبحانه ظهور صفاته ، وثبوت أسمائه ، فبطنت الذات ،
 وظهرت الصفات ، فظهرت تلك الصفات ، فسُميت بالكائنات ؛ لذلك
 قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه السلمي في « الأربعين » (٣٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

الأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ ، وَمَمْحُوءَةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِهِ

فنعنت الذات بالأحدية ، التي لم تبقَ ظهوراً للشئوية ؛ فهي مبالغة في نعت الوحدة ، والأحدية : وصفُ الذات إذا ظهرت ويطنت الصفات ، والأكوان من حيث هي أصالة معدومة لا وجود لها عند ظهور الذات ؛ لأن الأكوان آثار الصفات ، وقد علمت اندراج الصفات عند تجلّي الذات ^(١) ، فالأكوان الآن معدومةٌ ممحوة .

فأحق ما هنا أن يقول : الصفات مندرجة ، والآثار ممحوة ، وحيث بطنت الذات ، وظهرت الصفات . فالصفات مؤثرات ، ولا بد لظهورها من أثر يظهر فيه سلطانها ، وتتميّز فيه أعيانها ، فهي ثابتة بإثباته ، حيث توجهت إليها بالإثبات . . ثبتت ، وحيث خصّصها بالتعيين . . تعيّنت .

فالكلام في ذلك تابعٌ للنظر ؛ فإن نظرنا إلى الذات ونعتمها . . انمحت الأكوان ، وذهبت الأعيان ، وفني المكان والزمان ، ولم يبق إلا الواحد الأحد ؛ فالواحد وصفه ، والأحد نعته .

وإن نظرنا إلى الصفات وتعدد مظاهرها . . قلنا بشيوت ما أثبتته ، وتخصيص ما خصّصته ، وإتقان ما علمته ، وتقدير ما قدرته هذه الأوصاف وغيرها مما أظهره من صفاته وأسمائه ، فلا يظهر وصفٌ ، ولا يتحقّق اسمٌ ما لم يشهد أثره ، ولم يسمع خبره ، ولي في ذلك :

المحو نعتٌ لكل الكون إن نظرت إليه دون وجود الواحد الأحد
وثابتٌ إن رأيت الله مثبته فوحدة الذات تنفي كثرة العدد

(١) فالذات من حيث هي . . توصف بالأحدية ، ومن حيث ظهورها ويطونها بالمظاهر . . توصف بالواحدية ؛ فمع الأحدية الفناء ، ومع الواحدية البقاء .

فكن حريصاً على تحقيق ذلك فما في الكون موجود إلا الواحد الصمد

وحكمة ثبوت الكون : ظهوراً فيما يظهر تجلي كمال الربوبية على
رفعة العبودية ، فإذا أثبتك . . فمقام العبودية يقتضي المحاسبة وتصحيح
المعاملة ، ومقتضى ذلك : أن تكون متّهماً لنفسك ، ومعاتباً لها في
سائر أحوالك ، فلا ترضى عنها ، فذلك مقتضى العبودية ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

النَّاسُ بِمَدْحُونَكَ ؛ بِمَا يَظُنُّونَ فِيكَ ، فَكُنْ أَنْتَ دَائِمًا لِتَفِيكَ ؛ بِمَا
تَعَلَّمُهُ مِنْهَا

الناس : هم البشر المأنوس بهم بعضهم ببعض ، وواحدهم إنسان ،
والناس بالضرورة يمدحون من ظنوا منه الأفعال الجميلة ، والخصال
الحميدة ؛ فبالضرورة يشنون عليه ، ويمدحون مَنْ أنسوا منه ذلك ، وذلك
كما علمت أنها نعمةٌ من الله أن ستر عيوبك ، وقبائح ذنوبك ، التي
لو اطلع عليها أودَّ الناس إليك . . لمقتك عليها ، ولقلاك وهجرك من
أجلها .

فإذا علمت أن ذلك ستر الله هو الذي جمَّلَ أفعالك ، وسدَّدَ
أقوالك ، وأصلح أعمالك . . فحَقُّكَ أن تشكر الله بما أظهره عليك
من الجميل وسَتَرَ من القبيح ، وأنت عليمٌ بما أنت عليه من العيوب ،
ومقارفة الذنوب ، فكن ذاتاً لها على ما تعلمه من سوء أفعالها ، وقبح
أحوالها .

ولا يغترُّ بظن الناس ويترك يقين ما عنده إلا جهولاً ، لا يُميِّز بين
محاسن الأحوال وقبائحها ، فلا يرى ما هو عليه من النقص والإهمال ،
لعظم ما نذب إليه من الأعمال ، وارتكاب ما نهى عنه من الأفعال ،
ويتقدير إحسانه فهو من فضل الله وسابغ نعمته وسابق منته ، فكيف
يسنح إلى مدح الخلق أو يطمئن إلى ثنائهم ، ومدح المادح وبأل على
ضعفاء اليقين ، الذين لم ترسخ أقدامهم في حقائق التمكين ؟

وكان السلف الصالح يكرهون المدح ، وينكرون على المادح ، ويرون
أن ذلك نقصٌ لأحوالهم ، وجالبٌ لمفاسدات أعمالهم ؛ كالرياء والعجب

والتصنُّع وحب الشهرة ، وهذا إذا كان فيهم ما مُدِّحوا به ، وأما إذا كان ما مُدِّحوا به غير موجودٍ عندهم .. فذلك أعظم قبحاً ، وأشدَّ حرباً .

وما نُقِل من المدح والثناء على أكابر الصديقين والعلماء .. فذلك بما فيهم مع ما هم عليه من اليقين ، ويرون أن ذلك من الله بارز ، ومنه واصل ؛ لفنائهم عن أنفسهم عن أن تستحق مدحاً ، ويرون الخلق وما يجري عليهم رسلاً من الله إليهم ، فلا يزيدهم المدح إلا نشاطاً ، ولا يورث عندهم إلا شكرياً لمن وصل إليهم من حضرته وثناء .

وأما ضعفاء اليقين .. فلم يحفظوا بهذا المقام ، ولم يخرجوا عن رؤية نفوسهم ورؤية الأغيار ؛ فالمدح عليهم ضارٌّ ، ومقامهم يأبى ذلك ، بل الأنفع في حقهم : اجتناب الخلق عنهم ، وازدراؤهم لهم ، ورؤية ذلَّتْهم وذبولهم وخمولهم .

ومن حقهم : أن يسكنوا إلى من يذمُّهم ، ويغضُّ من مقامهم ، أولى من سكونهم إلى من يمدحهم ويكرمهم ، اللهم إلا أن يفارقوا من تولَّع بدم الطائعين ؛ لعصيانه وانتهاكه لحرمت الله ، واستصغاره لشعائره ، فلا جرم أن يهجروه بهذه النية .

ولا يتحقق بهذا المقام على التمام ويحرز هذه النيات إلا مَنْ قد خامر اليقين قلبه ، وامتزج الإخلاص بلحمه ودمه ، وكذلك سكونه إلى من يكرمه ، ومحبته له ، إنما أحبه وواصله وخالَّه لما عظم من شعائر الله ، وأكرم من انتسب إلى جناب الله ، فلا حرج في ذلك أيضاً عند صحة النية ، وصدق الطوية .

ويصدق ذلك : أنه لو أكرم أحد أقرانه ووقَّره أكثر منه .. لم تنقص منزلته عنده ، ولم تتغير عمَّا كان عليه ، وعلامة كونه هجر الأول : أنه لو

مدح واستصغر أحد أقرانه من أهل الدين .. أنه يهجره ويقلاه لذلك وإن كان به برّاً وله مساعداً ؛ فللصدق دلائل أحوال وقرائن تبيّن ما كان لله مما كان لغيره .

فحقُّ المرید السالك : ألا يسكن إلى المدح ولا يرضاه ما دام لنفسه عنده وجود ، ويرى مَنْ ذمّه أنه أهدى إليه معايبه التي غفل عنها ، وتبّه عليها ، ومناصراً له ومؤازراً ، ومن لم يجد ذلك ولم يقدر عليه . فلا أقل من ألا يعاديه ، ولا يحقد عليه ؛ فذلك أقل مراتب الصادقين ، وأما إذا قام لها مخاصماً ، ومن أجلها معادياً . . فلا يخفى أنه لم يشمّ رائحة الصدق .

فإياك والإنكار على من رأيت من ينسب إلى الطريق بهذه الحالة ؛ فقد تكون للصادقين مقاصد محمودة في كل ما يتعاطونه : إما رافة به - أي : المعادي - لثلاً يتجرّأ على عباد الله ، أو ليدفعوا عنه بردهم عليه ما هو أعظم من انتقام الله وانتصاره لمن ترك مراده اكتفاء به ؛ فانتقام الله ونصره على من انتهك من التجأ إليه واكتفى بنظره . . أسرع من السيل إلى محلّه ، فقد يخاصمون له هذه النية ، فلا اعتراض عليهم فيما تعاطوه ، فإذا ثبت اختصاص الله لهم وتوليه . . فلا يظن بهم أنهم ينتقمون لأنفسهم ، أو يخاصمون لأجلها ، فهم أجلُّ من ذلك ، ولي في ذلك :

الناس يشنون والتحقيق أنهم أهدوا إليك غروراً لست تدريها
لا تتركن يقيناً منك ظنهم ففيك عن مدحهم شغل بما فيها
ففي النفوس عيوبٌ فاحتقارهم خيرٌ لمن في طريق الصدق يدريها



ومقت النفس وعدم الالتفات إلى رؤية الأوصاف منها : علامة
الإيمان ، والإيمان بما أخبر الله عنها واجب ، وقد أخبر سبحانه بقوله :
﴿ فَإِن تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَّا يُؤَخِّدُ مِنْهَا ﴾ ، وقال في وصف عدم براءتها عن
الأسواء واتباع الأهواء : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ لذلك كان المؤمن لا
يزال متَّهماً لها ، وذاتاً لها في جميع أفعالها ، إلا ما مدحه الله ، قال
المؤلف رضي الله عنه :

الْمُؤْمِنُ إِذَا مُدِّحٌ .. اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُتَنَّى عَلَيْهِ بِوَصْفِ لَا
يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ

المؤمن : الصادق ، والإيمان له إطلاقات كثيرة ؛ فقد يطلق بإزاء الكفر ، وقد يطلق مقابلاً للإسلام ، وقد يطلق مقابلاً لغيره من الأحوال الظاهرة ، وقد يراد به غاية الكمال ، وأعلى مراتب الوصال .

والإيمان : هو التصديق بالجنان تصديقاً لا يداخله ارتياب ، ولا يشوبه شك ، وعمل بمقتضى ذلك التصديق مما هو واجب في حق الحق سبحانه وجائز ومستحيل ، وكذلك في حق الرسول صلى الله عليه وسلم كسائر الأنبياء والملائكة ، والكتب ، والإخبارات عن الأمور المغيبات عن العيان ؛ كإعادة الخلق ، وسؤال الملكين في القبر ، وتنعيمه فيه ، وتعذيبه فيه ، وبعث الأجسام ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، والحوض ، والجنة ، والنار ، وكل ما جاء عن الله مما أخبرنا به على لسان أنبيائه ، وأنزله في كتبه ، وكل ما أخبر به الأنبياء كذلك ، فهذا حدُّ الإيمان ، وبهذا يسمى مؤمناً ، ويخرج عن حيز الجاحدين ، وزمرة المنكرين .

والمراد هنا : المؤمن الكامل ، الذي يتلقى علوم اليقين كشفاً ، وهو إذا مُدِّحٌ .. استحيا ؛ لتحققه بشهود صفات سيده المستحق لكل المحامد ، ويرى صدور كل المحاسن الممدوح عليها بارزة من حضرة فضله ، فلا يرى فيها استحقاقاً .

قرينة الإيمان شعارُ صاحبها الحياء من الله والإجلال والتعظيم ، فإذا مُدِّحٌ .. استحيا ؛ لمشاركته في رتبة الحمد التي هي مستحقة لله ، ومن

إضافة الأفعال إليه ، وهو يراها من الله ، لا يرى لغيره معه فعلاً ولا وصفاً يقتضي أن يشئ عليه به ، أو يمدحه به ، فهكذا الإيمان .

والإيمان من صفات القلوب ، ومطالعاتها للمغيبات بنور الإيمان من وراء سحف الأكوان ، وهو بين رتبة الإسلام التي مقتضاها الوقوف على ظاهر الأفعال ، وبين رتبة الإحسان التي مقتضاها محو الأغيار ، وانطماس الآثار بالكلية ؛ كما أشار لذلك صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام حين سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان^(١) .

فصاحب الإيمان متلون ؛ لبقاء شهود الغيرية ، وصاحب الإحسان متمكن ؛ لفنائها عنه بالكلية ، وصاحب الإسلام يتبع الأخبار ، ويطلب الدلائل والآثار ، يرجو الجنة ويخاف النار ، وهو بعد لم يصل إلى مقام الأبرار ؛ فعناية حاله الوقوف لا يتعدى ذلك ، ولي في ذلك :

الإيمان يعطى لمن كانت بصيرته تنظر غيوب بدائع صورة الحكم
إذا مُدِّحَ ذلك تستحيي سريره أن يشن عنه بما هو فيه منعدم



وعندما تطلق عليه الألسن بالمدح وهو يعلم ما هو عليه من القصور . .
فلا جرم يزداد شكره لربه ، ومقته لنفسه إذا كان ذا علم وبصيرة ، ويضد ذلك تكون حالة الجهال والمغرورين ؛ أنهم [لا] يرون قصورهم ، فإذا أثنى عليهم بحالة لم تكن فيهم . . فرحوا وطالت نفوسهم ، وشاركوا الحق في صفاته ، ونسوا ما ستره عليهم من قبائحهم ومواقب فضائحهم ، فكانوا لذلك أجهل الناس ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه البخاري (٥٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (٨) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .

أَجْهَلُ النَّاسِ : مَنْ تَوَكَّأَ بِقَبْلِهِ مَا عِنْدَهُ لِيُظَنَّ مَا عِنْدَ النَّاسِ

وكان أجهل الناس لأنه اغترَّ مع ظهور اليقين ، والناس جهَّال بحاله ، حيث ظنوا ما مدحوا لأجله فيه ، فكانوا جهَّالاً بحاله ، وحاله غيبٌ عنهم ، وهو اغترَّ بمدحهم وهو متيقِّنٌ أنه ليس عنده ما مُدِّح به وأثنى عليه به ، فكان أجهلهم لذلك .

ومن عظم جهله وشدة حماقته : أنه ينافح عن نفسه ، ويخاصم لها ، ويزكيها ، وبرئها عن العيوب بعدما سمع من العالم بها قبل إبرائها ، والمطلع على خفايا عيوبها فقال : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ ، وقال : ﴿ فَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ، وأكثر خصام الجهال ومعاداتهم من أجل ما يلحقها من الذم والتنقيص من بعضهم بعضاً ، فإذا أردت أن تعرف أن أكثر الناس لا يعلمون كما وصفهم الله بذلك .. فابحث عن هذا تجده عياناً بأوضح حجة وبرهان .

والمادح : إما أن يكون من أهل الدين .. فقد حصل خيراً بظنه ، لكن فاته قصم ظهر أخيه ؛ كما جاء في الحديث ^(١) ، وأما إن كان من العوام والأشرار .. فما مدحوا إلا ما وافقهم ، ولا يوافقهم إلا ما كان من جنس ما هم عليه من الأخلاق اللئيمة ، والخصال المذمومة ، فلينكسر المرید أشد خوفاً لذلك ، ولي في ذلك :

أشد الناس في الجهَّال جهلاً إذا أثنى عليه رضي وأستبشرا

(١) رواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « ويحك ؛ قطعت عنق صاحبك ، قطعت عنق صاحبك » مراراً .

ونسى معايبه وعظم ذنوبه وستر فضائح والإله لها يرى

فإن قلت : أنا كارهٌ للمدح ولست أهلاً له ، فما كفارة ذلك ؟ وما الذي يخرجني عند ربي ؟

فإذا أطلق الخلقُ ألسنتهم بشئائك وأنت تعلم أنك لست أهلاً ولا قدرة لك في ردِّ مدحهم .. فاعلم : أن ذلك نعمةٌ من الله عليك أن سترك وجمّلك ، فاشكره على ذلك ، وأثنِ عليه بما هو أهله ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ . فَأَتْنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ

إذا أطلق وأتني بحميل الثناء عليك أيها المؤمن الكاره لمدح المخلوقين ، المبتغي رضا رب العالمين ، المكتفي بنظره إليك ، الرجل من اجتراح المعاصي بين يديه ، وليس فيك أهلية الثناء لنظرك عيوب نفسك وسوء أحوالها ، وقبيح فعالها ، ورأيت عجزها وتقصيرها في القيام بما به يُثنى وعليه يُمدح . فاعلم : أن هذه نعمة من الله أسبغها ، وعافية جللها ، فلا تغفل عن شكرها ، فاشتغالك بالشكر لله عليها أولئ بك من مدافعتها وإبائها .

فكن له شاكرًا ، ولآلآئه ذاكراً ، وبنفسك غير مبالي ولا لها مصغياً ، وعن خدعها مجانباً ، ولها معاتباً .

فالمؤمن لا يزال لنعمه شاكرًا ، ولآلآئه ذاكراً ، ولنفسه متهمًا ، ولا يرى لنفسه أهلية أن يُثنى عليها ، أو أن تُضاف المحامد إليها .

ويرى أهلية الحمد ومنتهى المجد لله في كل حال ، ومصدر فعال ، فلا يتصور منه أن يظلم أو ألا يتصف بصفات الكمال وخلال الجلال ؛ فهو المحمود في أفعاله ، وهو أهل كل نعمة ، ومنتهى كل رغبة ، ومطلب كل منة .

كيف والعالم شاهدٌ بذلك حالاً ومقالاً ؟ كل له قانت ، وله ساجد ، وشاكر وحامد ، ومتن [كان] لغيره وصفٌ أو صفةٌ من صفات الكمال ؟ فالكل مستمدٌ وهو مستبد ، فله الحمد في كل حالٍ وعلى كل حال ، ﴿وَلَنْ يَنْتَعِبَ إِلَّا يَسْحَاحٌ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ سُبْحَانَكَ﴾ .

ولي في ذلك :

إذا أطلقت لك ألسن الخلق بالشنا فكن شاكراً ربّ البرية حامدا
وإن كنت لم تشهد شهود مزية لنفسك زد ما دون وسعك زائدا
فأهل الشنا والمجد حقاً هو الذي بنعمائه عادت علينا عوائدا

وصاحب هذا المقام لم يخرج بعدُ عن رؤية نفسه ، وأهل الكشف
والعيان بالضد من ذلك ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

الزُّهَادُ : إِذَا مُدِّحُوا .. أَنْقَبُوا ؛ لِشُهُودِهِمُ الثَّنَاءَ مِنَ الْخَلْقِ ، وَالْعَارِفُونَ :
 إِذَا مُدِّحُوا .. أَنْقَبُوا ؛ لِشُهُودِهِمُ ذَلِكَ مِنَ الْمَلِكِ الْحَقِّ

الزُّهَادُ : هم الذين أخذوا في تصفية قلوبهم ، وإخلاص أعمالهم ،
 وإخراج رؤية الخلق عن نظرهم ؛ فهم وإن كانوا أهل مقام شريف ،
 وحال عالٍ منيف .. لم يخرجوا بعدد من الحجاب برؤية الأغيار ،
 ومكابدة الآثار ، كما هو حال الموحّدين ، وكُمّل العارفين ، وأهل
 الشهود المقربّين ، الذين غابت عندهم شواهد الخليقة ، وأشرقت
 عليهم شمس أنوار الحقيقة ، فلا يرون ولا يسمعون ، ولا يحادثون ولا
 يجالسون سواه ، ولا يشهدون إلا إياه ، فعنه يأخذون الخطاب مجملًا ،
 ويميزونه على الطالبين مفصلاً ، فلا يسمعون خطاباً ، ولا ينظرون في
 البعد والاقتراب إلا عنه وإياه .

فإذا مُدِّح الزُّهَاد .. انقبضوا ؛ لشهودهم له من الخلق ، فيخافون
 انبساط نفوسهم إليه ، واعتمادها عليه ، فينقصهم ذلك من منزلتهم عند
 سيدهم ، ويوقفهم دون مطلبهم ، فلا جرم أن ينقبضوا لذلك ويهربوا
 منه .

والعارفون : لما لم يشهدوا للخلق في ذلك وجوداً ، ولم يزوا لهم
 في الحقيقة شهوداً .. شهدوا ذلك من سيدهم ، وفرحوا حيث مدحهم
 وأثنى عليهم مليكهم ، فلا جرم أن تنصدع القلوب سروراً ، وتمتلئ
 الآفاق حُبوراً ، ويعتريهم من الوجد بذلك ما لا يطاق ؛ كما روي أن
 النبي صلى الله عليه وسلم لما استقرأ أبي بن كعب سورة (لم يكن)
 فقال : أقرؤها عليك وعليك أنزل ؟! فقال : « إن الله أمرني أن : أقرئ

عليك أياً ، فقال : يا رسول الله ؛ الله ذكر أياً ؟ فقال : « نعم » ، فقام وحجلاً ، وما زال يرددُ قوله : الله ذكر أياً^(١) .

فهذا وهو أخذ ذلك بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكيف إذا أخذه صاحب الكشف على الكشف والعيان !؟ فلا ترى ما يحصل لهم من الفرح .

وصاحب هذا الحال لا يزيد عنده من مدحه من الخلق على من ذمه ، فإذا ذمه ذاماً . . لم ينقبض عليه ، ورآه رسولاً من سيده وإصلاً إليه ، فيرجع إلى نفسه بالمعاتبة والمحاسبة والتأديب حيث قللت الأدب على الله^(٢) ، فعاتبها الحق سبحانه على لسان من وصل إليها منه الذم .

وتحقيق ذلك : أن تعلم أن أولي الأحوال العلية ، والأخلاق السنية أثنوا على أنفسهم ، وأثنى عليهم ، ولم يحصل عندهم انقباض لذلك ، بل زادهم شكراً عليه ، وهم عالمون مضرة المدح على من بقيت فيه بقية من رؤية شهوده للخلق ، واحتجابه بالنفس ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم ترك المدح ، وتركه على حسب أحوال الممدوحين ؛ فأهل كمال اليقين ، والواصلين إلى أعالي أحوال التمكين . . أثنى عليهم بحضورهم ؛ كالصديق رضي الله عنه حيث قال له : « لست ممن يفعل ذلك خيلاً »^(٣) وغير ذلك مما أخبره به من مزايا الفضائل .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال له : « إن الشيطان يلك

(١) رواه البخاري (٣٨٠٩) ، ومسلم (٧٩٩) بنحوه عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) في النسخ : (قللت الأدب على الله) بدل : (قللت الأدب على الله) .

(٣) رواه البخاري (٣٦٦٥) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

غير الفج الذي تسلكه»^(١) وغير ذلك من فخام الفضائل .

ولعلي رضي الله عنه : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى »^(٢) .

ولعثمان رضي الله عنه بشّره بالجنة^(٣) وغير ذلك .

وجماعة من أكابر الصحابة كأبي بن كعب لما قال له صلى الله عليه وسلم : « أي آية أعظم في كتاب الله ؟ » فقال : آية الكرسي ، قال له صلى الله عليه وسلم : « ليهنك العلم أبا المنذر »^(٤) .

وما ذكر به أبو قتادة وسلمة بن الأكوع يوم أُغِير على سرح المدينة^(٥) ، وغيرهم لما مدحه من مدحه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم . قال له : « قطعتَ ظهر أخيك »^(٦) .

فهكذا يكون تنزيل المدح وتركه على حسب حالة الممدوح ، إن كان كاملاً متمكناً ، لم يؤثر عنده مدح الخلق ظهوراً نفسياً واستشراقاً إلى حظّ . . فلا عليه فيه نقص ، وما دام يجد به ظهوراً في النفس ولم تدع حاجة إلى ذلك . . فتركه وكرهته من شيم الزهّاد والمریدین والعباد ، ومع كونه لم يؤثر في الإنسان فتركه أولى بكل حال ، إلا في مواطن يحتاج إليه يطول تعدادها .

ولي في ذلك :

- (١) رواه البخاري (٢٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٩٦) بنحوه عن سيدنا سعد رضي الله عنه .
- (٢) رواه البخاري (٣٧٠٦) ، ومسلم (٢٤٠٤) عن سيدنا سعد رضي الله عنه .
- (٣) رواه أبو داود (٤٦٤٩) ، والترمذي (٣٧٤٨) عن سيدنا سعيد بن زيد رضي الله عنه .
- (٤) رواه مسلم (٨١٠) عن سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه .
- (٥) روى مسلم (١٨٠٧) عن سيدنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه مرفوعاً : « كان خير قرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالنا سلمة » .
- (٦) تقدم قريباً بلفظ مقارب .

الزاهدون لهم حالٌ ومنزلةٌ تعطيتهم القبض إن فاهت به الغير
والعارفون كذاك المدح يبسطهم لكونهم خرجوا عن رؤية البشر

وللموحدّين علامات تُعرّف بها أحوالهم ، وثبتت بها مقاماتهم ،
وبها يخرجون عن المدّعين لمقامهم من غير تحقّق به ؛ فلذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

فَمَتَى كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطْتَ الْعَطَاءُ ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضْتَ الْمَنَعَ .
فَأَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى طُفُولِيَّتِكَ ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ

هذا ميزانٌ تعرفُ به ما أنت عليه من الحال ، فمن نصح نفسه ولم يكابر . . أنصف عندما تشاهده الدلالة وتشاهده العلامة من نفسه ^(١) ، فمتى كان بحظه لم يخرج عنه ولا انتزع منه . . فليتق الله في دعوى التوحيد وإخلاص العبودية ، فليسأل الله ويلجأ إليه أن يحقِّقه له ، ويلحقه بغمار أهله ، فإنه بعدُ لم يخرج عن حظ نفسه ، ولم يخلص العبودية لربه .

فمتى أُعْطِيتَ حَظَّكَ ونلت ما رُب نفسك . . بسطك العطاء لا المعطي ، فإذا مُنِعْتَ عن حظك ولم تنل حاجتك الناجزة . . قبضك المنع لا المانع ؛ فاستدلَّ بذلك - أي : بهذه الحالة - على طفوليتك في أهل الله .

والطفيلي : هو الذي يتطفَّل في الولايم من غير أن يُدعى إليها ، فينتسب أنه من أهلها وهو أجنبيٌّ عنها ، فيترك تكزُّماً من أهلها أو حياءً ، فالمستحيون منه نفوسُهُمْ تمقته ، والكرماء قلوبهم ترحمُهُ ؛ لما يرون من ضعف همته وسفاهته وقلة عقله ، وأول من تسمَّى بذلك رجل كوفي كان يُدعى طفيليَّ الأعراس ^(٢) .

وذلك أيضاً دليلٌ على عدم الصدق في عبوديتك ؛ لأن صدق العبودية

(١) أنصف من نفسه : أخذها بالعدل .

(٢) وكان رجلاً من أهل الكوفة من بني غطفان ، وانظر « التطفيل » للخطيب (ص ٦١) .

يعطي الصادق أن يكون مستغرق الهمّ في أوصاف معبوده ، ولا يفرق بين ما يصدر عنه من الأفعال ، فهو عنده في كل الأحوال ، فلا يكون إلا ناظراً إلى حسن تدبيره واختياره ، فانياً عن سائر الحفظ ، وقال : متى بسط العطاء ؟

أما لو كنت في بسطك - لأنه برز من حضرة اسمه الباسط - . . . فلا حرج عليك أن تنبسط بفعل ربك لا بالفعل مجرداً عن فاعله ، فكذلك بالقبض لو انقبض - لكونه أثر اسمه القابض - فلا حرج أيضاً أن ينقبض ؛ لما يعطيه الكشف من تجلّي الاسم القابض ، فيكون مع الفاعل لا مع الفعل .

فليفهم الفرق بين البسط والقبض بالله ، أو هما بغيره ؛ فأكثر المنتسبين إلى الطريق قد يظنون صدقهم في عبودية ربهم ، فإذا طرقتهم أمرٌ ممّا يناقض مرادهم أو يخالف حظوظهم . . . بان لهم غرورٌ دعواهم ؛ فعيبد الحروف الواقفون مع الظروف خاسرون ، وعن مقاصد الصدق ناكبون ؛ كما وصفهم في كتابه بقوله : ﴿ وَرَبِّ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدِّينِ ﴾ بفوات مراده ، ﴿ وَالْآخِرَةَ ﴾ بعدم صدقه في عبوديته ، ولي في ذلك :

متى تكون بما تُعطاه منبسطةً	وعند منع تكن بالقبض موصوفا
فاعلم بأنك طفيليٌّ بمذهبهم	كما يُرى ذاك بين القوم معروفًا
وليس لك في طريق الصدق مشربهم	فعبد حق تكن بالله مشغوفًا
لا يوحشك بلوى في محبتهم	ولا العطا بل لديه الكل مألوفًا

فإذا كان الكل فائضاً من حضرة فضله أو حضرة عدله . . فلا بد من تعاقب الأحوال على العبد بحسب ظهور هذه الأوصاف ؛ فلذلك لما علم الله أنه سيكون ظهور ما يناقض العبودية مما ضده الاستقامة عليها من المظاهر العدلية . . شرع التوبة ؛ لتنمحي آثار ذلك المظهر الطارئ على محل الفضل ، فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ .. فَلَا يَكُنْ سَبَبَ بِأْسِكَ مِنْ حُصُولِ الْأَسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ ؛ فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ

إذا وقع منك - أيها المؤمن السالك لطريق العبودية ، المتوجّه بقلبك إلى حضرة الربوبية - ذنب مما يناقض استقامتك على سبيل الهفوة والفلتة ، والذنوب تختلف باختلاف أحوال الخلق ؛ فمنها : ما هو من ذنوب الخاصة ، وتدقّ عن نظر العامة ، ومنها : ذنوب العموم ، وهو ظاهرٌ يعرفه كل أحد ، وهو إما ظاهرٌ من قبيل الأفعال الحسية ، وإما باطنٌ من قبيل الخطرات والنيات القلبية .

والذنوب حجابٌ عن مطالعات أسرار الغيوب ، وبها يكون التعوُّق عن نيل كل مطلوب ، وبسبب مقارفتها يكون البعد عن حضرة المحبوب . والذنوب منها : ما يكون بين العبد وبين الله سبحانه وتعالى ، ومنها : ما يكون بين العبد وبين العباد .

وما كان للعباد : إما أن يكون في دمٍ أو عرضٍ يدخل فيه كل ما يتألّم منه الإنسان ولو في أهله وأصدقائه ، ولا سبيل للخروج من حقوق العباد إلا بالأداء أو بالاستحلال ، فبذلك يخرج عن الإصرار الذي ينافي وجوده صحة التوبة ، وما تعدّر أداؤه - كأن لم يوجد صاحب المال ، أو لم يعرف عينه - . . فينبغي أن يتصدّق بقدره في وجوه الخير ، وينوي أنه إن ظهر صاحبه . . ردهُ إليه ، فبذلك يرجئ له صحة التوبة ، أو كان الذنب في العرض مما يُورث الاستحلال منه زيادةً نفرة . . فينبغي أن يستغفر لصاحبه ، ويكثر في مقابلته من الطاعات ، ويضرع إلى الله بصدق نية أن يرضيهُ عنه ، فالمرجو أيضاً : أن يرضيهُ وتصح توبته ،

هكذا إذا لم يبلغه ، وأما إذا بلغه . . فلا بدّ من استرضائه .

والدم : إما بالتمكين من استيفائه ، أو بالعفو على مال ، وعلى غير مال ، وبالكفارة إن كان قتلاً .

وأما ما بين العبد وبين الله . . فيكفي فيه التوبة بشرائطها ؛ وهو أن يعزم على ألا يعود إليه ولا إلى مثله ، فيقطع عنه حالاً ، ويندم على فعله .

ولا يترك التوبة لمعظم الذنب عنده ؛ فما عند الله من المغفرة أعظم ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والتائب حبيب الله ، ولا يتركها لخوف العود إليه^(١) ؛ فهذه خدعةٌ من خدع الشيطان ، يخدع بها الجهّال فييقون على الإصرار خشيةً العود عليها ، والإصرار أعظم من الذنب نفسه ، ولعلّ ذلك آخرُ ذنبٍ قدّره الله عليك ؛ فالذنب مقدور وما بقي إلا تائبٌ نادم ، ومصرّ قادم ، وأما نفس الذنب . . فلا يُشقي مَنْ سبقت له من الله عناية ، ولاحظته رعاية ؛ فقد جعل لك من كل ضيق مخرجاً ، فجعل مخرج التوبة من ضيق المعصية .

ووردت أحاديث في فضائل التوبة وآيات ، فمن الآيات قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُُّ التَّوَّابِينَ ﴾ ، وناهيك بها رتبة أرفع المراتب ، ومنتهى المطالب ، وهي التي وجدت بها الأطوار والعوالم ، وإليها تنتهي همم العارفين ، وتقيم فيها أسرار المقربين ، فهي أول مبادئ الطريق ، وغايتها نهاية التحقيق .

ومن الأحاديث النبوية القدسية : أن العبد إذا أذنب فقال : رب ؛ اغفر لي . . يقول الله سبحانه وتعالى : عبيدي أذنب ذنباً فعرف أن له رياً يغفر

(١) في النسخ : (ولا يتركه لخوف العود إليه) .

الذنب ويأخذه ، اذهب فقد غفرت لك ، وثانياً وثالثاً كذلك حتى قال :
قلبعل عبي ما شاء^(١) ؛ أي : ما دام يذنب ويستغفر .. فأنا أغفر له
حتى يتولّى فيصراً ويستكبر ، فعند ذلك يجازى العبد بصنيعه .

فالاستقامة بعد التوبة على حدّ العبودية غير مستبعدة ولا
مستنكرة ، والفرع والتوحش يحسن قبل فعلها ، وأما بعد الفعل ..
فلا أحسب ذلك إلا عقوبة فعلها ؛ وهو أن يسלט على العبد خواطر
تؤيسه من رحمة الله ، ويضيق صدره من محبة الله ، فلا ينبغي إلا
حسنُ الظن بالله ، فهو بعدها شأن الموقّنين من السالكين والعلماء
بصفات الله ، الواقفين على نظر تقدير الله ، وغالب حكمه الذي لا
رادُّ له ولا معقب .

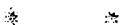
وعبّر المؤلف رضي الله عنه بقوله : (مع ربك) تأنيساً للعبد باسم
الربوبية الذي هو أخص أسماء الجمال ، وفيه مجامع العطف والرأفة
والرحمة .

فالرب هو الذي يربُّ ؛ أي : يرحم ويعطف ويرأف ، وهو سبحانه
رب العالمين ؛ أي : مالك كل العوالم وما فيها ، فهو ربُّ الأرباب ،
ولولا ربوبيته ، وسبوغ رحمته ، وشمول محبته لجميع خليقته ..
لهلك العاصي في ملابسة معصيته ، وذلك عدل ، وليت شعري ؛ من
الذي لم يبارزه بمعصية ظاهرة أو باطنة غير المعصومين ؟ ومع ذلك
لم يقطع عنهم إمداده ، ولا حرّمهم إسعاف جوده وإرشاده ، فسبحانه
ما أطفه وأعطفه !! ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا
مِن دَابَّةٍ ﴾ .

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فالذي لا يتصور منه الذنب لعدم تكليفه بمن حصل منه ، وإلا . .
فالكل مكلفون بتكليف القيام بحق الربوبية ولا قائم به ، فما قدره
غيره؟! فسبحان اللطيف الخبير!! ولي في ذلك :

لا يؤيسنك ما قارفت من زلل من استقامتك فإن الله تَوَّاب
فشأننا دائماً نعصي ممارسة وشأنك الفضل منك الدوب سَكَّاب



فالمطلوب من العبد : الاعتدال بين خوفه ورجائه ، وهما حالتان
ينشأن عن سببين ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا أَرَدْتُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الرَّجَاءِ .. فَأَشْهَدُ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ ، وَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الْخَوْفِ .. فَأَشْهَدُ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ

إذا أردت أيها السالك طريق الخوف أن يفتح .. تروِّح على قلبك بـرَّوح الرجاء ؛ لئلا يستولي عليه الخوف فيخرجه إلى القنوط من رحمة الله ، واليأس من روحه ؛ فلفتح ذلك الملكوتي سبب .
وأعظم ذلك وأقواه : أن تشهد ما منه إليك من الفضل والإحسان ، وسوايغ الرحمة والامتنان ، من غير سبق طلب لذلك ولا تعرُّض ، وما يواليك بعد الوجود من الإمداد ، وما أنت عليه من التقصير فيما أمرك ، ومقارفة ما نهى ، وقبول نوبة الخطائين وإن عظمت عليهم ، وذلك من غير استحقاق لأحدٍ عليه ، ولا في مقابلة عمل ، ولا مستقبل أمل ، بل فضل من الإله المفضل .

وتعبيره بالفتح ؛ لتعلم أنك لن تنال فتح أبواب الغيوب إلا بمعاملات أحوال القلوب ، والشهود لا يكون إلا بالاعتبار والإبصار القلبي ؛ فبالاعتبار يعبر من الشاهد إلى الغائب ، وعند فتح ذلك الباب تشرق فيه أسرار أنوار الجمال ، فلا يكاد يتماسك إليها ، ولا يعرج إلا إليها ، فهذه أول مبادئ الفتح ؛ التي من أسرار الجمال تلوح .

وإذا أردت أن تفتح بئاب الحزن الذي هو علامة الخائفين ، إن خشيت الوقوع في الرجاء حتى يخرجك إلى الأمن من مكر الله والإدلال على الله .. فأشهد ما منك من الذنوب ، والتلطُّخ بقاذورات قبائح العيوب ، وعند فتح ذلك الباب يغلب على المرید شهودُ آثار صفة الجلال ، من السلاسل والأغلال ، فيكسبه الذبول والاضمحلال ، تحت

محرقات مظاهر الجلال ، فلا يزال كذلك حتى يقول لسان حاله منشداً :

فَدَهَيْتُ بَيْنَ جَلَالِهِ وَجَمَالِهِ وَغَدَا لِسَانُ الْحَالِ عَنِّي مُخْبِراً^(١)

فهذه دهشة الفناء الكلي عن الوصف الخلفي ، والتعلق بالكمال

الحقيقي ، فيكون لسان الحال عنه مخبراً ؛ كما قال العبد في ذلك :

شاهد جمالك يورثني مخالجة تخامر القلب حتى تذهب الفكر

وشاهدات جلالك لا تبين له من حاله شاهد يظهر ولا خبر

وناب عنه كمال الله فاسأله عما بدالك مجلوؤ له النظر

إن كنت تطلب أن تشهد جلالته تجد معانيه عمت سائر الفطر



والعبد لا يزال يتحرى ما هو الأولى به وأقرب إلى الأدب في حضرة

ربه ، فالقبض أصل الحزن ، والبسط أصل الرجاء ، وعنه تظهر على العبد

علائمه ، فارتفاعه عن هذين الحالين كان نعته ووصف مقامه القبض

والبسط ؛ لذلك فرغ المؤلف كلامه عليه فقال :

(١) البيت لابن الفارض رحمه الله تعالى ، انظر «ديوانه» (ص ١٧٠) .

رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ الْقَبْضِ مَا لَمْ تَشْهَدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ الْبَسْطِ :
﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾

(ربما) تأتي للتقليل ، وقد تزداد للكثير ، وهنا المراد : بـ (ربما)
للتقليل ، أفادك الظفر بمقصودك ومرادك ، وسكونك في ليل القبض
الكفّ عن مناقضات مقام العبودية ، وهو - أي : الكف - قسيمٌ للسعي في
ابتغاء تحصيل الأوامر ، وقد يؤثرون الكفّ عن المنهيات ، مع السلامة
من الآفات ، على الإتيان بوظائف العبادات ، مع تطرق الآفات ، وتوقع
مصائد المهلكات ، وهذا نادر ، حيث عبّر بـ (ربما) ، والأغلب أن
الابتغاء يصحبه مزيد البركات ، ومفتاح أبواب السعادات .

فالتعبير بـ (الليل) للقبض ، وبـ (النهار) للبسطة .. من أبداع
العبارات ، وأوضح الإشارات ؛ فالليل : نعمته السكون ، والنهار : نعمته
الابتغاء ، و﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ ، فربما أفاد السكون من
السلامة ما لم تستفده في الابتغاء من الغنيمة ، ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ
الْأَيْلَ ﴾ ، فهو المقدمُ في الرتبة الخلقية ؛ لأن الأصل السكون والكمون ،
والأصل في الشؤون الحقية الإشراف والظهور ؛ فلذلك كان اعتماد طريق
العبودية الكف ، وجلُّ الصفات الحقية الابتغاء والترقي في المعارج
الوصفية ، وتعبيره بـ (رب) يحققه ما ذكرنا لك من تلك الحكمة
المصونة ، والدرة المكنونة .

ومن فوائد القبض الذي يحصل للعبد : ما يورده الحقُّ على غير
مقتضى الطبع وخلاف الهوى من البلايا والمحن ، من عظيم الأجر ،
وجزيل العطاء .

ولي في ذلك :

فربما يستفيد العبد مكرمةً في ليل قبضٍ فكن عني بذا خيرا
وفي شروق نهار البسط عافية لم تدر أيهما خير فتنتظرا
فكلما جا ففية أطفاف خافية ونعمة لذوي التحقيق والنظرا



فأنوار تجلي الحق سبحانه غير محسوسة ولا مدركة بالحواس
الظاهرة ؛ أعني أنوار ذاته وصفاته وأفعاله ، وإنما هذه الأنوار التي ترى
آثارُ ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَطَالِعُ الْأَنْوَارِ .. الْقُلُوبُ وَالْأَسْرَارُ

مطالع الأفلاك الحقية ، والصفات الأزلية ، والنعوت الذاتية .. القلوب المطهرة ، والأسرار المنورة ، التي لم تتلوث ببلوث الأغيار ، ولم تندس بنس الآثار ، قلوب الأولياء المقربين ، والصفوة الأخيار .

فالقلوب تتلقى واردات المواهب الربانية ، والعلوم اللدنية ، وتتقلب في حلل الأسماء الحقية ، والأسرار تتنزه في رياض الصفات العلية ، وتكبر في حياض المناهل الحبيبة ، واللطائف القريبة ؛ فنجوم العلوم ، وأقمار الإيمان ، وشموس الإحسان والشهود والعيان .. مطالعها القلوب ، وليس لها غروب ، كما تغرب الأفلاك الحسية ، ويطرأ عليها التغيير ، واختلاف التقدير بين كبير وصغير ، وإلى الفناء تصير .

وأنوار القلوب والأسرار ليس تتغير ، ولم تتلون ، بل هي متمكنة في سماوات أعلى الصفات ، وياقينة ليس لها انقطاع ، ولا لورودها امتناع ، تتجلى كل حين بكمال لا يتصوّر بمثال ، ولا يدخل تحت حيلة الإشكال ، وهذه قلوب عرفت مقاصد الحقائق ، ودقائق الطرائق ، لا يوثقها عن مقصدها العوائق ، ولم تنشبت بها ظلم الشهوات وقبور العلائق ، بل سارحة في رياض الأنس ، ومتبوءة فسيح حضرة القدس ، قلوب الأولياء المقربين ، الذين اصطنعهم لنفسه ، فلو بدت أنوارهم ، وأشرقت مصونات أسرارهم .. لتعطلت هذه الأنوار الظواهر ، ولولت فيها العقول والنواظر ^(١) .

(١) قال الشاذلي قدس سره : (لو كشف عن نور المؤمن العاصي .. لطبق ما بين السماء والأرض ، فما ظنك بنور المؤمن الطائع !!) . غيث المواهب العلية (١ / ٣٣٥) .

فسبحان من ستر سِرّاً اختصاصه في خواصّ عبادته ، وأدرج مضيئاته
أنوارهم وحجبهم عن عبادته في أكناف بلاده !! ولي في ذلك :

إن القلوب مطالع نور قدرته تطلع عليها طوابع نوره النضرا
كذلك السر يعطيه ويلبسه من وصفه العلم هو والسمع والبصرا
فلا تزول وإن زالت شواهداها على دوام وجود الله فاعتبرا



فأنوار القلوب مستمدها من أنوار الصفات ، كما تستمد النجوم
الفلكية من نور الشمس الحسيّة ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

نورٌ مُستودعٌ في القلوب ، مُدَّهُ النورُ الواردُ من خزائن الغيوب

نورٌ من نور وجوده سبحانه ، هبَّأ لما علم أنه يكون منه وله ، والنور : هو الوجود ، والظلمة : هي العدم ، وهذا نورٌ استودعه القلوب ، وجعله محلَّ خطابه ، وأرضاً لنزول ألوهيته ، ومستقر رحمته ، وظهور منته ، وهو المعبر عنه بالقلب حقيقة .

والقلب له معانٍ كثيرة ؛ فعند المحققين : هو ما ذكرنا من الوجود ، وعند علماء الطريقة : هو ما يظهر من آثار الأسماء ، وتنشأ عنه الحركات المدركات الحسية ، الدالة عليه هذه اللحمة الصنوبرية الكائنة في الجهة اليسرى من البنية البشرية ، والأطباء في علم التركيب يقفون عند هذه ويسمونها قلباً .

والكل راجعٌ إلى ما ذكرناه : أنه نورٌ وجوديٌّ يتلقى ما تجلَّى من أسرار الغيوب ، ويستمد من مجموع الصفات ، وهو الرُّوع الذي يتلقى الأنفاس القدسية . ويشهد به اللطائف الروحية السماوية ، والحقائق العرشية .

وبهذا ظهر شرف الإنسان على سائر الأكوان ؛ إذ لم يسع الحق سواه ، ولذلك قال سبحانه في بعض الأحاديث القدسية : (ما وسعني سماواتي ولا أرضي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن التقي النقي)^(١) ، فلا تزال الأنوار الوصفية عليه مشرقة ، وفي أرجائه مضيئة على دوام الديمومية الحقية .

(١) انظر «شرح المواهب» للزرقاني (٤٦٧/٥) ، وفيه خير رواه أحمد في «الزهد» (٤٢٣) عن وهب بن منبه رحمه الله في خير حزيق النبي عليه السلام : (إن السماوات والأرض ضعفن هن أن يسعني ، ووسعني قلب المؤمن الوداع اللين) ، وهي سعة المعرفة .

ولي في ذلك :

نور اليقين بسرِّ القلب مودعة تمدها من ظهورَ أوصافها الحكم
فمجمّل الأمر يقبله مشاهدة بفضلِه في معاني أحرف الكلم

فالنور من نورِ باطنٍ في القلب تدرك به أسرار الغيوب ، ونور ظاهر
من أثر اسمه الظاهر ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَن آثَارِهِ ، وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَن أَوْصَافِهِ

نورٌ يكشف به عن آثاره في أرضه وسماائه ، وفي آفاق جهات مبتدعاته ، وهو من الأنوار العامة الفلكية ؛ كالشمس والقمر والنجوم والفجر والشفق ، وإما محصورة مخصوصة من جملة الحركات الأرضية كالنار ، ولا بد لهذه الأنوار من نور ظاهر يقبلها ؛ كنور البصر الظاهر ، وهي - أي : هذه الأنوار الظاهرة فيها اعتبار ودلائل للواقفين على مشاهد الضوء - تدلُّ على وجود موجد لها ، وتدحض حجة المعاند لبارئها ؛ كما قال سبحانه في حجة خليله على من ادعى المشاركة في الألوهية حيث قال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ ونذب العباد إلى النظر في بديع حكمته ، وباهر قدرته في غير آية من كتابه ، هذا في الأنوار الظاهرة المحسوسة .

ونور باطن مخصوص به ذوو الأسرار الظاهرة ، والأرواح الزاهرة ، والوجوه الناضرة ، التي إلى ربها ناظرة ، وذلك النور هو نور وجوده ، وبه يكشف عن حقائق شهوده في دوام وجوده ، كما كشف بنور البصر الظاهر عن الأنوار الظاهرة ، فإذا لم يكن في الأعيان الظاهرة إبصار .. فماذا تغني عنه الشمس والأقمار؟! وإذا لم يكن في البصائر الباطنة أنوار .. فماذا يدركه الاستبصار؟! وماذا يغني عنه ظهور الحقائق والأسرار؟! ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

فالنور المجمعول هو الذي هيأه لقبول نور وجوده ، وأمله لتجلي

شهوده ، فما يقبل أسرار تجليه إلا حقائق أنوار توليه ، ولي في ذلك :
نور الظواهر يكشف ما يؤثره في الكون من سائر الأجسام والصور
ونور باطن يكشف غيب قدرته ويشهد أوصافه في باطن القدر

فالأنوار الغيبية والأسرار القلبية آثار اسمه الباطن ؛ كما أن الآثار
الخلقية أثر اسمه الظاهر ، فهما في الغيرية سواء لمن يتقيدَ بظواهر
الآثار ، أو وقف عند مشرقات الأنوار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه
حاكياً عن الوقوف مع ما يظهر له من الأنوار :

رُبَّمَا وَقَفَتِ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَنْوَارِ ؛ كَمَا حُجِبَتِ الْنُفُوسُ بِكَتَائِفِ الْأَغْيَارِ

(ربما) للتقليل ، فقليلٌ من يقف مع غير الله بعدما يكشف له عن صريح العلم ووفور المعرفة ، والقلوب وقوفها عندما يظهر لها من الآيات ، ويلوح من الكرامات . . حجابٌ ، لكنه حجابٌ نورانيٌ لطيف . ووقوف النفوس مع مقتضى الطبع والهوى ، والانغماس في ظلمات الشهوات ، والانقياد للعادات . . حجابٌ كثيف ، والنفس من حيث طبعها الحيواني الأرضي ظلمة ، فكان حجابها مما يشاكلها من الشهوات الحيوانية ، والعادات البشرية ، والقلب من حيث وضعه نوراني ، فكان حجابها الوقوف مع الأغيار ، وإن كانت من قبيل الملاحظات والأنوار .

والوقوف مع غير الله كائناً ما كان . . حجابٌ عنه ، ومطلب الصادقين الفناء عما سواه ، ومن أنفسهم وشهودهم^(١) ، وأحوالهم ومعارفهم وعلومهم ، ومقاماتهم وكراماتهم ؛ فلا يقف بهم عن مرادهم مراد ، ولا يوثقهم دون محبوبهم وثاق ؛ فالمريد سهمٌ خرج عن قوسٍ لا يقف دون غرضه ، وكل ما عارضه من المشغلات . . قطعه ، وكل ما بقي عليه من الحظوظ . . وضعه ، ولا يلتفت عن مقصده ، ولا يقرُّ دون مآخذه .

والخلق في أصل إرادتهم مختلفون بحسب اختلافهم فيما سبق لهم من الأقسام ؛ فمنهم : من لا يقسم له إلا في العمل بمقتضى مقام الإسلام ، ومنهم : من يكون مستقر سيره إلى حالة الإيمان .

ومنهم : من يكون له شهودٌ حضرة الإحسان ، والتجلي بحلي ملابس

(١) كذا في النسخ ، ولعل الأقرب : (وعن أنفسهم وشهودهم) أو بحذف واو العطف ، والله أعلم .

الشهود والعرفان ، ومبتدأ سلوك كلِّ من سرِّ مقامه يحذيه إليه ويزجِّيه فيه ؛ فلا يتعدَّى به عنه ، وكلِّ مقامٍ أعلى .. فقد أحرز ما دونه ، وزاد بما اختصَّ به من الزلفى .

وكثيرٌ ممن يقف ثم يتدارك بعناية : إما بأن يكشف له في سرِّه ما يزيل التباسه ، وبحقيقته بحجبيته ، فيأخذ في الطلب إلى المقصد ، ومنهم : من لم يكشف له عن ذلك من نفسه ، ولكن يُقيض الله له من يأخذ بيده من ورطته ، ويعزِّفه أن تَمَّ مطلباً أرفع مما هو مقيمٌ عليه ، ويدنيه الله بواسطته إليه ، ويرزقه القبول لذلك ، ويقيِّضُ على يديه من ظهور سرِّ العناية ما يستدل به على علو مقامه ، وصحة كلامه .

ومنهم : من يقف ولا يأخذ ممن أتاه ، ولا يهتدي إلى المقصد المطلوب بنفسه ، فيبقى يتردَّد في مفازته ، ولم يظفر بمقتضى إرادته ، ولي في ذلك :

فربما يقف القلب السدوح على ما لاح له من بها الأنوار والعبير
كما تقف تَمَّ نفسٌ عند مطلبها من حظها الأرضي الموصوف بالغير

فإذا تحققت أن أنوار القلوب والسرائر أبهى وأعلى من أنوار الظواهر ، وأجلُّ وأسنى .. فلماذا ظهر الأدنى واختفى الأعلى ؟ كما قال المؤلف منبهاً على حكمة سترها بكثائف الظواهر ، فقال رضي الله عنه :

سَرَ أَنْوَارَ السَّرَائِرِ بِكَتَائِفِ الظَّوَاهِرِ ؛ إِجْلَالاً لَهَا أَنْ تُبَدَّلَ بِالْإِظْهَارِ ، أَوْ
تُنَادَى عَلَيْهَا بِلسَانِ الْإِشْتِهَارِ

(ستر) أي : غطى وحجب أنوار السرائر التي سبق ذكرها ، التي
مطالعتها القلوب ؛ كنور الأسماء والصفات ، وتجلي كمال الذات ، على
قلوب الأنبياء والصّديقين المقربين ، والسادات الأولياء العارفين ، أهل
حقّ اليقين وعينه وعلمه ؛ الذين لو كشف نور أديانهم . . لغطى نور
الشمس الذي هو أعظم الأنوار الظاهرة ، وقد غطى هذه الأسرار ،
ومشركات الأنوار بكثيف البشرية تحت أصداف الغيرية ^(١) ، وحجبها
عن النظر بمباني الصور ، وذلك حكمة منه وغيره على جنابها ، وصوناً
لحسنها وجمالها أن ينال غير أهلها ، وبقاء على عرائسها العزيزة ،
ومناصبها الحريزة أن يبتذلها الأجانب ، ويتهكها الأساقب ، فلا يكشف
نقابها ، ويرقى جنابها إلا من كان من خطّابها ، ولا يداني صبرها إلا من
كان من أحبابها ، ومرتضعين ^(٢) بأمر أصعابها ، فيغار على إظهار كل
نفيس ، ويصرّ على إشهار كل أريس ^(٣) ، فأشهار ذلك وإظهاره لغير
أهله نقص من قدره ، وكل نفيس لا بد له من صوان ، فسبحان العليم
الحكيم ، ولي في ذلك :

سترت أنوار أسرار الوجود كما يكون كل عزيز القدر محبوب
وذلك حكمة علام الغيوب فما في حكمة الله في الأشياء معتوب



(١) في (أ) : (العير) بدل : (الغيرية) .

(٢) كذا في (ب ، د) ، وغير واضحة في (أ) .

(٣) في (أ) : (عن إشهار كل أريس) بدل : (على إشهار كل أريس) .

وأنوار السرائر مجلاها وكهف اكتنافها قلوب الأولياء المقربين ،
والأبدال المحبوبين ، أهل عين اليقين ، أهل الشهود والتمكين ؛ لذلك
نعتهم بنعته ، ووصفهم بوصفه لما توالت عليهم الأنوار ، وغمرتهم
الأسرار ، فكانوا عن نعوتهم وأوصافهم الخلقية فانيين ، وبأوصافه ونعوته
الحقّية باقين ، ويصفاء جمال حضرته متصنّعين^(١) ؛ لذلك أصفاهم ،
قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) غير واضحة في (أ) ، وهكذا رُمت في (ب ، د) ولعل الأقرب : (متصنّين) .

سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْمَلِ الدَّلِيلَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ حَبْتِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ !! وَلَمْ
يُوصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ !!

(سبحان من لم يجعل الدليل عليهم) أي : الأولياء والسادات
البدلاء ، والعارفين الأصفياء ، والمقربين الأخفياء ، تنزّه وترفع أن يوصل
إليه بغيره ، أو يستدل عليه بسواه ، فلم يجعل لأحدٍ إلى معرفته سبيلاً
إلا بما تفضّل به ، وتطوّل من إفاضة منته ، وأسبغ من عميم رحمته ، ما
دلّ به من سبقت له منه عناية ، وغمرته منه ولاية ، فأفاض عليه من أنوار
الطافه وأسرار أوصافه ما أشعر بوجوده ، وحقّق للعارفين شهوده ، وأمدّد
قلوب أوليائه بأنواره وجنوده ، فلاحت لهم كواكب العلوم ، وأشرقت
عليهم بدور الفهوم ، وطلعت عليهم شمس المعارف ، وتجلّت لهم
الحقائق ، وتنزّلت عليهم من سماوات الأسرار المواهب واللطائف ،
فكانوا بها متّصفين ، وبجمالها متميّعين ، فذهلوا عن وجودهم عند
تجليّ شهودهم ؛ فلذلك اصطفاهم ، وبحبّه وسابق لطفه تولّاهم
وأدناهم ، فكان له من غيرته عليهم ستر ، وفي ملكوته بين الملائع الأعلى
ذكر ، فنزّههم بتنزيهه عن أن يوصل إليهم بسبب دونه ما أوصل به إليه
من سابق عنايته وتلطفه وولايته ، فلم يوصل إليهم إلا بما يوصل به إليه
من لطفه وعنايته .

(ولم يوصل إليهم) أي : إلى التحقق بمقاماتهم ، والكروع في
حياض معارفهم ، والدخول في غمار طوائفهم (إلا من أَرَادَ أَنْ يوصله
إليه) أي : بالتحقق لمعرفة ، والتمتع بشهوده ومحبّته ، ويدخله
في أهل وُدّه ، والجذب إلى الترقّي إلى فسيح حضرته مع خاصته ،

الصالحين لخدمته ، العاكفين بقلوبهم على الإقبال بالغدو والأصال ،
المختصين بالتولي والإجلال في جميع الأحوال ، أهل الهمم العوال ،
والأدباء في جميع الأحوال والأقوال والأفعال ؛ فمعرفةهم بمعرفته ،
ومحبتهم بمحبته ، ووصلتهم بوصلته ، ولكنهم طبقات :

فمنهم : من يظهره الله رحمةً للعباد ، وغيثاً ومربعاً للبلاد ،
ويصلح الله بهم الخليفة ، ويوضح بهم المحجة ، ويقوم بهم الحجة
على من استكبر وتولى عن الله وأدبر ، فيمشون بين الناس بالنصيحة
الخالصة ، ويدعونهم بالكلمة الجامعة ، ويؤلفون العباد على الله ،
ويحبونهم إليه ، ويحبونه إليهم ؛ كما ورد بذلك الخبر^(١) ، فهم البقية
الذين ينهون عن الفساد في الأرض .

ومنهم : من أظهره الله للخاصة دون العامة ، فيه تتعشق أسرارهم ،
وإليه تدنو ، وحوله تطوف وتحنو ، وتستمدُّ من روائحه نسائم
الوصال ، وتجنِّي من دوحته ثمار الحكمة ، وتقتبس من جذوته
الأنوار ، لا تعرفه الأغمار ، ولا تظفر به الأغيار ، ولم تستعبده
العوائد ، يبدو لمن أذن الحق له بالتقريب ، وهو عن الأغيار غريب ،
وللطالبيين قريب ، قد جعل الحق عليه قباً ، ونصب له في الملكوت
محراباً ، وجعل جنود الأنوار له أحزاباً ، والقلوب مآباً ، يسوق الله
إليه من أراد من عباده ، ويكتنفه بستر غيرته بين أكتاف بلاده ، وهم
الذين برؤيتهم يذكر ، وغيره بحضورهم ينكر ، يفرون منهم مطموسو
البصائر ، كما يفرون الخفاش من إشراق الشمس البواهر ، لكل أحد

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٠٣) في زيادات نعيم ، وينحوه عند الحاكم في
«المستدرک» (٥١/١) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

عند رؤيتهم مثال ، يظهر عنهم حقيقته ، وتستبين به طريقته .

ولو أخذنا في وصفهم ، وبسطنا الكلام في فسيح نعتهم . . لما وجدنا إلى الانتهاء سبيلاً ؛ لأنه سبحانه ألبهم من خلع أوصافه ، وأفاض عليهم من أنوار ذاته ، فمن الذي يقدر على أن ينعت ذلك؟! فما يعرفهم حق المعرفة غيره ؛ كما أنه واهب أسرارهم ، وموضح أنوارهم ، ومتولّي أفعالهم في إقبالهم وإدبارهم ؛ فهم أصفياؤه من خليقته ، والمخصوصون بمنّته بين برئته ، أوجدهم وأوجد لهم ، فسبحان المتفضّل المتّان ، والمتعطف الحثّان .

وقوم أظهرهم له دون أن يظهر لخاصةٍ وعامةٍ ، فلم يعلم ما بينهم وبينه غيره ، فيغيبون عن الملائكة الكرام ، ولم يعلم بهم أهل كل مقام ، يلقونه بما أودعهم مصوناً فيتولّى أمرهم ، فلم نظفر بهم الأكوان ، ولم يرههم الزمان ، قد ستروا في كهوف الأمن والأمان ، معشعش أرواحهم عرش الرحمن ، غائبون عن الأكوان ، مهيمون في جمال ذاته ، لا إخبار لهم بسواه ، ولا يشهدون في الدارين إلا إياه ، لا تعدو عليهم الأغيار ، ولا تطمع فيهم جنة ولا نار ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر الرحمن .
ومعرفة الأولياء لمن يريد سلوك منهجهم واتباع أثرهم من أخص ما منح به المرید ؛ وذلك بأن تطوئ عنه الصفات البشرية ، وتظهر له صفات الخصوصية ، وإذا أراد الله حجاباً عمّن أبعد عن بابه . . طوى سرّ الخصوص في صفة البشر ، كما عنه أخبر عمّن كفر وعن الحق استتر : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ ، فمعرفة سر الخصوصية في الإنسان غامضٌ عن العيان ، لم يدركه إلا نور إيمان ، وشروق عرفان ، وتحقيق بيان .

وأما معرفة الله .. فيعرفها الشقلان ؛ لما هو عليه من وضوح الظهور الذي لا ينكر ، والتحقيق الذي لا يستر ، الذي بهر عقل من لربوبيته أنكسر ، ولألوهيته جحد واستكبر ﴿ قَانَ اللَّهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لما من سِرِّه استأثر ، وطوى من نور خصوصيته تحت سجب البشر ، الذي حجه به صاحب الحجة ، فلو هُدي إلى سِرِّ ذلك .. لبهرته الشمس الإبراهيمية ، المحجوبة في الصورة الخلقية ؛ إذ لو ظهرت .. لعنت لها هذه الشمس الظاهرة ، ولخفيت عندها الدور الباهرة ، فانظر إلى عظيم قهره ، وعزیز أمره ، كيف حجب هذه وبهت من هذه ، فما أعظم غباوة المنكرين لشموس الإنسانية ، والخصوصيات الحقانية ، والتنزلات الرحمانية ، التي تستمد منها سائر العوالم ، وتحيا بوجودها سائر العوالم !!

أرواحهم عمد السماوات العلوية ، وأشباحهم رواسي الأشباح الأرضية ، وأنفاسهم مجاري الأقدار ، وتمتدُّ عنها ساعات الليل والنهار ، وبها تدور الدوائر الفلكية ، وتجري الأرزاق المائية ، إلى الأرواح الهوائية والترايبية والمعدنية والنبات والحيوان ، وتثبت بوجودهم الأديان ، وتقوم ظواهر الأبدان مظهر سِرِّ رحمانيته ، ومشهد سرِّ أنسه ، ولكنه سبحانه بحكمته ورحمته بخليقته سترهم ؛ إذ لو أظهرهم وبسِرِّه أشهرهم .. لَمَا كان لأحد أن يأتي على خلاف ما أشاروا إليه ، ولو أتى ذلك .. فقد باء بغضب من الله ، ولَمَا كان لأحد عليهم نعمةً يتقرب بها إليهم ، ولهلك كل من احتقر ، وفي إجلالهم قصّر في حال وقته ، ولم يؤجر من اصطنع إليهم معروفاً ؛ لأنهم مظهر ألوهيته ، وبواطنهم تجلي هويته .

فأين من تمده ومن أنت تخاطب؟! وبين يدي من تحاور، وإلى من أنت ناظر؟! ولكن ستر سرّ الخصوص عن الأبصار والعيان، ولم يظهر منه إلا قدر يحصل به الإيمان لمن اختصّه من عباده .

وإلى ما ذكرنا أشار الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه حيث قال: (لو ظهر سرُّ الولي . . لعُبِدَ)^(١) فهم العرائس المخدرون في حجال الأنس، ومخادع الحضرة، ينظر الله بسرّ عنايته، وتوالي أنوار نظرات، وينادون في الأقطار بالتحيات، عليهم من الله أفضل السلام والبركات^(٢)، تحفُّ بهم المن والألطف في السر والعلن، وتشمل من حضر المواهب السنية، والفتوحات الهنية، ولي في ذلك :

قوم إلى الملأ الأعلى تشوفهم تظهر لهم في رياض القرب آيات
إذا دجى الليل تلقى حين تسمعهم إلى مليك لهم في الذِّكر رنات
وفي القلوب لواعج شوق سيدهم والوجد بيدي ويجري فيض عبرات
تسمع زفيراً إذا أرخوا أعنتهم من النحيب وفي أحيان أنات
فهذا السرُّ العجيب، والنازح القريب، والأهل الغريب . . سيح
المؤلف في ذلك متعجباً، وله متطلباً، مع أنه ما غاب فيطلب، ولا
ظهر فيعرب، بل هو الموجود، وما سواه مفقود .



واعلم : أن الإطّلاع على أضرب من حيث الكشف ؛ فمنه : ما هو
على الآيات والمعاني ، ومنه : ما هو على الغيوب الخمسة : الغيب

(١) غيث المواهب العلية (١ / ٣٣٥) .

(٢) في قولك : (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) .

العرشي ، والغيب الكرسي ، والغيب الملكوتي ، والغيب الجبروتي ،
والغيب السماوي ، وكل غيبٍ من هذه الغيوب يظهر شاهده في الدار
الآخرة صورةً تشاكله ، وفي عالم الدنيا تظهر صورة ممزوجة بما لا يعطى
كشفها على التمام ، فلذلك مظاهر في الإنسان والغيب الإنساني ، إذا
انكشف . . أدركت فيه سائر العوالم ، وقد يكشف عن العوالم هذه ولم
يدرك كُنَّةَ عالم الإنسان ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

رَبِّمَا أَطْلَعَكَ عَلَى أَسْرَارِ مَلَكُوتِهِ ، وَحَجَبَ عَنْكَ الْأَسْتِشْرَافَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ

ربما فتح لك وأطلعك وكشف غطاءك ، وفي رياض الملكوت بؤاك ،
وبأسرار تدليه وتوليه أسعفك ووالاك ، وحجب عنك الاستشراف على
أسرار العباد من سوابق الأقدار ، ولواحق الاقتدار ، فيذاع ما ستر^(١) ،
وبغيبه وعلمه استأثر .

وأسرار العباد يحتمل أن تكون ما ستر فيهم من سابقة القضاء
المقدور ، والعلم المأثور ، وأن منهم تقياً وكفوراً ، وبرا وفجوراً ،
وشاكراً وكفوراً ، ومقرّباً محبوراً ، ومبعداً مثبوراً ، وقد أودع الله في
غيب سرائرهم ومكنون ضمائرهم ذلك ، فبالاستشراف عليها ينهتك
هذا الحجاب ، وينحل نظام الشرائع ، ويظهر مستورات الودائع ، فينظر
بالعلم الموضوع ، والأمر المشروع ، والخبر المسموع ، كما سيصرح
بذلك .

وإما أن يكون المراد بأسرار العباد من تقدّم ذكرهم ؛ لعزة ظهوره ،
فذلك أيضاً جائز أن يراد ، كيف ولو أطلعك على أسرارهم ، وحققتك
بشهود أنوارهم ، ثم غطّي أمرهم؟! وكيف لو تحقّق سرهم ، واستهان
شانهم؟! لكان ظهورهم على من لم يتأهل لمقامهم حجة ، ولكن من
رحمته جعل ليل بشريتهم سترأ لنهار ظهور نهار وجودهم ، وغطاء كثيفاً
على شمس شهودهم .

وأسرار الملكوت : ما في غيب السماوات ، وما حوته ألفاظ العبارات ،

(١) كذا في النسخ الثلاث ، ولعل الأقرب : (فلا يذاع ما ستر) .

وأومت إليه الإشارات ، وتصور في مرآيا الخيالات ، من المعائب وصور
المعاني ولطائف الأرواح ، فهذا كله وغير ذلك مما لا يدخل تحت
العبارة .. ملكوت .

والأسرار : هي لطائف معانٍ تتشكل على حسب الأطوار من لطيف
وألطف ، فمن الأطوار : النفس والقلب والروح والسر ، وهي تحكي
سرَّ العرش ، وسر الكرسى ، وسر السماوات والأرض ، وأسرارُ العباد
تتشكل بحسب ما سامته من العوالم الغيبية ، والعوالم الغيبية تتلقى
عن الأسماء الحقية ، ولا بدُّ لكل اسمٍ من مشهدٍ في الأسرار ، وأثرٍ في
الآثار ، فبحسب تغايرها تتغاير أسرار العباد ، ولي في ذلك :

فربما أطلع الله المرید على أسرار ملكوته المحجوب بالأثر
وسرَّ الله أسرار العباد لكبي يراع ما صانه من سابق القدر^(١)
فلو بدا من علوم الغيب كامنه ما بان في الكون للأغيار من أثر



فإذا تمكَّن العارف من معرفة الله ، وتحقَّق بصفات الله ، وأن الأشياء
المقتضيات مراد الله ؛ لم يَجْرِ شيءٌ في الأكران على خلاف إرادته ..
علم أن له حكمة فيما قضى ، وعلم فيما أمضى ، فلا يكون معها إلا
كما [أراد] الله لها ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في (ب) : (يذاع ما صانه من سابق القدر) .

مَنْ أَطَّلَعَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ ، وَلَمْ يَتَخَلَّقْ بِالرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ . . كَانَ أَطْلَاعَهُ
فِتْنَةً عَلَيْهِ ، وَسَبَبًا لِحَزْرِ الزُّوَالِ عَلَيْهِ

مَنْ أَطَّلَعَ وَكُوْشِفَ بِأَسْرَارِ الْعِبَادِ ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحُكْمِ الْمُرَادِ
فِيهِمْ ، مِمَّا حَتَمَ فَعَلَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ فَعَلٍ يَلَامُ عَلَيْهِ الْعِبَادُ ، وَيَسْتَحَقُّ
بِهِ الْعِقَابَ وَالْعَتَبَ وَالْعَذَابَ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ ، الَّتِي جَرَتْ عَلَى أَيْدِيهِمْ
أَسْبَابُهَا ، وَظَهَرَتْ مِنْهُمْ اخْتِيَاراً . . قَرِيباً يَذْهَلُ عَنْ سَابِقِ الْعِلْمِ فِيهِمْ ،
وَحُكْمِ الْمَشِيئَةِ عَلَيْهِمْ ، وَيَكُونُ وَاقِفاً عِنْدَ مَا مِنْهُمْ ، فَيُدَاخِلُهُ عَتَبُ
عَلَيْهِمْ .

وكيف وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخلُّق بأخلاق الله ؛
من الرحمة والعطف ، والرأفة والحنان ، بقدر ما عند الإنسان ؟! فمن
حقه : أن يرحم المذنبين ، ويعفو عن الخاطئين ، ويكرم الخلق على
قدر ما هم عند الله ؛ فإن الله سبحانه وله الحمد لم يقطع مدده عن
العصاة المذنبين ، ولم يعاجل الفجَّار وعتاة الكفار ؛ حلماً منه وصفحاً ،
بل يكون رحيماً بالمؤمنين ، راحماً للمذنبين ، يسعى فيما يقترئهم من
ربهم ، ويُغفرهم عما يباعدهم عنه ، مع ما باطنه عاقد عليه أن الأمر ليس
إليهم .

ومن ذلك : ما شوهد من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه
قد علم بتعليم الله له ما كان وما هو كائن^(١) ، وكان يكافح وينافح
في الله إقامةً لدين الله ، وإحياءً لسنة الله ، ولم يمنعه ما علمه منهم
من سوابقهم ، ولا تظنن أن من رضي بالمعاصي والفساد في الأرض أنه

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٣) بنحوه عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

موافق فيه مراد الله ، كلا ، إن الله لا يرضى لعباده الكفر والله لا يحب الفساد .

وهنا حصل غلط القدرية - قَبَّحَ اللهُ رأيهم - فجعلوا الأمر هو المراد ، ولم تكشف بصائرهم عن أن المراد قد يكون من آثاره الغضب كما تكون المحبة ، فلا يكون عاصياً غير مرید له ، ولا يكون راضياً غير مرید ، فالإرادة كل ما تعلقت به .. سُمِّيَتْ به ^(١) .

ولله في المراد حِكْمٌ يختصُّ به دون خلقه ، ولهم أثر من ذلك ، يكونون ببواطنهم شاهدين لوصفه وكمال نعته ، وبظواهرهم ممثلين لأمره .

ومن لم يكن كذلك - أي : متخلِّقاً بالأخلاق الإلهية - .. فاطلاعه فتنَةٌ عليه ؛ لأنه إذا شهد ما من الخلق وغفل عما من الله كما مر .. كان مدعياً ما ليس له من الكمال والعزة والكبرياء ، فيرى له عليهم فضلاً من غير نظر إلى أن منة الله وعنايته هي التي خصصته ، كما أن مشيئة الله في ذلك العاصي .. هي التي حكمت عليه بما سبق وحق من كلمته ، فحقه : أن يخاف أن يحكم عليه كما حكم عليه ، وأن يقع فيما جرى القدرية عليه ، فحقه : الرحمة واللجأ والاستغاثة في أن يحفظه من الوقوع في ذلك ، ويترك الدخول فيما بين العباد وسيدهم ؛ فحسابهم عليه ، وجزاؤهم عليه ، فله فيهم ودائع ، ولديهم صنائع ، لا يعلم العباد ما هي عليه لتخلقه من الرحمة والرأفة والحنان والعطف والامتنان ، ولو علموا ذلك .. لما عصوه ، ولكانوا لأمره طائعين ، ولجنابه مؤثرين ،

(١) والحاصل : أن المحبة والبغض والغضب والرضا هي أوصاف لتعلقات الإرادة ، لا للإرادة نفسها ، والتعلق حادث كما لا يخفى خلافاً للصفة .

ولكن حجّبوا عن ذلك بكثيف حجاب الجهل ، فهو يطلبهم وإن
أدبروا ، ويرحمهم وإن جفوا ، ويتكرّم عليهم وإن بخلوا ، وأي فتنة
أعظم على الإنسان من رؤية نفسه على خلق الله؟! وأي بلية ووبالٍ أشد
من الدعوى في فعل من الأفعال دون الكبير المتعال؟!

فإذا لم يتمكن المرید في العرفان ، وكوشف بأسرار العباد . . فریما
یكون كشفه سبب البعد والافتتان ، ولي في ذلك :

سر العباد مصون لم يشاهده إلا حفيظ على الأسرار يكتمها
ومن رآها ولم يرحم ملبسها ففتنة ووبال الخزي أقربها



ولما كانت النفس هي الحجاب الأعظم فيما بين العبد وبين الله ،
وما ذاك إلا بما ابتليت به من الحظوظ الظاهرة والباطنة ، فلها في كل
شيء حظ . . لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

حَظُّ النَّفْسِ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ ، وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ ؛
وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صَنَبٌ عَلَاجُهُ

الحظ : من حيث هو كل ما اطمأنت إليه النفس وسكنت إليه ، وكل
حظ مانع عن الوفاء بحق ؛ فالحقوق مطالبة بها النفس لله ، وهي من
شأنها النفرة عنه ، والاستنكاف منه وإن كان في ظاهر الحس محبوباً
والسعي فيه يسيراً ، والحظ يُستخَفُّ وإن كان مؤلماً ثقیلاً .

وحظوظ النفس في المعاصي ظاهرةٌ يعرفها كل أحد ، بل قد تعرف
النفس قبحة في حال السعي فيه ؛ فمداواته يسيرةٌ يعرفه كل أحد ، فأبي
علاج واجهه . . رُجِّي شفاؤه به من سقم المعصية ، وحظُّها في الطاعة
باطن خفي لا يعرفه إلا السماسرة الحُدَّاق من أهل الأذواق ، الذين
أحرقت كثائفَ ظلمات قلوبهم نيرانُ الأشواق ، فعندما يصفو القلب
من لوث الهوى ، ويتحلَّى بحلية الوفاء ، وتعلق بالمولى . . ظهر له ما
استكنَّ فيها من تلابيس الهوى ، فما يزال الصادقون يتفقدون أحوالهم
في تلبُّسهم بأعمالهم ، فكلما رأوا النفس سكنت إلى عمل . . نقلوها
إلى غيره ، فإن استوت عندها الطاعات وكانت لله . . لم تستخفَّ أمراً
على غيره إلا لزيادة تظهر لها ؛ إما بإشارة خفية إلقائية ، وإما بنص بيان
ودليل برهان .

ومن مكاييد النفس وخدعها : المسارعة إلى النواقل قبل أداء ما وجب
من الفرائض ، وطلب أمر كثير ، وترك أمر قليل ؛ وذلك لحظ يظهر فيه
بحسب حظرية ظهورها ، ولهذا لأنه لا يظهر لها فيه براءتها ، فتستخف
الكثير الشديد ؛ لما فيه من حظها الخفي ، وتستثقل ذلك القليل ؛ لخلوه

عن الحظ ، ومن تفقد أحوالها وصدق في البحث عن قبيح أفعالها ..
وجد أعظم طاعة مشوية بحظ ومدخولة بهوى ، إلا ما تفضل المولى
وتطوّل به من عفوه الواسع العظيم ، وفضله الفائض العيم .

وكلما كان الداء أخفى وأعضل .. كان العلاج أصعب وأشكل ،
ولكن للصادقين عليها شواهد ، وفي سائر الأعمال مقاصد ، لا تزال
معايير الحقيقة عليها منهم منصوية ، ونواظرهم إليها مصبوبة ، فلا تميل
عن صوب الحقيقة إلا ظهر لهم اعوجاجها ، وإن كانت فيما تدعيه طاعة
فيردونها بحسن سياسة إلى الطريقة المثلى ، ويقومونها على المحجة
السمحاء ، فبذلك تزكت أحوالهم ، وصلحت أعمالهم ، واستقام لهم
النهج القويم ، ومشوا على صراط الاستقامة سراعاً ، ونصب لهم في
سفينة النجاة سراعاً .

وأما من كان مبتلىً بالحظوظ النفسانية ، ومقيداً بالشهوات الحيوانية ..
فلا تستقيم لهم الأحوال ، بل ينفخ في غير ضرم ، ويستسمن منها كل
ورم ، ولي في ذلك :

حظوظ نفسك في العصيان ظاهرة مشهورة لا مِراً فيها ولا جدل
ويختفي عندما تمدح بمكرمة على الجهول بما في ذلك من علل

وأعض من ذلك : أن تجتهد في دوائك من عضال دائك ، فتجهل
الدواء ، فتنتع بالاسم دون تجربته ، فيكون لقصور فهمك وكلال علمك
كما ظننت أنه دواء داء ما له دواء ؛ بأن تستأنف ما أنت فيه وتبتديه ،
فتأتي إلى طيب لبيب أديب يعرف مقاصد الدواء ، وحمية الداء ، وهذا
أصعب مما قبله ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَاءَ عَلَيْكَ ، مِنْ حَيْثُ لَا يَنْظُرُ الْخَلْقُ إِلَيْكَ

(ربما) لقلّة هذا النوع وخفائه ، وقلّة من يتفطن له ويتيقظ ، ودخول الرياء في الأعمال دقيق ، والرياء محببٌ للعمل ، وصادٌّ عن بلوغ الأمل ، وهو أعرضل داء يبتلى به المریدون ، ويمزج العمل على العاملين (١) ، وهو بقدر ما يدخل على الإنسان منه . . يدخله في النفاق ، وصرفه صرفُ النفاق الذي هو أشد طرق الكفر والشقاق ، ومزجُه سيما العصاة والفساق .

والرياء : هو أن يعمل العمل الذي يراد به وجه الله لغير الله ، فظاهره أنه يبتغي به وجه الله ، وباطنه يريد به غيره ، وهو يجري في سائر الأعمال الظاهرة ؛ بأن يظهر مثلاً الخشوع وهو غير خاشع ، أو التكرم أو غيره من سائر أعمال البر ، فلا خفاء أن ذلك من أقبح الأحوال أن يراني الناس بأعمالٍ هي لله .

والرياء : مأخوذٌ من الرأي ؛ وهو الذي يعمل بمرأى من الخلق لتكون له المنزلة في قلوبهم ، فلا جرم يصدق عليه قوله تعالى : ﴿ يَرَاهُ النَّاسُ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، وقوله : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ بصورة العمل له ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بإظهار ما هم بخلافه ﴿ وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ويضاده الإخلاص ؛ أي : إخلاص العمل لله ، فالإخلاص مؤذن بقبوله ، وموصلٌ إلى لقاءه ، والرياء المحض محببٌ ونازلٌ بصاحبه إلى دركات البعد .

(١) يمزج : يخلطه فيتغير فيفسد ، ومنه في الحديث : «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر . . لمزجته» .

وإذا توارد الأمران .. فالأغلب يكون أقرب بالعامل إليه ، وأبعد عن صاحبه ، ولكن يحط في الترقى إلى الدرجات بحسب ما لابسه ، ويرتفع عن الدرجات بحسب ما خالطه ، وإذا استوى الأمران .. تساقطا ؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة .

ولكل طبقة رياء فيما هي فيه عند من يعتدُّ به ، ولكن أكثره دخولاً على القراء الذين يُكْرَمون عند الناس ، ويُبْتَرَك بهم ، ويسعى لخدمتهم .

وعلامات الرياء الجلي .. ظاهر لا يحتاج إلى كثرة بيان ، وأما الرياء الخفي .. فله علامات عند أرباب البصائر المنيرة .

فمن جملتها : حُبُّه بأن يعرفه الناس أنه يحب ألا يعرفه الناس ، واستشعاره بتعظيمه عند الناس ، وأن له منزلة على غيره من خلق الله ، وأنه مستوحشٌ من الخلق ، هاربٌ من شرهم ، وما ذاك إلا لغموض عيوب النفس عليه ، فلو تفقّد غوائلها .. لوجد أن الخلق لم يسلموا من شره .

فمن ذلك - وهو أعظمها - : سوء ظنِّه بعباد الله ، واستحسانه أحواله ، وقد كان الصادقون يفرحون بمذمة الناس لهم ، ونفرتهم عنهم ، واتخذوا لذلك أشياء مباحة تسقط منزلتهم عند العوام .

والسلامة من دقائق الرياء عسيرٌ جداً إلا على من أيده الله بنور التوحيد ، فيرى الخلق كالعدم ، لا يرجو منهم نفعاً ، ولا يخاف منهم ضرراً ، فعند إياسه منهم تصفو أعماله ، وتخلص من الشوائب وإن كان بين أظهرهم ، وما لم يتأيّد بنور المعرفة ، ويشاهد صرف التوحيد .. فلا يخلو ، وإن دقَّق وأنصف .. وجده مقيماً على مقتضى موافقة الطبع

والهوى ، وناظراً إلى حب المدح والثناء ، وطلب الأعواض والجزاء
أحسن أحواله .

وقد علمت أن ذلك يقدر في إخلاص العبودية لله سبحانه ، حتى
يكتب قلمُ اليقين سطورَ الإيمان في دَسْتِ القلب ، فعند ذلك يحصل
التأييد للروح ، فيخلص عن رؤية الأوهام ، ويوافي الأعمال على التمام ،
ولي في ذلك :

فربما يدخل الشرك الخفي على مباين الخلق بالأشباح والصور
مخالط لهوى حظ يقوم به يخامر القلب يطلب رؤية البشر



ومن دلائل الرياء الخفي ما سيذكره بعد ؛ حيث قال رضي الله عنه :

اسْتِشْرَافَكَ أَنْ يَغْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ . . دَلِيلٌ عَلَيَّ عَدَمِ صِدْقِكَ
فِي عُبُودِيَّتِكَ

استشراف القلب واستشماره : إعلام الخلق بخصوصيته ،
والخصوصية : كل ما اختصَّ الله به عبده من المواهب والمنح ، وما
يفتح به عليه من الفهم في العلوم ، وما تفضَّل به عليه من عطائه
وإحسانه ، واجتباؤه واصطفائه له وتقريبه في غمار أهل حضرته .

وأصناف الاختصاص لا يحاط بها ؛ لكثرة وجوهها ، فمتى اختص
عبداً بخصوصية ، فأحبَّ أن يطلع الخلق عليها . . فذلك دليلٌ على عدم
صدقه في عبوديته لربه ، ونقص توحيده ، وعدم مزیده ؛ حيث لم يكتفِ
بنظر الله إليه ، وشهد الأغيار ، وأثبت الآثار ، وآثرها بالنظر ، واكتفى بها
دون الاكتفاء به ، وكان من حقه أن يكتفي به دون غيره ؛ فكيف وهو
تعالى يقول : ﴿ أَوْلَىٰ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ
اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ وهو أن يكتفي بنظر الله دون خلقه .

ومن لم يكن وافر المعرفة ، كامل التوحيد ، ولم يتفقد معاهد
الإخلاص . . خيف عليه الانخراط في ملك المبعدين ، والانزواء في حيز
الغافلين ، فيصانع الخلق بما ليس فيه ، ويدّعي من الأحوال والأعمال
ما لم يدره ، ولم يخلص فيه ، فإذا لم يصدق الله في الأحوال . . وقع
في الكذب والتصنع ، وإذا لم يخلص لله في الأعمال . . وقع في الرياء
واتباع الهوى .

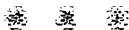
وقد كان الصادقون يظهرون ما يُحَقِّرهم عند الخلق ، ومهما وجدوا
إلى إخفاء العمل سبيلاً . . لم يعلنوه ، ويالغون في كتم أحوالهم قدر

إمكانهم ، حتى كان أحدهم تمضي عليه أعصار لم يطلع عليه أهله ،
ويبالغون في إسقاط محلهم عند الخلق ؛ لهذا ما داموا في شهود
الخلق .

وأما بعد تحقيق الفناء ؛ فإن أبقاهم . . تولأهم ، وإلى كنف ولايته
أواهم ، وجعل على قلوبهم سرادقات عنايته ، وعلى أسرارهم قباب
محبه ؛ كيلا يتطرق إلى أسرارهم هوى ، ولا يخامر قلوبهم رياء ، فأول
ما تلمح أسرارهم سرُّ وجوده في الأشياء ، وأجلُّ ما تشهد أرواحهم
بها حسنةٌ وبديع جماله ، وأعظم ما تنظر قلوبهم إلى قيوميته ، وفيض
اقتداره ، وبلوغ حكمته ، فلا تُرائي ما ليس له في نظرها وجودٌ عند
تجلي الحق المشهود ، فيستوي الإخفاء والإظهار ، والإعلان والإسرار ،
بل قد يكون بهم لغيرهم اقتداء ، وإلى طريق الحق اهتداء ، فيكون
إعلان أعمالهم لهم فيه الزلفى ؛ كما كان للعمل المتعدي على القاصر
على العامل ما لا يخفى من تضعيفه أبداً ؛ ما عمل به واهتدى .

ومن هنا : لا تنقطع أعمال الأنبياء ، وسادات العارفين ، وأكابر
العلماء ، ومرادهم : إن كان ذلك إليهم أولم يكن ؛ كقوله : ﴿ مَا كَانَ
لَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الخفاء ، ولكن لما تحقَّقوا بصفو العبودية . . لم يختاروا
عليه ، بل هم وقوف على اختياره ، إن أظهرهم وأظهر علمهم . . فهم
غائبون عن أفعالهم وأوصافهم وذواتهم ، شاهدون فعل سيدهم ووصفه ،
وتجلي أنوار ذاته ، ولي في ذلك :

إذا طمعت بإظهار تكون به عند الخلائق مشهوراً فذاك ربا
فلا دليل على أمر تكون به أدل من شمسٍ ظهر في وجود ضيا



فالخلق لا يخرجون عن القلب إلا بوارِدِ إلهي يشهد الحق ويبطل
الباطل ، وما سواه باطل ، وما لم يخرج الخلق عن نظر المرید . . لم
يتخلَّص من الآفات ، وإذا أظهر الله سرَّ العناية . . أشهد أن لا نافع ولا
ضارَّ ولا معطي ولا مانع إلا الله ، فيكون معرَّله على من بيده ما يرجوه ،
ولديه ما يؤمِّله ، ودفع ما يخشاه ، وأنه عالمٌ بسرِّه ونجواه ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

عَتِبَ نَظَرَ الْخَلْقِ إِلَيْكَ ، بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ ، وَعَبَّ عَنِ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ ،
بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ إِلَيْكَ

عَتِبَ شُهُودَ تَحْقِيقِكَ ، وَدَقَّةَ عِلْمِكَ ، وَوَفُورَ فَهْمِكَ . . نَظَرَ الْخَلْقِ
الَّذِينَ أَصَالَتَهُمُ الْعَدَمُ ، وَفَصَلَهُمُ الْعَجْزُ ، وَانظَرَ إِلَى كِمَالِ وَصْفِهِ
سُبْحَانَهُ ، وَعَظِيمِ نَعْتِهِ ، وَحِقَارَةِ مَنْ دُونَهُ ؛ بِشُهُودِ وَحِدَانِيَّتِهِ ، وَانْفِرَادِهِ
فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَصِمْدَانِيَّتِهِ فِي وَحْدَتِهِ ، وَكِمَالِ أُلُوهِيَّتِهِ ، وَإِحَاطَةِ رُبُوبِيَّتِهِ ،
وَكَانَ عَلَى نَظَرِهِ إِلَيْكَ مَعُولًا ، وَلَوْحِدَانِيَّتِهِ مُشَاهِدًا ، وَعَلَى فَضْلِهِ مَعْتَمِدًا ،
وَبِأُلُوهِيَّتِهِ مَتَعَلِّقًا ، وَبِصِمْدَانِيَّتِهِ وَائْتِقًا ، وَلِرُبُوبِيَّتِهِ مُحْتَسِبًا ، وَلَمَّا مِنْهُ
مُنْتَظَرًا ، وَعَنِ الْأَغْيَارِ غَائِبًا ، وَعَنِ الْحِظُوظِ فَانِيًا ، وَلِمَصَائِدِ الْمَهَالِكِ
مَجَانِبًا ، وَكَانَ بِنَظَرِهِ مُكْتَفِيًا .

وَاعْلَمْ : بِأَنَّ مِنْ نَظَرِ إِلَى الْخَلْقِ وَطَلَبِ رِضَاهُمْ . . لَمْ يَصِلْ إِلَى غَايَةٍ ،
وَلَا يَرْجِعُ إِلَى نَهَايَةٍ ، فَلَنْ يَفْلَحَ مَنْ نَازَرَهُمْ ، وَلَمْ يَنْجَحْ مِنْ عَامِلِهِمْ ؛
فَإِنَّ مَنْ طَلَبَ رِضَاهُمْ وَأَثَرَ جَنَابِهِمْ . . لَمْ يَرْضَوْا عَنْهُ ، وَلَمْ يَنْصُرُوهُ ،
وَأَسْلَمُوهُ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهِمْ ، وَمَنْ وَالَى اللَّهَ وَنَاصَرَهُ وَنَازَرَهُ وَعَامَلَهُ . .
كَفَاهُ عَنْهُمْ ، وَصَرَفَ أَعْيَابَ تَكْلِيفِ مَرَضِيَّتِهِمْ ، وَأَرْضَاهُمْ عَلَيْهِ .

وَالصَادِقُ لَا يَبَالِي إِذَا صَلَحَ حَالُهُ ، وَحَسَنَتِ أَعْمَالُهُ بِإِقْبَالِ مَنْ الْخَلْقِ
وَلَا إِدْبَارِ ، وَلَا مَدْحِ وَلَا ذَمِّ ، بَلْ قَدْ يُوَثِّرُ ذَمُّهُمْ عَلَى مَدْحِهِمْ ، وَمُبَايَنَتُهُمْ
عَلَى مُوَاصَلَتِهِمْ ، وَخَشُونَتُهُمْ عَلَى لَطْفِهِمْ وَمُحِبَّتِهِمْ ؛ لَمَا فِي ذَلِكَ لَهُ
مِنَ الْمَزِيدِ ، وَصَفْوِ الْوَقْتِ عَنِ الْمَكِيدَاتِ وَالْآفَاتِ الدَّاخِلَةِ عَلَى مَنْ
انْتَصَبَ بَيْنَ الْخَلْقِ ، وَعَرَفَ لَهُمْ مِنْهُ الْقَبُولَ ، فَيَرَى عَلَيْهِمْ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ
حَالَةً تَبَايَنَ حَالَةَ الْآخَرِ ، فَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَعَامَلَ كُلَّ إِنْسَانٍ بِمَا يَنَاسِبُ ،

يطول في ذلك عناؤه وتعبه ، ويحتاج إلى علم وافر يمشي عليه يكون له صراطاً على متن جهنم كل نفسٍ ، ويتحفظ عن شوكتها المتخطفة ، وآفاتها المتلطفة .

والغيبية عن الأعمال ؛ فغيب عن نظرهم إلى أعمالك بنظر الله إليها ، وما يعلمه منها ، فجردها عنده وحققها لديه ، وغيب عن إقبالهم وتعظيمهم لك على ما ظهر لهم من حسن أحوالك بإقبال الله إليك ؛ فأين تعظيمهم من تعظيمه ؟! وما يضرُّك إذا ذمَّك الخلق ومدحك الخالق ؟! وما عسى ينفعك إذا مدحك الخلق وذمَّك الخالق ؟! فمدحه لك يجمع فيها سائر المحامد ، وذمُّه يجمع عليك كل المذام ، ولي في ذلك :

غَيَّبَ شهود وجود الخلق عن نظرك بمشهد الواحد الحق الولي الصمدا
ولا يغرك إقبال يكن خبرك إن الخلائق لا تسدي إليك يدا
فالله يدنو إلى نجواك في سحرك كفاك إن كنت تعقل عنه سرُّ هُدَى

ثم أرشد المؤلف إلى برهان كلامه غيبة الخلق ، بوجود الملك الحق ، فقال رضي الله عنه :

مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ . . شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ فَنِيَ بِهِ . . غَابَ بِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ أَحَبَّهُ . . لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئاً

هذه براهين العارفين ، ودلالات المقرّبين ، وسيما المحبّين .
فأما من عرف الحق بالوجود الدائم ، والشهود اللازم ، وعرفه من طريق العلم بوجود ذاته وصفاته وأفعاله ، وغناه وافتقار الأشياء إليه افتقاراً اضطرارياً في قيامه إلى مقيم ، وفي تحريكه وتسكّبه إلى محرّك ومُسكّن ، وفي حياته إلى محيي ، وفي مماته إلى مميت ، وفي وجوده وبقائه إلى موجد وميتّ ، وفي جموده وكل ما كان من أحواله ، لا شك في أنه إذا حقّق ذلك العلم ، ونظر إليه بعين التحقيق . . أن يرى الله في كل شيء بالتصريف والافتقار كيف ما كانت الأحوال ، وكلما اختلفت الأطوار والأفعال ، وسر ألوهيته حاكمة ، واستمرار قيوميته دائمة .

ومن ترقّى عن ذلك ؛ ففني عن شهوده وأن غيره شهد ، فيكون العبد محوّاً في وجوده ، فيكون هو الشهود والشاهد والمشهود . . غاب - لا محالة - عن الأشياء ، فأين وجود الأشياء عند وضوح تجلّي مُوجدها ومُنشئها؟! فلا يقوم العدم إذا تجلّى سرُّ القدم ، فإذا قارنه . . اضمحل وانمحل عن القلب وهمية وجوده ، وتصور شهوده .

ومن أحبّه . . لم يؤثر عليه شيئاً ، فيعول على إقباله أو إداره ، بل يكون بكلية همّته مجموعاً على مرضاة محبوبه ، ومنكمشاً في إدراك منيته ومطلوبه ، فلا يؤثر الأشياء بإقبال أو شهودٍ على الإله المعبود ، ولي في ذلك :

من كان مشهده العرفان يشهده في كل شيء بلا حدٍّ ومقدار

بل ذاك علم وجود الحق فاقصده إن كنت تطلب فاكشف عنه أستار
ومن به قد فني عن كُنهِهِمَّتِه غيَّبَ شهرد السوي في جنب قهار
ومن أحبَّ إله الخلق يُكسبه ألا يؤثّر على حضرته أغيار
فإذا طلبت أن ترى الأغيار .. لم تَر لها وجوداً .

فإن قلت : إذا لم يكن للأشياء وجودٌ .. فلماذا حُجبت عن الحق بما
ليس موجوداً ؟
فنقول : إنما حجب الحق عنك شدة القرب ؛ كما قال المؤلف
رضي الله عنه :

إِنَّمَا حَجَبَ الْحَقُّ عَنْكَ . . شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ

فما تَمَّ حجابُ إلا شدة القُرب ، كما احتجبت صورة الهواء عن النظر ؛ لشدة قربه ؛ فالبعد حجابٌ عن الصور المحسوسة ، والقرب حجابٌ عن المشاهد ، والحقُّ أن ليس تَمَّ سوى الحق ، فلا غيرَ يطلب ، ولا وجود ينسب ، ولا بعد يقرب ، ولا قرب يبعد ، بل معيته استغرقت سائر المشاهد ، وفني الشهود والشاهد ، فلم يبقَ إلا الموجود الواحد ، فإلى أين تطلب وجوداً زائداً فلا تجد .

فارجع عنك إليه تجده حاضراً ، وإليك ناظراً ، وفيك أمراً ، ولك زاجراً ، فأنت مصدر الحضرات ، وإليك انتهت حقائقها ، ومنك صعود عروج تكويناتها ، في بروج سمائها وأفلاكها ، في تنزيه صفاتها ، وتقديس ذاتها ؛ فلها الإحاطة ، ومنها دوائر المحيطات ، وارتفعت طباق السماوات ، وانفتحت أقفال صور المكونات ، ولي في ذلك :

الحق حقٌّ فلا تخفى مظاهره وأنت تطلب إدراكاً بلا بصير
قد كلٌّ دون شهود الذات ناظره ففي الجنان يُرى حقاً بلا صور
فكيف يدرك في دارِ دوائرها تضيق عن كنه ما يستودع النظر

فشدة الظهور قد تكون حجاباً في بصر الناظر إلى المنظور ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِنَّمَا اِحْتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ ، وَخَفِيَ عَنِ الْأَبْصَارِ لِعَظَمِ نُورِهِ

إنما احتجب ولم تدرك العقول كيف احتجب ، ولا يكيف كيفية الإدراك ، فذلك غير مستبعد كما تراه في تأثيره في دائرة الأفلاك ، فكلما كانت أشد ظهوراً ، وأعظم في الإشراق نوراً . . كانت عن التكيف أبعد ؛ وذلك لا لشيء في نفس فلكه ، ولكن لعدم احتمال الأبصار لفائضات نوره ، فلم يقوَ على النظر ، ولم يحتمل شدة الضياء ضعيف البصر ، ولي في ذلك :

فليس تَمَّ حجابٌ فيه يعتبر ولا ستور محيطات ولا غِير إلا ظهور على الآفاق مشتهر لاحت عجائبه في هيكل الصور



فإذا عرفت كماله وكمال صفاته ، ونفوذ إرادته ، وأن علمه السابق ، وحكمه اللاحق . . علمت أن أفعال العباد كلها لا دخل لها في إيجاد ولا إعدام ، ولا إقدام ولا إحجام ، وقد جعل الله بحكمته البالغة بعض الأمور تقارب بعضها في الوجود ، مثل الظفر بأمر يطلبه العبد ، أو يطلب مثلاً صرفه وقد سبق أنه سيعطيه عند ذلك أو يصرف عنه كذلك ؛ فالدعاء ليس سبباً لوجود عطائه الأزلي ، ولكنه عبادةً مستقلة جرت سنة الله أنه يعطى عنده ، وقد يكون الدعاء لأمر ويعطى الداعي به غير ذلك مما هو أصلح له ، فإذا عرفت إن دعاؤك . . إلا محض عبودية ، فادعُه ؛ لأنه أمرك ، قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا يَكُنْ طَلْبُكَ سَبَباً إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ ؛ فَيَقِلَّ فَهَمُّكَ عَنْهُ ، وَلِيَكُنْ طَلْبُكَ
لِإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَقِيَاماً بِحَقِّ الرَّبُّوبِيَّةِ

لا يكن طلبك أيها المرید الطالب من الله المزيد ، ففوض إليه الأمر فيما تريد ، وليكن طلبك ودعاؤك وتضرعك امتثالاً لأمره ؛ حيث ندبك لذلك وأمرك ، فقال : ﴿ أَذْعُونِي ﴾ فكن داعياً له ، وقال : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ فكن مضطراً بائساً بين يديه ، فانياً عن حظوظك ، فارغاً عن مرادك ، مفوضاً إليه جميع حوائجك ، راضياً بما أنزله بك .

وعلامه من يدعوه كذلك : ألا ينتهي دعاؤه ووقوفه بباب سيده ومولاه بما نال من مآربه ، وظفر به من حوائجه ، فإن نقص اضطراره عند ذلك وانتهى دعاؤه .. فهو داعٍ لحظه ، لا قائماً بعبودية سيده ، ولا مؤدياً لحق ربوبيته ؛ لأنه لم يزل لك رباً وأنت له عبداً ، ومتى تنفك عنك ربوبيته حتى تترك أنت عبوديته ؟!

وأما من كان عبداً لله .. لا يزيله اضطراره إليه وإن أعطي كل فضيلة وبلغ منتهى كل وسيلة ؛ فهو مضطراً إليه ، ومحتاجٌ لِمَا لديه ؛ فهذا مشهد أهل الفهم عنه ، الذين أُبْدُوا بتأييده ، ووقفوا لهديته وتسديده ، فلا يزالون وقوفاً ببابه ؛ لا يصرفهم عنه وجود عطاء ، ولا يوثقهم دونه ورود بلاء ؛ فعندهم أكبر العطايا ساعة يشهدون اضطرارهم بين يديه ، ويتحققون بافتقارهم إليه ، فلا يتقيد بوجد ولا فقيد .

ولقد نبهك على سوء أدبٍ مَنْ يدعوه عند نزول بلائه ، ونسيانه عند

كشفه عنه ، فقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُكُمْ فَلَمَّا
يَحْمِلْكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَا أَنْتُمْ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضْتُمْ وَنَحْنُ بِجَانِبِهِ
وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدَّوْا دُعَاءَ عَرِيضٍ ﴾ .

وقال في وصف من دعاه عبودية له ووفاء : ﴿ وَأَنْتُمْ لَنَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ
يَدْعُوهُ ﴾ فذكره بوصف العبودية ، ولم يقل : دعا لكذا ولا من كذا ، بل
قال : ﴿ قَامَ ﴾ إشارة إلى أنه قيام بحق ربوبية سيده ، ويقوله : ﴿ عَبْدُ
اللَّهِ ﴾ وفاءً بحق عبوديته ؛ فهذا مشهد الفهم عن الله في كلامه ، وتلقي
ورود إلهامه .

وأما المحجوبون بالخطو ، الموسرمون بالإعراض في جميع ما
يعاملون به الخالق والخلق . . فهم يعدُّ محبوسون في مضيق الجهل ،
محجوبو العقل ، فنسأل الله حسن الفهم عنه ، ودوام التلقي منه ، ولي
في ذلك :

إذا سألت فكن بالله مشتغلاً عن كل حظٍّ فهذا موضع الأدب
واقنع إليه تكن لله ممثلاً دون أن تنال الذي ترجوه من أربٍ

فالعبد حادث ، وما منه حادثٌ موسومٌ بالحدوث ، والحق قديم ،
وأوصافه وجميع أفضيته ومعلوماته . . معلومةٌ له قبل إيجاد أعيانها
وبروز ألوانها ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه مستشهداً بأن الأفعال
الحادثة الخلقية لا توجد إلا وسببها الأفعال القديمة الحقيقية ^(١) ، فقال
متعجباً ممن يظن ذلك :

(١) أطلق الأفعال وأراد متعلقها من القدرة والإرادة والعلم ، وهي القديمة ، أو أنه نسب
الفعل إلى الذات تمييزاً عن أفعال العباد ؛ يعني : أفعال الذات القديمة .

كَيْفَ يَكُونُ طَلْبُكَ الْأَلْحِقِ سَبَباً فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ !؟

هذا مما لا يتصور في العقل ثبوته ؛ فلو كان كذلك . . لتصور وجود المتسبب عن السبب ، ولا قائل بذلك ، ولكان الحادث قديماً والقديم حادثاً ، وذلك هو من منشؤه انطماس نور العقل ؛ فالعبد وما منه حادث ، والحق قديمٌ موجودٌ في علمه ؛ أي : معلوماته ، فهو أبداً وأزلاً حضرة علمه مشهودة له بجميع شرائطها وأسبابها ، وأنها ستكون كذا في حال إيجادها وإبراز صورها ، مقارنة لكذا وقتاً ومكاناً وحالاً ، فصح أن : ما الدعاء إلا امتثالاً للأمر .

وقد علم سبحانه أن بعض القضايا مقارن وجودها وجود ذلك الدعاء ، وقد يكون المراد من الدعاء عند الله غير المراد منه من العبد ، وما كان من مراد الله . . فهو الأصلح للداعي ، فعليه المثول بين يدي السيد الكريم ، وهو يفعل ما أَرَادَهُ ، لا يُرَجِّحُ مراده على مراد ، بل يكون راضياً كما سبق ذلك ، ولي في ذلك :

فكيف ما كان بالحدثان موسوم يكون موجود ما في العلم مرسوم
هذا لعمري لا يحكم به أحدٌ إلا خبيلاً عن التحقيق مزكوم

فالأحكام الأزلية لا تنضاف إلى الأسباب الخلقية ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

جَلَّ حُكْمُ الْأَزَلِّ .. أَنْ يَنْضَافَ إِلَى أُلْعَلِّ

جَلَّ وتَعَظَّم وتَقَدَّسَ حكم الأزل الحَقِّي ، الذي تسميه الطائفة أزل الآزال ؛ وهو العلم القديم الذي برز من الذات ، فتمين للذات قبل بروز سائر الصفات ^(١) ، فعلم الحق نفسه ، وعلم أوصافه وأفعاله ، ومؤثرات صفاته وأفعاله قبل بروزها علماً لا يدخله نقص ، ولا مجموع عن فحص ، ولا يتبدل بزيادة ولا نقص ، فهو القول الذي لا يبدل ، والحكم الذي لا يتحوّل ، فكيف ينضاف إلى العلل الحادثة ، أو يستند إلى الآراء المتخالفة؟! تقدّس عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ، ولي في ذلك :

حكمٌ تقدّم في الآزال مظهره فكيف ينضاف للأغراض والعلل
فالحكم لله لا يُسندُ إلى سببٍ جَلَّ الإله عن الآلات والحيل
ذو الحول والطول والشأن الرفيع وما لا يدرك الخلق جَلَّ الله عن مثل



فالحق سبحانه وله الحمد يرى مقادير الأمور وأحكامها قبل إيجادها ، وظهور أحوالها وأعمالها ، فكيف تستجلب بحيلةٍ أو تنال بوسيلةٍ؟! لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) قوله : (سائر الصفات) أي : من غير ذاته سبحانه وتعالى ، أما ذاته وصفاته .. فقديمة أزلية ، والبروز والتعيين بمعنى التجلي ، لا أنها لم تكن ثم كانت ، تعالى القديم وصفاته عن الترتيب الدال على الحدوث ، فهو تقدّم ذهني لا زمني .

عِنَايَتُهُ فِيكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ ؛ وَأَيِّنَ كُنْتَ حِينَ وَاجِهْتَكَ عِنَايَتُهُ ، وَقَابَلْتَهُ رِعَايَتُهُ ؟ لَمْ يَكُنْ فِي أَرْزَلِهِ إِخْلَاصٌ أَعْمَالٍ ، وَلَا وُجُودٌ أَحْوَالٍ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَحْضُ الْإِفْضَالِ ، وَعَظِيمُ النَّوَالِ

(عنايةه فيك) التي خصصتك ودبرت أمورك ، وأظهرتك من محض العدم في سابق القدم ، (لا لشيء منك) مما تظن أنه لك موصلاً ، ولسعادتك محصلاً ؛ من أعمالك وصفو أحوالك ، ولا لشيء يرجع إليه منك ، فلا يفتقر في غناه إلى زيادة استكمال بوجود الأعمال ، بل ثبت غناه عن العالمين كلِّ ما يطلق عليه اسم عالم ؛ وهو ما سوى الله .

فإن قلت : إن مني إليه عمل زكي ، أو حال مرضي .

قيل لك : وأين كنت حين لا حين ؛ [حين] واجهتك بالإيجاد عنايةً ، وقابلتك بالتخصيص رعايته ، وأنت بعدُ لم تكن شيئاً مذكوراً ؟ فإياك والدعوى على شيء يكون منك ؛ فذلك أقبح وجوه الجهل أنك تنسى كونك عدماً ، واعتنى بك فأوجدك وأوجد منك ولك ، ثم تقول : أنا ومني ولي .

وقد سمعت شاهد ذلك في غير آية من كتابه ؛ فمنها دليل عدميتك قوله عز من قائل : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ عَلَىٰ إِلْهَاسٍ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَئِنَّكَ لَشَيْءٌ مُّكْوَرٌ ﴾ بل لم يكن هناك - يعني : في الأزل - لا حال ولا عمل ، وما هناك إلا محض - أي : خالص - الإفضال ، من غير امتزاج بتوهم علة ، أو سبب سالم عن شوائب الدعوى ، وتلبس العلل ، فلا أبين من كونه تفضّل عليك وأنت معدوم لا روح ولا سوح ، وعظيم نواله الذي لا يقابل .

ومن جملة ذلك : الإيجاد ، وصنوف التعم والمنن ، وتوالي الإمداد ،

التي يعجز عن إحصائها غير مُنيلها والممتنّ بها ؛ من التّعَم الظاهرة والباطنة التي سبقها عميم كرمه ، وأوجدها عظيم طوّله وإحسانه ، وأبرزها ضافي منته قبل ظهور تركيب خليقته ، بروز اليوم الخلقى السماوي والأرضي ، والكواكب والأقمار ، وظلام الليل وإضاءة النهار ، بل لم يكن في حضرة العندية الأزلية ليل ولا نهار ، كما أشار إليه الحديث ؛ أشار بقوله : « ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار »^(١) ، ولي في ذلك :

عناية الله في الإنسان سابقاً قبل البروز ليوم الخلق فاعتبر
قد واجهتك عنايةً منه واصلة وقابلتك مزايا الفضل في السورِ



هذا سابقٌ قبل تكوّنك ، فإذا التفت الخلق إلى هذه العناية الحقية في الرقعة البشرية .. دلّهم ذلك على تخصيص مشيئته ، وقد علم الله العباد قبل إيجادهم ، وعلم ما يكون منهم ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٧٩/٩) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَيَّ سِرَّ الْعِنَايَةِ فَقَالَ : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ،
 وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ . . لَتَرَكُوا الْعَمَلَ ؛ اعْتِمَاداً عَلَى الْأَزَلِّ ، فَقَالَ :
 ﴿ إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

علم سبحانه بعلم لا يدخله نقص ، غير مكتسب عن فحص نظر ،
 بل ذلك وصف من أوصافه العلية ، ونعت من نعوته الأزلية ، وحضرة
 العلم أوسع حضرات الصفات ؛ لأنه سبحانه علمه يشمل الواجب
 والجائز والمستحيل ، ويعلم الأشياء جملةً وتفصيلاً ، ولا يكون لغيره
 أن يعلم الأشياء على التفصيل .

وقد علم سبحانه أنه يخلق خلقاً ويسمهم بوسم العبودية العامة
 والعبودية الخاصة ؛ وهم إما روحانيون علويون ، وإما أرواح سماويون
 عنصريون ، وإما أرواح هوائيون وأرضيون ، وإما أشباح ذوات أرواح
 آدميون ؛ وهم المراد هنا - والله أعلم - من كلام المصنف .

فعلم أنهم يتشرفون إلى ظهور هذه العناية الأزلية ، والرحمة السابقة
 بالحيل والأسباب ، والترتب بالأحساب والأنساب ، فقال سبحانه كاشفاً
 عن جهل من توهم حصولها بشيء من ذلك : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
 السَّابِقَةَ ، وَمَنْتَهُ اللَّاحِقَةَ ﴾ من يشاء ؛ من غير علّة ولا سبب ؛ فلمشيئته
 التخصيص لما أتقنه العلم ، فبرزت على من اختصه مقترنة وملتبسة
 بسبب من مظاهر قدرته في أعيان خليقته ، وقد تظهر مجردة عن التلبس
 الخلفي ، والمزج الوهمي ، فتسميه الخلق وهيباً ، وتسمي الأول كسبياً ،
 والكل تخصيص أزلي ، لا بعلة ولا لعة ، ولا لسبب ولا بسبب .

وعلم أيضاً سبحانه ما يكون منهم عند ارتفاع هذا الحجاب الجهلي

إذا نظروا لها ؛ أي : العناية الأزلية ، وتيقنوا أن الحركات الخلقية لا دخل لها في إيجاد ، ولا وصول إمداد ، فبقي عليهم من الجهل حجاب خلقي يعتريه من لم يتداركه تأييد ، فيتكل على ذلك ، فيترك الأعمال المقربة التي شرعها الله لعباده ، ويرفض الشرائع بالكلية ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ ۖ الَّتِي قَسَمَهَا وَخَصَّصَ بِهَا أَسْرَارَ الْعِبَادِ ۖ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ۖ ﴾ إِنَّ اللَّهَ أَعْمَالَهُمْ ، الفانين عن أحوالهم وأفعالهم ، القائمين لله بالله في كل شيء ، الشاهدين وجوده قبل وجود كل شيء ، ومع كل شيء ، لا ينفكون عن ذلك المقام ، يوفون العبودية على التمام ؛ فهي أدل دليل على وجود الاختصاص الأزلي ، بل هي من أعظم ما اختص الله به عباده في سابق مراده : أن هيأهم وأهلهم لخدمته ، وهداهم لطريق محبته ، فلا يرغب عنها إلا كل ذي عقل ناقص ، وعقب ناكص ، فظهور رحمته ، وعلامة محبته ، وأثر منته على من اختصه بها ، وأهله لها إقامته إياه في خدمته ، وتقريبه له في عبادته ؛ كما يشير إلى ذلك قوله : (إذا أردت أن تعرف منزلتك عنده .. فانظر ماذا أقامك فيه) ، ولي في ذلك :

لما علم جل أن الخلق قائمة بأن ما منه بالأسباب يكتسب
فقال يختص فافهم سرَّ سابقة وهو قريب لذي الإحسان والأدب

فلو احتاج في انصباب عطاياه إلى سبب .. لكان ذلك نقصاً ؛ ولذلك
قال المؤلف رضي الله عنه :

إِلَى الْمَشِيئَةِ يَسْتَنْدُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلَا تَسْتَنْدُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ

إلى المشيئة الأزلية والقدرة الغالبة يستند كل شيء في إيجاده ودوام قيامه ، وجميع ما يصدر إليه ومنه ؛ إذ لو استند شيء إلى غيرها . . . لكان لسذلك الغير من الكمال ما لها ، ويتعالى الله عن أن يكون له ضدٌّ ، أو يماثله نِدٌّ ، أو يكون معه شريك ، أو يوجد له نظيرٌ في ذاتٍ أو صفاتٍ أو أفعالٍ ، بل هو المنفرد بالخلق والأمر ، ويده ملكوت كل شيء ، لا يشدُّ عن قدرته شيء ، فلو احتاج إلى علةٍ أو سببٍ . . . لكان مفتقراً إلى ذلك ، وقد ثبت غناه واستحالة النقص عليه .

فكيف يكتسب ما عنده بالأسباب والحيل ، أو ينال ما لديه بعملٍ؟! فلا يزيده في كمال وجوده موجودٌ ، ولا ينقص ظهورَ جماله فقدُ مفقود ، بل لم يزل بنعوت الكمال وصنوف الإفضال مقصوداً .

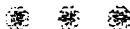
فإذا تحقَّق العبد ذلك . . . صحَّ افتقاره ، وحسن انتظاره ، وبرئ عن الدعاوي في جميع حركاته وسكناته ، فكان انتظاره لما عند الله بلا سبب ، فيعلم أن منته غير مشوبة بعلة ، ولا مدركة بعُملية ، فتتوالى عليه عند ذلك مواهبه ، وتلقى عليه رعايته ؛ وفاءً بقوله : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ وأي شكرٍ يزيد على أن تعلم أن ما بك من نعمة . . . فمن الله بلا واسطة؟!!

ومن جملتها : ما أنحفك به من الطاعات ، وألهمك من صنوف العبادات ، وصرف عنك من قبائح العادات ، ورذائل الشهوات ، وأقالك من الهفوات ، وتاب عليك عند رجوعك إليه بعد اقتحام فطرح المعاصي ، وورود مناهل الهفوات ، ﴿ وَإِنْ مَعَدُوا يُنَزِّلْنَا اللَّهُ لَا تَحْصُرُهَا ﴾ .

فلا أهمّ للعبد من معرفة صفات الله وما هو متّصفٌ به من نعوت
كماله ، ومخترعٌ من ظاهر أفعاله وقيامه بذاته ، وذوات مبتدعات
خليقته ؛ ليعمل لله على وصف العبودية المطلوبة لله من عباده ؛ وهي
أن يعبدوه لغير طلب حظٍّ من الحظوظ العاجلة والآجلة ، بل لما هو
أهله من الربوبية ، وعظم الألوهية ، ويكون كلية نظره إلى ما من الله ،
هذه أحوال الأدباء .

وأما من غفل عن ذلك . . فلا تصفو أحواله عن كدر شوب الحظوظ
الجلبية والخفية ، حتى يتداركه الله فيكشف له عن ذلك ، فيجدد توبة
عن طاعاته ؛ كما يتوب العاصي عن عصيانه ، ولي في ذلك :

إلى المشيئة كل الخلق يستند فيما برز عنهم من ظاهر القدر
ولا لها من سواها في الفعال يدٌ بل ذاك محض اختيار الله ذي القدرِ



فإذا تحقّق العبد أن الأسباب غير مؤثرة في إيجاد ولا إعدام . .
فيتحقق أن دعائه من جملة الأسباب ؛ فربما يستحيي من دعائه في
استجلاب ما لا يكتسب بحيلة ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

رُبَّمَا دَلَّهْمُ الْأَدَبُ عَلَى تَزَكِ الْأَطْلَبِ ؛ اِعْتِمَاداً عَلَى قِسْمَتِهِ ، وَأَشْتِقَالاً
بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ

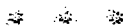
وهذا لمن كَمَّلَ في المعرفة مقامه ، وكرع من التحقيق تمامه ، فيكون
عند تجلِّي التَّيَرِ العلي ، وشروق الصبح الأزلي منظوي السر والروح
والسوح ، لا يشعر بغير مشهوده ، ولا يعرج على حِطِّ دون معبوده ،
فَهَمَّتُهُ العيان عن اللسان ، وهذا تحقيق حال من قام بمشهد : ﴿ وَأَصِيرُ
لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

وأما من كان عاملاً على مقتضى العلم ، غائباً عن شهود باطن
الحكم . . فلا يترك الدعاء ؛ كيف وقد ورد : أنه مَسَّحُ العبادَةِ ؟^(١)
لكن يكون في دعائه فارغاً عن حظوظه ، مشتغلاً بوفاء الربوبية حقها ،
وإعطاء الألوهية مستحقها ، وتحققاً بافتقاره ، وإظهاراً بين يدي سيده
لاستكانته واضطراره .

وبين هاتين الحالتين حالة تسمى الوقت ، ومرادهم : ما تتجلَّى به
الأسماء ، فتكون هذه لأهل القلوب ؛ لأن القلب مظهر تقلب الأسماء ،
فيكون بحكم ما تجلَّى عليه منها ؛ فمنها : ما يقتضي السكون تحت
جريان الحكم ، ومنها : ما يقتضي الانبساط في بساط الكرم ، ويظهر
لهؤلاء شاهد ذلك في قلوبهم بإشارات ، فيكونون بحكمها ، وهذه
لمن كشف الله عن تجلِّي أسمائه ، ظاهرة في كل مشهود ، متجلية على
كل موجود ، فيرى الخلق مصرِّفين تحت هذه الدائرة ، وأشجار ذواتهم
مستمدة من هذه الساهرة ، فاختلفت الأثمار في الأشجار إلى الحلو

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

والقارِ ، مع اتحاد مائها ، واستواء أسمائها ، ولي في ذلك :
فربما دل ذو التحقيق والأدب على السكون عن الإمعان في الطلبِ
منه اعتماداً على إتقانِ قسمته وشغل ذكر لمشهود ومقترِبِ



فعندما يتحقَّق بالكشف والشهود ، ويرى ما هو سبحانه عليه من
صفات الكمال . . يعلم يقيناً : أنه إن دعاه العبد لحظِّه ومستعجلاً
لمراه . . فذلك سوء أدب ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِغْفَالُ ، وَإِنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمَكِّنُ مِنْهُ الْإِهْمَالَ

الإغفال والإهمال : أمران ينافيان الكمال ، وتؤذنان بالنقص ومماثلة الحدثان ، وذلك محالٌ في حَقِّهِ سبحانه وتعالى عما تنوَّهُمه القلوب المحجوبة عن العيان ، التي لم تُؤَيَّد بنور الإيمان ، وعن كل ما يتخيل إلى النفوس المملومة من أنهم يذكرون الله بما هو مخترع له ، ومعلوم عنده أنه يكون أو لا يكون ، فلا يُذَكَّر إلا من يجوز عليه الإغفال ، وهو مستحيلٌ في حقه سبحانه ؛ لأن الإغفال نقص ، وقد علمت استحالة النقائص عليه .

والإغفال يكون للمعلوم ، فبالتذكُّر يذكر ، والإهمال يكون للموجود الحاضر بالشخص والمعنى ، فكيف يُهمل وهو لم يقم إلا بسرِّ قيوميته سبحانه ؟! أو كيف يُجهل وهو لم يُخلق إلا بخلقه له ؟! ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ حَقَّقَ ﴾ .

فما يدعو أهل اليقين إلا مع التفويض والرضا ، والطمأنينة عند مجاري القضا ، فيكتفون بعلمه ، ويستلمون لقضائه ، وعند حقيقة هذا الحال ، وبلوغ هذا المتال يكون دعاؤهم بالحال ، من غير سؤال وتحكُّم في حال ، فلا عليه يختارون ، ولا في مملكته يتنازعون ، بل يكونون وقفاً على مراده ، ونفوذ مشيئته في عبادته ، في تقريبه وإبعاده ، وإضلاله وإرشاده ، مؤتمرين لأمره ظاهراً ، مستسلمين لحكمه باطناً ، لا يريدون غير ما أراد ، يأتمرون لأمره وينتهون لنهيهِ ، مع تبرئهم عن الأحوال والقوى ، وشهود تفرد الحق بالاختراع والإنشاء ، ولي في ذلك : فما يُذَكَّر إلا من عليه كذا يجوز أن يتصف بالنقص والعلل

وما ينبّه إلا من يغيب إذا طرفه أمر سها عن حاله الأول

ومن المريدين الصادقين من لا يدعو في كشف ما نزل به ؛ لأنه في حال نزوله به واقفٌ على باب سيده ، متحقّقٌ بفقره وذلّه ، منكسرٌ تحت سلطان عظمته ، متخلّقٌ بأخص أوصاف عبوديته لخالقه ، وأي حالة أعود على المريدين بالخيرات من الانصاف بهذه الحالات ؟! لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

وُرُودُ الْفَاقَاتِ . . أَعْيَادُ الْمُرِيدِينَ

ورود الفاقات على المرید لطريق الله ، الطالب للقرب من الله . . عيدٌ وسرور ، وتحف وحبور ، ولا يكون كذلك إلا حيث شهد ورودها من الله ، وفهم فيها أن سيده اختصّه بمحبته ، ورضيه أن يكون من أهل حضرته . وحضرته : هي أن تحضر نفسك منخلعة عن الحول والقوة ، مفتقرة إلى سيدها ، ذليلة لديه ، منطرحة بين يديه ، ولا يرى لكشف ما نزل بها رافعاً ، ولا دونه نافعاً .

فمتى ورد على المرید ما يوقفه على هذه الأحوال الشريفة ، والمشاهد العالية المنيفة . . فقد عاد عليه بعوائده الجميلة ؛ التي عاد فيها من الإعراض إلى الإقبال ، ومن الانفصال إلى الاتصال ، فيكون ذلك لديهم عيداً ، ولأحوالهم مزيداً ، سيما وفرحٌ كلِّ مریدٍ في نيل مراده .

ومراد الصادقين : التحقُّق بذلَّتْهم ، والنزول أرضَ مسكنتهم ، والوقوف على باب ملكهم ، والانطواء تحت كبريائه ، واضطرارهم بين يديه ، وفاقتهم لديه ، وأفراح الصادقين وسرَّاتهم في إنزال ما بهم على سيدهم ومالكهم .

وأما أعياد بني الدنيا الغافلين ، الذين هم بشهواتهم الدنيوية ، وحظوظهم البهيمية ؛ من المأكل والمشرب والمنكح والملبس . . فعيدهم بنيل هذه المرادات الفانية ، والحظوظ العاجلة ، فما أبعد ما بين الفريقين !! وما أبون ما بين الطريقتين !! ولي في ذلك :

ورود فاقات أهل الصدق في الطلب على الوقوف بباب الله ذي الكرم
كما يكون كذا عيداً لهم فكذا تكون ضدّاً على الغرِّ الغبي القدم

فقد يحزن الصادقون من أهل الإرادة عند دخول الراحة عليهم في الجسم ، وتيسر الأسباب العاجلة ؛ لما يخافون من فوت حظوظهم في الآخرة ؛ لأنه ورد : « ما أعطي ابن آدم من الدنيا حظاً إلا نقص من حظه في الآخرة بقدره » أو كما قال ^(١) ، إلا سليمان بن داوود عليهما السلام ؛ فإن الله سبحانه قال في شأنه : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَنَا عِنْدَنَا لَآلِهَةً وَحُشْنَ مَقَابٍ ﴾ .

وكان السلف الصالح إذا أقبل الغنى .. قالوا : ذنْبٌ عُدِجِلْت عَقُوبَتُهُ ، وإذا أقبل الفقر .. قالوا : مرحباً بشعار الصالحين ؛ وذلك لما يجدون من المزيد في صفاء أحوالهم ، والانشراح في صدورهم ما لو وجده أهلُ الثروة والجد في الدنيا .. لهان عليهم دونها فوت جميع ما هم عليه مكبُون ، وله من الدنيا محبُون .



وفي الفاقات التي هي التعرُّفات من الله لعبده ما لا يخفى من عظيم الزلفى وكريم الوفا ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٩٧) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَكُنْ عَلَيْكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ .

رَبِّمَا وَجَدَ الْمُرِيدُ فِي الْفَاقَاتِ ، مَا لَا يَجِدُهُ فِي الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ

ربما وجد من ثمرة الفاقة ، وورود المحبة ، ونزول البلية من المرید المبتلى برؤية نفسه وما منها ، في الفاقة - التي هي تعرفت من الحق ، مباينة للهوى ، مؤلمة للنفس - من صفو الحال ما لا يوجد في كثير من الأعمال ، التي أعظمها الصوم والصلاة .

وذلك لما يخاف عليه في ذلك من دخول الآفات والتباسها عليه ، فيضل سعيه ، وذلك مفقود في البلية ، مأمون منه فيها ؛ فلذلك كان وجدانه لثمرتها أقرب وأبعد عن تطرُق الفساد ، وذلك في حق المریدين .

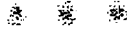
وأما المرادون ، والعلماء الربانيون ، والحكماء العارفون .. فسيان في حقهم كل ما يرد من سيدهم .

فكل ما ورد عليهم .. تلقوه بما يقتضيه الوقت منهم فيه ؛ إن كان بلية .. تلقوه بالصبر ، أو نعمة .. فبالشكر ، وإن كان طاعة .. فبشهود المنة فيه ، وإن كان معصية .. فبالاستغفار والتضرع في آناء الليل والنهار .

فهم وقف على مراد سيدهم فيما يفعله بهم ويورده عليهم ، وقليل ما هم ، أولئك معروفة أسماؤهم ، وظاهرة أوصافهم ، خافية في الخلق أعيانهم ، عاكفة في العلا ذواتهم ، راتعة في الملكوت أرواحهم ، سائحة في الجبروت قلوبهم ، كارة في حياض شهود بديع الجمال أسرارهم ، قد شغلهم شهوده عن ورود الواردات الخلقية ، عليهم من الله سلامٌ ونحية .

ولي في ذلك :

فربما يجد البادون فاقتهم تربو على ما صدّر منهم من العملِ
أما المرادون أهل القرب نالتهم من ربهم نفعة تعلو على زحلِ
لا ينظرون إلى الأكوان همّتهم أن يدركوا منتهى الغايات في الأملِ



فالفاقة من المرید إلى سیده أنجح ما يحصل عندها نزولُ الفتوحات
الوهبية ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

الْفَاقَةُ : بَسْطُ الْمَوَاهِبِ

الفاقة إلى الله وإلى ما منه نعتُ العباد والزهاد ، والعارفين الأفراد ، ففاقة العارفين إلى الله دون شيء آخر ؛ لذلك لا تزييلهم الفاقة والاضطرار ، والفاقة إلى ما منه من الفضل والامتنان نعتُ المريدين الصادقين .

وأما غيرهم .. ففاقته موقوفة عند حظه العاجل ، وغالباً يكون ناظراً إلى الأغيار ؛ حيث رآها تجري على أيديهم ، أو يقارن وجودها وجود موجود آخر ؛ فللقصر النظر ، وطمس البصيرة والبصر .. عمي عن الغير ، واستغنى دون المؤثر بالأثر .

والفاقة : بسطُ المواهبِ على أرض الفاقة والاضطرار ، تنزل أمطار الأنوار من سماوات الأسرار ، على ينابيع القلوب فتفيض أنهار العلوم ، وتجري عيون الفهوم ، فتعمر أصلاد النفوس^(١) ، فتصبح الأرض النفسانية مخضرة بما وصل إليها من الألطاف ، ونالها من الإسعاف ، ﴿ فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، ولي في ذلك :

بساط سِرِّ المواهبِ إن نظرت كذا في فاقة العبد ألى إحسان مولاه
فذلك أنجح ما يرجى لديه إذا حقيقته كنت ممن صح رجواه



فإذا علمت أن الفاقة بسط المواهب وهي من لازمك .. فما لك ورؤية

(١) الصلاد : الصلب الأملس .

الاستغناء ، وتعاطي الكلفة والعناء !؟ فكل من تحقَّق بافتقاره ، وحسن
تعلقه وانتظاره .. فهو حرِّيٌّ بأن يعطن أوفى حسابه ، واقتضاء جزائه :
ألا يستقصى عليه ، وتصرف عنه عواصف مصادر القضاء ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

إِنْ أَرَدْتَ وُرُودَ الْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ . . صَحِّحِ الْفَقْرَ وَالْفَاقَةَ لَدَيْكَ ؛
﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾

إن أردت أيها المتعريض لمواهب الله ، المتعطش إلى ورود من الله . .
فصفحات الله جارية لا تنقطع ، ومواهبه متواصلة لا تمتنع ، وما بقي ثم
إلا عدم التأهل لها ، والميل عن جادة سبيلها ، فإن أحسنت ما هنا . .
فهي عليك واردة ، ومنك دانية ، وتصحيح ذلك : أن تتحقق به وتراه
لزاماً لك ، ويكون عندك حالاً وبعثاً وصفة ، لا ترى لك من وصف الغنى
شيئاً وإن نلت كل شيء .

والفقر مقام شريف من مقامات الرجال ، وهو عندهم من أشرف
الخصال ، وأرفع الخلال ، ولم يتحقق بكليته إلا من استكمل في مقام
القرب حاله ، وثبت نور الإيقان في صميم مركزه وشرحه ، وعلامة من
هو حالته ، وكيفية طريق الصوفية وتفاوت درجاتهم وتباين أحوالهم إلى
فاضل وأفضل . . مما يطول ، ويخرج عن غرض الشرح .

والفقير أسود الوجه أبداً ، والفاقة من لازمه ، ووصف من صفاته ، بل
ركنه الأعظم ، وهي أثره على ظاهر العبد ، وبها يستبين على من ظهرت
عليه ، ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ ﴾ الواردات ، والمنح الواصلات ، والرحمات
النازلات للفقراء إليها ، والمتعريضين لسبيلها ، « إن لله في أيام دهرهم
نفحات »^(١) ، فكونوا لها متعريضين .

وأستشهاده على الصدقات الحقيقية ، والمنن الوهبية ، بهنذه

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣٣/١٩) عن سيدنا محمد بن مسلمة
الأنصاري رضي الله عنه .

الصدقات المفترضة المالية .. مما ينبتُ أولسي الأبواب ، ويوقف أهل
الاستبصار على شرف الافتقار ، ولطف الملك الجبار بأهل الاضطرار ،
وذلك شاهداً ظاهر ، وحقُّ سافر ، لكل مستبصرٍ ناظر ، وصفة الافتقار
ما سيذكره الآن يآثر هذه من الأوصاف الخلقية ، والتعلق بالصفات
الحقية ، ولي في ذلك :

إذا أردتَ ورودَ الوهب والمنن عليك صَحِّحْ إليه الفقر واعتبر
فيما افترضه إله الخلق رازقهم في المال فاعبر إلى مقصودنا النظر



فإذا تحققت بوصفك .. كنت عبداً أديباً ، ومن حضرته قريباً ؛ لذلك
قال المؤلف رضي الله عنه :

تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ .. يُمَدِّكَ بِأَوْصَافِهِ ، تَحَقَّقْ بِذَلِكَ .. يُمَدِّكَ بِعِزَّتِهِ ،
تَحَقَّقْ بِمَجْرِكَ .. يُمَدِّكَ بِقُدْرَتِهِ ، تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ .. يُمَدِّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ

(تحقّق بأوصافك) بأن تعلم ما أنت عليه من الاضطراب إليه ..
(يمدّك بأوصافه) بأن يجعل لك بدل كل وصفٍ تكون فيه عنك فانياً
وصفاً من أوصافه تكون به متعلّقاً ، وكذا كل اسمٍ من أسمائه تعالى
تكون به متخلّقاً ما عدا اسم الوهيته ، فلا تكن به إلا متعلّقاً .

ثم فسر أوصافك التي طلب منك أن تكون بها متحقّقاً ، وبها متخلّقاً
التي من بعضها الضعف والذلة والفقر والعجز ؛ فكلما تحقّقت بوصفٍ
من أوصافك .. مدّك بوصفٍ من صفاته العلية ، التي هي مستودع مواهبه
السية ، فقال :

(تحَقَّقْ بِذَلِكَ .. يُمَدِّكَ بِعِزَّتِهِ) التي أعزّ الله بها عباده المؤمنين
(تحَقَّقْ بِمَجْرِكَ .. يُمَدِّكَ بِقُدْرَتِهِ) التي بها برزت الأعيان ، وانبرأت
صور الأكوان .

(تحَقَّقْ بِضَعْفِكَ .. يُمَدِّكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ) التي لم يبال بسوء مَنْ
كانت له ، ولم تُعدّ الأسواء على من انتصبت له .

فكل من كان كذلك طريحاً مسكيناً ، لم ير له دون سيده ناصراً ،
ولا لضعفه معيناً إلا إياه .. كان له بالعون والنصرة والمدد والمعزّة
قميناً .

فنادِه بلسان عبوديتك ، وعدم حولك وقوتك ، ولبس أثواب ذلّتك ،
واطّرح في تراب أرض مسكنتك .. يكون لك بربوبيته متولّياً ، وبأسرار
محبّته متديلاً .

ولي في ذلك :

إن التحقق بالأوصاف في البشر ينيلك الرتبة العلياء والأمل
يمدك الله من أوصافه فكذا يكون كل أديب صالح العمل
فضعف عبد مع فقره وذلكه وعجزه سُلم التحقيق فانتقل
عن وصف عبدٍ مهين الأصل مفتقر إلى جمال الصفات الساميات تلي



والتحقُّقُ بهذه الصفات لا يكون إلا لعبدٍ مخطوب ، وخطيبٍ مرهوب ،
يكون متحلياً باطناً بالإيمان ، وظاهراً بالإتيان بالعمل على وفق الأمر ؛
لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

رُبَّمَا رُزِقَ الْكِرَامَةَ .. مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الْأَسْتِقَامَةَ

وهذا نادر ؛ فالكرامة غالباً لا تُنال ولا تكون إلا نتيجة حسن الاستقامة ، وكل كرامةٍ ظهرت مع الاعوجاج عن سنن الاستقامة .. فهي من باب المكر والاستدراج ، أعادنا الله منها .

فالكرامة : هي ما يظهر من سِرِّ القدر على خلاف العادة المعتادة ؛ فالنفوس لها مشوّفة ، ولشأنها معظّمة ، وهي حقيقةٌ بذلك ، لكن الشأن كل الشأن فيما يكرم الله به عباده من مزيد الإيمان ، وبيادي به قلوبهم من أنوار الإيقان ، ويتحف به أسرارهم من الشهود والعيان ، فلا يلتفتون إلى غير ذلك المطلب ، ولا يُعزّجون على غير ذلك المأرب .

والاستقامة : هي القيام بالأمر ظاهراً ، والفناء عن الأغيار باطناً ، لا يعطل نور إيمانه شرائع أعماله ، ولا تغطي دقائق طرائق أعماله أنوار عرفانه ، قائماً لله ظاهراً ، لا يتجاوزه أمرٌ وإن دقّ ، فانياً عن سائر أوصافه وأفعاله وإن جلّ ، لا إحساس له بنفسه ؛ لاستغراقه في حضرة قدسه ، وتوالي شهود أنسه ، ولا غيبة له عن أمر خالقه .

فالاستقامة أعزُّ مقامٍ عند ذوي التحقيق ، وأقصى مرامٍ عند أولي التوفيق ، لا يطلبون دونها حالاً ، ولا يشتغلون عنها بظهور آية ، فالكرامة كل الكرامة ما يكون به عند الله كريماً ، والإهانة كل الإهانة ما تصير به عنده مهيناً .

وكان من أخلاق السلف الصالح عدم الالتفات إلى ظهور الآيات ، وإن ظهرت على أيديهم .. فمن باب الاتفاق ، لا يرون أن ذلك كل المطلوب .

والكرامة تكون شاهدةً بحسن الاستقامة ؛ لأنها ثمرتها ، وإن حصلت عنهم أو برزت منهم .. فيكون فرحهم من حيث صحة استقامتهم ، لا من حيث بروز كرامتهم ، ولهم في ذلك كلامٌ ورونقٌ فيه تشويق إلى النفوذ إلى التحقيق ، يزعجون به المریدین عن السكون إليها ، والاعتماد عليها .

والاستقامة ظاهراً : موافقة الأوامر الشرعية أمراً ونهياً ، وجوباً وحظراً ، كراهة وندباً ، وتخلُّقاً وتكرماً ، وتنزهاً وتحفظاً بجميع الجوارح ، باطناً وظاهراً ، قلباً ولساناً ، وعيناً وسمعاً ، وبدأً ورجلاً ، وبطناً وفرجاً ، وكُلِّيةً .

فكل ما حوت هذه الجمل هو أحد شِقِّي الاستقامة ، والنظر في الطرف الآخر إيماناً و يقيناً ، وشهوداً وعياناً ، وحفظاً وتأديباً ، سرّاً وروحاً ، وعقلاً وقلباً وكشفاً ، وكمالها : القيام بمقتضى الإسلام ظاهراً ، وبمقتضى الإيمان - وهو الاستسلام - باطناً .

ومن أعطي ذلك وجعل ينشرفُ إلى غيره .. فهو ناقص الفهم ، أعمى البصيرة ؛ فالاستقامة : حق الحق منك ، والكرامة : حظُّ النفس ، وبها تقضي وطرها من انتشار خبرها ، وظهور أثرها ، حتى إن بعض العارفين يقول : من لم يكن ظهور الكرامة منه كظهور المعصية .. فليس من الصدق في شيء ، أو كما قال ، ولحالة تكون فيها بحق الله أولى من حالة تكون فيها بحظ نفسك ، كما تقدم معنى ذلك أول الكتاب^(١) .

(١) انظر ما تقدم (ص ٤٦٠) في شرح الحكمة (١١١) : (ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخلصه) .

وكمال الاستقامة باستقامة العبد بكلأ شقيها وجمع طرفيها ، ومن كان كذلك . . كان من أخصّ المقربين ، وكُمّل العارفين ، وأفراد الموحدين ، ومن قام بطرف الظاهر دون إحكام توحيد اليقين . . فهو يُعدُّ من زمرة أصحاب اليمين ، ومن طمع في نيل باطنها دون إحكام ظاهرها . . وقع في ورطة المعطلين ، والجهال المفرورين ، ومن تحقّق بباطنها وأحكم ظاهرها . . فهو من العلماء الربانيين ، والهُداة المهتدين ، جعلنا الله منهم ، ونهج بنا نهجهم ، ولي في ذلك :

فالاستقامة أقصى ما يراد ومن لم يسلك السبل لم يستفتح السفر إن الكرامة وإن جلست مراتبها علامة في سلوك السادة الغرر والاستقامة بذر هي نتائجها كما نتج من فنون الشجرة الثمر



وللاستقامة المرادة المرضية علامات وأمارات ؛ ليكون العبد فيها قائماً ، فكل عملٍ تنشأ صورته عن العبد . . فلا اعتبار به دون الله تعالى ، وكل ما أقيم فيه من الله . . فهو الكثير وإن قلّ صورة ؛ فلذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مِنْ عَلَامَةِ إِقَامَةِ الْحَقِّ لَكَ فِي الشَّيْءِ . . إِدَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ النَّتَائِجِ

ف (سمن علامة إقامة الله للعبد في الشيء) الملابس له والحالة الراهنة عنده ؛ لتمييز عن مقام الإنسان في الشيء بنفسه ، الذي لا اعتداد به عند ذوي البصائر ، الناظرين بعين التحقيق في طرائق التدقيق ، من إقامة الحق إياك في الشيء الذي هو عين ما يحصل به الأدب مع الله حالاً وفعلاً ، وإن تناءت عنه أفهام المحجوبين بالنظر إلى ظواهر الصور بكثيف طبع البشر ، دون النظر إلى الصور الغيبية ، والمعاني الملكوتية .
ولذلك علامات وظواهر أمارات ، فأوضحها وأبينها : ما ذكره المؤلف رحمه الله من إقامة الحق لك فيه ، وإقامة الحق لا يصحبها ما يخالف أمره ويتعدى حده ؛ لثلا يظن ذو جهل أنه قائم في المعاصي بالله أمراً ورضاً ، ولكن قهراً واقتداراً ، وليس المراد هنا إلا الإقامة المرضية الموافقة لأمره ، المحبوبة لديه ، فيها عنى ولها أراد في عبارته .

وعلامات قبولها ممن أقيم فيها وأنها عنده مرضية حصول النتائج القريبة ؛ لأن ثواب الطاعات في الدنيا : بتيسير الحسنات ، وفضل القربات ، وتوالي أفعال الخيرات ، وفي الآخرة : رفع الدرجات في الجنات ، وتوالي المثوبات ؛ فإن أشكل على السالك حاله . . فليعرض هذه الحكمة عليه ، فإن وجد ذلك . . فليحمد الله ، وليتخذ الجد له مساقاً ، وليداوم عمله ، ولا يطلب الخروج عنه حتى يكون الحق هو الذي يتولّى إخراجة ، وينصب معراجة إلى ما هو أرفع وأقرب عنده ، ولا يزال كذلك أبداً ، وليجعل من دعائه : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ .

ومتى كان العبد على غير ذلك ؛ إما بأن يقوم في غير مطلوب منه
شرعاً ويقول : إني قائم بالله فيه ، أو يقوم في الشيء بنفسه ويرى حوله
وقوته ، ويغيب عن الله فيما منه وعنه . . فقد أخطأ حدَّ الأدب ، وتعرَّضَ
لمواقع العطب ، ولم يتل منه ما طلب ، ولي في ذلك :

فمن علامة أن الحق قائدُ مَنْ في فعله كل ما يأتيه محبوبٌ
إدامةً منه تيسيراً لذك وإن^(١) يصحبه إنتاج ما هو منه مطلوبٌ



فمن كان بشهود ما من الله . . ليس كمن كان بشهود ما منه إلى الله ،
وهذه علامة على صحة توحيد السالك ، وبيان ما هو سالكه من الطرق
والمسالك ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) في النسخ : (إدامة منه ثم تيسير لذلك وإن) ولا يستقيم الوزن .

مَنْ عَبَّرَ مِنْ بَسَاطِ إِحْسَانِهِ .. أَصْمَتَتْهُ الْإِسَاءَةُ مَعَ رَبِّهِ ، وَمَنْ عَبَّرَ مِنْ
بَسَاطِ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ .. لَمْ يَضْمُتْ إِذَا أَسَاءَ

هذا بيانٌ لحالتي الواصلين والمجدوبين المحبوبين المرادين ، ويعبرُ عنهم بأهل التعريف ؛ لأن الله ابتدأهم منه بتعريفه وتعرفه ، وأهل التكليف المرئدين المحبين السالكين ، الراحلين إليه من شهود الأغيار وظلمات الآثار ، الحاملين أعباء مشقات مقاساة مجاهدة النفوس ، ومباينة النحوس ، يتسلَّلون عن مضائق الشهوات وضنك الرموس ، يتحرَّون ما هو الأولى في نظرهم ، وما هو الأجدى في فكرهم ، يزنون بموازين العقول والنقول ما يأخذون ويَدْرُونَ ، ويرون أن أفعالهم له مملوكة ، وأحوالهم له ممسوكة ، وذلك عند العارفين القانين عن وجودهم ، الغائبين عن حجاب شهودهم ، المقبلين بكليّة بواطنهم وظواهرهم على ما منه إليهم .

فالأول حال الزهَاد والعِبَاد ، تلازمهم الأحزان ؛ فإن وَعَظُوا أو نصحوا .. نظروا إلى ما منهم إلى الله من المخالفة وقلّة الحياء ، فيصمتون لا محالة ، ويرجعون إلى نفوسهم بالذم والملامة .

والعارفون ناظرون إلى ما من الله إليهم ، فلا يرون لهم في إيجاد الأفعال وتقويم الأحوال دخلاً ، فتنتلق ألسنتهم كيف كانوا ؛ لفنائهم عنهم .

قال أبو طالب المكي رضي الله عنه : (حدثت عن بعض هذه الطائفة ، قال : كان قد بقي في نفسي شيء من القدر ، وكنت أستكشفه من العلماء فلا ينكشف ، حتى قيض لي بعض الأبدال ، فاستكشفته إياه ، فقال :

ويحك ؛ ما تصنع بالاحتجاج؟! نحن نكشف سِرَّ الملكوت ، فننظر إلى الطاعات تنزل صوراً من السماء حتى تقع على جوارح قومٍ فتتحرك الجوارح بها ، وننظر إلى المعاصي صوراً مصورة تنزل بمشاهدة القدر ، وقال أيضاً : كنت قبل أن ينكشف لي مشاهدة علم اليقين ، فرأيت في النوم كأن قائلاً يقول : القدر من القدرة ، والقدرة صفة القادر ، فيقع القدر على الحركة فلا تتبين ، فنظهر الأفعال من الجوارح ، أو قال : فتتحرك الجوارح بالأفعال ولا تتبين) اهـ (١) .

فهذا مشاهدة أهل التعريف ، وما شاكله من مشاهدة الأفعال على الكشف من الله صادرة ، والعباد فيها كالآلات المسخرة ، فكيف يصمته شيء لبس إليه ولا منه؟! وإن نسب . . فبحكم العدل ومنع الفضل ، لا أنه له في إيجاد الأفعال قدرة ، والمحجوبون عن شهود ذلك في عماء ، يطولون بالسنتهم عندما تظهر لهم الموافقات ، ويخجلون ويصمتون إذا برزت على أيديهم المخالفات ؛ وذلك لأنهم شاهدون لأفعالهم ، ومثبتون لوجودهم ، فهم وإن خرجوا عن ظاهر الشرك . . لا ينفكون عن باطنه .

وراء ذلك : قومٌ احترقت ذواتهم تحت سطوات ظهور الأحدية ، فلم تبق لهم غيبية ولا أينية ، يرون ما منه إليه ، غائبين عن الوجود ، متلاشين في الشهود ، لا إخبار لهم عن أنفسهم حتى يروا منها أو إليها ، فهؤلاء أهل التوحيد الخالص عن شوب رؤية الأغيار ، ومزج ظلمة الآثار ، لا يتعشرون في أذيال الأفكار ، ولم يقفوا عند جنّة أو نار ، بل انتهكت عن بصائرهم الأستار ، وتجلّى عليهم جمال سيدهم ، وتوالت

(١) قوت القلوب (١/١٠٢) .

عليهم منحه وعطاياه ، وتنزل عليهم الألفاظ ، فلا تعلم نفس ما أخفى
لهم ما يكلل عن وصفه الوصاف ، عاينوا صرف الحق كفاحاً ، وأشرق
من أفق الشهود صباحاً ، ولي في ذلك :

فمن يُعَبِّز عن بسطِ الشهودِ فما يصمُتُ وإن كان في حالِ الجفأ أسرا
ومن يُعَبِّز عَمَّا منه ذاك كما تنالهُ خجلةُ الجاني عليه تُرى

* *

وكل من كان بالله حقيقاً أن تطول لسانه ، ولا يصمتها عروض
سبب ، أو يصدّها حصول أرب ، ومن كان يرى نفسه وأفعالها ، وسوء
اجتراحها وجرأتها ، وتعديها على حدود سيدها ، واقتحام شهواتها ،
واتباع هواها من غير مبالاة منها . . صمت من سوء ما يراه من اجترائه
على مولاه ، فهو إن برزت عنه طاعة . . تكلم وانبسط ، وإن حصلت
منه هفوة . . صمت وانقبض ، وهذا حال السالك قبل عثوره على كنز
المعرفة بالله التي لا تتعلل بالعلل ، فحريُّ ألا يقبل عنه عند سامعه
موعظة ، ولا تصل إلى قلبه نور حكمة ؛ لِمَا عليها من بقية رؤية النفس .
والعارف ليس كذلك ، يكون بالله غائباً عن نفسه وصفاتها ، ونسبة
أفعالها ، فيتكلم بالله ، فيقبل منه . لا محالة - قوله ، وتصل إلى قلوب
السامعين موعظته ، فينتفعون بذلك أتمّ انتفاع ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

تَسْبِقُ أَنْوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ ؛ فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ . . وَصَلَ التَّغْيِيرُ

تسبق أنوار الحكماء ، وهي أنوار الحضور الكائنة عند رفع الستور ؛ كنور اليقين وعينه وحقه ، الذي محلُّ تنزلها الأسرار والأرواح والقلوب ، وهذه كلها أسرارٌ غيبية ، وأحوالٌ وهبية ، لا تكون بعمل ، ولا تنال بحيلة ، بل إنما يحظى بها المجذوبون المرادون غالباً قبل وجود تأهل منهم لها ، أو تطلع منهم إليها ، بل تفجؤهم كفاحاً ، ويلقي عليهم أنفاس الوقت أرواحاً ؛ فأول ما يقع منهم النظر إلى الوهاب المبتدئ بالامتنان ، ومفيض الفضل والإحسان ، وغيرهم ممن أخذ في طريق الترقّي في مدارج السلوك ليس كذلك ؛ أول ما رأى نفسه وأوصافها وأفعالها .

فالحكيم : هو العالم بالله دون غيره من سائر علماء الرسوم ؛ لأن شعاره مخافة الله ، وهي رأس الحكمة كما ورد : « رأس الحكمة مخافة الله عز وجل » ^(١) ، وخوف الحكماء من الله صِرْفٌ لا يمزجه خوف سببٍ من الأسباب ، بل خوف اتصاف ؛ كالهية بإزاء الجلال ، والانقباض والانطواء تحت سطوات العظمة .

فهذا وما جرى مجراه من خوف العلماء بالله المعبر عنه بالخشية ؛ إذ هي أعم ، لذلك المعنى عنى الله بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

وخوف السالكين وطوائف العباد والزهاد لأسبابٍ نصبها الله مزعجة لهم إليه ، وسائقة لهم إلى عبادته ، وأسباب مشوّقة تدعوهم إلى دخول

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٣٠) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

حضرته ؛ كما قال الله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ يُحَوِّثُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يُعْبَادُ فَاتَّقُونِ ﴾
فافهم الإشارة في قوله : ﴿ يُعْبَادُ ﴾ الخاصين بي ﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ .

والحكماء إذا أرادوا أن يتكلموا وقصدوا إرشاد طالب . . فأول ما
يفزعون إلى الله في أن يوصل إليه كما وصل إليهم ، فيتكلمون مع
الخروج عن رؤيتهم في حضرة سيدهم ، فيصل التعبير حيث وصل
التنوير ؛ إن كان من أنوار القلوب . . وصل التعبير إلى القلوب ،
فانبسطت عليها أنوار الإيمان ، وامتألت بإشراق الإيقان .

وإن كان من أنوار الأرواح . . وصل التعبير إلى روح السامع ، فيرتاح
شوقاً ، ويطرب حباً ، فلا يتمالك الروح عند سماع ذكر الحبيب ، ولا
يستقر دون التطلع على أخباره ، فيتدلّه بذلك الروح وسني السوح ،
فتبدو لوامع وتلوح ، وتنزل مواهب وفتوح منوح .

وإن كان من أنوار الأسرار العلية . . وصل التعبير إلى سر السامع ،
فيستغرق في الشهود ، ويطيح في الوجود ، ويغيب في الشهود عن
الوجود ، وتتوالى هناك عليه تجليات أزلية ، وجماليات سرمدية ، تتصل
بالعوالم الديمومية ، فما أعجب هذه العبارة حيث قال : (وحيث كان
التنوير . . وصل التعبير) ، ولي في ذلك :

السابقون إلى عين اليقين تكن أقوالهم تبعاً والنور قائدها
فسارعت حيث كان القائلون يكن للسامعين قرئ في موائدها



فالكلام ترجمان الجنان ، وكل جنان مؤيد بنفس رحماني وسر
امتثاني . . خرج الكلام مغموراً بالنور ، موجداً عند السامع السرور ،
وممنحه غايات الأمان والحبور ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

كُلُّ كَلَامٍ يَبْرُزُ ، وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ الَّذِي مِنْهُ بَرَزَ

كل كلام يبرز من باطن إلى ظاهر . . فهو دليل ما يبرز عنه من أي اللطيفتين ؛ إن كان من اللطيفة القلبية النورانية الربانية المقدسة عن دنس لوث الأكوان ، وغبار قتر الأغيار . . خرجت صافية راتقة فائقة ، ما صادفت لطيفة مودوعة إلا كانت في الفؤاد غرسة مزروعة ، يصادف منها كل من سمعها سرّ الحياة ، كما تصادف الأرض عند نزول وابل المطر الحياة ، ولكن الأرض بعد ذلك تفترق إلى قيعان وأرض طيبة وإخاذات حافظة ؛ كما ورد ذلك مستوفى المعنى في الحديث النبوي^(١) .

وشاهد ذلك عند السامعين ظاهر ؛ فإن الحكمة الواحدة يتكلم بها واحد فتقبل منه ، ويتكلم بها الآخر فتردُّ !! وما ذلك في الحكمة ، وإنما هو بحسب من برزت عنه من الصفاء القلبي ، والكدورة النفسانية ، والظلمة الشهوانية الهوائية الأرضية .

فالشاهد في المعنى الذوق الموجود في الكلام ، فما يتميز إلا به ، ويعرف ذلك من زاحم الحكماء ، ومارس كلام العلماء ؛ فإنك تجد في كلام بعضهم ما لا تجده في كلام الآخر مع استوائهما في العبارة ، بل قد يكون من هو أركُّ في ظاهر اللفظ أقوى تأثيراً في الباطن ؛ وذلك لما عنده من وفور اليقين ، وكمال الصحو والتمكين ، وذاك الذي قد تحسن عبارته ظاهراً من غير قوة يقين في الباطن ، وكمال تحقيق تجده دون ذلك .

وقد كنت أجد عند حضوري بمجلس سيدي وحيد عصره عمر بن

(١) رواه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

عبد الرحمن أنه يتكلم مع العوام فيما يتكلمون ، وأجد له من التأثير ما لا أجد في كلام غيره من المصنِّفين ، وكثيراً ما يحصل من غيره مذاكرة وأجد القلب عند ذلك ساكناً لا يعبأ بها ، فإذا تكلم . . أنصت القلب ، وتعشَّق إلى كلامه تعشُّقاً ذوقياً .

فلو اطلع ذو غباوة على ما أجد في بعض كلامه . . لعجب مني كل العجب ، فالحمد لله ، فلو أخذت فيما وجدت من كلامه من الفوائد . . لما وجدت لها حصراً ، وبقيت في بقية مدتي أتصفِّحُ كلامه فأجد لها أوجهاً ؛ وذلك لما هو عليه من كمال التمكين في مقامات اليقين .

وكان يروي لنا عن شيخه قدوة الأنام - المشهود له عند الخاص والعام بأنه الختام ، حسين بن سيدنا الشيخ أبي بكر ، نفع الله بهم ، ونظمتنا في سلكهم ، وجمعنا معهم مع الأحبة في دار السلام - كلاماً يرويه استخراج منه علوماً لطيفة ، وأحوالاً منيفة ، مع أنه كان ذلك الكلام مما يتداوله العوام ، وقد أفردناه في نبذة لطيفة ، فليطلب منها هناك تعثر على صواب إشاراتهم في بواطن عباراتهم ، ولي في ذلك :

إن اللسان دليل السامعين على ما في القلوب من الأنوار مستور
فكل قول يجده السامعون يلح في القلب فاعلم بأن السر معمور
وما يرد به بسمع السامعين له . دليل يخبر بأن القلب مستور



والإذن من الله لعبده في الكلام أصل النفع ، والإذن لا يعرف إلا بدليل يدل على أنه مأذون له في الكلام ، مرضي له في القول ، وكلام غير المأذون لا جدوى له وإن تنمَّقَ وتزخرف ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه منبهاً على دلالة الإذن :

مَنْ أُذِنَ لَهُ فِي التَّعْبِيرِ .. فَهَمَّتْ فِي مَسَامِعِ الْخَلْقِ عِبَارَتُهُ ، وَجَلِبَتْ
إِلَيْهِمْ إِسَارَتُهُ

مَنْ أُذِنَ لَهُ مِنَ الْوَاصِلِينَ ، وَالْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ ، وَالسَّادَاتِ الْمُقَرَّبِينَ
فِي التَّعْبِيرِ عَمَّا يَجِدُهُ مِنْ كَشْفِ الْعُلُومِ ، وَإِيضَاحِ الْحَقَائِقِ ، وَبَيَانِ طَرَائِقِ
الْهَدْيِ بَعْدَ تَمَكُّنِهِ مِنْهَا ، وَتَحَقُّقِهِ فِيهَا عَلَى الْمَحْجَةِ الْبِيضَاءِ ، وَالْحَنِيفِيَّةِ
السَّمْحَاءِ ، الَّذِي لَا يَدْخُلُ فِيهَا أَرْتِيَابٌ ، وَلَمْ تُغَطَّ بِكَثِيفِ حِجَابٍ ؛
بِإِيصَالِ النِّفْعِ ، وَالِدَعَاءِ إِلَى الْجَمْعِ .. فَلذَلِكَ دَلِيلٌ وَعَلَامَةٌ .

فَعِنْدَ صَاحِبِهِ : بَأَنَّ يَجِدُ فِي سِرِّهِ مِنَ اللَّهِ أَمْرًا لَا يُمْكِنُهُ خِلَافُهُ بِأَخْذِهِ عَنِ
الْكَشْفِ وَالْيَقِينِ ، فَيَتَكَلَّمُ بِاللَّهِ لَا بِنَفْسِهِ ، وَبِاللَّهِ لَا لِهَوًى وَلَا لَطَلْبِ حِظٍّ ،
وَمِنَ اللَّهِ أَدْبَابًا وَاسْتِنطَاقًا وَاسْتِثْنَاءً ، وَإِلَى اللَّهِ التَّجَاءُ وَبِإِذَاءٍ وَعِظْمَادًا .

وَدَلِيلُ ذَلِكَ لِلْمُتَلَقِّيِ أُمُورٍ ظَاهِرَةٍ وَأُمُورٍ بَاطِنَةٍ ؛ فَمِنَ الظَّاهِرِ : حَسَنُ
الْإِسْتِقَامَةِ ، وَاتِّبَاعُ السَّنَةِ ، وَالْوَرَعُ وَالزُّهْدُ وَالْإِنَابَةُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ شَعَائِرِ
الْدِينِ .

وَالدَّلِيلُ بَاطِنًا : بَأَنَّ يَجِدُ لِكَلَامِهِ إِسَاعَةً وَقَبُولًا ، وَفَهْمًا وَتَعَشُّقًا ،
وَلِلْإِشَارَةِ فَهْمًا وَفَتْوحًا .

فَإِذَا فَهَمَّتِ الْعِبَارَةُ ، وَتَجَلَّتْ لِكَ الْإِشَارَةُ .. فَاقْبَلْ وَلَا تُنْكِرْ ، فَتَكُونُ
مِنْ حَيِّزِ أَهْلِ الْغُرَّةِ بِاللَّهِ ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ مِنَ الْعِلْمِ
كَهَيْسَةَ الْمَكُونِ ، لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ .. لَا يَنْكِرُهُ
عَلَيْهِمْ إِلَّا أَهْلُ الْغُرَّةِ بِاللَّهِ » ^(١) .

(١) رَوَاهُ السُّلَمِيُّ فِي « الْأَرْبَعِينَ » (٣٢) عَنْ سَيِّدِنَا أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

ولي في ذلك :

علامة الإذن في إظهار معرفة للسامعين أمور تحتوي فيها
وجود فهم لما عبّرَ مطابقة ويجتلي من علوم الكشف خافيها



فإذا لم يكن هناك إذنٌ للمتكلم . . فلا يسوغ لسامع ولا يروق لديه ،
بل يخرج وعليه سماجة الهوى ، وظلمة الدعوى ؛ كما قال المؤلف
رضي الله عنه :

رُبَّمَا بَرَزَتْ الْحَقَائِقُ مَكْسُوفَةَ الْأَنْوَارِ ، إِذَا لَمْ يُؤَدَّنْ لَكَ فِيهَا بِالْإِظْهَارِ

ربما - وقليل بروزها مع وجود الهوى إلا نادراً مستعارة من كلام غيرها ؛ كلابس ثوبٍ لم ينسج عليه ، وجالب تحفةٍ لم تُهدَ إليه - برزت صورة حقيقة مقبولة من حيث الحكم ، ولكنها مكسفة الأنوار ، كما يظلم الكسوف بضوء النهار .

وذلك أن شمس السر الكائنة في برج الروح الدائر في سماء القلب لم تُكسَنَ من نور الكشف ما يظهر به استنارته في آفاه ، فلا يتبين بوجوده ، ولم يظهر بشهوده أسرار الملكوت ، ولم تتراءَ فيه حقائق الجبروت ، فيكون مكسفاً لا محالة ، فلا تُعرفُ نغامة الحقائق هنا ؛ لما خشيها من ظلمة أخلاق النفس الأرضية الحيوانية ، وغطى جمالها من غبار الكوائف الغيرية ، فلو برزت هذه الحقائق النفيسة في أرضٍ مشرقَةٍ بنور ربها . . لحصل لها القبول ، وحصلت على كلية المأمول .

فربما تخرج الحقيقة الواحدة على اثنين ، فتقبل من واحد ؛ لما عليه من نور جمال الوصال ، وتردُّ على الآخر ؛ لما عليه من ظلمة الطبع وكوائف الهوى ، وذلك مشاهدٌ بالذوق لمن له قلبٌ حيٌّ يجده لديه عنيداً .

فإذا لم يستكمل أوصاف العرَّاف ، ولم يحظَ بورود الألفاظ ، ولم تتيسَّر له العبارة ، ولم ينكشف له سرُّ الإشارة . . فذلك دليلٌ على عدم الإذن ، وأنه لم يُؤَدَّنْ له أن يكشف الحقائق ، ويوضح مشكلات الطرائق ، فيلزم الأدب حتى يأتي له الإذن في ذلك ، وعلامته : ما أوضحناه آنفاً ، ومنه تيسير العبارة له في كل ما توجَّه إليه ، مع السلامة من الآفات

القادحة في الإخلاص ، فإذا حصل له ذلك . . كان كالإذن في إبرازها ، وهو دليل الرضا من الله ، فلو لم يرد لذلك . . لم يتيسر له صعابها ، ولم يكشف له نقابها .

وعند نزولها حينئذ لا يمتري فيه إلا ذو حسدٍ وعناد ، لم يحظ بصفو الوداد ، فيقوم معارضاً فيحرق دودة نفسه كمدأ ، ولم يجد لباطله من الحق مسعداً ، فيرجع خائباً ، ويصير جده بنار الحق ذائباً .

اللهم ؛ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ولي في ذلك :

وربما تبرز الأسرار مكسفةً لما عليها من الآثار والغيرِ
وذاك فيها دليل أرباب معرفةٍ على استتار وجود الحق بالبشرِ



وعباراتهم ومصونات إشاراتهم لا يكونون فيها مختارين ، بل لمعانٍ لهم فيها ، فلا يستعجلون وجودها ما لم تظهر الحكمة في ذلك ؛ لذلك قال المصنف رضي الله عنه :

عِبَارَتُهُمْ : إِمَّا لِفَيْضَانِ وَجِدٍ ، أَوْ لِقَصْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ ؛ فَالْأَوَّلُ : حَالُ
السَّالِكِينَ ، وَالثَّانِي : حَالُ أَرْبَابِ الْمَكِينَةِ وَالْمُتَحَقِّقِينَ

عبارة الطائفة فيما يظهرون من مغيبات الأسرار ومصونات الأنوار
لأمرين لفريقين ؛ وهم إما سالكون ومريدون ، وإما واصلون متمكنون
في أحوالهم ومقاماتهم ، يحكمون على ما يجدونه من المواجهيد ؛ لما
عندهم من الثبوت في التوحيد .

والعبارة عن الحقائق ، وظهور الآيات عند السالكين غلبةً وتحكُّمٌ
من الوارد عليهم ، فلا يجدون عن التعبير مندوحة ، فيترجمون عن
الحال الحاكم عليهم ، وهم عنهم فيما يبرز منهم ، فهم معذورون ،
ويصحبهم التأيد والحفظ .

وإن كان على غير ما ذكرنا . . . فذلك من سوء أدب المرید ، والتفات
منه عن مهيع المزيد ، فيتخلف عنه التأيد ، ولا يصحبه التسديد ؛ كما
يشير إلى ذلك حديث عبد الله بن عمر ، حيث قال له صلى الله عليه
وسلم : « يا عبد الله بن عمر ؛ لا تطلب الإمارة ، فإنك إن طُلبت لها . .
أعنتَ عليها ، وإن طلبتها . . وكُلتَ إليها » ، أو كما قال ^(١) .

وأما أهل التمكين . . فإنهم فانون عن أنفسهم ، باقون بربهم ،
فلا تغلبهم الأحوال ، ولا يغتروا بما يغتر به الأعرار والجهال ، فلم
يتكلموا عنده لإظهار تعزز ودعوى ، بل يكونون عاكفين بأسرارهم في
حضرته ^(٢) ، متأهبين لما يُلقي من سرِّ الخطاب ، ولذيذ المناجاة وشهود

(١) رواه البخاري (٦٦٢٢) ، ومسلم (١٦٥٢) قانه لعبد الرحمن بن سمره رضي الله عنه .

(٢) في (د) : (بل يكونون حاكمين بأسرارهم في حضرته) .

الاقتراب ، فلم يلووا عن ذلك إلا لإرشاد العباد ، وإيضاح طرق الرشاد ،
والدعاء إلى الله على البصيرة المنيرة ، والمحجة المستنيرة ، ﴿ قُلْ هَذِيهِ
سَبِيلٌ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ، فافهم - هديت - قوله :
﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ . . . تعثر على سرّ قوله صلى الله عليه وسلم : « وا شوقاه
إلى إخواني » في آخر الزمان ^(١) ، ولي في ذلك :

عبارة القوم عن تحقيق مشهدهم إما لغلبة حال سكر من شربا
والواصلون لغاية نيل مطلبهم يفوح منهم عبير يهدي الطلبا
وغير ذلك عيب عند سادتهم أولي العزائم من ساداتنا النجيا



فالعبرة : هي ما يعبر عليها من ظاهر الغيب ، ومن لفظ لمعنى ، ومن
صورة لسورة ، فلذلك افتقرت العبارة بحسب افتراق القوابل ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه مسلم (٢٤٩) بنحوه عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

الْعِبَارَةُ : قُوَّةُ الْعَائِلَةِ^(١) الْمُسْتَمِعِينَ ، وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ

العبرة تبرز من خزانة الغيب مجملّة ، فتقع على القوابل الفهية بواسطة ألفاظ محسوس^(٢) ، أو إفهام بمعنى غير اللفظ ؛ إما مشهود ، أو متخيل ، أو متشكل بصورة المحسوس ، فتوجد عند الواجد لشيء من هذه المعاني غير معنى لطيف ، على حسب ما عنده من الفهم ، فعبر من ظاهر اللفظ إلى باطن المعنى ، وهو إما من عالم اليمين والفضل - وهو المراد للمصنف هنا - وإما من عالم العدل ، وهنا يتجه أن يراد به السماع عند الطائفة ، واختلافهم فيه على طرق شتى .

وأفضل ما سمع عنه وأنصت : القول المعجز البليغ ، الذي احتوى على مصونات الحقائق ، وتضمّن نقائس الرقائق ، واجتمعت فيه متفرقات الطرائق ، وهو كلام الله المجيد ، الذي من قال به . . صدق ، ومن اقتدى به . . اهتدى .

و(القوت) في عبارته يشير به إلى ما يريد على الأسرار والقلوب من خزائن الغيوب ؛ لأن للأرواح أقواتاً ، وللأشباح أرزاقاً ممزوجة بأقوات وغير ممزوجة ، فالقوت الصّرف للأرواح العلوية ، والرزق الصّرف من غير امتزاج بقوت للنفوس الأرضية البهيمية والظلم الشيطانية ، والرزق الممزوج بالقوت للقوابل الآدمية والأسرار الإنسانية ، وإليه - والله أعلم - يشير الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « اللهم ؛

(١) في (ب) : (قوت العامة) وكتب فوقها : (العائلة) دون إشارة لشيء .

(٢) كذا في النسخ .

اجعل رزق آل محمد قوتاً»^(١) أي : صِرَفَ معرفةٍ ومحبةٍ وشهودٍ أو نزولٍ
أسرارٍ ولطائفٍ وجود .

فالعائلة المحتاجون إلى فهم هذه المعاني اللطيفة والمشاهد
الشريفة ، يتلقون معاني الغيب بحسن استماع واستكشاف واستجماع ،
فهم أهل السماع المتعبون من القول أحسنه ، أهل البشارة بما أومت
إليه الإشارة ، في طي باطن العبارة ، بالهداية في معاني الوجود بنور
إلهي ، المتلقون للفيض الصفاتي بلبابة سويداء القلوب ، المسامطة
للمعنى من غير تحيز أو جهة لروح المعاني ، بل كما يفهمه من عرفه .
فالأقوات مختلفة ؛ فمنها : ما هو من تجلي الأسماء والأفعال ، فتلقاه
القلوب الزكية النقية ، وتلقيه على صفحات الصدور ، فتتسع وتنشرح ،
ومنها : ما ينزل من سماء الأوصاف العلية ، فتلقاه الأرواح والعقول الصافية
الوفية ، ومنها : ما ينزل على الأسرار من سواطع الأنوار ، ولوامع مصون
مكونون مشهد الأحدية الذاتية ، وكلُّ يصلح له ما لا يصلح لغيره ممن دونه ؛
فالأمزجة الروحانية تحاكي الأمزجة الجسمانية ، فكل مزاج له علاج .

وقد كان المشايخ الصوفية يعبرون للمريدين على حسب أحوالهم من
اليقين ؛ كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصُّ بعض أصحابه
بمزيد كشف ، ويعمُّ بعضاً ، ويصفح عن بعض ، ويعفو عن بعض ،
ويكلم البعض بأقرب ما يكون إلى فهمه ، ويستكشف عن تحقيق مقالة
بعض ، ويقبل من بعض من غير استكشاف ؛ لما يرى عنده من وضوح
الكشف ، فلا يسأله عن مصداق قوله ، وحقيقة إيمانه .

وهكذا كان التابعون يسمعون الكلام الواحد الجامع ، ثم يفترون

(١) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

في فهمه ، فيعبره كلُّ بعبارة غير ما عبَّر به غيره من السامعين ؛ كما
يتفاوت طعم المَاء في طعموم الأشجار إلى الحلو والقار ، مع وحدة
الماء واختلاف طبائع الأشجار ، واختلافها إلى البارد والحار ، والرطب
واليابس ، والأوراق والأزهار ، وغير ذلك .

فالحكمة حاكمةٌ على من قامت به بعدم الخطأ ، فهي من الحُكم
الذي يحكم به الشيء من الانقلاب ، وليس لكل سامعٍ منها إلا ما هو
غذاءٌ فهمه ، ونتاجٌ سابقةٍ قسمته ، فلاولي القلوب في إشارات الوجود
لطائفٌ تناجني بها أسرارهم ، وتتسع أنوارهم ، جعلنا الله ممن فهم
عن الله في كل ما واجهه حساً ومعنى ، ولي في ذلك :

إن الحكيم له في الكون متسع

يجول في روضة الكشف البهي النظر

فالجسم في الأرض يسعى في مدرعة

والقلب بالعرش يطلُب أثره الحضر

تراه يسري في الأكوان أجمعها

تطوى له مثل طي ألياس والخضر

يا من يريد جمالاً من محاسنها

انظر تجد ما يروق السمع والبصر



فالمقام قد يعبر عنه بالكلام من غير وصول إلى حقيقة كشف
والكون في حالة الذوق ، ولا يميز إلا لذوي البصائر ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَقَامِ مَنْ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ ،
وَذَلِكَ مُلْتَبِسٌ إِلَّا عَلَى صَاحِبِ بَصِيرَةٍ

(ربما عبّر عن المقام) أيّ مقام عبّر عنه .. صدق عليه ذلك ، فلا يختص بمقام معلوم ، ولكن الغالب على الصوفية الإشارة به لمقامات اليقين ، لأهل المعارف الواصلين إلى كشف العيان ، والتمتع بالشهود والعرفان .

ولربما عبّر عنه ذو لطيفة وذكاء وهو بعد لم يصل إلى التحقق به ؛ وذلك لمن وقف عليه دون أن يطلب حقيقة علمه .. مكرّ وغرورٌ ؛ لأنه يقف به دون أن يطلب مزيداً ، وكثير ممن تَوَقَّفَ بهم تلك الأمانئ ، وتصدّهم هذه الأشجار المورقة من غير ثمار ، فيحرمون المزيد ، فينجرّ بهم الأمر إلى الرجوع إلى طلب المنزلة عند الخلق ، والتقرب إليهم ، وطلب رفع الصيت لديهم ، فلا ترى ما يفتح عليهم من قبائح الأفعال ، وردائل الأحوال ، فيغمرون في غمرة الهوى ، ويتلبّسون بملابس الدعوى ، ويعرضون عن القُرب السنية ، والهمم العلية ، وهم يُستدرجون شيئاً شيئاً ، ولا يعلمون ذلك ، أعاذنا الله من ذلك ، ولطف بنا مما هنالك ؛ فذلك لا ينفك عنه سالك ، إلا من لطف به اللطيف ، فتعلق قلبه بالجمال الأزلي ، والمشهد الأسنى العلي ، فيقول لسان حاله :

ألا ليس لي في غير ذاتك مطمَعٌ ولا أربُّ دون اللِّقالي يسنح
ولم تقفِ الآمالُ عنك لموقعٍ ولم تشهدِ الأعيانُ دونك ملمح
وربما عبّر عن المقام من وصل إليه وتحقّق به ، وألقيت ملابسه عليه ، وذلك ملتبسٌ على عموم الخلق ؛ فلذلك قلّ نفعهم ، وتفرّق

جمعهم ؛ لأن المدّعي للمقام والمتصدي للكلام قبل أوان الأهلية . .
يقُلُّ نفع المستمع له ، ولا يرفع المبتدئ عن حضيضه الجبلي إلا نظراً
سني ، ونفس أقدسي ، عن الأغيار نقي ، وقليل ما هم ؛ كما أنشد لسان
الحال عنهم :

فدوهمه عليا تطيرُ بسالكِ إلى أوجه العلوي ومحتده السني
ويرقى بروح القدس في كل حضرة ويوردُ مريداً طيبَ مشربه الهني
عليه سلام كلما لاح أيكه على دوحه تزهو في الريح تنثني



وذوو البصائر سماسرة الحقائق ، نقاد خالصي الحق من زيفه ،
يعرفون المتكلم في الكلام ، ويعرفون السالك في النظام ، لا يخفي
عليهم الحق بتليبس الباطل ؛ فبعضهم يعرف الحديث النبوي من كلام
الصحابي من كلام التابعي ، وبعضهم يعرف الشريف العلوي بكلامه
وإن لم يره ، ويميزون كلام أهل كل مقام في فحوى الكلام ؛ فللصادقين
أعلام يعرفها أولو الأفهام .

ومن الصدق : ألا يتكلم المرید السالك إلا بإذن أو غلبة ، كما
تقدمت الإشارة إليه ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعْتَرِ عَنْ وَارِدَاتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُقِلُّ عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ ، وَيَمْنَعُهُ وُجُودَ الصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ

(لا ينبغي للسالك) وهو السالك إلى الله على نهج الصدق ، الذي لم يقصد في سلوكه سوى الله سبحانه ، وكلُّ طالبٍ لمقصدٍ سُمِّيَ سالِكاً في سبيله ، وشرف السالك والسبيل شرف المقصد ، وأشرف المقاصد قصد وجه الله ؛ أي : ذاته الكريم ، وأشرف الطرق طريق الله ، وأشرف السالكين السالك إلى الله ، ولا يستحق أن يسمى سالِكاً غيره ، وكل سالكٍ لغيره . . فهو هالك لا سالك .

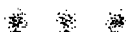
فإذا وردت على السالك بشائر الوصال ، وسوابق الاتصال من الكبير المتعال ، مما يجعلُ عن المشال ، أو يُكَيِّفُ بمثال ، ويضيق عن إبرازه نطاق المقال ، لا ينزل من حضرة الجمع والإجمال . . فيحتاج مَنْ يريد إظهاره ، ولم يقدر على إضماره إلى العبارة ؛ ليكشف عنه ستاره .

وما دام المرید في أوان التخلص عن ظهور النفس ورؤيتها . . لا ينبغي له أن يبادر إلى التعبير بما ورد عليه من ذلك السر المصون ، والعلم المكنون ؛ لأن في ذلك شهرة للنفس وإظهار فضيلتها ، وبظهورها يظلم نورها ، فيقلُّ انتفاعه لا محالة ، ويمنعه وجود الصدق مع الله ؛ لأن الصدق يقتضي أن يكتفي بنظر الله وعلمه فيه عن نظر المخلوقين ، ويقنع بالله عمَّن سواه من الكونين حتى يراد لذلك ، وليس كما يظن ؛ فيكتب في جريدة أرباب الفضول ، الذين احتبسوا في مضايق النقول والعقول ، ولم يشموا رائحة الوصول إلى المأمول ، فنسأل الله أن يهدينا لما هو الحق عنده ، والصواب

لديه ؛ إنه ولي الهداية وواهبها ، ومنيل الفضائل وسائقها .

والمطلوب للمريد : الانتفاع بما ورد عليه ، والازدياد في التحقيق بالصدق فيما لديه ، فإذا عُدِم نفع وارده ، وحُرِمَ صدق مراده .. فهو إلى البعد أقرب ، ومن درك الصدق أهرب ، ولي في ذلك :

فالسالك الصدق لا يفشي إلى أحدٍ من سرّه كل ما وافاه من مَنِينِ
إياك تستعجلنّ القول فيه إذا أردت أن تبلغنن بالسير للوطنِ



فالسالك - كما علمت - : هو الذي تجرّدَ عن الأكران جملةً لطلب المقصد ، وله أحكام في سلوكه : إما أن يكون متجرداً في الظاهر والباطن ، وإما أن يكون متجرداً بالباطن دون الظاهر ، وإما أن يكون متجرداً بالظاهر دون الباطن ، وإما أن يكون مختبلاً بالظاهر والباطن ، وذلك أمره ظاهرٌ لا يحتاج إلى بيان ، ولا يرفع به في طريق القوم شأن ، بل يترك وشأنه الذي أقيم فيه ، ولا يُتعرض له إلا من جهة النصح لعموم الخلق ، وبقي الثلاثة الأقسام ؛ فبيان الصادق منهم .. ما ترجم عنه المصنف حيث قال :

لَا تَمُدَّنْ يَدَكَ إِلَى الْأَخْذِ مِنَ الْخَلْقِ . . إِلَّا أَنْ تَرَى الْمُمْطِي فِيهِمْ مَوْلَاكَ ؛
فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ . . فَخُذْ مَا وَافَقَ الْعِلْمَ

هذا معناه ظاهر في بيان الحق من التلبس بما يتعاطاه الجهال
المفاليس ، الذين صحبوا الدعوى ، واتبعوا الأهوا ، وظنوا أن ذلك
توحيد ، وليس كما ظنوا ؛ فالتوحيد لا ينافي ثبوت السنة ، بل يؤيدها ؛
فلذلك بيّن حال الصادقين عن المُدَّعين بقوله : (لا تمدن يدك إلى الأخذ
من الخلق) إن كنت صادقاً ؛ لأن ذلك ينافي الصدق في التوحيد ،
ويناقض الثبوت على التجريد : أنك تطلب المراد وتفترق إلى المرید ،
وتطلب التوحيد وتثبت التعديد !!

فلا تمدن يدك بسؤال إلى غير الكبير المتعال ، فعنده تقف المطالب
والآمال ، وإليه يرغب العباد في السؤال ، فإن كنت متجرداً ظاهراً دون
الباطن . . فعلامته الافتقار إلى الخلق ، والتذلل لهم ، وابتذال المروءة
من أجلهم ، والتعبد لهم ، وانتظار ما يصدر منهم وعنهم ، فيمدحهم
لما يجريه الله له على أيديهم ، ويذمهم إذا لم يقدر له عندهم ، وينال
أعراضهم بالغيبة والتنقيص والشتم إذا وصله أذى على أيديهم ، وذلك
دليل على إظلام سريرته ، وانطماس بصيرته ، ولا يخفى رداءة همة من
هذا وصفه .

ويبقى قسمان : فسالك متسبب ظاهراً ومتجرد باطنياً ؛ وذلك لصحة
توحيدته ، لم يختر على الله ، بل اختار ما اختار الله له في أي حالة
أقامه فيها ، ولم يذمها عليه لسان الشرع ؛ فالذي يطلب التجرد من
غير أن يراد له . . مستعجل للراحة ، ولا يحصل له المطلوب منه ؛

لأنه قام فيه بنفسه ، وكل ما قام فيه بها . . لا يتم .

ولا فرق عند أرباب الفهم في الفضل بين القائم في الشيء بالله والخارج عنه بالله ، ولا في قِلِّ أدب الخارج عن الشيء بنفسه والقائم فيه بنفسه ؛ وذلك إذا علمت أن الله سبحانه قدّر في سابق علمه أن يقيم خلقاً في دارٍ ، ويلازمهم فيها الاحتياج إلى أرزاق قدّرها لهم وحكم عليهم بها ، وبها يظهر سرُّ قهره وغلبة أمره فيهم ، وهذه الأرزاق منها : ما يأتي بتسبّب وسعي في طلبها ، ومنها : ما يأتي من غير تسبّب ولا سعي .

فالأول : يقام فيه المتسبّبون ، وهو حالهم ، فيحتاجون فيه إلى العلم بما يأخذون وما يذرون ، ما يحلُّ أخذه ويجب تركه ؛ فكل من أراد أن يتسبّب بسببٍ . . فلا بدُّ له فيه من علمٍ يكون فيه محسناً ، وفيه متادّبياً ، وإلا . . وقع في ورطات الحرام ، ومهالك الجهل ، وعلامته : حصول النتائج من أعمال البر ، وإيصال ما أمر الله به أن يوصل .

وأما ما يأتي بلا سببٍ ولا سعيٍ . . فهو رزق المتجرّدين ، ولهم أحكام وآداب ، فمن حكم المتجرد الصادق : ألاّ تتعدّى همته مولاة الكريم ، ولا تستشرف نفسه إلى المخلوقين ؛ فذلك قدح في توحيدهِ ، وشرك في تفريده ؛ فقد يأتيه عدوُّه ويحضُّه على التعلّق بالمخلوقين ، وطلب الرزق من المسترزقين ، فيحتاج قوّة يقينٍ يدفع بها تسويلاته ، ويحتجُّ بها عليه بحججٍ قاطعةٍ له عن مناوآته ، وليس ذلك إلا بصدق التوكل ، وقوّة اليقين ، ونفوذ العزيمة ، وعلو الهمة إلى جناب مَنْ بيده ملكوت كل شيء ، وعنده خزائن السماوات والأرض ، ويرى عجز الخلق عن أن ينفعوا نفوسهم ، فضلاً عن غيرهم ، فيعتمد - لا محالة - على

عميم فضله ، ويستند إلى منيع جنباه ، وينتظر رفع ما نزل به من الفاقة ،
ودفع ما ألمَّ به من البلاء من سيده ، لا يتعدَّى إلى غيره .

ومن علامة ذلك : ترك الشكوى إلى الخلق ، والرضا عن المولى
فيما قضى ، والاكتفاء بنظره في جميع الأحوال ، فإذا كمل توحيدہ ،
ورسخ في مقام اليقين تجريدہ . . فلا بد من أن يأتيه ما قدر له من الرزق
المقسوم .

وله في تناوله آداب ظاهرة ، وآداب باطنة :

فمن الآداب الظاهرة : أن يراعي ما حظره العلم عليه من تناول
من الأيدي ، وإلا . . وقع في الحرام والشبهة ؛ فمنها : ما يكون تناول
حراماً ، ومنها : ما يكون شبهةً قويةً ، وشبهةً قليلةً .

فمن الحرام : تناول من يد من ليس له كسبٌ إلا من محرّم ؛ كعامل
الخمير ، وعامل الربا الذي ليس بيده غيره ، أو ما بأيدي أهل الربا الذين
ليس لهم حرفة يستندون إليها ، وأهل الغصب من العمال السلطانية دون
موليتهم^(١) ؛ فإن أموالهم شبهة قوية ، لما قد يدخل أيديهم من الأموال
الضائعة والفيء ، وغير ذلك مما لا يبعد وجود الجلب في أموالهم ، وأما
عمالهم . . فهم الذين لم يوجد في أيديهم إلا سحت الحرام ، فليحذر
منهم أشدَّ من الحذر من الملوك نفوسهم .

ومن تقوى الشبهة فيما بأيديهم الجند الذين لم ينتظم لهم بيت
مال ، بل يأخذون ما بأيديهم بالشوكة والتغلب ؛ كما هو الموجود في
هذه الأعصار في سائر الأمصار .

(١) في (أ) : (موليتهم) ، وفي (ب) : (مواتتهم) بدل : (موليتهم) .

ويلحق بهم المخالطون لهم ، والمتشبهون بهم في الزي والهيئة ، وأرباب الصناعات المكروهة كالصياغة ، ومن يباشر حرف الظلمة كائنة ما كانت .

ويلحق بهم أعمار الأعراب ، ومن لا يكثرث بالسُّنة ، ولم يعامل بالعلم ، وأرباب الأوقاف المتهورين فيها ، الذين اتخذوها دولة ، ويحسبونها من جملة أموالهم ، ويصرفونها بحسب أهوائهم على غير ما شرطها الواقفون وسائر أهل الولايات الدنياوية ؛ كالحكام ، وقضاة الأمصار ، والعراف ، وأهل الاحتساب .

وَمَنْ يَأْكُلُ بَدِينَهُ وَيُظْهِرُ غَيْرَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ التَّصَوُّفِ ؛ لِيُعْطَى مِمَّا هُوَ مَوْقُوفٌ عَلَى الصُّوفِيَّةِ ، أَوْ يَظْهِرُ الْعِلْمَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لِيُعْطَى مِمَّا هُوَ مَوْقُوفٌ عَلَيْهِمْ ، أَوْ لِيُعْطَى مِنْ غَيْرِ وَقْفٍ لَذَلِكَ .

والمتجبرُ متعزِّضٌ لذلك كله ، والسبب مع السلامة من هذه المهالك أولى به ، فهذا بعض الآداب الظاهرة ، وإن أردت استقصاءها على الكمال . . فعليك بمطالعة كتاب (الحلال والحرام) من « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي .

ومن الآداب الباطنة : عدمُ التطلع والاستشراف إلى الخلق ، والطمع فيما في أيديهم ، وتعلُّق الباطن بإقبالهم وإدبارهم ، واتباعُ إشارة القلب الأولى في ترك ما تجد نفرته منه في أول وهلة ، وردُّ النفس فيما تدعو إليه ، وتجنبُ أرفاق الأحداث والنسوان الذين لم تحتكهم الآداب ما أمكن^(١) ؛ فإنَّ قبول أرفاقهم أدعى لهم بالقرب والموادَّة والمخالطة - ومخالطتهم منهئي عنها كما علمت من قواعد أهل الطريق - وأوقع

(١) الأرفاق هنا : العطايا والخدمة .

في قلب المرید ؛ لسريان أخلاقهم إليه ؛ الذي هو مطالبٌ باجتنابها والخروج منها .

وليس الإنسان على الاستشراف على الرزق من حالته ملوماً ؛ لأنه ضعيفٌ محتاج ، بل فيه إظهارٌ لما هو المطلوب منه ؛ من الذلة ، وقلة الحيلة بين يدي ذي القوة المتين ، فإذا قام بحيلة الاضطرار . . فلا حرج في السؤال لمن يسكن به داعية الطبع ؛ فمن مات جوعاً وهو يقدر على أن يسأل ما يرد ريقه . . مات قاتل نفسه ؛ كما ورد في معنى ذلك الحديث ^(١) ، هذا إذا لم يؤيده الله بقوة في حاله تغنيه عن ذلك .

وأما أهل الصدق الذين باشر قلوبهم روح اليقين . . فلا يحتاجون إلى السؤال ^(٢) ، بل همته لا تخطئ سجاده إن كان جالساً ، ولا تخطئ خطواته إن كان سائراً ، يسير على مهل ، لا يستفرغ الحرص على إدراك ما هو غائب عنه ، ولا الاستعجال لما هو حاضر لديه ؛ لعلمه أنه إن كان له قسم . . لم يفته وإن تأتى ، وإن لم يكن . . لم يدركه وإن تعنى ؛ فيمثل ذلك اطمأننت القلوب إلى جناب المحبوب ، وسكنت عن اضطرابها ، وسلمت من وبال الشك ، ووقفت عند حسن الاختيار ، وصح لها مقام الانتظار ، وطابت لها الأوقات بالأذكار ، وصفت لها الأفكار آناء الليل والنهار .

فإذا أحكمت مقام التجريد ، ورفعت الهمة عن النظر إلى العبيد إلى الحميد المجيد . . فخذ ما أتاك من يد مولاك ، فإن كان فاضلاً عن

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣٩٠/٦) من كلام سفيان الثوري بنحوه ، ونبأني لفظه (ص ٦٧١) .

(٢) هذا هو القسم الأخير الذي بقي مما ذكره أولاً ؛ بأن يكون السالك متجرداً ظاهراً وباطناً .

غناك زائداً على كفايتك . فأخرجه من يدك حالاً ؛ لئلا يكون حائلاً
بينك وبين مولاك ، واحذر آفة الردّ بعدما تستكمل الأدب في الأخذ ،
فإذا ساق الله إليك غنى . . فاقبل عطيته ، وأكرم هديته ، ثم ضعها في
مرضعها .

ثم الفقراء والزهاد في الإِدْخار على حسب ما عندهم من اليقين ؛
فمنهم : من لا يحبس شيئاً لقد ، ومنهم : من يدّخر لأربعين يوماً ،
وأخرهم مقاماً : من يدّخر لسنة ، وفوق السنة يخرج به إلى حيز الراغبين
في الدنيا ، المكائرين والمتهورين في الأسباب ، الذين لم يبالوا بموقف
الحساب وطول العتاب . هذا في أحكام المرئيين السالكين .

وأما المتحقّقون والنجباء الموجّدون والسادات العارفون . . فهم
ثلاثة أقسام :

قسم لا يسألون ، وإن أعطوا . . لم يقبلوا .

وقسم لا يسألون ، وإن أعطوا . . قبلوا .

وقسم يسألون عند تحقق الفاقة .

فالأول : هم الروحانيون ، والثاني : هم الصادقون ، والثالث : هم
المتقون ، ولي في ذلك :

فلا تمدّ إلى غير الإله يداً فذاك سُزُكٌ خفيٌّ عند ذي النظرِ
إذا صفا صِرْفُ توحيدٍ فما تجدُّ فاستعمل العلم تلقى غاية الظفرِ



فإذا كان النظر إلى الخلق شركاً فيما يأتيك من أمر الرزق . . ففي
طريق العارفين النظرُ إلى النفس وحظها نقصٌ ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

رُبَّمَا اسْتَحْيَا الْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ اِكْتِفَاءً بِمَشِيئَتِهِ ؛ فَكَيْفَ
لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى خَلِيقَتِهِ !؟

(ربما استحيا العارف) في حال تجلّي كمال شهود الحقيقة على قلبه ، واستغراقها لِسِرِّهِ ، وامتلاء روحه في لمحات الجمال ولائحات الجلال ، واستشعار دنو الرّصال إلى حضرة الكمال ، وهذا لا يكون كلياً في هذه الدار الدنيا ، وهو الذي سبى روح الخليل حين رُمي إلى النار ، فلم يفتقر إلى الأغيار ، ولم تظهر عنده الأثار ؛ التي من جملتها لهيب النار ، فكان شاكراً بشرب عقار ، فهناك بانّت له الأنوار ، وخاطبته الأرواح ، وواصلته الأفرّاح ، فكان مطلبه وغاية ملمحه الكمال الذاتي ، الذي يعطي البقاء به الغيبة عن النفس ، واضمحلال المحس ، فكان بعلمه مستغنياً عن الرجوع إلى ما منه من الدعاء .

والعارف هو العارف بالله - ولو من بعض وجوه المعرفة - وبصفاته وأفعاله معرفة تعطيه ذوق العلم الذي لا يتطرّق إليه جهلٌ فيما علمه ، ولا ريبٌ فيما فهمه ، العارف بدين الله وأحكامه ذوقاً وتحققاً أيضاً ، يعمل على البصيرة المنيرة ، والمحنة المستنيرة ، ففي حال اصطلامه في شهود الكمال .. يستحيي - لا محالة - عن رفع الحوائج ؛ لتحققه بأنه لا ينال من مولاه غير ما قدر له ، وإن دعا مع ذلك .. فهو بحكم العبودية ، لا أنه ينال بدعائه غير ما قدره له .

فهو في حال تحقّقه بهذه الحالة وإشارة الحال له بالسكون في هذه .. يستحيي من مولاه أن يستدرك عليه في علمه ، أو يشاركه في حكمه ، أو يذكره ما قدره في سابق علمه ، وكيف يُذَكَّرُ مَنْ لَا

يجوز عليه الإغفال؟! وقد علمت أن الغفلة نقص ، وهو مستحيل
عليه النقائص ، تعالى الله علواً كبيراً ، فإذا كان مستحيّاً من الله أن
يرفع إليه حاجته . . فكيف لا يستحيي أن يرفعها إلى غيره؟! فذلك
أحرى .

وفي أغلب أوقات السؤال بحكم الامتثال ، فيسأل قليل حاجته
وكثيرها منه ؛ فإنها لا توجد عند غيره وإن قلّت ، ولا تنال إلا منه
وإن جلّت ؛ فسؤال الأعيار قبيحٌ عند ذوي البصائر الأحرار ، فكيف وقد
أمرهم إليه بالفرار؟!

فأرواحهم إلى ظل أحديته ساكنة ، متمترة عن رؤية الغيبة وظلمة
البشرية ، مفتقرة إلى خيره ، مستجيرة من ضيره ، فعند أولي الهمم العلية
والمشاهد السنية سؤال الخليفة أشدُّ من لهيب النار ؛ لِمَا يعترهم به من
الخجل والعار ، بين يدي الواحد القهار ؛ أن يكونوا لغيره مثبتين ، وفي
أحديته مشركين ؛ فهم الذين يلقونه وحوادثهم تختلج في صدورهم ،
لا ييثون بشهم إلى سواه ، ولا ينزلون حوادثهم بغيره .

يروى أن بعض الصادقين الذائقين شراب المقربين كان يرقبه إنسان ،
كلما خرج . . طاف بالبيت ، ثم نظر إلى رقعة كانت معه ، فلما كان يوم
من الأيام . . تنحى ثم خرَّ لوجهه ميتاً ، قال : فنظرت في تلك الرقعة ،
فإذا فيها : ﴿ وَأَضْرِبْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، قال : فعرفت أنه كانت به
فاقة ، فاستحيا من خالقه أن ينزلها بغيره حتى قبض^(١) .

ولا منافاة بين هذا الكلام وما تقدم من معنى الحديث : (من مات

(١) الرسالة القشيرية (ص ٤٣٧) .

جوعاً وهو قادرٌ على أن يسأل ما يسدُّ به رمقه .. مات قاتل نفسه (١) ،
فإذا قال قائل : كيف يسوغ له مع قدرته على السؤال [أن] يموت ؟

فنقول : موته بذلك غير محقق ، وبتقدير ذلك .. فاعلم : أن هذا
رجل غلبت عليه شهود أحدية الواحد الحق ، فلم يظهر للأغيار آثار عند
غلبة تجلّي مشرقات الأنوار حتى أتى أجله المعلوم وهو فيها مصطلم ،
ويها عن نفسه منعدم ، لا إحساس عنده بالألم ، بل انطمس كما يتوهم
من كل مؤلم وملائم في يَمِ العدم .

فلا حرج ولا إثم هناك له ولا عليه يقول اللوم من عتبا
بل عينه رمقت صرف الشهود فما في ذلك إلا وجود الكون قد ذهب
فإن أردت ثبوتاً لا محاولة عنه تقول : هو فيه شبه هبا
فالحوائج لا تنزل إلا عليه ، والمطالب لا ترفع إلا إليه ، قال سهل بن
عبد الله : (إن الله مَطَّلَعٌ على النفوس والقلوب ؛ فأئماً نفسٍ أو قلبٍ
وجد فيه حاجة إلى غيره .. سلط عليه إبليس) اهـ (٢) .

وذلك أن القلب موضع نظر الحق ، فإذا جعل فيه غيره .. فقد جعله
مصروفاً إليه ، ومقبلاً عليه ؛ لأنه - أي : إبليس - مفتاح طريق البعد ،
وقائد ركب الضلال ، يستهوي الحمقى والجهال بالشكوك وأمانى
الغرور ، ويلقي قول الزور ، ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُّكَ الْفَقْرَ ﴾ ، وكل من افتقر إلى
شيء دون الله .. فهو من وعده الباطل ، وتزويره المائل ، ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُّكُمْ
مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ﴾ ، فأى الوعدين أنت به أو تتي . فأنت به أحق ،

(١) تقدم قريباً (ص ٦٦٧) أنه من كلام الثوري رحمه الله تعالى بلفظ : (من جاع ولم
يسأل ، فمات .. دخل النار) .

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٩٤) .

وبقائه أصدق ، ويتسلسله أحق ، ولشهوده أرمق ؟

وتعلق المقربين بالله دون الخلق جملة ، لا يرمقون مراداً دونه ، ولا
يؤثرون حالاً ولا مقاماً عليه ، بل هم وقف على التعلق بمليكتهم ، قطعوا
أطماعهم من إيصال انتفاعهم أو دفع مضارهم إلا منه وبه ، فهم كما
قلت :

لا يؤثرون عليه من الوجود مرادا	علقت قلوب الأولياء بربهم
في سُبُلهم وسلوكهم مرتادا	فهمُ الرجال القائمون فكن بهم
كسراب يشهد من بقوع بعادا	إن الوجود بأسره في قربهم
أن يرفعوا الحاجات ثم عتادا	فلربما استحيوا لغلبة شربهم
في غيره الأمسال لا تعتادا	هكذا فكيف تكون نازلة بهم
كم من مسلسل ثابت الإسنادا	حيا الإله أحبتي في حزبهم
عمن له التصوير والإيجادا	برويه خاصية الجنان بحبهم



فلأهل البصائر معايير لطيفة ، يميزون بها بين حقائق الأعمال
ولطائف الأحوال لا يعرفها غيرهم ، والقائمون على الرسوم الظاهرة
تلتبس عليهم الأعمال ، فليس ثمَّ غير أن يعرضوها على أنفسهم ؛ فكل
ما استثقلته . . فهو الأرجح والأحرى ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا أَلْتَبَسَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ .. فَأَنْظُرْ أَثْقَلَهُمَا عَلَى النَّفْسِ فَاتَّبِعْهُ ؛ فَإِنَّهُ لَا
يُنْقَلُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا كَانَ حَقًّا

هذا ميزان لأرباب النفوس المحجوبة المجبولة على اتباع الهوى وإيثار الشهوة ، وأما النفوس الزكية المطمئنة .. فلا ينصب لها هذا الميزان ؛ فقد تستثقل الباطل ، وتستخف الحق ؛ لاتصافها بصفة القلب ، وهذا الالتباس في الأمور الدينية : إما واجبات أو مندوبات ، وأما ما نصَّ على حظره أو كراهته الشرعُ ، أو على وجوبه أو نديه .. فلا التباس فيه .

وإنما يكون الالتباس في المأمورات والمباحات ؛ وذلك أن النفس الحيوانية من طبعها وجبَّلتها إيثار ما هو الأصل ، وأصل النفس من حيث امتزاجها بأركان العالم السفلي : النازُّ والترابُّ والماءُ والهواء ؛ فهي أبداً تطلب هذه الأصول .

فالتار بما فيها من الدواعي الشيطانية ، والتسراب بما فيه من الذلة والجبانة الحيوانية ، والثقل عن المنازع العلوية والمشاهد الروحانية - وقد علمت أن هذه الصفات عدمية باطلة ظلمانية - وبما فيه من لطافة الهواء وليونة الماء التي هي من صفات القلب والروح تكون الدواعي القلبية وطلب الأفضلية ، فيحصل - لا محالة - الالتباس ، فيحتاج العرض على هذه النفس ، فإنها تسارع إلى حظها ، وتطلب ما فيه نيل غرضها ، بحسب ما فيها من العجلة والقوة النارية ؛ فهي تسارع ما تقتضي الجبلة ، فالحق ثقيلٌ عليها ؛ لمخالفته لعالمها الظلماني العجلي الحيواني .

كما علمت أن ما فيها من نور القلب اللطيف والسر الروحي العالي يطلبان أصلهما ، وهما نازحان عنه ، غريان عن وطنهما ، والغريب لا يكون له من الحكم ما للأهل ، فكان مطلبهما صعباً ما دامت القوة الشيطانية النارية ، والشهوة الأرضية متحكمتين على المحل ، فلا يتأتى مطلب القلب والروح إلا بعد مزيد مجاهدة وشدة عناء ، فإذا غلب الحق .. زهق الباطل ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ؛ لأن النار - وإن كانت قوية - فإذا سلط الماء عليها .. قهرها ، وأذهب سلطانها ، واحتبس شيطانها ، فتحقق أن الباطل لا يقاوم الحق إلا إذا تحكّم على المحل ، وكان باطلاً صرفاً .

وأما حيث تقاوما وتصادما .. فقليلٌ حقٌّ يُذهب ما ظهر في صورة كثير من الباطل .

والقلب والروح حق ، والنفس والشيطان باطل ، وللنفس والشيطان مخادع وغوائل وحبائل في الأعمال ، يصاد بها الحمقى الجهال ، ويميزها الأبطال من فحول العلماء ونجباء السالكين ، حتى يترقوا إلى شهود عين اليقين ، فيغنوا بنور اليقين عن نصب الموازين .

والنفس عند الطائفة لها إطلاقات كثيرة : فنفسٌ أمارة أرضية هوائية حيوانية ، ونفسٌ لوامة لدنوها من الأنوار القلبية ، ونفسٌ مطمئنة روحانية .

وهل المراد بالنفس المذمومة : الفعل المذموم أو محله ؟ فقائل يقول : نفس الفعل ، وقائل يقول : محله ، ولا فائدة في ترجيح أحد القولين على الآخر .

ومن الموازين المحققة للباطل من الحق : عرض الحالة الراهنة

على الموت ؛ فكل أمرٍ لو أتاك الموت وأنت عليه لم تطلب الانتقال
إلى غيره .. فهو حق ، وكل أمرٍ يكون على غير ذلك .. فهو باطل ، ولي
في ذلك :

إذا التبس من أمور الدين أحسنها

على المرید سلوك الصدق في الطلب

فليعرضنَّ على النفس الجموح فما

تختار إلا الذي هو يعقب العطب

فالنفس في كثرة الأطوار عدتها

مع توخُّدها في حضرة القرب



فمن جملة علامة اقتران الهوى بالعمل ، ودخول آفة الجهل فيه ..

ما ذكره المؤلف رضي الله عنه حيث قال :

مِنْ عَلَامَةِ اتِّبَاعِ الْهَوَى : الْمُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ ، وَالْتِكَاثُلُ عَنْ
الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ

هذه علامة ظاهرة لأهل البصائر الناظرة ، والعقول الباهرة ، يتميز
بها ما كان لله مما كان لغيره ، ويعرف العمل المشوب بالهوى المعمول
على حسب مقتضى النفس .

وأبغضُ لله عُبد في الأرض الهوى ، فالعامل بالهوى لا يأتي منه إلا
ما ينتجه الهوى ؛ من التبذخ بالدعوى ، والإدلال على المولى ، وقبائح
الإعجاب ، وقضائح الرياء ، وطلب عاجل حظوظ الدنيا ، ودلالته على
من قام به : أنه يسارع إلى نوافل الخيرات ؛ من التصدق والتكرم بالمال
مع أنه لم يؤدِّ ما هو متعينٌ عليه من الزكوات !! أو يطلب ويأخذ في
نوافل الصلوات ولم يقضِ ما فَرَّط فيه من الواجبات !! ويهجر الخلق ولم
يهجر قبائح الخطايا ورتائل الهفوات !! ويخرج الجوائز والصلوات ، وهو
يتناول المغصوبات والشبهات !!

ومن أمعن النظر في ذلك .. رأى معظم أحواله وجملته أعماله
تفريط وتخليط ، يجب عليه التوبة منه وهو يظنه من قسم الطاعات
والقربات ؛ لذلك قال بعض الشارحين : (إنما حرموا الوصول ؛ لتضییع
الأصول)^(١) .

فإذا ابتدأ في السلوك ، وأقبل على الله بالتوبة .. أخذ في تحصيل
النوافل ، والسعي في مهامه القفار ، آناء الليل والنهار ، والتردد في
الأسفار ، إلى المشاعر ورؤية الأخيار ، ولم يردَّ مظلمة !! ولا استحلالاً من

(١) قاله في « غيث المواهب » (٧٨/٢) نقلاً عن محمد بن أبي الورد .

جريمة !! ولا أدنى واجب ما فرط فيه !! مع أنه أهم مما هو ساع فيه ،
ومن نظر بنظر أولي الأبصار . . ظهرت له مهاوي الاغترار ، وعرف ما
هو النافع في علاج دائه وما هو الضار ، فاشتغل بما هو الأهم والأولى .
وبعدما يحكم المقام على التمام . . يثبت له القيام ؛ بالتقرب بنوافل
الصلاة والصيام ، والصدقة والحج وسائر واجبات الإسلام ؛ فهي الأساس
الذي تبنى عليه مراتب السالكين ، والنهج الذي يسلك عليه المريدون ،
والقليل من العمل مع السلامة من دواخل العلل في الأعمال . . خيرٌ من
الكثير مع الوقوع في حبائل الغرور ، ومخائل الزور ، واتباع هوى النفس ،
وقيام انتصارها ، ورؤيتها أن لها ومنها ، وأنها أهل الفضيلة أو محل
الرسيلة ؛ فالكثير مع إهمال التفقد في دقائق أخلاقها ورتائل أحوالها . .
غير نافع ولا يعتدُّ به أهل الأفهام الثاقبة ؛ فالتفقد في تطهير الأخلاق
مفترضٌ عند أولي الفهم الصافي عن كدورة الهوى ، فلا أهم للمريد من
تفقد أخلاقه ، وتصفية أحواله ، ولي في ذلك :

كمنون سر الهوى في النفس يعرفه

من كان ذا بصر في الدين معتبر

ومن علامة ذلك أن تراه إلى

كسب النوافل دون الفروض يتدر

فكيف تهدي صنوف البر وأنت على

محبرم أو واجب جا عنه مقتصر

إن الأساس هو التقوى عليه إذا

أردت أن تبنى الأركان فاعتبر



فإذا علمت أن أفضل ما تقرب به العبد إلى الله هو أداء ما افترضه الله عليه ، وجعل الإتيان بها مقدماً على كل ما يقرب العبد إليه ، فكانت أبواب منها تدخل كل فضيلة ، وتبتغي كل وسيلة .. حتّى عليها عباده جثاً أكيداً ، وعلم أن منهم من يستغزه الشره . ومنهم من يغلب عليه الكسل ، فقيد بأوقات ؛ لينهض إليه من غلب عليه الثقل الجبلي ، ووسع عليهم تلك الأوقات ؛ ليبقى لهم فيها ما يتأهبون به ، ويتفرغون عن الشواغل فيه ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

قَيْدَ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ ؛ كَيْ لَا يَمْتَعَكَ عَنْهَا وُجُودُ التَّسْوِيفِ ،
وَوَسَّعَ لَكَ الْوَقْتَ ؛ كَيْ يُبْقِيَ لَكَ حِصَّةً فِي الْأَخْتِيَارِ

(قَيْدَ) بالأمر الجازم ، والحكم اللازم ، والقيد هنا : تخصيص كل صنفٍ من أصناف الطاعات بوقتٍ من الأوقات ؛ وذلك لأن الأوقات خزائن تبرز من عالم الغيب ، فكأنها رسائل إليك من الله ، تودع ضمنها ذخيرة تدخرها عنده ، وأوسع الدخائر وأنفسها عند الله هو ما افترضه الله عليك من الأمر ؛ وهو إما أمر جازم ، وإما غير جازم ؛ فالأمر الجازم : هو الفرائض .

ثم لما علم ما في جِبِلَّةِ الإنسان من التثاقل الذي هو التسويف . . جعل لها وقتاً معيناً ؛ فإخراج ما افترضه عليه عن ذلك الوقت يكون به عاصياً مستحقاً للعقوبة ، ولا يتخلَّص عنه إلا بصدق التوبة ، وذلك رحمة منه وعناية بنا ؛ حيث ندبنا إلى ما فيه فلاحنا ونيل بغيتنا .

ثم لما علم سبحانه ما يغلب على النفوس من الغفلة وقلة التحفظ . . امتنَّ علينا بما يكمل ذلك المفترض ؛ كل فريضة نوع مما يشبهها ، فيكون جبراً لما عسى أنه فرط ، فترجع تلك الخزائن الوقتية بذخائرها ونفائس ما استودع فيها من أنوار الطاعات شاكراً شاهدةً للإنسان بصلاح الشأن وصحة الإيمان ، فيكون مستحقاً للإكرام من الله والرضا عنه ؛ كما أكرم من نزل عليه بأحسن قرئ .

ثم امتنَّ على العبد بنعمة أخرى ؛ وهي أن وسَّعَ عليه الوقت كي لا يكون في الحرج ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، فتبوسعتها عليه ترتفع عنه ، ويقضي ما هو بصدده من

مصالحه ، ويفرغ قلبه عن الأسباب الشاغلة له عن إكمالها ، فيأتي
بنشاط وطرب وشوق وارتياح ؛ ليكون على أكمل وصف ، وأتم نعت ؛
كما قلت في ذلك :

قَيْدُ لك الأمر كي تأتي إليه ولا يمنعك عنه وجود الطبع بالكسلِ
ووسعه كي يكون العبد ممتهاً إلى فراغ من الأشغال والعللِ
وتلك نعمته أسدى إليه فلا للعبد أن يدخل التسويف في العملِ



وإيجابه سبحانه أمره ، وأمره صادرٌ عن علمه ، وعلمه قديم بالأشياء
وأحوالها وما هي عليه ، فهي معلومة له ، معدومة لأنفسها^(١) ، ويعطيها
العلم بأحوالها عند بروز الأحوال والأعمال عليها في عالم خلقها
وشهادتها حكمة منه .

وأما علمه بأحوالها وكيفياتها وكمياتها ، وإجمالها وتفصيلها . .
فقديمٌ أزلي ، لا يدخل عليه فيه التباس ، ولا يتطرق إليه تبديل ؛ لذلك
قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) فهي ثابتة من حيث العلم ، مفقودة من حيث الذات .

عِلْمَ قَلَّةٍ نُهُوضِ الْعِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ ، فَأَوْجِبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ ،
فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلْسَلِ الْإِيجَابِ « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُفَادُونَ إِلَيَّ
أَلْجِنَّةَ بِالسَّلْسَلِ » (١)

علم سبحانه بعلم قديم ، وعلمه محيط بالأشياء أولاً وآخراً ، باطناً
وظاهراً ، وجوياً وجوازاً واستحالة ؛ فالخلق وأحوالهم وأعمالهم معلومون
له في قدمه كيف يكونون في حال بروز خلقيتهم ، فهم معلومون له
حاضرون لديه ، لا يعزب عنه منهم حال ولا عمل ، ولا حركة ولا سكونة ،
ولا أقل من ذلك ولا أكثر .

وأما لأنفسهم . . فمعدومون حتى يعطيهم العلم بها وبما أراد من
تفاصيل أحوالها لا كليتها ؛ فذلك له في حضرة عنديته التي هي مفاتيح
الغيب التي لا يعلمها إلا هو ، وينكشف لها من عجائب القدرة بحسب
ما ينكشف لها منها ، فهي لا تتعدى فوق ما أعطيت من ذواتها ، فهذا
يجب علينا قبض العنان ، ولنرجع إلى حلّ كلام المؤلف قال :

(علم قلة نهوض العباد إلى معاملته) لما هم عليه من الثقل
الترابي الذي منه منشأ صورههم ، وظهور أثرهم ، ومعاملتهم : هي ما
دعاك إليه من الأوامر التي تقرب إليه ، وتزلف بها لديه ، وتدخل بها
في حضرته ، وتستحق بها محبته ، فلم تنهض لما غلب عليك من
الكثافة الترابية الأرضية ، وعبارة المؤلف بـ (السلاسل) للواجبات
الشرعية بدیع ، وهو قريب من قود الأسير الكافر إلى الدخول في
الإسلام الذي فيه نجاته .

(١) رواه البخاري (٣٠١٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فجميل لطفه لم يترك العباد ومقتضى طبائعهم ، بل ساقهم بتخوينات العقوبات ورجاء المثوبات ؛ فهو المتفضل في ذلك ، وهو مقتضى لطف الربوبية بالمربوب ، وتكليف الحبيب بالمحسوب ، فالخلق مربوبون تحت كنف ربوبيته ، يربيههم كما يربي الوالد الشفيق المحب الرفيق طفله الجاهل بما يعود عليه من الصلاح ، فإذا كشف عند كماله ما سبق إليه ، وأكلف عليه .. شكر صنيع والده .

فكذلك إذا كشف الله لعباده في الدار الآخرة ما أعدّه لهم من الكرامة على ما استعملهم فيه .. كيف تراهم يقولون ؟ ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي هَدٰنَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا اَنْ هَدٰنَا اللّٰهُ ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَقَنَا الْاَرْضَ نَبْوًا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَيَعۡزُ اٰجُرَ الْعٰمِلِيۡنَ ﴾ ، فهذا وما وراء هذا مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت .. ثم ما ساقهم إليه وندبهم ، وأوجب عليهم وحثهم على فعله ؛ لينالوا هذا الفوز العظيم ، والحظ الوافر العميم .

والسلاسل : ما يوضع في الرقبة للقود بالعنف والزجر ، والعجب من الله جائر بالكتاب والسنة^(١) ، لكنته من السمعيات ، ومن قسم الصفات التي يختار تركها على ما جاءت ، فيؤمن بها ، ويترك على ما أراد من ذلك ، كماثر ما جاء من ذلك ؛ فذلك أسلم ، إلا إذا اضطر إلى التأويل ، فيبحث عن تأويل العلماء الربانيين فيها ، فيجدها على أكمل محمل ، ثابتة شرعاً وعقلاً ، ولي في ذلك :

لَمَّا عَلِمَ جَلُّ مَوْلَانَا وَمَوْجِدُنَا أَنَّا كَمَا قَالَ لَمْ نَنْهَضْ إِلَى الْعَمَلِ

(١) يعني : جائر إطلاقه عليه تعالى ؛ لوروده بالكتاب والسنة ، ومما ورد بالكتاب قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَجْعَلُ وَيَسْتَرُونَ ﴾ بضم التاء ، وهي قرآنة سبعة .

أوجب علينا وحدّز سوءَ عادتنا وقادنا قود إيجاب فصيح جلي

فالإيجاب من مقتضى قهر الألوهية ومستحق الربوبية ؛ فمفهور ظاهرٌ بالعدل ، وباطنٌ بالفضل ، وهو القهر على الواجبات المفترضات ، فإذا نظرت ما يعود بسبب ذلك من الفضل العظيم والجزاء الجسيم . . علمت أنه ما أوجب عليك إلا ما هو عائدٌ إليك نفعه ، وصائرٌ إليك غُمنه ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

أَوْجِبَ عَلَيْكَ وُجُودَ خِدْمَتِهِ ، وَمَا أَوْجِبَ عَلَيْكَ إِلَّا دُخُولَ جَنَّتِهِ

والتعرض لنفحات منته وإتحاف نعمته وسبوغ رحمته ، فسبحانه ما أظفه بعبادته !! وما أنقته لمراده !! إذ خزن خزائن الفضل في خزائن العدل ، وطوى وبيل العدل فيما صوّره بصورة الفضل ، فهذه عبارة تشير إلى ما قبلها وتفسّر معناها .

فحيث علمت أن الإيجاب والقود من مقتضى القهر . . . بيّن ما في ذلك من عظيم الفضل ، وأن ذلك يسوق إليه من عباده كلّ من غلبت عليه العادات ، واستولت عليه الشهوات ، فقهرته ، وانقاد لحكمها ، فأوجب سبحانه وأوعد على التخلف عن هذا الفضل العميم بضروب العذاب الأليم ، والخزي الدائم المقيم ، وجعل الواجبات سائقات وقائدات ومزعجات عن الركون إلى مقتضى الجبال ، ومخرجات عن حيز البهائم والجمادات ، ومنيلات لأعالي الدرجات ، ومكسبات لأشرف المثوبات ، لهذا لمن غلب عليه الحجاب ، ووقفت به عن منهج الأحباب ومنازل الاقتراب ، بسطوات الاغتراب .

وأما أهل القرب المشغوفون بحبه ، والمتمتعون بقربه . . فلا يحتاجون إلى القود القهري ، بل يأتون بحكم الطوع والفرح ، فالأسباب تسوق أهل الحجاب الموسومين بسمة الغاقلين والأجناب ، والصفات تهذب السادات المقربين الأنجاب ، فالعارفون من العلماء ، والمقربون من النجباء . . لا يزعجهم خوف الأسباب الغيرية ، ولا تشوّقهم المحبوبات الأثرية^(١) ، بل خوّفهم هيبه وإشفاقاً ، وإجلالاً وتعظيماً ، واحتراماً

(١) في (ب) : (ولا تسوقهم المحبوبات الأثرية) بدل : (ولا تشوّقهم المحبوبات الأثرية) .

وخشية ، وهذه الأحوال كلها لا تكون لغيرهم ؛ لأن العظمة والكبرياء والجلال والقهر والغلبة لم يتصف بها سواه ، وكل مخوف وإن اشتد هوله وعظم أمره .. إنما هو صادر عن تأثيره واختراعه ، وناشئ عن تصويره وإبداعه ، فناهيك بهيبة تصدر عن مشاهدة وصف ذي الجلال ، القائم بها صفة الحال ، الفائضة آثارها على سائر الأفعال ، وذلك معنى ما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم : « نعم العبد صهيب ؛ لو لم يخف الله .. لم يعصه »^(١) .

وأما من كان نعتة الحجاب .. فخوفه يحاكي ما هو متصف به ؛ كما قال عز من قائل : ﴿ كَلَّا إِنَّهُم عَنْ رَبِّهِمْ يَوْشَعُونَ ﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿ فخوف العامة - المحجوبين برؤية الأغيار المضروية دونهم الأستار - : خوف النار ، ورجاؤهم : ما أعد في نعيم الجنة من طيب الأثمار ، واطراد الأنهار ، وافتضاض الأبيكار ، وطمع نظر العارفين إلى رفع الحجب والأستار ، وتجلي الجمال البهّار ، فستان بين الفريقين ، وبون ما بين المقامين !! أهل عليين ترونهم كما ترون الكواكب الدرية الغائرة في أفق السماء ؛ كما ورد في الحديث^(٢) ، فسبحان المتفضل على الكل بما منته وبشهوده .

فنعمة العامة بما أوجبه عليهم وافترضه ، وجعل الفرائض مفاتيح القرب ، لم يحجر عليها دون التوصل إليه بأصناف القرب ، بل فتح لهم من كل فريضة باباً مهيباً إلى محبته واستعطاف رحمته واستدراة نعمته ، « لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه »^(٣) ، فالحمد لله ،

(١) ذكره أبو عبيد في « فريب الحديث » (٣٩٤/٣) موقفاً على سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن ماجه (٩٦) ، وأحمد (٢٦/٣) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٦٥٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فالطرق إليه مطيئة بك ظاهراً وباطناً ، قولاً وفعلاً ، حركة وسكوناً ،
 نظراً وسمعاً ، ﴿ فَأَيَّمَا لُولُؤًا فَتَرَّ وَجَّهَ اللَّهِ ﴾ ، إن لم يوصلك إليه من طريق
 تعرفه ، وابتداء حديثه ، وسبق اختياره ومشيبته . . أوصلك إليه شأن
 هدايته ، والترقي في معارج إنابته ، ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن
 يُنِيبُ ﴾ ، فطريق الجنة هو عينه سبيل الإنابة على وفق المحبة والإعانة
 على القيام بمقتضى الهداية .

وقد أباح للعبد مواسم المغانم ، ووفور الغنائم ، وجعلها في طي
 التعبُّدات وأصناف المفترضات مطويةً كطي النخل في النوى والزروع
 في الحب ، وجعل لكل فرض متمماً من جنسه ؛ ليكون جابراً ما فيه من
 التقصير ، وموفراً لما فيه من التخسير ، ومتمماً ما كان من التحسير ،
 ووعد على فعله من الفضل ما يتضمن له كل طالب ، ويقضي به كل
 مأرب ، وحذّر من التقصير ، وأوعد على تركه بما يزعج الغافل عن
 غفلته ، ويوقظه من سنة شهوته ، لهذا لمن غلبت عليه الكثائف الأرضية
 والطبائع الحيوانية .

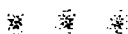
وأما مَنْ نَوَّرَ اللهُ قلبه وشرح صدره بنور هدايته ، وتَوَجَّهَ بنور ولايته . .
 فلا يعبد الله على المخارجة ، بل يعبده على المحبة ، فلا يبرز نَفْسٌ من
 الغيب إلا أكسبه سراً ، وأوجده علماً ، فشهده من حيث صدر ، فيبتدره
 بالإكرام ، وينزِّهه عن مقارفة الآثام ، فالوقت كله لهم وقت واحد ،
 فهم ^(١) أهل الصلاة القائمة ^(٢) والكلمة الجامعة ، ولي في ذلك :

ما أوجب الحق من فرض وحث على طاعات نفل فمرجع ذلك العمل

(١) في (أ) : (معهم) ، وفي (ب) : (منهم) بدل : (فهم) .

(٢) في (ب) : (الدائمة) بدل : (القائمة) .

إليك إن كنت ذا فهم سليم فلا يحتاج حتى متى وهو الغني الأزلي
أوجِب عليك لكي يدخلك جنّته ويبلغك فوق ما ترجو من الأمل



فباب فضل الله واسع ، ورحمته عامة ، ومنته تامة ، وهو الغني عن
أعمال العباد ، المتسمي بالكريم والجواد ، ينيل من لم يرجه ، ولم
يؤمل ما عنده ، فكيف من علقته به مطامعه ، وانبسطة إليه حوائجه ،
ورفعت إليه شكايته ، وضرع إليه ، وتوسل به إليه ويكل من له عنده
جاء؟! فلا يستغرب ولا يستبعد أن يقبله ويمنحه غايات الآمال ؛ لذلك
قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنْ اسْتَعْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللَّهُ مِنْ شَيْئِهِ ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ . .
فَقَدْ اسْتَعْجَزَ الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ : ﴿ وَكَانَ تَدْعُو كَلِمَةً فَتَبْهَتُهَا ﴾

من استعرب واستبعد وقوع ممكن من الممكنات ، أو دفع نازل من التنازلات مما هو من قسم الجائزات من سائر الأشياء المقتردرات وإن جلت ، ودفع نازلة من التنازلات وإن عظمت ، وإدراك مستمى من المسميات وإن دقت . . فذاك لقصور فهمه ، وغلبة سلطان وهمه عن درك ما هو وصف من صفات الله الجليلة ، ونعت من نعوته العلية ؛ إذ [هو] من صفة نفوذ القدرة وصلاحيتها لكل ما خصصته المشيئة الأزلية ، وسواء كان من الأعيان الحسية والأجسام الصورية ، أو من المعاني الغيبية الملكوتية والجواهر الروحية ، أو من الأعراض المعنوية ، أو من مجموع ذلك وفوق ذلك من كل ممكن .

والشهوة : عرض من هذه الأعراض ، لا يعجز الله عن تبديلها ، ولا يؤوده تحويلها إلى ضدها ، فالتبديل للسيئات من الله لعباده التائبين مألوف ، وضد ذلك غير معروف ، فمن فضله الفاضل العميم : أن أخبر بذلك ، ونبّه على ما هنالك بقوله وقوله الحق : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ ﴾ ، فالإيمان يقتضي حسن الظن بالله ؛ أنه ما ألهمه التوبة ويسر أسبابها وفتح لها أبوابها . . إلا وهو يريد به أن يجعله من خواص أحبائه ، ويدنيه من حضرة شهوده واقترابه .

فليحمل على المسارعة إلى الخيرات واستعمال الصالحات ، ولا يصدّه عن بابها ما قارفه من السيئات ، وما طالت فيه ممارسته للخطايا والهفوات واتباع الشهوات ، فقال عزّ من قائل متقرباً إليه ومتعطفاً عليه ،

ومواصلًا له بعد القطيعة : ﴿ فَأَوْلَيْكَ بِدَلِّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ ، ويرفع
حسانتهم درجات ، ودرجاتهم مشاهدات ، ومشاهداتهم مواصلات ،
ومواهبَ أطفافٍ ، ونيلَ إسعافٍ ، وتنزلاً ودنوًا ، وغير ذلك مما لا يسع
العقل فهمه .

والشهوة : شيء مما هو مقدور لقدرته ، ومقهور تحت قهر ألوهيته ،
والغفلة : وهمٌ يضمحل عند إشراق أنوار مشاهدته ، فكيف يبتس من
تمكَّنت منه أسبابها ؟ بل يطلب من فضله أن ينفذه منها ، فهي عليه
يسيرة وإن عظمت ، وقليلة وإن كثرت ؛ كما رأيت وشاهدت من أحوال
من سبقت منهم كبائر الذنوب وفضائح الأمور ، وعادوا بفضل الله سادةً
قادة ، وأعلاماً لمنازل السعادة ، فلا يحصى عددهم ، ولا يمكن حصرهم ؛
ممن قد تلبَّس بزنا ، وعابد صنمٍ ونار ، وكوكبٍ من الكفار .

الذين سبقت لهم من الله عناية ، لم يضُرُّهم ما قارفوا ، وممن لبث
أزماناً على إدمان المعاصي ، وتُدوركَ من الله ونال أعلى المنازل ؛
كسادة العارفين فخر اليمن أبي الغيث وغيره ، مثل ربيع المافودي ؛ كما
روى عن نفسه : أنه كان في سالف الزمان مقدماً لجماعة قطاع الطريق ،
فتُدوركَ فأصبح قطبَ التحقيق ، وغيره من أكابر هذه الأمة .

فلا يقطعنك عن فضله بأسك ، ولا تردن عن يابه رأسك ، فعند
إدمان الطلب . . تدرك الأرزب ، فعطاؤه لا يحجبه السبب ، ولا يجلبه
النسب والحسب ، فالعيد ما لم يغرغر ولم تطلع الشمس من مغربها . .
معرَّضٌ للتوبة ، ومتسبِّبٌ للأوبة ، فيرحم الله الأبوصيري حيث قال :

يا نفسُ لا تفتنِّي من زلَّةٍ عظمتْ إنَّ الكبائرَ في الغفرانِ كاللِّمَمِ
فمن استغرب ذلك . . فقد نسب القدرة الإلهية إلى المعجز المستحيل

عليه كسائر النقائقص ، واستشهاده بالأية الجامعة لعموم القدرة لسائر الأشياء من أبلغ الدلائل ، وأوضح العلامات وأنجح الوسائل ، فلا يختص بها شيء دون شيء ، بل الأشياء كلها داخلَةٌ تحتها ، ولم تخرج أنت ولا شهوتك عن الأشياء فتكون مستغرباً ، وما وصف به نفسه من قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ ، فقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ ﴾ فهذا وصفه والأشياء لم تكن بعدُ ، لكنها له معلومة وجميع تفاصيل أحوالها ومعانيها ، فالكان وصفه ، والكون فعله ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « كان الله ولا شيء »^(١) ، ولم يفارقه هذا الوصف دائماً سرمداً ، وقوله : ﴿ مُّقْتَدِرًا ﴾ أي : فاعلاً ومخترعاً ومبدعاً ، فكيف تستغرب منه فعل ما هو موصوفٌ باختراعه ، ومستبدٌ بإبداعه؟! ولي في ذلك :

ككيف يستغرب أن الله ينقذه من شهوة طالما قد كان يأتيها
إن الكبائر لا تعظم فتحبسه عن نيل فضلٍ وإن طالت مبانيتها
إن واجهتك صفات الفضل منه فلا شيء من الذنب والأعمال يثنيها

هذا لمن قصدته المعاصي من غير تعمد معاندة لله ، وانتهاكاً من غير مبالاة ، ورجع إلى مواطن التوبة .

أما من كان مجاهرأ مصراً مرتكبأ لكبائر المعاصي ولم يرجع إلى التوبة . . فليس هو المعني هنا ، وما هذا^(٢) - أي : حسن الظن والمبالغة في الرجاء - إلا عند إقبال العبد إلى مولاه ورجوعه إلى بابه ، فينبغي أن يرغب في ذلك ، ويلاطف بمثل هذه الروايات ؛ فإن الله إذا

(١) رواه البخاري (٣١٩٢) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) في النسخ الخطية : (فهذا) بدل : (وما هذا) .

رجع عبده إليه . . قبله على ما كان من العمل ؛ كما وردت به الأحاديث والآيات ، وأما المصرون . . فليسوا من ذلك في شيء .

والمؤمن ربما يرد عليه ما صورته معصية وذنب ، فيتكدر لذلك صفاؤه ، وتظلم أرجاؤه ، فيعرف مقدار منة الله عليه ، وإدامة فضله إليه ، فيزداد تعظيماً لنعمة الله ، ويزداد فراراً وإبعاداً لما ذاقه من مرارة ورود الظلم ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

رُبَّمَا وَرَدَتْ الظُّلْمُ عَلَيْكَ ؛ لِيَعْرِفَكَ قَدْرَ مَا سَنَّ بِهِ عَلَيْكَ

ربما وردت ظلم ليل البعد على نهار القرب والكشف ؛ لتعرف قدر
المنة عليك فيما من به : من كشف ظلم الأغيار ومُدلهِم ليل الآثار ،
بتجلي الأنوار ، وشهود الأسرار ، المعبر عنه بالنهار ؛ لتعرفها بأضدادها ،
﴿ وَبِئْنَ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ آيَاتٍ وَالنَّهَارَ ﴾ .

وكل ذلك لطفاً بعباده ؛ لئلا يجهلوا ورود الظلم فلا يعرفون قدر
النعم ، فيقفون دون شكرها ، فيحرمون المزيد ، فأورد ضدها ليكون
ذلك سبباً لشكرها ، وهو سبب مزيدها لديهم ، ودوامها عليهم ، ولو لم
ترد عليهم هذه الأضداد .. فلربما جهلوا ورود الإمداد ، ولوقفوا دون
شكرها ، فكان ورود الظلم بهذا الاعتبار في حقهم من جملة النعم ،
هكذا نادر لبعض أفراد الخلق .

أما أصالة ورود الظلم .. فلا يكون إلا عقوبة عن ذنب أو سوء أدب ،
فإن لم ينزع عما هو مقارفه .. خيف أن يتسع في القلب أثرها ، فتصدر
عنه أعظم ، فتتراكم كذلك حتى يعلو عليه الران ، نعوذ بالله من ذلك ،
ولي في ذلك :

فربما وردت شؤم الذنوب لكي يعرّف العبد ما قد كان يجهله
ويستزبد كذا شكراً على [كل] ما قد كان في سابق الأزال أهله
وفي الحديث : « لو لم يكن الذنب خيراً للمؤمن من العُجب .. ما
قُدِّرَ عليه » أو كما قال (١) .



(١) تقدم تخريجه (ص ١٣٩) .

فإذا عرفت أن ورود الظلم منه ؛ للشكر على وجود الأنوار ، وحائناً
على التحفظ من اقتراف الأوزار ، وما منةً أعظم على العبد من الإيمان
والعمل بمقتضاه . . فليحافظ عليه ، وليجتهد كل الجهد في الإقبال إليه
والاهتمام به ؛ وذلك أن كل فائتٍ عنه خلف إلا الإيمان ، فليجتهد العبد
في الشكر وهو في حال تلبُّسه به ، والعاقل : يشكر النعم بوجودها ،
والجاهل : لا يعرفها إلا بفقدانها ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنْ لَمْ يَعْرِفِ النِّعَمَ بِوُجُودِهَا . . عَرَفَهَا بِوُجُودِ فَقْدَانِهَا

فأكثر الخلق حالهم الجهل بالنعمة ، والغفلة عن مقتضى الشكر عليها ، فيقبلون بفقدائها مع عدم الصبر عنها ، والمعرفة تكون بالقلب وهي شكر القلب ، وبالجوارح وهي العمل بمقتضى النعمة ، وهو شكرها ، قال الله سبحانه : ﴿ اَتَمَلُّوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ ، وفي أخبار داوود : (اللهمي ؛ كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليّ ؟ قال : إذا عرفت هذا . . فقد شكرتني) (١) .

عرفت أن المعرفة كلية الشكر ، وعنها تصدر أسبابه ، والنعمة : هي كل أمرٍ تُحمد عاقبته في المآل وإن كان مؤلماً ، وما لا . . فليس بنعمة وإن كان ملائماً ، ومن هنا يقال : ليس لله نعمة على كافر ، وإنما ملاذة استدرج .

وإذا عرف النعمة في حال وجودها كما هو حالة الأكياس . . فقد تعرّض لفتح باب المزيد الذي يُلهمه كلُّ موفّقٍ رشيد ، ويفهمه كل ذي رأيٍ سديد ، بشاهد قوله عزّ من قائل : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ، فانظر كيف قرن الشدة بتعذيب من كفر النعم ؛ فمن ضيع النعم بعدم الشكر لله عليها . . فقد تعرّض للنقم ، ومعرفة النعمة بفقدانها لا يكون شكراً ، وإنما هي تحسّرٌ وتأسفٌ لا يفيد صاحبه إلا حسرةً إلى حسرةٍ تتوالى ، والله أعلم أن توالي الحسرات هي الشدة التي أومت إليها الآية في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ، ولي في ذلك :

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٢٤) .

من ليس يشكر ربَّ العالمين على ما أسداه من فائض الإنعام والمِتنِ
لا شك يحسر عند الفقد منه ولا تغنيه حسرته في اليسر والعسر



والشكر: من أجلِّ النِّعم من الله على عبده أنه أعطاه ونسب إليه ،
فما أعظم فضله وأوسع بره وبذله !! لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تُدْهِشُكَ وَإِرْدَاثُ النِّعَمِ عَنِ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحْطُ
بَيْنَ وُجُودِ قَدْرِكَ

لا تدهشك وتعجزك كثرة الآلاء وترادف النعماء ، فتري نفسك عاجزة
عن شكرها والقيام بحقوقها ؛ فإن الله - سبحانه وله الحمد - قد رفع
مقدار عبده ، وأهله لكل فضيلة ، وجعل له إلى كل مقام وسيلة ، فهي
- وإن قلت في لفظها - فنسبها إليه لا يوازيها كثير العطاء ، فالحمد لله
بالله لا يقوم له عديل ، ناهيك أن جميع ما في الجنة ما لا يقدر أحد
على أن يصف أقلّ قليل منها ، ولا تماثله الدنيا بما فيها ، وجعل آخر
قول سكانها بعد ما منّ به عليهم : ﴿ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فكل نعمة وإن جلّت .. فالحمد أجل ، وكل علم وعمل وحال ..
فبالإضافة إلى حمده أقل ، و﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ
أَصْطَفَيْنَ ﴾ .

وورد في بعض الأحاديث القدسية : « خلقت الخلق ليربحوا
عليّ »^(١) ، فنعمة الحمد وتيسير العمل أعظم من النعمة التي جعلته
بإزائها وهكذا ؛ فشكر السورئ قاصر عن بلوغ المنعم المفضل ، فما
تشكر على نعمة إلا ويحتاج شكرها إلى شكر أبلغ منه .

وقصارى ذلك : أن ترى عجزك عن القيام بشكره ، وترى ما بك من
نعمة منه ، وتشهد لطيف نعمه على ممر أنفاسك ، وسواء كنت في حالة
ملائمة ظاهراً أو في حالة بلية .. فالنعمة فيها باطنة تشهدا القلوب ،

(١) كذا في « قوت القلوب » (٢١٩/١) ، وعنه الإمام الغزالي في « الإحياء » (٤٩٣/٧) ،
وأورده القشيري في « رسالته » (ص ٣٦٠) من قول سيدنا داوود عليه السلام .

وتظهر من وراء سجاف الغيوب ، فشكر من فتح الله عين قلبه عليها
أعظمُ من شكر ما ظهر .

ومن زعم أن ليس ثمَّ إلا الصبر . . فذلك لحجابه عن النظر بالقلب
في لطف الحبيب ، وما يجريه من التعرُّفات لخواص عبادِه ، وما يصرف
عنهم به مما هو أشد منه ، فالشكر على النعم الباطنة غير منكور عند
أرباب القلوب السليمة والأسرار المستقيمة ، فالحمد يجمع أصناف
المحامد ، فما ثناء أبلغ منه ، وإن بلغت النعم ما بلغت . . فما يصل
مقدارها إلى شأو الحمد لله ؛ لأنه حمد به نفسه في كتابه ، وجعله
مبتدأ الكتاب وخاتمة خطاب الأحياء عند كشف الحجاب ، فأى نعمة
توازنه ؟ وأي منة تعادله ؟!

فلا تجهل قدرك ؛ فقد جعلك خليفته في حمده كي تُجمع لك
الفضائل ، وتُبسط لك المنن والمواهب ، ولي في ذلك :

لا يدهشك عن مقام الشكر ما وردت عليك من واردات الفضل والمنن
فليس يعدل سر الحمد وأن عظمت فالحمد في نعمة المولى هو الثمن

لهذا عند فراغ القلب عن الأغيار ، وصحته عن آلام الآثار ، وأما إذا
مرض القلب واعتريته أمراض الهوى . . فربما ينعكس الأمر ، فيستحلي ما
تستمره أرباب الصحة ، فيجد لتمكُّن ألم القلب لمرض الهوى حلاوة ؛
كما قال المؤلف رضي الله عنه :

تَمَكُّنُ حَلَاوَةِ الْهَوَىِّ مِنَ الْقَلْبِ .. هُوَ أَلْدَاءُ الْمَعْضَالِ

تمكُّن حلاوة الهوى هو استحكامه حتى لا يبقى لداعية الإيمان بقية ، ولا لحكم البيان مزية ، وعند التمكُّن يستحليه ويتحكَّم له .
والهوى : هو كل ما جاء من دواعي النفس على خلاف الأمر ، واتباع الشهوة على حكم الطبع ، فإذا رسخ في القلب واتسع داؤه فيه . . فربما لا يجد لدوائه متسعاً ، ودأؤه هو ما سيذكره المؤلف رحمه الله بآثر هذه الحكمة .

والداء المعضل : هو الذي لم يجد إلى دوائه سبيلاً ، فَيُعِي الحكيمة في استنباط حيلة إخراجها عنه ؛ لشدة تشبثه وغلبة تحكُّمه ، ولي في ذلك :

إذا تمكَّن في قلب المرید فما

تغنيه حيلة ذي طبِّ ولا حكم

ذاك الهوى من قلوب السالکین كما

لا ينفع الطب [إن] يستحکم الألم^(١)

ومن حكمة الله وجاري سنته : أنه ما خلق داء إلا وخلق له دواء ، ولا داءً أضُرَّ ولا أشدَّ على الإنسان من داء الهوى ؛ لأنه به مبتدأ كل شر دنيا وأخرى :

فكم من صريع من حسام هوائه

وكم من نعيم زلزلتها يد الأهوا



(١) في النسخ : (عندما) بدل : (إن) .

وبه يكون هلاك روح المرء ، وخسرانه في آخرته ، وفوات غنائه ،
ولكن أرجئ ما يداوي به علته ، ويبرئ به من وخيم محنته شيان ؛
وهما ما قاله المؤلف رضي الله عنه حيث قال :

لَا يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ الْقَلْبِ .. إِلَّا خَوْفٌ مُزْعِجٌ ، أَوْ شَوْقٌ مُفْلِقٌ

فما يخرج الشهوة^(١) التي هي مركز الهوى ، وعنها تتشعب طرقه إلا خوفاً وعيده الذي لا يطاق ، وأليم عقابه [الذي] أشنق له كل شامخ صليب ، وتشقَّق منه شناخيب صمِّ الجبال^(٢) ، وذابت له النفوس ، وتحولت منه الأحوال .

والخوف على مراتب بحسب مقامات الواجدين ؛ فخوف العامة من هول الطامة ؛ ﴿ لَهُمْ مِنْ وَجْهِ ظُلْمٍ مِنَ النَّارِ وَمِنْ وَجْهِ ظُلْمٍ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ ، وخوف الخاصة من المريرين وأولي العزائم من السالكين ؛ هو خوف الانقطاع وحرمان الاجتماع ، وخوف الواصلين من العتاب ، وإرخاء الحجاب ، والبعد بعد الاقتراب ، وخوف المشاهدين من المكر في غيب الأمر ، وما بين ذلك مقامات من الخوف بحسب الأحوال ، ولا يمكن حصرها على التفصيل ، فهذا الخوف فرع عن تجلي جلال يقلع الهوى من القلب ، وينزل الشهوة ، ويقطع أثرها ، ويحسم مادتها بالكلية .

أو شوق مقلق ، فقلق الشوق لأهل المواجهيد الذائقين حلاوة الحب ، والكارعين مناهل الوصال ، فوجهه شديد ، وناره تلهب تقول : هل من مزيد ، فأتى يبقى للشهوة مع ذلك أثر ، أو يسمع لها خبر؟! وهذا الحال من المواهب القريبة ، لا من الأعمال الكسبية ، فإذا وردت على المحل .. فرغ عن كل شيء سواها ، وأصبح فؤاد أم موسى

(١) في النسخ : (إخراج الشهوة) بدل : (فما يخرج الشهوة) .

(٢) شناخيب الجبال : رؤوسها .

فارغاً عن غيره ، والشوق مقدمة الذوق ، وهو منه ؛ فمن لا ذوق له .. لا شوق له ، لكن يكون التمكن من الوصال .

ومن ضرورة الشوق : القلق المفرط ، ومن علامة الخوف : الانزعاج عن الأخلاق اللثيمات ، والركون إلى المحبوبات ، فلا يقطع تشبث الشهوة من القلب إلا هذان الواردان ، وما سواهما لا ينجع فيه ؛ لأنهما أول مبادئ الأحوال الوهبية ، ودونهما أعمال كسبية ، لا تقوى على إزالة الشهوة من القلب ، ولي في ذلك :

القلب مغموراً في شهواته فمتى ورذ عليه فتوح الغيب يشيها
وأول الفتح خوفٌ مزعجٌ فإذا ورد عليه بسطوة قهر تنبيها
أو شوق مقلق حبات القلوب إلى وصال محبوب في الأرواح أثبيها



فالأعمال فرع عن صدق الأحوال ، فمتى كانت الأحوال صافية ..
خرجت الأعمال خالصة ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

كَمَا لَا يُحِبُّ الْعَمَلُ الْمُشْتَرَكَ .. كَذَلِكَ لَا يُحِبُّ الْقَلْبُ الْمُشْتَرَكَ

كما علمت أن العمل المشوب بشوائب الرياء والإعجاب ، ومحبة ظهور الصيت والشهرة .. ممنوعٌ عن القبول ، ومردودٌ عن الوصول ، ومسلوبٌ عن المحصول ؛ وذلك لغلبة رؤية الخلق ، وعظمتهم عند العامل ، واحتجابه عن الله وعن عظمة الله ، كما كان ذلك - أي : إشراك الخلق في الأعمال - مانعاً عن القبول .. كذلك بل أولى القلب المشترك ، الذي هو موضع نظر الله من الإنسان ، إذا أشرك فيه غيره بالمحبة والاعتماد .. فذلك مانع - لا محالة - من ورود الأنوار ، وتجلي الأسرار التي يحظى بها الصادقون من أولى البصائر الصافية ، والعقول الوافية .

ومحبة الله : رضاه عن العبد في الأعمال ، وتجليه له في القلب بورود تجلي الأسماء من وراء أسجاف الغيب ؛ التي يعبرون عنها بالأحوال ، فإذا منع عدم الإخلاص عن القبول - الذي هو الرضا به - الذي تحصل به المثوية والقربة المؤديتان إلى المحبة .. فالقلب أولى ألا يشرك فيه غير من هو محل نظره ، ولا يعتمد على سواه ، فالشرك فيه - لا محالة - حجابٌ عن صدق الإقبال ، والشرك في الأعمال نتيجتها رؤية الخلق في الأعمال وعدم القبول ، ونتيجة رؤية عديم النفس عدم الإقبال ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

الْعَمَلُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُهُ ، وَالْقَلْبُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ

لأن شرط القبول في الأعمال التقوى ، ولا تقوى لمن يتقي رؤية

الخلق بروية الله ، قال الله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، ولا يكون إقبالاً من الله على القلوب وفيها غيره محبوباً أو مرهوباً ؛ لأنه لا يتقاوم الضدان ، فوجود الحق لا يقوم له الباطل ، وما سوى الله باطل ، فأى شيء كان في القلب كائناً ما كان . . فاستدل على أنه لم يقبل الله عليه ، ومتى فرغ من الآثار وخلي عن الأغيار . . لا جرم أن الله قد واجهه وأقبل عليه ، فلتكن من ذلك على بصيرة ، ولي في ذلك :

فكل عاقل لا يخلص عن الغير لا يقبل الله منه القول والعمل
وكل قلب لا يصفو عن الكدر لا يقبل الله كما قد صحَّ في المثل



الأنوار يعبر عنها بحالة العبد الراهنة ؛ فمن الخلق : من يكون في
مقام الإسلام ، ومنهم : من يكون في مقام الإيمان ، ومنهم : من مقامه
الإحسان ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه مشيراً إلى ذلك فقال :

أَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي الْوُصُولِ ، وَأَنْوَارٌ أُذِنَ لَهَا فِي الدُّخُولِ

أشار بقوله : (أنوار أذن لها) من الله ؛ لأنها واردة منه في الوصول إلى ساحات القلوب ؛ بأن يظهر لها كوامن الهوى ، ويتبين لها تغرير الشيطان ، وتنسبط عليها أنوار السكينة ، وتعلم نفاسة الأعمال ، ومخادع الآمال ، ومخافة انقطاع الإمهال ، ويكون متحريراً في طلب الحلال ، ويبحث عن القصص والآثار ، وتحقيق الأقوال .

(وأنوار أذن لها في الدخول) إلى باطن القلب ، وهي أنوار الإيمان ؛ لأن باطن القلب موضع الإيمان ، ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا فُلَانٌ لَّمْ يَزْمُوا وَلَئِن كُنَّا لَهُمْ شَاقِئَاتٍ ﴾ ، فدل [على] التغيرات بين المقامين ؛ وذلك أن الإسلام : قولٌ باللسان ، وعملٌ بالأركان ، والإيمان : ذلك أيضاً مع مصاحبة تصديق الجَنَانِ .

وللإيمان مراتب في نفسه : فمنه القوي البالغ ، ويعبر عنه باليقين الذي لا يتطرق إليه الشك بحال ، ومنه الضعيف ؛ وهو الذي يتجدد ويخلق ، ومنه الكامن ؛ وهو الذي تثيره المواعظ القرآنية ، ومنه الظاهر ؛ وهو أصل الأحكام الظاهرة العملية ، وتتمشى فيه الاجتهادات الاستنباطية الفقهية .

واسم الإيمان يعمُّ سائر المراتب القرّية ، وعليه ينزل اختلاف الأقوال ، وتغاير الأحاديث في وصف المؤمن ؛ حيث قال : ﴿ يَزْمُونَ الْبَلْعِيِّ ﴾ ، وقال : ﴿ يَزْمُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ، وفي الحديث : ﴿ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ﴾ (١) .

(١) رواه بلفظه أحمد (٢٠٧/٣) ، وبنحوه البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

ومن المعلوم : أن الجم الغفير من المؤمنين يؤثرون بعضَ المحبوبات على محبة الله ورسوله ، فلم يخرجهم ذلك عن اسم الإيمان ، والكلام فيه يحتاج إلى أفراد كتابٍ مستقلٍ حافلٍ لأقوال العلماء فيه ، واختلاف عباراتهم ، وتنزيل احتمالاتهم ، وقصدنا شرح كلام المؤلف .

والدخول في باطن القلب أيضاً متفاوت ؛ فمنه الداخر إلى التجويف الأول من تجويفات القلب ، ومنه البالغ إلى سويدائه والواصل إلى لبائته ، وعنده تتجلى أسرار الصفات ، وتخرق البصيرة العوالم الجبروتيات ، فهذه أنوارٌ أُذِنَ لها في الوصول إلى غاية المأمول ، كما أُذِنَ لأنوار الإيمان في الدخول والتفوذ عن الوقوف عن حصر المعقول والمنقول ، وعلم تأويل النزول بلا تعطيل ولا حلول .

فالوصول إلى ظاهر القلب : هو ما يكون العبد ممثلاً به ظاهراً ، والدخول إلى باطنه : هو ما يكون به مستسلماً لأحكام الحقيقة باطناً ، والوصول إلى السويداء : هو ما يكون عنه به فانياً ، وتمكُنُ ذلك يكون به باقياً ، وتعبّر عنه بالإحسان الذي يُعبد الله به على العيان .

والنور الداخر : هو الإيمان الذي باشر الجنان ، والنور الواصل إلى الظاهر : هو الإسلام الذي هو عمل الأركان ، وبه يكون الأمان على الأموال والأبدان .

ولي في ذلك :

أنوار أهل الظواهر واصلاتٌ إلى ظواهر القلب موقوف على العمل
ونور أهل السرائر ذا خلاف فلا يبقى من الشك والأدران والعلل
ونورٌ يظهر من سرّ الغيوب على صفائح القلب يكشف عالم الأزل

فالأنوار ترد من باب المواهب الربانية ، لا اعتمال للعبد فيها ، إلا
أنها إذا وردت ووجدت محلاً صالحاً لنزولها قابلاً للوصول . . تمكَّنت
واستودعت فيه كاستيداع الماء في الأرض الطيبة ، وإذا لم تتأهَّل . . مرَّث
عليه كمرور الماء على الأرض السبخة ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله
عنه :

رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الْأَنْوَارُ ، فَوَجَدْتَ الْقَلْبَ مَحْشُورًا بِصُورِ الْأَثَارِ ،
فَأَزْتَحَلَّتْ مِنْ حَيْثُ نَزَلَتْ

فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الْأَغْيَارِ . . . يَمَلَأُهُ بِالْمَعَارِفِ وَالْأَسْرَارِ

ربما وردت على ندور عليك أيها الإنسان ، وورودها لا يختصُّ بوقتٍ دون وقت ، ولا بزمانٍ دون زمانٍ ، ولا بإنسانٍ دون إنسان ، والأنوار الوهية قد ترد على العبد وهو غير متأهِّل لها ، فلا تجد في القلب موضعاً ؛ لغلبة الشهوات الحيوانية ، والطبائع البهيمية ، والكثائف الأرضية ، وهي منزهة مقدسة لا تصلح لمجاورة هذه القاذورات ، وهي ضيف نزل ومن شأنه الإكرام عند الأحرار الكرام .

فمن إكرامه : تطهير محله ، وتفريغه عن هذه القاذورات المبينة لعالمها الروحاني ، وتحلية المحل بما يصلح لها ، كذلك مما هو من عالمها من صنوف الطاعات ، وتحري الموافقات في جميع الأوقات ، فعساها تجده حال نزولها فارغاً عن كثائف الأغيار ، ومطهرأ من تلويث الأثار ، فتحفُّه الأنوار ، وتمتلئ شهود الأسرار .

ولهذا أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وهو الصادق حيث قال : « إن لله في أيام دهركم نفحاتٍ ، فكونوا لها متعرِّضين » (١) ، وتعرِّضك لنفحاته لا يكون إلا بالمثابرة على الطاعات ، والإقلاع عن المخالقات .

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٣٤) .

وأما عند امتلاء حواشي القلب بالصور الوهميات ، والكثائف
الأرضيات . . فأين تنزل المعاني الملكوتيات ، والأسرار القدسيات ؟
وأين ترقم العلوم الكشفيات وقد أحاطت بلوح القلب الحروف
الجسمانيات ؟

فإن أردت أن يرقم قلم الأزل في ورق القلب علومه . . ففرغه عن
هذه بتحري الرياضات ، واختيار الخلوة ، وركوب الفلوات ، فللتخلي
أسباب يتوصل بها إلى فراغ القلب عن الأغيار ، وطهارته بها عن الآثار
معروفة عند أرباب الصدق في المجاهدة التي هي طريق المشاهدة ،
وصفها الله لعباده بحكمه وسابق علمه : أن رزق بعض المریدين من
السالكين لا يأتيه إلا بعد مزيد اجتهاد ، وبعضهم يأتيه رزقه المعنوي
بدون ذلك ؛ كما هو مشاهدٌ في الأرزاق الظاهرة ، فيسمى مجذوباً
وسالكاً ، وفي الأرزاق الظاهرة يسمى متسبباً ومتجزداً ، ولي في ذلك :

فربما ترد الأسرار واصلة من عالم القدس مشهذ حاضرة الأزل
فتلتقي القلب محشوراً مخايله من عالم الحسن والآثار مشتغل
فترتقي بعد من الأوطان قافلة وقل مرجعها في ذلك السبل
ففرغن عنه سا عن ذاك حائلة على شهود بلا كيف ولا مثل

فإذا عرفت أن الأسرار لا تباشر القلب عند اشتغاله بالصور والآثار ،
وأن الأنوار لا ترد إلا بعد التفرغ عن الأغيار . . قال المؤلف رضي الله
عنه :

لَا تَسْتَبْطِئُ مِنْهُ النَّوَالُ ، وَلَكِنْ أَسْتَبْطِئُ مِنْ نَفْسِكَ الْإِقْبَالَ

لا تستبطي - أيها الطالب المتعرض لنواله وفيض إفضاله ؛ أي : من الفضل المنيل لصنوف الألفاظ ووجود الإسعاف - النوال الذي أنت له متعرض ، وفيه متسبب ؛ فإنه مستمرٌّ مدرار ، وما تخلف عنك إلا لعدم تأهلك ، وهو إقبالك بكلية همتك ، وبذل وسع جهدك ، وليس هناك إلا الإقبال .

ولا يحصل الإقبال إليه ودعاء غيره لك مشهودٌ ، وفي مرآة قلبك موجود ، ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي حَوْفِهِ ﴾ ، فليس للقلب إلا وجهة ، فمتى كان غيره عندك مشهوداً . فأنت مدبرٌ منه ، ومعرضٌ عنه ، ومتى قابلكه .. اضمحلت عندك سائر الموجودات ، وفنيت لذلك سائر المشهودات ، ولي في ذلك :

نَوَالُ رَبِّكَ قِيَاضٌ وَمَنْسَجَمٌ عَلَى دَوَامِ تَجَلِّي الْوَصْفِ بِالْكَرَمِ
فَقَابِلِ أَنْ شَتَّ وَجْهَ الْأَمْرِ وَاحْتَكِمِ تَأْتِيكَ أَلْفَافٌ مَا فِي حَضْرَةِ الْقَدَمِ
والإقبال : هو أن تكون بحقه عليك مبادراً ، وإذا كنت كذلك .. لم تجد وقتاً إلا وله عليك فيه حق ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

حُقُوقٌ فِي الْأَوْقَاتِ يُمَكِّنُ قَضَائِهَا ، وَحُقُوقُ الْأَوْقَاتِ لَا يُمَكِّنُ قَضَائِهَا ؛
إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ بَرِدُ إِلَّا وَدَلَّهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ وَأَمْرٌ أَكِيدُ ، فَكَيْفَ
تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ ، وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللَّهِ فِيهِ !؟

الحقوق التي في الأوقات : هي التكاليف المفترضة على العبد بحكم
الرب ، فوسَّع الله على العباد فيها ؛ لئلا يصيروا في الحرج بالمواخذة
على ما فات ، التي تضاد وضع الإصر عن هذه الأمة ، فكلُّ مفترضٍ
شرعي في وقتٍ مخصوصٍ إذا فات .. أمكن أن يقضى في غيره من
الأوقات ؛ لأن الزمان الوقتي ظرف للأمر الشرعي ، وذلك من لطفه
بعباده ، فهي ممكنة لهم كلما عادوا .

وأما حقوق الأوقات التي هي معاملة أرباب القلوب بحسن المراقبة
للمحبيب .. فترى الأوقات كلها لهم خزائن تظهر من حضرة الغيب ،
والخلق يُودعون فيها صنوف الأعمال ، وهي راجعة شاهدة ممن أودع فيها
خيراً ، وعلى من أودع فيها شراً ، ومن فرَّغها ، فتكون بين يدي الله إلى
يوم المرجع والمآب ، فتنتشر تلك الصحائف ، وتظهر تلك اللطائف ،
فحقُّ العبد حسن المعاملة لله فيها ، فإنها تطالبه كل حالةٍ بقيام بحق ،
وهو لا يخلو : إما أن يكون من عالمِ الفضل ، أو من عالمِ العدل .
فعالمِ الفضل يجعل الشكر له مقابلاً ، والشكر : إما عملٌ بالظاهر ،
وإما ابتهاجٌ بالباطن .

وعالمِ العدل يقابل بالتسليم والاحتكام تحت جريان الأحكام ،
وهو باطناً من أعمال القلوب ، ويسمى استسلاماً ورضاً ، ويسمى صبراً
واستعماراً .

وكل حالة من هذه الأحوال مقابلةً لوارِدٍ من تجليات الغيب ، فلا يخلو العبد لحظة عن هذه التجليات ، فلا يغفلُ عن هذه المعاملات .
والحقوق في الأوقات يخاطب بها العموم ، وحقوق الأوقات يخاطب بها الخصوص ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من أعطي فشكر ، وابتلى فصبر ، وظلم فغفر ، وظلم فاستغفر » ،
فسكت ، فقيل : ما له يا رسول الله ؟ فقال : « **أَوْلَيْكَ لَهُمُ الْأَمْرُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ** » ^(١) ، فهم الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، وذلك لا يكون إلا لأهل الشهود والعيان ، الذين لم يُدَيِّسُوا حُللَ الإيمان ، ولم يشويروا شهود الإيقان ، اهتدوا إليه ، ثم هم مهتدون به ، فأمنوا بتحقيق عن أن يكونوا متلبسين بظلم ؛ وهو أن يصرفوا نَفْساً من أنفاسهم في غير ما خلُقوا له .
والأوقات : أساس مباني الدرجات لمن راعى حقوقها ، والأوقات : رأس مال الصوفية ، ففيها يتَّجرون البضاعات الأخروية ، وهي من أعز ما عندهم ؛ فالأنبياء : يراعون الحقوق في الشهوات ، وأدق منها ؛ مما لا تحويه العقول ، ولم تحط به النقول ، والصديقون : يراعون الحقوق في الأنفاس ، والشهداء : يراعون الحقوق في لطائف الحواس ، والصالحون : يراعون الحقوق في الأعمال ، وتطهير الأخلاق عن شوب العلل وطرق الملل ، والمؤمنون : يراعون الحقوق على ممر الساعات وتعاقب الأوقات ، والله أعلم .

وتحت هذه الأصول الأربعة الحاصلة من ضرب اثنين - وهو الباطن والظاهر ، والفضل والعدل - فروع كثيرة ؛ ففي الشكر والصبر جميع

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٣٨/٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٤١١٧) عن سيدنا سخيرة رضي الله عنه .

المأمورات ، واجتناب المنهيات الظاهرة والباطنة ، وفي الابتهاج والشهود جميع الأحوال الباطنة ، فحاصلٌ : أنَّ الوقت لكلِّ من أهل المقامات بحسب مقامه ، ويكون تفاضلهم في الدرجات بحسب ما هم الآن عليه من الكمال ، ولي في ذلك :

إنَّ الحقوق في الأوقات يعرفها كل البرية من قاصٍ ومن داني وتَمَّ للوقت شيءٌ ليس يهملها إلا جهولٌ عن التحقيق ولهان إذا تحقَّق ذلك .. علمت أن الحقوق التي في الوقت ممكن فيها القضاء ، وحق الوقت لا يمكن قضاؤه ؛ لعدم الاتساع ، إذ الوقت الذي تريد القضاء فيه مطالبٌ أنت فيه بحقه ، فمتى تفرغ أنت من الأداء لتأتي بالقضاء ؟ ومن هنا بكى الأكابر الدماء على ضياع الوقت ؛ فالحاضر مقدَّم على حق الفائت .

قال بعض المحققين : ولك طريق في إيفاء الأوقات حقها في وقتٍ واحد ؛ وهو أن لك في اليوم واللييلة أربعة وعشرين ألف نفس ، إن تقل كل يوم أربعة وعشرين ألفاً من الجلالة ، تقول : (الله ، الله) .. فإنك تأتي بها في قريب من ساعة وثلاث ، قال : فثُبِّعَتْ في زمرة من لم يغفل عن ذكر الله نفساً ، ولهذا من باب المعاملة الظاهرة .

وأما أهل القلوب الصافية .. فإنهم مع الله أبداً ، لا ينفكون عن شهود وجوده في كل مرئيٍّ ومسموعٍ ومحسوسٍ بأي الحواس ، فوجه الحق لهم سافر ؛ ﴿ فَأَيُّنَا نُؤَلِّقُ فَنَرَىٰ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ ، ونوره على صفائح الوجود ظاهر ؛ ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، فهم الذين وفوا بحق الوقت ، وكان الوقت لهم وقتاً .

وأما الواقفون على رؤية الأغيار ، والمطموسون تحت ظلمة الآثار ..
فهم صار الوقت عليهم مقتاً ؛ فلذلك كان الوقت عزيزاً عند العلماء
بالله ، الشاهدين للعالم الأخروي ، الذي تنعكس فيه ما أسلفت في
العالم الدنيوي صوراً أخروية .

فمن حافظ على العمر الذي هو المراد بالوقت ، وفيه تزرع أصناف
السعادات باقتناء العبادات .. فلا ترى ما يحصل له من عظيم السعادة
الأخروية^(١) ، ومن فوّته .. ما ترى أيضاً ما يترادف عليه من الحسرات
على الفسوات ، والوقوع في حبائل المعاصي والشهوات ؛ لذلك قال
المؤلف رضي الله عنه منبهاً على هذا المعنى :

(١) قوله : (فلا ترى) أي : فلا تعلم .

مَا قَاتَ مِنْ عُمْرِكَ .. فَلَا عِوَضَ لَهُ ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ .. لَا قِيمَةَ لَهُ

عمر العبد : هو مدة إمكانه ، وفسحة زمانه ، وهو مزرعة السعادات ، وبذر المكاشفات ، وأصل دوحة القريبات ، ومنها تمتدُّ أفنان الدرجات ، ومن الذي يحيط بما تحت ذلك فضلاً عن أن يكون ثمناً؟! كيف وموضعٌ سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها^(١) ، وأقل جزاء من يدخلها يعطى مثل الدنيا مرات ؛ كما ورد؟!^(٢) فمن ذا الذي يقدر ثمن ذلك ؛ وأصل كل ذلك ما أسلفه في هذه الأيام والساعات القليلات؟! وقد ورد : « ما يتحسّر أهل الجنة إلا على ساعةٍ مرت بهم في الدنيا لم يذكروا الله فيها »^(٣) ، وأين عوض عن الساعة الماضية الفائتة؟! هذا عند عامة أهل الولاية .

وأما خواصهم .. فما يتحسّرون عليها لفوات حظٍّ من الحظوظ العاجلة أو الآجلة ، إنما يتحسّرون على فوات مجالسة المحبوب ؛ كما ورد : أن داوود عليه السلام ما زال يبكي حتى قال الله له : (يا داوود ؛ ممِّ لهذا البكاء ؟ إن كان من الذنب .. فقد غفرته ، وإن كان من الخصم .. فقد أرضيته ، فقال : يا رب ؛ ليس من ذلك ؛ ولكن من الساعة التي واقعت فيها ما واقعت هل تعود لي معك ؟ فقال : يا داوود ؛ فات ما فات) أو كما قال مما هذا معناه .

وكان السلف الصالح يحرصون على الوقت الحرص الشديد ،

(١) رواه البخاري (٣٢٥٠) ، وأحمد (٤٣٣/٣) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما .

(٢) رواه مسلم (١٨٧) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٠٩) عن سيدنا معاذ رضي الله عنه .

ويحافظون عليه الحفظ الأكيد ؛ كما روي : أن بعض المريدين رُئي
 بثوبه وسخ ، فقبل له : ألا تغسله ؟ فقال : ما فرغت له ، وقال بعض
 المشايخ : ما زالت عن قلبي حلاوة قوله : ما فرغت له ؛ ولذلك سَوَّغُوا
 لهم لبس الملونات لحمل الوسخ ، لقلّة فراغهم عن مراعاة ساعات
 العمر ؛ لأنهم يبادرون خروجهم عن حدِّ الإمكان كل آن ، سيما وقد
 طرق أسمعهم قوله : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى
 ثُمَّ يُجْرَزُهُ الْجِزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ ، كيف لا ؛ وفي مفاوز المجاهدات لنيل رفح
 الدرجات ، ومشاهدة ربِّ البريات ، التي بها حسنت المستحسّات ،
 وراقت بوجودها الجنات ، وتزخرفت ونارت !؟

فدخول الجنة بالرحمة ، والدرجات بحسب الأخذ في الباقيات
 الصالحات ، ففيها الخير الوافر ، والمقام الفاخر الذي لا يحصر تحت
 حصر حاصر ، المدخر عنده في خزائن الألطاف العنيدية ، والذخائر
 الوصفية ، ولي في ذلك :

العمر ميدان أرباح فبادره	إن كنت ترجو هناك الفوز فابتدر
تحظى بما لا رأيت عين ولا سمعت	أذن ولا ينحصر في خاطر البشر
وسوف ترى وتسمع إن ظفرت به	في حضرة القرب والإتحاف بالنظر
فالسابقون لدى العليا منازلهم	من العلا في سما التحقيق كالقمر



فكلما علققت به القلوب وجبلت جبلتها . . انقادت له بعبادتها ،
 وتركت في جنب حبِّه عاداتها ، فخلصت له لا محالة ؛ لذلك قال المؤلف
 رضي الله عنه :

مَا أَحْبَبْتَ شَيْئاً إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْدًا ، وَهُوَ لَا يَرْضَى أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا

ما أحببت أيها الإنسان شيئاً من جميع الحدثان وسائر الأعيان والألوان إلا كنت بالضرورة عبداً ؛ إذ العبودية : هي انقياد القلب للمحبيب على الطوع والفرح والاعتباط به ، والمحبة تنشأ من صميم القلب ، كما ينشأ الحب من الماء ، فينجذب القلب - لا محالة - معه ؛ لأن أعمال القلبية حقاً الماء القلبي الناشئ منه ، المنشأ بالحب .

والأشياء كائنةً ما كانت آثارٌ زائلة ، وآراء باطلة ، ما عدا الواحد الحق ، فإذا تعلقت بباطل زائل . . فهي باطلة زائلة ، وإذا تعلقت بحق موجود وثابت مشهود . . فهي - لا شك - ثابتة ، وهويته تأبى الثنوية في الأفعال والأقوال والأحوال بذاتها ؛ فمحبه بلا علة ، بل هي صفة ثابتة واجبة^(١) ، ومحبة غيره جائزة زائلة ، فلأن تكون بمحبته لك . . أولى من أن تكون بمحبتك أنت ، وهو لا يحب لك أن تكون لغيره عبداً ، والأغيار كلها عدمٌ لا ثبات لها ، فذلك رحمةٌ منه ولطف ، ما استعبدك لما هو في نفسه عدم باطل ، وما هو في وصفه زائل .

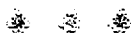
والعبودية للأغيار الفانية قبيحٌ وظلم ؛ إذ نوره على من استعبده بالتمس والانتكاس على أم الراس ؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم : « تعسن عبد الدينار والدرهم والخميصة »^(٢) ، وغيرها مثلها في التقيح ، بل أولى ؛ لأن هذه أرفعها عند أربابها ، فإذا قبح الرفيع . . فما دونه أحق بالتقيح ، وفي الحديث : « من أحب شيئاً . . عبده » بمعنى : انقاد له

(١) لأنها راجعة للإرادة ، وإنما هي اسم بحسب التعلق .

(٢) رواه البخاري (٢٨٨٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

باطنه واستعبده ظاهره ، وفي ذلك التقيح ، قال الله : ﴿ وَحُبُّونَ أَمْوَالِكُمْ أَكْبَرَ حُبًّا ﴾ ، ولي في ذلك :

مَنْ حَبَّ شَيْئًا فَهُوَ عَبْدٌ لَهُ فَكَذَا يكون خالص أعمال وتوحيد
فليس يرضاك إلا أن تكون له عبداً عتيداً بإخلاص وتفريسد



وإذا كان لا يحب أن تكون لغيره عبداً ؛ لأن الأشياء متوجهة إليك
بِسِرِّ السَّخِيرِ ، ألا وأنت لم تندب إلا بالإقبال عليه والتوجه بالكلية
إليه . . علمت أن محبته لا لعلية ولا بعلية ، بل محض فضل وإنعام ،
وتطوُّل وإكرام ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تَنفَعُهُ طَاعَتُكَ ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ ، وَإِنَّمَا أَمَرَكَ بِهَلْهِهِ ، وَنَهَاكَ عَن
هَلْهِهِ ؛ لِمَا يَعُودُ عَلَيْكَ

لا تنفعه - سبحانه وتعالى وتنزهه - عن إيصال النفع إليه منه ؛ فكيف
من غيره ؟! إذ وضف الغنى المطلق ، والأغراض والوسائل لا يجوز أن
يكون مفتقراً إليها ، والطاعة عَرْضٌ تعود منفعتها على فاعله ، والضرر أيضاً
لا يجوز طروءه عليه ؛ لأنه منزّه عن النقائص ، بل عما ليس فيه كمال .
قال : والضرر يقهر على من نزل عليه ، ومبيناً عجز من حلّ به وتسلط
عليه ، وهو سبحانه الضارُّ النافع ، فكيف تضره معاصي العباد ؛ والعباد
ومعاصيهم صادرون عن فعله ، بارزون عن خلقه ؟! فكيف ينفعه أو
يضره ما هي من جملة مخترعاته ، وصنف من أصناف مبتدعاته ؟!
﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(وإنما) ؛ أي : إنما الحكمة في إيجابه وندبه عباده إلى الطاعات ،
وزجره عن المعاصي وضروب المخالفات ؛ لما يعود عليهم من نفع
الطاعات وضرر المخالفات ، فالطاعات : وسائل إلى قربه ووجهه ورضاه ،
والمعاصي : وسائل إلى البعد منه والتهدف لسخطه وشدة أليم عقابه .
وأي منفعة تعود على العبد أعظم وأفضل وأجل من القرب منه وإليه
والمحبة والرضا ، وأي مصيبة أعظم عليه وأشد من الطرد عن بابه ،
وضرب حجابيه ، وشدة سخطه وعقابه ؟! عافانا الله وأحبائنا منه ؛ وذلك
فضلاً منه ونعمة ، كما تقدم الكلام عليه ، وذلك من مقتضى تفضيله
العميم ، وعطائه الجسيم ، وعوائده الجميلة ؛ إذ قال : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكِّبَهُمْ

عن أدناس المعاصي ﴿وَيَعْلَمُ السُّكُوتَ﴾ مفتتح العلوم الدينية والأسرار الملكوتيات ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وهي الترقّي إلى العلوم الكسبيات ، والأسرار الجلايات والجماليات ، والنزول في مجاورة المنازل القدسيات ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ولي في ذلك :

فليس تنفعه الطاعات والعمل ولا يضره ما نأتيه من زلل وإنما ذاك عائذ أَلَيْكَ مبتذل عليك يرجع شوم الذنب والخطل



ثم لما أعلمك : أنه لا تنفعه طاعتك لثبوت غناه ، ولا تضره معصيتك لوجوب كماله وعلو جلاله .. أردف كلامه بما يزيل وهمك عن توهم زيادة تحصل له بطاعتك لم تكن له تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، أو حصول نقصٍ عن وصف الكمال ، تعالى الله عن الزيادة في صفاته بوجود موجوداته ، والنقصان بوجود الفقدان ، فقال رضي الله عنه :

لَا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ إِدْبَارُ مَنْ
أَدْبَرَ عَنْهُ

الزيادة لا يقبلها إلا من اتصف بالافتقار إلى التكميل ، وجزا في حقه
التنقل والتحويل ، وقد علمت استحالة ذلك على الله تعالى ، والعزة من
أخص صفاته العلية ؛ إذ عند تجليه لا يبقى لصفات الحدوث بقية .
فإذا كان أثر هذه الصفة تعجز عن تحويلها وتبديلها سائر البرية . .
فكيف نتطرق الأسباب إليها بحصول الزيادة أو حدوث النقص؟! وإقبال
الخلق وإدبارهم تحت حكم عزته القاهرة ، ومسخرون لقدرته الباهرة ،
فكيف يكمله أو ينقصه ما هو من جملة اختراعه ، وأثر حكمته وابتداعه؟!
والإقبال والإدبار لا من حيث الجهة والتحيز ، يتعالى الله عن ذلك
علواً كبيراً ، بل الإقبال : هو امتثال الأمر المرضي عنه ، والإدبار أيضاً :
لا عنه إلى غيره ؛ إذ لا غير معه ، ولكن الإدبار : هو نبذ أمره ، وترك ما
ندبك إليه ، وارتكاب ما حذرك عنه ، وإلا . . فالوهيته محيطة ومطيقة
بجميع حركاتك وسكناتك وخطراتك من سائر جهاتك ، لا ينفلت ولا
يشذ عنها مثقال ذرة ، ولا أصغر من ذلك مما يعجز تحصيله وتكليفه
وغموضه ودقته نطاق البشر ، ولا أكبر مما لا تطيق تقبله حاسة النظر
من عظام الصور ؛ كما قال عند تجليه سيد البشر : « زملوني »^(١) ؛
لعظم ارتعاد الفرائص ، ولم يسكن حتى غاب عن رؤيته واستتر ، ولي
في ذلك :

(١) رواه البخاري (٤) ، ومسلم (١٦٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

فَعَزَّةُ اللَّهِ تَأْبَى أَنْ يَكُونَ لَهَا بغيرها من كمالٍ ليس هو فيها
كذلك لا يعترىها النقص إن لها من الكمالات ما عن ذلك يغنيها



فهذا تنزيه في المعاملة واصطلاح لأربابها؛ يشيرون بالإقبال
إلى الامتثال ، ويشيرون بالإدبار إلى التهور في المعاصي والإصرار ،
ولأهل الأذواق والمشايخ الحدائق إشارات إلى مقاماتهم في اليقين
والكشف ، يعيرون عنه بالوصول والاتصال ، وذلك إشارة منهم إلى
مواصلات وتحف ربانية ، فبيّن المؤلف ما يزيل الشبهة عن إشاراتهم
عند مَنْ لا فهم له بمعانيهم ، فقال رضي الله عنه :

وُصُولِكَ إِلَيْهِ وَصُولُكَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ بِهِ ، وَإِلَّا .. فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ
شَيْءٌ ، أَوْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ

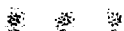
وصولك - أيها الطالب للوصول ، التارك لتزّهات الفضول ، المتمسك
بما جوزه المعقول وأثبتته المنقول ؛ من التنزيه عن المماسه والحلول -
هو وصولك إلى أن تعلم وجود ذاته ، وكمال صفاته ، وانفراده في قدمه
وإيجاده وأبده ، وكل علم يحصل عليه بما فيه دلالة على وجود أسمائه
وصفاته وذاته .. يسمى وصولاً إلى ذلك المشهد .

وأعلى العلوم الحاصلة من هذه المواصلات وأتم لطفاً من هذه
التنزلات .. هو العلم بالذات العلية والحضرة الأحديّة ؛ إذ هي مما
يخص الله أنبياءه وأفراداً من سادات أوليائه ، وتليها رتبة العلم بالصفات ،
وهنّ الأمّهات التي تصدر عن تجليها سائر المولدات الفعلية ؛ الروحانية
والجسمانية ، الدنياوية والأخرافية ، الملكية والملكوّية ؛ إذ كان غايات
الوصول إلى أن توقوف بالواصل على ذروة تجمع الموجودات ، وتفتح له
رؤية المشاهدات ، فلا تجد إلى غاياتها انتهاء .

وكيف يثبت الوصول بالمتجلي إذا لم ينته إلى غاية التجليات ؟
فكلما تجدد نعيم في الجنة .. فعن تجلّ برز ، وهلم جراً ، لا انتهاء
لكمالاتها ، ولا وقوف على غاياتها ، وإنما الوصول في هذه الدنيا إلى
شهود الوجود الحقيقي بعين اليقين ، وقد يسري في كليات العبد لمح
من شهود حق اليقين ، وإلا .. فجَلَّ ربنا عما توهّمه عقول الزائغين
عن طريق الحق واليقين ، إلى توهّم الحلول والتمكين ، والمماسه في
أحاديث الاستواء والنزول ؛ فهنا مزلة لأقدام الجهال ، بظن الاتصال

بالذوات والصفات ، وكيف يتصل العدم بالوجود ؟! أم كيف يتماثل
القدم والحدوث ؟! أم كيف يتصل من لا شبيه له ولا مثيل بمن له شبيهه
ومثيل ؟! تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ، ولي
في ذلك :

إن قيل وصلّ فقلّ علمٌ ومعرفةٌ أو قيل فصلّ فغير الله معدوم
فلا يناسب وصل الحق ما جمحت به عقول ستّرها ظلّ يحموم



فإذا علمت استحالة الوصول المحسوس ، وإنما هو أمرٌ أشار به
إلى مقامٍ من مقامات اليقين . . فالقرب أيضاً كذلك ، يشير إليه أهل
التحقيق ، فلا بد من إزالة شبهته بالقرب المحسوس بالملمس ؛ لذلك
قال المؤلف رضي الله عنه :

قُرْبِكَ مِنْهُ هُوَ أَنْ تَكُونَ شَاهِدًا لِقُرْبِهِ ، وَإِلَّا . . . فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ
وَوُجُودَ قُرْبِهِ (١)؟

القرب : هو الدنو إما حساً ؛ وهو مستحيلٌ في حق الله سبحانه ، وإما
معنى ؛ وهو المراد هنا .

وللقرب مراتب ؛ فأهل الكشف المؤثِّدون بنور اليقين يشهدون
قرب الله إلى العباد بسبق المنَّة ، وتيسير الهداية والعون والقدرة في
سائر الأحوال ، والكلاءة والحفظ ، والمعية اللازمة التي لا ينفك عنها
موجود ، ولا يخرج عن إحاطتها مشهود ، فيورثهم التأدُّب بين يديه ،
والاستكانة والخشوع والمراقبة على الدوام ، وغير ذلك من سننات
الأحوال ، وزواكي الأعمال ، فيكونون بذلك منه قريبين ، ويجدونه
لدعائهم مجيباً ، ولقلوبهم حبيباً ، ولدائهم طيباً ، بأوون إليه كما
ياوي الطير إلى وكرة ، ويحئون إلى لقائه كما يحنُّ الغائب إلى وطنه ،
ويتضرَّعون بين يديه كما يتملِّقُ المحبُّ إلى حبيته .

وأما السالكون الذين لم يحظوا بالكشف بعد . . . فهم في رؤية شهود
قربهم منه من حيث ما أخبر به عن تقرب عبده منه ، وهو قوله في
الحديث : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل » (٢) فالعبد يتقرب ،
والحق قريب ، وما يقرب إلا بعد سبق بعبده الذي هو له وصف ، ولحاله
نعت ، والحق وصفه القرب ، ونعته الحب بقوله : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي
عَنِّي فَاِنِّي قَرِيبٌ » ، وقوله : « حتى أحبه » ، فالوصف اللائق بالمحبة :

(١) مشهور رواية الحكمة : (أن تكون شاهداً لقربه) .

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

معرفة ببعده وقرب الله منه حتى كأنه يراه ، ولي في ذلك :

من أنت والقرب لولا قرب رحمته من العباد لصاروا في عمى العدم
هو القريب من الأشياء بحكمته مع علا عزه الموصوف بالقدم



قد علمت أن القرب إما قرب كشفٍ وعبان ؛ وهو لأهل الكشف
والبيان ، وإما قرب تخلُّقٍ بمعاني الإيمان ؛ وهو الترقى في معارج
النوافل ، وهو على الحقيقة قرب من الله للعبد ، فيثبت أن الحقيقة أصل
لمباني الشريعة ، والشريعة طريق ظهور الحقيقة ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

أَلْحَقَائِقُ تَرِدُ فِي حَالِ التَّجَلِّي مُجَمَّلَةً ، وَبَعْدَ الوُعْيِ يَكُونُ الْبَيَانُ :
﴿ وَإِنَّا وَرَآئَهُ مُتَّبِعُونَ فَاتَّبِعْ قَوْلَهُ ۖ إِنَّ تَرْوِيحَنَا بَيَانَةٌ ﴾

الحقائق القُربية ، والأسرار اللطفية ، والعلوم الغيبية ، والتجليات الوصفية . . ترد على القلوب وهي منصفة بوصفها ، ومتجلية بنعت جمعها ، لا افتراق في وحدتها .

والقرآن صفته الجمع ، وإذا أُلقي على صفحات القلوب . . وصف بكونه فرقاناً ، وإذا ظهر على اللسان . . يكون بياناً ، فأول ما يتجلى في مظهر الهوية وتجلي الأحدية ، ثم ينزل في حلال الصفات الربانية ، ثم في المظاهر الأسمائية والقوالب الروحانية ، ثم في الصفائح القلبية ، ثم في اللسان البيانية الشرعية .

وهذه الحقائق الوهية قد ترد على القلب بصفة عالمها الجمعي ؛ وهو ما عليه من وصفه الفرقي ، فيتلقى الترجمان عنه كذلك ، ثم يعرض على البيان ، فيجدها موطدة الأركان ، مشيدة البيان ، موافقة لما شاهده العقل وحكم به البيان ، فتكون استفادته بعد بيئه وتأمله ، وتكون حالة العبد حينئذ سالمة من الدعوى ، وطاهرة عن لوث الهوى ، كغيره ممن يسمعه لا يثبت نفسه في وجوده ؛ لأنه لا تعمل له فيه ، بل يبرز من عين المنَّة وصرف الرحمة ، وهو علم الوراثة الأمية التي هي غير مكتسبة من دراسة ، ولا مجموعة من أقوال الخلق ، بل إلقاء من حكيم حميد .

والحقائق من حيث هي منسوبة إلى الحق من غير مزج خلق ، فسماها باسمه ، ونعتها بنعته ، فقال : (الحقائق) جمع حقيقة .

وقال : (ترد) والورود : هو ما يأتي من المحبوب من غير استعداد له ولا شعور به ، وهو الغريب الطارق ، والحقائق لعزتها وتُعد منالها عن الإدراك الخلفي تسمى واردات .

فقال : (يتجلى) لأن التجلي من نعت الحق ، والتجلي : هو ظهور وصفٍ على موصوفٍ به لمن يعرف ذلك الوصف قبل ، فأسفر الموصوف به عنه ، فعرفه من كان بذلك الأصل جاهلاً ، وأتقنه من كان عنه ذاهلاً .

ولكن لا يُعرف إلا نور لطيف ، من عالمه يكون له متلقياً ، وبه خبيراً ، وبجماله بصيراً ، وإلا . . . لم يجامع الظلمة النور ، ولا العدم الوجود ، ولا القدم الحدوث ، ويُعنى بذلك النور اللطيف تجلي الاسم الأول ، والوارد عليه تجلي الاسم الآخر ، وظهوره من خفي الاسم الباطن إلى شهادة الاسم الظاهر .

والقرآن تجلي هوية الحق ، والبيان ظهور ألوهيته ، فإذا ظهر الجمع . . . أُنقِ عنك البصر والسمع ، وكن متبعاً له في جمعيته .

ثم تلت الألوهية فرقانها ، وميزت أعيانها ، وظهر بيانها ، وزخرفت جنانها ، وسعرت نيرانها ، ونصبت للأعمال ميزانها ؛ فشانها شأنها ، ظهر من زوايا الحقائق مَنْ كَمَن ، وأعلن ما بطن ، ﴿ وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمَلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿ وَسَيَقُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا . . . ﴾ إلى آخر الآيات .

﴿ وَسَيَقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا . . . ﴾ إلى آخر الآية ، وهننا غيوب تفتح في روازن هذه الإشارات المصونة تحت صرائح هذه العبارات .

ولي في ذلك :

إن الحقائق حقٌ في تجليها ترد وفي عالم الإنسان يحكيها
في حال ما تجلئ للعبد مجملة لم يدر أين محلّة في مبانها
حتى يرد إلى الأوطان فرقته فيعرف أن لا خلاف في معانيها



إذا علمت أن الحقائق ترد بوصف الجمعية ونعت الحقية . . فلا جرم
أن تضمحل لذلك الرسوم الخلقية والأوهام الغيرية ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

مَتَى وَرَدَّتْ أَلْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ عَلَيْكَ .. هَدَمَتِ الْعَوَائِدَ عَلَيْكَ :
 ﴿ إِنَّا أَلْمَلْنَاكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَقْدُوبًا ﴾

متى وردت عليك الواردات الإلهية ، وتجلت النعوت الأزلية ،
 وأشرقت الشمس الروحية ، وبرزت الأسرار الوصفية .. هدمت مباني
 الغيرية ، وعطلت الموارد النفسية ، وزلزلت العادات الخلقية ، ومحت
 الطباع الجبلية ، ومحقت الخيالات الوهمية ، ووصفت بالملكية وشدة
 الغلبة والقهر لما ضاهاها ، وقصمت ما نأها ، فإذا دخلت ملوك الأنوار ..
 هدمت سور الظلمات ، وتقشعت الأستار ، واضمحلت متخيلات
 الأغيار ، وانمحت علوم الآثار ، ﴿ لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجِيدِ الْفَهَّارِ ﴾ .

وإذا دخلت الأنوار الحقية القرية النفسية .. انطمست الآثار العادية ،
 « إن النور إذا دخل الصدر .. انشرح له وانفسح » قيل : هل لذلك من
 علامة يا رسول الله ؟ قال : « نعم ؛ التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى
 دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله »^(١) ، ولي في ذلك :

النور يقهر ما في النفس محتكماً من العوائد والشهوات يرميها
 حتى يصير بنور الله منشرحاً وينفسح من ظلام راسخ فيها

واردات الأنوار لا تصادمها ظلم الأغيار ، كما لا ثبات لظلمة الليل
 عند طلوع ضوء النهار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) تقدم تخريجه (ص ٥٤٠) .

أَلْوَارِدَاتُ : تَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ ؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ لَا بُصَادِمُهُ شَيْءٌ إِلَّا دَمَعَهُ :
﴿ بَلْ تَقْذُفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَعُهُ ، إِذَا هُوَ رَاحِقٌ ﴾

الواردات المذكورة آنفاً التي مِنْ وصفها القهر والغلبة تأتي وهي بوصف هذه المواهب اللدنية بالإيتاء ، قال الله في وصف الحضرة بهذه العلوم : ﴿ وَعَلَّمْتَهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ ، وقال : ﴿ وَآتَيْنَاهُ تَقْوَاهُ ﴾ ، وهذه هي التقوى المؤتاة ، التي لا ثبات معها لأحدٍ سواه ؛ لأنها أتت من حضرة قهارٍ يقهر كل ما سواه ، وهو الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده ، فلأجل كون هذه المواهب الواردة وردت من حضرة قهار .. أزالتم ظلم الأغيار ، وكانت لجنود الإيمان جنة في صورة نار ؛ فالظلمة هي العدم ، والنور هو الحق ، ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وإذا قذف بالحق الموجود على الباطل العدم .. يطل واضمحل .

ثم استشهد بهذه الآية القاطعة بأن الحق ظاهر دامج لزهق الباطل ، والزهوق : هو الزوال ، من الشبه في المثال ، في الذات والوصف والفعال ؛ فحيث ما تصفحت صفائح الوجود .. لم تر غير الحق مشهوداً ، ولا في الكون سواه موجوداً ، ولي في ذلك :

ما دام في النفس للأغيار مستكن أورددٌ عليها تجلبي إسم قهَّار
يخرق وجود السوي لم يبق له سكنٌ ويظهر أن جميع الكون أنوار



ولأجل ذلك شاهد وجود الحق ظاهر ، ووجه الحقيقة سافر في سائر المظاهر ، ينادي في كل مشهود : أنه الظاهر ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

كَيْفَ يَحْتَجِبُ الْحَقُّ بِشَيْءٍ ، وَالَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ ،
وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ ؟!

كيف يكون الحق يحتجب بشيء ، وقد علمت أن كل ما سوى الحق باطل ، والباطل زاهق ؛ أي : زائل ؟! فإذا ؛ لا حجاب على الحق ولا نقاب إذا كان ما يحتجب به - وهو الأغيار وصور الآثار - هو ظاهرٌ فيها بالتصرف والاعتدال ، الذي من جملتها تغلُّبُ الليل والنهار ، ﴿ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَئِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ، وموجودٌ حاضرٌ بقيوميته واستغراق معيته ، ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاعِيَهُمْ وَلَا حُمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِمُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ ، ولي في ذلك :

فكيف يحجبه ما كان مظهره معدوم لولا وجود الواحد الأحد فالحق نور فلا الأغيار تستره فالله حق عياناً باسمه الصمد



فإذا وقع الكشف .. ذهب عن العبد العناية في سائر العبادات ، وتوالت عليه أنواع المسرات ، وما لم ينكشف له الحجاب .. لم يزل في الأعمال متعوباً ، وللأحزان مصحوباً ، ولكن الله بجميل لطفه وحنانه وعطفه .. جعل له ميزاناً يعرف به ما كان لله من غير التفات منه إلى حضور أو عدمه ، وذلك ما جعله له في الاختيار مما تنبو عنه ثواب الأبيصار ، فقال : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ ، فإذا عمل العبد عملاً يكون فيه غير مختار ، بل يفرض ذلك إلى حسن الاختيار .. فربما يكون من الله لعبده اختيار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تَبْتَئِسُ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَمْ تَجِدْ فِيهِ وُجُودَ الْحُضُورِ ؛ فَرُبَّمَا قُبِلَ مِنْ
الْعَمَلِ مَا لَمْ تُذْرِكْ ثَمَرَتَهُ عَاجِلًا

لا تبتئس أيها المرید ؛ فإن اليأس من علامات الكافرين ، ولكن
أحسن الظن بالله في جميع أفعالك وأحوالك ؛ فإنه ورد : « أنا عند
ظنِّ عبدي بي »^(١) ، والقبول من الله مأمول ؛ لأنه ما وفق للعمل إلا
والمرجو من فضل الله أن يقبله ، ويتجاوز عن تقصير عبده ، وتفريطه
فيما قصر وفرط .

وكفى العبد قصد التقرب إلى الله كائناً ما كان ، ولا يقدر فيه إذا لم
يجد له ثمرة عاجلاً ؛ من حضور ، وانسراح به وسرور ، وتنعم وحبور ،
بل ذلك - أي : الذي لم يجد ذلك - إذا كابد العمل . . صابره أقرب لأدب
العبودية ، وأبعد عن شائب الحظ والملل المذموم ، ما أدى صاحبه إلى
ترك العمل ؛ فربما قارن القبول ذلك العمل ، وكانت ثمرة مدخرة في
الدار الآخرة ، فيجدها موفرة سالمة من الإعجاب بذلك العمل ؛ لأنه إذا
لم يدرك ثمرة . . يسقط من عينه قدره ، ويقلُّ عنده خطره ، فيسلم له
- لا محالة - من مفسدات الأعمال ، وذلك غاية مطلب الصادقين سلامة
أعمالهم عن دواخل الشرك ، فينبغي أن يعظم رجاء العامل ، ولا يبتئس
من القبول ، ولي في ذلك :

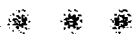
لا يبتئس العبد من روح القبول إذا

لم يدرك الروح والإحسان في العمل

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فريما كان يقبل منه ما لم يكن

يدرك العبد من ثمراته الأمل



فثمر العمل : هو الوارد على القلوب من أسرار الغيوب ، فإذا ورد
على القلب وارد .. فلا يبادر بتزكياته حتى يعلم حصول ثمرته ؛ لذلك
قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تُزَكِّيَنَّ وَارِدًا لَا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ ؛ فَلَيْسَ الثَّمَرُادُ مِنَ السَّحَابِ الْأَمْطَارِ ،
وَإِنَّمَا الثَّمَرُادُ مِنْهُ وَجُودُ السَّمَارِ

لا تزكّين وتعظم وارداً من واردات الوجدان وأنت بعدُ لا تعلم ثمرته ،
فالوارد : هو ما يرد على القلب من أسرار القرب ، وتتوالى عليه من
أنوار المعرفة ، وهو مرادٌ لتبدل صفات القلب المذمومة إلى الصفات
المحمودة ، ومحو آثار النفس ، وذهاب شهواتها ، وقلع الهوى ، وترك
الدعوى ، والقيام بحق العبودية على الكمال ؛ إذ هذا هو بعض ثمرات
الواردات ، وكل وارد لا تصحبه الاستقامة .. لا يُؤْمَنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ
الاغترار ، ونوع من المكر^(١) ، أعاذنا الله منه .

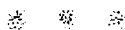
فتعبيره بـ (السحاب) : إشارة منه إلى تجلي الأسماء على القلب ،
وبـ (الأمطار) : إلى تنزل الأسرار الوصفية ، المحيية لموات أرض
النفوس ، والباعثة حتف المعارف من الرموس ، والأمطار المتنزلة من
سماء السِّرِّ على أرض النفس ، فتثير منها حسن الأخلاق ، وزواكي
الأحوال والأعمال ، كما يثير المطر ما كَمَنَ في الأرض من الشجر ،
فتهتز وتربو القلوب ، وتنبت الأزواج البهيجة ، والأنفاس العطرة
الأريجة ، فتفتح كمامم الإيمان بأنوار مشاهدات الإحسان ، وتتدلّى
ثمرات المعارف ولطائف الامتنان ، فهذه هي ثمرات الواردات .

فما كان على غير ذلك .. فلا تزكّه ، وتزكّيته : بأن تشهد مئة الله
عليك ، وتبتهج به فرحاً ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ، لا
التزكية التي هي رؤية النفس على عباد الله ، وتعظيم النفس وفرحها

(١) كذا في النسخ برفع (نوع) على أنه خبر لمبتدأ محذوف .

ومرحها ؛ فذلك منهبي عنه ، قال جل ذكره في ذم قوم دلوا بعلمهم
وفرحوا به دون النظر إلى ما هو المقصود منه : ﴿ قَرِحُوا يَمَّا عِنْدَهُرَيْنِ
الْعَيْرِ ﴾ ، ولي في ذلك :

فلا تزك وارداً لست تعلم ما يُثْمِرُ لديك من الأخلاق والشيم
فليس ثَمَّ سوى الأثمار تطلبها من وابل السحب فافهم ذاك واستقم



الوارد : هو - كما علمت - يكسب العبد أحوالاً شريفة ، ومقامات
منيفة ، وإذا ورد على العبد وأكسبه ذلك .. فيأخذ ما أتاه ، وتكون كلية
اعتماده على مولاه ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطْتَ أَنْوَارَهَا ، وَأَوْدَعْتَ أَسْرَارَهَا ؛
فَلَنْكَ فِي اللَّهِ غِنَى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ

طلبك لبقاء الأغيار ، واستثناسك بالآثار ، وسكونك إلى الأنوار
دون منور الأنوار ، وخالق ما أكنه الليل وكشفه النهار ، وما وراء ذلك
مما تتقاصر عنه الأفكار ؛ مما دارت عليه الأكار^(١) ، وما أشرفت
عليه مضبثات الأسرار ؛ من جنة أو نار ، أو ظلّم أو أنوار ، وكلُّ
داخل تحت دائرة الانقهار . . فهي أغيار إذا وقفت الطالب دون
منتهى الرغائب ، فليس إلى غيره سكون ، ولا إلى سواه ركون ، فمتى
طلب بقاءها ، واستوحش عند فراقها . . فقد دلّك على الركون إليها
والاعتماد عليها .

والأنسُ بغيره دليل الوحشة عنه ، ودليل كونها غيرَ : بقاؤك معها
دونه ؛ فقد توقف الأنوار كما تحجب الظلم والأغيار ، فإذا وصلت ما
هو المقصود منها - وهو بسط أنوارها ، وبتُّ أسرارها على عوالمك
القلبية وأرجائك النفسية - . . فقد حصل المقصود الذي له تطلب ، وفيه
ترغب ؛ وهو تبديل نعونك ، وفناء أفعالك وأوصافك ، والمثول على
سمت الاستقامة المرضية عند الله .

فلودام على أرضك وإبلات الحقائق . . لتعظمت عليك وظائف
عبوديتك ؛ وذلك في وقت ضعف السالك عن تحمل أعباء هذه
الواردات ، تنزل أحيان أوقات ذبوله ، فيحيا بوجدانها كما يحيا موات
الأراضي المجدبة بنزول الغيث .

(١) الأكار : الرّزاع والفلاحون ، واحدها : أكار ، سمي بذلك لأنه يشق الأرض للحرث .

فلو داوم عليها .. لهلكت أشجارها ؛ لضعفها عن ورود الماء عليها ، وعند كمال قوتها وإن دامت عليها الأمطار وجرت بساحتها الأنهار .. فلا تزداد بذلك إلا كمالاً ؛ وذلك لطف من الله بعباده ، يتلطف لهم بأنواع الألفاف ، ويغذي أسرارهم بقدر ما فيها من القوة والضعف ، ويربيهم في حجر الرحمة ؛ يهديهم أنا بسطوات تخويف القطيعة وفوات حظهم من الحبيب ، وأنا بربيهم بنجلي جماله ، وتدلي أطفاه ، والتمتع بوصاله ؛ فينجحون في المطلوب ، وينجز لهم الوعد المرغوب ، فإذا أجدبت أراضي قلوبهم بحرارة صيف الفراق .. هبت لهم صبا الوصال ، ووسم أراضيهم أغداقُ الوفاق ، والواها ولي الاشتياق .

فإذا عرفت حكمة الله في تربية عباده .. علمت أنه لم ترجع عنك وتزحل إلا والخيرة فيها ، وهو يغنيك عن كل محبوب .
ومن كان به .. لم يعوزه فقد غيره ؛ فالأشياء كلها لك مفارقة ، والأصالة لمعيته ؛ فسائر الوجود لا دوام لخلطته ، حتى أعضاؤك وقواك وأحوالك إنما هي صادرة عنه ، وتمسكة عليك به ، فله الشبوت في سائر الأحوال .

ومن كان بالأحوال دون محولها .. فهو - لا محالة - في محال ، ومن كان بالله .. فله في كل شيء مثال ، ومن كل شيء مثال .
فمن كان بحال أو مال ، أو أهل أو عيال ، أو عمل أو علم أو مقام .. فهو له عقل عن مشهد الكمال ، فلا تغنيك عنه الأغيار ، سواء كانت من حيز الظلم أو الأنوار ، أو جنة أو نار ، فلك فيه غنى ، ومن كل شيء فرار ، ففروا إلى الله عن القرار مع الأغيار .

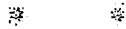
ولي في ذلك :

ويعد أن بسطت أنوارها فعلا

م يحزن الواجدون ومورد ذاك موجود

يغنيك إن كنت ذا فهمٍ فليس على

وجوده مطلب يُرجى ومقصود



فعلم أن تطلّع العبد إلى بقاء الأغيار ، واستثناسه بالآثار . . دليلٌ

على الانقهار وعدم الاستبصار ؛ ولذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

تَطْلُوكَ عَلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ .. دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَجْدَانِكَ لَهُ ، أَسْتَبْحَاشُكَ
بِفَقْدَانِ مَا سِوَاهُ .. دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وُصُولِكَ بِهِ

تطلعك بحكم قلبك وتعلقه على بقاء غيره في الدارين ، والسكون
إلى سواه في أرضه وسماؤه ، وسرّه ونجواه ، ومنقلبه ومأواه .. دليلٌ
على عدم وجدانك له ، الذي هو غاية الآمال ، ومنتهى مطالب أهل
الكمال .

فلو وجدته .. لم تتطلع إلى غيره ؛ إذ لا غير مع وجوده ، ولا ظهور مع
شهوده ، فكل مستحسنٍ ومستلذٍّ وإن بلغ غاية مبالغ الحسن والنعيم ..
فمن حسنه صادر ، ومن فضله وإحسانه ولطفه وامتنانه وجد ، فكيف
بمن وَجَدَ ذَلِكَ الجمال ، وأتحف بذلك الوصال .. يلتفت إلى مقام أو
حال ، أو عاجل أو مآل ، أو جاه أو مال ، أو عشيرة أو عيال ؟! فشاهد
ذلك الحال يغني عن المقال .

أم كيف من ظفر بموجود لا له شبيه ولا مثال .. يتطلع إلى من له
شبيه ومثال ؟! فغاية مطلب العارفين ، ومنتهى رغبات الطالبين .. وجدان
إله الأولين والآخرين بشهود يقين ، وتحقق وتمكين ، على الكشف
والعيان ، ومتى يحظى بذلك المطلوب وهو يتطلع إلى محبوب سواه
ويترقب مشهوداً ، ويلوح لقلبه وجود موجود ؟!

فمن حظي بذلك .. فله دلالات ، وظهور علامات ، ومن دلالة :
الاستغناء بوجود محبوبه عن كل موجود ، واضمحلال - في جنب شهوده
- سائر الوجود ، فلا يكون له سواه مقصود ، بل مفرداً مفرداً ، « سبق

المُفَرِّدون»^(١)، مستهتراً بذكره^(٢)، غائباً عن فكره، حاضراً في شكره .
 واستيحاشك أيضاً بفقدان سواه . . يدلُّ على أنك مستأنسٌ بذلك
 السوئِ، ومن استأنس بسواه . . فهو في وحشة القطيعة منه سبحانه ؛
 إذ لو استأنست به . . لاستوحشت من الأكوان، ولغررت من الإنس
 والجان، وكنت معه في حضرة العيان، لم يأوك مكان، ولم يحوك زمان
 كان، في حضرة: « كان الله ولا شيء معه »^(٣)، مستقر روحك عرش
 الرحمن، غائباً عن المَلَوَان .

فهؤلاء أقوام أحرقت كئافَ غيريتهم أنوارُ الشهود، وفيت عندهم
 أعيان الوجود، عند تجلي الحق الموجود؛ فكيف يصدق الحب أو
 شهود القرب وعاد في قلبه بقية التفات إلى غير المحبوب!؟

يروى: أن فتاة من الأعراب كان إنساناً يدعي صدق المحبة لها،
 ويظهرُ عظمَ التودُّد والتقرُّب إليها، وكان يتلطَّف إليها، فقال لها: إني
 أحبك، فقالت له: إن لي أختاً أحسن مني، لو رأيتها . . لكنت فيها
 أرغب، ذات جمال، وها هي، فالتفت، فلطمته وقالت: يا كذوباً في
 دعوى المحبة، لو كنت صادقاً . . لم تلتفت إليَّ غيري!!

فانظر واعتبر في هذه القصة . . بينك إفلاس أكثر الناس عن
 وجدان الحق، وإنما هم مستأنسون بالأغيار، ومتطليعون إلى الآثار،
 فكهم مدَّعِ الوصل والعشق والأنس والمحبة وعند الامتحان بفراق
 المحبوبات الغيرية تكسفتُ شمسه، ويتكذَّر صفاؤه وأنسه، فكهم من مدَّعِ

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) المستهترُ بالشيء: هو المولع به، لا يتحدَّث بغيره .

(٣) رواه البخاري (٣١٩١) عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما .

الصبرَ والرضا والتوكل ؛ فيفتضح عند تغيُّر الحال بما يظهر من الجزع والتسخط ، فأين دعوى الأنس لمن لا يقدر على فراق أدنى المحبوبات الدنياوية الفانية الظاهرة العداوة لمن ساكنها؟! وأقربها نفسك وسائر قواك ؛ فالقوة تعطي صاحبها ألا يكونَ مع شيء دون محبوبه وراثه إبراهيمية ؛ حيث قال : ﴿ إِنِّي لَمِنَ الْعَائِلِينَ ﴾ .

ومن كان على غير هذا . . فليتق الله في دعواه وجدان الحق والمحبة له ، وليصحح مقام التوبة ، ويسلك على يد عارفٍ يخرجه من رعونات الدعوى وموافقة الهوى ، ومن لا يصحح ذلك المقام ، ولم يقبل ذلك الكلام . . بقي في غمار العوام ، متلبساً بصفات اللثام .

واعتبر بمن سلف من أئمة الإسلام ؛ هل كانوا على ما أنت عليه من التهافت في كباثر المعاصي وجمع الحُطام؟! أم كانوا زهاداً أعلاماً يفرُّون من الشاغلات ، ويتحرَّون العبادات في الخلوات ، وينتجعون الغلوات ، ينتظرون الصلوات ، ويراعون الحركات والسكنات ، يتحفَّظون من الوقوع في مصايد الغفلات ، ويرفضون معاطب الشهوات ، ويطلع الله عليهم من فوق السماوات ، فيجد قلوبهم مملوءة بمحبهته ، وأجسامهم مشغولة بخدمته ، فيحييهم بأطيب التحيات ، ويرحم الله بهم الأحياء والأموات ، يرفضون ما أكبَّ الناس عليه من العادات ؟ فهل هذه بعض نعت الواجدين لله عياناً ، والمتحققين بمعرفته بياناً .

وأما من كان همه الشهوات ، وديدنه الغفلات . . فكيف يدَّعي مقام الوجدان وهو منطلِّعٌ إلى الحدِّثان ، ومستوحش بفقد الأعيان؟! ولنتقبض العنان ، ولنقول في ذلك :

من كان بالله عن الأكوان مشغولاً وقلبه فارغ والسر موصول

فذاك لا ينتظر في العرض والطول لغير محبوبه ذي المن والطول
ومن تطلع لوجدان سواه فلا تشكرُ به أن القلب مَكْبُول



فكل محبوبٍ دنيا وأخرى إنما تمَّ نعيمه ؛ لكونه من فائض كرمه
وفضله ، اللذين هما متفرعان عن رضاه على مَنْ نَعَمه وقرَّبه ، ولمن
أتحفه ، وكل مؤلمٍ ومنقَرٍ ومبغضٍ إنما كان فائضاً عن سطوات عدله ،
وفرعاً عن سخطه وحجابه على من عدَّبه ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله
عنه :

النَّعِيمِ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ .. إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَأَقْتِرَابِهِ ، وَالْعَذَابِ وَإِنْ
تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ .. إِنَّمَا هُوَ بِوُجُودِ حِجَابِهِ ؛ فَسَبَبُ الْعَذَابِ ؛ وُجُودُ
الْحِجَابِ ، وَإِنَّمَا النَّعِيمِ : بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ

النعميم : كل مستلذّ طبعاً خالياً عن التكدير والتنفير ، ولا يوجد ذلك
في الدنيا إلا لأهل القلوب المتعلّقة بالملأ الأعلى ، المجالسين لله على
سباط الشهود ، وهم أيضاً مع ذلك غير مستكملين للنعميم كلية الكمال ؛
لما يطرُق عليهم في بعض الأحيان من هيبة سلطان الجلال ، وخوف
الطرد والانفصال .

وأما المستلذات الطبيعية .. فلا تنفك في الدنيا عن التكدير ، وما
يظهر تجلي النعميم في الدار الآخرة ، وهي مع ذلك تطلب الزيادة وتماهما ،
وانتهاء درجات مقام النعميم بشهوده واقترابه ، وتلطّفه وتعطفه لأحبابه ،
وتجليّه عليهم برضاه ، وحظوتهم بخطابه ونجواه ، وتمام سائر النعم ،
ومنتهى الأرب والهمم ؛ الذي تندرج فيه أنواع النعم كاندراج الكواكب
عند إشراق نور الشمس الضاحية .. هو النظرُ إلى وجه الله كفاحاً ؛ فعند
ذلك تغيب سائر المحاسن في ظهور الحسن الذي اكتسبت حسنّها من
رشح بحوره المتلاطمة ، وسواكب فيوضه المتساجمة ، فياله من تمام !!
وما أعزّه من مرام !! وما أكرمه من مقام !!

والعذاب بأنواعه ، وسائر دركاته ، وعظم آلامه ، وشدة تعيُّظه
واضطرامه .. إنما هو فرعٌ عن وجود الحجاب ؛ الذي به يتضاعف ألم
العذاب ، وأصل مبادئه ؛ كما أن الرضا أصل النعميم ، والرؤية منتهى
أمانيه ، فقال : ﴿ كَلَّا إِنَّهُنَّ عَنْ رَبِّهِنَّ يُومِنُونَ ﴾ .

وماذا ترى حسرةً من حُجب عن ربه ، وجيل بينه وبين جبه ، وأُفرد
عن صحبه ١٩ ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ ، ثم يقال لهم في انتهائه وشدة
عقابه : ﴿ أَحْسَرُوا بِهَا وَلَا تُكَلِّمُون ﴾ ، فعندها تكلح الوجوه ، وتربُّد الأبدان ،
وتتغير الألوان .

وقال في الرؤية : إن بها غاية النعيم ، ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا
نَاطِرَةٌ ﴾ ، نظرة ندية عطرة مما تمّ من عظم المسرات ، من مواجهة الحور
والغلمان ، وسائر ألوان الفواكه والقصور ، والرضا والحبور ، ناضرة
بذلك ، تم نضارتها ، وظهرت سيادتها ، ولي في ذلك :

إن النعيم وإن كانت مظاهره كثيرة خارجة عن حيز الحصر
بما تجلّى له من صرف منتهى الغاية القصوى هو النظر
وكل نوع عذاب في مظنته شؤم الحجاب ونار البعد تستعر
فحققن فهذا في أكتنه عن فهم كل بليد غير مذكر



فيذا كان النعيم الدائم والفرح لأهل القرب . . هو وجود مليكهم
وعيان سيدهم ، والعذاب هو عندهم باحتجابه عن قلوبهم . . فلا جرم
أن كل حزن وهم يرد على قلوبهم لا يطرقهم إلا إذا منعت قلوبهم ذلك
المشهد ، وحُجبت عن ذلك المقصد ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله
عنه :

مَا تَجِدُهُ الْقُلُوبُ مِنَ الْهَمُومِ وَالْأَحْزَانِ . . . فَلِأَجْلِ مَا سُيِّعَتْ مِنْ وُجُودِ الْعِبَانِ

فالعيبان لا تبقى معه الهموم ؛ فالهموم : إما دنيوية ، وإما أخراوية ، والأحزان أيضاً كذلك ، والهموم والأحزان الدنيوية : إما محمودة ، وإما مذمومة .

فإن كانت محمودة . . . [فهي] كفارةٌ لذنوب أقوام ، وماحققةٌ لمعاصير وآثام ، وأما إن كانت أخراوية . . . فهي محمودة ما لم تخرج صاحبها عن روح الرجاء إلى القنوط ، وهنذه مراتب الزهَاد والعِبَاد وعموم العباد ، ومن أول المراتب الإيمانية ، إلى شروق الشمس الفرقانية ، وظهور التجليات الإحسانية العيبانية ؛ فعند ظهورها وإشراق بدورها . . . تذهب الأحزان ، وتنفرج الغموم ، وتضمحل الهموم .

فالأرواح العلوية الصافية عن الكشائف الأرضية - وهي أرواح المقربين - متروحة بروح القرب ، متنعمة بنعيم الوصل والحب ، لا تلمُّ بها الهموم الردية ، ولا تكدرها الكشائف الأرضية ، يتقلبون في حلل الجمال ، ويكرعون مناهل الوصال ، ﴿ فَأَتَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَوْلُوحٌ وَرَبَّحَانٌ وَصَحَّتْ تَبِيْرِ ﴾ ، فالرَّوح لأنهم روحانيون ، والسرور والفرح وسائر أصناف التمتع كالنتيجة للروح ، فمن فرحهُ بالله ؛ وهو غاية مطلبه ومنتهى أربه - ولمحبوبه الكمال المطلق والبقاء السرمد - فمن لازمه الرَّوح السرمد ، والعز الأمد ، جعلنا الله وأحببنا في الله من أولئك ، وبؤانا وإياهم حفاظاً قربه ولذاذة حبه ، وتغمدنا وإياهم كذلك بتمام رحمة ومته ، ولي في ذلك :

فكل ما يطرق الأبواب من حَزَنٍ بحسب ما منعت من مشهد المنن

فلو رأيت صفات الحق مسفرة لَمَا اعتراك ورود الهم والحزن
بحسب ما تمتنع من قربه فكذا تنال من شدة الأحزان والمحزن
أرواح قرب عن الأكدار صافية في طيب عيش برز من خالص المنن
ومن يكن همه من شؤون معصية وفوت غال نفيس الوقت والزمن
فحال مرضي لمن حالته سالمة من ظلمة الشك والأدناس والدرن
فالهوم والغموم إن كانت أخروية . . فهي درجات ورفع مقامات ،
وإن كانت من الأمور الدنيوية المأذون للعبد في الاهتمام بها . . فهي
كفارات ؛ كما ورد معنى ذلك ، مما لا يكفرها إلا همُّ المعاش ، أو كما
قال (١) .



فإذا علمت ذلك . . علمت : أنه إذا أعطاك ما كفاك ومنعك الزيادة . .
فذلك من عنايته بك ، فاشكره على ذلك ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله
عنه :

(١) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (١٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ : أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ ، وَيَمْتَعَكَ مَا يُطْعِمُكَ

تمام النعمة : أن يفتح لك باب الفهم عنه في جميع ما أنزله بك ؛ لتكون به إليه واصلًا ، والنعمة : هي كل مستلذ طبعًا ؛ إما باطنًا أو ظاهرًا ، وإما عاجلاً أو آجلاً ، فالمستلذ في الرزق : هو كل واصل إلى صاحبه مع القناعة به ، وعدم دخول العلم عليه ، وشهود التوحيد ، وقلة العناء في طلبه ، وقلة الاعتماد عليه ، واتخاذهُ للتوصل به إلى الأقسام الأخروية ، والتقوي على الإتيان بالعبادة التي هي حكمة وجود الإنس والجان .

فإذا رُزق العبد ما يكفيه عن التطلع إلى الأغيار ، والابتذال في معاناة الأسباب ، والانغمار في الوسائط ، وكانت تلك الكفاية مصحوبة بالقناعة . . فذلك من تمام النعمة وشمول المنة .

والكفاية : هي كل ما سدَّ الخلة وأقام الأود ، وهو الرزق المضمون ، ولا يتعين له زمن دون زمن ، ولا طعام دون طعام ، والكفاية قوت الروحانيين .

والرزق إذا صحبته الكفاية . . كانت الكفاية روح الرزق ، فكل رزق بلا كفاية . . كالجسد بلا روح ، والكفاية بلا رزق . . روح بلا جسم ، فصح بهذا الاعتبار أن الرزق المصحوب بالكفاية . . قوت المؤمنين ، والكفاية بلا رزق . . قوت الأرواح المجردة ، والرزق بلا كفاية . . رزق العصاة ، وتنشق من روائح رزقهم الشياطين .

ومن تمام نعمة الرزق على المؤمنين : وجود الكفاية فيه ؛ لئلا يبتذلوا في طلبه ، ويتعبوا في تحصيله ، فتفوتهم جملة من أنواع العبادات

وسني القربات ، فبوجود الرزق الكافي تستريح الأشباح ؛ لموافقة
الأرواح على الدأب على الطاعات ، وتمنعه عما يطغيه من الثروة الملهية
والكثرة المطغية ، التي بسط أكنافها على أعدائه ، وصرفها عن أنبيائه
وخواص أوليائه ؛ كما ترى من فتنة المال ، والطغيان بالأعوان والعيال .
والطغيان مركز في جبلة النفس عند مساعدة الحظوظ وموافقة
الأغراض ، وهو سبب تمرد الفراعنة واستطالتهم واستكبارهم عن طاعة
سيدهم ، فمن تمام النعمة على المؤمن : أن حماه تلك المهالك ،
وجنبه هذه المسالك ، المؤدية بسالكها إلى مالك^(١) ، وهذه مما
يتعلق بالروح والبدن معاً ، وغيرها مما يطول عدّه .

ومنها ما يتعلق بالروح دون البدن ؛ كالحزن على مفارقة المحبوب ،
وتشتت الفكر في حفظ الحاضر منها والزيادة من المفقود^(٢) ، ومدافعة
أرباب الولايات على سحتها ، واستدراك فائتها . . . إلى ما لا يتأهى من
الأشغال المتعلقة بالروح .

وأما الأشغال المتعلقة بظاهر البدن . . فلا خفاء فيها عند أربابها ؛
كالسعي في طلبها بالأسفار ، وركوب البراري ومتون البحار ، والسعي
آناء الليل والنهار ، وتحمل مشاق الانتظار ، [و] رخص الأسعار ،
وجمع الضمار^(٣) . . . إلى غير ذلك أيضاً .

فإذا رزق العبد الكفاية ، ومنع الزائد المفضي إلى هذه المتاعب
الخطيرة . . فقد توفرت إليه النعم وتمت ، هذه في الأرزاق المحسوسة .

(١) في (أ) : (المردية بسالكها إلى مالك) ، ومالك : هو خازن جهنم عليه السلام .

(٢) في (د) : (والزيادة من المقصود) بدل : (والزيادة من المفقود) .

(٣) الضمار : ما لا يُرجى رجوعه ، ولا تكون منه على ثقة .

وأما الأرزاق الممتوية . . فمن تمام النعمة على المرید : أن برزق من الآداب القُربية عند مفاجآت الواردات الحسية ما يمنعه من أن يطغى ؛ بأن يتعدى على ما عنده ، أو يدعى فوق ما لديه ، أو يطلب الخروج عما أقيم فيه حتى يطلب لذلك ويخطب له ، أو يتخلف عما هو الحال عنده ، فيطلب رجوع ما جاوزه ؛ كما كان ذلك من أجل ما رزقه المصطفى صلى الله عليه وسلم وحظي به في مقامات الإساءة ، حيث أثنى عليه بذلك غاية الشناء ، فقال : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ عما رأى من العجائب ، وعظيم تجليات الآيات العظيمة ، ﴿ وَمَا طَلَّقَ ﴾ إلى ما لا إليه له وصول ، بل وقف في كل ما أقيم فيه ممثلاً ، حتى رقى به عنه لما هو أعلى ، وأحجم عند الابتداء إحجام الأبناء ، مع ما هو بصدده من طلب الخطاب وسؤال الجواب ، حتى ابتداء به وخاطبه بما هو مطلوبه ومنتهى مرغوبه ؛ فهذا هو أكفى رزق ، وأتم نصيب ؛ حسن الأدب من المحب مع الحبيب .

فهكذا ينبغي أن يطلب ما يكفيه ، ويمتنع عما يستغزه أو يطغيه ، والكفاية : هي حفظ المكفي ، وإذا رزق عبده من أنوار اليقين ما يحفظه عن الخروج إلى تعدي الحدود الذي هو عين الطغيان . . فقد أكمل عليه منته ، وأتم لديه نعمته ، وهذا النور الذي يشرح الله به صدور أوليائه ، فدانوا به على أقوم طريقة وأعدل محجة ، ويتمامه كمال النعمة في اليوم الديني ، فقال ممتناً : ﴿ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَقَمْتُ عَلَيْكُمْ مَعَنِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، ولي في ذلك :

تمام نعمته للعبد ظاهرة أن يرزقه من هني الرزق كافيهِ
ورزق كلِّ إلى ما العين ناظرة ومنعه كل ما يطغي ويلهيهِ



وإذا كان المنع عن المطغي الملهي من تمام النعمة من الله ..
فليتخذ العاقل من الأمور أحسنها عاقبة ، وأنفعها حالاً ومآلاً ؛ وذلك
بأن يقلل من الأسباب الشاغلة له في المعبى ، والمؤلمة بفرافها في
الدنيا ، وليتنصّل منها حال وجدانها ، فيخف عنه ألمها عند فقدانها ؛
لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَيْقَلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ .. بَيْقَلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ

التقلُّل من الدنيا وأسبابها من شأن العقلاء الناظرين بنور البصائر إلى فنائها ، وكثرة عنائها ، وقلة غناها ، وسرعة انقلابها وتكورها على أحبابها ، ومواصلة أحزائها بفراق الأحباب ، وتغير الأسباب .

فلما نظروا ذلك وما هو أعظم من فطيع المصائب وفوت الرغائب ، وعابنوا شرف العقبي وأنها الحيوان .. تقللوا من مفرحات الدنيا وزخارفها ، ففارقوها اختياراً قبل أن يفارقوها أو تفارقهم اضطراراً ؛ كما هو حال الأغبياء المغترين .

فقلَّت أحزانهم ، وفارقوا الهموم ، وبأبنتهم المحن ، ونزعت عنهم الإحن ، فاتصلوا بروح الروحانية ، فكانوا روحانيين ، ورُقمت حروفهم في عليين ، أولئك السادات الأبرار ، والعقلاء الأخيار ، الناظرون بعين الاستبصار ، الذين نزعوا عن قلوبهم زخارف هذه الدار ، ورسخت قلوبهم في دار القرار ، عزفت عن الدنيا نفوسهم ، ونزهت عنها قلوبهم .

زهّدوا حين رغب المغترون ، وسهروا حين نام الغافلون ، وبكوا حين ضحك اللاعبون ، فلم يفرحوا منها بأرب ، ولم تتعلّق قلوبهم بسبب ، فبأبنتهم الأحران ، واستأنست بهم الأوطان ، وصلّت عليهم ملائكة الرحمن ، وأحبتهم الله وأعدّ لهم الرضوان ، وأوقع لهم الحب في قلوب الإنس والجان ، بشاهد قوله صلى الله عليه وسلم : « ازهد في الدنيا .. يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس .. يحبك الناس »^(١) ، ولي في ذلك :

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٢) عن سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما .

ما قلّ من فرح الدنيا يكون له قليل حزن على فرقه فاعتبر
وكل ما كان مفروحاً به فكذا يكون له من خطوب الدهر من ضرر
فكل زائل عن قرب يكون إذا ما لم تدعه شديد الهم فانتظر

ومفرحات الدنيا : إما مال أو جاه أو غير ذلك من كل ما فيه ملاءمة
للنفس ، وموافقة للطبع ؛ وهو إما أن يكون بطلب من الإنسان وتسبب
في تحصيله ، وإما أن يكون بلا طلب ، ولا استعمال سبب .

فإن كان بلا طلب . . فسبيلك أن تطلب الخلاص منه ولا تفرح به ،
وتبتهل إلى الله تعالى في أن يخرجك منه سالماً ، وإن كان بطلب وسعي
في سبب . . فذلك أشد ضرراً ، وأخوف خطراً ، فسبيلك ترك التعرض له
والسعي في طلبه ، ويجمع معظم أسباب آفات الدنيا اتخاذ الولايات ،
فهي الأمهات لسائر الآفات ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِذَا أَرَدْتَ أَلَّا تُعْزَلَ . . فَلَا تَتَوَلَّ وَلَايَةَ لَا تَدُومُ لَكَ

هذا من أعظم ما ابتلي به من أولع بمحبة الجاه وملكته هواه ؛
أنه إذا كان متأثراً ، نافذ الكلام ، متطاولاً على الأنام ، ثم عُزل عن
المقام ، وجرت الأحكام ، وأوقف للخصام ، واشتد عليه اللزام ، فإذا
تكلم رُدَّ عليه الكلام ، وإذا خاصم انقلب عليه الخصام . . أتى له من
الذل والهوان ما ودَّ أنه لم يكن له قبل ذلك ذكر ، ولا ظهر له أمر ، فماذا
ترى ما يترادف عليه من الأحران ، وما يناله من الهوان؟! عافانا الله
وأحبابنا من ذلك .

فالولاية التي تدوم . . هي التي تطلب ، وفيها ذو العقول ترغب ؛
هي أن تكون لله ولأوليائه موالياً ، وعلى نفسك وهواك متولياً ، فلذلك
فاطلب ؛ فهو الذي يدوم نفعه ، وتتزايد كرامته في الدار الآخرة ، وأنت
في الدنيا عن المزاحمة فيه والتطابق على أمان ، وفي سلوك محجته
على بيان ، فاختر إن شئت راغباً عزَّ الأبد ونعيم السرمد ، أو حسرة الأبد
وذل السرمد ، ولي في ذلك :

إن شئت عزاً ولا تعزلك عنه يد فلا تولَّ ولايات المعازيل
إن الولايات في الدنيا يلازمها ذلٌ عتيذٌ بتحويلٍ وتبديل



فالأمر لها بدايات ونهايات ، وظواهر وبواطن ؛ فنور العقل ينظر إلى
نهايات الأمور وبواطنها ، ومن لم ينظر بذلك النور . . يقف - لا محالة -
عند بداياتها ، وظواهر زخارف زينتها ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله
عنه :

إِنْ رَغَبْتُمْ أَلْبَدَايَا .. زَهَدْتُمْ أَلْنَهَائِيَا ، إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ ..
نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ

الرغبة في الشيء يقتضي الحب له ، وبذل الوسع في طلبه ، والزهدُ على العكس منه ؛ يقتضي البغض وعدم الاكتراث به ، والدنيا بظاهر غرَّتِها وزخرف زينتها في أول الأمر تروق في العيون الظاهرة ؛ لما ترى من تلك الملابس الفاخرة ، والزخارف المتظاهرة ، وتحتها كوامن العطب ، وسيوف الرهب ، وقبح المنقلب .

فالعين الظاهرة تنظر إلى تلك الملابس الرائقة ، والأزهار الشارقة ، والطراوة الفاتمة ، فتنضم إليها ، وتلمح لديها ، فتغرب ، وإليها تطرب ، والعين الباطنة تنظر إلى ما هنا من المعاطب الكامنة ، والقبايح المستورة تحت تلك الملامح المنظورة .

فما أجدره بالفرار عنها حين عاين قبح الهلاك منصوبة تحت تلك السنائر ، والسم الزعاف مدموج بتلك المناظر !! فيزهد حين يرغب من عمي قلبه عن ذلك ، وينتهي حين يدّعي غيره إلى ما هنالك .

فالجّهال مغرورون بظاهرها ، والعقلاء معبرون بباطنها ؛ فلذلك سُمُّوا عقلاء ، كما أفتى إمامنا الشافعي رضي الله عنه : بأنه لو وقف على أ عقل الناس .. لصرّف للزهاد^(١) .

وما أتى من نبي ولا ولي من لدن آدم إلا وحذّر قومه من غرورها ، ونصحهم عن أن يطمئنوا إليها ، أو يثقوا بحبل أمانيتها ، وما أنصح

(١) انظر « البيان » للعمرائي (٢٢٨/٨) .

من الله لعباده ، ولا كلام أبلغ من كلامه ؛ حيث قال والحق قوله : ﴿ رُبِّينَ
لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ... ﴾ إلى أن قال : ﴿ قُلْ أُوتِيتُمْكُم ... ﴾ إلى قوله :
﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَلْمَالُ وَالنَّوْنُ رِيَّةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَيْتُ الصَّالِحُ حَبْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَابًا
وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ ، وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... ﴾ إلى : ﴿ مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ .
وقوله صلى الله عليه وسلم : « حب الدنيا رأس كل خطيئة »^(١) ،
وقوله صلى الله عليه وسلم : « اعلموا أن الدنيا حلوة خضرة ، وأن الله
ستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون »^(٢) ... إلى غير ذلك من الآيات
والأخبار .

وأما الآثار .. فتكاد تخرج عن الحصر ، فلنقتصر من ذلك على ما
أوردناه من الآيات والأخبار ؛ ففيها كفاية لذوي العقول الثاقبة ، ولي في
ذلك :

إن رغبتك بدايات الأمور فقد زهدك فيها نهايات المقادير
كم غر فيها كما غر البليد أسد بحسن قيدٍ وتخطيط التصاوير
إن كنت تعقل أن العمر ليس أبد تأتي المنون ولا تغني المعاذير

ورزايا الدنيا ومصائبها وفجائعها .. سائقة لذوي العقول إلى المثل
بين يدي سيدهم ، ومزعجة لهم عن الاستئناس بغير محبوبهم ؛ لذلك
قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩) عن الحسن رحمه الله تعالى مرسلًا .

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلًّا لِلأَغْيَارِ ، وَمَعْدِنًا لِوُجُودِ الأَكْدَارِ ؛ تَزْهِيداً لَكَ فِيهَا

إنما جعل الله سبحانه الدنيا محلاً للأغيار ، ومظهراً للمصائب وظهور الظلم الغيرية الموحشة للأسرار ، عن الاستئناس بها والركون إليها ، وخبياً أنوار الوجود وتلاؤم الشهود إلى دار الخلود . . رحمةً منه ولطفاً ؛ لئلا ينقطع عنهم ما يجدون من المشاهدة بانقطاع هذه الدار الغانية ، فجعل تمام ظهور هذه الأنوار ، وشهود عجائب الأستار ، في دار القرار ، ووسمها بالتمام على الدوام ؛ ليكون الإنسان لعالم البقاء ختاماً ، ولذروة الكمال سناماً .

وجعل هذه الدار السريعة الانصرام والقريبة الانعدام محللاً لظهور الغيرية ؛ التي تغربت بتوهم وجودها الأرواح عن المشاهد السنية ، والدرجات العلية ؛ وذلك لعدم أصالتها .

وجعل المصائب أيضاً والمكدرات فيها ؛ لمناسبتها لها ، وجعل سبحانه أمدها قصيراً ، وعيشها حقيراً ، ومخوفها خطيراً ، فلا يمترى فيها ذو عقل سليم وقلب عليم ، فيزهد فيها ، وتنبو همته عنها ؛ لما تعلق به من جمال البقاء ونعيم اللقاء ، هذا لذوي البصائر النافذة .

وأما عموم المؤمنين والواقفين على ظواهر الأمور . . لم ترفع لهم عن الحقائق الستور ، فيزهدون لما يرونه بمرآة العقل ، ويشاهدون من عجائب العبر ، واستماع النقل والخبر ؛ مما ينقز قلوبهم ، ويعزف نفوسهم من فجائع الدنيا بأهلها ، وانقلابها على أهل الثقة بها ، وورود البلى مع كرور ليلها ونهارها ، وفوات المحبوب منها ، والقصور عن مآولها ، فيزهدون - لا محالة - ليستريحوا من ألم فراقها ، ويحتموا من

زعاف سموم نوابها ؛ فكل ما كان فيها من المسرات أقل . . كان من
الفجائع والرزايا أميل .

وكل محبوب منها تقارنه - لا محالة - حسرتان ومصيبتان : حسرة
فراقه ومصيبة ذهابه ، وحسرة فوات النصيب الأخرى ، ومصيبة عدم
التمكن من فعله ؛ لأنه كلما ذهب في شغل بأمر دنيوي . . ذهب بموسم
من مواسم القرب ، وغنيمة من غنائم الآخرة ، فلا يرجع الفائت من
هذه ، ولم يتل الذهاب من تلك .

وحق لمن تأمل هذه العبارات ، وأنصف أن يزهّد في ما هو سبب
حرمانه من نيل الدرجات ، وما هو سبب هوانه بحلول المثلات ، فهذا
وأمثاله مما زهّد ذوي العقول الشاقبة .

وأما أهل البصائر الذين صفت منهم السرائر . . فزهّدهم ما ألهي
أسرارهم من تألؤ جمال المحبوب ، وغطّي نعوتهم من جلاله ، لا
التفات لقلوبهم إلى الأغيار ، ولا شوق إلى جنة ولا خوف من نار ، بل
صارت عندهم الآثار محواً ، والوجود صحواً ، فالحمد لله الذي جعل
لنا إليهم بتكرير بعض صفاتهم نسبةً نكون لهم بها - بشرط الصدق -
نُدماً ، وفي معرّسهم خدماً ، ولي في ذلك :

فما جعل هذه الدار التي كمنت فيها سهام البلياء موضع الغير
إلا محل البلياء مثل ما علمت ومعدن آفات لينس العين كالخبير
فزهّدت كل ذي عقل بما ظهرت مما حوت من وجود البؤس والكدر



إذا تأملت انزواء الدنيا عن أولياء الله وأصفيائه وأهل وداده ، وتزخرفها
وتزينها لأعدائه وأهل القطيعة . . علمت يقيناً حسن اختياره لك ، ولطفه

فيما زواه عنك منها ، فتشكره على ذلك شكرَ غيرك موافقاً طبعه ونيلَ
حظه ، بل أتمَّ شكرًا ، وعلمت أنه اختار لك ما اختاره لأنبيائه وخواصِّ
أوليائه ، فترتاح وتشتاق إلى لقائه ، ويظهر لك خسة الدنيا وضيقها ،
فتأخذ في طلب المحبوب ، وتجدُّ في طلب ما هو الأولى بك .

ومصائب الدنيا وفجائعها نعمةً من الله على عباده ؛ لئلا يستأنسوا
بها دونه ويطمئنوا إليها ، فكانت هذه المصائب الدنياوية مزعجة لهم
عن الركون والطمأنينة إليها ؛ وذلك لما علمه : أن بعض عباده لا يقبل
النصح إلا بإزعاج وقهر ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

عَلِمَ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ النَّصْحَ الْمَجْرَدَ ، فَذَوَّقَكَ مِنْ ذَوَائِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَيْكَ
وُجُودَ فِرَاقِهَا

علم سبحانه وعلمه الحق الذي لا يدخله جهل ، ولا يمترى فيه شك ، بل عَلِمَ الأشياء قبل إيجاد أعيانها بجمالها وتفصيلها ، فعلم بما بعض الأسرارِ عليه ؛ من وجود القرب وكمال اليقين ووفور المعرفة وكرامة السجية ؛ فتجلى لهم بصرف الجمال ، وألمح بصائرهم تجلي الكمال ، وأشعر قلوبهم نيل الوصال ، وأذاق أرواحهم حلاوة الاتصال ، فأقبلوا إليه عما سواه من الأكوان ، تاركين لساثر ما طمحت إليه الأعيان من الألوان ، ومتجردين عن النفوس ، مقدسين بتقديس الملك القدوس ، فهؤلاء سمعوا قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، فلما استجابوا . . عَلِمَهم علم القرب ؛ ليشهدوا به استغراق معيته ، فقال : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ .

فالاستجابة بامثال ما شرعه ، والعلم نتيجه ، والشهود ثمرة العلم الذي أنتجه صدق الاستجابة ؛ فهؤلاء لم يحتاجوا إلى التجربة التي تورث غيرهم التجافي عن الدنيا ، بل قبلوا النصيحة من غير توقف على استدلال على فراق الدنيا وقبحها ، وشرف الآخرة ونفاستها .

ولما علم سبحانه أن في عباده من لم يقبل النصح مجرداً . . أظهر ما أظهره من شدائدِها وفجائع مصائبها ؛ لينتقِرَ عنها من اغترَبَ بزينتِها من المؤمنين ، فكان ذلك تفضلاً منه عليهم ورحمة بهم ، فله الحمد حيث لم يتركهم وما أرادوا من تيسر أسبابها ، وتزخرف محائبها ، كما ترك من لا له عنده حظ يمرح في نعيمها ، ويتمتع بزخرف زهرتها ،

قال عز من قائل : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِعَهُمُ سِقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَيُؤْتِيهِمُ أَتُونًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَسْكَبُونَ . . . وَزُحْرَفًا وَإِن كُنتَ لَتَأْتِيهِمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، ولي في ذلك :

لما علم جل مولانا وخالفنا أنا كما قد علم لم نقبل الخبر
 أذاقنا من مرارات الفراق عنا بسوقٍ من جرَّب الأشياء بالغير



ولما كان استكشاف الأمور حسنها من قبيحها لم يعثر عليه إلا بنور
 العلم . . أخذ في بيان قوله نفعنا الله به :

أَلْعِلْمُ النَّافِعُ : الَّذِي يَبْسُطُ فِي الصَّدْرِ شُعَاعَهُ ، وَيَكْشِفُ عَنِ الْقَلْبِ قِنَاعَهُ

العلم الحقيقي الذي يطلق بالمدح عليه ، ونشرت رايات المجد لديه .. هو العلم الذي هو فائض عن الوصف الأزلي ، وهو النور التأييدي ، والنفت الأقدسي .

والصدر المتلقي له هو الروح النقي ، منبع التقوى ، ومحل الفهم المتلقى من عالم الأمر ، الملقى بواسطته على العالم الخلقى أعمال الهدى وأسرار الاقتداء ، على المحجة البيضاء والحنفية السمحاء ، قال الله في شرح صدر أكمل هذا العالم : ﴿ تَمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ ، فهذا هو العلم الملقى على من ألقى عليه ، وهو المستحق بأن يُسَمَّى علماً مجرداً عن الإضافات الكونية ، ثم قال جل ذكره - مشيراً إلى ثمرة هذا العلم ، ومبيناً لشرفه ، ومنهياً على أن من لم يحظ منه بشيء .. أنه غير عالم - فقال : ﴿ فَاتَّبِعَهَا ﴾ إذ هي الموصلة إلى عين المشاهدة ويقين المواصلة ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هذه الشريعة الأمرية .

فمن أخذ علمه لا عن هذه .. فهو موصوف بالهوى ، ومقرون بالدعوى ؛ فالعلوم النقلية المتلقاة من الخلق ، المتداول لفظها ، إذا لم يصحبها من هذه الأنوار القدسية ، ولم تحظ من المراتب العلمية بمزية .. لا يفارق صاحبها الآفات القاذحة في إخلاص العبودية ؛ لأنها اتسمت باسم العلم ، وتلبست بلبسه بين العالم ، وسمي عالماً عندهم مع أنه لا يحرم حرام ما علم حرامه ، ولم يأت واجب ما علم وجوبه ، فكان عند العموم عالماً ، وعند الخصوص غمراً جاهلاً ؛ إذ العلم عند

المحققين : ما باشرت القلوب أنوارهُ ، وانبسط على النفوس شعاعهُ ،
وظهر على الأركان حسن اتباعه .

وقال جل ذكره في معنى ذلك في معرض الامتنان بما فسح به
الجنان : ﴿ أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ، وشرحه : هو اتساعه لقبول فيضان
العلوم الحقية ؛ حتى عَلِمَ عِلْمَ الأولين والآخرين ، وقال في حق من
اختصه باتباع محجته ، واقتفاء أسوته : ﴿ أَقْنَمَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ
عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ﴾ ، كما قال للمتبوع : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ .
فكل مَنْ أفيض عليه نورٌ من هذه الشريعة بواسطة أي اسم . . كان
مشهد الربوبية فيه ظاهراً ، في مرآة المربوب ناظراً ، وسائر الأسماء
يسمى مجموع تجليها أمراً ، فجعله قطب مدارها ، وشمس نهارها ،
والصدرُ : هو المشكاة التي ينسط عليها نور الزجاجة التي تقبل نور
المصباح من غير واسطة ، وهنا تظهر من العلوم ما لو بدت . . لضاق
عنها نطاق الخلق ، وطارت الألباب من محرقات السبحات ، وتلاطم
بحار أنوار الذات .

فلنرجع إلى قوله : (العلم النافع) هو الذي ينتفع به العالم ، هو كل
علم بالله وبصفاته ، وأسمائه وأفعاله ، وأمره ونهيه ، وما يزيد في خوفك
من الله ، ويزيد في رجائك ، وكل علم تعلم به مفترضات الله عليك ،
وما ندبك إلى فعله ، وزجرك عن إتيانه من شرائعه وسنن أنبيائه .

والعلم النافع : هو الذي تصل به إلى مرضاة الله ، وتنتقي به سخطه ،
ويدخل في ذلك كل علم باطن أو ظاهر ، خاص أو عام ، لكن بشرط
حسن النية فيه وإخلاص القصد ، فيدخل فيه علم فروض الأعيان
وفروض الكفايات بهذا الشرط المذكور .

ولكن المقصود الأعظم : هو علم الكشف والتجلي ، وعلم الحال والتجلي ، وعلم الفرض والتخلي ، وهذه العلوم لا يدركها إلا أهل الصفاء ، القائمون على نهج التحقيق والوفاء .

وأما علماء الرسوم ، الذين لم يعطوا نصيباً من المعلوم ، بل واقفون على ما يسمعون من الألفاظ ، ويتلقون من الرواة والحفاظ ، وشيء يُلقونه بأفهامهم السقيمة بعلة الهوى ، والمتلوثة بقاذورات الدنيا . فليسوا عند المحققين علماء ، وإنما يسمونهم نُقَالاً وأوعية ، وكان مما يروى : أن من العلماء يحشرون مع الأنبياء ، وآخرين يحشرون مع الأمراء والسلاطين ، ولي في ذلك :

العلم هو كل ما تبسط مآثره على الصدور شعاع النور فاعتبر وينمحي عن شهود القلب ساتره ويكسي الروح سربالاً من النظر وكل علم في الأعمال ناظره بحسن قصد وفهم فيه معتبر فذاك علم سمت فيهم مفاخره وغير ذاك هباء في هوى الفكر



ثم اعلم : أن العلم قد يطلق على سائر العلوم ، والعلوم كثيرة بحسب المعلومات ، ومن كان ذا عقل وفهم . . نظر في العلوم خيراً . وخيرها : هو كل ما يعود على العالم به الظفر بخيرات الآخرة والدنيا ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

خَيْرُ الْعِلْمِ : مَا كَانَتْ الْخَشْيَةُ مَعَهُ

فإذا اعتبرت العلوم من حيث الإضافة إلى معلومها .. وجدت أشرف العلوم العلم بالله وبصفاته وأفعاله ، وخير ما يتقرب به إلى الله هي أحوال القلوب ، فكان خير كل علم ما قارنته هذه الأحوال القلبية ، والمواجيد السرية التي من جملتها خشية الله ؛ إذ الخشية : وصف العلماء بنص كلام الله ؛ إذ قال جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، والخوف شعارهم ؛ إذ قال : ﴿ وَخَافُونَ ﴾ ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ ﴾ .

وكل علم لم تصحبه الخشية ، ولم تقارنه المخافة ، ولم تدهشه الهيبة ، ولم يُرَوِّحِه الرجاء ، ولم ينعم صاحبه الأتس ، ولم يحجزه الورع ، ولم يجانبه الطمع ، ولم يحقق طرائق السنة ، ولم يشيد مبانيها بالأعمال ، ويصفيها عن شوائب الآفات ، ولم يراعِ حقوق الله على ممرِّ الأوقات ، ولم يعزف نفسه عن الشهوات المألوفات ، ولم يتحقق صاحبه بالمقامات .. فليس على الحقيقة بعالم وإن حمل بعض العلوم المتعلقة بالقضايا والخصومات .

وقد كان للعلماء سمات يعرفون بها وعلوم تحقيقات ، وبيان أحوال وتفصيل مقامات ؛ فمنهم : المدرك لها بالذوق ؛ وهم المرادون السادات ، ومنهم : المدركون بالعلم مع عدم الدعوى لحقيقتها ؛ وهم المريدون .

فمن تلك العلوم : علم طلب الحلال ، وعلم الورع في المكاسب والمعاملات ، وعلم الإخلاص ، وعلم آفات النفوس وفساد الأعمال ،

ونفاق العلم والعمل ، والفرق بين نفاق القلب ونفاق النفس ، ومن إظهار النفس شهوتها وإخفائها ذلك ، والفرق بين سكون القلب بالله تعالى وسكون النفس بالأسباب ، والفرق بين خواطر الروح والنفس ، وبين خواطر الإيمان واليقين والعقل ، ومن علوم الأحوال أيضاً ، وأحوال العلماء ، وتفاوت مشاهدات العارفين ، وتلوينات الشواهد على المريرين .

ومن المقامات : علم القبض والبسط ، والتحقق بصفات العبودية ، والتخلق بأخلاق الربوبية ، وتباين مقامات العلماء .

فهذه العلوم والمقامات والأحوال بعض ما أورده أبو طالب المكي رضي الله عنه أنها من صفات العلماء^(١) ، تذاكرها وتعاهدها بين علماء السلف .

فإذا نظرت في أحوال هؤلاء ومن يدعي العلم في هذه الأزمان . . تبين لك إفلاسهم عن العلم ، وما هم عليه من التهاوش في الآراء ، والعمل بموافقة الهوى ، وطلب سحت الدنيا بأي وجه ، بتأملونها كما كان غيرهم من العلماء المحققين يتأملون ما يقربهم من المولى ، ويحصل لهم عنده عظيم الزلفى ، [و] عرفت ذهاب الدين وخمود أنوار اليقين في أهل زمانك ، وعرفت أن من عرف صفات العلماء والسير على سيرهم غريب ، يتنفس تنفس الصعداء ؛ لكثرة ظهور الأهواء ، وانتصار الأعداء ، واندراس العلم وأهله .

فمن كانت الشهوات غاية مطلبه ، والهوى قائده ، والدنيا وجهته . . فما أبعد عن العلماء !! وما أسمح لهذا الاسم عليه !!

(١) انظر ما ذكره في « قوت القلوب » (١٤٠/١) وما بعدها .

فكيف يكون من ورثة الأنبياء مَنْ باين صفاتهم؟! التي من جملتها :
المثابرة على الطاعات ، والتخلُّق بالرحمة على سائر المخلوقات ،
وخفض الجناح لأهل الإيمان ، والشدة في الدين ، والتنزُّه عن المترفين ،
واللطف بالمساكين ، وإرشاد الضالين ، ونصيحة الكافة والخاصة ، وعدم
الفضاظة والغلظة ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وطلب اللحوق بالرفيق
الأعلى ، إلى ما لا يحصر من مكارم الأخلاق ، فكيف يدَّعي الورثة مَنْ
لم يتخلَّق بخلق من هذه بل على الضد منها؟!!

وتعبيره بمعية الخشية ؛ إذ المعية تستغرق جميع الأحوال
والقوى الظاهرة والباطنة ، وكل حركة وسكون ، حتى يظهر لمن
نظرهم أثرها على ظاهر الشخص ، فلا يراهم راءٍ إلا وتغشاها الخشية ،
وتعتربه الهيبة والسكينة ، وتغمر مَنْ حضرهم الرحمة ، وتعمه
النعمة ، لهذا شاهدتهم في ظاهر الحس في الأعين الحسية والمظاهر
الخلقية .

فهذه دلالات العلماء بالله العارفين والربانيين ، الذين تغنت أرجاء
الوجود بوجودهم طرباً ، وجُلِّيت إليهم حُور المعارف أتراباً عُرباً .

فهذه بعض غبرة من صفات العلماء ظهرت في عاصف القدر^(١) ،
فألقتها على ذرة من ذرات الفؤاد ، فأفصحت بتحميد وتمجيد الجواد ،
بما وهبها من لطف الوداد ، وعلا وراء اللفظ وعاد ، مما كاد أو يكاد
زيتها يضيء من غير إيقاد .

فنسأل الله تحقيق ذلك ، وأن يفيض علينا من الإمداد فوق المراد ؛
إنه كريم جواد .

(١) وفي (أ) : (عبرة ...) بدل : (غبرة ...) ، وكلاهما مناسب .

ولي في ذلك :

العلم من حيث كون العلم مكرمة بخشية الله ذاك العز والشرف
معية لا تفارق صرف مرحمة يدري لذا كل من من بحره اغترفوا
فترتيب المؤلف رضي الله عنه هنذا في فضل العلم ؛ فبيّن ما هو
العلم أولاً الذي يستحق أن يسمى علماً ، ثم صفة العلم النافع ووصفه
بمقارنة الخشية .



ثم أخذ في بيان أحوال العلماء ، وانقسام العلم بحسب من اتصف ؛
إلى ما هو لك وما هو عليك ، فقال بعد أن عرّفك أن العلم تقارنه
وتلازمه الخشية ، فقال :

الْعِلْمُ إِنْ قَارَتْهُ الْخَشْيَةُ .. فَلَكَ ، وَإِلَّا .. فَعَلَيْكَ

العلم من حيث ما هو : علم عام ، ويطلق ويتخصص ويتقيد : إلى محمود ومذموم ، ونافع وضار ، وهو من حيث تعلقه ونسبته إلى الجناب الإلهي : شريف ، وهو أعم صفات المعاني كالكلام^(١) ، فمن حيث نسبته : علم الحق الجائز لهم ، وقد عرفت ما هم عليه من التفاوت وانقسامهم إلى من يحمد شرعاً ، فكذلك المنسوب إليهم .

وللمحمود شرعاً علامة دالة ؛ وهي الخشية التي هي أشمل لصفات النفوس والقلوب والأرواح ، فالخشية تعم وتحتوي على مراتب القلوب وأحوال النفوس ، فهي أعم من الخوف ، وهي التي اتصف بها صهيب ، حيث نعته صلى الله عليه وسلم ونوّه بمقامه فقال : « نعم العبد صهيب ؛ لو لم يخف الله .. لم يعصه »^(٢) ؛ وذلك لما عنده من عظم الإجلال لجناب الله ووفور الخشية ؛ إذ لو لم يخف .. لأجلّ الجناب الإلهي عن العصيان .

والخشية من صفات علماء الآخرة ، الذين يُدعون عظماء في ملكوت السماء ، وقد سماها داوود صلى الله عليه وسلم باسم العلم ، فقال : (ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك)^(٣) .

والعلم إذا قارته الخشية .. كان صاحبه من الله قريباً ، وله حبيباً ، ومن كان كذلك .. كان العلم له ؛ لأنه صار في كنف ولايته ، وحرز

(١) لتعلقهما - كما لا يخفى - بالأحكام العقلية الثلاثة ، خلافاً لسائر المعاني .

(٢) تقدم قريباً .

(٣) ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١ / ١٣٧) .

عنايته ، فكان له ، ومن لم يتصف في علمه بالخشية . . فيجترئ - لا محالة - على محارم الله ، ويغش عباد الله ، ويستهين بأوامر الله ، ويهين أولياء الله ، ويستخفُّ بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤثر الهوى والدنيا على محابِّ الله ، ويمرح ويدخل^(١) ، ويعجب ويفخر . . . إلى ما لا نهاية له من المعاصي الظاهرة والباطنة ، فيكون مقيتاً عند الله في دنياه وأخراه ؛ لأن أفعاله تخالف أقواله ، وحاله يخالف العلم الذي به يتشرف ، وإليه ينتمي ، ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، فيأمر الناس ويترك نفسه ، ويذكر الناس وينسى ، ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فإذا كان كذلك . . كان العلم - لا محالة - عليه عائداً بالضرورة ، فويل للجاهل حيث لم يتعلم مرة ، وويل للعالم حيث لم يعمل بما علم ألف مرة .

والعلماء : عالم قلبٍ دون لسان ، وعالم لسانٍ دون قلب ، وعالم قلبٍ ولسان ، وجاهل لسانٍ أغلف قلب ، فانقسم الأمر إلى أربعة أقسام ؛ اثنان محمودان ، واثنان مذمومان ، والمحمودان أيضاً قسمٌ أعلى من الآخر ، والمذمومان قسمٌ أدنى من الآخر .

فمثال العالم بالقلب دون اللسان : كالفارس البصير على مركوبٍ أعمى ، فهو يهديه لا محالة ، ومثال عالم اللسان دون القلب : كالفارس البصير والراكب أعمى ، فيُرديه لا محالة ، أو يتردئ عنه ، ومثال عالم اللسان والقلب : كراكب بصير وجواد بصير ، فهذا يكون لقدم النبوة وارثاً ، وبلسان الرسالة ناطقاً ، وهو في الكواكب السماوية شمس ، وفي الأعمال الظاهرة ذاته ثابتة ، لا يطفئها مطر ولا ريح ، فهو في نفسه

(١) في (ب ، د) : (ويعدح ويذل) بدل : (ويمرح ويدخل) .

مضيء ، ولغيره هاد ، تُدفع به النوائب ، وتُكفى به الجوائب والمصائب ،
والعلماء ربيع الخلق إذا كانوا كذلك ، كما قال بعضهم في وصفهم : ما
يراهم الغني إلا ويسرّه أن يكون فقيراً ، ولا يراهم الصحيح إلا ويسرّه أن
يكون مريضاً ، أو كما قال .

وكان أبناء الدنيا في مجلس سفيان أقلّ الخلق مقاماً .

وصفات العلماء وفضائلهم لا تحصى عدداً ؛ لكثرة مناقبهم وعظيم
فضائلهم ، منه ما يروى في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »^(١) ، و« فضل
العالم كفضل القمر على الكواكب » أو كما قال^(٢) ؛ و« لعالم أشد
على الشيطان من ألف عابد »^(٣) ؛ فكل ما ورد من الأخبار ، وحُكي
من الآثار في فضائل العلم . . إنما هو ما قارنته الخشية ، وما روي من
تفضيل العلماء . . إنما يُراد بهم العلماء بالله وبأوامر الله .

وأما ما ورد من الذم . . فليس هو إلا على من اتصف بما اتصف
به علماء السوء من الصفات المذمومة والأخلاق الملوّمة ، فالذم ليس
على العلماء من حيث العلم ، بل من حيث مخالفتهم إياه ؛ من الرغبة
في الدنيا ، وجمع حطامها ، والجدل ، والمماراة ، وحب الجاه المذموم ،
فالعلم هو الذي نبّه على قبح هذه الأحوال ، فلا يذمّ العلم ذو عقل
من حيث كونه علماً إلا ما نُصّر على ذمه ؛ كعلم السحر ، والنجوم ،

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي (٢٦٨١) ، وابن ماجه (٢٢٢) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ،

بلفظ : (فقيه واحد . . .) بدل : (عالم . . .) .

والشعبذة ، وكل علم يُتوصل به إلى منهيّ ، فلولوا العلم .. لم يعرف
قبح القبيح ، ولم يتبيّن الحسن .

والعلم من حيث انقسامه إلى نظري وعقلي ، مسموع ومطبوع ؛
فالمطبوع يسمى عقلاً ، والمسموع يسمى نقلاً ، ولم ينتفع بواحد دون
الأخر .

وقد وصف الله العلماء بالزهد وإيثار الآخرة على الدنيا فقال تعالى :
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَذُّونَ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ عَلَيْهِمْ أَعْيُنٌ مَّرِيَّةٌ ﴾ ،
فشعار العلماء بالله : الخشية ، ولباسهم : العمل الصالح ، والعلم وسيلة
إلى العمل به ؛ فإن استعمله فيما أمر واجتنب ما نهى .. كان له ، وإن
لم يعمل به ؛ ولم يستعمله في مقتضى ما هو المطلوب من العلم ائتماراً
وانتهاء .. كان عليه .

ومن مقتضى العمل : أن يكون العالم مسارعاً إلى الخيرات ، حريصاً
على اقتناص الخيرات ، يتحرّى إذا هجم الجهال ، ويزهد إذا رغبت
البطال ، وينتهي إذا اقتحم الضلال ، ينزجر السفهاء بسماع ذكره ،
وينتفع الطالب بصائب أمره أفعالاً أكثر من أمره مقالاً ، يصون عن
الدنيا جانبه ، ويحمي عن السفهاء حاجته ، لا يتبدّل في طلب الأعراض
والحفظوظ فيكون سبباً لاستهانة العلم في أعين الخلق فيحرمون نفعه ،
والعالم يستغني بعلمه عن دنيا الراغبين ، ويفتقر إلى إقادته الطالبين ،
لا يتعلم مسألة إلا لينال بها قربة ، ولا يعلم حكمة إلا وينال بها درجة .
وذلك ثمرة حسن النية في طلب العلم ، فمن طلب العلم على نية ..
نال ما نوى ، فإن كان نيته في طلبه لله .. كان من العلماء بالله ، وإن
كان نيته التفقه في دين الله ليعرف أمر الله .. كان من علماء الآخرة ،

وإن كان نيته طلب المنزلة . ونيل الحظ من الدنيا ، وزفعة الصبب
والمنصب ، ومزاحمة أرباب الولايات في القضايا والأحكام ، والظهور
على الأقران ، والاستطالة على الإخوان ، وغير ذلك من المطالب
الدنياوية والمآرب الهوائية . . فلا يخفى قبح مقصده ، وخساسة مطلبه
عند ذوي القلوب السالمة من الهوى .

وأما نفوس الجهال المغرورين والحمقى . . فلا جرم أنها ترى ذلك
من أجلّ المراتب وأحسن المطالب ، فلا عبرة بهم عند أهل الحق ،
وأكثر من يكون لديهم معظماً من نال عليهم المنزلة فيما هم بصدده من
الحظوظ الدنياوية ، فهو - أي : من طلب العلم على هذا القصد - أشد
ظروراً من الجهال ؛ لأنه يرى له المنزلة في الدنيا ، فيخيل إليه أن له في
الأخرة الزلفى ، فيزداد من حمقه وجهله وغروره ، ويروج على العموم
حسن مقامه ، ويدعو غمار الخلق ، ويُلقِي إليهم من تزويره وتغريه :
أن ذلك فيه نجاتهم عند الله في الأخرى ، فيزدادون له تعظيماً وتوقيراً ،
وتسري إليهم رذائل أخلاقه ، وقبائح أحواله ؛ من حيث لا يدرون إلا
وقد أصيبوا بما أصاب ، وهلم جراً ، ينتهي من واحد إلى واحد ، ويكون
من أئمة الضلال ، موسوماً بسمة الدجال في الإضلال ، قال صلى الله
عليه وسلم : « أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال ؛ علماء
السوء »^(١) ؛ لأن الدجال غايته الإضلال ، ومثل هذا العالم إن صرف
الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله . . فهو داعٍ لهم إليها بأعماله وأحواله .
ولسان الحال أفصح من لسان المقال ، وطباع الناس إلى المساعدة
في الأعمال أميل منها إلى المتابعة في الأقوال ، فما أفسده هذا المغرور

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٤٥/٥) بنحوه عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله ؛ إذ لا يستجري الجاهل على الرغبة في الدنيا إلا باستجراء العالم ، فقد صار علمه سبباً لجرأة عباد الله على معاصيه ، ونفسه الجاهلة مع ذلك تميته وترجيه وتدعوه إلى أن يمتن على الله بعلمه ، وتُخِيلُ إليه نفسه الخبيثة أنه خيرٌ من كثير من عباد الله ؛ فقد صرَّح بذلك الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في وصف الذي اتخذ علمه ذريعةً إلى نيل الحظوظ العاجلة ، ولم ينكشف له دناءة هذا المقصد ، ولم يبين له انعكاس هذا المشهد^(١) ، عافانا الله والمسلمين من ذلك ، ولطف بنا من الجهل والاعترار ، ولي في ذلك : العلم نور إذا قارنهُ مصحبةٌ من خشية الله ذاك العالم النبل شعاره الخوف مَع ذلٍّ ومسكنةٌ وغير ذاك من التحقيق منعزل فهذا القدر من التنبيه على شرف العلم المقارنة له خشية الله ، وقبح كل من طلب العلم على غير نية صالحة .. كافٍ .

وقد أطال العلماء والمصنفون في الترغيب في العلم وفضيلته ، والتنفير والتحذير من الاعترار بما فيه كفاية ، سيما الإمام حجة الإسلام أبي حامد ؛ فإنه أوضح فيه ما لا يبقى معه ريب في شرف العلم وخسة من اتخذه وسيلة إلى نيل الحظوظ العاجلة ، فلنكتف بذلك عن الإطالة .



فلما أنهى الكلام على العلم ، وصفة العالم ، وما هو العلم .. أخذ في بيان معاملة العبد مع الله ، فله دليل يجده أولو البصائر المستنيرة ؛ لذلك قال :

(١) كما في « إحياء علوم الدين » (١ / ٢٢٣) وما بعدها .

مَتَى أَلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ . . فَارْجِعْ
إِلَى عِلْمِ اللَّهِ فِيكَ ؛ فَإِنْ كَانَ لَا يَنْفَعُكَ عِلْمُهُ . . فَمُصِيبَتُكَ لِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ
بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الْأَدَى مِنْهُمْ

متى وجدت ألمَ عدم إقبال الناس إليك بالاحترام والتوقير والاعتقاد
والتبرُّك ، وطلب الدعاء منك وعلمك فيما بينهم ، وعدم اكتراثهم بك
حضرت أم غبت ، وترك إكرامك ومعرفتك بالفضل . . فألمك ذلك
لغيبتك عن شهود سيدك وخالقك ، ومن بيده منافعك ومضارُّك ؛ فإقبال
الخلق وإدبارهم عند من كان ذلك . . سيان .

فإن كنت محجوباً عن وجود الحق . . فكن بالإيمان موافقاً ، قال
صلى الله عليه وسلم في وصيته لابن عباس من جملة ما أوصاه به في
حديث طويل محتوٍ على أصناف الحكم وجوامع الكلم : « واعلم : أن
الأمّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يردك الله به . . لم يقدرُوا ،
ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء . . لم يقدرُوا ، رفعتِ الأقلامُ وجفَّتِ
الصحفُ » (١) .

ومن دواء ذلك الألم : أن ترجع إلى علم الله فيك ، فإن كنت عنده
كريماً . . فماذا عسىٰ ضورك إدبارهم عنك؟! وإدبارهم فيه لك من
المنافع الدينية ، والسلامة من الآفات القادحة في الأعمال ، والحائلة
بينك وبين الإقبال على الكبير المتعال . . ما لا يحصىٰ شكره ، كدمهم ؛
فإنهم إذا توجهوا إليك بالذم . . الجؤوك - لا محالة - إليه ، وأوقفوك
على دقائق كامنة لم تكن لك قبل عليها اطلاع ؛ فإن كنت من أولي

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

العزائم السالكين . . فذلك أعون لك على ما أنت بصدده ؛ من صفو الوقت ، وعدم الاشتغال بهم ، والسعي فيما يقيم بواطنهم ، وإن كنت من الواصلين . . فلا أحق منك بالشكر إن خليت بمن تحب ، وهو يعلم ما نالك في ذاته ؛ فإنه بكل حال متفضل عليك .

وإن كنت لا ترضى بذلك ، ولم تفهم ما هنالك . . فمصيبتك أشد ؛ لأنك مصابٌ بضرب الحجاب ، ومعرض لويل العقاب ، فما شأنك إلا أن تتألم لذلك ؛ حيث لم تحظ من الكشف الصريح ما يشهدك انعدام الخلق في شهود وجود الحق ، ولم تكن من أهل الإيمان المتفعين بالسمع من الصادق المصدوق حيث أرشد إلى ذلك ، ودل على ما هنالك .

وأما أذى الخلق . . فهو خيرٌ بكل حال ، ولم يكن نقصاً ، ألم تر من إيذاء الأنبياء وسادات العلماء ؟! فلو كان ذلك نقصاً في منصبهم . . لما قال صلى الله عليه وسلم : « نحن - معاشرَ الأنبياء - أشد بلاء ، ثم الأمل فالأمل »^(١) ، وفيه من تكثير الحسنات وجلب الخيرات ما لا يدخل تحت হিসوب ، وهو شاهدٌ على وجود الإيمان ؛ كما قال سبحانه وتعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ آتَى النَّاسَ الْحَسْبَ النَّاسُ أَنْ يُؤْخِرُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ . . . ﴾
إلى آخر ما قال : ﴿ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، فدلّت الآية على أن التألم بإيذاء الناس فادخ في الصدق ، ومخرج عن تسمية الإيمان ؛ لأنه إن لم يكن كما قدمنا من أهل الكشف والعيان . . فلا أقل

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٢٣) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

من أن يكون من أهل العلم والإيمان ، ولي في ذلك :
متى تألمت من إديار مخلوق لا شك أنك عن مولاك محجوب
كذا أذى الخلق لا يعباه ذو طلب لمنهج الصدق طالب خير مطلوب

❦

وأعظم المنن الظاهرة : الأذى على أيدي الخلق ، وأبين الدلالة
على تقريب من أروع الخلق به وتوجهوا إليه بالأذى . . ما قاله المؤلف
رضي الله عنه ؛ حيث قال مبيناً للحكمة في ذلك :

إِنَّمَا أَجْرِي الْأَدَىٰ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ ؛ كَيْ لَا تَكُونَ سَاكِنًا إِلَيْهِمْ ، أَرَادَ أَنْ
يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّىٰ لَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ

إنما الخلق مظاهر لآثار الأقدار ، ومجرى تجري فيهم تجليات
الأسرار ؛ فكل من جرت له في المظاهر الخلقية والمشاهد الغيرية ما
يزعجه عن السكون والوقوف لديها . . . فذلك مخطوبُ العناية وموهوب
الرعاية ؛ بأن تولّى الله تربيته من وراء سجف الغيب ، فأزعجه منها
لتحقق الفرار ، ولا يكون له مع غيره قرار ؛ ليوقفه على حد الاضطرار ،
وصدق الافتقار ، ﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ ، كما أرى الكليم عداوة العصا ،
فكانت حية تسعى ، حتى هرب إليه مما كان معتمداً عليه ؛ ففي ذلك
عبرة لأولي الأبصار .

والتعبير بالناس : أنه كل مانوس من مالٍ أو جاءٍ أو غير ذلك من كل
ما يستأنس به ، والله أعلم ، وأذاهم إنما يدرك ظاهرَك ألمهُ ، والإقبال
منهم والسكون إليهم بلحقك بعالم الظلمة ، ويميت قلبك الذي به
توجهك إلى حضرة سيدك ، ويعمي روحك التي تدرك بها لذة شهود
الحبيب ، ويبعد بسببه عن التقريب .

فيذا جرى الأذى عليك على أيديهم . . . إنما ذاك من عظيم عنايته ،
ولطيف رعايته ؛ لكيلا تساكنتهم فتوقف دون مطلبك ، وتحرم بسببه
نيل بغيتك ، فأجرى عليها ما يحوشك به إليه ، فيتنكب عليك كل
ما كنت تطمئن إليه من سائر الخلق من الأسباب والعشائر ، حتى
بعاديك أعضاؤك ، فتسلط عليك بالأذى والضربان ، وأحبابك الذين
كنت تستأنس بهم ، وسائر علومك وجاهك وحالك ومقامك ، فلا

تجد أنساً بسوءي ، ولا تأوي إلي مأوي .

وقد استعاذ بعض الفضلاء من الأحوال والمقامات ، وسأل الله
اعوجاج الخلق عليه ؛ كي لا يكون لغيره مساكناً ، أو بسواه مستأنساً ،
ولي في ذلك :

أجرئ عليك الأذى ممن تساكنهم كي لا تكون مع الأغيار مأسور
وذاك من لطفه فيما يعاملهم كما روي عن عباد الله مأسور



والركون إلى الخلق والسكون إلى الأسباب بُعد وحجاب ، والشيطان
منشأ لسائر الأسباب المقصية للعبد عن باب الله ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه :

إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْكَ . . فَلَا تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصَبْتِكَ بِيَدِهِ

إذا علمت أن الشيطان المُبْعَد ، المُبْعَد لمن تولاه عن مولاه وأنت لم تدركه بالحاسة الظاهرة ؛ لأنه جارٍ من ابن آدم مجرى الدم ، وله أعوان منك عليك ؛ وهي نفسك التي بين جنبيك ، وقد علمت أن الله أمرك بالحدز منه ، والاستعاذة منه ؛ لشدة مخادعته ، وكثرة تغريبه وتزويره ، وأنت ساذج عن أكثر طرقه ، وقد أقيم داعياً إلى التفرقة والبعد ، وهو لا يفتُرُ في إظهار طريقته ، والدعاء إلى داره ؛ لأنه بالأصالة منها . . فليس هنا حرزٌ أنفع من الذكر ، ولا أحزم من العلم ، ولا أمتع من العقل ، ولا يدرك الشيطان من العبد حاجته إلا في حال غفلته ، فإذا داوم اللجأ إلى الله ، والتأذَّب جنابه ، وكان ذا إيمان وتوكل وإحسان ، وحقق العبودية لسيده . . كان منه ومن كل قاطع في أمان ، ولم يكن لعدوه عليه سلطان ، ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ ، مع التوكل عليه ، وتحقق الذلة والافتقار بين يديه ، وكفى بربك وكيلاً لمن توكل عليه .

فالشيطان لا يملك التسلط والإغواء إلا على أهل الشرك والأهواء ، ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ ، وفيما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن الشيطان جائمٌ على قلب ابن آدم ، فإذا غفل . . وسوس ، وإذا ذكر الله . . خنس » ^(١) .

وفي بعض الآثار : أن الشيطان شكاً إلى شيطان آخر ما لقي من العناء

(١) رواه أبو يعلى (٤٣٠٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٣٦) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

من هذه الأمة ، أنه طول يومه يتعب في تهيئة المعاصي والسعي فيها ،
فإذا كان آخر النهار .. استغفروا الله ، فغفر لهم ، فبطل سعيه ، وخاب
أمله منهم ، ورجع منهم آيماً ، حتى يذنب العبد ولا يدري أنه أذنب ،
فيدرك منه مراده .

وإذا صدق العبد مع الله في تركه ، وحقق إيمانه ، وقام له بصدق
العبودية .. فقد حصل حرز الله وأمانه من شره وشر أعوانه .

ويروى أيضاً : أن الشيطان قال لربه عز وجل : بعزتك وجلالك ؛ لا
أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم ، قال له ربه : بعزتي وجلالي لا
أبرح أغفر لهم ما استغفروني^(١) ، فما يزال من هذه الأمة خائباً ، وسعيه
فيهم باطلاً ؛ لوفور إيمانهم ، وحسن توكلهم ، واستقامة عبادتهم .

قال بعض أهل التفسير : إن الفريق المستثنى من الذين صدق عليهم
إبليس ظنُّهُ : أنهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهو وإن كان
مسلطاً مخادعاً ضالاً .. فهو لا يتعدى حكم الله في عبادته بما سبق
لهم وعليهم في سابق علمه ، وإنما جعله الله متديلاً يمسح به الأقدار
عن جناب الله ، ومذبة عن حضرة الاقتدار ، يضاف إليه وينسب كل ما
يصان عنه ذلك الجناب ؛ كالنسيان والإضلال والإغواء ، وغير ذلك من
القاذورات الظلمانية ، والرذائل الشهوانية .

وللتحصن أمور نصيها تحصيناً لعباده من شره ، فأعظمها : ذكر الله
منه ومن غيره ؛ كما ورد : « لا إله إلا الله حصني ، ومن دخل حصني ..
أمن من عذابي »^(٢) .

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (٢٦١/٤) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) رواه الشيرازي في «الألقاب» كما في «فيض القدير» (٤٨٩/٤) .

وأَسباب العذاب أعماله المبعدة عن حضرة الله .

ويروى : أن الذَّاكِرِينَ إذا رَفَعُوا أصواتهم . . انعزل الشيطان عنهم
بيكي ويقول : يا ويلاه ؛ قد تحصنوا مني .

ويروى أيضاً : أن الشيطان إذا سمع الأذان . . أدبر وله ضراط ؛ وذلك
لثلاث أسباب : ١- لأن لا يسمع الذكر من الإنسان فيشهد له يوم القيامة (١) ؛ لأنه لا يسمع
صوت الذَّاكِرِ شَيْءٍ . . إلا ويشهد له حتى أعداؤه ، وهو أعدى الأعداء ،
وهو عالمٌ بذلك ، فلم يلبث عند سماع الذكر ؛ لثلاث يتحمل الشهادة .
وهو منطوٍ على الحسد والعداوة للإنسان ، فعليك بالذكر ؛ لثلاث
يتسلط عليك ، فيملك قلبك ، فيلقي إليه الشك فيما وعد الله ، ويأمره
بالفحشاء ؛ ليجري به في معاصي الله .

ثم [ينتقل] به [من] الشك في الموعود إلى الشك [في] الموعود ،
و[ينتقل] (٢) به من المعاصي والفحشاء إلى الوقوع في ورطات
الجحود ، أعاذنا الله من ذلك ، وحفظنا وأحبابنا والمسلمين .

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ
وَقَضَاءً وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فأشار بسعة العلم إلى أنه لم يخرج عنه شيء
من الأمرين .

ولي في ذلك :

إذا علمت أن داعي الشر لم ينم

ولا يزال لقلب العبد مرتصد

(١) رواه البخاري (٦٠٨) ، ومسلم (٣٨٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) لم تتضح الكلمة في الأصل في الموضعين .

لا تغفلن عن إله الخلق أجمعهم

الخالق البارئ الموصوف بالصمد

يكفيك همك وهم الحاسب الخصم

ويستدر منح الفتوح والمدد



فإذا أردت أن تعرف الحكمة في تسليط هذا العدو الطريد

على العبد . . فاعلم : أنه لم يسلطه إلا ليوصلك إليه ؛ كما قال المؤلف

رضي الله عنه :

إِنَّمَا جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا ؛ لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ ، وَحَرَكَ عَيْنَكَ أَلْتَفْسَ ؛ لِيَدُومَ
إِقْبَالَكَ عَلَيْهِ

الحكمة في جعله عدوًّا لك ، وتحريك النفس إلى الميل إلى الطبع
الجبلي ، وتحريك الشيطان بشدة العداوة ، وتحزيبه على الإنسان
بشياطين الإنس والجان ؛ فمنهم الرجال والفرسان ^(١) - واستتصال
المال والولدان . لتعلم أن لا لك على محاربتة قوة ، ولا لمناصلته
عدة ، إلا الالتجاء إلى سيدك ليكيفك شره ، فهو القوي القادر ، الولي
القاهر ، الذي يقهر عن عباده كل عدو باطن وظاهر ، فكان بهذا الاعتبار
نعمة ؛ من حيث إنك وصلت بسببه إلى صرف عبودية الله ، التي قطب
دائرتهما : الالتجاء والذلة والافتقار ، وعدم الحول والقوة في دفع ما نزل
ووصول كل مراد إلا بالله ، وقد ألجأك إلى ذلك الحال - حيث نظرت -
شدة عداوته ، وحرصه على إهلاكك ، وكثرة جنوده ، ولا طاقة لك على
مقاومته إلا بالله ، فاستعدت به لاثذًا .

وكذلك النفس حركها ، وبحركتها تظفر بسائر الأعداء من الشيطان
والدنيا والهوى ، فيزيد الالتجاء والحذر ، وتشتد الاستعانة والاستغاثة
والاستبصار بالمولى القوي القادر على كل ما عداه ، فكان في ذلك إقبال
بكلية العبد باطنًا وظاهرًا ، فتكون أيضاً نعمة عظيمة ، ومئةً جسيمة
في حق من رزق فهمًا لذلك ؛ لأنه كلما قوي العدو . زادت الضراعة
إلى الله تعالى في دفعه والسلامة منه ، وذلك مخ العباداة .

والنفس أشد من الشيطان ؛ لأن الشيطان لا يصل إلا بواسطتها ، رأى

(١) في (د) : (الرجال والنسوان) بدل : (الرجال والفرسان) .

بعض المكاشفين الشيطان ، فقال له : كيف تصل إلى الإنسان ؟ فقال :
يا هذا ؛ ما دامت الشوكة قائمة ، والكفتان معتدلتان . . لا سبيل لي
عليه حتى تميل النفس إلى كفة الهوى فأتسلط عليه بالإغواء ، ولي في
ذلك :

ما جعل الله للشيطان ذي الحسد إلا ليلجيك ألى ذي الفضل والمدد
وحرك النفس كي تقبل إليه ولا ترى لضعفك دون الله من عدد



ثم لما أنهى الكلام على العدو البعيد . . أخذ يبين لك العدو القريب ،
فعداوتها للإنسان عتيدة ، وفهم دقائقها بعيدة ، وهي في أصلتها
تطلب العلو المباین لمقام العبودية ، فأمر العبد بردها ، ووضعها دون
مستحقها ؛ لتقوم على مستحقها ، فيردها لها واضعاً ، تُسمى متواضعاً ؛
لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنْ أَثْبِتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضِعًا .. فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا ؛ إِذْ لَيْسَ التَّوَاضِعُ إِلَّا عَنِ
رِفْعَةٍ ، فَمَتَى أَثْبِتَ لِنَفْسِكَ تَوَاضِعًا .. فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ

(من أثبت) أحكم في ذهنه ، حقق في مخيلته لنفسه التي نأت به
عن حضرة ربه ، وأوقعته في بلقع قاع قطيعته ، وأثبت أن تواضع - أي :
ردّها عن علوها إلى محلّ ضعتها وذلّ عبوديتها .. فهو المتكبر حقاً ؛
لأن استشعاره الرفعة لها عينُ الكبر .

وإن ظهر منها ضد ذلك .. فالشأن أن يكون التواضع لها وصفاً بأنه
لم يردّها إلا إلى ما هو محلّها ، فيكون متضعباً لا متواضعاً ، فيكون
عند نفسه وضع الأصل ؛ لأنه يشهد عدمها ، ويحيل قدمها ، فبشهوده
لأصلها يعرف - لا محالة - قدرها ومحلّها ، فلا يكون راداً لها إلا عن
غير مستحقها ، وكافاً لها عن اعتدائها إلى ما ليس لها ، قال الله تعالى :
﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴾ إشارة إلى معرفة
الأصل ، فإذا كان الأصل العدم ، والفصل العجز .. فكيف لا يكون
وضيعاً في نفسه؟! ولي في ذلك :

من أثبت أن التواضع منه مفتعلٌ فذاك كبيرٌ كذا يشهده من خيرا
ولكن الشأن أنك غير منتقل من العدم هكذا يعرفه من نظرا



فإن قلت : كيف الشأن في التواضع والعبد مأمورٌ به ؟

فنقول : أن تعمل كما قال المصنف رضي الله عنه ؛ حيث قال :

لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ .. رَأَى نَفْسَهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ ، وَلَكِنَّ
الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ .. رَأَى نَفْسَهُ دُونَ مَا صَنَعَ

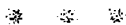
هذا ميزان يقايس على الدر ، يُعرف به التواضع ، وتظهر به أحوال المتواضعين من المتكبرين ؛ فالمتواضع حقيقة : هو الذي كلما نزل منزلاً من منازل الصُّعَة .. رأى أن نفسه دون ذلك ، ولا يزال كذلك حتى لا يرى أنه فوق شيء من خلق الله ، ولا يُثبت لنفسه حالاً ولا مقاماً ، حتى لو اجتهد كلُّ حاسدٍ وعدوٍّ في تنقيصه .. لم يقدرُوا على أن ينزلوه من الذلّة منزله من نفسه ، فلا يغضب إذا أُوذِيَ ، ولا يضجر إذا استُسخِر به ، بل يرى ذلك كالعلامة ، ولا يكره إذا رُمي بكبائر الفواحش وعظام الخزايا .

ويرى أنه في الطاعات جارٍ فيها بحكم الفضل ، لا يرى نفسه أهلاً لفضيلة ، ولا محلاً لحصول وسيلة ، بل يرى صِرْفَ مَنَّةِ اللَّهِ هي التي نالته ، وبرحمته وصلته ، فيؤدي بذلك النظر - لا محالة - حتى الشكر لله ، ويؤمنُ عليه من غائلات الدعوى وخدائع الإدلال والعجب ، ومعاطب الكبر وصرعات الفخر .

وللمتواضعين في ذلك آثار ؛ من ظهور التبذل في الهيئات والإظهار ، فمتى نظروا قلوبهم قد ابتليت بشيء من رؤيتها .. استعملوا ما يناقض ما هي به مُتَحَلِّية ، وإذا اجتهدوا في تغيير الظاهر بحسن النية وثبات العزم .. هدى الله قلوبهم إلى تغيير ما هي به متصفة ؛ فاجتهدا قمين بالهداية ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، ﴿ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ : شريعة وعملاً ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾ : طريقة وإخلاصاً

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : شهيداً وثباتاً ، وحقيقة وعباناً ، واستغراقاً
وتمكناً ، ولي في ذلك :

فللتواضع ميزانٌ يكون به لأهل المقامات تعديل ورجحانٌ
فمن رأى أنه من دون موضعه فذاك حقاً هو الميمون يا أنسانُ
ومن رأى نفسه من فوق ذاك فلا شك في جهله إن كنت يقظان



فلما كانت الأعمال كلها من حيث نسبتها إلى العبد . . فهي ناقصة ،
لا تخلو عن شائبة العيوب القادحة في قبولها ، ومن حيث ما العبد فيها
بشهود الله . . فهي النافعة السالمة من شوائب النقص ، ولا يكون كذلك
حتى يبادي نفسه وقلبه وروحه طوارق المنح الوهية ، فتغمره بأنوارها ،
فيزكو ويصلح للتقريب من الحبيب ، ويدخل في زمرة الصادقين ؛ لذلك
قال المؤلف رضي الله عنه :

التَّوَّاضِعُ الْحَقِيقِيُّ : هُوَ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنِ شُهُودِ عَظَمَتِهِ ، وَتَجَلِّيِ صِفَتِهِ

إذا علمت التواضع وشرفه .. فاعلم : أن منه حقيقة ، ومنه مجازاً ،
ومنه ما يكون مستعملاً ، ومنه ما يكون اتصافاً .

فمجاز التواضع : هو ما يستعمله العبد في ظاهر الحركات والسكنات ؛
وذلك متوقِّف على إخلاصه لله كسائر الأعمال الحسية .

ومن التواضع ما هو حقيقة ؛ وهو ما ذكره المؤلف رحمه الله ههنا ،
وهو الناشئ عن لمعان تجلِّي عظمة الله ، التي خضع لها كل طائل ،
وتصاغر لديها كل كبير ، وقلَّ لها كل خطير ، وتدكدكت لها صمُّ
الجيال ، وذابت لها نفوس الأبطال ، وتهيلت منها الصخور فصارت
مهيلة .

فإذا تجلَّى نور العظمة على النفوس .. ذابت ولانت وسكنت ، وما
لم يتجلَّ عليها نور العظمة .. فلا يفارقها الكبر والارتياس ومشاركة
الربوبية ودعوى كمال الألوهية ، فتواضعها بدون شهود العظمة .. تكبرٌ
عند تحقيق النظر وتحديد البصر .

والتواضع الحقيقي : هو ما كان ناشئاً عن تجلي سلطان الربوبية ،
وانبساط أنوار الجبروت ، وظهور حقائق اللاهوت .

فمعد ذلك : يندكُّ تابوت الناسوت ، وتحيا المعالم القلبية ، وتموت
الشهوات ؛ وتخدم نيران النفوس بانسجام سحائب التقديس ، وتذهب
صور التلبيس ، وتضمحل وساوس إبليس ، وتظهر أعلام الولاية ، وتنشر
على جيد الأرواح أعلام الفلاح ، وآيات الصلاح .

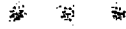
ولي في ذلك :

إن التواضع حقاً كل ما نتجت

أعلامه عن تجلي عظمة الله

لا يمحون صفات النفس إن ظهرت

إلا ظهور تجلي وصفه الضاهي



فالكبر وصفٌ في النفس ، لا يمحوه عنها إلا الوصف العلي ،

والتجلي الأزلي ؛ كما أن الظلمة صفة في الليل لا تفارقه إلا بإشراق نور

النهار ، أو طلوع الكواكب والأقمار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَا يُخْرِجُكَ عَنِ الْوَصْفِ .. إِلَّا شُهُودُ الْوَصْفِ

لا يخرجك عن أصالة عدمك وسابقتك ، وثنوية إِيَّتِكَ ، وحجية حسك ، ووصف غيريتك ، وحكم أثريتك .. إلا شهود وصفه الكامل الواجب الوجود ، ونعته بالشهود ، لا بالاتحاد كما يتوهمه أهل الإلحاد ؛ إلا أنه كلما كان أشد تعلقاً وتخلُّقاً بصفات الله .. كان بها أكثر تولعاً وتعلقاً ، وكلما كان كذلك .. كان عن صفاته أذهل وأغفل ، فلا يزال كذلك حتى ينسى صفاته ، ويبقى مستغرقاً في صفات مشهودة ، وعن ذاته متلاشياً عند خطفات لمعان ذاته ، فلا يكاد له شعور بوجوده ؛ لاستغراقه واحتراقه تحت تجليات أنوار موجوده ، حتى يكون بها ينطق لغيبته عن نطقه ، وبها يبصر لغيبته عن بصره ، كذلك بقية صفاته .

والوصف الذي يطلب الخروج منه وصف العبد ، والوصف المذكور ثانياً الذي يطلب التعلق به هو وصف الرب سبحانه ، ولي في ذلك :
لا يخرجك عن وجود الوصف بالعدم إلا تجلي شهود الوصف بالقدم
إن الوجود إذا أظهر ما كنت منعدم يقوم لك شاهد والكل كالخدم

فأول ما تظهر علامات الإيمان على العبد بانكماشه في عبادة الرحمن ، ويظهر شكر الجَنَانِ بالثناء منه باللسان ، على ذي الطول والإحسان ، والعطاء والامتنان ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

الْمُؤْمِنُ : يَشْغَلُهُ الْتَنَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ لِتَفْسِهِ شَاكِرًا ،
وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللَّهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُطُوطِهِ ذَاكِرًا

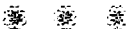
المؤمن الذي يعرف أنه مستعمل لله بحكم العبودية ، ومجبور تحت حكم الربوبية ، ولا يشهد أن له فيما يفعله من الأفعال الجميلة حقاً ، بل يرى ذلك محض تفضُّلٍ من الله . . فلا يطلب جزاءً ، بل يحمله صدور الطاعات على يديه على إفراغ الوسع في شكر مَنْ مَنَّ بها عليه وأهله لها ، فإذا شكرها - أي : النفس - في شيء ، أو رأى أن لها فيه . . فذلك - لا محالة - قاذحٌ في صدق العبودية ، ودليلٌ على وجود الحجبية .

ومن لوازم الإيمان وشواهد شروق أنوار الإيقان في سويداء الجنان : أن ينسى العبد حظه في أداء حق ربه ، كائناً ذلك الحظ ما كان ، سواء دنيوياً أو أخروياً ، يعبهه لأنه أهلاً للعبادة ، لا هرباً من شقاوة أو طلب سعادة .

وفي ذلك تقول رابعة رضي الله عنها :

أَجِبُّكَ حُبِّينِ حُبِّ الْهَوَىٰ وَحُبِّ لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَ
ولي في ذلك :

إن الثناء على المَنَّان يشغل من إيمانه كاملٌ في الله والقدر
عن أن يرى نفسه في فعل مكرمةٍ وضدَّ ذاك هو المطلوب للغير
وحق سيده أقصى ما ربه يغيب عن حظه بل يطلب النظر



ثم بيّن شاهد الإيمان الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ اللهُ ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما »^(١) .
فقال : إذا كنت مؤمناً عليّ ما ذكرنا .. فأنت محب ، وللمحب علامات ، فقال في بعض دلالات المحييين :

(١) رواه البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) بنحوه ، ويلفظه هنا رواه أحمد في «المسند» (٢٠٧/٣) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

لَيْسَ الْمُحِبُّ الَّذِي يَرْجُو عَنْ مَحْبُوبِهِ عَوْضًا ، وَلَا مَنْ يَطْلُبُ مِنْهُ عَرْضًا ؛
فَإِنَّ الْمُحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ ، لَيْسَ الْمُحِبُّ مَنْ يُبْذَلُ لَهُ

ليس المحب الطالب مرضاة محبوبه ، والظفر بغاية مطلوبه ، يستقل بذل الوسع في كل أمر يقربه إليه ، بل يرى بذله كلية وسعه غاية القصور ، ورضاه عنه منتهى الحبور ، فضلاً عن أن يكون راجياً في مقابلة ما يبذله تَبَلَّ حِظًّا أو طلب جزاء ، بل غاية الحظ والجزاء إذا قبل منه كليتته .

والمحِبُّ يشيرون به إلى السالك الطالب ؛ فهو يتعشَّق ويطلب الحبيب بطريق الأسباب ، يقرع الأبواب ، ويدبُّم التضرع والانتحاب ، وله علامات تدلُّ على صدقه في محبته ؛ فمن جملة تلك العلامات : الانكماش بالكلية في مرضاة محبوبه ، لا يلتفت في ذلك إلى حظ ، ولا يعرج عنه إلى وعظ ، يفرح بوجود البلاء فيه كفرح غيره بالنعمة ، يتلذذُّ بالدلال كتلذذ غيره بروح الوصال ، يغيب عن المستقبل والماضي والحال ، يتأله بذكر الحبيب تأله الوليد إلى الأم ، فيجري الذكر له مجرى الغذاء ، لا تبقى بقية فيه لغيره ، ولا يحبُّ أن يكون له في الوجود التفاتٌ إلى سواه ، حتى تنفذ في محبته قواه ؛ فالانتفات إلى الأغيار والرجوع إلى الآثار . . أكبر عارٍ عند المحبين الأخيار ، ولا يعلقون الأطماع بجنة أو هرب من نار ، بل يخشون من عقار تطير من روحها شرار نعيم في صورة نار .

والمحبة من حيث هي : محبة الله ، ومحبة غيره ؛ فمحبته - سبحانه - منزهة عن الأغراض وعلامات الأغراض ، بل هي أمرٌ معنوي يستقصي كليات المحب من غير سبب حسي ، وهي أم المقامات ، وأعظم

الكرامات ، بها قام كل الوجود وظهر^(١) ، وإليها ترجع كليات الأشياء ، وإليها ينتهي كل معنى ، سيما وقد جعلها عين معرفته لنفسه ولخلقه ، فتحركت قبضة المحبة في بطن الذات ، فتعينت الصفات ثم في أسرار الصفات ، فقامت الأسماء مفصحات بأعيان المكونات ، ومنتزحة عن رفيع الدرجات ونضارة المقامات ، ومنازل الكرامات في الجنات ، وبسطت أوراق رحمتها على أكناف الأرض والسموات ، فوسعت الأشياء الحسيات والمعنويات برحمتها وعلمها .

وأما من حيث الخلق وإطلاق اسم المحبة فيما بينهم . . فمرجعها إلى أمورٍ محبوبة موافقة لمزاج المحب من الألوان وحسن الصفات ولو بالعلم والدلالات ؛ كمحبة الأنبياء عند من لم يرههم ، والأولياء والعلماء عند أتباعهم ومقتفي طرقهم ، فيحبونهم لما انتقل إليهم من حسن الصفات ، وأما ملاحظة الصور المستحسنتات . . فيحبونه أيضاً طبعاً .

فإذا تقرر لك ذلك . . فالمحبة لله من خلقه بهذا الاعتبار لا تماثل ؛ لأنك إن اعتبرت حسن الصفات . . انتهت إليه سبحانه سائر الكمالات في سائر الصفات ، وكل حسنٍ فمستعارٌ حسنه منها بطريق الفعل لا بالذات ، وإن اعتبرت الملاحظة . . فلا مناسبة بين الصور ومصوّرها والمبدعات ومبدعها ، كيف وقد علمت : أنه إذا كشف لأهل الجنة في الجنة . . يندرج في أول نظرة نعيم جميع الجنات ، ويتلاشى في جنبها سائر اللذات ؟! فهو محبوبٌ بكل معنى ، وأقل ما يُحبُّ مَنْ لا يطمح نظره إلى هذه الملامح غذاؤه وقوام جسمه وملاذه الدنياوية ، وبالضرورة

(١) وهو ما صحَّ معنى ولم ينقل مسنداً : « كنت كنزاً مخفياً ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأن أعرف » ، وقد نقله العلامة تقي الدين السبكي في « الفتاوى » (٤٨٢/٢) .

يعلم يقيناً أنها لا تصدر عن سواه ، ولا تأتي إلا من فضله وعميم بذله ، فلا أقل من أن يحبه لما يغذوه ، قال صلى الله عليه وسلم : « أحبُّوا الله لما يغذوكم ، وأحبُّوني من أجله » (١) .

وللمحبين أعمال ولطائف أحوال ؛ فمن الأعمال : ألا يراه حيث نهاه ، ولا يفقده حيث أمره ، يراعي الحقوق في لطائف الأنفاس ومستمر الأوقات ، ومن جملة لطائف الأحوال : التعلق بذكره ، والتولع بحبه ، واستمرار علقم البلاء في جنبه ، فلا يعبأ بما يناله فيه وإن بلغ غايات التعب ، ولا يطلب أيضاً في مقابلة صبره على ذلك واحتماله له ما يتوقع غيره من الثواب ، بل هو وقف على محبته كيف ما كانت الحال ، ولي في ذلك :

إن المحب وإن طالبت بليته لا يجزعن عن البلوى ولا يسأم
وكل واش له في حب سيده يكون عن عذله في الحب في صم
إن كان خالٍ عن الحب ارتضى سبباً فلا يلم بقلب الصب مرتسم
لو كنت قد ذقت ما عنفت مرتقباً أن يرعوي عنك ما شبتت يا قدم
فللمحبين ذنوب بين الخلق لم تكن لغيرهم ، وأعظمها : التفات
إلى غير محبوبهم ، أو قصد غير مقصودهم ، فيرحم الله الشيخ عمر بن
الفارض حيث قال :

ولي عندها ذنب برؤية غيرها (٢)

ولهم معاملات دون غيرهم ، وهو أنهم يتحرّون كل ما يزيد في صفائهم وإن قلَّ عند غيرهم ، واجتناب ما يكدر عليهم شهودهم وإن

(١) رواه الترمذي (٣٧٨٩) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) كما في «ديوانه» (ص ٢١١) .

كان خطيراً عند سواهم ، يتفقدون مراتع قلوبهم بصدق المعاملة ولطف المنازلة ، كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون ذلك في مزيد إيمانهم وشهود إحسانهم عند كل آية ؛ كما قال سبحانه في شأنهم : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا مَا أَنْزَلْنَا مِنْ سُورَةٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ، وهذه الزيادة لا نهاية لها ، وهي عند كل إنسان بحسب ما عنده ؛ فمنهم الكثير ، ومنهم الأكثر .

ومن دلائل المحبة : الأُنس بالمحجوب ، والاستيحاش مما سواه ؛ إذ لم يحبه إلا من عرفه ، ومن عرفه . . لم يستأنس إلى غيره ، ولم يرفي الأكوان وجوداً لغيره ، ولي في ذلك :

إن المحبَّ بأنسِ الله معمور	في روضة من رياض القدس محبور
فكيف يأتسُّ بأنسِ دون سيده	أم كيف يسكُنُ إلى الجنات والحدور
لو لم تكن ثَمَّ منهم غيرُ مكرمة	ومن لطيف الرضا في مشرق النور
وكشف حُجبٍ عن الأبصار قاطبة	ما طاب عيشٌ ولا وصفُ القوارير

فإذا علمت أن المحب هو السالك . . فلا بد للسلوك من تعريفٍ ؛ ما هو ؟ وما حدُّه ؟ وهذه حكمة من الله جارية وسنة في عباده ؛ أن جعلهم سالكاً ومجنوباً ، ومحباً ومحجوباً ، وإن السالك أولاً يأخذ في طريق التقرب ، والمحب في طريق الشجب ، ولم تكن هناك طريق حسية ؛ لوجوب التنزيه عن التحيز والتمييز والجهة ، فجعل الله النفس ميدان السلوك ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

لَوْلَا مَيَادِينُ النُّفُوسِ .. مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ ؛ لَا مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
حَتَّى تَطْوِيَهَا رِحْلَتُكَ ، وَلَا قُطْعَةَ بَيْنِكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَمُوحَهَا وَضَلَّتْكَ ^(١)

لولا ما سبق في علمه ، وظهر في تبليغ حكمه ؛ من أنه يُظهر سرَّ عبوديته ليُعرف كمال ربوبيته ، وبغاير بين مظاهر ألوهيته ليتحقق اتحاد هويته ، فجعل النفوس مظهرَ سرِّ العبودية ، وجعل فيها ميادين الجهاد ؛ لأنه أودع فيها من أسرار الجمال وبيدائه ، وهي في مركز العدم والظلمة ؛ فما يلي منها جانب الجمال والوجود .. هو مركز القرب والشهود ، وما يلي منها جانب العدم والظلمة .. هو مظهر البعد والجحود ؛ لذلك كانت محل الجهاد ، ومعدن الضرب والطراد ، وينسل من عمودها جداول الاجتهاد ^(٢) ، وهذا هو مراد الصوفية رضي الله عنهم فيما يعيرون ويشيرون إليه من الطريق .

ومواضع هذه الطريق كثيرة بحسب ما أودع في النفس من لطائف الوجود وبيداتع الشهود ؛ لذلك لا ينتهي ترقبها عند خروجها عن عالم ظلمتها وحجبها ، ويسمونه الطائفة : الذهاب فيه ، والسير أيضاً فيه بعد انتهاء السير إليه ، الذي هو التخلُّص عن حُجُبها الظلمانية ، وكثافتها الأرضية .

فبعد الفراغ عن المنازعات بين عالمي النور والظلمة ، والتخلُّص عن شدة اللزام وقوة الخصام .. يكون الانضمام ، ويعود بدها إلى التمام ، فتكون لسائر العوالم إماماً في كل مقام ، كيف ومنتهى

(١) المشهور المتداول في « شروح الحكم العطائية » : (إذ لا مسافة ...) .

(٢) في (أ ، ب) : (من عمودها حداد الاجتهاد) بدل : (من عمودها جداول الاجتهاد) .

محتدهما الختام؟! الذي يختم به على كل عالم ومقام ، ثم يأخذ في السير فيه به عند التمام ، فلا غاية له إلى مقام ، ولا يعبر عما وراء ذلك بكلام ، في عالم الديمومية وترقي الختام ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وأول مسافات السالكين إلى الله التوبة ، وأول مفاتيح الأحوال الإخلاص ، وأول مفاتيح المقامات المحبة ، وبين هذه مسافات عديدة وأحوال ومقامات إلى ما لا يتناهى ؛ فكل نازل منزلاً من منازل الطريق ، أو متحلٍ بحالٍ من أحوال أهل التحقيق ، أو قائم في مقامات أهل أعلى رقيتو . . يكون مريداً لما لم ينل ، مراداً لغيره فيما نال ، وكلما كان أعلى . . كان أشد تعطشاً ، وأقوى طلباً ، وأكثر افتقاراً ، وهكذا أبداً .

والقطعة التي تمحوها الوصلة الحسية محالة عليه سبحانه ، كما كانت محالة عليه المسافة التي تقطعها الرحلة ؛ إذ القطعة هي البعد ، وهو أقرب إليك من جبل الوريد ، والمسافة التي تقطعها الرحلة لا تتصور ، وهو الحائل بين المرء وقلبه ، وأقرب إليه من نفسه ومن كل شيء ، ﴿ وَخُنُقُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكَ ﴾ .

إذا علمت استحالة هذه الإطلاقات عليه في ظاهر الحس والمعنى . . علمت أن مراد المصنف كغيره من مشايخ الطريق أن المسافة مسافة النفس ، وهي ترجع إلى معاملات ومنازلات يعبر عنها بعبارات ، فكانت تلك العبارات مفصحة عن لطيف هذه الأعمال وتحقيق هذه الإشارات ، ونعدادها يحتاج إلى أفراد كتاب ؛ كما أفرده الإمام الغزالي^(١) ، وحقق

(١) في « معارج القدس » وغيره من كتبه .

فيه المحاسبي^(١)، وغيرهما؛ كأبي عبد الرحمن السلمي^(٢)، فأفردوا
لهذه الميادين أعداد كتب، وهي حقيقةً بذلك.

وجهاد النفس عندهم: هو إمامتها عن مقتضى طبعها الجبلي،
وفناء عالمها الحيواني، وذهاب داعيها الشيطاني، ولذلك معاملات
بها يتوصل إلى ذلك مع توفيق الله وتأييده؛ فمن أعظمها وأقدمها: أن
تعرفها من غيرك ممن حَقَّقَ علمها، وأتقن حكمها من مشايخ الطريق،
وعلماء التحقيق، المتفرِّغين لإرشاد العباد، العالمين بخفايا دقائق
مطالباتها، في سائر حركاتها وسكناتها، ووكليات معاملاتها.

فينبغي أولاً للمريد: أن يطلب مرشداً مفيداً يخرجه عن التليس،
ويعرفه صحة المقاييس، ثم يعرض ذلك على نفسه، فيراها متلبسة
بكل فعل، وكل قول وعمل، ويراهما متلطخة بكل قاذروة وخطل،
فيطلب التوبة النصوح، ويعلمه طرقها، وينهج به في سبلها، فيأخذ
في أسبابها، ويجدُّ في طلبها، حتى تصح له التوبة، وهكذا يرقيه من
مقام إلى مقام؛ حتى يبلغ به إلى أقصى مقام، فيهدَّبُ ظاهره بصحيح
كلامه المؤيد بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويربي
باطنه ويغذيه بمنازلات أحواله، وهواطل غمائم أسراره، ويقبسه بجذوة
من نار أنواره، فيصطلي إذ ذاك في غلس، ويخاطب من شجرته،
ويتجلَّى بأسرته.

ومن لم يأخذ أمره على ما ذكرنا . . لا يفلح وإن بلغ في المجاهدة كل
مبلغ، ولم يبلغ، بل يتعثر في أذيال الهوى، ويتبدخ بفضيع الدعوى،

(١) في «الرحاية» وغيره من كتبه.

(٢) في «رياضة النفس» وغيره من كتبه.

لا يرجع في أمره إلا إلى نفسه التي هو مأمورٌ بالخروج عنها ، فكيف وقد أعلمه بارتها وخالفها أنه لا يؤخذ منها كل عدلٍ ظهر منها ؟! فلو لم يكن إلا ذلك .. لكان كافياً لذوي العقول الصحيحة .

وأما من سلك الطريق ولم يطلب الرفيق .. فمعرضٌ للآفات والتعويق ؛ ففي الحديث : « الرفيق ثم الطريق »^(١) .

والشيخ : له علامات إذا وجدت .. صحَّ الاقتداء به ، فإن كان عنده البعض ؛ ففيما وجدت .. تحكّمه بالمشيخة فيها ، وما فقدت .. فتعامله بالأخوة فيما لم توجد ؛ فمن جملة تلك العلامات : العلم الصحيح ، فلا يصح الاقتداء بمن لم يصح له في العلم مقال ؛ إذ بالعلم يبلغ منازل الرجال .

وذوقٌ صريح فيما يعلمه يكون متصفاً لا واصفاً ، فعلم الواصف غير المتصف ، لا ينجع في القلوب ، ولا ينقل إلى فتح الغيوب .
وهمةٌ عالية عن كل ما يوقف دون الله من سائر المطالب ، لا يقف بالمريد دون منتهى المطالب ، حتى يزجّ به بين يدي الله ، فيقول : هأنت وربك ، ولا أنت .

وشيمٌ مرضية [تبعده] عن كل فعلة دنية ، لا تعتربه الهموم الدنياوية ، ولا يؤذي الجلوس ، ولا يوحش الأنيس ، لا يرفع أحداً لسبب ، ولا يطعن في نسب ، يكرم الخلق لله بحسب منازلهم ، لا يتعدّئ مراد الله فيهم مع قيامه بأمر الله عليهم ... إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق .
وبصيرةٌ نافذة ، يُنزل كل طالبٍ على حسب منزلته في غيب الأزل ،

(١) رواه بنحوه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٧٧٣) ، والأزدي في « المخزون » (ص ٨٠) عن سيدنا خفاف بن ندبة رضي الله عنه .

ويعلم من المرید خفايا العلل ، الذي تنبو منها الأعين الظاهرة ، ولا تدرک بالحاسة الفاکرة ، بل بنور الفراسة التي نطق عنها الحديث ؛ حيث قال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظرُ بنور الله » ^(١) .

فهذه العلامات من بعض علامات الشيخ الذي يلقي المرید إليه نفسه ، فإذا وجد من هذا نعته .. فقد عثر على أعزَّ من الكبريت الأحمر في زمانه ، فليعضْ عليه بالنواجذ ؛ فإنه من الخلفاء الراشدين ، والهداة المهتدين ، الذين هم خلفاء سيد المرسلين في القيام بدعوته ، وإحياء سنته ، والهداة بهديه على واضح محجته ، وظاهر حجته ، ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ ﴾ .

وهذه الخصال تحتوي على منصة شرعته ، وواضح طريقته ، وصحة حقيقته ؛ فمن اتصف بها ووجدت عنده .. فقد حصل على كلية الاتباع ، ومن كان كذلك .. كان داعياً على بصيرة من ربه ، وما أعزَّ من هذا وصفه !! وأغرب من هذه الخصال نعته !! فإنه يحفظك في غيبته ، وينهضك في حضوره ، ويهذبك في سائر أموره ، ويفيض عليك من فائض نفعاته ، وتغمرك سابغات نظراته ، بل كل وقتٍ له من الله خصوصية ومزيد ، ينال بركاتها كل محب ومرید ، من قريب وبعيد .

فإذا حصل لسالك صريح الود في قلوبهم .. غمرته من الله مزيد الرحمات ، ونالته في كل أوان شوامل البركات ؛ لأن قلوبهم موضع نظره ، فما ترى شجرة في أرض قلوبهم كيف يغمرها هواطل غمام سموات الصفات في كل نفس وحال ووقت ؛ فمعرفةهم وحبهم والافتداء بهم من أجل مواهب الله لعباده .

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧) عن سيدنا أبي سعيد المخدري رضي الله عنه .

والشيخ : هو من شهدت له ذاتك بالتقديم ، ودانت له نفسك
 بالتعظيم ، وهو الذي إذا واجهتك طلعته البهية . . غيبت عنك المظاهر
 الكونية ، ووافقتك أنواره على المشاهد الحقية ، ومن أخذك عن السيوى ،
 وحضرت بحضوره مع المولى ، وذهبت دواعي الأهواء ، وهو الذي
 تسري فيك إشارته سريان الماء في أغصان الربا ، وهو الذي تروق عندك
 عبارته ، وتحلو لديك إمارته ، وهو الذي تنطوي عندك مظاهر بشريته ،
 وتبرح عليك أسرار خصوصيته ، فإذا طلعت عليك أشعة بدور ولايته ،
 وقابلتك أساريه ، وعمتك تباشيره . . ظهر من قلبك ترجمانُ الولاية ،
 وأشرقت في ليلك أفلاك العناية ، تبين لك صدق الخبر ، ومعاينة صحة
 الأثر ، وشاهدت سورة محكمة تحكيها صور .

فإن قلت : من أين أجد من هذا وصفه ؟

فاعلم : أنه لم يعوزك إلا عدم الصدق في الطلب ، فلو طلبت من
 يرشدك ويأخذ بيدك واضطرت إليه . . لوجدته في وقتك قائماً ينادي
 يباب الحبيب : هل من طالب أديب ؟ هل من مزعم منيب ؟ فالحق
 قريب ، وطالبه غريب ، فالوقت معمور لا يخلو عن قائم بأمر الله ،
 موضح لمحجة الله ، ولكن حجاب العادات صد عن معرفتهم ،
 والاهتداء بهديهم .

وأما حكم المرید في نفسه . . فينبغي له أن يكون الجد في الطلب ،
 ولا يشوب إرادته بالعلل ، بل يكون قصده طلب رضا ربه ، والقيام بحق
 ربوبيته ، لا لينال رفيع مقال ، أو سني حال ، فكل من سلك لينال . .
 لم ينل ، ومن سلك امتثالاً لأمر ذي الجلال . . فحري أن يكرع مناهل
 الوصال .

ويكون معظم تفقده لخفايا عيوب النفس ودواعيها ؛ لثلا يستحلي حالاً من أحوالها ، فيكون موقوفاً معها ؛ فقد قالوا : فترة المرید خير من وقفته ، فالفترة الرجوع لكن يصحبها الاعتراف ، فيرجى لصاحبها الرجوع إلى مواطن الإرادة ؛ بأن يتوب عما اجترمه ، وصاحب الوقفة يقف عند حال من أحواله فيستحليه ، فيظنه أنه قد حصل على غاية المطلوب ، فكيف يتوب !؟

وليراع المرید شرة النفس في ابتداء الإرادة ؛ فإنها ربما تكلفه من الأعمال فوق ما يطيق ، وتحت ذلك من غامض الخديعة : أن تبغض إليه العمل ، فيطول له الأمل ، ويثقل العمل ، فقد يعمل مع التحشم ولا يجد من حلاوة العبادة ولذتها ما يجد من دخل في الأعمال على الإمهال والتثبث في الأحوال .

وقد يدخل المرید في بعض الرياضات على حسب ما وجده في كتاب ، من غير مراعاة للقوانين الشرعية ، فيضر ببعض قواه ، فيتعطل عليه مركبه ، ويتعثر عليه مطلبه .

وقد يأخذ في التحلي على غير شرطه ، ولا اقتفاء فيه واضحة الطريق ؛ لجهله بها وبآدابها ، فتظهر أحوال من نتيجة الخلوة غير موافقة لما عليه أهل السنة ، فيظن أنه قد حصل على الصراد ، فيزداد من البعاد والنعاد ؛ وذلك كله حيث لم يسلك على إشارات الواضلين ، والعلماء المحققين ، أهل عين اليقين ، العالمين بأسباب الحقائق وقوانين السلوك .

ومن آفات السالك : أن يُبتلى بالقبول عند الخلق والإقبال منهم قبل أوان الإذن في المقام للتربية المؤيد بكمال الاستغراق في الشهود ، والتحقق بمقام الانفراد عن مظاهر التعديد ، والبون مع الخلق بالسر

مع كونه عبداً بين العبيد ، يقرب البعيد ويفهم البليد ، للطالب يفيد ،
وللفساد يبيد ، يزحم الصغير ، ويوقر الكبير ، ويشكر القليل والكثير ،
روحه في معسكر الملاً الأعلى خطير ، وسرّه في الجبوت يطير ،
وجسمه في فرش الأرض سمير ، تلقى من الله بالتحيات ، وتغمره أسرار
البقيات الصالحات ، وينوب عنه ربُّ البريات في سائر الصفات .

ومن لم يكن كذلك ، ولم يحظ بما هنالك . . فإقبال الخلق عليه
فتنة ، كيف لا والنفس مجبولة على محبة العلو ؛ لما فيها من الفخارية
النارية ؟!

فينبغي للصادق إن لم يجد من يأخذ بيده . . أن يلجأ إلى الله فيما
يسر ويعلم ، في أن يوقه لما هو المحبوب عنده .

وأداب المريرين في إرادتهم كثيرة ؛ فمنها : ما يطلب منهم الإتيان
به ، ومنها : ما يطلب منهم الاجتناب .

ومن آفات السالك : أن يفهم إشارات المحققين وينطق بعلومهم
قبل أن يستكمل شرائط تحققه ، ويذوق ما يعلمه ، فيظن أن ذلك - أي :
الذي فهمه من الإشارة - هو المقصود دون التحقق به ، فيقف عند ذلك ،
ولا يطلب الارتقاء إلى مرتبة الذوق ، ولي في ذلك :

لولا ميادين ساحات النفوس لَمَا تحققت في طريق الحق أسناها
فالسائرون إلى عين اليقين لهم من ربهم في مثال القرب أعلاها
فلا مسافة في بُعد يكون ولا قطع فيمحو بسير الحسن مثناها
لكن إشارات أقوام لهم همم في منهج الحق والمقصود عليها



فإذا علمت أن الله سبحانه بحكمته البالغة جمع في الإنسان النور
من حيث لطائفه الروحانية ؛ كالقلب والروح والسر ، والظلمة من حيث
النفس والهوى والشهوة ، وجعل فيه متسعاً للأضداد المتنافية . . فذلك
دليلٌ على أنه أصل الوجود ، ومظهر الكمال المعبود ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه مشيراً لهذا المعنى :

جَعَلَكَ فِي الْعَالَمِ الْمُنْتَوَسِطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ ؛ لِيُعْلِمَكَ جَلَالَهَ قَدْرِكَ ،
وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْكَ أَصْدَافُ مُكَوِّنَاتِهِ

(جعلك) أي : صَوَّرَكَ وَقَدَّرَكَ - فالجعل بمعنى التصوير والتقدير -
أيها الإنسان الظاهر في كشاف الجثمان الموسومة بسمه الحدثان في
العالم المتوسط برزخاً محيطاً ؛ ليظهر تجلي الاسمين ، ويتعين أعيان
المَلَوِين ، وجعل لك وجهين : وجهاً في الملكوت والشهود ، ووجهاً في
المُلْك والوجود ؛ وذلك ليظهر سرُّ ما سبق في علمه : أنه يخلق خلقاً
ويظهر فيهم فضلاً وعدلاً .

فانظر ماذا احتوى عليه هذا الإنسان من عظيم الشأن .. تعلم أنه
الكلمة الجامعة ، والليلة المباركة التي يتنزل عليها كمال الأمر على
صغر جرمه في العيان ، ووسعه وإحاطته باثر الأكوان ، فيرحم الله
الإمام حيث قال ^(١) :

أَتَحْسِبُ أَنَّكَ جِزْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ أَنْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ
وهنا يُفهم سرُّ قوله سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ
وَمِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ؛ ويرحم الله القائل حيث قال في ذلك :

إِذَا كُنْتَ تَقْرَأُ عِلْمَ الْحُرُوفِ فَتَخْصُكَ لَوْحٌ بِهِ أَنْطَرُ
وَتَمْشَالُ ذَاتِكَ أَنْمُودَجٌ لِكُلِّ الْوُجُودِ لِمَنْ يُبْصِرُ
حُرُوفٌ مَعَانِيكَ لَا تَقْتَرِي لِذِي الْجَهْلِ كَلًّا وَلَا تَطْهَرُ

(١) نسب للإمام أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله وجهه ، كما في « البرهان المؤيد »
(ص ١٨٧) .

وَمَنْ يَكُ غِيْرًا بِأَسْرَارِهَا
لَيْسَ كَانَ جُزْؤُكَ جُزْءًا صَغِيْرًا
فَلَا دَرَّةٌ فِيكَ إِلَّا غَدَّتْ
وَلَا قَطْرَةٌ مِنْكَ إِلَّا وَفِي
فَكُلُّ الْوُجُوْدِ إِذَا قِسَّتَهُ
وَمَا فِيهِ مِنْ عَرَضٍ حَاضِرٍ
فَأَنْتَ الْوُجُوْدُ وَكُلُّ الْوُجُوْدِ
وَفِيكَ أَشِيعَةٌ لَاهُوْتِهِ
وَسَمْسُ الْمَعَارِفِ إِشْرَاقُهَا
لَقَدْ ظَهَرَتْ فِي سَمَاءِ الْقُلُوْبِ
سَمَاءٌ عَلَى قُطْبِ تَوْجِيْدِهِ
لَهَا مِنْ أَشِيعَةِ عِزْفَانِهِ
فَمَشْرِقُهَا أَنْقُ سُوَيْدَائِهَا
وَعَرَشُ الصَّفَاءِ بِهَا مَرْكَزُ
هُنَاكَ الْمَلِيْكُ تَجَلَّسَى لَهَا
فَقَامَتْ بِتَحْقِيْقِ مَأْمُوْرِهِ
وَتَزْتَاخُ مَرْبَعِ أَحْبَابِهَا
وَعَسُوْدُ الْخَفَاءِ إِذَا زَمَجَرَتْ
فَرَوْضِ رِيَاضَاتِهَا مِنْهَا
وَإِنْ أَعْوَزَ الْغَيْثُ خَصْبًا بِهَا

فَمَعْرُوفُهَا عِنْدَهُ مُنْكَرُ
فَفِيكَ أَنْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ
بِهَا يُورَنُ الْكُوْنُ بَلْ أَكْثَرُ
يَتَابِعُ أَسْرَارِهَا أَنْحُرُ
إِلَيْكَ فَذَاكَ هُوَ الْأَصْغَرُ
يَزُولُ وَأَنْتَ بِهِ جَوْهَرُ
وَمَا فِيكَ يُوجَدُ لَا يُخْصَرُ
مِنَ الْبَدْرِ فِي نُورِهِ أَنْوَرُ
مِنَ الشَّمْسِ فِي ضَوْئِهَا أَظْهَرُ
خَفَايَا الْغُيُوبِ لِمَنْ يُبْصِرُ
يَذُوبُ أَشْتِيَاقًا فَلَا يُقْصِرُ
نُجُومٌ بِإِخْلَاصِهَا تُزْهِرُ
وَمَغْرِبُهَا سِرُّهُ الْمُضْمَرُ
إِلَيْهِ أَنْتَهَى كُلُّ مَا يُسْطَرُ
وَأَوْحَى لَهَا كُلُّ مَا يَأْمُرُ
عَلَى أَنَّهَا أَبَدًا تَحْدُرُ
وَلَا عَجَبٌ حَيْثُ لَا تُبْصَرُ
فَبَزَقُ الرَّجَاءِ لَهَا مُسْفِرُ
وَحَبُّ مَحَبَّتِهَا مُنْمِرُ
فَمَاءُ الْحَيَاءِ بِهَا يَقْطُرُ

تَمُرُّ بِهَا نَسَمَاتُ الْقُبُولِ فَيَبْدُو ذَا الْمَنِكِ بَلْ أَعْظُرُ
وَيَسْرِي إِلَى سِرِّ مِنْ عَرْفِهَا لَطَائِفُ تَطَوُّي وَلَا تُنْشَرُ
فَيُنْكِرُنَا نَشَقُ أَنْفَاسِهَا وَمَنْ هُوَ مَرْكُومٌ لَا يَنْكُرُ
يُطَافُ بِكَاسَاتِ رَاحَتِهَا وَفِي حَايِهَا حُلُلُ الْمُنْكَرِ
وَتُنْشَلَى بِسَاحَاتِ حَانَتِهَا مَثَانِي بِالذِّكْرِ لَا تُفْشَرُ
فَمَنْ صَمَّ عَنْ سَمْعِ أَلْحَانِهَا فَذَاكَ الشَّقِيُّ هُوَ الْأَخْسَرُ
وَمَنْ ضَلَّ عَنْ بَابِهَا مُعْرِضًا فَذَاكَ الْعَوِيُّ هُوَ الْأَحْقَرُ

فإذا فهمت ما أومأت إليه هذه الأبيات من الأسرار المودعة في الغيب الإنساني ، وما أشارت التسوية في الشبح الجسماني . . فلا تمتري أنه لبابة انطوت عليها قشور الأكوان ، فالأقشار اللطيفة السماوية ، والأقشار الكثيفة الأرضية ، والقوى المائية والهوائية ، والنارية والمعدنية ، والنباتية والحيوانية . . بين لك أن هذا الإنسان كعبة الوجود ، ومرآة الشهود ، ومحل نظر المعبود ، وأنه المقصود بالوجود ، وغيره على التبع له ، متوجهة إليه العوالم العلوية بالنزول والاستغفار ، والخدمة بالدعاء آناء الليل والنهار ، والأفلاك والشمس بالإضاءة ، والقمر بالنور ، هذا لمصالحه في ظاهر خلقته ، ﴿ لِعَلَّمُوا ﴾ ليحيا بالعلم غيب روحانيته .

ثم قال جل من قائل : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ، فمحا بظهور حقيقته الماحية لظهور ثابن معه أو ظهير في تأثير ؛ لتلا ينخدع القاصر بالإضافة إليها في التأثير ، فمحا تلك الإضافة بقوله : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ، ﴿ فَسَآءَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ أي : العدم الذي لا يضر ولا ينفع ، ولا يضع ولا يرفع ، فمحا ظاهر خلقيتها بظهور ألوهيته

بقوله : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ﴾ ، وطمس باطنها بسلطان حقيقته بقوله : ﴿ ذَلِكَ
إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ .

وتوجّه أيضاً العالم السفلي إلى الإنسان بالصعود إليه والقنوت
بين يديه ؛ فالمعادن إليه صاعدة ، والنبات نحوه مائدة ، والحيوان في
تسخيره ساعية ، وهو لم يُطلب منه التوجّه إلى غير سيده ، فأمر بالعبودية
بظاهره له ، وبالإستعانة بباطن حقيقته ، وشرف هذا الإنسان من حيث
نسبته إلى الروح الأمرية .

قال - في بعض كلام ساداتنا العلوية - الشيخ الفاضل ، الحبر الكامل ،
ذو الفرع الطائل والسر الواصل ؛ علي بن أبي بكر نفع الله به فيه - أي :
الروح - وهو رابع مراتبه : (الروح الأمري ، والسر الغيبي ، والجوهر
القدسي ، الذي هو حقيقة الإنسانية ، ومحصول زبدة الخلقة البشرية ،
الدرة النفيسة الملكوتية ، لا تشبه الصورة الهيكلية ، ولا تحاكي نعوت
الخلقة الحسية ، بل هو روح أمري ، وجوهر نوري ، وأمر رباني ، وسر
ملكوتي ، وروح غيبي ، مدرك بذاته ، لا يفنى بخراب القلب وفنائه ،
ولا يموت بموت البدن ، ولا يذهب بخراب بنائه ، ولا يتوقف عليه
إدراكاته وتألّماته والتذاذاته ، بل يبقى بعد موت البدن على كمال حاله
المعنوي ، أو نقص صفاته في مقتضيات القوة العلمية ، وموجبات القوة
العملية التي تتفرّع من كمالاتها ونقصانها أسباب السعادات والشقاوات .
وعلى الجملة : اعلم : أن الروح الإنساني من الأمور الربانية ،
والجواهر الروحانية التي لا يمكن الإحاطة بحقائقها ، والتحقيق بمعرفة
كنه ذاتها إلا بعوارض تميزه عما يتلبس به) انتهى كلامه في ذلك .
وهو حسنٌ موافقٌ لغرضنا في الكلام على بعض خصائص الإنسان ،

الذي تميز به من سائر الأكوان ، وتشرف به على سائر الملوان ، وفيه من كل عالم لطيفة هي لذلك العالم كالروح من الجسد ، من العوالم العلوية والعوالم السفلية ، فليعرف قدره ، ولا يميل عن ذلك استقامته ، فتكسف شمسه ، ويوحش أنسه ، ﴿ وَأَلْوَتْرَىٰ إِذْ الْمُجْرِمُونَ تَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ، فالعندية حاصلة ، ولكن منهم من ترى هلاله بدرأ ، وليلته قدراً ، وظلمته فجرأ ، فيعود مرتسأ ، ويربه مؤتنسأ ، وينوره مقتسأ ، ومنهم من تعود شمسه كاسفة ، ويدره خاسفة ، وروحه آسفة ، وهنا أسرار تغيب عن ثواقب الأفكار .



فلترجع إلى ما نحن بصدده ، فنقول : فأنت ما بين عالم ملكه وكذا عوالم الغيب حتى تستكمل الشرف ، وتعلم أيضاً بأنك جوهر ، فإذا رأيت أن صوان الكون كالصدف ، وإذا عرفت شرف الإنسان . . علمت أنما وسعه الكون من حيث الجثمان ولم يسعه من حيث الروح ووصف الإيمان ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

وَسِعَكَ الْكُونُ مِنْ حَيْثُ جُثْمَانَيْتُكَ ، وَلَمْ يَسْعَكَ مِنْ حَيْثُ رُوحَانَيْتُكَ

فوسع الكون الإنسان بالجثمان من حيث ما يلائمه من الحظوظ الحسية ؛ لوجود المناسبة بينها وبين الشهوات الأرضية واللذات الحيوانية الجسمية ، ولم يسعه الكون من حيث الروحانية ؛ إذ الروح لا تسكن إلى شيء دون جمال موجدتها ، والمثول بين يدي سيدها ، فلا صبر لها عنه ، ولا سكون بدونه ؛ فالقلوب لا تطمئن ولا تأنس بدون ذكر سيدها ، قال الله جلّ ذكره : ﴿ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ، والطمأنينة : هي السكون إلى المستلذّ طبعاً ، فلا سكون للأرواح إلى شيء من الأكوان دون مكوّنها ؛ فهي أبدأ عاكفة على ذكره ، وشاحصة إلى سنن جماله ، ومتطلعة إلى كمال وصاله ، وليس المراد في عبارة المؤلف بالوسع من حيث الظرفية ، فهلذا مما يستغني عنه العارف ، فلا يعرج عليه ، ولي في ذلك :

وسعك الكون من حيث المتاع بها لعالم الخلق فافهم لطف حكمته
والروح ليس لها وسع فمطلبها وغاية أمالها تحظى برؤيته

فمن بقي في وسعه الخلقي ، ولم يخرج عن طبعه الجبلي . . فهو مسجونٌ مُقيّدٌ بقيود ، ومقرنٌ في صفوف ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

الْكَائِنُ فِي الْكَوْنِ وَلَمْ يُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الْغُيُوبِ . . مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ ،
وَمَحْضُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ

الكائن في الكون بكلية مطلبه ومنتهم رغبته ، ولم يفتح له وسعات
ميادين الغيوب الروحانية ، وتبرج العرائس الحكمية ، وتلوح له اللوائح
الحبية ، وتشرق على ليله الشمس الوصفية ، وتطلع في غياهبه الأقمار
الاسمية ، وتزف إلى روحه المعارف الذاتية ، وتنصب له المنابر الكرسية ،
وتنزل عليه مواهب الرحمن العرشية . . فهو - لا محالة - مسجون ، وفي
صفقته مغبون .

وسجنه : هو ما أحاط به من الأوهام العدمية ، والظلمات الأرضية ،
وليس هذه المحيطات إلا حيث تخلقت عنه العناية الأزلية ، [و]
استولت عليه الدواعي الهوائية ، والضلالات الشيطانية ، والمطالب
النفسانية ، فغطت عنه أفلاكه ، وادلهمت عليه ظلمات أحلاكه ، فبقي
محصوراً في هيكل ذاته ، فكلماً كانت أكثف . . كانت الظلمة أشد ،
وكلماً كانت أوسع . . كان تعليق هذه المحيطات أضيق ، وتعود في
اليوم الموعود قيود وصفود ، وإرهاق صعود ، وزبانية وجنود ، أعادنا الله
منها ، وجئنا طرائق أسبابها ، وفتح لنا ميادين القلوب ، وأوردنا مناهل
الوداد والحب ، وجعل أرواحنا ترتع في رياض معارفه ، وتمتع بشهوده ،
مسريلة بسابغات سراويل جوده ؛ إنه جواد كريم ، ولي في ذلك :

الكائنون في الأكوان بالطلب ولم يبح لهم عن منتهى الطلب
فهم في السجن في الدنيا وغايتهم في عاقبة أمرهم في الهم والنصب



فمتى كان الغالب عليك شهود الأكران ، واستحسان ملاح الألوآن . .
فاستدلَّ بأنك يعدُّ لم تخرج عنها ؛ حتى يغيب عنك وجودها ، ويضمحل
عنك شهودها ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

أَنْتِ مَعَ الْأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدِ الْمُكُونِ ؛ فَإِذَا شَهِدْتَهُ . . كَانَتْ
الْأَكْوَانُ مَعَكَ

قد علمت فيما سبق أنك حيث أنت مع الأكوان بالرغبة فيها والطلب لها . . فأنت مسجونٌ ومحصورٌ ومأسور ، ولم تنفك عنك هذه القيود إلا بشهود وحدانية المعبود ، ولم تذهب هذه المحيطات إلا بإشراق أنوار الصفات .

وإذا أشرقت عليك وتحققت بها . . كانت الأكوان معك ؛ لافتقارها إليك بالطلب والتسخير الإلهي ؛ لما قد علمت من توجهها : علويها وسفليها ؛ حيث كنت معه بالقيام بحق العبودية ، والانطواء تحت تجلي أسرار الربوبية .

فإذا أخلص العبد عبوديته لربه ، وتولَّه في مشرقات تجليات صفاته ، وتعلق بكليته بالتولُّه في عزيز ذاته . . فلا شك أن كل من في الكون يتشرَّف به ، ويتبرك بدعائه ، ويستأنس إليه كما يستأنس الجبُّ إلى جِبِّهِ .

فما روي في هذا المعنى من استئناس الوحوش بهم والسباع . . ما يكاد يخرج عن الحصر ؛ فالأكوان تتوجَّه إلى الإنسان بالأمان عند كمال الإيمان .

فمن علامات هذا المقام : ألا تنفر عنه المتوحشات من الأنعام ، وتأوي إليه. ضواري السباع ، وتشتاق إليه البقاع ، ويطيب بذكره السماع ، وتلتذذ بسماع خطابه الأسماع ، وتبرأ ببركة ريقه الأوجاع ، وغير ذلك من تجلي أسرار الجمال ، وتلاؤلُّ لوامع الكمال .

ولي في ذلك :

ما لم تكن عن وجود الكون منخلعاً

بالله فأنت إذا في ظلمة الحلِكِ

وحيث كنت مع المولى فلا حرج

أن تملك الكون بالتصريف كالمَلِكِ



فإن قلت : هل تلزم هذه الخصوصية عدم وصف البشرية ؟ قال

المؤلف بإثر ذلك ، مفصلاً بالجواب عما هنالك :

لَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ ، عَدَمُ أَوْصَافِ الْبَشَرِيَّةِ ؛ إِنَّمَا مَثَلُ
الْخُصُوصِيَّةِ : كإِشْرَاقِ شَمْسِ النَّهَارِ ، ظَهَرَتْ فِي الْأَفْقِ وَوَلَيْسَتْ مِنْهُ ؛ تَارَةً
تُشْرِقُ شُمُوسٌ أَوْصَافِهِ عَلَى لَيْلِ وُجُودِكَ ، وَتَارَةً يُغْبِضُ ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدُّكَ
إِلَى حُدُودِكَ ؛ فَالْتَّهَارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ ، وَلَكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ

إذا علمت سرَّ الخصوصية، الفائض عن تجلي الصفات العلية؛
كفيضان النور على الأفلاك المضيئة.. فهل يلزم من شأن مَنْ أفيضت
عليه هذه الأنوار، وتجلت عليه هذه الأسرار عدم وصف البشرية
المفصح عن القصور عن المراتب العلية والأنوار البهية؟

فنقول - كما قال المؤلف ضارباً لذلك الأمثال، ومبيناً فيه غاية البيان
بظاهر المقال -: إنما مثل سرِّ الخصوصية كإشراق نور النهار على ليل
وجود الإنسان، فالليل الظلمة العدمية متأصلة فيه، والنهار عليه طارئ،
فمتى طرأ.. فلا شك في انعدام ظلمة عدم الإنسان، كما تنعدم ظلمة
الليل بإشراق نور النهار، ومتى انسلخ عنه النهار.. رجع إلى عدمه
المتأصل فيه، ﴿وَأَيُّهُ لَهْمُ أَيْلُ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ ،
فافهم هُديت .

فإذا علمت صحة هذا المثال، وتحققت هذا المقال.. علمت أن
الليل أصلك لا ينفك عنك، وأن النهار ليس إليك ولا منك، فعند
ذلك تعلم سر: لا حول ولا قوة إلا بالله، الذي هو كنز من كنوز الجنة،
فمتى عثرت عليه.. فقد حظيت بكيمياء السعادة، وواجهت حقيقة
عين العبادة، فالخصوصية لا تدل على عدم وصف البشرية؛ إذ البشرية
متأصلة في الإنسان، والخصوصية - التي هي شروق شمس الأوصاف

العلية - واردةٌ عليه ، إذا وردت . . اضمحلت معها الصفات العدمية ،
وبقيت لها الهيمنة الأزلية والسلطنة الديمومية .

ومتى غابت عنه تلك الشمس في سحائب الأقدار ، وحُجبت عنه
تلك الأنوار بارتفاع بخار الآثار . . عاد - لا محالة - إلى أصله .

والصفات العلية أفلاك شمسها المطالع النبوية ، والسرائر القرية ،
والأسماء مطالعها المواضع القلبية والأرجاء النفسية ، والصوامع الروحية ،
وأما جمع الذات العلية . . فلا تقبل فيضانها إلا الحقيقة الأحمدية .

ولأهل الله الزيادة في كلا الحالين ، فأما في حال شروق ما يخصهم
به من صفاء تجلي الصفات ، وتلاؤلّ النعوت القدسيات . . فلثلاثا تراكم
عليهم كدورات البشريات ، وتحول بينهم وبين محبوبهم حجبُ
الشهوات ، فكشف لهم ما يحقّقهم فناء الأغيار ، وزوال الكوائف والآثار ،
ويردون إلى حجبهم في بعض الأوقات ؛ ليوفوا العبوديّة حقّها ، وليعطوا
الربوبية مستحقّها ، لا ليبعدوا بعدما قُرّبوا ، ويسلبوا بعدما أعطوا ،
فليسوا مرادين بهذا ، وإنما هم في كل الأحوال مرادون بالوصول ،
ومخطوبون لمشهد الكمال .

وتعبيره للكشف عن الصفات الأزلية والنعوت العلية بالنهار ،
والرجوع إلى مواطن البشرية بالليل . . من أحسن صنيع لذلك ، ولي في
ذلك :

فليس من لازم التخصيص بالمنن

ألا يكون البشر يطرأ على السنن

بل ذاك أصدق شيء في اختصاص فتى

وشاهد الفضل والإحسان والمنن

إن أشرقت شمس إشراق الصفات على

ليل الوجود ترى من غيبه الكمن

وأن انسلخ عنه نور الحق عاد إلى

ظلامه ذلك أصل فيه يا فطن



مباداة أنوار الصفات على المجذوبين المحبوبين من غير ترقب ولا
تعامل ولا استشعار ، بل ورود منةً منه عليهم ، فتخطفهم على غير ميعاد ،
وتجذبهم لمحتدها من غير ترتيب ومقدار ، يتنزّلون بها إلى الوجود
مؤيدين ، وبأنوارها مهتدين ، يستدلون بالمؤثر على الآثار .

وأهل السلوك المحبّون ليس لهم ذلك ، بل يستدلون بالآثار
على المؤثر ؛ لذلك قال المؤلف مبيناً لطريقتهم ، ودالاً على ترتيب
منهجهم ؛ لذلك قال :

دَلَّ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسْمَائِهِ ، وَبِوُجُودِ أَسْمَائِهِ عَلَى ثُبُوتِ
 أَوْصَافِهِ ، وَبِثُبُوتِ أَوْصَافِهِ عَلَى وُجُودِ ذَاتِهِ ؛ إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ الْوُصْفُ
 بِنَفْسِهِ ، فَأَزْبَابُ الْجَذْبِ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى
 شُهُودِ صِفَاتِهِ ، ثُمَّ يُرْجِعُهُمْ إِلَى التَّعَلُّقِ بِأَسْمَائِهِ ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ
 آثَارِهِ ، وَالسَّالِكُونَ عَلَى عَكْسِ هَذَا ؛ فَنَهَايَةُ السَّالِكِينَ بِدَايَةُ الْمَجْذُوبِينَ ،
 وَبِدَايَةُ السَّالِكِينَ نَهَايَةُ الْمَجْذُوبِينَ ، لَكِنَّ لَا يَمَعْنِي وَاحِدٌ ؛ فَرُبَّمَا اتَّقَيَا
 فِي الطَّرِيقِ ، هَذَا فِي تَرْقِيهِ ، وَهَذَا فِي تَدْلِيهِ

فهذه الحكمة قسيمة للتي قبلها ، وآخرها إظهار لسر هاتين
 الحكمتين ، وتفصيل لمعنى الفريقين ، وتبيين لمنهج الفريقين .

فالحكمة الأولى التي ذكر فيها ثبوت الخصوصية ، التي لا يلزم من
 ثبوتها عدم ظهور البشرية . . . مشير فيها إلى أحوال المجذوبين ؛ وذلك
 أنهم رجعوا إلى أداء حقوق العبودية ، وإيفاء مقام الحكمة الخلقية حقه ،
 وإعطائه مستحقه ، ربما يظن ذو فهم سقيم أن ذلك ينافي اختصاصهم ،
 فرفع ذلك الوهم بما فصله في الحكمة الأولى .

وربما ينظر قاصراً إلى هذا المقام فيظن أن لا طريقاً توصل إلى
 هذا المقام على التمام إلا بطريق الجذب ، فيترك الاجتهاد ، ولا يتهاى
 للاستعداد ، فيبين المؤلف بالحكمة طريق السالكين ، ومن أين يكون
 ابتداء الآخذين في سلوكها ، فقال : (دل) أي : نصب أعلام الدلالة
 على طريق وصاله ، وذلك أيضاً امتناناً منه ؛ إذ هو الذي نصب الأعلام ،
 وجعل فيك أهلية القيام ، وقابلية التعلم والاهتداء إلى معرفة الأحكام ،
 وجميع ما حوته دوائر الأكوان آثاراً عن آثار المؤثر فيها .

وأمهات الأسماء أربعة ، وقد علمت إحاطة هويته بجميعها ؛ وهي :
الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، فكل الأسماء ترجع رجوع الفرع
إلى الأصل إلى هذه الأربعة .

والأسماء : منها ما هو جمالي ، ومنها ما هو جلالى ، ودخل في ذلك
أثر الفضل [وهو] عن الأسماء الجمالية ، وأثر العدل وهو عن الأسماء
الجلالية ، فصح أن الجمال وصف ، والجلال وصف من جملة صفات
الواحد الحق ، فهويته تندرج في ظهور سائر الصفات ، وأحديته تضمحل
عندها ظهور التعديلات ، وظهور الآثار تقتضي المعاملة بالعلم ، وظهور
الأسماء تقتضي المعاملة بالإيمان ، وظهور الوصف يقتضي المعاملة
باليقين ، وظهور الذات يقتضي المعاملة بالشهود والعيان .

فنزول المجذوبين في الأكوان بالشهود والعيان ؛ لأنه أول ما
كشف لهم عن كمال الذات ، فذلك لا يفارقهم في ردهم إلى شهود
الوصف ، فيشهدون الوصف بالموصوف ، ورجوعهم إلى معرفة الأسماء
بالمعروف ، ونزولهم إلى الآثار بالمؤثر ، مصحوبين بتأييد الأسرار ،
وروح الأرواح ، وأنوار الأسماء ، فهم محمولون مؤيدون في جميع ما
يفعلون ويدرون ، مرفوع عنهم العناء ، مروح عليهم من كد المجاهدة ؛
بما يجدون من روح المشاهدة ، فلا يسلكون بالمريد إلا على هذا
المنوال ، فأكثر المریدين وصولاً وأكملهم حصولاً . . من سلك على
أيدي هؤلاء .

والسالكون أولاً يستدلون بالآثار على الأنوار ، وبالأنوار على الأسرار ،
وبالأسرار على أحدية الواحد القهار ؛ فنهايتهم إلى ابتداء ما ينزل عنه
المجذوبون ، وبدايتهم في سلوكهم ينتهي إليه تنزل المجذوبين ، لكن

لا بمعنى واحد ، فليس من دخل الأشياء بالله كمن خرج عنها إلى الله ،
فلذا في دخولها زيادة - بل زيادات - ما أودع الحق فيها من حقائق
الأسرار ، وأظهر فيها من بدائع الأنوار .

والسالك يتخلص عنها من حيث إنها ظلمة وأغيار ، وكثائف وآثار ،
فستان بين المشهدين ، وفرق ما بين النظرين ؛ فربما التقيا في الطريق
المشار إليها ، هذا - أي : المجذوب - يتنزّل في مدارج الأسرار وبروج
الأنوار ، وهذا - أي : السالك - يترقّى في معارج الأسماء عن دركات
ظلمات الأغيار ، وشهود حجب الآثار ، ولكن فرقاً ما بين نازل في
البروج والمدارج ، وبين صاعد في العقبات والمعارج ، والسالك على
هؤلاء كثير التعني والتكلف ؛ لأنهم يسلكون به حيث سلكوا ، ولي في
ذلك :

دلّ الدليل على الأسماء بالآثر وأيضاً على محكم الأوصاف بالغير
والكل دل به بالأمر مقتدر على وجود ثبوت الذات فاختر
فلا تقوم صفات دون متصفٍ بها فكن عالماً بالعلم مختبر
فكان قوم على نُجْب الهوى بظر وآخرون على الآثار والسير

فلما كانت هذه الدار لا مناسبة بينها وبين ظهور الأنوار . . لم يعرف
قدرها إلا في دار القرار لوجود المناسبة ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله
عنه :

لَا يُعْرَفُ قَدْرُ أَنْوَارِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ إِلَّا فِي غَيْبِ الْمَلَكُوتِ ؛ كَمَا لَا
تُظْهِرُ أَنْوَارُ السَّمَاءِ إِلَّا فِي شَهَادَةِ الْمَلِكِ

(لا يعرف) والمعرفة بالشيء هو التحقق بالشيء المعروف على ما هو عليه من الكمال والصفاء والتنزيه ، وكمالات محاسنه ؛ إما علماً يكاد يكون عياناً ؛ ويسمى إيماناً ، وإما ذوقاً محققاً ؛ ويسمى كشفاً وعياناً .

وأنوارُ القلوب - كما علمت - من ظهور تجلي الأسماء ، والأسرار من تجلي الصفات العلية ، وهذه الدار لا تسع من هذه الأسماء والصفات ما هي عليه من الكمال والصفاء .

فسماء القلوب هي متسع الغيوب ، وفلك الأسرار هو التوحيد عن الأغيار ؛ كما أن سماء الأنوار الظاهرة التي منها النجوم والأقمار السماء الحسية المطيفة بعالم الملك الظاهر ؛ فأنوار القلوب والأسرار لا مقدار [لها] ، ولا تظهر مشرقات أنوارها إلا في متسع أقطارها الغيبية ، ولا تجلئ عرائسها إلا في قصورها القدسية ، إلا أن لأهل الإيمان نصيباً في هذه الدار ، وهو الذي يحملهم على طلبها ، ويزعج قلوبهم ظهور مشهدها .

ولي في ذلك :

فليس يعرف مقداراً لما وعدت من مظهر أنوار ذاك المنظر النضر
إلا بكشف غطا الأكوان عنه كما لا تظهر أنوار شمس الحسن في النظر
إلا على عالم الملك الذي ظهرت فيه الكواكب للرائين بالبصر

فللأعمال الحسنة شواهد في الحسن ، إذا وجدها الصادقون . . فذلك
بشارة وأمانة على أن العمل مقبول لديه ، فإذا أثمر في هذه الدار التي
لا جزاء فيها . . فهو أحرى بأن يثمر في دار الجزاء ما لا يدخل تحت
الحصر ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

وَجِدَانُ ثَمَرَاتِ الْأَعْمَالِ عَاجِلًا .. بِشَائِرِ الْعَامِلِينَ بِوَجْدَانِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلًا

ما يجده العاملون على الوفاء وحسن الاقتفاء .. بشائر من الله لعبده ، وتسكين لما يجده من خوف القطيعة .

فإذا ظهرت على العبد ثمرات الأعمال ؛ من نزول السكينة ، وحصول الفتح ، وتوالي المنوح الوهبية .. فذلك دليل على قبولها عنده .

ويشار إلى ذلك بقوله عز من قائل : ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنْبَأَهُمْ أَنَّ مَا قَرِيبًا ۗ وَمَعَانِيَهُ كَثِيرَةٌ يُأَخَذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۙ ﴾ ﴿ فَتَجَلَّ لَكُمْ هُنَالِكَ ۙ ﴾ .

ولي في ذلك :

فكل ما يظهر المولى على العمل من روح قرب فذلك منتهى الأمل إن المزايا إذا كانت مقارنة للعاملين جَبَزَ ما تَمَّ من خلل

فإذا ظهرت ثمرة العمل .. علمنا - لا محالة - أن هذه منة متجددة غير منة العمل نفسه من جملة المنن ، فلا يُطلب عوضٌ عليه إلا من باب الوعد الصادق ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

كَيْفَ تَطْلُبُ الْعَوْضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَّصِدِقٌ بِهِ عَلَيْكَ ؟ أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ
الْجَزَاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ ؟

كيف تطلب - أيها العامل - طلب استحقاقٍ عوضاً ما تعمل ، لا
طلب إفضال من فضله ، وتصدق من عميم بذله ؟! فلا حرج على العبد
إذا طلب من هذا الوجه ، بل طلبه بهذا الوصف هو المطلوب منه ؛
لأن الطلب لا على وجه الاستحقاق والإدلال .. هو مقتضى العبودية ،
والاستكانة تحت غناء الربوبية .

وأما الطلب بالإدلال بالعمل ، ورؤية الاستحقاق عليه .. فذلك من
نعت الزائفة القدرية ، فالعمل من جملة فضله على عبده نفسه من غير
نظر إلى جزاء ولا غيره .

فالعوض : هو من باب مقابلة الحسنات بأمثالها من الحسنات ،
والجزاء : هو الإحسان في الحسنات ، فجزاؤه من الإحسان بمحو الظلم
الغيبات ، فذلك في مقابلة الصدق في المعاملة ، وهو أيضاً من هداياه
الغيبات - أي : الصدق - فكيف تطلب جزاء على ما هو من هداياه ،
واختصاص من عظيم فضائله ومزاياه ؟! إذ قال في الحديث القدسي :
« إنه سرٌّ من سري ، أودعه قلب من أشاء من عبادي » (١) .

ولي في ذلك :

كيفية تطلب على ما منك من عمل عوض وذلك من إفضاله العمم
أم كيف تطلب جزاء صدق حظيت به فذاك جهل بمن منه الهدى قدّم



(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٤٧٠ - ٤٧١) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

فالصدقة يشيرون بها إلى الأعمال الظاهرة ، والهدية يشيرون بها إلى الأعمال الباطنة ، ولا يخفى ما بينهما من تباين المنزلة ، وكان سلوك قوم بالأعمال الباطنة إلى تخليص الأعمال الظاهرة ، وسلوك قوم آخرين بالأعمال الظاهرة إلى التوصل بالأعمال الباطنة ، قال المؤلف رضي الله عنه :

قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوَارُهُمْ أَذْكَارَهُمْ ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارُهُمْ

ذَاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَبِيرَ قَلْبُهُ ، وَذَاكِرٌ اسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِرًا

القوم : هم الجماعة من الناس ؛ كما ورد : « الولي في قومه كالنبي في أمته »^(١) ، وقد يطلق القوم على الأمة ، وذُكِرُوا هنا لتقسيم الفريقين ؛ وهم : المجذوبون المرادون المحبوبون ، والسالكون المحبون ، وكلاهما على الحقيقة محبوبون مرادون ، وإنما وقع التفاوت بينهم من حيث الخفة والعناء ، ونسبة الفضل والاجتهاد .

فالسبقية هي التي أشهدت من وصلت إليه نسبة الفضل قبل نسبة الاجتهاد ، وحقيقته يرتبة الانفراد بالإيجاد قبل ظهور أفعال العباد ، فعرف أنه المراد بكل مراد ، فلا جرم أن تغيب عنه أوصاف العباد بظهور أوصاف الجواد ، فيسلم من نسبة الأفعال إليه ، فيسلم - لا محالة - من آفات الأعمال التي ابتلي بها السالكون والعباد ، ويكون مفاجئاً بتحرف كل وسيلة ، مخطوياً لكل فضيلة ، محمولاً عنه عناء التكلف في سائر الأعمال ؛ لأنها تفجؤه أنوارها قبل ظهورها على أركانها ، فترتفع عنه الكلفة بما يجده من ثمرة الوارد .

والمجذوب على ما تقرر : هو الذي طُوبت له مسافة الطريق ، وسخرت له [رياح] المحبة ، فحملته على بساط المنة ، غدوها شهرٌ

(١) رواه الرافعي من طريق الخليل الحافظ في « مشيخته » بسنده مرفوعاً كما في « التدرين في أخبار قزوين » ، (٩٥/٣) عن سيدنا أبي رافع رضي الله عنه ، وانظر « الإتحاف » . (٤٤٩/١) .

ورواها شهر؛ فهو من أهل الاختصاص بالفضل والاجتباء، والسالك : هو الآخذ في طريق الاجتهاد والتكلف، أولاً؛ فهو السالك إلى الله من طريق الأفعال، يترقى بالاستدلال في مراتب الوجود حتى يأتي إبان وصوله، ويعثر على كنز محصولة، فيشهد الأنوار بعد تحري الأذكار، وتصفية الأكدار، آناء الليل وأطراف النهار، فوصل إلى الهداية بعد تحقيق الاجتهاد، فاهتدى إليه، وعرف حقيقة الطريق إليه، فيستأنف نفسه وما منها، ويأخذ في التعلق والتخلُّق آخرًا حتى يغيب في القرب عنه وعن ما منه، ويشهد ما شهده المجدوب أولاً أولية الحق في كل شيء.

والمجدوب يرحل عن هذا الشهود في أطوار الوجود، متطلباً لنهاية المقصود، فتسير سفينته بريح جذبته، فيصل مستقر الاسم الآخر، فتظهر نفائس ومفاخر، فيأخذ في السير فيه به، فتطلع له شمس البقاء، وتلوح له بشائر اللقاء، فتلتف الساق بالساق، ولي في ذلك :

قومٌ لهم تسبق الأنوار أذكارُ

وأخرون ابتدوا منها بها ساورا

فمن ركب فوق ريح الجذب يسلك في

ميدان عرفانه بأطياره طاروا



والذكر حقيقة : هو ما كان عن شهود باطن؛ لذلك قال المؤلف

رضي الله عنه :

مَا كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرٍ ، إِلَّا عَنْ بَاطِنِ شُهُودٍ وَفِكْرٍ

أَشْهَدَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ أَسْتَشْهَدَكَ ، فَنَطَقْتُ بِالْوَهْيِيِّهِ الظَّوَاهِرُ ، وَتَحَقَّقْتُ
بِأَحَدِيَّتِهِ الْقُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ

مظاهر الذكر : هو الذكر باللسان ، واللسان كما علمت أنها الترجمان
عن الجنان ؛ فالباطن هو الجنان ، والظاهر هو اللسان ، فكل ما تحكّم في
الجنان شهوده .. نطق اللسان بوجوده ، والشهود : هو أثر نور الوصف ،
والفكر : هو أثر نور الفعل ، ومحتد نور الوصف هو الروح ، ومحتد نور
الفعل هو القلب .

فإذا شهد الروح نور الأزل .. أسرج في زجاجة القلب مصباحاً ،
فقابلت الأفعال الحقيقية تلك الزجاجية ، فانفتحت أبواب الأفكار في
تصارييف الأقدار في مظاهر الآثار ، فنرى إحاطة القهار ، فتنتطق
بالأذكار ، وتذعن النفوس بالإقرار .

فإذا كان على هذا السبيل سيرك .. تحققت أنه أشهدك وجوده من
قبل أن يستشهدك حقيقة وجوده ، فما شهدته إلا نوره ، ولا عرفه إلا
سر ظهوره ، فإذا أراد أن يشهد عبده .. جعل فيه أهليةً لذلك الشهود ؛
وهو الوعاء الوجودي الذي يشير إليه أهل الله .

فإن أريد بالجذب .. كَحَلِّ حِدْقَةِ سِرِّهِ بنور اسمه الأول ، وإن أريد
بالسلوك .. كَحَلِّ سِرِّهِ بنور اسمه الآخر ، وذلك التحويل هو تجليه سبحانه
لأسرار أوليائه في عالم الغيب في الغيب ، فظهر لها بتجلي أحديته ،
وظهور ألوهيته ، فشهدته الأسرار قبل ظهور الهياكل الجسمانية ، فلما

تلبست بهذه الهياكل الجسمانية . . طلب منها الشهود بما أشهدتها في
 غياب أعيانها ، فنطقت القلوب والأسرار بأحديته ، وتقلقت الألسن
 بظهور ألوهيته ، فشهدت بنور الاسم الأول صرف الأحدية وانفراد
 القيومية ، وشهدت بنور الاسم الآخر ظهور الألوهية ، وعلى هذا المشهد
 ينزلُ القولُ والكلام على الفريقين ، وتظهر آثار الطريقتين - الذين هم
 المجذوبون والسالكون - فالجمع للقلوب والأسرار ، والفرق في ظواهر
 الأذكار ، واختلاف معاني الظهور تحت الحجب والأستار ، ولا بد من
 ظهورهما جميعاً ، فلا يتم مظهر الكمال إلا بذلك ، وذلك أثر حكيمته
 البالغة ، ولي في ذلك :

تراحمت لظهور الحق أسماء	وذاك يظهر في جمع وتفريق ^(١)
فمن يذوق عقار الوجد يصحبه	جمع مع حسن تثبيت وتوفيق
ومن يكن سالكاً فالفرق حالته	ويقصد الجمع في علم وتحقيق
وأهل الكمال لهم في الصحو مرتبة	جمع وفرق معا نسك وتمزيق

فإذا علمت سبق تجليه سبحانه ، وتعزُّفه إلى القلوب والسرائر قبل
 ظهور تصويرها بأنه الأحد الذي لا يقبل التعدُّد في ذاته وصفاته وأفعاله
 قبل بروز آثارها ، فلما برزت في حال بروز كثرة الآثار . . استشهدها بما
 أشهدتها أولاً ، فنطقت بألوهيته الظواهر ، وتحققت بأحديته القلوب
 والسرائر ، فمن لم يشهد هذه الأحدية . . لم يتأت منه النطق بالألوهية ،
 وإن أشهدتها لكن لا من قرب . . نطق كذلك لا من قرب ، وفي ذلك غاية

(١) في (ب) : (وذاك في حالتي) بدل : (وذاك يظهر في) .

البيان على ما سبق في حقيقة الأعبان ، فإذا علمت أنه لا يذكر في عالم الشهادة بالألوهية إلا من أشهده صِرْف الأحديّة . . فاعرف حق كرامته لك من بين أبناء جنسك إن أكرمك بكرامات عديدة ، ولكن لما كانت لا تدخل تحت الحصر . . ذكر من جملتها ثلاثة خاصة بالذاكرين ، فقال رضي الله عنه :

أَكْرَمَكَ بِكَرَامَاتٍ ثَلَاثٍ (١) : جَعَلَكَ ذَاكِرًا لَهُ وَلَوْلَا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلًا
لِجَبْرَتَانِ ذَكَرَهُ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكُورًا بِهِ ؛ إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ ،
وَجَعَلَكَ مَذْكُورًا عِنْدَهُ ، فَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ

أكرمك - أيها الإنسان - من بين سائر الأكوان ، قبل أن يكون لك
ظهور عيان ، بقوله [في] القرآن ، قبل ظهور وصف الفرقان : ﴿ وَلَقَدْ
كَرَّمْنَا نَبِيَّ عَادَمةَ ﴾ ، وأشار بتلك الكرامة إلى ما خصَّهم به من مزايا
الامتنان ، وشهادة العيان قبل بروزهم إلى الأكوان ، بدليل قوله بعد
ذلك : ﴿ وَحَمَلْنَا فِي الْغَيْبِ وَزَيْنَبُومَ وَرَدَّقْنَاهُمْ بِرَبِّكَ الْكَلِيمِ وَوَضَعْنَا عَنَّا كَثِيرًا مِمَّنْ
حَمَلْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ، فذلك التفضيل الذي أتى به بصيغة المصدر . . إشارة
إلى المبالغة في تفاوت التفضيل ، وذلك فرع تلك الكرامة السابقة
في الظهور الحقيقي الجمعي الصرّف ، ثم في التجلي الوصفي ، ثم في
التجلي الفعلي والأثر الخلفي .

والظهور الحقيقي الجمعي . . هو قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا ﴾ ، والتجلي
الوصفي . . قوله : ﴿ وَحَمَلْنَا ﴾ ، والتجلي الفعلي في الأثر الخلفي . .
قوله : ﴿ وَرَدَّقْنَاهُمْ ﴾ .

وهذه الكرامات الثلاث التي أشار إليها المؤلف رضي الله عنه من
جملة تفاصيل هذه الكرامة الجمعية ، ولكنها من الكرامات الروحية ،
والمواهب الحفية ، واللطائف القريبة ، جعلك قبل كونك ذاكرًا (٢)
بقوله : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ ﴾ وأنت بعد في عالم صورتك ، ولولا فضله

(١) سقطت الباء من النسخ .

(٢) يعني : جعلك ذاكرًا له سبحانه قبل وجودك .

العظيم وكرمه العميم .. لم تكن ؛ لأنه كونك ، وذكرك بالتكوين قبل التأيين والتعيين ، ثم تعيَّنت وتكوَّنت أقلّ كون من ماء مهين ، برزت من عصارة طين ، وفي عالم تعينك هباءة لم تبين ، أهلك بأن أودع فيك أهلية لذكرك ، وموضعا لنزول أمره ونهيه ، ومن أين لك ذلك ؟! وأن تتأهل لما هنالك !؟

ولكن بتخصيص فضله ؛ بأن أثبت لهم تلك الأحقية ، وهياهم لتلك الأهلية ، فقال : ﴿ وَالرَّزْمَةُ كَلِمَةٌ التَّقْوَى وَكَانُوا ﴾ إشارة منه بقوله : ﴿ كَانُوا ﴾ إلى جمعهم في غيب الحق ﴿ نَحَىٰ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ ﴾ ، والكان وصفه بالجمع الذاتي والتجلي الأحدي ، والاسم تجليه بالفرق الوصفي ، وأعيان الأشياء تتعين هناك ، هنا علمان ، ﴿ يَكُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ لجريان الذكر على الذاكرين في هذا الظهور الخلقى ، والعالم الملكي دليل الذكر في التجلي الحقي والظهور الوصفي .

وأكرمك أيضاً بأن جعلك مذكوراً به ؛ إذ حقق نسبته إليك ، ولولا تلك النسبة .. لما كنت ذاكراً ، ولا ظهر لك علم ولا خير ، ولا عين ولا أثر ، وجعلك مذكوراً عنده ، فتمم نعمته عليك ؛ إذ ذكره لعبده هو الذي تنتهي إليه الكرامات ، سيما إذا حقق له الوصف بالعندية المفنية للمظاهر الغيريات ، والمحركة للحجب الكونيات ، فلا أتم منها نعمة ؛ إذ من كان عنده مذكوراً ، وفي حضرته مشكوراً .. لا يعلم ما له من الكرامات والزلفى ، ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي : ذكر الله لعبده أكبر وأعظم من ذكر العبد له ، فلا يُدرى أي الكرامتين أعظم : أن جعلك ذاكراً له ، أو جعلك مذكوراً به ؟ وأما حيث جعلك مذكوراً عنده .. فقد حقق لعبده منتهى المطلوب ، وأناله غاية المرغوب ، فوصف العندية

يفتضي النيابة من الله عن عبده في سائر الحركات والسكنات ، في
البطون والظهور ، لا تبقى بقية يكون فيها متسع لظهور الغيرية ، ولي
في ذلك :

أكرمك قبل ظهور الكون منانُ إذ كنت تذكره وألا ما أنت يا أنسانُ
وكنت مذكوراً أذ نالتك نسبته من أنت حتى لذاك القرب إبانُ
وعنده كنت مذكوراً فذاك لنا من منتهى غاية التقريب إحسانُ



قال يحيى بن معاذ الرازي : (يا غفول ، يا جهول ؛ لو سمعت صرير
القلم حين يجري في اللوح المحفوظ بذكرك . . لُمْتُ طرباً)^(١) .

قلت : وصريره - والله أعلم - عند ذوي الأسرار مسموع ، لا يفارق
أسماع قلوبهم ؛ فلذلك لا تراهم يفترون عن الذكر ولا يستحسرون ،
وهم أهل العندية ، الكائنون في حضور حضرة الرئية ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ
رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ ، ولساعة من أعمارهم
لا توازنها أعمار جمّة ؛ لأن كل نسمة منهم لا يوازنها عمل الثقلين ،
ومن أين للثقلين أن يكونوا عنده !؟ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) غيث المواهب العلية (٢/١٩٣) .

رُبُّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ أَمَادُهُ ، وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ ، وَرُبُّ عُمْرٍ قَلِيلَةٌ أَمَادُهُ ،
كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ

رُبُّ : تأتي للتقليل والتكثير ، والعمر : هو مدة الحياة ، وقد يكون أمداه كثيراً ، وقد يكون أمداه قليلاً ، والعمر لا يدخل له في الأمداد الإلهية التي يختص الله بها عباده ^(١) .

والأمداد : هي ما يفيضه على قلوبهم من مزيد الإيمان ، ويتجلى به على أسرارهم من الكشف والعيان ، وهذا لا يدخل تحت الأوان والأعوام والشهور والأيام ، بل إذا اختص الله بها ذا عمر قصير . . صيرته طويلاً منيلاً ، وإذا لم يقسم لذي عمر طويل . . صار قصيراً وبليلاً ؛ فالعمر إذا خلا عن الأمداد الإلهية . . كان حكمه حكم العدم ؛ إذا سلم من اقتراف الكبائر واللمس ، وإذا صحبه من الله الإمداد . . صار من أنفس الذخائر للمعاد ؛ وقد ورد : « خيركم : من طال عمره في طاعة الله » ^(٢) .

ولا طاعة تزن عنده مثقال ذرة من الإيمان ، فضلاً عن شهود حضرة الإحسان ، والطاعة يكون كمالها ونقصانها بحسب ما عند الإنسان من مزيد الإيمان ؛ فقد ورد : أن الرجلين يستويان في العمل وأن عمل أحدهما إلى جنب عمل الآخر كالذرة إلى جنب أحد ، وما ذلك إلا بحسب ما عندهم من الإيمان .

والإيمان مُودَعٌ في الفطر والقوالب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فَضَّلَ سائر الأنبياء ، وأُمَّتَهُ فَضَّلَتْ سائر الأمم ، على قِصَرِ مَدَةِ

(١) في النسخ : (يدخل ...) بدل : (مدخل ...) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٩) عن سيدنا عبد الله بن بشر رضي الله عنه .

عمره وأعمارهم بالنسبة إلى أعمار من قبلهم من الأمم ؛ فذاك بالبركة في الأعمار القصيرة ، صير أعمالهم كثيرة ، وعلومهم غزيرة ، وشوارق أنوارهم منيرة .

فبالإمداد وعميم الفضل والوداد . . جعل لهم بركة السنة في الحج ، وبركات الليالي في ليلة القدر ، وبركة الأيام في الجمعة ، وبركات الشهور في رمضان ، وبركة ساعات الليالي في نصف كل ليلة ، وبركة ساعات النهار في صلاة العصر في كل يوم ، إلى غير ذلك من مزيد المدد على الأنفاس والحركات والسكنات .

فلو أخذنا في تعداد ما أودع الله لهذه الأمة من الأمداد . . لطال وخرج إلى حد الإكثار ؛ لأن الله سبحانه أودع عالم الإجمال والتفصيل ذخائر الفضل ، وعالم الإجمال إذا ظهر فيه الأمر المحكم . . أشرق في سائر العوالم التفصيلية كل شيء على حسب ، وحسب استعداده يكون إمداده ، وذلك مستمرٌّ لا انقطاع له ، علم ذلك من علمه ، وجهله من جهله ، ونعني بعالم الإجمال : المتلقي للفيض الأقدس المفيض منه الفيض المقدس ، وذلك من حيث ظهور الروحانية : هو الروح المحمدي ، ومن حيث العلم : هو العلم الأعلى ، ومن حيث الصفاء : هو الدرّة البيضاء ، ومن حيث الفهم والإحصاء : هو العقل ، حيث ما ظهر بتجلي سماته .

ولأتمه صلى الله عليه وسلم من هذا الجمع نصيب ، به كانت خيريتهم ، وبه قبّلت على سائر الأمم شهادتهم ، وبه نالت ما نالت من الفضائل التي لا يحيط الفهم بكلية إحصائها .

ومن جملة ذلك : أنه لا ينزل مددٌ زمني أو مكاني ، حسّي أو

معنوي ، لطيفٌ أو ظاهر .. إلا وقد شهد الشرع لهم فيه بمودع فضيلة ،
فالحمد لله رب العالمين ، ولي في ذلك :

فَرُبُّ عُمُرٍ طَوِيلٍ غَيْرِ ذِي مَدَدٍ

لم يخن عنه وسيع الدهر والأمد

وَرُبَّ عَمْرٍ قَصِيرٍ مَدَّ فِي الْعَدَدِ

نالته أَلطاف ما قُومَ له الأود

فدائراتٌ سعاداتٍ تدور بمن

له في القدم سابق الحسنئ وفي الأبد



فالبركة في الأعمار .. هي عمدة الأخيار ، وعليها تدور دوائر الأبرار ؛

لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَنْ بُوْرِكَ لَهُ فِي عُمْرِهِ .. أَذْرَكَ فِي بَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ
دَوَائِرِ الْعِبَارَةِ ، وَلَا تَلَحُّقُهُ الْإِشَارَةُ

من بورك له من الله .. أيقظ قلبه وبصره بحقائق الأشياء ، فرأى
خزائن السعادة تنادي من قريب ، وذخائر الغيب تقول : هل من منيب ؟
ودواعي الحقيقة تقول : هل من مصاف أديب ؟ فنهض إليها مسرعاً ،
وعزم بهمته مزمماً ، فأوفى الحقوق ، وأقلع عن الآثام والعقوق ،
فتدارك من أيامه ما سلف ، وكان كله في كل توجه إليه إقبال ووجه
ويد وأذن ولسان وعقل وجنان ، ويكون كله جمع وبصر وسمع ، فلا
يدخل تحت العبارة ما ناله من منة الله ؛ إذ العبارة لا تسع إلا ظواهر
الأشياء .

وأما المننُ الإلهية والألطف الربانية والمواهب الغيبية .. فالعبارةُ
عنها تنبو ، والإشارة دونها تكبو .

فالإشارة والعبارة أغيارٌ صادرة عن إثارات آثار ، لا يدخل تحتها ما
هو صادر عن حضرة قهار .

ولي في ذلك :

من بارك الله له في العمر ذي الزمن فذاك مخطوب للتقريب والمنن
فلا الإشارة يدري ذاك غايتها ولا يكيّف بالتعبير في العلن



فالعمر سلّمُ ترقّي الأرواح ، وموضع تلقّي المواهب والأفراح ، وهو
بذر سعادة الأبد أو خسارته ، وفيه تدرك نفائس الدرجات ، وتورد فيه

مهالك الدركات ، والتوفيق : اسم لموافقة العبد لله في سائر الحركات
والسكنات ؛ لما هو المحبوب المرضي عنده سبحانه .
والخذلان - والعياذ بالله ضده - : وهو مخالفة العبد للمحبوبات ،
وتركه للمستحسنتات ، ومقارفة السيئات ، ومتابعة رذائل الشهوات ،
والقعود عن الخيرات ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

الْخِذْلَانُ كُلُّ الْخِذْلَانِ : أَنْ تَتَفَرَّغَ عَنِ الشَّوَاغِلِ ثُمَّ لَا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ ، وَتَقِلَّ
عَوَائِقُكَ ثُمَّ لَا تَرْحَلَ إِلَيْهِ

(الخذلان) الذي هو ضد التوفيق (كل الخذلان) أي : مجمع الخذلان
وغاية منتهاه (أن تتفرغ عن الشواغل) الموثقة الصادة عن الإرادة ؛ بأن
تُكفهاها وتزاح عنك ، وتنقطع عنك أسبابها ، وتغلق دونك أبوابها ، (ثم
لا تتوجه إليه) لأن من حق العبد الأخذ في قطعها وحسم أبوابها ؛ ليتهاً
له حسن التوجه ، فإذا لم يأخذ في ذلك .. كان ملوماً ، وحاله مذموماً .
وأما إذا انقطعت عنه من غير تعمل في ذلك ، ثم ترك التوجه إليه ،
وقلَّت العوائق الموثقة عنه ، ثم لم يرحل إليه .. فما أجدرك بالندامة إذا
وردت عرصات القيامة !!

فمن حق العبد : أن يرمي بالشواغل الصادة له عن الإقبال ، ويستدر
فرصة الإمهال ، وي طرح العوائق الموثقة عن معشوق الجمال ، والحاجة
عن عاليات الأحوال ، وأما أنه بنعم الله عليه يقطعها ثم لا يتوجه إليه ..
أولى بأن يزجر أوراك العزائم ، ويشد رحل أرائك الهمم ، وإلا .. فقد
بَاءَ بِندامة على ندامة ، ولي في ذلك :

مَنْ بَايَنْتَهُ شَوَاغِلُ كُلِّ نَائِبَةٍ وَلَمْ يُوَاجِهْ بِكُلِّ الْقَلْبِ مَوْلَاهُ
فَذَاكَ خِذْلَانٌ لَا تَعْقِبُهُ مَكْرَمَةٌ بَلْ حَسْرَةٌ بِحَرِيقِ الْفُوتِ تَصْلَاهُ



فإذا تفكَّر العبد فيما ينيله الله من جزيل ثوابه ، ويقبه من وييل
عقابه .. نهض - لا محالة - في طريق العزيمة ؛ لذلك قال المؤلف
رضي الله عنه في هذا الفصل :

الفكرة: هي سائر القلب في مبادئ الأعمار

الفكرة: هي نعت ذوي الأسرار الصافية ، والعبارات الوافية ، التي أمر بها الله تصريحاً وتلويحاً في محكم كتابه ، ونبّه عليها رسوله صلى الله عليه وسلم في فصيح خطابه ، قال الله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ ، وبتلك الفكرة يصل العارفون إلى صريح التوحيد ، ويرقى لها ذور البصائر في مواضع التفريد ، ويجمع متفرقات التعديد .

وشاهد ذلك : قوله في الآية نفسها : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ، فعلى ذلك الكنز عشر المقرَّبون ، فرأوا ماذا بعد الحق إلا الضلال ، والضللال : هو العدم ، فانظر كيف سارت أسرارهم في لجج أفكارهم ، وأقلعت بهم في تيار بحار الأكوان ، حتى أبانت لهم نهج الحق الظاهر ، ونور القدس الباهر ، وعند ظهور ذلك تنقطع الفكر ، وتنمحي الغير ، ويذهب شهود الغير والأثر .

والفكرة تكون بحسب المتفكرين ؛ فقوم يتفكرون في انصرام الدنيا وإدبارها ، وشرف الآخرة ودوامها ، فيحملهم على إيثار الشريف الدائم على ضده ، وقوم يتفكرون فيما أعدَّ الله لأهل الجنان من الدرجات ، بحسب ما هم عليه من القيام بوظائف الطاعات ، واجتناب الهفوات ، فيحملهم ذلك على بذل الوسع في طلب ذلك ، وقوم يتفكرون في آلائه وحسن جماله ، في عطائه وبلائه ، فيحملهم ذلك على ازدياد المحبة للحبيب ، وقوم يتفكرون في تلوين الأنوار في الأطوار ، فيحملهم ذلك على حسن الاستبصار ، والأفكار في عجائب صنعه في الأقطار ، وتقلب الليل والنهار .

وبذلك تنجلي عن القلوب كثائف الظلم والأغيار ، وتفتح أبواب
الغيوب والاعتبار لذوي الأبصار ، ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ .

فإذا كان هذا من بعض أقسام الفكر .. علمت شرفه ، وأنه مخ
العبادة ، كما ورد بذلك الخبر^(١) ، وهذا كله - أي : الفكر - لا يكون إلا
في ميادين الأغيار ، ومطالعة الصور والآثار ، لا في ذات الواحد القهار ،
ولي في ذلك :

الفكر سير قلوب السالكين إلى نهج الحقيقة والتوحيد في الغير
فيستدلون بالأشياء عليه ولا يكون في ذاته بالكيف والحصر



فالقلوب : إذا خليت عن الأفكار .. انظمت بظلم الأغيار ؛ لذلك
قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) ذكره الشناوي في « فيض القدير » (٢ / ٣١٤) من قول الفضيل بن عياض رحمه الله
تعالى بلفظ : (الفكر مخ العبادة) .

الفكرة : سراج القلب ؛ فإذا ذهبت .. فلا إضاءة له

الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان ؛ فالأولى :
لأزباب الاعتبار ، والثانية : لأزباب الشهود والأستبصار

(الفكرة) التي حض عليها وندب إليها ووقع المدح لصاحبها (سراج القلب) أي : نوره فيها ، تعلقو تباشيره ، وهي الفكرة في عواقب الأمور ، والفرق بين الظلمة والنور ، وفيما عليه العوالم تدور ، وفيما صار إليه أهل القبور ، وفيما يناله أهل الحبور من الحور والقصور ، وبما حظي به أهل الحضور من رفع الستور ودوام الحضور ، فهذه التجارة التي لن نبور تسرح بأنوار الحضور في الصدور ، « إن النور إذا دخل القلب .. انشرح له وانفسح ... » الحديث بطوله (١) .

فإذا خلى القلب عن هذه الفكر ، ولم تباشره هذه الغير .. فلا إضاءة لانظامه وانجاسه ، في محصور أجناسه وإيناسه ، ولكن الفكرة فكرتان كما قدمنا ذلك :

فكرة تصديق وإيمان ؛ وهي فكرة العباد والزهاد بما وصل إليهم من سماع قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ، فأجابوا دعوته بالتصديق والإيمان ، فعبروا عن المشاهد من الأمور إلى الغائب .

(١) تقدم تخريجه (ص ٥٤٠) .

وفكرة شهود وعيان ؛ وهي لذوي الشهود والاستبصار ، الذين باشر
نور العلم قلوبهم ، وغمرت أنوار الشهود أسرارهم ، وهم المعنيون
بتعليم الله لهم في آخر الآية ؛ حيث قال : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَحْرَ
النَّارِ وَقَفَيْهِ ﴾ ، ولم يكونوا عالمين بذلك حق العلم إلا باستهلاك سائر
القوى منهم ، وفناء سائر الأحوال ، بتجلي أنوار الآزال ، وما لا يدخله
المثال ، ولا يجول حوله المقال ^(١) ، من تجليات محركات الجلال ،
ومشركات الجمال ، ولي في ذلك :

الفكر في القلب نورٌ يُستضاء به	شهود نور وجود الحق فاعتبر
وكل قلبٍ خلا عن ذلك فهو على	طمس العدم قط لم يخرج عن الغير
والفكر أيضاً على قسمين فاعلم أن	القول يحكم باستبصار ذي النظر
وكل من كان تحت الحجب يعلمه	بصدق إيمان تحقيق وبالعبر



(١) في النسخ : (يجول حوله المقال) بدل : (يجول حوله المقال) .

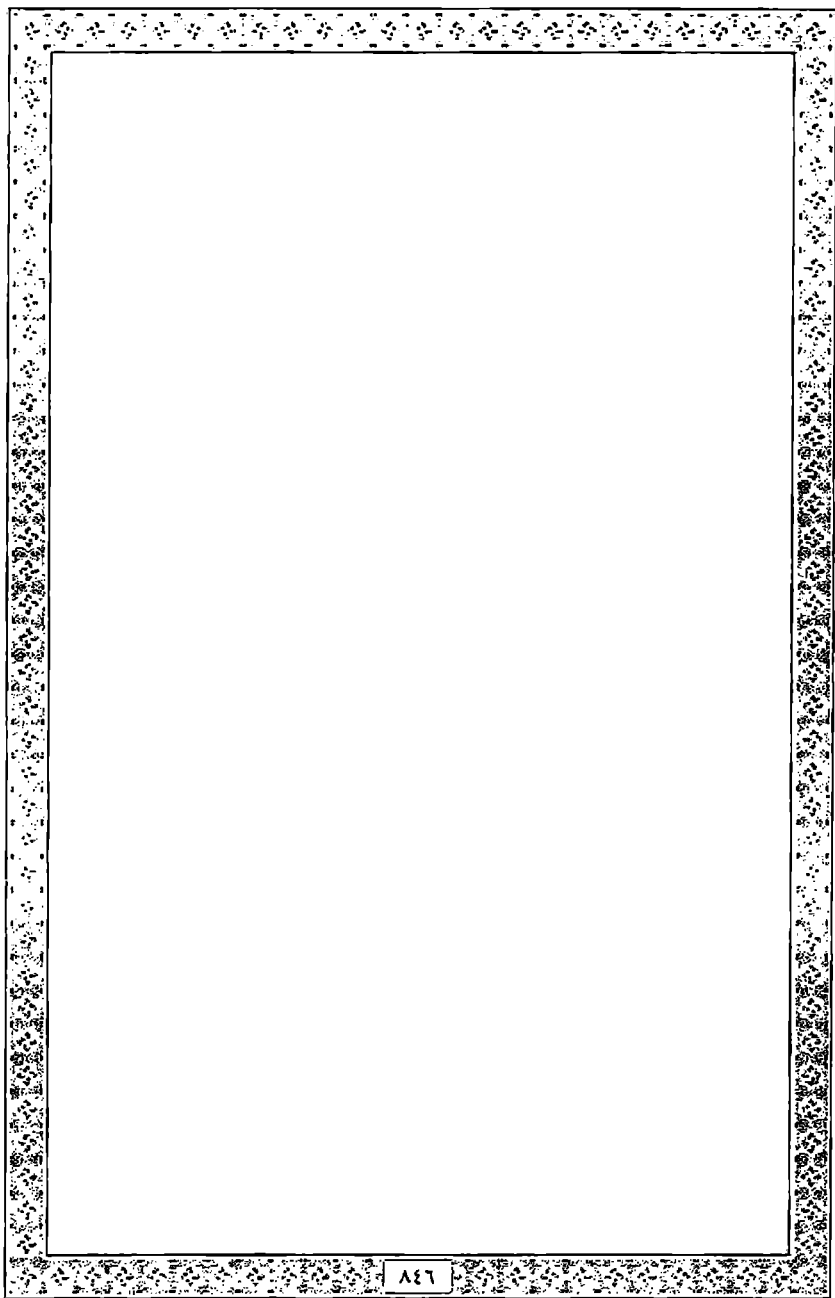


المذكرات النبوية

في ذكر حال السالك في سيره إلى الله تعالى

للإمام ابن عطاء الله السكندري

رحمه الله تعالى



المكاتب

[مكاتبة المؤلف في ذكر حال السالك إلى الله تعالى]

وبعدما أنهى الكلام في الفكرة .. أخذ يتكلم في نيتها ؛ وهو ما ينتج من حسن المعاملة لله على صدق العزيمة وتجريد الهمة ؛ وَمِمَّا كَتَبَ بِهِ لِيَعُضِ إِخْوَانِهِ بِقَوْلِهِ :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ الْبِدَايَاتِ مَخْلَافَةُ النِّهَايَاتِ

في كل الأمور ؛ فمن كان مبارك البداية .. كان ميمون النهاية ، ومن كانت بدايته بالله .. كانت إليه نهايته ، وكل مبدأ لأمر .. يكون انتهاؤه إليه ، وتظهر ثمرة ذلك المقصد عليه ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

وَإِنَّ مَنْ كَانَتْ بِاللَّهِ بَدَايَتُهُ .. كَانَتْ إِلَيْهِ نِهَائَتُهُ

ومعنى البداية بالله : أن يكون في أول كل أمر يبدأ فيه به شاهد لحوله وقوته ؛ كما ورد في الحديث : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ - أَيْ : حَالٍ يُهْتَمُّ بِهِ - لَا يَبْدَأُ فِيهِ بِذِكْرِ اللَّهِ .. فَهُوَ أَجْزَمٌ »^(١) أَيْ : مَجْدُومٌ مَقْطُوعُ الْبِرْكَاتِ .
والمريد الصادق : إذا كان في أول بدايته مستعيناً بالله .. دام سلوكه ،

(١) رواه أحمد (٣٥٩/٢) ، والدارقطني (٢٢٩/١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ووصل بغيته ومراده ؛ وهو انكشاف الأمر له شهوداً وعياناً بعد أن كان
علماً وإيماناً .

ومن كان أول بدايته بشهود نفسه وما منها . . انتهى إلى عجز
وعدم ، فإذا كان المرید مستعيناً في جميع حركاته وسكناته في بدايته
على الغيب لا على الكشف . . انكشف له في نهايته حقيقة ذلك
على الشهود والعيان ، فيبقى قرير العين ، متسع الجنان ؛ لما يجد من
ورود رُوح الرحمن ، الوارد بالتأييد على ممرِ الأزمان ، ولي في ذلك :

من كان بالله مبدا أمره فكذا تكون ألى الله غايات النهايات
ومن يكون على الأغيار معتمداً فلم يحقق تحقيق البدايات
والسالكون على نهج السبيل لهم علم وعين وحق مستقيمات
فالعلم غيب ونور العين يكشف ما للحق من وصفه المصون آيات
وإذا كان المرید مجموع الهم ، عاكف السر على الله . . شغل - لا
محالة - عن الأغيار ، وذهل عن الآثار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

وَأَلْمُسْتَعْلُ بِهِ : هُوَ الَّذِي أَحَبَّهُ وَسَارَعَ إِلَيْهِ ، وَأَلْمُسْتَعْلُ عَنْهُ : هُوَ
الْمُؤْتِرُ عَلَيْهِ

ومن علامات تحقيق البداية : الشغل به عما سواه ، ونفي كل شاغلٍ
إلا إياه ، مع المحبة والطوع والمسارة إلى المحاب من غير ملل ولا
سامة ، فعلامه كونه محبوباً لك : الشغل به عما سواه من جميع ما تحبه
وتهواه ، وإشاره على ما عداه .

وعلامات المشتغل عنه من المحبوبات الغيرية : هو المؤثر عليه هذه أيضاً ، علامة دالة على إثاره على الأغيار ، ولا تؤثر على محبوباتك الجلية إلا إذا عرفت شرف ما أنت تطلبه ، وترغب فيه من المشاهدات الروحية والتدليات اللطفية ، فلا شك يهون مفارقة كل محبوب ، ويؤثر - لا محالة - على كل مرغوب .

والشغل به : هو طلب التحقق بمكارم الأخلاق ، والتعلق بمشاهدات الإلهية ، والخضوع لعظمة الربوبية ، والانطواء والاستكانة في كهف العبودية مع المحبة لذلك ، والاعتباط به .

والمشغَلُ عنه : هو الحظوظ والشهوات الأرضية والطبائع الحيوانية ، عرفنا الله قدر ما نطلب حتى يكون كل اشتغالنا طلبه ، فنشغل عن الحظوظ العاجلة ، ولي في ذلك :

فالشغل بالله دأب الصادقين فما لهم إلى غيره في الكون تعويل
يُرون في الناس شعثاً لا مقام لهم ما بين أظهرهم غبراً مجاهيل
لا يؤثرن على المحبوب كان لهم شغل وعن ما سواه آلا مشاغيل
فاليقين أساس مباني المقامات ، والتوكل ثمرة شجرة الفتوحات ؛
لذلك قال المؤلف رضي الله عنه عاطفاً على ما أسلفه من الكلام في
هذا المقام :

وَإِنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ اللَّهَ يَطْلُبُهُ .. صَدَقَ الطَّلَبَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الْأُمُورَ
بِيَدِ اللَّهِ .. اجْتَمَعَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ

من أيقن - واليقين هو السكون وعدم الاضطراب ، فمن أيقن ؛

أي : استقر يقينه وتمكن إيمانه ، وبأشرف سويداء جنانه - أن الله يطلبه بالوفاء بحق الربوبية . صدق - لا محالة - في طلبه بأداء العبودية على أكمل وجه وأتم هيئة ؛ لما شاهده من عظمة الربوبية وكمال الألوهية ، فيحمله الحياء - لا محالة - والحب على الوفاء ، ويحثه على مبادرة الصفاء ، ويحمله على ترك الجفاء ، فيوفي بهذا المشهد حق شريعته .

(ومن علم) العلم الحقيقي الذي شاهده الخشية ؛ وهو ما كان من فتح الغيوب في لطائف الأسرار والقلوب (الأمور) الصادرة من خير وشر ، ونفع وضر ، وموت وحياة . . . إلى غير ذلك من مقتضيات الشؤون وآثار الأسماء (بيد الله) أي : إرادته وقدرته وأمره ، وما هو مراد عنده في غيب علمه ؛ فاليد معلومة ، والكيفية مجهولة ، والسكوت في مثل هذه المتشابهات حسنٌ محمود ، وردُّها إليه عند السلامة من المعارضات ، وأما إذا احتج لتأويل لرد مبتدع أو لم يجد الإنسان طمأنينة . . فيعدل به إلى مثل هذه التأويلات .

فإذا علم ذلك الإنسان علماً قوياً ثابتاً . . حملته ذلك على التوكل على الله لا محالة ، والتوكل على الله هو عبودية القلوب لله ؛ لما يلوح للقلوب من لوائح الحقيقة ؛ فالاضطراب مع لمعان تلك السحاب خطأ ، ويسمونه في تقسيم طريقه : شهود صرف الحقيقة ، فيوفي بحق الحقيقة في ذلك المقام ؛ كما وفى بحق الشريعة في مقام الإيمان الذي عبَّر به باليقين ، ولي في ذلك :

من كان يوقن أن الله يطلبه صدق له في مبادي ظاهر الطلب

وَمَنْ عَلِمَ مِنْهُ أَنَّ الْأَمْرَ مُحْكَمٌ بِيَدِ الْإِلَهِ سَلِمَ مِنْ مَوْرِدِ الْعَطِي
وعطف أيضاً بقوله على كلامه المتقدم :

وَأَنَّه لَا بُدَّ لِنَيْءِ هَذَا الْوُجُودِ أَنْ تَنْهَدِمَ دَعَائِمُهُ ، وَأَنْ تُسَلَبَ كَرَائِمُهُ

وأنتك - أيها الإنسان - لا يحزنك ما يفوتك من هذه الحظوظ
العاجلة واللذات الفانية والخيالات الكونية ؛ فإنها - لا محالة - أن تنهدم
هذه البنيان المشيدة ، وأن تبيد هذه المحاسن العتيدة ، وتفرق هذه
الجموع العديدة ، وتفنى هذه الوجوه الناعمة النضرة ، وتزول هذه
الروائح العطرة ، وتسلب الكرائم المحبوبة ، فتيتيم الولدان ، وتجدد
الأكفان ، وتغير الألوان ، وتُرْمَلِ النسوان ، وتنتهب الجثمان طوارق
الحدثان ، وتفرق الجموع ، وتذُرُ لفراقه الدموع ، وتبيد مجموع جسمه
من الشتات سحائب هموع ، فكيف لا يسلى عما هو عن قريب صائر
إلى الفناء والشتات !؟

وإذا علمت أن هذه الملاذ المحبوبات لا بد أن تزول عنك أو تزول
عنها . . فلا جرم لا تعبأ بما فاتك منها إن كنت ذا عقل سليم ، ولي في
ذلك :

لا بد لهذا البنا المشهود ظاهره أن ينهدم منه بنيان وأركان
وكل ما كان من جمع يُسَرُّ به تسلب كرائم ما في الكون يا أنسان
فإذا كان العقل سليماً . . نظر في عواقب الأمور وبواطنها ، فلم يغتر
بظواهر زينتها ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

فَالْعَاقِلُ : مَنْ كَانَ بِمَا هُوَ أَبْقَى ، أَفْرَحَ مِنْهُ بِمَا هُوَ يَفْتَنِي ؛ قَدْ أَشْرَقَ
نُورُهُ ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُهُ

العاقل حقيقة : من كان بما هو أبقى ؛ وهو الجزاء الأخروي
الموعود لمن صبر عن هذه الدنيا الفانية ، وليس كذلك إلا
الزاهدون ، كما أفتى بذلك إمامنا الشافعي رضي الله عنه حيث قال :
(لَوْ وُقِفَ عَلَيَّ أَعْقَلُ النَّاسِ .. صُفِرَ إِلَيَّ الزَّهَادُ فِي الدُّنْيَا) (١) ،
قد أشرق نوره في سويداء قلبه ؛ كما ورد : (إِنْ النُّورَ إِذَا دَخَلَ
الصُّدْرَ .. انشَرَحَ) (٢) بمعنى : اتسع ، ولا يتسع إلا بالنور الوارد
عليه من الله ، وهو الذي أشهده بواطن الأمور وعواقبها ؛ لأنه نزل
منه في الباطن ، قال الله : ﴿ أَفَتَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ
مِنْ رَبِّهِ ﴾ .

وظهرت على الظاهر تباشيره ، فأشرق على ظاهر البشر أنوار
التبشير ، فتزكت الأعمال والأقوال ، وحسنت منه سائر الأفعال ، وأشرق
ظاهر الزجاجاة ، وانبسط عليه شعاع المصباح ، فظهر على ظاهره شعار
الصلاح ، ولاح على وجهه شاهد الفلاح ، فتظهر منه أفعال حميدة
وصفات جميلة ، ولي في ذلك :

العاقل الكامل الفرد الذكي إذا لم يؤثر الفاني الداني على الباقي
قد أشرقت في سويدا القلب نوروما على الظواهر من آثار إشراق
أضا بزيت في المشكاة منه فما في القلب يظهر في سمع وأحداق

(١) تقدم (ص ٧٥٤) .

(٢) تقدم (ص ٥٤٠) .

ومن علامات وصول النور إلى الصدر : ما ذكره المؤلف وهو مقتبس
من معنى الحديث ؛ لذلك قال :

فَصَدَفَ عَنِ هَذِهِ الدَّارِ مُغْضِبًا ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا مُؤَلِّيًا ، فَلَمْ يَتَّخِذْهَا وَطْأً ،
وَلَا جَعَلَهَا سَكْنًا

هذه غاية النفرة عن الدنيا ؛ وهو الصُدُوف ، يحتمي مسالكها ،
ويجتنب مواطنها ، ولا يوالي أبناءها وأهل الرغبة فيها ، قد غَضَّ عين
قلبه عن زخارفها وقذئ آفاتنا ؛ لثلا يصيب قذاها عين بصيرته فيختلط
نظرها ، ولحدقة البصيرة المنيرة أولى بالصيانة من الحدقة الظاهرة ؛ إذ
بالحدقة الظاهرة ينظر الأغيار الفانية ، وبالبصيرة يشاهد الأسرار العلية ،
والمقامات الأخروية .

(وأعرض بظاهره عنها مولياً) كما فعل رسول الله صلى الله
عليه وسلم لما عرض عليه الأنصار اللقاح ، فأعرض بوجهه
عنها ، فيقولون : يا رسول الله ؛ إننا نعرض عليك كرائم أموالنا
لتنظرها ، فيقول صلى الله عليه وسلم : « إن ربي أمرني ألا أنظر
إلى زهرة الحياة الدنيا ، فقال جل ذكره : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا
مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ » ، أو كما قال ^(١) ، فلم يتخذها
وطئاً ، بل كان كالسافر العجل إلى الوطن المحبوب ؛ كما قال
القائل في ذلك :

مُسْتَوْفِرُونَ عَلَيَّ رَجُلٍ كَأَنَّهُمْ وَقَدْ يُرِيدُونَ أَنْ يَمْضُوا وَيَزْتَجِلُّوا

(١) بنحوه عند أبي عبيد في « غريب الحديث » (٩/٣) .

فالإعراض عنها والتولي دليلٌ على الإغضاء بالقلب عنها ، بل شهد
 الآخرة أقرب إليه منها ، وكان بكلية اهتمامه مقبلاً عليها ومؤثراً لها ،
 لهذا نظر أولي العقول والعلماء الفحول ، تحرّروا فيها نظر أولي الأبواب ،
 واقتفوا آثار الأنبياء وسادات الأولياء الذين لم يستوطنوها ؛ كما قال
 قائلهم^(١) :

إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً فُطِنَا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
 نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهَا لَيْتٌ لِحَيِّ وَطَنَا
 جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفْنَا
 ولي في ذلك :

قد أغضوا عن زخارفها وما نظروا لزيئة بل عن الأغيار قد صدفوا
 وأعرضوا عن ظواهرها وما وقفوا ويابنوا كل مألوفٍ قد اترفوا
 وخامرت قهوة العرفان فاتصفوا بعالم القدس والتحقيق فاعترفوا
 فإذا عرف فناء هذه الدار واضمحلال الأغيار . . لم يقرّ لمطية عزمه
 قرار ، وانتهج نهج الحقائق والأسرار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله
 عنه :

بَلْ أَنهَضَ الْهَمَّةَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ ، وَصَارَ فِيهَا مُسْتَعِيناً بِهِ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهِ

هذه أصح طرق المریدین ، وأنجح وسائل السالكين ؛
 وذلك بأن يجعل الله لهم همماً علوية ، تنهض بهم إلى الأخذ

(١) كان الإمام الطرطوشي كثير الإنشاد لها ، كما في « وفيات الأعيان » (٤ / ٢٦٢) .

بالكلية ، إلى المنازل القدسية والمشاهد الحقية ، ومع ذلك هم فيها مستعينون به فيما هم بصدده من الانكماش في العبادات ، والتخلق بالأخلاق الحميدات ، واجتناب مصادم الشهوات ومعاطب الهفوات ، فهم قائمون بظواهرهم بكامل العبادات ، ومباينون جائل العادات ، ومستمكون بقلوبهم وأسرارهم بورود الألفاظ وسواغ المنن وتنزل الرحمات ، ونزول البركات والمعونات من خالق البريات .

فمن كان بهذه الحالة . . فقد أدرك خالص الإرادة ، ونال ثمرة السعادة ، ولم ينقطع عن الله بمألوف العادة ؛ فالحكم المتقدم ذكرها للمريد في التجلي وهو بعد لم يأخذ في السير إلى الله ، وقوله : (بل أنهض الهمة فيها) أي : الدنيا ؛ لأن فيها ميدان السلوك .

وهذه - أي : إنهاض ابتداء في السير ؛ وهو الأخذ في التجلي ، ويكون مستعيناً في ذلك بالله ؛ ليصل إلى نيل بغيته وغاية مقصده ، لأن من كان بالله استعانتة . . توالت من الله إعانته ، وإذا لم يكن من الله إعانة . . لم تغن عنه ظواهر الأدلة ، ولم تنفعه إضاءة الشمس وأنوار الأهلّة ، ولي في ذلك :

من بعدما يخلي الإنسان ساحته عن الشوائب والأشغال بالغير لا شك أن السبيل الحق بان له وشاهد السر مبسوطاً على الصور فإذا صحت له هذه الحالة التي هي الاعتماد على فضل الله وإعانته . . لم تزل مطية العزم في السلوك جاذة ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

فَمَا زَالَتْ مَطِيَّةُ عَزْمِهِ لَا يَفْقُرُ قَرَارُهَا ، دَائِمًا تَسْيَارُهَا ، إِلَى أَنْ أَنَاخَتْ
بِحَضْرَةِ الْقُدْسِ ، وَبِسَاطِ الْأَنْسِ . مَحَلِّ الْمَفَاتِحَةِ وَالْمَوَاجِهَةِ ، وَالْمُجَالَسَةِ
وَالْمُحَادَثَةِ ، وَالْمُشَاهَدَةِ وَالْمُطَالَعَةِ ، فَصَارَتْ الْحَضْرَةُ مُعْتَمَنَةً قُلُوبِهِمْ ؛
إِلَيْهَا يَأْتُونَ ، وَإِلَيْهَا يَسْكُونُونَ

فحيث كان المريد - كما وصفنا - من طهارته عن الأكدار ، وتخليه
عن الأغيار ، وتصفيته عن كدر الآثار ، وكان مع ذلك آخذاً في السير في
أطوار الوجود ، قاصداً التجلي والشهود . . (ما زلتُ) عن المقصد ولا
حالت عن الطريق (مطية عزمه) وشيئة عزمته ، وقوته أردنا بالمطية
- والمطية : هي النجبية من الإبل - المختارة لقطع المسافة البعيدة في
المدة القريبة ، وليست كل الإبل كذلك ، بل لم تسم مطية إلا التي
تستطوي للسير وتطوي له من بين الإبل لقوتها وصبرها .

فهذه عبارة حسنة كما هو عادته في كلامه الاستعارة بالأمر الحسية
عن الأمور المعنوية ؛ ليفهم ذلك كل السامعين ، ويقرب إلى الأفهام
معنى الكلام .

(لا يقر قرارها) والقرار : هو السكون والركون ، وعزيمة الصادق لا
تسكن ، ولا إلى شيء دون المراد تركز .

ومرادها ومنتهى مقصدها : هو الكون في أطوار وأنوار التجلي
والحضور ، ورفع الحجب والستور ، دائماً في تسيارها ، لم تقطع سيرها
العوارض ، ولا تقيدها العوائق ، فلم تنزل كذلك جادة في السير قائلة :
﴿ لَا ضَبْرٌ إِنَّا إِلَيْنَا مُقَلَّبُونَ ﴾ ، إلى أن وصلت إلى غاية المراد ، ومنتهى
قصد القصد ، ومحل كرامة الرائدین والوفاد ، بفائضات المواهب

والإمداد ، وحيث تُنِيخ نجائب الطلاب بباب المتفضّل الوهاب ، وحيث يواجه الأحباب بالتجلي والخطاب ، وحيث ترفع عن الحبيب الستر والحجاب ، وحيث يؤذّن بالسؤال والجواب ، نهاية سير الهمم ، واستبانة الطريق الأتم ، والمنهج الأقوم ، وتجلي الأسرار ، وشروق الأنوار ، الحضرة القدسية عن لوث رؤية الأغيار ، المنزهة عن كثافة الآثار .

(حضرة القدس) والتقديس : هو التطهير ، والقدسي : هو المحل الطاهر الأنفس الأعز ، وعند الكون في هذه الحضرة الأنيسة والرتبة الأريسة . . تظهر أسرار وشوارق أنوار ، فيتمحي عن إنيته ، ويغيب عن شاهد غيبته ، فلا يبقى له أثر ، ولا يسمع له خبر ، فيتخلف هنالك عنه آثاره ، وتمحي عنه شواهد أفعاله وأوصافه ، فيأخذ في السير فيه بعد السير إليه .

وأشار المؤلف رحمه الله إلى بعض ما يتجلّى للواصلين من سنيات الأحوال ، فقال : (وبساط الأنس) فالإشارة بالبساط إلى التجلي في حالة البسط ؛ وهو ما يسقط الله لعبده من أسرار التولي وألطف التجلي ، ما يحول بينه وبين رؤية وجود الأغيار وظهور الآثار ، فلا يشهد جنة ولا نار ، ويدار على السر عقار ، تحت ملابس وخمار ، فيختار ، ولا يعرج على سكن ولا دار ، ولا أهل ولا عقار ، بل غريق قسي بحار لا تبين فيها الجهات والأقطار ، ومستبدل بالأنس عن الإنس ، فيؤانس بأنواع ملاطفات ، ولذيذ محاورات ، وخفي مسارات ، وشهي مسامرات ، محل المفاتيح بفتوح العلوم اللدنيات ، والخزائن العرشيات ، والذخائر الوصفيات ، والمعاني الذاتيات ، والمواجهة بالتجليات الوصفيات ، والمحاسن العليات ، في العوالم الجيروتيات ، والغيوب العرشيات ،

(والمجالسة) في الحظائر الذكريات ، « أنا جليس من ذكرني » (١) ،
 (والمحادثه) بانكشاف معاني الكلم القدسيات ، والإشارات
 القربيات ، والمخاطبات الروحيات ، وانتشار ما استودع في الذوات
 من الخطاب في عالم الذرات ، يوم ﴿ أَلْتَكُنَّ ﴾ بما كان وما هو كائنٌ
 إلى يوم نشر الأموات ، وجمع الشتات ، ونشر الصحائف بالحسنات
 والسيئات ، (والمشاهدة) للمتجليات الوصفيات ، (والمطالعة)
 للأنوار الذاتيات .

فإذا كان كذلك .. فلا شك أنه بين المشاهدات والمخاطبات لم
 يبق له بقية التفات ، لا إلى ماضٍ ولا إلى آت ، بل صارت الحضرة
 لقلبه داراً ، ولسرّه قراراً ، ولروحه عقاراً ، فالإشارة بالمعشعش الذي هو
 مسكن الطير .. أولى من التعبير بغيره ؛ لأن القلب من العالم السماوي
 الروحي ، وأهل ذلك العالم موصوفون بالأجنحة ، ﴿ أُولَئِكَ أَجْنِحُونَ ﴾ ، والطير
 لا تسكن في غير وكرها ، ولا تفر دون معشعشها ، فإليها يأوي ، وفيها
 تسكن وتثوي .

إذا أوتت النفوس إلى الشهوات ، وسكنت بالأسباب الدنيويات ،
 وتقيدت بالعادات الطبيعية .. فأرواح الواصلين متمعمة في تلك
 الحظائر الأزليّات ، الدائمة الأبديات ، لا يخشون من انقطاعها عنهم ،
 ولا انفلاتها منهم ، إذا ضلبي بحرارة الفراق ، وأقلق للمساق عن الأهل
 والمال من كان لها عشاق ، عند بلوغ الروح التراق ، فيحترق سره بنار
 الفراق ، وخوف الإشفاق مما هو لاق .

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٠) ، عن كعب قال : قال موسى عليه السلام : (يا
 رب ؛ أقرب أنت فأناجيك ، أم بعيد فأناديك ؟ قال : يا موسى ؛ أنا جليس من ذكرني) .

فهذه عباراتٌ مليحة من بعض معاني يفتح الله بها على الصادقين ،
وينتهي إليه سير السالكين ؛ فإن كان الله يريد أن يرجعه للإرشاد ،
ويقرب أهل الشقاق والعناد ، ويطوي بزوية المسافات البعاد ، ويوصل
به إليه طوائف الزهاد والعباد . . أنزله في الوجود مسربلاً بملايس
الأسرار ، ومؤيداً بشوارق الأنوار ، ينزل في الأطوار ، ويتجلى عن
الأثار بنور في صورة نار ، تحرق كثائف الأغيار ، ويلبس تجلي اسمه
القهار ، فيقهر الظلم والأشرار ، وإن شاء سبحانه . . جعله غريق
التجليات والأنوار ، فلا تسمع منه الأخبار ، فإذا رُدُّ إلى الأغيار . .
أباح بعدم الاصطبار : ردوا حبيبي إليّ ؛ فليس له عني اصطبار ، ولي
في ذلك :

مطية العزم للعلياء مقبلة فلم يقر بها من دونها الغير
مديمة السير عن ساقٍ بلا مهلٍ ما عاقها حرٌّ هجير لا ولا مطر
حتى أناخت على عليا مقدسة وبسط أنس محل الفتحة والظفر
وواجه القادم الوجه العزيز وفي ذاك التجلي يروق الناظر النظر
وجالس الضيف إكراماً ولاطفه طيب الحديث تمام الأنس بالسمر
وطالغ أوصاف ما في الصون منكمم عن العيون وشاهد برّه النضر
فصارت الحضرة العليا معشعشعهم تأوي إليها قلوب السادة الغرر
وساكنت خير مألوف به ألفت من بعد طول بعاد أورثت ضرر
فإن أنزلهم الله في الوجود بعد استكمال حقائق الشهود . . عادوا
إلى الأشياء بالله كما خرجوا عنها به ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه
في ذلك :

فَإِنْ نَزَّلُوا مِنْ سَمَاءِ الْحُقُوفِ وَأَرْضِ الْحُطُوطِ .. فَبِالْإِذْنِ وَالسَّمَكِينَ ،
وَالرُّسُوحِ فِي الْيَقِينِ ؛ فَلَمْ يَنْزِلُوا إِلَى الْحُقُوفِ بِسُوءِ الْأَدَبِ وَالْغَفْلَةِ ،
وَلَا إِلَى الْحُطُوطِ بِالشَّهْوَةِ وَالْمُنْتَعَةِ ، بَلْ دَخَلُوا فِي ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ
وَمِنَ اللَّهِ وَإِلَى اللَّهِ

فإن أراد سبحانه صحوهم بعد محوهم ، وفرقهم بعد جمعهم ..
أنزلهم مؤيدين بالروح الرباني ، منصورين بالعز الصمداني ، ظاهرين
بالدمع الحقاني ^(١) ، أنزلهم في أطوار الوجود ، يكتسبون كمال الحق
في مظاهر الوجود ، مؤيدين لحقائق الواحد المعبود ، فينزلون من منتهى
نهاية الجمع الأحدي إلى سماء ظهور تجلي معاني الأسماء ومقتضيات
الشؤون ، فيرجعون إليها بالأدب واليقظة ، ونزلهم أيضاً إلى أرض
الحطوط البشري ليس بالشهوة والمنتعة ، كما [أن] ذلك كله شأن أهل
الحجاب والقطيعة ، دخول الأشياء بحكم الشهوة والطبيعة ، ورجوعهم
تكميل للعباد ، ورحمة للبلاد .

فهم بطريق الإشارة الفرقة النافرة ، والعصابة الظاهرة ، ﴿ قُلُوبًا فَتَرِينَ
كُلَّ فِرْقَةٍ مِّنْهُنَّ طَائِفَةٌ لِّتَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ ،
فاستفادوا الحسينيين : الفقه في الدين ، وشروق اليقين ، فيرجعون
إلى الأشياء بهذه الأوصاف متصفين ، وبهذه الخلال متحلين ، فيدخلون
في الأشياء بالفقه والبصيرة ، فلا يأخذون ولا يذرون ، ولا يعطون ولا
يمنعون ، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا عن إذن من الله .

شاهد ذلك بترائي لهم في الوجود عياناً ، ولكن يتأدّبون مع الحكم

(١) في (أ ، ب) : (قاهرين بالدمع الحقاني) بدل : (ظاهرين بالدمع الحقاني) .

الشرعي ، يحكمون على أنفسهم بما كوشفوا دون غيرهم إلا من طريق الفتوى ، فهم الذين وقعوا على حقيقة الأمر إذ وهم المحجوبون وحكموا بالظنون ، فهم الذين يمشون بين الناس بالنور المجعل لهم .

فإذا كان الأمر لله بشاهد اليقين . . فأمنوا فيه بالله ؛ لأنهم لم يزايلهم شهود جمعهم في فرقهم ، ولا محوهم في صحوهم ، فهم بظاهر خلقيتهم وشهود صوريتهم في الوجود مشهودون ، وبباطن روحانيتهم في الشهود مفقودون ؛ فالبصائر في الشهود دائمة ، والأبصار في الوجود نائمة ، ومعظم مواجيد هذه الحالات لا تعرف إلا لأربابها ذوقاً وتحقیقاً .

وغيرهم ممن لم يحظ بهذه المشاهد ، ولم يكرح هذه الحياض والموارد . . قد يفهم بعض إشاراتهم بكمال تخلقه في غريزته ، ولكن إن وقف عند علمها دون ذوقها . . وقع في مهواة الدعوى ، وحُرم من المنن وحلاوة السلوى ، ولا بد أن يستبدل بما هو خير الأذنى ؛ كما شوهد من خلق كثير الوقوف عندما ظهر بمجرد القريحة في كتب المحققين ، وظنوا أنهم وقعوا على حقيقة من الوصال ؛ وهم يخطون في عشواء وضلال وعمى ويطال ، لا يميزون بين الوصال والانفصال ، ولا بين الأقوال والأفعال ، ولا بين المقاسات والأحوال ، بل بارزون في حلل الجدل ، ومصممون على ما يظهر لهم في تخييط وخبال ، وأوهام وخيال ، فنعوذ بالله من الاغترار ، بما تحلى به الأشرار ، من الظهور بزي الأخيار ، والتلبس بملابس الأبحار ، وهم من الذين قال الله فيهم :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَبَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَا يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ .

فأهل الحق لهم سيما تميزهم ، وعلامات تعرفهم ؛ فإن دخلوا في الأشياء . . فبالله مستعنين ، وبالله عاثدين ، ومن الله بالإذن آخذين ،

وإلى الله في جميع ذلك راجعين ، ولي في ذلك :

إذا أراد نزول القسوم أنزلهم إلى سما حق معبود به نزلوا
وأرض حظ نفوس كان مرجعهم إليه منها وعن عاداتها ارتحلوا
لا ينزلون إلى حق بلا أدب ويقظة بل على التحقيق إن نزلوا
ولا الحظوظ بشهوة أو متاع الغافل الهمل ، فيدخل في الأشياء بالله
بعد أن خرج عنها به !! وهذا والله معنى الآية التي استشهد بها المؤلف
بهذا المعنى ؛ كما قال :

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴿١﴾ لِيَكُونَ نَظْرِي إِلَى
حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ إِذَا أَدْخَلْتَنِي ، وَأَسْتَسْلِمَ بِي وَأَنْقِيَايَ إِلَيْكَ إِذَا أَخْرَجْتَنِي

استشهد بهذه الآية الكريمة لما أسلفه من عبارته ، فبالدخول :
السلوك إلى الله ، والترقي في مراتب الشهود ، والتفاني عن الأغيار ،
والتخلص عن رؤية الآثار .

ومدخل الصديق : هو أن يكون في ذلك بالله ، ناظراً إلى حول الله
في تخلصه عن كدورات الأغيار ، وقوته في مواجهة الحقائق والأسرار ،
وورود المواهب والأنوار ، ولطائف المعاني والاستبصار ، عند تجلبي
أسرار الأقدار ، المدهشة للقلوب والأسرار .

(وأخرجني مخرج صدق) في رجوعي إلى التدلي في الأطوار ،
ودخولي في الآثار ، فأكون مستسلماً لك ، ومنقاداً لمراكك ، مؤثراً
لإرشاد العباد علي ما هو المحبوب لدي ؛ وهو كوني طمساً ومحواً ، لا

انصرافَ لي إلى رؤية غير ، ولا ألوي بنفع ولا ضير .

ولكن الاستسلام يعطي إيثار مراد الله على مراد المرید ؛ ليدخل في غمار العبيد ، ويشهد القرب في القريب والبعيد ، والبعيد في البعيد والقريب ، فيكون حائراً بين هذه الزوايا ، ومنتظراً لرجوعه إلى خالص شهود محبوبه ، وصافي شراب ينبوعه ، ولي في ذلك :

كفُّ الضراعة مُدَّت نحو سيدها يدخلني الله مدخل صدق في الطلب
وذاك أن يشهد السالك لقوته وحوله في الترقى في سما القرب
ومخرج الصدق في الرجعى لعالمه مؤيداً بجنود غير منقلب
فإذا عاد إلى الأكوان لله مستسماً ، ولحكمه محتكماً . . حق
على الله أن ينصره وينصر به ؛ كما قال :

﴿ وَجَعَلَ لِي مِنَ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ : يَنْصُرُنِي وَيَنْصُرُنِي ، وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ ،
يَنْصُرُنِي عَلَيَّ شُهُودَ نَفْسِي ، وَيُغْنِينِي عَنْ دَائِرَةِ حِسِّي

فالمطالب حقيقٌ بنيل المطلوب ، وحصول المرغوب ، والتفضل بالموهوب ، فالجعل : هو العطاء المخصوص ، والامتنان على طوائف المخصوص ، بعطاء غير منقوص ؛ أي : اختصني بذلك .
والسلطان : هو الأمر الغالب الذي يغلب به كل غالب ، ويتدارك به كل فائت من المطالب ، فيكون به منصوراً نصرأ عزيزاً مؤزرأ ، مجموع سر الخطاب ، وفتح أم الكتاب ، تنصرتني على شاهد نفسي ، وتقهر به دائرة الحس المانعة عن التحقيق باستكمال مقام الغناء في الله .

وانصرني في إقبالي والأخذ في طريق بدايتي ؛ ليتم لي مقام إرادتي ،
وتنقطع عني عوائقي في طريقتي ، إلى نيل بغيتي ومنتهى رغبتى .

وانصرني في رجوعي إلى الأكوان ، أهل صدق الرغبة من الإخوان ؛
لأكون سبباً له في استخراج كيمياء سعاده ، وعوناً له في طريق إرادته ،
بما ألبستنيه من حلال القبول ؛ ليحصل لمن اقتدئ بي كل مأمول .

فالنصرة له أولاً في حال سلوكه وإرادته ، والنصرة به في حال رجوعه
إلى الأكوان بعد استكمال مقام نهايته ؛ وهو السفر الثاني .

ولا تنصر عليّ باستيلاء النفس عليّ ، وتحكّم الهوى فيّ ، وهذا غاية
الإضلال والبعد .

وقد جمع في دعائه بين جلب النفع ودفع المحذور ، ودفع المحذور
أجدر بالدعاء ، وكمال الدعاء : أن يجمع الأمرين ؛ لأنه يسأل كريماً لا
تبرمه كثرة الحاجات ، ولا تتخطاه إلى غيره الآمال في جلب المصالح
ودفع المهمات ، والفناء عن دائرة الحس هي نهاية الفناء في المقامات ،
وثالث مقام في الفناءات ، ولي في ذلك :

اجعل لي النصر في مبدا البدايات ليحصل الوصولُ إلى أعلى النهايات
وفي رجوعي إلى الأكوان فانصرني وكل طالبٍ من أهل البدايات
ولا تسلط عليّ مَنْ كنتُ أحذره من سالف أيامي آتي في مهمات
ودائرة حِسِّي أخرجها وكن عوضي عنها فهذا الذي أقصى إراداتي



[وممّا كتبه إلى بعض إخوانه]

ثم لما أنهى الكلام على ذلك .. أخذ يتكلم في فضل الشكر ، وجعل
الكتابة ختماً كغيره من المصنفين ؛ لأنه به تمام مقامات الواصلين إلى
مقامات المقرّبين ، لذلك قال رضي الله عنه :

إِنْ كَانَتْ عَيْنُ الْقَلْبِ تَنْظُرُ إِلَى أَنْ اللَّهُ وَاحِدٌ فِي مَنِّهِ .. فَالْشَّرِيعَةُ تَقْتَضِي
أَنْ لَا بُدَّ مِنْ شُكْرِ خَلِيقَتِهِ

فالأمر الآن انتهى إلى غاية المأمول ونهاية المحصول ، فإذا عرفت
حق هذه النعم الجسم والمنن الثّواب .. فلا بد من الشكر على ذلك ؛
ليستمر الدوام والزيادة من العطايا العظام .

والشكر : عملٌ من أعمال الإنسان ، ولكن له شاهدان ؛ شاهد القلب
واللسان وسائر الأركان ، وعين القلب هي البصيرة ، والبصيرة مستغرقة
في شهود وحدانية الحق ، غائبة عن الثّان ، واللسان ظاهره من عالم
ظاهر الإنسان .

وإذا وصلت نعمةً على يد إنسان .. فعين القلب لا نظَرَ لها ولا
ملائكة ولا إنس ولا جان ، فتشكر الواحد المنان ، فهذا حق الحقيقة
من الإنسان ، ألا يشهد معه في منته ثان .

ولسان الشريعة الظاهرة في مظهر العيان ، يقتضي أن تشكر من
جعله الله طريقاً في وصول الإحسان ، سواء كانت تلك دينية أو دنيوية ؛

لأن من لا يشكر القليل .. لا يشكر الكثير ، وه من لم يشكر الناس ..
لم يشكر الله « (١) » .

وشكر الله : هو الثناء عليه بما هو أهله ، وصرف ما أنعم الله به عليك
فيما أمرك به ، وشكر الناس : هو الدعاء لهم بخير على حسن صنعهم ؛
كما جعلهم أهلاً لذلك وأمرَكَ ، فيكون شكرك لهم امتثالاً له من جملة
شكره ؛ لأنه هو الأمر بذلك ، مع أن عين قلبك لم يزايلها شهود انفراده
في منته ؛ فهذا مقام العارفين الموفين بحق المقامين على تمامه ،
والواصلين في الشكر إلى ذروة سنامه ؛ وهو إيفاء الاسم الشكور حقه
والتخلُّق به ، كما أنك مأمور بذلك ، ومطالب بما هنالك ، ولي في ذلك :
إن كان بالقلب تنظرُ صرف منته والكل معدمٌ لا عين ولا أنر
فالشرع يقضي بأن العبد يشكر من [قد] ساقه الله بالإسدا من البشر
والناس فيما يأتيهم من النعم على أقسام ثلاثة ؛ كما قال المؤلف
رضي الله عنه :

وَإِنَّ النَّاسَ فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : غَافِلٌ مُنْهَمِكٌ فِي غَفْلَتِهِ ، قَوِيَتْ
دَائِرَةُ حِسِّهِ ، وَأَنْطَمَسَتْ حَضْرَةُ قُدْسِهِ ، فَتَنْظَرُ الْإِحْسَانَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ،
وَلَمْ يَشْهَدْهُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ إِمَّا أَعْتَقَاداً .. فَشِرْكُهُ جَلِيٌّ ، وَإِمَّا
إِسْتَاداً .. فَشِرْكُهُ خَفِيٌّ

هذا تقسيمٌ في مقام الناس في شهود النعمة الواردة ، وهم أحد طرفين

(١) رواه الترمذي (١٩٥٥) عن سيدنا أبي سعيد المخدري رضي الله عنه .

قاصيين ، ولكن أحد الطرفين محمود ؛ لأنه قاصرٌ عن رتبة الكمال ،
وأحد الطرفين مذمومٌ في غاية البعد والضلال ؛ وهم المذكورون هنا
حيث قال : (إما غافل) والغفلة أقبح مقامات الإنسان ، وأحط مراتب
الثقلين ؛ لأن الله جعل رتبة الغافلين أحط من الأنعام السوام .

وأعظم أحوال الغفلة : الانهماك ؛ وهو التوغل في دركات البعد من
غير مبالاة ، والغفلة قوتها بحسب قوة دائرة الحس ؛ لذلك قال : (قويت
دائرة) لأنها كلما استقوت دائرة الحس . . قويت الدواعي الشهوانية ،
وتعشقت إلى الطباع الحيوانية ، فتمكَّنت شجرة الزقوم ، وكنف
ظلها اليعموم ، وكلما كانت أقوى وأرسخت . . كانت حضرة قدسه
إلى الانطماس والغيبة أقرب .

وعلامه ذلك : ظهور الطمع في المخلوقين ، والذلة للعبيد
المستترزين ؛ لأن انطماس حضرة القدس وقوة دائرة الحس يقتضي رؤية
الأغيار ، وظهور الآثار ، والحجب عن شهود القاهر الجبار .

وثمرة الحجاب : هو الشرك ؛ إما أن يشهد ما يصل إليه على أيدي
الخلق اعتقاداً . . فهذا كفر ؛ كما شهد بذلك الحديث : « أتدرون ماذا
قال ربكم ؟ قال : أصبح من عبادي مؤمنٌ بي كافر بالكوكب ، ومنهم
كافر بي مؤمن بالكوكب ؛ فأما من قال : مُطرننا بفضل الله ورحمته . .
فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطرننا بنوء كذا . . فذاك
كافر بي مؤمن بالكوكب . . » الحديث بطوله ^(١) .

وإما إسناداً . . فهو شرك خفي ؛ كما عليه طائفة الفلاسفة - قبح الله
رأيهم - وهذا جارٍ في سائر العادات والمعتادات ؛ حتى في المطعومات

(١) رواه البخاري (٨٤٦) ، ومسلم (٧١) عن سيدنا زيد الجهنبي رضي الله عنه .

والمشروبات والملبوسات وسائر المحسوسات ، فمن أضاف شيئاً إلى شيء دون الله ، أو بشيء غير الله ، أو في شيء . . فقد سلك أوعر الطرقات ، وارتكب عزيمةً من القبائح المفضعات .

بل الأمر عند ذوي البصائر الصحيحة عن غشاة الضلال : أن القرآن في الأمور هو المحكوم به ، المعروف في العبارة بالعند ؛ أن الله يخلق لهذا عند لهذا بجاري عادته ، وعلى مقتضى إرادته ؛ فمن شهد نعمة الله من غيره . . فلا شك أنه كفر نعمته ، فاستوجب ويبل نعمته ، فصرف ما كان لله من العبودية للمخلوقين ، ونسي رب العالمين وإله الأولين والآخرين ، فنعوذ بالله من طمس البصيرة ، وعمى السريرة ، ولي في ذلك : فالغافلون هم الجهال إذ جعلوا لله نداءً معاذ الله حاشاه من يشهد الخلق دون الله حاصله شركٌ فظبعُ فنار الله مأواه



وأما القسم الثاني . . فهو الطرف المصطلم بالحقيقة ، ولم يشهد الخليفة ؛ كما قال المؤلف رضي الله عنه :

وَصَاحِبُ حَقِيقَةٍ غَابَ عَنِ الْخَلْقِ ، بِشُهُودِ الْمَلِكِ الْحَقِّ ، وَفَنِيَ عَنِ
الْأَسْبَابِ ، بِشُهُودِ مُسْتَبِئِ الْأَسْبَابِ ؛ فَهَذَا عِبْدٌ مُوَاجِعٌ بِالْحَقِيقَةِ ، ظَاهِرٌ
عَلَيْهِ سَنَاهَا ، سَالِكٌ لِلطَّرِيقَةِ ، قَدْ اسْتَوَلَى عَلَى مَدَاهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ غَرِيبٌ
الْأَنْوَارِ ، وَمَطْمُوسٌ الْأَثَارِ ، قَدْ غَلَبَ سُكْرُهُ عَلَى صَخْوِهِ ، وَجَمَعَهُ عَلَى
فَرْقِهِ ، وَفَنَاؤُهُ عَلَى بَقَائِهِ ، وَغَيْبَتْهُ عَلَى حُضُورِهِ

فصاحب الحقيقة : هو الفاني بها عن كل مشهود سواها ، والحقيقة :

هي إقامة الله لعبده ، وتأهيله لشهود كمال ذاته العلية ، وصفاته السنية ،
وتجلياته الأزلية ، فلا ظهور هنالك للأغيار ، ولا بيان للآثار ، ويسمى
هذا : المشهد الحق ؛ وذلك أن الباطل لا ظهور له معه ، والملك هو
القاهر ؛ لقهره لمن سواه .

ومن أقيم في هذا المقام . . يسمى فانياً ، وحالته الفناء عن الأسباب ؛
لأنه شهد مسببها ، وكل الخلق وأفعالهم أسباب لمسبب ، فلا جرم أن
من أشهده كماله ، ومنحه قربه ووصاله . . أن يغيب عنها ؛ كما هو
مشهود فيمن استغرقه مُهمٌّ من الأمور الحسية يغيب بالاهتمام به عن
الأشياء .

(فهذا عبدٌ مواجِهٌ بالحقيقة) من الله ، مخطوب لحضرته ، مطموس
تحت أنوار عظمته ، (ظاهر عليه سناها) مشرق عليه ضياها ، فغاب بها
عمَّن سواها ، (سالك) لطريق الحق ، تارك لما وراءه ، (قد استولى)
أي : وصل وحصل (على مداها) أي : غايتها ومنتهاى حضور قدسها ،
والكون تحت ظل أنسها ؛ فهو الذي تولى الظل (غير أنه غريق الأنوار)
مقهور بتجلي الاسم القهار للأغيار ، (ومطموس الآثار) ألقى في تيار
بحار الأسرار ، لا يدري ليلاً من نهار .

(قد غلب سكره) بخمرة التجلي العقار (على صحوه) وهو الإفاقة
بالله ، وإثبات الأشياء به ، وإعطاء وجود الحق فيها حقه ، (وجمعه)
بالله الذي لا يعطي صاحبه تمييزاً ولا تقريراً ؛ لغلبة تجلي وصفه العزيز ،
(على فرقه) المطلوب منه ؛ وهو الفرق الشرعي الذي يعطي الحقوق
حقها ، ويوفي المقامات مستحقها ، (وفناؤه) بالله عن الأسباب (على
بقائه) بمسببها ، (وغيبته على حضوره) .

ومقام البقاء والحضور هو الذي يتم به السرور ، ويتوالى به الحبور ،
ويتنعم الناظر بالمنظور ، وتشرح به الصدور ، قال الله جل وعلا في
الامتنان على نبيه بذلك : ﴿الرَّشْرَحَ لَكَ صَدْرِكَ﴾ ، وهنا ترفع الستور ،
وتتجلى الدور الكامنة تحت الخدور ؛ فكل صاحب حقيقة غاب فيه به
عن كل مشهود في الكونين .. إلا هو قد لاح ظاهر سناها فيه منه له ،
لكنه بعد لم يشهد خباياه .



وقسم ثالث ؛ وهم أهل الكمال الحاصلون على أعزّ مثال ؛ وهو الذي
جمع الأمرين ، وأحكم المقامين ، ونظر بالعينين ؛ كما قال المؤلف
رضي الله عنه :

وَأَكْمَلُ مِنْهُ عَبْدٌ شَرِبَ فَأَزْدَادَ صَحْوًا ، وَعَابَ فَأَزْدَادَ حُضُورًا ؛ فَلَا جَمْعُهُ
يَخْجُبُهُ عَنِ فَرْقِهِ ، وَلَا فَرْقُهُ يَخْجُبُهُ عَنِ جَمْعِهِ ، وَلَا فَنَائِهِ يَضْرِفُهُ عَنِ
بَقَائِهِ ، وَلَا بَقَاؤُهُ يَضْرِفُهُ عَنِ فَنَائِهِ ، يُعْطِي كُلَّ ذِي قَسْطٍ قِسْطَهُ ، وَيُؤْنِي
كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ

هذا مقام أهل الكمال الواصلين إلى ذروة الوصال ، والحاكمين
على الأحوال ، ولم يشطحوا في المقال ، ولم يقصروا في الأفعال ، ولكن
يعطون كل ذي قسط من الأحكام الشرعية قسطه - أي : حكمه - لا ينقصهم
ما يتوالى على أسرارهم من سكر الشهود ، ولا يوثقهم عن الوفاء بحق
المعبود ، ما يعتورهم من مخالفات الأحكام والحدود ؛ فلهم وجه في
الشهود ، ووجه في الوجود ، وهذا مقام الصديقية ، ولي في ذلك :

أهل الكمال لهم في القرب أحوال عوالي في مقام عزٍّ مرمأه
يوفون كل مقام ما يكون له وهم في القرب في غايات عليها
وانظر إلى كلام أهل هذا المقام ، كيف وفوا فيه على التمام ؛ كما
قال مفيراً لما قدّمه من الكلام على المقامين بكلام الصديق الأكبر في
ذلك ، حيث قال :

وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَمَّا
نَزَلَتْ بِرَأَائِهَا مِنَ الْإِنْفِكِ عَلَيَّ لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
يَا عَائِشَةُ ؛ أَشْكُرِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ : وَاللَّهِ ؛
لَا أَشْكُرُ إِلَّا اللَّهَ ^(١) ، ذَلَّهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمَقَامِ الْأَكْمَلِ ؛
مَقَامِ الْبَقَاءِ الْمُفْتَضِلِ لِإثْبَاتِ الْأَثَارِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي
وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ
النَّاسَ » ^(٢) ، فَكَانَتْ هِيَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُضْطَلِمَةً عَنْ شَاهِدِهَا ، غَائِبَةً
عَنِ الْأَثَارِ ، فَلَمْ تُشْهَدْ إِلَّا الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ

هذا شرح منه لما أسلفه من كلامه على المقامين ، وقد أوضح فيه
بغاية البيان ، حتى كاد أن يكون الأمر على العيان ؛ لشدة وقعه في
الأذهان ، ولولوجه في الآذان ، وتمكّن عبارته في الجنان ، فاستشهد في
ذلك بحالة الصديق ؛ لأنه البارز فيه شهادة القرآن ، إذ قال فيه سبحانه :

(١) رواه البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) تقدم تخريجه قريباً (ص ٨٦٦) .

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ :
قيل : أبو بكر .

فلما نزلت براءة عائشة التي هي من أجل المنن ، وأعظم النعم على
سائر الخلق ؛ فلما توجه إليها الخطاب على لسان الأمين . . طالبها
أبوها بوفاء تلك والقيام بها ، فقال : (اشكري رسول الله صلى الله
عليه وسلم) يريد بالقول والفعال ، ولم يأمرها بشكرها ؛ لعلمه بما هي
عليه من كمال الاستعداد ، فلم يكن أبو بكر أراد أنها تشكر رسول الله
دون الله ، ولكن لما رأى ما فاض من مقتضيات الشكر لله . . أراد أن
توفي مقام الشرع حقه ؛ وهو شكر الخلق .

فقالت مترجمة عن حالها بمقالها : (والله - لأنه المشهود لديها -
لا أشكر إلا الله) لأن مظاهر الألوهية لم تترك فيها مساعاً لرؤية الشان .
والاصطلام في اصطلاح الطائفة : هو الحيرة والدهش ، وهذه الحالة
منها غير غالبية ، وإنما غالب أحوالها التمكين والصحو ، لكن لما
واقفها في حالة الاصطلام عن شهود الأعلام . . أفصحت بهذا الكلام ،
ولي في ذلك :

قد كان في ذلك الصديق أعلمها بما هو الشكر فاجتازت عن الغير
فلا اصطلام له حال يكون به غائب عن الكون لا يشهد له أثر
وعائشة هي زوجة النبي صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين ، وهي من
أحب أزواجه صلى الله عليه وسلم إليه - وقيل : خديجة - فنجب براءتها
من الإفك ؛ فمن رماها بالإفك بعد نزول القرآن في شأن براءتها . . فهو
كافر ، كمنكر صحبة أبيها رضي الله عنه ؛ لثبوت ذلك كله بالكتاب
والسنة والإجماع ، ولا اعتداد بخروج طوائف الرافضة - قبح الله رأيهم ،

وأخلى الأرض منهم - فذلك معلومٌ من الدين ضرورة ، فالحمد لله .
وقد وردت في فضل أبي بكر وابنته عائشة من الأحاديث ما لا يكاد
يمكن حصره للأحاديث ، من كثرة الأعداد ، وَيَلِي أبا بكر في الفضل
عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويليه عثمان بن عفان رضي الله عنه ،
ويليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عن الجميع ، ثم بقية
العشرة سواء في الفضل ، ثم بقية أهل بدر ، ثم أهل بيعة الحديبية ، ثم
بقية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .



[جواب المؤلف عن سؤال ورد إليه]

وَهَذَا سُؤَالَ ، سَأَلَ الشَّيْخَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْضُ الرِّجَالِ الْمُتَعَرِّضِينَ
لِنَفْحَاتِ الْوَصَالِ ، فَسُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ^(١) هَلْ ذَلِكَ خَاصٌّ بِهِ كَسَائِرِ مَا
أَخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْمَرَائِبِ وَالْفَضَائِلِ ، أَمْ لِيغْيِرَهُ مِنْ تَابِعِينَ هَدَيْتُهُ نَصِيبٌ مِنْهُ ؛
كَمَا لَهُمْ فِي أُمُورٍ مِنْ فَضَائِلِهِ ؟

فَأَجَابَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَا هُوَ الصَّوَابُ ، مِنْ رَأْيِي الْجَوَابِ ، وَفَصِّحَ
الْخِطَابَ :

إِنَّ قُرَّةَ الْعَيْنِ بِالشُّهُودِ ، عَلَى قَدْرِ الْمَعْرِفَةِ بِالمَشْهُودِ
فَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ لَيْسَ مَعْرِفَةٌ أَحَدٍ كَمَعْرِفَتِهِ
فَلَيْسَ قُرَّةَ عَيْنٍ كَقُرَّتِهِ

وَأِنَّمَا قُلْنَا : إِنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي صَلَاتِهِ ؛ لِشُّهُودِهِ جَلَالَ مَشْهُودِهِ ، لِأَنَّهُ
قَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « فِي الصَّلَاةِ » وَلَمْ يَقُلْ : بِالصَّلَاةِ ؛ إِذْ هُوَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَا تَقَرُّ عَيْنُهُ بِغَيْرِ رَبِّهِ ، فَكَيْفَ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى
هَذَا الْمَقَامِ وَيَأْتُرُّ بِهِ مَنْ سِوَاهُ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامَتِهِ عَلَيْهِ :

« أَعْبُدِ اللَّهَ كَمَا نَأْتِكَ تَرَاهُ » ، وَمُحَالٌ أَنْ تَرَاهُ وَتَشْهَدَ مَعَهُ سِوَاهُ !!

قَالَ لَهُ الْقَائِلُ ^(٢) : قَدْ تَكُونُ قُرَّةَ الْعَيْنِ بِالصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهَا فَضْلٌ

(١) رواه النسائي (٦١/٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) في «غيث المواهب» (٢١٢/٢) : (فإن قال قائل) بدل : (قال له القائل) .

مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبَارِزَةٌ مِنْ مَنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَكَيْفَ لَا يَفْرَحُ بِهَا ؟
وَكَيْفَ لَا تَكُونُ قُرَّةَ الْعَيْنِ وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ :

﴿ قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ١٩

فَاعْلَمْ : أَنَّ الْآيَةَ قَدْ أَوْمَأَتْ إِلَى الْجَوَابِ ، لِمَنْ نَدَبَرَ سِرَّ الْأَخْطَابِ ؛ إِذْ
قَالَ : ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ، وَمَا قَالَ : فَبِذَلِكَ فَافْرَحْ ، يَا مُحَمَّدٌ ؛ قُلْ لَهُمْ :
لِيَفْرَحُوا بِالْإِحْسَانِ وَالْتَفَضُّلِ ، وَلِيَكُنْ فَرَحُكَ أَنْتَ بِالْمُتَفَضِّلِ
كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ قُلْ اللَّهُ تَرَدَّدَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

هذا سؤال جامع ، وجوابه مدرج فيه ؛ وهو بأن يبسط عليه القول ،
كيف وقد جمع فيه رأس العبادات ، وكعبة القربات ، وأول المفترضات ،
وعدة الديانات ؟! سيما صلاة أفضل البريات ، التي احتوت غاية
الكمالات ، وأرفع الدرجات ، وعدة الحسنات ، التي حظي فيها بما
قرئت به العيون ، من كشف السِّرِّ المصون ، والكنز المخزون ، تحت
تجليات الشؤون ، والشهود التام ، والمقام السام ، الذي يتقاصر عن نياله
أكابر المرسلين ، وجهازة العلماء والصدّيقين .

فكل مصلٍ له قرّة عين فيها ، ولكن قرّة العين تتفاوت بحسب
معرفة المعبود ، واضمحلال أعيان الوجود ، للتجلي والشهود ؛ فالرسول
صلى الله عليه وسلم ليس معرفة كمعرفته ، ولا نال مقرب كقربه ، ولا
حظي واصل بمثل وصله ، فلم يكن لأحد قرّة عين كقرّته ؛ فأشارته
بقوله : (فيها) دالة على أنه قرئت عينه بمشاهدة الحبيب من قريب من
غير حجاب ؛ لأن العبد إذا قام إلى الصلاة .. تجلى الله برحمته له في
قلبه ، وقد أشار إلى هذا في بعض الأحاديث : « أنه أقرب إليه من

مصلاه في سجوده»^(١)، وقال أيضاً: «لو يعلم المصلي من ينجي . . ما التفت»^(٢)، وهو صلى الله عليه وسلم حظي برتبة الشهود الحقي .
وأما العلم . . فلغيره ، ورتبة العلم دون رتبة الشهود ، فالشهود هو العلم ، وزاد برتبة الكشف بالعيان ، فوصف سبحانه بالشهود حيث قال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، فهذا هو عين مشهد الرسول بعينه صلى الله عليه وسلم ، شهد هويته ظهور ألوهيته ، فهو الشاهد والمشهود والشهود ، ﴿ وَالْمَلَكُ وَالْوَلِيُّ الْعَلِيمُ ﴾ أيضاً ، شهدوا بما شهد به لنفسه .

فالحاصل من ذلك : أنه لم يشهده حق شهوده سواه ، ولا عرفه حق معرفته إلا إياه ، فالمعرفة : هو ما يعرفه العبد من نعوت سيده ومولاه ، ولا يعرف إلا بقدر ما أشهد سنا تجليّه ، وظهور صفاته وعميم أياديه .
وهو صلى الله عليه وسلم لا تقرُّ عينه بغير ربه ؛ لأنه عرفه ، ومن عرفه . . لم يسكن إلى سواه ، ولا يقر بغيره ، فتبين من هذا : أن لكل في الصلاة قرّة عين بحسب ما أشهده من تجلي ذاته ، وظهور أسمائه وصفاته ، فكيف تكون له قرّة عين في الصلاة بغير ربه وقد دلّ على أن قرّة العين لا تكون إلا به بأمره صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال : « اعبد الله كأنك تراه »^(٣) ، ومحال أن تراه وترى معه سواه ، فدل على أن كمال العبادة بشهوده ، ولا تشهده وأنت شاهد لسواه ؛ لاستحالة الجمع بين الوجود والعدم ، والحدوث والقدم ، والجواز والوجوب ، والحق والباطل ،

(١) رواه مسلم (٤٨٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن حبان في « المجروحين » (١٦١/٢) مرفوعاً عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٨) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .

والنور والظلم ؛ لذلك قال المؤلف : (محال أن تراه وترى معه سواء) .

فهذا جوابه عن معنى الحديث على منهج المقرئين ، وطريقة العارفين ، ومشهد الصّديقيين .

فأل السائل ثانياً عن حالة الأبرار وعموم المؤمنين بقوله : (قد تكون قرة العين بالصلاة ؛ لأنها فضل من الله تعالى وبارزة من مئة الله عز وجل ، فكيف لا يفرح بها ، وكيف لا تكون قرة العين بها ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ يَفْضَلِ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ (١٢) وصدق فيما قال في السؤال ؛ فهذا لرجال ، وذاك لرجال !!

فقال له الشيخ مجيباً عن سؤاله ومبيناً لمقاله : (واعلم - لأن العلم في مثل هذا المقام هو الذي يحسن فيه الكلام ؛ لأنه مقام السائل ، وغناء الفقير العائل - أن الآية الذي فهمته منها قد أمأت بلطيف سرها إلى الجواب) .

وهذا هو حكم الكلام الجامع المعجز المنزّه عن الحدوث ؛ أنه يفهم لكل قوم على قدر مقامهم ، ويفصح لهم عن مجمل كلامهم ، ولكن أسراره لا تلوح إلا لمن تدبّره ، وعرف ظاهره ومضمره ، وحقّق معانيه وفسّره ، والسر وراء ذلك كله لا نهاية لتجليات أسراره ينتهي إليها في الدار الآخرة ، فضلاً عن توقف على كليات أسراره ، أو يشاهد مشرقات أنواره في هذه الدار .

ففهم في الآية السائل الفرح بالفضل ، وفهم فيها المسؤول - رحمه [الله] - الفرح بالمفضل ؛ كما هو شأن من وصل إلى مقامه ، وحصل على غاية مرامه ، وتجلّى له بدر التجلّي في تمامه ؛ أن يغيب برؤيته عن إنعامه ، وقرّة العين ما يجده فيها من عظيم اللذة والروح والسرور ، كيف

لا وفيها مناجاة الحبيب من قريب ؛ لقوله سبحانه : ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ١٢
 وقرة العين فيها لا تكون وفي القلب المحادثات الكونية ، والخطرات
 الهوائية ، والشهوات الحيوانية ، والحفظ النفسانية ، والدواعي الشيطانية ،
 والكثائف الأرضية الطبيعية ، بل لمن فني عن نفسه بالكلية ، فتضرب
 بين هذه الحجب سرادق التولي الخاص ، وتغشاه أنوار الإخلاص ،
 ويستريح عن مدافعة الأعداء ، فيكون لطيفة من لطائفه : مشهد خاص
 في التكبير ؛ بالتسليم للأمر ، والانقياد للحكم ، وفي القراءة والقيام ؛
 بالتخلق والمناجاة والتذلل ، ويذل ويخضع ويخضع ، والترغيب وغير
 ذلك مما تفتح به القلوب ، وتكاشف به الأسرار من الأنوار ، فكيف لا
 تكون قرة العين فيها بهذا النعيم والروح والسرور ، والإقبال والحبور ١٣
 وأما إذا كان القلب مشحوناً بالوساوس الشيطانية ، والشهوات
 الحيوانية ، والأسباب الدنياوية .. فكيف تنكشف له هذه المواهب
 والمنوح ، أو يواجه بتلك المنن والفتوح ١٤

فإذا رفع الحجاب ، ودنا الحبيب من الأحباب .. نوالى الفرح به
 والسرور ، فيجوز ألا يفرح بغيره ، ويقال له بلسان الحال في ذلك المقام :
 ﴿ قُلِ اللَّهُ تَرَدَّهُمْ فِي حَوَائِجِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ، ولي في ذلك :

فقرة العين بالمحبوب موضعها	في العبادات حسب الطالب النظرا
كما روي عن عفيف الدين مغربها	كما يرى الله فاسمع ذا وكن حذرا
عن أن تصور في الأذهان له مثلا	ولا شيبها ولا نداء ولا نظرا
فحضرة القرب أعلاها وأقربها	في الصلاة روى ذا السادة الكبرا



[الناس ثلاثة أقسام في ورود المنن]

ولما كان الفرح بالحبيب مطلوباً من المحب . . ذكر المؤلف
بإثر ذلك الفرح وحده ، فقال في بعض ما كتب به لبعض خواص
الإخوان :

النَّاسُ فِي وُرُودِ الْمَنَنِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ :
فَرِحَ بِالْمَنَنِ لَا مِنْ حَيْثُ مُهْدِيهَا وَمُنْسِيهَا ، وَلَكِنْ بِوُجُودِ مُتَعَبِي فِيهَا ؛
فَهَذَا مِنَ الْعَافِلِينَ ، يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً ﴾

وَفَرِحَ بِالْمَنَنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مِثَّةٌ بِمَنْ أَرْسَلَهَا ، وَنِعْمَةٌ بِمَنْ أَوْصَلَهَا ،
يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

وَفَرِحَ بِاللَّهِ تَعَالَى مَا شَغَلَهُ مِنَ الْمَنَنِ ظَاهِرٌ مُتَعَبِيهَا ، وَلَا بَاطِنٌ مِنْتَهَا ، بَلْ
شَغَلَهُ النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ عَمَّا سِوَاهُ ، وَالْجَمْعُ عَلَيْهِ فَلَا يَشْهَدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، يَصْدُقُ
عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ اللَّهُ نُورٌ دَرَّهَمٌ فِي حَوْضِهِمُ يَلْعَبُونَ ﴾

هذا تقسيم مناسب للتقسيم ، إلا أن هذا بالفرح بالنعمة من حيث
هي نعمة ، وفرح بها من حيث هي فضل من سيده ، وفرح به دون ما
سواه ، واكتفاء به دون ما عداه .

والفرح ورد في القرآن ما هو منهى محض ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَا تَفْرَحْ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ ، ونحو قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُرِحُوا بِمَا
 أُوتُوا ﴾ ، ولكن هذا بالفرح بالأعراض الفانية ، والزخارف الملهية ،
 المشغلة عن الله ، الحاجة عنه ، الصاذة عن عبادته ؛ وهي النعم
 الدنيوية ، والحظوظ النفسانية .

وفرح مندوب إليه ؛ بالفضل الصادر من المُفْضِل الجواد ، من حيث
 إنه منه فضلاً وذكراً وعناية بشأنه ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ
 وَرِزْمَتِيهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ؛ لأنه صادرٌ من تفضُّلنا وتطوُّلنا ، فالفضل ما
 ظهر من ملائمت النعم ، والرحمة ما أشهده إياه من كونها منه رحمة
 وعناية وقياماً بشأنه ، والله أعلم .

وأما القسم الثالث - وهم أهل الكمال البالغون نهاياته ، والواصلون
 إلى أبعد غاياته ؛ من الأنبياء وسادات الأبدال وأكابر الأولياء . . . فإنهم
 قد غابوا عن الأكوان بالكلية ، وباينوا النفوس ، وشربوا لذيق الكؤوس ،
 من تجلِّي الملك القدوس ، وقسمته هذه حسب ما قدمه في أحوال
 الناس عند ورود النعم عليهم .

فمن فرح بها ، محجوباً عن موردها ومنشئها . . فهي في حقه
 استدراجٌ وتمتعٌ وحنةٌ وحجاب ، فيغفل عن شكر موردها ، فيذاق
 أليم عقاب كفرانها ، ونسيان المتفضِّل بها ، إلا أن يتدارك بالتوبة ،
 ومن كان حاله الفرح بالنعمة دون الله . . فلا يخفى ما هو عليه من
 دناءة الهمة ، وقبح الحال ، ورذالة الفعال ، فهو يسعى في غير منال ،
 ويطلب ما عاقبه عليه وبال ، فحاله أقيح من الأنعام ؛ لأنه في غاية
 البعد عن الشكر .

وقسم ثانٍ نال نصيباً من الشرف ، وحصل على حظ من القرب ،
ونصيب من الشكر ، ولكنه دون مرتبة القسم الثالث .

فالقسم الثاني : هم العاملون على نيل الجزاء ، والقائمون على التقليد
والاقتفاء على مناهج السلوك ، الذين لم يخرجوا بعد عن رؤية نفوسهم
أن منها ولها ، فهم مطالبون بإخلاص ما عملوا ، وتحقيق ما علموا ،
وشرفهم من حيث إنهم ذكروا المنعم بورود نعمته ، فهم على مقام من
الشكر ، غير أنهم لم ينالوا كل العناية ، فالشكر له مراتب ثلاث حسب
حالة أرباب المقام ؛ [فمنهم]^(١) الكامل والأكمل .

والفرح : هو الابتهاج بالمفروح به ، والسرور : هو الشكر نفسه ، إلا
أن الشكر يعم الباطن والظاهر ، والقول والفعل والخلق .

فأول مراتب الشكر وأقربها على العباد : هو ألا تعصيه بنعمته ،
وأوسطها : هو أن تصرف ما أنعم به عليك فيما ندبك إليه ، وأكمل
من هذا : هو أن تغيب عن النعمة بالمنعم ، فتكون به له ، لا بشيء ولا
لشيءٍ دونه ؛ فهذا هو الشكور المعروف بين هذه الأصناف بلا تعريف ،
ولي في ذلك :

الناس في واردات الفضل والمنن ثلاثة ولهذا القول كس فطن
فيفرحون بها من حيث هي نعم موافقة كل إسكافٍ وكل دني
ومن يكن في مقيام العلم يشهده من حيث هو منته يفرح به ولا يكن
لكن يكن فرح الأحباب مطلبهم ألا يروا غيره في السر والعلن

(١) في النسخ (فمن) بدل : (فمنهم) .

وَفِي أَخْبَارِ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (قُلْ لِلصَّادِقِينَ مِنْ عِبَادِي : بِي فَأَفْرَحُوا ،
وَبِدِكْرِي فَتَنَعَّمُوا)^(١)

فلا يكون صديقاً وله إلى الأغيار نظر وإقبال ، ولا تتحقق المقامات
إلا بشواهد الأحوال والعلامات ؛ فعند ورود الأمر الواحد يتحقق المقرُّ
من الجاحد ، والمدير من القاصد ، وتتمايز بالأفعال المقاصد ، فيظهر في
مقامات الامتحان الخرز من المرجان ، والفرحون بالله : هم أهل الروح
والطرب ، ويحق لهم حيث نالوا غاية المراد والأرب ، ولي في ذلك :

ومن نظر وجه من يهوى يحق له أن يطرب الكون من ألحان مغناه
ويعتريه عظيم الوجد كيف به لو أسفرت من حجاب البعد عيناه
دار الوجود ودار الكأس واطربا مما يعاين من أنوار علياه
كادت على ذلك أرواح تطير أسى إذا حدا حادي الوجدنا بمغناه
ولما كان الفرح بالله من أجلّ المراتب وأقصى المطالب .. طلب
المؤلف رحمه الله الوصول إلى ذلك ، والتحلّي بما هنالك ، فقال :

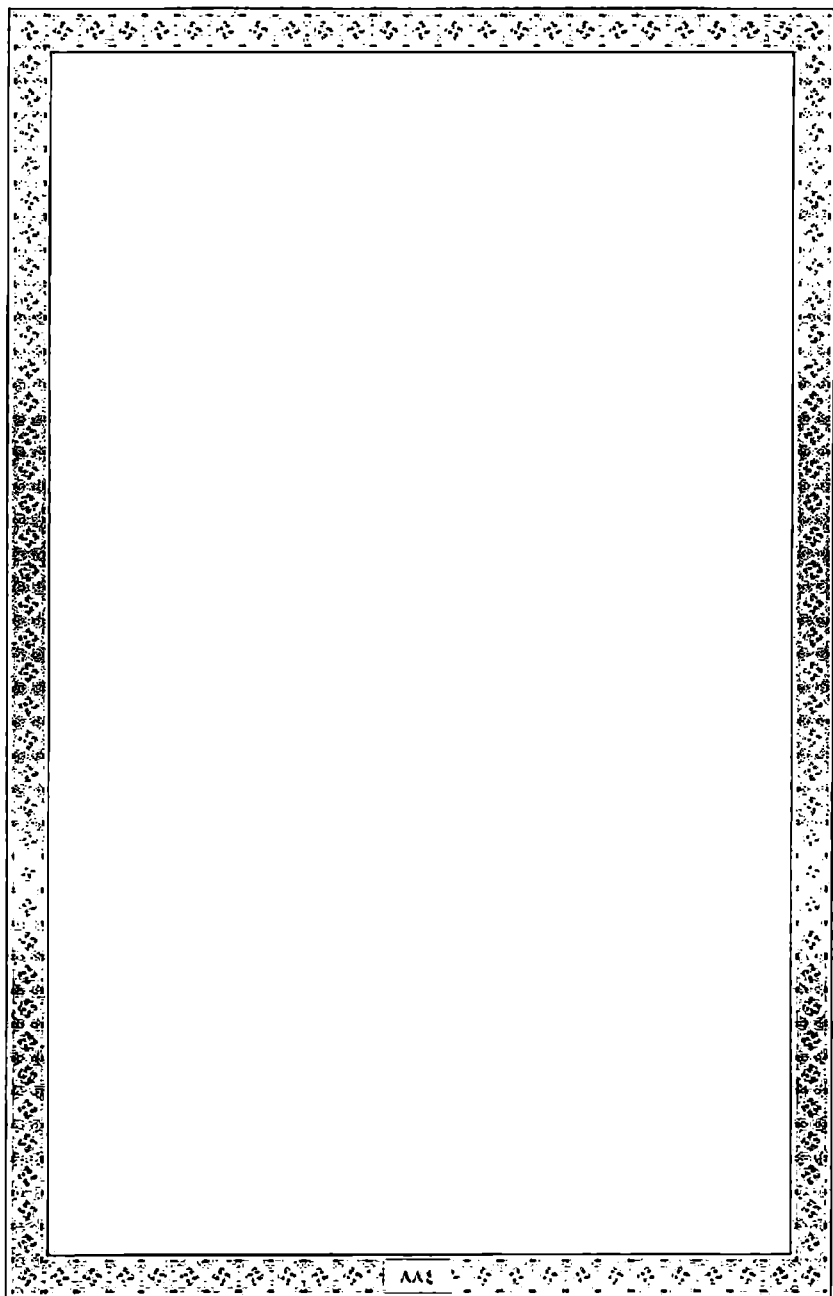
وَاللَّهُ يَجْعَلُ فَرَحَنَا وَإِيَّاكَ بِهِ ، وَيَأْلِزُصَا مِنْهُ ، وَأَلَّا يَجْمَعَنَا مِنَ الْغَافِلِينَ ،
وَأَنْ يَسْلُكَ بِنَا مَسْلِكَ الْمُتَّقِينَ ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ

فالله يجعلنا كذلك وأحبابنا في الدين ، ومن أحاطت عليه شفقة
قلوبنا ، ومن له علينا حق من المشايخ في الدين ، والأولاد والوالدين ،

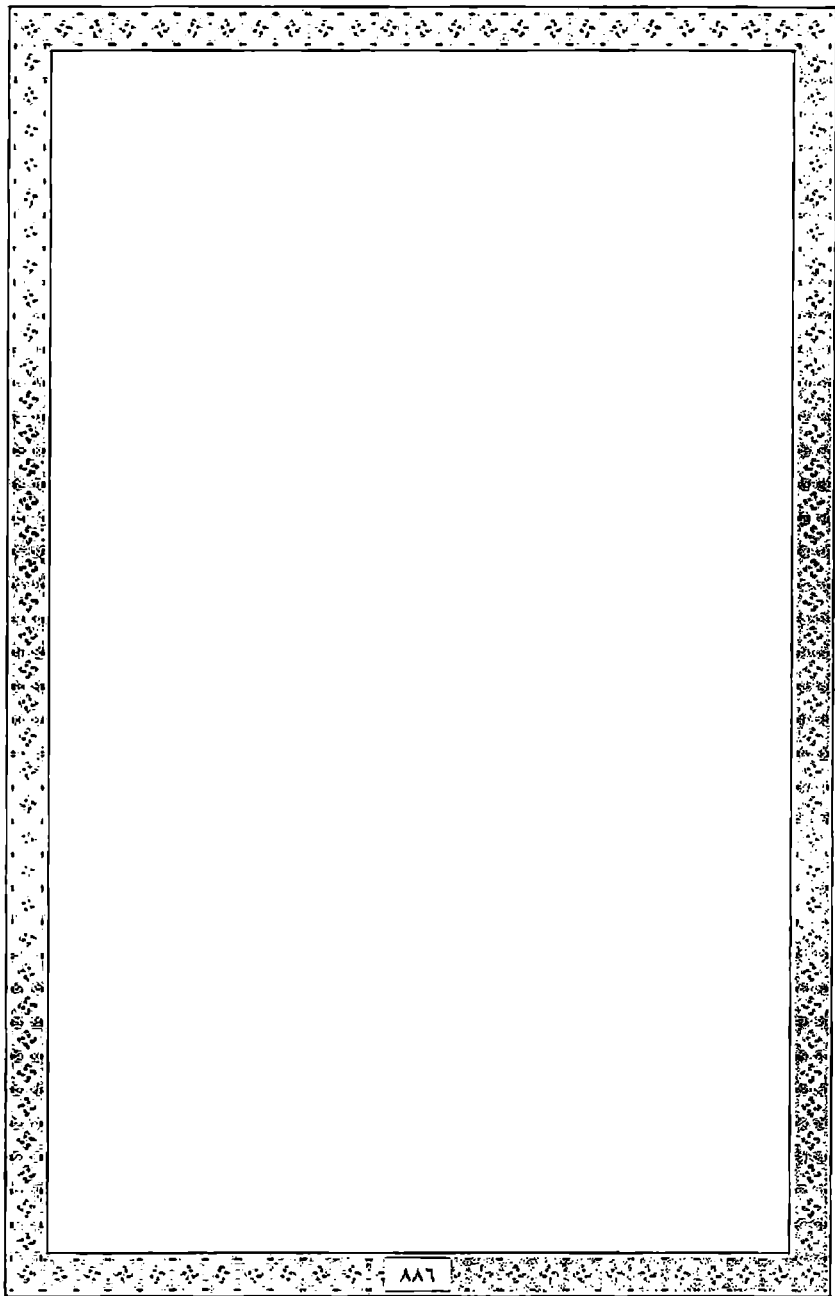
(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٧/٨) عن محمد بن النصر أنه قرأه في بعض الكتب .

ومن أحبنا في الله أو أحببناه ، ووالانا في الله وواليناه .
وألا يجعلنا من الغافلين الفرحين بالأغيار ، المطموس على أسرارهم
بظلم الآثار ، الذين سلكوا طريق الكفران ، وانقادوا بأزمة الأهواء لداعي
الشیطان ، ونسوا عبادة الرحمن ، وانحجبوا بظواهر الأكوان .
وأن يسلك بنا مسالك المتقين الذين قدروه حق قدره ، وكانوا نصب
نهيه وأمره ، بمته الفائض وكرمه العميم ، أمين ، بعد الصلاة والتسليم
على خاتم أنبيائه وسيد أصفیائه محمد الأمين ، وآله الأكرمين ، وصحبه
المكرمين ، نجوم الدين ، وأعلام اليقين .





المنهاج إلى الإلهام
للإمام ابن عطاء الله السكندري
رحمه الله تعالى



المساجاة الإلهية

وهنا أخذ في المساجاة لما انتهى إلى مقام المصافحة ، وبه تمام الكتاب ، فقال رضي الله عنه :

إِلَهِي ؛ أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي ؟
إِلَهِي ؛ أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهْلًا فِي جَهْلِي ؟

لما كان اسم الألوهية له التكبر ، وتجلى في سائر المظاهر الملكوتية والملكية والجبروتية ، الحسية والمعنوية ، الشهادية والغيبية ؛ وذلك لما اقتضت أعيان الوجود من التغاير والكثرة والاختلاف ، وهو مع وحدته إله بكل معنى ، ويعمُّ سائر الأسماء الجلالية والجمالية التي سائر الأكوان موجودون عن تأثيرها ، وظاهرون بمظهر منها ، فيكون بهذا الاعتبار لذوي الاستبصار الإله بمعنى المعبود بحق ، والمستغني بذاته ، المفتقر إليه ما سواه ، والموجود والمرجو والمخوف ، والمحبوب والمقصود والموصوف بكوامل الأوصاف ، والمعروف بمحاسن الأفعال ، وغير ذلك من سائر ما يظهر نحساً ومعنى ؛ فالحق هو الإله ، وبمعنى الحق الظاهر وسائر الأسماء .

فلذلك كلما ظهر العبد في وصف من صفاته . . شهد حقيقة تلك الصفة ، فردّها لمن هي له حقيقة ، واتصف بما هو الأصل له دون إلهه . ولما تجلّى الحق له في شاهد سره بسر الغنى المطلق الديمومي ،

وأثر ذلك الوصف الإلهي ظاهرٌ أثره على صفحات الوجود ، وبإد مظهره على كل معاين موجود ، بالقيام به في كل حركة وسكون . . ظهر - لا محالة - افتقارُ العالم بأجمعه علوه وسفله إلى إقامة القيوم ، الدائم به وله في سائر الأحوال والقوى .

وإذا كان الأمر كذلك . . فالعبودية أن تعرف وصفك وما هو نعتك ؛ ليمدك من فائض فضله ، لأن كل اسم يظهر أثره يقتضي حقاً من العبادة ، ولا يكون عبادة حقيقة إلا ما كان صادراً عن معرفة المعبود وكماله ، ومعرفة العبد ونقصه واضطراره ، وذلته تحت قهر المعبود وجلاله .

واسم الألوهية من أخص ما يتوسل به المألوه ؛ لأنه لا يخفى ما في دعائه بهذا الاسم من الاعتراف لله بكمال ألوهيته ، وعظيم ربوبيته ، وما العبد عليه من الانضاع في أرض افتقاره وتراب ذلته ، فقال : (إلهي) فشهوده للألوهية أولاً . . دليل كمال معرفته ؛ لأن لها الأصالة ، فاقضاء مقام العبودية لهذا الإله المعبود أن لا بد للعبد من إنِّيَّة ، فقال : (أنا الفقير) وذلك من أحسن آداب العبيد ؛ أنها لا تظهر إنِّيَّة إلا مقترنة بوصفها ؛ ومتدعة بنعتها ، والفقير له وصفٌ في الذات والصفات والأفعال ، بل في نفس وجودها مفتقر إلى موجدته أولاً ، وقائم في حال وجوده ، وممد له مواد صفاته ، ومجري له أسباب أفعاله ؛ فكان فقيراً لا محالة ، والسؤال بهذا الوصف أقرب للإجابة ، بل لا يُقَرَع باب الرب بمثل التملُّق إليه بهذا الحال .

وإذا علم ذلك - أي : أصالة الفقير له - . . علم أنه فقير لا يزيله افتقاره ، ولا يفارقه اضطراره في سائر أحواله ، وظهور الغنى على العبد بالأسباب الدنياوية والدرجات الأخرافية لا يزداد بها إلا افتقاراً إلى افتقاره ، فعلم

أن الفقر أبداً وصف للعبد ، وأن الغنى لله دائماً سرمداً .

فإذا كنتُ فقيراً في غناي . . فكيف لا أكون فقيراً في فقري إلى الأشياء
في كل حين وأوانٍ وزمانٍ ومكانٍ!؟

فالعنى : هو أن تستغني عن الشيء المفتقر إليه ، والعبد لو كان
مستغنياً عن الأشياء . . لا يكون استغناؤه عنها إلا أن يشهد من وجوده
ما يكون مستغنياً به ، وذلك - لا محالة - يحتاج إلى كشف الغطاء عن
قلبه ، وهو أعز سبباً ؛ لأنه لا يدرك بحيلة ولا اكتساب ، فكان الافتقار
إليه أعظم ، فإذا كان فيما يرى أنه غني فقيراً . . فكيف لا يكون فقيراً
وهو أبداً محتاجٌ ومضطربٌ إلى الأسباب!؟

وكذلك العلم لله وصفاً وحقيقة ، وللعبد مجازاً وعطاء من جملة
العطايا ، ومزية من جملة المزايا ، وهدية من سائر الهدايا ، فإذا كان
كذلك . . علمت أن الأصالة فيك الجهل ، ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ
أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ .

فلولا مددك إياي فيما أعلم في كوني عالماً . . لم يثبت علمي
معي ، ولولا حفظك له عليّ . . لم أكن حافظاً ، ولولا إجراؤك أسبابه
لي . . لم أكن له متيقظاً ، فصح أنني جاهلٌ في علمي لو وهبت لي سائر
العلوم ؛ لأنَّ نسبتنا إليّ مجازية .

فالعالم حقيقة : من يعلم الأشياء وكيفياتها وهياتها في إجمالها
وتفصيلها قبل إبراز صورها إلى عالم مظهريتها ، وليس ذلك إلا الله .
فأنا في حال توهمي أنني عالمٌ . . جاهلٌ ، فكيف لا أكون جاهلاً
في جهلي بسائر الأشياء!؟ فلا أعلم مجاري الغذاء مني ، ولا تصاريف
الأقدار فيّ .

كيف وقد وصف الله الإنسان بالجهل ؛ كما وصف نفسه بالعلم
فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فقال في وصفه أيضاً : ﴿ يَعْلَمُ ﴾
بالماضي ، يشير إلى قدم العلم له ، ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ بالحال ، يشير
إلى أنكم لا تعلمون في حال وجودكم !؟

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ولكن هو الوصف كما وصف
نفسه بالعلم بالأشياء : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ، فإذا كنت جاهلاً
في علمي .. فكيف لا أكون جهولاً في جهلي وأنا لا^(١) أعلم ماذا
يجري عليّ !؟ وكيف أنا في عالم تركيبي الذي هو مشهود لي !؟ فلقد
حقق الاعتراف ، وبيّن مقاصد الإنصاف ، وعرف ما للعبد من الأوصاف ،
فجزاه الله خيراً ، ولي في ذلك :

من كان في وصفه بالحظ مفتقراً فكيف لا وهو محتاج ومفتقرا
ومن يكن جاهلاً في علمه فعلى ما لا يكن جاهلاً في الجهل محتقرا

إِلَهِي ؛ إِنَّ أَخْتِلَافَ تَذْيِيرِكَ ، وَسُزْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ ، مَنَعَا عِبَادَكَ
الْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إِلَيَّ عَطَاءً ، وَالْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ

فلما كان تجلّي أولاً عليه بصفة الغنى والعلم .. تلقاها بوصف الفقر
والجهل ؛ اللذين هما اللاتقان به في هذا المقام ، فتجلّي له بوصف
إرادته وقدرته ، فأعطاها حقها ، فقال : (إلهي) لأنه تجلّي بوصف
الإرادة المتفرعة عن العلم ، ثم تجلّي له بوصف الاقتدار ، فقال في مقام

(١) في (أ ، د) : (كما) بدل : (لا) .

الاعتذار ، والتبهُلُ بلسان الاضطرار ، والتعلق به في مختلفات الأقدار ،
وواردات تعاقب الآثار في الأطوار : فهذا هو الذي أوجب لذوي البصائر
والأبصار ألا يسكنوا مع الأغيار ؛ من جنة أو نار .

فلما رأوا سرعة اقتداره ، واختلاف ظهور مشيئته في أقداره .. لم
يسكنوا إلى ما يجدون من الأحوال ؛ لأنها - لا محالة - حائلة ، فكان
هذا الذي أفلت قلوب المحبين ، وكدّر صفو صفات المكاشفين ؛ خوف
تبديل ما هم عليه ، كما جرت بذلك الأحكام على أقوام أنزلوا بعد رفعة
المقام إلى مراتب العوام ، بل أقبح حالاً من الأنعام ، نعوذ بالله من سوء
ما سبقت به الأقدار ، وانبرمت به الأحكام ، وكان رسول الله صلى الله
عليه وسلم لما رأى سرعة تقلّب القلوب تحت أستار الغيوب .. يقول
في قَسَمه : « إي ومقلّب القلوب » (١) .

وكما أنها أورثت ألا يسألوا حالاً يكونون عليه من الأحوال السارة ..
كذلك أورثتهم حسن الظن بالله ، وعدم اليأس من روحه ، وتفريج ما
ينزل بهم من المهمات ، ومعضلات البليات ؛ لسرعة تغليب الأحوال ،
وسرعة حلول المقادير ، وهلكذا تكون أحوال العارفين ؛ لا يسكنون مع
عطاء ، ولا ييشسون عند حلول بلاء .

ولي في ذلك :

إن اختلاف مقادير الإله على عباده لم تدع في الكون مأنوس
كذاك لم يك للبلوى مقاومة لذي الشدائد والضراء والجنوس



ناداه ناكثاً بما هو المعهود من جميل فعله ، وما هو اللائق بكمال

(١) رواه البخاري (٦٦١٧) بنحوه عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

نعته في مقابلة ما العبد عليه من النقص في الأفعال ، وارتكاب ما يعتذر
منه من الخلال ، فقال بلسان الاعتذار والانطراح والإقرار :

إِلَهِي ؛ مَنِّي مَا يَلِيْقُ بِلُؤْمِي ، وَمِنَكَ مَا يَلِيْقُ بِكَرَمِكَ

(إلهي) بمعنى الكريم المتطول ، والمَنَّان المتفضِّل (مَنِّي
ما يليقُ بلؤمي ، ومنك ما يليقُ بكرمك) فلؤمي يقتضي معاقبتي
ومعاتبتي ، ومنك ما يليق بكرمك من العفو والتجاوز والصفح ؛ كما
هو وصفك .

فشأن العبد إذا أراد الدعاء للكريم المُفْضِل : ألا يُقَدِّم بين يدي دعائه
إلا الاعتذار ، بين يدي القادر الجبَّار ، ودوام التضرُّع والاستغفار ، من
الذنوب والأوزار ، بين يدي العفو الغفار ؛ فإن الكبائر مع ذلك يرتجى
غفرانها ، وتجلّى عن القلوب ظلماتها ورانها ، ويشهد ما روي : « أن الله
يفرح بتوبة عبده واعتذاره إليه »^(١) ، ويروي أيضاً : « أن العبد إذا أذنب
الذنب وقال : يا رب . . فتحجب دعاءه الملائكة عن الله حياءً من الله
أولاً وثانياً وثالثاً ، حتى يدعو رابعاً ، فيقول الله عز وجل : لبيك عبدي ؛
إلى كم تحجبون دعاء عبدي عني » أو كما قال^(٢) .

فهذا وما ورد في الكتاب والسنة مما يقتضيني أن الله يحب من

(١) رواه مسلم (٢٦٧٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) روى البزار في « مسنده » (١٣٠/١٨) ، مرفوعاً من حديث السيدة عائشة رضي الله
عنها : « إذا قال العبد : يا رب يا رب أربعاً . . قال الله تبارك وتعالى : لبيك عبدي ، سل
تعطه » .

عبده الاعتذار إليه والرجوع بالتضرع والاستغفار له ، مما لا يكاد يدخل تحت الحصر والعدِّ ، وهذا هو الحكمة - والله أعلم - في تقدير الذنب على المؤمن ؛ كما ورد : « لو لم يكن الذنب في بعض خيراً للمؤمن من العجب .. ما قُدِّرَ عليه »^(١) ، ولي في ذلك :

فكل ما كان من لؤمٍ ومن زللٍ فلاتق بي وشان الله غفرانٌ
فالعفو أرجى لأن الله مُتَّصِفٌ به ولا حرج أن يعف رحمانٌ



فاسمه العفوُّ ، إذا تجلَّى .. محاذات الأثار الحادثة والأوهام الزائلة ؛ وهو من أخص تجليات الجمال ، فعند تجليه تظهر الصفات الأزلية ، والتجليات اللطفية ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِلَهِي ؛ وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي ، أَفْتَمْنَعُنِي
مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي ؟

(إلهي) بمعنى اللطيف في عظمته ، والعطوف في سابق مئته (وصفت نفسك باللطف والرأفة قبل وجود ضعفي ، أفتمنعي منهما بعد وجود ضعفي ؟) فوصفه لنفسه في أزاله بكلامه القديم الدائم . قوله عز من قائل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالتَّائِبِينَ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، وقوله أيضاً : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ ، هذا قبل وجود الخلق وصفاتهم التي هي الضعف والعجز ، وصفاته لا بد وأن تظهر آثارها ، وتتجلَّى أسرارها ، والخلق

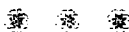
(١) تقدم غير مرة ، وتخريجه في (ص ١٣٩) .

وصفاتهم محل ظهورها ، ومجلسي نورها ، فكيف يمكن اتصافه بهذه الصفات ولا يظهر لهم محل ظهورها ، ومجلسي كوامل بدورها ؛ دون العباد وصفاتهم !؟

ومرادُ المصنف : الوصفُ الذي يقتضي ظهوره وجودَ ضعف العباد ؛ لمقاومة تجليات العدل ، وغلبات الحكم ، والناس من الوسائل والحيل ، وشقوق الشفاه وسيلان المقل ، على التفريط واقتراف الزلل ، وبيان مستتر العمل حين يتخلف عنك كل حبيب ، ويقلاك كل قريب ، وينساک كل حميمٍ ونسيب ، فهناك يتحقق تجلي ظهورها ، وترتفع الحجب عن ستورها ، فيبدو للعباد ما لم يكن لهم في حساب ، ولا سُطر في كتاب ، من توالي العطاء والثواب ، يكون منه السؤال ، وعليه الجواب ، فيعتذر الله سبحانه إلى عبده ؛ كما ورد .

وقولنا : (منه السؤال وعليه الجواب) هو الحق كما نطق به الكتاب ، قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا بِإِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقُتُوبِ ﴾ ، فهذا قوله بنفسه لنفسه في كلامه العزيز ، فكذلك يكون جواب الأتباع على السنة المتبوعين ، والمدعزين على السنة الداعين ، ولي في ذلك :

وصفت نفسك باللطف العميم ولا موجود غيرك يا فرد بلا مثل
فكيف تمنع من قامت به حلل ضعف وعجز وأنت المفضل الأزل



فلما كان العبد قد يظهر أفعالاً محمودة وخصالاً شريفة .. اعترف المؤلف بقوله :

إِلَهِي ؛ إِنْ ظَهَرْتَ الْمَحَاسِنُ مِنِّي .. فَبِعِزَّتِكَ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ ، وَإِنْ
ظَهَرْتَ الْمَسَاوِي مِنِّي .. فَبِعِدْلِكَ وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ

(إلهي) بمعنى المَنَّان المتفضِّل بصنوف الفضل والإحسان (إنْ
ظَهَرْتَ المحاسنُ مِنِّي .. فبِعِزَّتِكَ وَلَكَ المِنَّةُ عَلَيَّ ، وَإِنْ ظَهَرْتَ
المساوي مِنِّي .. فبِعِدْلِكَ وَلَكَ الحُجَّةُ عَلَيَّ) هذا من أحسن ما يناجي
به الحبيب ، ويتضرَّع به العبد الأديب ؛ وهو الاعترافُ لله بما أولاه
من الإحسان ، وأفاضه عليه من النعم والامتنان ، وإقامته النفس مقام
الاعتذار ؛ لأن المحاسن المشار إليها في كلام المؤلف .. هو ما يظهر
على العبد من صنوف الطاعات ، وأفعال الموافقات .

وليس ذلك مقدوراً للعبد ، بل هذا فضلٌ أبرزهُ عليه من عين
مَنته ، وأفاضه لديه من سابغ رحمته ، وإلا .. فمن أنت حتى تقوم له
بحق العبودية وأنت متلطِّحٌ بقاذورات البشرية ، منغمسٌ في غمرات
الشهوات؟! فأنى يكون منك عملٌ صالح ؛ إن لم تخلص من رؤية
الخلق وظهور النفس؟! وهذا لا يصلح أن يقابل به ، أو يعرض بين أهل
حضرته ، وقد قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ .

فإذا حصل العبد على شيء مما يصلح للعرض عليه من خالص عمل
أو حالة حميدة .. فإنما ذاك بارزٌ على العبد من عين مَنته ، لا مقدرة
للعبد على تخليصه وتركيبه .

وإن ظهرت المساوي ورتائل الأحوال وقبائح الأعمال .. فبعيدك ،
ولك الحجة عليّ ؛ لأن نسبة الأفعال الملوثة والأخلاق المشؤومة إليّ
نسبة وإسناد ، وإلى عدلكِ خلقٌ وإيجاد ، وهذه حالة الأدباء ؛ يشهدون

المحاسن من الله ، لا نسبة لهم فيها ، ولا اقتدار لهم عليها ، ويشهدون
نسبة المساوي إليهم ، فيندمون عليها مع ما هم يشاهدونه من سبق
الإرادة بذلك ، وحكم الاقتدار فيما هنالك ، فهم معتذرون منها ظاهراً ،
ستسلمون للحكم باطناً ، ولي في ذلك :

فرؤية الفضل والإحسان نسبتها إلى الإله فلا يأتي بها إلاه
وما يكون من الأسوأ فنسبتها إلى العباد وحكم الله أنشأه



وهذا مما يقتضي سرعة الإجابة والإسعاف والظفر بالمطلوب ؛ لأنه
جاءه بوصفه ، واعترف له بنعمته عليه وفضله ، واعترف بتقصيره ، فلم
يكن التفات إلى غير فضله ، ومع ذلك هو مشاهد لتقديره وعدله ،
فجدير بنيل المطلوب .

فإذا كانت أسماؤه تقتضي ظهور آثارها .. أخذ في بيان تفاصيلها ،
وأسماء الجمال هي التي يحسن أن يتضرع بها ، ويتهل إلى مضمونها ؛
لأنها تضمنت للعباد دقائق اللطف والوداد ؛ لذلك قال :

إِلَهِي ؛ كَيْفَ تَكِلُنِي وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي ؟ وَكَيْفَ أَضَامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ لِي ؟
أَمْ كَيْفَ أَحْيَيْتُ بَنِي ؟

(إلهي) بمعنى الوكيل الكافي الناصر الجفي ؛ وهو اللطيف (كيف
تكلني وقد توكلت لي ؟ وكيف أضام وأنت الناصر لي ؟ أم كيف
أحييت وأنت الحفي بي ؟) كيف تكلني إلى نفسي وتهملني تائهاً
في ظلمات حسي ، وتحجيني عن مشاهدات أنسي ، وفسح حضرات

قدسي ؛ وقد تسميت قبل بروزي بأنك الوكيل الحافظ الكفيل !؟

فظهر اسمك الوكيل يقتضي توكلي في سائر أموري ، ولا تتركني موكولاً إلى عجزى وضعفى ، وعدم علمي بما هو الأصلح لي ، بل يقتضي تأثيره في أن تتوكل لي في جميع حركاتي وسكوني ، وظهوري وبطوني ، وسائر أموري ، حتى تصرفني بحسن اختيارك لي فيما هو المطلوب مني ، واللائق بمقام الشهود مني ، فتقيمني بك لا بي ، وتشهدني وجودك في الأكوان غائباً عني ، فانياً عن عالم كونيتي ، باقياً بك في ديمومية ملكك ، فأحيا حياة الأبد بقيومية الواحد الأحد .

وكيف أصام بقهر الأنام وغلبة الأحكام وجور الحكام وأنت الناصر لي !؟ لأنك صرت لي وكيلاً ؛ وبسائر أموري كفيلاً ، فلم يبق لي على سواك تعويل ، فمن كنت له ناصرأً وكيلاً ، ولأعدائه مقاوماً . فلم يظهر عليه المتظاهرون ، ولا يعبأ بعدد الجنود المتناصرين ، قال صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله لوطاً ؛ لقد أوى إلى الركن الشديد »^(١) ، عند قوله : ﴿ أَوْءَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

أم كيف أخيب من فضلك العظيم وكرمك العميم الذي نال^(٢) أهل الجحود والضلال وأنت الحفي اللطيف بي !؟ كما قلت : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ ، وقلت في سبوح رحمتك وتجليل منتك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِآلِنَاسٍ لَّرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فكيف تخيب آمالي من عطائك !؟ وكيف ترجع بخيبة من نصرتك وولائك !؟ أم كيف تعود آيسةً من روح منتك ورجائك !؟ حاشا صفاتك العلية وتجلياتك الأزلية عن ذلك ، ولي في ذلك :

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) في (أ ، ب) : (قال) بدل : (نال) .

أنت الوكيل وكل الكون مفتقر إليك يا كافي الذرات في الأزل
فلا تكُنني إلى نفسي وأنت لها نعم الوكيل ونعم الناصر العدل
فلا يضام نزيل الله منتصراً ولا يخيب الذي بالله متصل

ولطف الله بعبده لم يتخلف عنه في سائر أحواله وإن كانت مؤلمة
له ؛ فهو أعلم بدقائق الألفاظ ، فلا يفارق العباد لطفه ، فما يحمله إلا
هو ، وإذا علمت أن لا وسيلة للعبد أرجى من اعترافه بوصفه بين يدي
سيده .. أخذ المؤلف رحمه الله في التوسل إلى الله فقال :

هَذَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ

والتوسُّلُ بالفقر شأن الأدباء ؛ إنهم لا يرون وسيلة منهم أرجى
ولا أنفع ولا أقرب من الاعتراف بذلِّ العبودية ، عند مواجهة تجليات
الربوبية ؛ فالإقرار بالافتقار بين يدي الغني الجبار .. صفة الأخيار .

والوسيلة : هي ما يقدِّمها المتوسِّل بين يدي من يتوسل إليه ، إذا
كانت من خير الأعمال .. سُميت وسيلة ، وإذا كان من الوسائط .. سمي
شفيعاً ، وقد تسمى الوسيلة شفيعاً ، والشفيع وسيلة ، ولا مشاخة في
اللفظ إذا عُرف المعنى .

فلا أرجى للعبد عند الله من الوسيلة مثل اعترافه له بصفات
الكمال ، ولنفسه بالذبول والاضمحلال ، والإفلاس عن سائر الأعمال ،
والغيبة عن الأفعال ، فلا يجد ما يتوسل به إلى مولاه إلا عدم حيله ،

وفقد علمه وعمله ، فيكون في حال قيامه في الأعمال غائباً عنها ،
وفاقداً لها ، مفتقراً إلى سيده الكريم ، وخالقه الرحيم ، ولي في
ذلك :

توسلي بافتقاري للذي نزلت به الحوائج جل الواحد الأحد
فلا تروم نوالاً قط ما عدلت عن بابه من سواه الخير لم تجد



فلما كان التوسل بالفقر يقتضي ألا يكون للأغيار وجود ، ولا للأعيان
شهود ، والفقر لا يناسب الغنى ، ولا مناسبة بين الوجود والعدم ، ولا بين
الحدوث والقدم . . قال المؤلف رحمه الله :

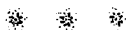
وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ

كيف يكون التوسل إليك مني بفقري ولا نسبة بين فقري وغناك ، ولا
بين نعتي ووصفك ؟! والمتوسل إلى المتوسل إليه لا بد أن تكون نسبة
يتوصل بها إليه ، فكيف يتوصل إلى الله بما هو محال عليه ؟!

فروية الفقر تنبع عن بقية رؤية شهود غير ؛ إذ الأحوال في حضرة
التوحيد أغيار ، والفقر من جملة الأحوال ، فلا سبيل إلى تحقيق الفقر إلا
بالغيبه عنه ، وما لم تغب عنه . . فأنت بعدُ لم تفن عن رؤية أحوالك ،
وحضرة التوحيد لا يليق فيها شهود غير الواحد الأحد .

فإذا ؛ لا وسيلة إليه بسواه ، ولا اعتماد على من دونه في جميع ما
يهواه ودفن ما يخشاه إلا إياه ، ولي في ذلك :

كيف التوسل في نيل المراد بما لا نسبة بينه والله مولانا
 لهذا في القرب فأعرف حقَّ رُبِّته أما إذا كنتَ في الأسباب فالآنا
 وهكذا رتبة في القرب ، وأما في مقام المعاملات . . فهو المطلوب
 منك ؛ كما قلت في البيت : (أما إذا كنت في الأسباب . . فالآنا) أي :
 أن لك أن تكون كذلك مقدماً لافتقارك وتقصيرك واعتذارك .



ولما كان حال القرب والشهود يقضي بأن الشكوى تشير إلى الغيبة
 عن المشهود . . قال المؤلف رضي الله عنه :

أَمْ كَيْفَ أَشْكُو حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ !؟

الشكوى : هي كشف الحال ، وإظهار الحال عن مكنون السؤال ،
 وذلك لا يكون لمن غاب عنه مكنونات الأحوال ، وعريت عنه خفيات
 الأفعال ، وذلك على الله محال ، كيف وهو العالم بها قبل بروز العالم
 من العدم ، وظهور أعيان الأمم !؟

وذلك أيضاً عند شهود حقيقة الكشف والعيان يتأدَّب عن خطوره
 على الجنان ؛ بأن يتوهم غفلة أو نسيان ، وأما بروزه على اللسان
 بالتضرع إلى الديان . . فلا حرج إذا كان عبودية واستيقان ؛ أنه لا يكون
 إلا ما قد كان ، ولي في ذلك :

فكيف أشكو إليك الحال يا صمد وأنت عالم بما فيها من الشجن
 أم كيف لا وأنت أهل أن تكون لها رياً تشكو إليك عظيم البث والحزن

أَمْ كَيْفَ أَتَرْجِمُ إِلَيْكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ ؟!

(أم كيف) أي : عجباً كيف أترجم ؟! والترجمة : التفهيم باللسان عما انطوى عليه الجنان ، فكيف أبين أمراً وأنت الذي أبرزته على جناني قبل أن تنطق به لساني ؟! فعلمك المحيط الذي أحاط بأوائل الأمور وأواخرها ، ويواطن الأعيان وظواهرها ، فكيف الترجمة هنالك ؛ وإظهار ما هنالك ؛ إذ شاهد الحقيقة ذلك ؟! اللهم إلا أن تكون الترجمة باللسان عبوديةً للرحمن ، وإظهاراً لسرِّ غناه في شهادة الأعيان ، فذلك مطلوبٌ أيضاً من الإنسان في الشرائع والأديان ، ولي في ذلك :

فالترجمان لمن لا يفهم الخبر والله جلٌّ عن التشبيه بالبشرِ
لا تركزنَّ إلى التمثيل بالغيرِ ولا تعطله عن عينٍ ولا أنرِ

أَمْ كَيْفَ تَحِبُّ أَمَالِي وَهِيَ قَدْ وَقَدَّتْ إِلَيْكَ ؟! أَمْ كَيْفَ لَا تَحْسُنُ أَحْوَالِي
وَبِكَ قَامَتْ وَإِلَيْكَ ؟!

فهذا من المصنّف انعطاف ، إلى نيل الظفر والإسعاف ، بمزيد الألطاف ، وتملُّق بما تحقق من عظيم الفضل والإتحاف ، بنيل مأمول الوصل .

وهذا هو تحقيق رجاء السالكين ، وبغية نجباء المریدين ، وثمره غرس أعمال الصادقين ؛ أن يتحقَّقوا في الله بحسن الظن ألا يخيب أمالهم الوافدة عليه ، والمتوجِّهة بكلية همَّتها إليه .

والوفد : هو وصف القادم النازل المحبوب المفروح بقدمه ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدًّا ﴾ .

(أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك) بفنائها عن نسبتها بسائر أحوالها وقواها؟! وهذا من المصنف إشارة منه إلى تطوره في مظاهر الحقيقة وترقيته ، ولي في ذلك :

فكيف ترجع آمالي وقد وفدت إليك خائبة حاشاك يا صمداً
وكيف لا تحسن الأحوال وهي كذا إليك نسبتها بالجود والمدد



فلما أنس من فضل الله ما لم يكن له به استعداد ، ورأى من تجلبي سرّ الوداد ما زاد على المراد . . أخذ في الاعتراف له بذلك ، وعدم استحقاق نفسه لما هنالك ؛ وذلك مما يعطيه مقام المعرفة ، فقال :

إِلَهِي ؛ مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي !! وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي !!

(إلهي) بمعنى اللطيف بي والحليم عني (ما أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي !! وما أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي !!) إلهي ، ومنتهى آمالي ، وبغية لطائف أحوالي ؛ ما أَلْطَفَكَ مَعَ عَظَمَتِكَ وَعَلُو كِبْرِيَاثِكَ بِي ؛ لمهانة صورتني وعظيم جهلي .

فلولا عظيم لطفك بي . . لما تخلفت عني عقوبة جرائمي ، وهذا شأن أهل الإيمان ؛ كما روي في الحديث : « إن المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخشى أن يقع عليه ، وإن المنافق يرى ذنبه كالذباب على وجهه قال به

هكذا^(١)، فرؤيته لذلك توجب الحياء من الله، والوقوف على حدِّ
العبودية بالافتقار والذلة والانكسار.

وما أرحمك بي؛ لأن سرَّ رحمتك هو القيام بوجودي مع قبيح فعلي،
فقبیح الفعل: ما يجترحه العبد على خلاف أمر سيده، فلا أقبح فعلاً
ممن يستعين بعبطائه وغوامر آلائه على معاصي سيده، فهذا أقبح كل
قبيح!! فلولا عميم رحمته وشمول رأفته.. لأدرت العاصين لله أنواعُ
العقوبات، على ممر الساعات واللحظات، ولي في ذلك:

لطائف الله للإنسان شاملةٌ وإن تعاضم جهل فالإله علي
ورحمة الله في الأكوان سابعةٌ لا تمتنع بقبيح الفعل والزليل



قال المؤلف رضي الله عنه:

إِلَهِي؛ مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي !! وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ

(إلهي) بمعنى اللطيف في عظمته والداني في رفعة تعاليه (ما
أقربك مني!! وما أبعدني عنك!!) ما أقربك بشمول إحاطتك بي،
واستغراق معيتك لباطني وظاهري وسائر لطائفي، وقيام أمرك على سائر
أحوالي، وشهودك لسائر شؤوني الممكنة، وسائر أعمالِي المتلونة، وما
أبعدني عنك في المناسبة والمشاكله، وفي الذات والصفات والأفعال.
وذلك لظهور حكيمته البالغة أن أوجد الخلق وجعل لهم ذوات

(١) رواه بنحوه البخاري (٦٣٠٨) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه.

وصفات وأفعالاً ؛ لتظهر عظمة ربوبيته العلية ذاتاً وصفات وأفعالاً على
هذه الرقعة العبدية ذاتاً ووصفاً وفعلاً ، ولي في ذلك :

فُزب الإله من الأشيا برحمته وما أحاط بها من علمه الأزلي
ويُعدها عنه من حيث الصفات كما السذوات كذا الأفعال لا مثل
فمقام رؤية البعد : هو الذي يردُّ العبد إلى الطلب ، ومقام القرب :
هو الذي يعطيه كمال الأدب ، وكلا الحالين في حق أهل الله خير ؛ فإن
أقيموا في رؤيتهم لوجودهم .. فلما يقتضيه منهم من حق العبودية ،
ويسمى عندهم بُعداً عن شهود تجلي أسرار الربوبية ، لا البعد الذي عُني
به أهل الحجاب المبعدين في دركات العذاب .



وإذا تجلَّس عليهم بكمال صفاته ، ولاحت لأسرارهم أنوار ذاته ..
كانوا بالحقيقة مجموعين ، وعن شهود الأغيار ممنوعين ، وهو القرب
الذي أشار إليه ، وعند تجلي هذا المشهد الرحموتي قال المؤلف
رضي الله عنه :

مَا أَرَأَيْكَ بِي !! فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ ؟

لَمَّا رَأَى مِنْ عَظِيمِ الْقُرْبِ مَا عَيَّبَ عَنْهُ ظُهُورَ الْأَغْيَارِ ، وَطَمَسَ عَنْهُ
رُؤْيَةَ الْأَنْوَارِ .. قَالَ : مَا أَرَأَيْكَ بِي !! فَالرَّأْفَةُ مِنْ خِصَائِصِ فَائِضَاتِ
الرَّحْمَةِ ، فَلِذَلِكَ تَسَمَّى بِالرُّؤُوفِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِآلَتَائِهِ لَرُؤُوفٌ
رَحِيمٌ ﴾ ، فَالرَّأْفَةُ : ظُهُورُ أَثَرِ الرَّحْمَةِ عَلَى الْمَرْحُومِ ، فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي
عَنْكَ وَلَيْسَ لِي مَشْهُودٌ سِوَاكَ وَلَا مَوْجُودٌ إِلَّا إِيَّاكَ !! وَلِي فِي ذَلِكَ :

في رأفتك علقْتُ الأمان يا صمد وكشف نور جمال الحق مشهود
فكيف يُحجب من نالته منك يد ولا يضام نزيل الفضل والجود

فمن آثار تلك الرأفة وظهور تلك الرحمة : ما أشهده قلوب أوليائه ،
واختصَّ به أرواح أصفياؤه ؛ من ظهور رحمته في كل شيء ، فلا يواجهون
في الأشياء إلا سر رحمته ؛ ولذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

إِلَهِي ؛ قَدْ عَلِمْتُ بِأَخْتِلَافِ الْآثَارِ ، وَتَنَقُّلِ الْأَطْوَارِ : أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ
تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ

(إلهي) بمعنى الظاهر لي برحمته ، والمتجلي لي في كل شيء
بتمام نعمته ، وكمال منته ، وعظيم محبته (قد علمتُ باختلاف الآثار ،
وتنقلات الأطوار : أن مرادك مني أن تتعرفَ إليَّ في كلِّ شيءٍ ، حتَّى لا
أجهلك في شيءٍ) وهذا العلم الذي أشار إليه هو ما اختصَّه الله به من
علمه الممكنون ، وسرّه المخزون ، الذي من علمه .. ارتقى به إلى رتبة
الكشف عما دخل تحت تكوين الكاف والنون .

وإذا علّم الله عبداً هذا العلم .. كان حكيماً ، وهو الحكمة المؤتاة
التي من أوتياها .. فقد أوتي خيراً كثيراً باطناً وظاهراً .

واختلافها - أي : الآثار - تبصرة لذوي الأبصار ؛ ففيها ما لا يخفى
من نصاريف الاعتبار ، ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ ، فعبّر أهل الاعتبار
إلى تحت ستور الآثار من اسمه النافع أو الضار ، وغير ذلك من تقلبات
الآثار .

فلو كان أقمنتني في حالة واحدة لم تنقلني عنها : ضارة أو سارة ،
حلوة أو قارة .. لكنك ناقص المعرفة عن كمال ظهورك في متعددات
مظاهر ألوهيتك .

فإذا كان ما يتجلى به من المؤلمات والملائمات مما يورث العارف
زيادة معرفة .. فكانت الأشياء له كلها تعرفات خاصة ونعماً من الله
سابقة ، وهو بعض وجوه الآية في قوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَهُ ظَهْرًا
وَبَاطِنًا ﴾ ، كما سمعنا ذلك غير مرة من شيخنا العارف بالله السيد الشريف
عمر بن عبد الرحمن علوي نفع الله به : أن النعم الظاهرة : هو ما ظهر
من النعم ، والباطنة : ما انطوى من التعرف في المحن ، وكتب بذلك
مستشهداً به للشيخ علي بن محمد^(١) بامزاحم ساكن بروم لما شكوا إليه
بعض ما ناله من المحن .

وإذا كان الأمر كذلك .. فالنعمة الباطنة فيها ما لا يخفى من المزيد
لسائر العبيد ؛ أما المقربون .. فلما تزداد به معرفتهم التي يصغر إلى
جنبها كل شيء من أصناف النعيم .

وأما أصحاب اليمين وعموم المؤمنين .. فلما يتألون من الثواب
الجسيم ، ويكفر عنهم من السيئات ، ويدفع عنهم من العقاب ؛ كما
وردت بذلك كله الأخبار ، وشهدت به الآثار .

وهذه التأثيرات كثيرة ؛ مثل : الصحة والمرض ، والغنى والفقر ،
والعز والذل ، والطاعة والمعصية ، ولك فيما ظهر منها تعرف خاص ،
من تجلي اسم خاص ، ولا يكون شاهداً للاسم وغائباً عن المسمى ،
وغاية النعيم ومنتهى كل مقصد ومطلب .. هو شهوده ، وتحقق وجوده .

(١) في (١) : (ابن أحمد) بدل : (ابن محمد)

وأما تنقلات الأطوار .. فهي تنقلات الأحوال وتغاير الواردات ، فهي من متعلقات القلوب ، وتجليات أسرار الغيوب ، فهي لأرباب القلوب مشهودة ، وعند ذوي الأحوال موجودة ؛ كالقبض والبسط ، والخوف والرجاء ، والهيبة والأنس ، والوجد والنفد ، وكل ذلك أيضاً تعرفات وصفية وتجليات ذاتية ، يعرفها من وصل إليها ، وتحققها من طافت بسره لديها ، وأما عموم الخلق .. فليس لهم إلى تنقلات الأطوار سبيل ، وإنما هم في شهود اختلاف الآثار .

والإرادة محيطَةٌ بكل ذلك ، لا تنقلب عنها لمحّة ناظر ولا فلتة خاطر ، ومن أشرف على علم الإرادة .. كان تاركاً لاختياره ، راضياً عن الله في جميع ما يوصله إليه من نفع وضر ، فلا أعز منه علماً .

فمن أراد غير ذلك - أي : رأى أن يكون بحالة يختارها لنفسه - .. فقد أعوز المعرفة ؛ فعبد الله يسأل الله أن يشعره لطفه وحسن اختياره له في كل ما قضاه ، ولا يطلب أن ينقله عن حاله هو فيها إلا ما قد علم أن الله يرضاه له ، كالإيمان مثلاً ؛ فإنه يطلب الثبوت عليه ، وكل ما علم أنه لا يرضاه له ؛ كالكفر وما والاها .. فيطلبُ الله أن يحفظه عنه ويعصمه منه ؛ وذلك لأن كل ذلك ليس من تدبير العبد واختياره ، بل من تدبير الله واختياره ، والشر فيه ظاهر ، والإيمان أيضاً الخير فيه ظاهر ، بخلاف ما عدا ذلك من سائر الأحوال ؛ فالأمر فيه غيبٌ لا يدري العبد خيره من شره ، فيكون عبد الله حيث أقامه ، ولا يكون ممن قلّ فهمه عن الله ؛ إن ورد عليه غير ملائم لطبعه وموافقٍ لحظه .. سخط وتبرّم ، فيصدق عليه قوله سبحانه : ﴿ وَصَنَّا الْآلِينَ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ... ﴾ الآية .
ولكن المطلوب من العبد : أن يكون حريصاً على حق العبودية لله

في كل حالة تردُّ عليه من الله ؛ فأما إن كانت من قبيل النعمة .. فحَقُّ العبد أن يقوم لله فيها بالشكر ، وإن كانت من قبيل الطاعة .. فشهود المِنَّة لله ، وإن كانت من قبيل الذنب .. فالتوبة والاستغفار ، وإن كانت من قبيل البلية .. فالصبر ، فالأمر دائر على هذه الأحوال ، ولي في ذلك :

لقد علمت بأنَّ الله حكيمته في اختلافات آثار المقادير
وما تلوَّن من حالٍ برحمته في ما كمن تحت مكنون التبشير
أن يشهد العارف أنَّ الكل نعمته في كل وارد من حكم المقادير
له زيادة قرب أو نيل منته تحت المعاني وأطوار التصاوير

إِلَهِي ؛ كَلَّمَا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي .. أَنْطَقَنِي كَرْمُكَ ، وَكَلَّمَا آبَسْتَنِي
أَوْصَافِي .. أَطْمَعْتَنِي أَوْصَافُكَ

(إلهي) بمعنى المولى الكريم المتفَضِّل ، المحسن الغني ، ذي الصفات العلا والأسماء الحسنَى (كَلَّمَا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي .. أَنْطَقَنِي كَرْمُكَ ، وَكَلَّمَا آبَسْتَنِي أَوْصَافِي .. أَطْمَعْتَنِي أَوْصَافُكَ) .

كلما : يقتضي التكرار كذلك ، والعبد أبدأ واقع في الأفعال التي تورث اللوم بين يدي سيده ؛ لأن العبد ناقص في الأصل ، فلا يصدر عنه من الأفعال إلا النقص ، والأفعال متفرعة عن الذات الصادرة عنها .

وقد علمت ما ذات العبد عليه من النقص ، فإذا شهد ما منه من الأفعال الناقصة الملوثة والخصال الرذيلة المذمومة .. أخرست لسانه

عن الكلام ، وإذا أشهد الصفات العلية ، والنعموت الكاملة الأزلية .
 غابت عنه صفاته ، واضمحل عنه شهود ذاته ، فرأى الكمال العلي
 نطق وأوسع في الكلام ، كيف لا وقد لاح تيار الكرم العميم والفضل
 العظيم؟! فأنى يفنى المقال بعبارته ، أو تفصح المقالة بإشارته؟!
 كلا لا يصل تعبير المعبرين ، ومقال المتبحرين إلى غبرة من رماله ،
 ولا رشحة من بحار نواله ، فكيف يقصر في الكلام عند شهود مواهب ذي
 الكرم والجود؟! أو كيف يبس عند تجلي اسمه الرحيم الودود؟! فهنا
 طمع في نبيله أهل المعاصي والجحود ، فكيف بأهل الإيمان والشهود؟!
 ولي في ذلك :

فكلما أحرستني قبح معصيتي لا شك نلتقني من وصفك الكرم
 وكلما آيستني كل مفضلة مني إليك طمعت في فضلك العمم



ثم أخذ المؤلف في بيان ما العبد متَّصفٌ به من النقص في ما يصدر
 منه على صورة الكمال ، فقال :

إِلَهِي ! مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِي . . فَكَيْفَ لَا تَكُونُ مَسَاوِيَهُ مَسَاوِي ؟!
 وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِي . . فَكَيْفَ لَا تَكُونُ دَعَاوِيَهُ دَعَاوِي ؟!

(إلهي) بمعنى الكامل الموصوف بصفات الكمال ، والمنعوت
 بنعوت الجمال والجلال (مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِي . . فَكَيْفَ لَا
 تَكُونُ مَسَاوِيَهُ مَسَاوِي ؟!) وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِي . . فَكَيْفَ لَا تَكُونُ
 دَعَاوِيَهُ دَعَاوِي ؟!) إذا كانت المحاسن المنسوبة مساوي ؛ لما قارنها من

النقص في النشأة ، وما يصحبها من القوادح الموجبة للبعد عليها إن لم يتركها الله ، ويخلصها من ذميمة الإرادات الدنيئة . فكيف لا تكون المساوي الظاهرة منه مساوي !؟

والإنسان إذا لم يلاطفه الله ويتداركه بعصمته .. لا يخلو عن سيئة يستوجب العقوبة إن لم يتجاوز عنه الله ويعف !؟ وذلك لأنه انطوت في طبي جيلته جميع الطبائع الحيوانية ، والصفات البهيمية ، والأخلاق الضارية السبعية ، فكيف يتصور خلوه عن شيء طبع في أصل خلقته ، وانتقش في طبي جيلته !؟

اللهم إلا أن يتفضل الله بفضله ، فتحيط به العناية الأزلية ، فتعلو فيه الصفات العلوية الصافية السماوية ، فتقهر تلك الصفات الأرضية ، وتتوالى عليه الواردات الإلهية ، والأسرار الحقية ، والأنوار الوصفية ، فلا جرم حينئذ أن يكون عليه من الكمال الإلهي ما يرفعه عن حضيضه السافل ، ويلحقه بذروة الأوج الكامل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، ولي في ذلك :

محاسن العبد إن ينظر إليه يرى فيها المساوي وكل في مندرج كيف المساوي إذا حققت ذاك فما يخلو عن السوء فيما قيل والخرج (ومن كانت حقائقه) فيما يزعم أن هناك للعبد حقائق .. فهي (دعاوي) لأن مسندها إلى العدم والعجز ، (فكيف لا تكون دعاويه) الظاهرة التي لا يخلو عنها أيضاً كل إنسان ... [دعاوي] إلا من حققه الله بالشهود والعيان !؟

فمن جعلتها : شهود الغنى له في ذات أو صفة أو فعل ، ونسيان الافتقار كذلك أبداً ، فهذا من الدعاوي ، بل كل دعوى لم تصدر إلا

فرعاً عن هذا المشهد ، ولي في ذلك :

حقائق العبد في النسبة إليه سدئ فلا لها مستند في الأصل يعصدها
فكيف ما كان من دعوى بغير يد بيان بطلانها أن ليس يشهدا

إِلَهِي ؛ حُكْمُكَ الْنَافِذُ وَمَشِيئَتُكَ الْقَاهِرَةُ .. لَمْ يَتْرُكْ لِي مَقَالَ مَقَالاً ،
وَلَا لِي حَالٍ حَالاً

(إلهي) بمعنى القاهر الحكيم (حُكْمُكَ الْنَافِذُ وَمَشِيئَتُكَ الْقَاهِرَةُ ..
لَمْ يَتْرُكْ لِي مَقَالَ مَقَالاً ، وَلَا لِي حَالٍ حَالاً) شهود نفوذ الحكم من
غير مبالاة بالأسباب ، وقهر المشيئة وغلبة الأمر .. هو الذي قطع قلوب
الخائفين ، وذلت له أبواب العارفين^(١) ، فإن [نظرت إلى] ذي مقالة
فصيحة ، فغلبه الحكم ، فسُلبت .. [فانظر إلى] : بلعام [بن باعوراء]
بعد أن كان - كما قيل - يكتب عنه العلم ، فخرج من فيه كالحمام ، أو
كما قيل .

وإن نظرت إلى رفعة المحل وقوة الحال .. فلا أنزرة من صفيح
السماء ؛ فإن إبليس غلب عليه سابق الحكم ، وانبرم على شقائه سجل
الأمر ، أنزل كما ترى وطرد - والعياذ بالله من سوء المقدور - مع ما كان
عليه من قوة الحال ، ورفعة المحل ، كما كان يعبد الله أربعة آلاف
عام ، فكفى بذلك مخوفاً لذوي العقول السليمة ألا يسكنوا إلى شيء
مما يبدو منهم من العلم أو العبادة ، وأن يكونوا كلما ازدادوا علماً ..

(١) في (ب) : (ودلّه أبواب العارفين) ، وفي (د) : (وولّه أبواب العارفين) .

ازدادوا خشية لله تعالى وخوفاً من أليم المكر وشدة سطوات القهر ، ولي
في ذلك :

نفوذ حكمك في الأشياء بلا سبب هو الذي حَيَّرَ الأسباب والمهجا
وللمشيئة قهراً لا يغالبه حال فكم فيه من علم قد اندرجا



ثم أخذ في بيان الأسباب التي يرجو بها العبد الفوز عند الله ، فقال
رضي الله عنه :

كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا ، وَحَالَةً شَيْدَتْهَا ، هَدَمَ أَعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ ، بَلْ
أَقَالَني مِنْهَا فَضْلُكَ

(كم من طاعة بنيتها) والطاعة : هي صفة قيام ظاهر العبد بالفعل
المأمور به ؛ من قول أو فعل : جازم وغير جازم ، فالجازم : هي الفرائض
المعلومة من الدين بالضرورة ؛ كفرائض الإسلام ، وغير الجازم ؛ كتنافل
الطاعات .

وبنيتها : هو الإتيان بها على وجه الاستقامة ، وحفظ سائر حدودها ؛
من أركان وشروط وسنن ، واجتناب منهياتها حرمة وكراهة ، وفعل ما
هو الأولى فعله ، وترك ما الأولى تركه ، وغير ذلك من وجوه الحفظ ،
وتحري المحافظة .

والحالة التي شيدتها : هي حالات القلب من تخليته من رذائله ،
وتخليته بمحاسن صفاته ، وإمعان النظر بغاية الجهد في دقائق خطراته ،
ولطائف حركاته ، حتى بلغت ما هو المقذور من جهدي في ذلك ،

فاعتمدت على ذلك ، واستندت إلى ما هنالك ، وطال لدي ذلك .

فلما انكشف لي عن نعوتك العلية ، وصفاتك السنية ، وتجلياتك الأزلية التي لا تعللُ بعلّة ، ولا تكتسب بحيلة ، وظهر من أسمائك الجلالية اسمك العدل الذي لا يرد حكمه بسبب طاعة أو حسب أو نسب ، تعذب من تشاء وإن كان طائعاً ، وتغفر لمن تشاء وإن كان عاصياً . . هدم ذلك اعتمادي على ما كنت معتمداً عليه دونك ، فهريت منها إليك ، ومن كل شيء دونك ، ورأيت أن الاعتماد على الأسباب دون مسبها ممّا يوجب العقاب ، فاستقلّتك مما كنت عليه معتمداً دونك ، فأقالي فضلك الذي هو معتمدُ الهارين ، ومنتهى رغبات الأملين ، ولي في ذلك :

كم طاعة كنت أحسنت القيام بها وكنت فيها كثير الهم مجتهدا
وحالة طال ما كنت اعتنيت لها بتركبتها مع الأنفاس مرتصدا
لما تجلّى ظهور العدل عطلها حتى علمت أنما غير الإله سدي

إِلَهِي ؛ إِنَّكَ تَعَلَّمُ وَإِنْ لَمْ تَدُمْ الطَّاعَةَ مِنِّي فِعْلاً وَجَزْماً . . فَقَدْ دَامَتْ
مَحَبَّةٌ وَعَزْماً

(إلهي) بمعنى معبودي العالم بتفاصيل أحوالي ، وجريان أفعالي ، قبل مظهر صورتي وصور أعمالي (إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً . . فقد دامت محبةً وعزماً) كما أوجدت في ، وطبعت عليه جبلي . . علمتُ - لا محالة - أنك تعلم ذلك مني ؛ إذ لا تخفى عليك تفاصيل أحوالي وجريان أعمالي .

وأنا أجد أنني وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً وجزماً ؛ كما هو شأن
 الدائنين على عبادتك ، والعاكفين في حضرة قدسك ، الذين لا يسأمون ،
 ولا يستكبرون عن خدمتك ، فأنا وإن كنت [لسْتُ] كذلك فعلاً
 وجزماً .. فأنا دائماً محبةٌ وعزماً ؛ أي : محب لها وللعاملين بها ، وقد
 ورد على لسان نبيك صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » ^(١) ،
 وأنا أحبُّ أن أعمل بها وأحب العاملين ، وعازمٌ على فعلها في كل آن ،
 فأكون بنية القصد والعزم عليها في زمرة العاملين ، وذلك غير مستنكرٍ
 ولا مستبعد ؛ كما وردت بذلك الأخبار الدالة على أن العازم على فعل
 الطاعة في طاعة ^(٢) .

والعزم : هو عقد القلب على فعل ذلك ؛ فهو في ديوان الطاعات إن
 كان طاعة ، وفي ديوان المعاصي إن كان معصية ؛ لأن العزم هو تصميم
 القلب على الفعل ، فما بقي إلا عزم تقدير الحركة فيه ، والعجز عن
 الإتيان به ، ويبقى كذلك حتى يجد مساعدة القدر له فيفعل ، ومتى وجد
 ذلك ولم ينهض له .. فليس بعازم ، ولي في ذلك :

فأنت تعلم أنني فيك مبتغياً لطاعتك يا عظيم الفضل والمِنَّ
 حباً وعزماً لذلك السِّر مرتقياً إليك يا منتهى الآمال والسَّنن

فالعزم : مقتضى شهود العبد لأمر سيده ، والقهر : مقتضى فناء العبد
 عن سائر أفعاله ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

(١) رواه البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤٠) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .
 (٢) كقوله صلى الله عليه وسلم : « من هم بحسنة فلم يعملها .. كتبت له حسنة » ، وقد
 رواه البخاري (٧٥٠١) ، ومسلم (١٣٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

إِلَهِي ؛ كَيْفَ أَعَزِّمُ وَأَنْتَ الْقَاهِرُ ؟! وَكَيْفَ لَا أَعَزِّمُ وَأَنْتَ الْأَمْرُ ؟!

(إلهي) القاهر لمن سواه ، المعبود مستحق الامتثال ممن عداه
(كيف أعزم وأنت القاهر ؟! وكيف لا أعزم وأنت الأمر ؟!) هذا
مقامٌ يشير إلى النهاية والتمام ؛ إذ شهود القهر الذي هو وصف الحق
يقضي من العبد ألا يكون له حركة ولا سكون في كليات أفعاله
وأحواله ، ولكن من وقف على ذلك دون شهود أمره . . وقع في
التعطيل والجبر .

وكيف لا أعزم وأنت الأمر ؟! لأن شأن العبد المبادرة لامتثال أمر
سيده إلى ما ندبه إليه ، وانزجاره عما زجره عنه ، فإذا كان على ما
ذكرنا ممثلاً الأمر ومنزجراً عن النهي مع شهود فنائه عن سائر أفعاله ،
واضحلاله عن كليات أحواله . . فقد قام بحق العبودية ظاهراً ، وتأدب
للربوبية باطناً ، وهذا غاية مطلب العلماء ؛ إسقاط سائر الأحوال والقوى
منهم باطناً ، والاستقامة على حد الأمر ظاهراً ، وبذلك وصلوا إلى صرف
الحرية ، ووقفوا على حقيقة الأمر ، ولي في ذلك :

فكيف أعزم وأنت القاهر الأجدد وكيف لا وأنت حقاً الأمر الصمد
هذا الشهود مقام العبد بالرصد يكون فإن وباق طالب المدد

إِلَهِي ؛ تَرَدَّدِي فِي الْأَنْارِ ، يُوجِبُ بُعْدَ الْمَرَارِ ، فَأَجْمَعِنِي عَلَيْكَ ، بِخِدْمَةٍ
تُوَدِّبُنِي إِلَيْكَ

(إلهي) بمعنى مقصودي ، ومنتهى آمالي ، ووجه قلبي ، ومرادي

في توجهي وإرادتي (ترددي في الآثارِ يوجبُ بُعدَ المزارِ ، فاجمعي عليك بخدمة تؤدني إليك) .

التردد في الآثار : هو الانتقال في الأطوار ، وبقية التعلق بالأغيار ، والطمع في جنّة أو خوف من نار ، أو ترقب أنوار ، أو مخاطبات للمقامات والأسرار ، أو تردد بين البراري والديار ، واستئناس بالأهل والجار ، والركون إلى المألوفات ، والاغترار بزخارف الإنعام والعقار ، وغير ذلك ولو إلى الألحان ومطربات الأوتار وتغريد الأطيّار ، فكل ما سوى الأحد القهار . فالركون إليه أستار وبُعْدُ مزار .

وقرب المزار : هو رفع الحجب والأستار [عن] الحسن الذي منه استعار كل ذي حسنٍ حسنه ، وبنوره كل كائنٍ استنار ، ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

وكلما نأت بالمحب عن جيّه الديار . . تكاثرت مظاهر الآثار ، وتكاثفت الأستار ، فلما أحسّ ذلك . . سارع إلى الفرار ، ومدّ أكف السؤال والافتقار في أن تتداركه من هذه المهالك والأخطار ، فقال بلسان الاضطراب : (فاجمعي عليك) لكثرة تغاير الأغيار ، ومدلهّمات ظلمات الآثار ، فالجمع عليه : ألا يجعل فيه مساعاً لإرادة مراد غيره ، ولا اتساعاً لشهود سواه ، فيفر إليه مما سواه ، حتى يفر إليه من فراره .

والخدمة المؤدية إليه هي إدامة ذكره ، وإتمام فرائضه ، وتكميلها بنوافل الخيرات ، مع فئاته عن شهود نفسه في ذلك ، وعدم اعتماده عليه ؛ وذلك لما روي في الحديث القدسي : « ولا يزال عبدي يتقربُ إليّ بالنوافل حتى أحبه . . » الحديث بطوله ^(١) ، وإذا كان كذلك في

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٣١) .

الخدمة دائماً ، وللمنة شاهداً ، وللنعمة شاكراً ، وفي البلية صابراً ، وعن المعاصي تائباً . . . فقد حصل بعون الله على الاستقامة على جادة الطريق المثلى ، فالمرجو من فضل الله - كما يَسَّرَ له تلك الأسباب - : ألا يغلق دونه الباب ؛ إذ هو المتفضل الوهاب ، ولي في ذلك :

ترددى بين آثارٍ وأغيارٍ موجبٌ لبعدي عن الأحباب والدارِ
فيا غيائاً لمهلوفٍ ومحتارٍ اجمع عليك بطاعات وإشارِ

إِلَهِي ؛ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ ، بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ ؟! أَيْكُونُ
لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ ؟! مَتَى غَبَّتْ
حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ؟! وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْأَنْزَارُ هِيَ
الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ ؟!

(إلهي) بمعنى الظاهر الأحد المبدع لأصناف الفطر ، والمظهر لسائر المعاني والصور (كيف يستدلُّ عليك بما هو في وجوده مفترقٌ إليك ؟! أَيْكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ ؟! مَتَى غَبَّتْ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ؟! وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْأَنْزَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ ؟!) هذا تعجبٌ ممن يظن أن الموجودات تدل عليه ؛ وإنما [ما] دلت عليه إلا من حيث ما أعطاهما من الوجود ، ولو لم يكن ذلك . . . لم يكن لها في ذاتها وجود ، فدل ذلك على أنه ما دلَّ عليه من قبلها إلا وجوده فيها ، لا هي من حيث هي ، فهو الدليل على نفسه لا غير ؛ إذ افتقارها في إيجادها وإمدادها في قيام وجودها أدلُّ دليلٍ على انعدامها ، وأبينُّ برهانٍ على ظهور موجدِها ، وممِّدِها في

قيام وجودها ، فمتى غاب ؟! ولو غاب .. لم يكن للوجود بأسره وجود ،
وديموميته برهانها قيام العالم ، واستمرار وجوده .

فأرباب الشهود والعيان غنوا بما واجه قلوبهم من ظهوره ، وشروق
نوره ، فلم يحتاجوا إلى الاستدلال عليه بما هو مفترق في وجوده إليه ،
وكل ما سواه كذلك موسومٌ بالافتقار إليه ، ظاهر عليه سمة الاضطرار ،
وله الغنى المطلق .

أ يكون لغيره من الظهور ما ليس له ؟! هذا تقييحٌ من أرباب الشهود
المستدلين بالأشياء عليه ، ولكن من باب حسنات الأبرار سيئات
المقربين ، وليس تقييح توبيخ ، إنما هو إغراء على ما هو الأولى ، وهذا
يحسن في قيام مناجاة الحبيب ، وتذلل المحب مع الحبيب ، فالدلالة
لا تكون إلا على غائب ، وأنت حاضر على خفيات الضمائر ، ولمحات
النواظر ، وفلتات الخواطر ، سامع وناظر ، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾
الآية ، فكيف توصل الأناز إلى الوصول لا يكون إلا إلى متحيز في
جهة ، والله منزّه عن الجهات ؟!

فمتى بعد وهو القريب الداني ؟ ﴿ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا
تَبْصُرُونَ ﴾ ، ﴿ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ، قُرب لا يماثله قرب الأجسام ،
من غير مماسة ولا استقرار ، ولا حلول ولا امتزاج ، بل على الأمر الذي
وصف ، والوجه الذي عرف ، فلا يوصل إليه بسواه ، ولا يُستدل عليه إلا
به ، ولي في ذلك :

كيف استدل عليه المستدل بما هو من بدائعه في الذر والفطر
وكيف يوصل إليه ما به ظهرت أعيانه من بديع الخلق في الصور
تبارك الله مُظهِر كل كائنة ومنشي أصناف ما في الكون من أثر

إِلَهِي ، عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَكَ عَلَيْهَا رَقِيْبًا ، وَخَسِرَتْ صَفْقَةً عِنْدَ لَمْ تَجْعَلْ
لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيْبًا

(إلهي) بمعنى الرقيب عليّ (عميت عين لا تراك عليها رقيباً ،
وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حيك نصيباً) .

(عميت عين) فعمى العين القلبية هو العمى حقيقة ، قال الله
جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ،
وعمى عين القلب أشد من عمى العين الظاهرة ؛ إذ عمى العين
الظاهرة يتقضي بانقضاء الدنيا ، وعمى القلب في الدار الآخرة ،
﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى ﴾ عن مراقبة الله ، وعن النظر في آيات الله ،
والهجوم على محارم الله من غير حياء من الله ولا مبالاة . .
﴿ فَهَوَّ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾ عن النظر إلى جمال الله ، وما أعدَّ فيها
لأوليائه .

ورؤيته عليها رقيباً هو مقتضى الإيمان ، والمراقبة : حالة قلبية تعطي
المراقب حالة يرى أن الله يراه في جميع ما يتعاطاه ، فيستحي منه أن
يراه حيث نهاه ، أو يفقده حيث أمره ، وهي لأرباب القلوب ، وهي برزخ
بين المحاسبة التي هي حالة أرباب الظواهر ، وبين المشاهدة التي هي
لأرباب السرائر .

قال بعض الحكماء في الدين : إن المراقبة نور ينسبط في الصدر ،
وهو من شعاع نور شمس الإحسان ؛ كالضوء على الحيطان .

(وخسرت صفقة عبد) أي : بيعته ، وما ربحت تجارته (لم تجعل
له) في سابق علمك (من حيك نصيباً) والحب من الله لعبده هو

أصل كل خيرٍ وغنم ، ومن جملة : ثناؤه عليه ، ومدحه إياه الذي لا يوازي بعمل .

ومن آثاره على الظاهر : الهداية للمحابت ، وصرفه عن المذام ، ومن محبته لعبده : أنه قد غفر له ، وبجّله ، ومدحه ، وأعدّ له الجزاء قبل إيجاده ، وهياً له أرضه وسماؤه ، وجنته وسائر نعمه وآلائه ، قبل إبرازه من خبائه العدم ، بما نصرَّ عليه في كتابه القديم ، ووصفه العظيم ، الذي لم يسبق بفعلٍ من أفعال المخلوقين المرتبة فيه ، المضافة إليهم إضافة تشریف ، أو عيب وتعنيف .

ومحبة العبد لله فرع محبة الله له ؛ وهو ما يتقرب به إلى الله من أنواع الطاعات ، واجتناب المنهيات .

والخطاب في قوله : (من محبتك نصيباً) إلى الله ، قال الله : ﴿ يُجِزُّهُمْ ﴾ ابتداءً من غير تقدُّم عملٍ منهم يقتضي أن يحبهم لعله ، يتعالى عن العلل في سائر أفعاله ، ﴿ وَجُزُّونَهُ ﴾ بما أظهره عليهم من آثار محبته لهم ، التي هي الطاعة ؛ كما بيَّنا ذلك .

ومن لم يجعل له من هذه المحبة المخصوصة نصيباً .. فقد بان غيبه ، وخابت مطالبه ، وبانت خسارته ؛ بأن كره انبعاثه ، فثبَّطه عن التوجُّه إليه ، والإقبال بوجه القلب عليه ، فنعوذ بالله من سوء القدر ، وما سبق به من حرمان الظفر بالوطر ، ولي في ذلك :

من لا يراك رقيباً ظل في ظلم حيران أعمى عن الأنوار منحجب
وخاب عبداً خيساً في بيع صفته إن لم يكن لجناب الله منتسب
محبة الله في غيب القدم سبقت لأهل السوابق في العليا بلا سبب

إِلَهِي ؛ أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ ، فَأَرْجِعْنِي إِلَيْهَا بِكُسُوةِ الْأَنْوَارِ وَهَدَايَةِ
الْأَسْتَبْصَارِ ؛ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا ، مَصُونًا السِّرَّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا ،
وَمَرْفُوعَ الْهَيْمَةِ عَنِ الْأَعْتِمَادِ عَلَيْهَا ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(إلهي) بمعنى وليّ أمري في الإدخال والإخراج ، الأمر لعبده في
كليات الأحوال ، ومكلفه وظائف الأعمال (أمرت بالرجوع إلى الآثار ،
فارجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار ؛ حتى أرجع إليك منها
مصون السّر عن النظر إليها ، ومرفوع الهيمّة عن الاعتماد عليها ؛ إنك
على كلّ شيء قدير) أمرت بالرجوع إلى الآثار لأداء ما توجه على العبد
من الحقوق الواجبة ، وما سبق له من الأقسام العاجلة ، حتى يستكمل ما
له منها ، ويؤدي ما وجب عليه ، فيرجع بعد كمال المعرفة واستخلاص
التوحيد بجميع أطواره ، فسأل المؤلف جفّظ ما شهد من التوحيد ،
وأشرق عليه من أنوار التفريد : أن يُحفظ حال رجوعه إلى تفرقة التعديد
بين طبقات العبيد ، وتوارد الأضداد الذي منها : ما يشير إلى القرب ،
ومنها : ما يدعو إلى البعاد .

فإذا رجع إليها بكسوة الأنوار القدسية مؤيداً ، وبعزّ الأحذية مؤزراً ،
وبالمعارف الحقية مستبصراً . . . كان رجوعه إليها بالله ؛ لأنه صار له يداً
ومؤيداً ، وبصراً وسمعاً ، وغير ذلك من استغراق أنوار المعية الحقية ؛ ما
تغيب به الأعيان الخلقية ، فلا يأخذ منها شيئاً ، بل يأخذ منها ولا يكون
له اعتماد عليها ، ولا نظر إليها ، وكيف ينظر إليها وقد طويت بأنوار
موجدها ؟! وكيف يعتمد عليها وقد اضمحلت في ظهور مبدعها ؟!
فلا جرم أن يرجع إلى الله إذا كان كذلك محفوظ السر عنها ، مؤيداً

بالتصر عليها ، كما دخلها بالله .. خرج إليه به ؛ إذ لم يحجبه عن شهود
سيده .

(إنك علي كل شيء قدير) لأن الأشياء كلها علي فلك اقتدارك
دائرة ، وتحت سلطان مشيئتك ناظرة ، فلا يعجزك حفظي عنها وأنا
شيء من هذه الأشياء ، وإذا توجهت قدرتك إلي بالتأييد ، ومشيتك
بالتسديد .. لم تأخذني كثرة مظاهر التعديد ، ولم ينتصر علي كل
معاند عنيد ، ولي في ذلك :

لأهل النهايات أمرٌ بالرجوع إلى مظاهر الخلق في الآثار والغير
ليكملوا كل نقص مثل ماكملوا وأفاء حق وجب في سابق القدر
إذا سبق ذاك فأرجعني إليك كما دخلت منها مصون السر والنظر

إِلَهِي ؛ ذَلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَحَالِي لَا يَخْفَى عَلَيْكَ ، مِنْكَ أَطْلُبُ
الْوُصُولَ إِلَيْكَ ، وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ ، فَاهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ ، وَأَقِمْنِي
بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ

(إلهي) بمعنى العزيز في قربه ، والقريب في عزه ، واللطيف في
عظمته ، والعظيم في لطفه ، والمعبود بالاستحقاق علي سائر العباد
(ذلِّي ظاهراً بين يديك ، وحالي لا يخفى عليك ، منك أطلب الوصول
إليك ، وبك أستدل عليك ، فاهدني بنورك إليك ، وأقمني بصدق
العبودية بين يديك) .

الذل : هو صفة العبد بين يدي السيد العزيز ، والمتفضل الكريم ،
وهو روح العبودية لله ، وبمثل هذه المناجاة تحسن عند المفاجأة ، وبها

تقرع خزائن العطاء ، فإذا أراد الله إعزاز عبده . . عرّفه ذلّ نفسه ، وذبول
حسبه ، وغيبه عن رؤية أبناء جنسه ، حتى تحلوا له المناجاة ، وتصفو له
المفاتيح .

وإذا أراد الله إهانة عبده . . حجبه عن ذلّ نفسه ، وأراه الحسن منها ،
وغطى عنه عيوبها ، وسلّط عليه الخلق ؛ ليشغلوه عن الله بالقبيل والقال ،
ووعرّ عليه مسالك الوصال ، وزيّن له طرق الضلال ، ومخالطة الجهّال
وأهل القسوة والضلال ، وحرّمه مجالسة الأبدال ، وحقّرَ إليه أهل الله
أهل الكمال ، نموذ بالله من هذا الحال ، وجنّبنا طريق الجهّال ، والغواة
[الضلال] (١) .

(منك أطلب الوصول) إذ لا يُطلب الوصول إليه إلا به ، وهذا حال
العارفين ؛ لا يجدون سبباً يوصل إليه سواه ، ولا وسيلة يتوسل بها إلا
إياه ؛ لأنّ نظرهم لا يسبق إلى غيره ، بل مطالبهم وهمهم وقف عليه ،
(وبك أستدل عليك) إذ لا دليل عليك أظهر منك ، فكيف يستدل
بغيره وهو الذي أظهره ، وبياهر قدرته قدره ، وبمشيئته دبره ؟!

(فاهدني بنورك إليك) وهذا النور هو نور الإيمان الكائن في داخل
الجنان ، وهو في القلب كالإنسان من العيان ، ويعبر عنه بالإيقان .

والإقامة يصدق العبودية لا تكون إلا بتأييد من الله لعبده ، وإلا
[لم] يخلص من شوائب وآفات ، وإذا حصل التأييد والإقامة من الله
كما ذكر . . حصل على الأدب ظاهراً وباطناً ، فاستسلم للأمر باطناً ،
وانقاد للأحكام ظاهراً ، ولي في ذلك :

ذلي له ظاهر والحال بادية لديه لم يخف حال العبد مولاه

(١) في النسخ : (الجهال) بدل : (الضلال) .

فمنك نطلب ما نرجو ولا حرج لأن ما نسم غير الله نرجاه

إِلَهِي ، عَلِمَنِي مِنْ عِلْمِكَ الْمَخْرُوفِ ، وَصَنِي بِسِرِّ اسْمِكَ الْمَصُونِ ؛ الَّذِي
إِذَا قُلْتَ بِهِ لِلشَّيْءِ : ﴿ كُنْ ﴾ .. فَيَكُونُ

(إلهي) بمعنى العالم بتفاصيل العلوم ، والمحيط بكل معلوم ،
الوهاب أنوار الفهوم ، لمن اختصه من العموم (علمني من علمك
المخزون ، وصني بسري اسمك المصون ؛ الذي إذا قلت به للشئ :
﴿ كُنْ ﴾ .. فيكون) والعلم المخزون في خزائن : ﴿ تَنْ وَالْقَلْبِ وَمَا
يَسْطُرُونَ ﴾ ، فمن علم ذلك العلم الذي هو كهيئة المكنون الذي ينطق به
العلماء بالله ، وينكره عليهم أهل الغرّة بالله ، هو العلم بما لا يدخل
تحت ظروف اللفظ والقول ، ويتعالى مشهده على ما فوق الحول
والطول ، ولا يتناهى فيه إلى الوصول .

وهو مفاتيح خزائن الغيب في أسرار الصفات لمعاني الذات ، الذي
تفنى عند التحقق بسائر اللذات ، حتى يغيب نعيم الجنات ، ولا يذوقه
إلا الذائقون من عباد الله ، الذين شربوا صرف شراب شهود نور الذات ،
الممزوج من شرايهم لأهل صفو الحالات ، أهل مقام الشهادات ، ويعبر
عن أنموذج من ظهوره في الدنيا بالعلم اللدني ، الذي يلقيه الله
لخواص عبادته من غير تعلّم ولا دراسة ، فيكشف مدخور ما ادخره حرف
من كلامه ، فيكشف ما وراء الغيوب الخمسة ؛ وهو الغيب العرشي ،
والغيب الكرسي ، والغيب السماوي ، والغيب الملكوتي ، والغيب
الجبروتي .

فَعِنْدَ انْكَشَافِ هَذِهِ الْغُيُوبِ . . تَطْلُعُ فَجْرُ الشَّمْسِ الوَصْفِيَّةِ ،
وَالْمَعَانِي الذَّاتِيَّةِ ، وَمَا لَمْ يَخْرُجْ عَنِ مَضِيقِ دَائِرَةِ الْحَسَنِ ، وَلَمْ يَشْمُ
رَائِحَةَ الْكُشْفِ ، بَلْ فِي تَمَاوِيهِ وَخِيَالَاتِ وَغُرُورِ ، وَدَعَاوِي كَاذِبَةٍ وَزُورِ .
وَالصِّيَانَةَ بِالاسْمِ الْمَصُونِ : هُوَ أَنْ يَصُونَ سِرَّهُ عَنِ الْاِلْتِفَاتِ
إِلَى الْأَغْيَارِ ، وَالاعْتِمَادِ عَلَى الْآثَارِ ، وَالانْقَهَارِ تَحْتَ كَثِيفِ الْعَادَاتِ ،
وَرِذَائِلِ الشَّهَوَاتِ ؟ فَمَنْ انْصَانَ تَحْتَ صَوَانِ الْاسْمِ الْأَعْظَمِ مِنْ هَجُومِ
بَيَانَ نَعَاتِ الْمَهْمَاتِ . . فَيَكُونُ لَهُ حَافِظًا ، وَعَلَيْهِ مَحِيطًا وَافِيًا ، وَلِيٍّ فِي
ذَلِكَ :

عَلِمَنِي الْعِلْمَ ذِي مَنْ كَانَ يَعْلَمُهُ
تَعَدَّهُ عَالِمًا فِي السَّادَةِ الْأَمْنَا
فَعَلِمَكَ اللَّيِّ إِلَيْكَ انْضَافَ جَانِبِهِ
هُوَ مَا ادْخَرَ تَحْتَ صَوْنِ الْغَيْبِ وَاکْتَمْنَا
وَسِرَّ إِسْمِكَ كَيْنَانَ فَعَالِمُهُ
لَمْ يَخْشَ رَيْبًا وَلَمْ يَعْثُ بِهِ الزَّمَانَا

إِلَهِي ؛ حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ ، وَأَسْأَلُكَ بِي مَسَالِكِ أَهْلِ الْجَذْبِ

(إلهي) بمعنى الولي بتدبيره في سائر إراداتي ، الواهب لمن يشاء
الكنز الأعظم ، وهو التحقق بالمقام الأنهني (حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ ،
وَأَسْأَلُكَ بِي مَسَالِكِ أَهْلِ الْجَذْبِ) التَّحَقُّقُ بِالْحَقَائِقِ الْقَرِيبَةِ فِي مَنْتَهَى
نَهَايَةِ الْفَنَاءِ فِي الْمَحْبُوبِ ، وَالظَّفَرُ بِالْمَنْى وَنَيْلِ نَهَايَةِ الْمَطْلُوبِ ، وَهُوَ

البقاء المحقق الذي من وصل إليه . . لم يجد وجوداً لغير الملك الحق ،
 فيغنى به عن تدبيره لنفسه ، فضلاً عن أن يكون له إلى الأغيار استناد
 في جلب نفع أو دفع ضرر ، وتخرق حجب الأكوان بصيرته ، فيراها
 كشفاً محققاً ، فلا يعبأ بالخيالات الوهمية ، ومسالك أهل الجذب هم
 المؤهلون للمحبة في سابق العلم ، فهم المحبون المخطوبون للوصال ،
 الذين اختطفوا من الحضيض الأدنى ، إلى بحبوح القرب الأنهى ، من
 غير تعبٍ ولا عناء ، بل محمولون في محفة المنة ، فالسابق إلى قلوبهم
 وجود محبوبهم ، فلا يدخلون في الأشياء إلا به ، ولا يخرجون عنها إلا
 به ؛ لأنه السابق لهم بمحبته ، والمتولي لهم برعايته ، فهم أهل الفتح
 المبين ، ولي في ذلك :

يا من تحقق أسراراً بما وهبت من مئة القرب حتى طاب مشاها
 في حضرة الحق من توحيده امتلات وكان في قاب قوس القرب مأواها
 اسلك بنا مسلكاً فاقت مراتبه بجذبة منك وأتحفنا برؤياها

إِلَهِي ؛ أَغْنِي بِنَدْبِيرِكَ عَن تَدْبِيرِي ، وَبِاخْتِبَارِكَ عَن اخْتِيَارِي ، وَأَوْقِفْنِي
 عَلَى مَرَازِكِ اضْطِرَارِي

(إلهي) بمعنى المدبر المختار ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ
 الْخِيَرَةُ ﴾ (أغني بتدبيرك عن تدبيرِي ، وباختيارك عن اختياري ، وأوقفني
 على مراكز اضطرابي) الغنى بتدبير الله عن تدبير العبد لنفسه هي حالة
 الموحدين ، وسيما خواص عباد الله المقربين ، والاختيار كذلك ؛ لأن
 نور الكشف يعطي ذلك ، وضده هو المذموم ، هو تدبير العبد في أمر

لم يدره فيه الشرع ، واختياره لأمر لم يدر فيه عين الصواب ، كما هو شأن المحجوبين والجهال المغرورين ؛ فلذلك سأل المؤلف أن يغنيه عنه بما يكشفه له من حسن اختيار الله له وتدييره ، ويوقفه على مستقر اضطراره ، وهذه هي حالة الأدباء ؛ أنهم لا يفارقهم اضطرارهم إلى مولاهم في سائر الأحوال ، ومراحون عن مفاضة التدبير والاختيار ؛ لما حمله عنهم من واردات الأنوار ، وصوله سلطان الحقيقة على الأسرار ، فهنا يحصل الغنى عن التدبير والاختيار .

ومن وقف علمه أو صنعته وعرفها بما هي عليه من العجز والضعف والجهل بعواقب الأمور . . وقف - لا محالة - عما ليس هو من مقتضى الربوبية ، وسلم الأمر وانقاد ، وسلم عن المنازعة في أحكام الله ، والمعاندة لأقداره ، ولزم مركز اضطراره ، ولي في ذلك :
يا من هو القادر المختار في الأزل قبل البروز إلى الأشباح والصور
سَلِّكَ أَغْنِي بِكَ عَمَّا مَنِي مِنْ خَطَلٍ ونجني من حتوف الجهل والضرر

إِلَهِي ؛ أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي ، وَطَهِّرْنِي مِنْ شِكِّي وَشِرْكِي قَبْلَ
حُلُولِ رَنْسِي

(إلهي) بمعنى متولِّي أمري ، وقائد زمام أمري (أخرجني من ذلِّ نفسي ، وطهِّرني من شِكِّي وشِرْكِي قبل حلولِ رَنْسِي) .

الإخراج الحقيقي : هو ما كان بالله لا بالنفس ، والذل الذي طلب المؤلف الإخراج عنه : ذلُّ النفس لغير الله لمعنى يتوهمه من وصول نفع أو حصول ضرر ؛ وذلك لكثافة حجابها عمَّن بيده كل منافعها

ومضارها ، وأن الخلق فيما يصل على أيديهم آلات مسخرة لا تتحرك ولا تسكن إلا بتخريكه وتسكينه ، فما لم تخرج عن رؤية الأعيان وظلمة الآثار . . . ذلت للمخلوقين لا محالة ، فطلب الخروج عن رِقِّ الأكوان إلى صرف صفاء عبودية الرحمن ، وهي الحرية المحققة التي من وصلها . . . صارت الأشياء له متفاداة بحكم التسخير ، وهو لا ينقاد لغير سيده ومولاه .

والشك : هو سبب الحرص على الدنيا ، الموقع في حبال الطمع والبخل وكل رذيلة ، والشرك : هو رؤيته أن لشيء من الأشياء تأثيراً دون الله في سائر المعتادات .

وهذه الأحوال مجانية لحقيقة التوحيد ، مباينة لمعاني التفريد التي أتحف بها خواص العبيد ، وخذُّ الشك : ضيق الصدر لأمر ينزل ، فيتبرم لذلك ، ويعتريه الهم والحزن والسخط ، ويظلم القلب لذلك ، وكلما ازداد ظلمة . . . ازداد حرجاً وضيقاً كأنما يصعد في السماء ، ويضاده شرح الصدر بنور اليقين ، وكلما كان نور اليقين أقوى . . . كان الانشراح أوسع ، ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ .

والشرك : هو انغمار القلب بظلمة البعد ، فينظر الأسباب هي المؤثرة ، فيتمكن الهوى من القلب ، وينكمش في طلب الأسباب من سائر وجوهها ، فتستعبده وتستهويه ، وكلما كان فيها أمكن . . . كان من نور التوحيد أبعد ، عافانا الله من ذلك بمنه وكرمه ، ولي في ذلك :

يا منقذ الغارق المكروب في اللجج أخرجني أدركني أنقذني من الحرج
من ذل نفسي لغير الله ذاك لها سجن وقيد وعن طرق الهدى عوج
ومن شكوك عن الإيقان بائنة وشرك الأعيان مر قاطع سمج

فمن لم يتطهر من هذه القاذورات ، ولم يبين هذه المذمومات في الدنيا قبل حلول الرمض ؛ وهو الموت الطبيعي . . نالت عليه كرباتهما في البرزخ ، وطالت معاناتها هنالك ، ولم يجد سبيلاً إلى التدارك لما فات ، فتتوالى عليه مرارة الحسرات ، ومقاساة شدائد الكريات ، عاقبانا الله منها ، وزحزحنا من مهالكها ، ولطف بنا من مخاوفها وأحبابنا كذلك في الله وسائر المؤمنين ، قال :

بِكَ اسْتَنْصِرُ فَأَنْصُرْنِي ، وَعَلَيْكَ أَنْتَوَكَّلُ فَلَا تَكِلْنِي ، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ فَلَا تُخَيِّبْنِي ، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تَحْرِمْنِي ، وَلِجَنَابِكَ أَنْتَسِبُ فَلَا تُبْعِدْنِي ، وَبِيَابِكَ أَقِفُ فَلَا تَطْرُدْنِي

هذه المعارف بحسب ترقِّي العارف في مراتب القرب ؛ لأن أول مفتاح أبواب الملكوت الذي من عالم القلوب . . هو الإيمان .

وثمرته وحقيقته : التوكل على الله ، وحقيق بنيل ما طلب حيث صح له مقام التوكل ، لا يوكل إلى نفسه ولا إلى غير سيده ؛ كما قال الله - وهو أصدق القائلين - : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

ثم لما أقيم في مقام العبودية لله بالدعاء . . فقال : (وإياك أسأل) لأنك مشهودي ، وأنت غاية مأمولي ومقصودي ، فلا تخيبي كما قلت وقولك الحق : ﴿ أَدْعُوكَ اسْتَجِبْ لِحُكْمِكَ ﴾ .

وفي فضلك الفائص الغامر لذرات الوجود أرغب وأطلب ، فلا تحرمني كما أنك أفضته عليّ قبل سؤالي ، فالأمول من وصلك : ألا تحرمني بعد طلبي والتجائي ، والحرمان : هو القطيعة من الخيرات .

ولجنابك الذي لا يضام نزيله ، ولا يخيب دخيله أنتسب بالعبودية ،
 فلا تبعدني بأن تبدل مقامي وتغير اسمي ؛ بأن أكون عبداً لغيرك من
 هوى أو دنيا ، وببابك أصف فلا تطردني ، [و] وقوف العبد بباب سيده :
 هو لزومه لطاعته ، والتعلق بمظاهر تجلياته ، وهذا غاية المطلوب ،
 ومنتهى المرغوب ، والطرد بصد ذلك : أن تجده مستعبداً بظاهره
 للأسباب ، ومتعلقاً بباطنه بها ، فلا انفكاك له عنها ، ولا انفلات له
 منها .

وهذه المعاني كلها مما يتأكد على المرید مراعاتها ، وإمعان النظر
 في مضمونها ؛ ليحذر من مهالك طرقاتها ، ففيها انقطع أكثر الخلق
 وهم لا يشعرون ، ولي في ذلك :

عليك متكلي يا من هو الله	فلا تكلني فذاك السؤال والجاه
يا ناصرأ كل مستنصر به وعلى	كل النوائب والأهوال يرجاه
إياك أسأل غوث الطالبين ومن	إليه يرغب فإن الله مولاه
في فضلك الغامر الفاتض عليه فلا	تحرم نزيلاً يوافي نزل مولاه
ومن جنابك فلا تبعد لمتسب	أيضاً ولا تطرد الواقف لحوباه

إِلَهِي ؛ تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ ، فَكَيْفَ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ
 مِنِّي ؟ أَنْتَ الْغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ الْتَفْعُ مِنْكَ ، فَكَيْفَ لَا
 تَكُونَ غَنِيًّا عَنِّي ؟

(إلهي) بمعنى الغني بذاته وصفاته وأفعاله (تقدس رضاك أن

تكون له علةٌ منك ، فكيف تكون له علةٌ مِنِّي ؟ أنتَ الغنيُّ بذاتِكَ
 عن أن يصلَ إليك النفعُ منك ، فكيف لا تكونُ غنياً عني (١٩) هذه
 العبارة ترقى في تجليات الأسماء والصفات ، وملاطفات من تعطفات
 ألطاف الذات .

فأول ما تجلت عليه من أسماء الأسماء نجوم الأفعال الأزلية
 والمعاني الأمرية ، ورأى ما هي عليه من التنزيه عن العلل والآلات
 الخلقية .. نزوة ذلك المقام ؛ مما يتعاطاه الجهال والعموم ، بنسبتها
 إلى العلل الحادثة بأفعال الأنام ، فقال : (تنزَّه رضاك)^(١) ، كما قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعودُ برضاك من سخطك »^(٢) ،
 ولم يستعد من سخطه بسبب من الأسباب ؛ لفناء الأسباب [و] علل
 الانتساب ، ورضاه أثر من آثار وصفه على شيء رضي عليه ، وإذا
 برزت آثارها على العباد .. تفرعت عنها أفعالهم من حسنها وسيئها ،
 فتسمى أفعالاً .

وأفعاله مقدسةٌ عن العلل ، لا كما يزعم المعتزلة - قبح الله رأيهم
 - بل فعله بمحض الاختيار ، فكل أفعاله وأحكامه كذلك لا علة تبعثه
 على فعل شيء ، ولا عليه وجوب لخلقه ، وما كان من المصالح ..
 فبمحض الفضل والكرم .

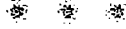
كذلك (أنت الغني بذاتك) كما أنت الغني بصفاتك وأفعالك (عن
 أن يصل إليك النفع منك) لوجود غناك عن الأغراض المكملات ؛
 لوجوب كمالك ، وثبوت جمالك وجلالك عن تطرُق نقص .

(١) كذا في النسخ مع أنه أوردها في الحكم قبل قليل بلفظ : (تقدس رضاك) .

(٢) رواه مسلم (٤٨٦) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

ولي في ذلك :

تقدست صفة المولى عن العلل في سابق الأمر بل في حضرة الأزل
وهو الغني أبداً في عز رتبته عن أن يصل منه له نفع ولن يصل
وكل أفعال من دونه ولو حسنت لا يستحق بها قطع ولا وصل



وهذا توطئة منه لسؤاله وانطراحه تحت جريان الحكم ؛ لذلك قال :

إِلَهِي ؛ إِنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ غَلَبَنِي ، وَإِنَّ الْهَوَى بَوَاقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي ،
فَكُنْ أَنْتَ النَّصِيرَ لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي ، وَأَعِينِي بِفَضْلِكَ حَتَّى
أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَن طَلْبِي

(إلهي) بمعنى ذي القدرة القاهرة والمشيمة السابقة (إن القضاء
والقدر غلبني ، وإن الهوى بواق الشهوة أسرنني ، فكن أنت النصير
لي حتى تنصرنني وتنصر بي ، وأعيني بفضلك حتى أستغني بك عن
طلبتي) إن القضاء السابق والحكم الغالب غلبني عن ألا آتي إلا
بما هو المراد من تقريب أو إبعاد ، أو شقاء أو إسعاد ، أو موافقة أو
عتاد .

وهذا من الاعتذار بين يدي الكريم الغفار ، اللطيف الستار ، ولكن
من حق الأدب : ألا يقطع النظر في الأفعال الملوثة عنه بمرة واحدة ،
بل يعطي الأدب حقه من إضافة هذه الأفعال إليه وإلى هواه وشهوته ؛
لتنزيه الجنب الإلهي عن مثل هذه الألفاظ ، فيشهد باطناً انفراد الله

بها دون علمه أو عمله ، وظاهراً يكون لائماً لنفسه وذاماً لها ، وإذا ألهم عبداً مثل هذا الاعتذار وقام فيه بالأدب باطناً وظاهراً . . فإن الله يريد أن يقبل عذره .

(فكن أنت النصير لي) على أعدائي (حتى تنصرتني) عليهم بما أمددنتي به من جنود أنوارك ، وواردات تجليات أسرارك ، (وتنصرتني) بعد كمال إرادتي ، ووصول مأمولي وبغيتي ، وتنصرتني من اقتفتني أشري ، وانتحل محبتي من أبناء وقتي ، بما تلقه عليّ من فائضات حكمتك ، ومشرفات أنوار معرفتك ، وتلبسني من ملابس نفائس ولايتك ، فلا يراني عدوً إلا ويرجع خاسئاً حسيراً ، ولا حبيب ومحب إلا ويكون قمرأ منيراً ، ولا يلوح لي ذكر في فكر إلا ويخنس منه كل خاطر نفس وهوى وشيطان .

فهلكذا النصرة بالولي ؛ أنه جند الله لعباده الصادقين ، وسُلّم طريق السالكين ، وقدوة أسرار المريردين ، يتوب الله على الخاطيء ، ويدني القاصي ، ويرحم العاصي ، ويأخذ على صراط الله بالنواصي ، إذا رُئي . . ذكر الله ، وانخنس كل شيطان من الإنس والجان ، يحكم على الأمور بأمر النهي ، ولا يحكم عليه شيء دون وليه .

(وأغنني) بك عن طلبي الغنى بفضل الله ، والاكتفاء بنظر الله والرضا بتدبير الله (حتى أستغني) وهذا دأب الموحدين ، وشأن المؤمنين ، وطريقة المكاشفين ، وسَمْتُ العارفين ؛ كما أغنيت عن الطلب الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، حيث قال في حال ورود الحكم عليه : (حسبي عن سؤالي علمه بحالي) لما قال له جبريل حين رُمي به بالمنجنيق إلى نار نمروود : ألك حاجة ؟

قال : (أما إليك .. فلا ، وأما إلى الله .. فبلى) قال : سَلَّهُ أَنْ
 ينجيك ، فقال : (حسبي عن سؤالي علمه بحالي)^(١) ، فاعتناؤه عن
 جبريل ، وعن الملائكة الذين عرضوا عليه في تلك الأسباب ؛ كملك
 الرياح وملك الماء ، فاعتنى بالفضل ، وتوالت عليه الأنطاف ، وتوالت
 عليه أنوار القرب ، فأغنته عن السؤال ، ولي في ذلك :

إن القضا غالب والعبد مغلوب وقوة القدرة القاضي على الدوب
 غيره :

هذا لربك أما أنت يا فطن قل بالهوى أوثقتني شهوة البشر
 فكن نصيري على الأعداء قاطبة وانصر كذلك بي من كان منتصر
 وأغنتني بك يا ذا الفضل ثانية مني ومن سائر الأكوان والغير
 فلا جرم إن سألتك هذا المقام العالي ؛ الذي يفني الأول والتالي .

أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ

فبذلك صرت لهم ولياً ، وبهم عمّن سواك حقيقاً ، فبرز منهم ما برز
 من توحيدك ومعرفتك ، فليس لأحدٍ إلى توحيدك سبيل إلا بما منك من
 النور الذاتي ، ولا لأحدٍ إلى معرفتك وصول إلا بما تجليت من التجلي
 الوصفي والنعته الفعلي ؛ فإشراق هذه الأنوار ، وتجلي هذه الأسرار . .
 هو الذي أزال عنهم ظلمات الأغيار ، ومحا عن قلوبهم صور الآثار ،
 وقهر لهم كل عتيد جبار .

(١) تقدم (ص ٤٥٨) .

وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَابِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا غَيْرَكَ ، وَلَمْ
يَكُنْ لَهُمْ مَطْلُوبٌ سِوَاكَ ، أَنْتَ الْمُؤَنِّسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشْتَهُمُ الْعَوَالِمُ

(وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَابِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا غَيْرَكَ ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَطْلُوبٌ سِوَاكَ) بِمَا أَفْضَيْتَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَبِكَ وَوَلَاتِكَ
(أَنْتَ الْمُؤَنِّسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشْتَهُمُ الْعَوَالِمُ) .

فمقام الأُنس بالله هو ثمرة محبته التي استخلصتهم عن الأغيار ،
وأوحشتهم عن الآثار ، ولم يملكهم أهل ولا عقار ، ولا وطن ولا دار ،
بل انفردوا في البراري والقفار ، وتغزَّبوا عن الديار ، فراراً من الأغيار ،
فأنسهم بمشركات أنواره ، وأبسهم سراويل أسراره ، وأعدَّ لهم نزلاً
عظيماً ، ونعيماً مقيماً في دارٍ وأي دار ، وأعدَّ لهم مقعد صدق عند
ملكٍ مقتدر ، في جنة سقفاها عرش الرحمن ، ينادون بالتحيات في
أقطار الأرض والسموات ، ويلقونه بأنواع الكرامات ، واحترقت من
الأزل إلى الأبد أنوار الأكوان ، وشاهدوا سمردية الملك الديان ، فدنت
إليه أسرارهم دنو محبٍ لحبيب ، فكانوا به أشدَّ أنساً من الولد إلى أمه ،
والمحب إلى حبه ، فكفاهم كل الهموم ، وبأينتهم سائر الغموم .

فالتولي : هو إشراق الأنوار في القلوب التي تنشأ عنها المعرفة
والتوحيد ، والمحبة هي ناشئة عن المعرفة ، وثمرتها : الأُنس بالله ،
وترك ما سواه ، والإدبار عما عداه ، ولي في ذلك :

أَنْتَ الَّذِي فِي قُلُوبِ الْأَوْلِيَا شَرَقَتْ أَنْوَارُكَ اللَّيْلِ بِهَا نَارُ الْحَنَادِيسِ
أَزَلْتَ عَنْهَا ظِلْمَ الْأَغْيَارِ فَأَحْتَرَقَتْ كُلُّ السَّنَادِيدِ مِنْ مَقْتِ الْوَسَاوِيسِ
أَحْبَابٌ صَدَقَ لَهُمْ أَنْسٌ إِذَا رَهَقَتْ فِي غَيْهِبِ اللَّيْلِ أَوْجَاهُ الْمَفَالِيسِ

وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى اسْتَبَاتَ لَهُمُ الْمَعَالِمُ

أنت الذي سقت لهم الهداية إلى سبيل الولاية ، وحصلت منك لهم الرعاية ، حتى استقاموا على صراط العناية ، ولم تنزل لهم حافظاً وبهم ملاطفاً ، حتى ظهر لهم سر وحدانيتك ، وحصلوا في مقام فردانيتك ، وكحلت أبصار بصائرهم بنور معرفتك ، فشهدوك لهم قريباً ، وأظهرت سر لطفك بهم ، فاتخذوك حبيباً ، ولي في ذلك :

أنت الذي أعطيت أنوار الهداية في ما هو مرادك من غي ومن رشد هديت قوماً إلى التحقيق فانظر في علم الإله وما يحويه من مدد



فإذا تحقّق المرید بمقام التوحيد ، وفنيت عنه كثرة التعديد ، وشهده منه إليه أقرب من جبل الوريد . . غني به عن الأغيار ؛ لذلك قال المؤلف رضي الله عنه :

مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟! وَمَاذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟!

وجود الأغيار والافتقار إلى الآثار دليل على انطماس البصائر وذهاب نور الأبصار ، ﴿ وَزَرَّهَمْ بَظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ ، فالحق ليس بمقصود ، بل هو الموجود دون كل موجود^(١) ، والحاضر عند كل شيء ، والشاهد على كل مشهود .

(١) قال العارف : (إلهي ؛ كيف أقصدك وأنت وراء القصد ؟! أم كيف أطلبك والطلب عين البعد ؟!) .

فما تفيض فائضة ، ولا تنطق لسان لافظة .. إلا كان عليها شاهداً ،
ولها محصياً حافظاً ، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ الآية ، فصح أن فقدان
وجود الحق غاية العمى ، ومنتهى الفقد ، وغاية الطرد .

وماذا فقد من الأشياء العدمية من وجد الحق له حافظاً ، ولديه
حاضراً ، ومنه قريباً ، وله حبيباً ، ولسقمه طبيباً ، ولدعائه مجيباً ، ويتوليه
له واقياً ، ولفائقته كافياً؟! فلا تغنيه عنه الأعراض ، ولا تسده دونه
الأغراض ، بل يكون وفقاً عليه ، لا يستغني عنه بالأعيان ، ولا يكفيه
دونه سائر الأكوان ، ولا يلهي عن محبته يانس ولا جان ، ولا يفتقر بعد
وجوده إلى الأغيار ، ولي في ذلك :

ماذا وجد من فقد نور الإله وما يغنيه عنه جميع الكون والصور
ومن وجد ذلك نال الكل فيه فما غير الإله وجود ثم معتبر



ثم لما بين حال الواجدين لله ، المغتئين بوجوده دون سائر الأكوان ،
وخسارة أحوال المحجوبين عنه بكثائف الأغيار ، والمطموسين في
ظلمات الآثار . فقال مبيئاً لأحوالهم ، وذاتاً لسوء مقامهم ، فقال :

لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ عَنْكَ بَدَلًا^(١) ، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَىٰ عَنْكَ مُتَحَوِّلاً ،
وَخَبِيئَتُهُ ظَاهِرَةٌ ، وَتَجَارَتُهُ بَائِرَةٌ

مَنْ رَضِيَ وَاخْتَارَ عَنْكَ بَدَلًا ، فَلَيْتَ شِعْرِي ؛ مَا يَعِيضُهُ بِوَجُودِ سَيِّدِهِ ۱؟

(١) في هامش (أ ، د) نسخة : (دونك) بدل : (عنك) .

وما الذي يروي صدئ قلبه إذا فقد شهود ربه ؟ فلكل شيء بدل غيره ،
 ولكل شيء عوض ، ولا يعيض عنه شيء ، قال القائل في ذلك :
 لكل شيء إذا فارقتَه عوضٌ وليس لله إن فارقت من عوض
 فلا حرمانا وصال الاتصال به ففیه عافية ما بعدها مرض
 والخسارة : وقوع النقص عند التعرض للريح ، وأي صفقة
 أخسر ، وتجارة أبور ممن ابتغى عنه متحول ، ومن محالّ قربه
 تنقل ؟ وكل طالبٍ لغيره كذلك في خيبة وخسارة ، وبوار تجارة ،
 ولي في ذلك :

خاب الذي عنك يرضى بدلاً فمتى يغنيه عنك وجود الهالك الغاني
 ويا خسارة من يبغى التحول عن قرب الحبيب فذاك المبعد العاني
 كيف التحول أم كيف الشطون وما يلقى بديلاً عن المولى ولا ثاني



فإذا كان لا غير مقصود ، بل وجوده على الحقيقة مفقود .. تعجب
 المؤلف رحمه الله فقال :

إِلَهِي ؛ كَيْفَ يُرَجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ ؟ وَكَيْفَ يُطَلَّبُ مِنْ
 غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْأَمْتِنَانِ ؟

الرجاء من غير الله من شأن المحجوبين ، وعلامة البعد من رب
 العالمين ، فالرجاء : هو تأميل أمرٍ يُترقّب حصوله ، ومن كان الله
 مشهوده .. فلا يكون لغيره في الحوائج مقصود ، وشاهد حصول الآمال

ونيل كل نوال . . دوام فيض الإحسان ، فكيف يرجئ غير من ألفت منه
العوائد الجميلة والمنن الثقيلة !؟

وكيف تطلب من غيرك وغيرك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا
موتاً ولا حياة ولا نشوراً !؟

وأنت مع ذلك ما بدلت عوائد الامتنان ، بل لم تزل المنن مديمة ،
والنعم لديهم مقيمة ، فلا يكون الطلب من غيره - بعدما علمت ما هو
عليه من عدم تبديل عوائد الامتنان - محموداً ، ولا يكون غيره لمهمات
الأمر مقصوداً ، ولي في ذلك :

ما يُرتجى غير من بالفضل موصوفٌ وعنده فائضُ الإحسان مألوفٌ
وكيف تطلب من لم ترح منته دون الإله الذي بالفضل معروفٌ

يَا مَنْ أَدَاقَ أَحْبَاءِهِ حَلَاوَةٌ مُؤَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ

حلاوة الأُنس بالحُب للمحبين تنسيهم كل نعيم ، والأُنس يقتضي
انبساط المحب ، وتدلي المحبوب ؛ فهي لديهم ألد من نعيم الجنان ،
والأُنس للمحبين خاصة ، ولهم في مقام الأُنس آيات وصنوف إكرام
وسبوغ إنعام ؛ فمنهم [من] إذا أقيم فيه . . يقول : لو وضع السيف على
مفرقي وشقني نصفين . . لم أجد لذلك المأ ، حتى قال الجنيد رضي الله
عنه : (كنت في صغري أسمع ذلك من السري ، وكنت أستبعد ذلك من
قبل حتى وجدته) أو كما قال (١) .

(١) تقدم (ص ٤٣٢) .

والمؤانسة تقتضي القيام بين يدي الحبيب ، فالقيام لا يكون حقيقة إلا للمستأنسين الذين غابت معالم الأكوان لديهم ، وذهبت محاسن الألوان عن قلوبهم ، فلم يروا غيره ، فقاموا له بصدق العبودية بين يديه متملِّقين ، والتملُّق : هو التلطف والتودُّد للحبيب ، ولا يحسن ذلك لغيره ، ولي في ذلك :

يا مَنْ أذاق أولي الأبواب خيرته شهد الشهود ووصافي الأنس في الأزل
قاموا له بين مشتاق ومكتئب وشاكٍ من ضنا الأشجان متحلٍل



فمقام المحبة يقتضي الأنس بالحبيب ، ومقام التولي يقتضي الاستعزاز بالوالي العلي ؛ لذلك قال :

وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلَابِسَ هَيْبَتِهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ

ولبس الهيبة هي القاهرة لسائر الأعداء ، ودامغة لباطل كل عنيد ، وذلة لكل صادق مريد ، والهيبة : هي ما يجده كل من واجههم من القهر على امتثال أمرهم ، وتعظيم شأنهم وإن كانوا من الجهال العوام ، والأجلاف الطغام ؛ حتى الوحوش والأنعام ، فإنها تدين لهم بالإجلال والاحترام ، إلا من برز في حلة الجدل من أهل الزيغ والضلال ؛ فإنه يتجاهل بهم ويغض عن مقامهم مع ما هو متحقق به من علو مراتبهم .

والعزة : هي رفع همهم عن الأكوان ، وتعلُّق مطالبهم بجناب سيدهم ، واغتناؤهم به عن كل شيء سواه ، وعدم طلبهم لغرض إلا

إياه ، فهذا من عزة المؤمن المتصلة بعزة الله ونبيه ؛ حيث قال : ﴿ وَرَبِّهِ
الْعِزَّةُ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ولي في ذلك :

يا مُلبس السادة الأجناد هيته القائمين بعز الله كل ولي
نجائب الكون أنصار لسنته في كل وقت ونهج الحق معتدل

فلما تخلفت المظاهر الخلفية المسبوقة بالعدم بلائح أنوار القدم ..
عرف الشيء من أصله ، وردَّ الحق لأهله ، فقال :

أَنْتَ الذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ الذَّاكِرِينَ ، وَأَنْتَ الْبَادِئُ بِالْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوْجِهِ
الْعَابِدِينَ ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْعَطَاءِ قَبْلَ طَلَبِ الطَّالِبِينَ ، وَأَنْتَ الْوَهَّابُ لَنَا
ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْتَنَا مِنَ الْمُتَغَرِّضِينَ !!

هكذا شأن الموحدين إذا كرعوا مناهل اليقين ، وظهر لهم الحق
المبين .. يرون أولوية الحق في سائر الأفعال ؛ فالذكر من الذاكِرِينَ
حسب ما سبق من ذكره لهم بما ذكروه ، قال جلُّ من قائل : ﴿ فَادْكُرُونِي
أَذْكُرْكُمْ ﴾ أي : ذكري لكم حسب ما ذكرتموني ، وهذا فيه راحة إخبار
عن ذكره لهم ؛ لأن ذكره قديم ، وهذا على حسب ما ذكرتموني ..
أذكركم ، فالقرآن قديم ، وهم حادثون : من أفعالهم وأوصافهم
وذواتهم ، وعلم الحق فيهم وبهم قديم ، فهذا ذكره لهم قبل بروزهم
من كتم العدم .

وبدو الإحسان كذلك أن أهلهم لطاعته ، وهياهم لعبادته ، وقربهم
لمحبته ، وواجههم برحمته قبل توجههم وتعبدهم ؛ فهو البادئ

بالإحسان وفيض الامتنان قبل ظهور الأعيان ، وانبراء الأكوان ، ووجود
الإنس والجان ، بقوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما وهبهم من نور
الإيمان ، وتنزيل القرآن على أكمل عالم الإنسان ؛ محمد المصطفى من
عدنان [صلى الله وسلم عليه وتابعيه بإحسان] وإرساله إلى كافة الإنس
والجان ، وأهلهم للزوم كلمة التقوى بقوله : ﴿ وَالزُّمُّهُرُ كَلِمَةُ التَّقْوَى ﴾ .

فالذكر : ممّا يختصُّ بالمقربين والصفوة الدائبين ، والإحسان : ممّا
يختصُّ به أهل الإحسان المكاشفين بأنوار الصفات الشاربيين عين اليقين ،
والعطاء : لأهل التلقّي بالتلقين ، والآخذين عن الوسائط بعد مشاهدة
البراهين ؛ وهم عموم المؤمنين ، وعمّار أصحاب اليمين ، الآخذين في
علم اليقين ؛ فهم عالم الأفعال ، ووراء أسجاف الحكمة منتظرون .

وهو البادئ بالعطاء كما يحكم بذلك الشرع والعقل من قبل طلب
الطالبين ؛ لأن العقل يحكم أن أفعال الحق لا تعلل بعلة ، ولا تنال
بقعلة ، فلا يكون طلب الطالب يوجد أمراً لم يكن في علمه أنه لا
يكون ، وما كان في علمه أنه يكون . . فما يفيد الطلب وتكلف معاناة
تعب السبب ، والإضافات إلى النسب؟! (١)

وأنت الوهاب جميع ذلك ، والموصل إلينا ما هنالك ، ثم رفعت
شأن الإنسان على سائر الأكوان ؛ بأن نسبت إليه ما أنت واهبه ،
واستقرضت منه ما أنت موجدّه ، ووعدته عليه بجزيل الجزاء ، وتمام
الفضل في العقبى ، وتضعيف الثواب ، [في] الدنيا والمآب ؛ فأما في
الدنيا : فبالخلف الأكمل ، وفي العقبى : بالجزاء الأوفى ، فالحمد لله ؛

(١) فبقي الدعاء محض عبادة ، ونفعه بالنظر إلى معلق القضاء ، أما بالنسبة لمبرمه . .
فيقال للداعي : رفعت الأتلام وجفت الصحف .

فما أعظم منته !! وما أتم نعمته !! يستقرض ما أعطاك ، يثيبك عليه في عقبك ، وتنال به الشاء عنده في إعطائه ما هو ملكه !! ولي في ذلك :
 ذكرك تقدم ذكر الذاكرين وما يذكرك عبد فذاك الذكر منك بدا
 يا بادئ الكل بالإحسان منك فما للطائعين من الإحسان منك يدا
 أنت الجواد بإعطا الفضل منك كما بديت بالكل يا متآن يا صمدا
 ثم أنت تستقرض العبد الضعيف أما أنت الذي توجد الأعيان والمددا

إِلَهِي ؛ أَطْلُبُنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ ، وَاجْذِبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ

(إلهي) بمعنى المبتدي بالإحسان ، والمتفضّل بالعطاء والامتنان (اطلبي برحمتك حتى أصل إليك ، واجذبني بمنتك حتى أقبل عليك) .

الطلب من الله لعبده برحمته : هو عين ما هداه إليه من طرق المجاهدات ، والتقرب إليه بنوافل العبادات ، وعرفه من أنواع البر والكرامات ، فإن الله تعالى رحم العباد بطلب ذلك منهم ؛ لينالوا عظيم ما عنده من الفضل العظيم ، والنعيم الدائم المقيم ، ووقاية من العذاب الأليم .

فرحمهم بإرسال الرسل وإنزال الكتاب ، وأعطاهم أهلية الفهم لذلك والقبول له ، وأعانهم على القيام بمقتضى ما عرفوه ، ثم مدحهم وأثابهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وذلك مبتدأ منه من غير شعور

لهم شيء منه ؛ لأنهم في أول شأنهم ومبتدأ خلقتهم لا علم لهم
بشيء ، ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ، فهذا من
الطلب منه برحمته ، فوصلوا إليه بما رحمهم به .

(واجذبني بمتنتك) بعد الوصول إليك بالرحمة أو قبل الطلب ،
وذلك بمعنى الجذب قبل سبق سلوكك وتحري طاعة ؛ كما كان لطوائف
من المقربين ، والسادة المجذوبين ، والخصوص المحبوبين .

إما بعد سلوك .. فيتدارك بالجذب ، أو قبل ؛ بأن يختطف بجذبة
إلهية ، ونفحة ربانية ، وعطية امتنانية ، تخصه من بين أبناء جنسه ،
وتأخذه عن عالم حبه ، وتلقيه في بحر شهود الذات العلية ، وتشهده
مظاهر الأوصاف القدسية ، ويكون بحكم الأولوية ، ولا يرى للأغيار
وجوداً ، ولا للآثار في قلبه شهوداً ، بل مستغرق السر والروح والقلب
في شهود الأحد المعبود ، وإن شاء الله به إرشاد العباد .. رده رحمة في
البلاد ، ونعمة سابعة على العباد ، يبید العناد ، ويزيل الفساد ، ويمنح من
أطاعه صِرف الوداد ، مؤيداً بالروح الامتثاني ، ومؤزرأ بالسِرِّ الصمداني .

فهذا معنى جذبة المنّة والإقبال على الله على الدوام ، لا يكون إلا
للمحبوبين والخواص المجذوبين ، فلا يجدون للأغيار عندهم وجوداً ،
ولا للآثار في قلوبهم شهوداً ، فطلب المؤلف للوصول بالرحمة والجذب
ثانياً بالمنة ؛ ليكون متحققاً بكل المقامين ، عارفاً بمعنى الاسمين :
الباطن والظاهر ، الأول والآخر ، كما هو لأهل الكمال ، الكارعين مناهل
الوصال ، الحاكمين على الأحوال ، ولي في ذلك :

من كان بالرحمة الرحمن يطلبه إلى السلوك ونور الشرع يرهأه
ومن يكن ثمَّ مجذوباً بمتنته هو المهنا وكهف القرب مأواه

إِلَهِي ؛ إِنَّ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ ، وَإِنْ خَوَّفِي لَا يُزِيلُنِي
وَإِنْ أَطَعْتُكَ ^(١)

ذكر الخوف والرجاء هنا تنبيهاً منه على سرّ هذين المقامين
الشريفين ؛ لأن ظاهر الرجاء والخوف للعامّة من العوارض الحادثة ،
يخافون عند وجود عارض حادث ، ويرجون كذلك ؛ فإن أقيموا في
مقام العدل ، الذي أثره في العبد المعصية وجزاؤها العقاب وأصناف
العذاب .. خافوا ، وإن أقيموا في الطاعة التي هي أثر الفضل في العبد
وجزاؤها الجنة .. رجوا .

والعارفون شاهدوا بواطن الأشياء ؛ إذ شاهد الخلقُ ظواهرها ،
فيشاهدون الصفات العلية والأسماء العلوية ، وهي لا نسبة بينها وبين
الأفعال الخلقية ، فلا يزايلهم شهود العدل وإن أطاعوا ، ولا تغيب صفات
الفضل وإن عصوا ؛ فهم الذين قاموا له بحكم العبودية من غير علة .

وإذا شاهدوا الأفعال الصادرة عنهم .. لم يجدوها شيئاً بالإضافة
إلى ما هم مشاهدون من الصفات الحقيقية ، إن نظروا إلى الطاعة
الصادرة عنهم .. نادتهم الصفة العدلية وقوة نفوذها وعلية حكمها ،
فلم يعتمدوا على طاعتهم : ﴿ فَلَا يَأْمُنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾
علماً منهم بأنها إن تجلّت بالحكم .. غلبتهم ، وإن نظروا إلى ما برز
منهم من المعصية .. نادتهم الصفة الفضلية : ﴿ يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

(١) في النسخ : (لومي لا يزالني وإن أطعتك) ، وشرح المصنف على المثبت أعلاه ،
وكذا في الحكم وشروحها أيضاً .

الرَّحِيمُ ﴿ ، وَلَا تَأْتِسْرًا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَاذِبُونَ ﴿ ، فلم يزل بهم ذلك ، فلم تزايلهم هذه شهود الصفات ،
ولا يعتر بهم عما هم عليه ما يبرز عنهم من الحسنات والسيئات ، هذا
خلاف ما أهل الرسوم عليه ، وما عموم الخلق مستندون إليه ، ولي في
ذلك :

رجائي لا ينقطع عن فضلك العمم وإن عصيت فشان العبد يا أنسان
والخوف من مكر جبار يكون وإن كنت المطيع وقم للعدل ميزان

إِلَهِي ؛ قَدْ دَفَعْتَنِي الْعَوَالِمُ عَلَيْكَ ، وَقَدْ أَوْقَفَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ

لهذا مفسر لما تقدّم من كلامه ، العوالم : جمع عالم ؛ وهي كل ما
سوى الله سبحانه ، إن اعتمدت على الطاعة . . لم أجد لها مخلصاً لي
من عدلك إلا بما وعدت من جزيل كرمك وفضلك ، وإن شردت عنك
بالمعصية . . ردّتني إليك بشمول رحمتك وسبوغ فضلك .

فعلى الحقيقة : إن العوالم كلها تسير إليك ؛ فالخوف سابق
إليك ، والرجاء داع لعبادك إليك ، وكل وصف من صفاتك ، أو اسم
من أسمائك ، أو فعل من أفعالك . . ناطقٌ بوحدايتك ، ومشير إلى
صمدانيتك .

فاسمك الكريم يشير إلى أن الكريم لا تتخطاه الآمال ، ولا تنزل
بغيره نوازل الأحوال ، وغيره كذلك ، والمصائب والنكبات المؤلمة
ملجئة للعبد إلى سيده ، والعوارض والعوائق محبسة له وحائه ، وكذلك
النعم ، وسائر كل عالم من ملائم وألم ، ولي في ذلك :

إليك دفعنتي الأكوان يا صمدا وعلمي أوقفني أن الفضل منك بدا

إِلَهِي ؛ كَيْفَ أَحْيَيْتَ وَأَنْتَ أَمَلِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَهْمَيْتَ وَعَلَيْكَ مُتَّكِلِي ؟!

فلما تحقّق ذلك .. عجب من أنه عبدُ الله ابتدأه بالإحسان ، وناداه بفوائد الامتنان ، قبل طلبٍ منه لذلك ولا تعرّض ، فكيف يخيب بعدما ألبسه لبسة العرفان ، وتوجّه بتيجان الإيمان ، وكوّنه إليه الكفر والفسوق والعصيان ؟!

وكيف أهين بعد إعزازك إياي بنص القرآن ؛ بقولك : ﴿ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّسُولُ لَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقد أكرمتني بكرامة المحبة ، وأنلتني بفضلك رتبة القرب بقولك : ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ؟!

فذلك منك بدا من غير طلب منا ، ولا تعرّض مناله ، أفتراك نذيقنا إهانة البعد بعد القرب ؟! أو تراك تهيننا بعدما وهبتنا ؟! ولي في ذلك :

حاشا تخيننا الإحسان يا أملي ولا تهين الذي بالله متكلي

إِلَهِي ؛ كَيْفَ أَعَزُّتَ وَفِي الدَّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ لَا اسْتَعَزُّتُ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي ؟! إِلَهِي ؛ كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُ وَفِي الْفَقْرِ أَقَمْتَنِي ؟! أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي ؟!

هذه أمور متضادة وأوصاف متباينة ، تتحرّر فيها أولو العقول ،

وتتواحم فيها الأحكام والنقول ، ولكن أرباب الكشف إذا كوشفوا
بأسرار .. أعطتهم الاستغناء به ، والاعتراف بقربه ، وإذا وقفوا على
ضعف خلقيتهم وذلة عبوديتهم .. أعطتهم أن الافتقار لهم أصل ،
والذلة لهم وطن .

فكلما نظروا بعين الخلقية ، والذلة الأرضية .. قال : واعجباً ؛ كيف
أعزُّ وفي الذلة أركزني ، وجعلت فيها تصوير خلقتي ، وإليها مآب
تربتي !؟

وإذا نظر إلى نسبة الخصوصية ، والرتبة الروحية ، والمنزلة العلوية ..
قال : كيف لا أستعزُّ وإليك نسبي !؟ ﴿ إِنَّ عِبَادِي ﴾ ، و ﴿ يَعْبَادِي ﴾ ،
﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴾ ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .

فإذا نظر إلى قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .. قال : كيف لا
أستعزُّ وإليك نسبي !؟ وإذا نظر إلى قوله : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ..
قال : كيف أستعزُّ وفي الذلة أركزني !؟ وذلك بين لدوي الأسرار ، لا
غبار عليه ولا استتار ، ولي في ذلك :

فكيف أعزُّ وفي ذلتي أركزني حكم الإله وهذا الشأن معلوم
أم كيف لا وإليك العبد نسبه تعطي بأنك للأكوان قيوم

أَنْتَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُكَ ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَمَا جَهَلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ
الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَزَأَيْتُكَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَأَنْتَ
الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(أنت الذي لا إله) يقصد ، ولا ربَّ يعبد (غيرك) إذ الغير متوجِّه

إليه ، ومُقْبِل بالطوع والإذعان بين يديه ، ينادي بلسان افتقاره ، ويفصح عن فاقته واضطراره : (تعرّفت لكل شيء) بما أنت متجلّ به عليه ، ومتعرّف بالافتقار عليه ، (فما جهلك شيء) ، بل مسبح ومنزه وموقر ومعظم بقولك : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغُ بِحَمْدِكَ ﴾ ، وبقولك : ﴿ وَإِنَّ مِنهَا لَمَّا يَحْفَظُ مِن حَسَنَةِ اللَّهِ ﴾ .

(وتعرّفت إليّ) خاصة بما وهبني من سرّ معرفتك ؛ فما جهلك في شيء بجمالك وجلالك ، وفضلك وعدلك (حتى رأيتك ظاهراً في كل شيء) بالحكم والقدرة والقيام والأمر ، (فأنت الظاهر لكل شيء) بالقدرة القاهرة ، والمشئة النافذة ، والمحجة الظاهرة بالأفعال والصفات ، الباطن عنها بالكنه والذات ، ولي في ذلك :

أنت الإله الذي لا مثل يشبهه ولا نظير من الأنداد حاشاه لكل شيء تعرف بالذي ظهرت من سرّ قدرته تبارك الله

يَا مَنْ أَسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَى عَرْشِهِ ، فَصَارَ الْعَرْشُ غَيْباً فِي رَحْمَانِيَّتِهِ ؛
كَمَا صَارَتِ الْعَوَالِمُ غَيْباً فِي عَرْشِهِ

العرش : مستوى الرحمة التي وسعت الأشياء ، وأبرزت العوالم من ظلمة العمى ، وهي صفة من صفات الله ، إليها ينتهي مجموع أسرار الصفات ، فلها السبق على التفصيليات والإجماليات ، ومنها ظهر اختراع سائر الأكوام المُلكيات والملكوّيات والجبروتيات .

والعرش : سقف العوالم العلويات والسفليات ، والحسيات والمعنويات ، والجسمانيات والروحانيات ، وهي من العلم الأزلي

كالصورة ، والعلم روحها ، والعرش من جملة الأركان ، وهو غيب فيها لسعتها ، ولها الأصالة ، والفرع عن الشيء يكون غيباً فيه لا محالة ، وهو مجلاها ومحل ظهورها واستوائها^(١) .

وسائر الأكوان غيبٌ في العرش ؛ لأنها مصرفة له ومندرجة تحت سعته ، وبوجوده ظهرت حكمة الله بإبراز كل ذي جسم وروح في هذا التجلي العرشي ، الذي هو مجلن مجموع السبع الصفات ، المعبر عنه بروح القدس ، فالأكوان غيبٌ فيه ، كما أنه غيبٌ في الرحمة ، والرحمة صفة ذاتية ، فاسم الرحمئن تدخل تحته الأسماء الإيجابية ، ولي في ذلك :

فيا الذي هو رحمان فرحمته بالاستوا صار عرش الله غيب هبا
كما العرالم فيها وهو مظهرها دور فذاك لفعل الله منتسبا

مَحَوْتُ الْأَثَارَ بِالْأَثَارِ^(٢) ، وَمَحَوْتُ الْأَغْيَارَ بِمُحِيطَاتِ أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ

محو الآثار : هو اضمحلالها واندراجها ، فالجنة والنار والسماوات وسائر الأقطار آثار ، وكلها بالإضافة إلى العرش وسعته متلاشية ، والعرش غيرٌ كما علمت ، وهو محوٌّ بأنوار الصفات العلية والتجليات الأزلية ، وفلك العرش : هو الفلك الأطلس الذي لا ينتهي سيره في الدنيا ولا في الآخرة ، وسائر الأفلاك تدور بدورانه .

(١) ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى هنا هو خلاصة إشارة ألمع لها إمامنا الغزالي في « إجماعه » و« مشكاته » .

(٢) في النسخ : (محقت الآثار بالآثار) بدل : (محوت الآثار بالآثار) .

وأفلاك الأنوار : هي الأسماء الحسنى ، وأفلاك الأقطار : هي ما دون الأثير إلى الثرى ، وهنا أسرار لا يجوز إذاعتها ، ولي في ذلك :
محقت كل وجود في الوجود إذا كل الوجود إلى العرش المجيد هبا
والعرش في رحمة الله الإله كذا محو فلا يأتين الخلق منه نبا

يَا مَنْ أٰخْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنِ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ

العزة : وصفٌ يقتضي اضمحلال ما سواه ، وفناء كل ما عداه ،
والسرادق : هو كل ما يحتجب به من محركات الأنوار ، وورد « حجاب
النار »^(١) ، وكل منيع الوصل يسمى عزيزاً ، والعزيز : هو الذي لا يجوز
على الخواطر الارتقاء إلى مناله ، ولا يتصور لذي فهم أن يقصد تصوره
بتكليف ، بل إيمان بوجوده بلا كيف ولا أين ، ولي في ذلك :

يا من كذا في حجاب العز ممتنع فلا إلى دركه بالكيف تصوير
أنت الذي في جنان الخلد تحفنا برؤية لا يُسبها ريب تغرير

يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتَهُ الْأَسْرَارُ^(٢)

كمال البهاء : هو ما تجلَّى به لقلوب أوليائه من بديع لطفه حتى
عرفوه ، وبتلطفه عرف ، ويقدر ما يدنو يكون اللطف أرق .

(١) تقدم تخريجه (ص ١٧٤) .

(٢) إلى هنا انتهت النسخة (د) .

كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ؟! أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ؟!
وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ وَبِهِ أَسْتَعِينُ

ثم أخبر عن إفاضة الألفاظ عليه حتى شهده ظاهر ، وتعجب ممن
يظن غيبته ، والرقيب : هو المراقب لخطرات الباطن ولمحات النواظر ،
بقوله : ﴿ يَعْلَمُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ ، ﴿ أَقْمَنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَقَبٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾
بمعنى حاضر على كل نفس بما كسبت .

(والله الموفق) لما هو الحق عنده والمقبول لديه ، (وبه أستعين)
وهو خير معين ، والتوفيق في الأعمال البدنية والنيات القلبية .. إن
وافقت ما هو الحق عند الله ، والاستعانة .. في كل أمر باطنياً وظاهراً .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ

خاتمة النسخة (أ)

تم الكتاب بعون الله الكريم الجواد ، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة النسخة (ب)

تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين
أولاً وآخرأ .

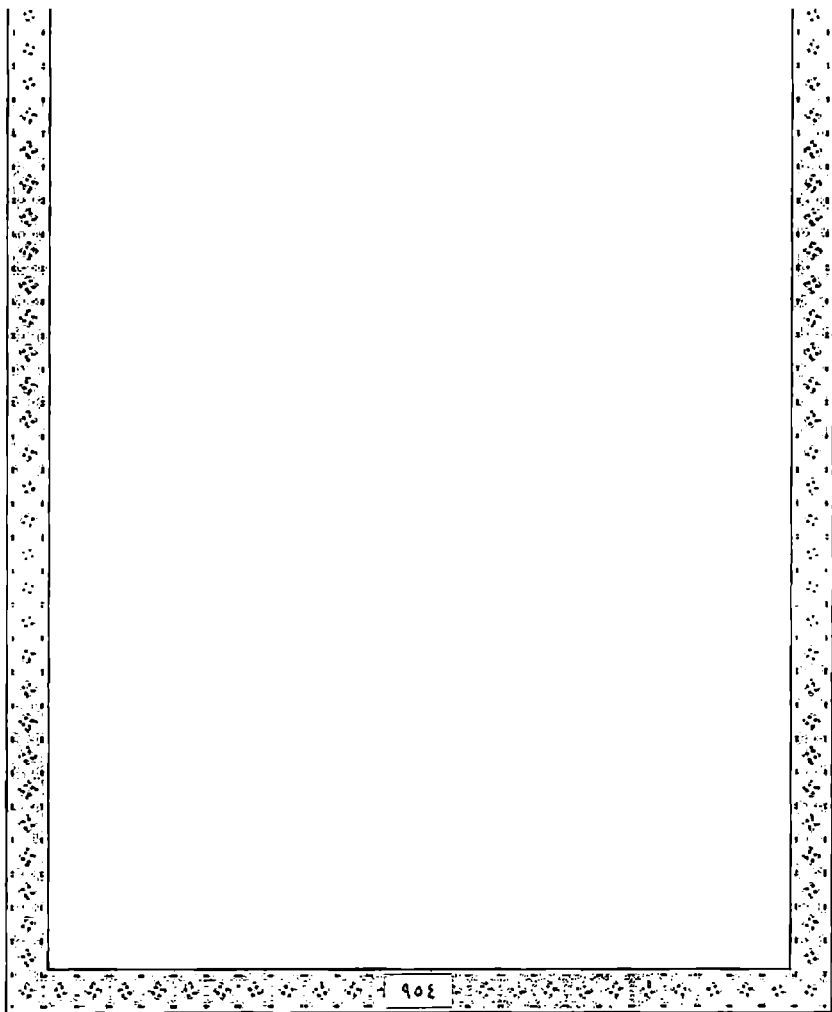
وكان الفراغ من زبر هذا الكتاب صبح يوم الجمعة ، الثالث من شهر
ربيع ثاني ، أحد شهور عام (١٢٦٦) سنة ست وستين ومئتين وألف
من الهجرة النبوية ، على مشرفها أفضل الصلاة والسلام ، بقلم الفقير
الحقير عبد الرحيم بن عبد الله بن عمر باعبده ، سامحه الله تعالى .

خاتمة النسخة (ج)

تم الجزء الأول من « شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم »
بحمد الله ومِنِّه وكرمه ، وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين .
على يد أفقر عباد الله وأحوجهم فيما لديه : عبد الله بن أحمد بن
عبد الرحمن باجاير ، عفا الله عنهم ، وفرغ من زبره ضحى السبت ،
آخر شهور جماد أول ، أحد شهور سنة ثلاث وسبعين ، تقبل الله ذلك
بمنه وكرمه ، والحمد لله رب العالمين .

يتلوه الجزء الثاني : « الصلاة محل المناجاة » والله أعلم وأحكم
بغيبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .





اهم المصادر والمراجع

- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للزبيدي ؛
الإمام الكبير الحافظ الفقيه اللغوي الشريف أبي الفيض وأبي
الوقت محمد مرتضى بن محمد بن محمد الحسيني الزبيدي
الحنفي (ت ١٢٠٥ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، طبعة
مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- إحياء علوم الدين ، للغزالي ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين
الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي
الطابرائي الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز
دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ،
٢٠١١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- أدب الإملاء والاستملاء ، لابن السمعاني ؛ الإمام الحافظ محدث
خراسان تاج الإسلام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور
التميمي السمعاني المروزي الشافعي (ت ٥٦٢ هـ) ، عني به ماكس
فايسفايلر ، ط ١ ، (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ، دار الكتب العلمية ،
بيروت ، لبنان .

- الأربعون في التصوف ، للسلمي ؛ إمام الصوفية وصاحب تاريخها
الحافظ أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد الأزدي
السلمي (ت ٤١٢ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، شركة
دار المشاريع ، بيروت ، لبنان .

- الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه العزيز
وفضل الأولياء والناسكين والفقراء والمساكين ، لليافعي ؛ الإمام
الحافظ المؤرخ الأديب عفيف الدين أبي السعادات عبد الله بن
أسعد بن علي اليافعي اليميني المكي الشافعي (ت ٧٦٨ هـ) ،
تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط ١ ، (١٤٢٧ هـ ،
٢٠٠٧ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، لابن عجيبة ؛ الإمام المفسر
المشارك الشريف أبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن
عجيبة الحسن بن الإدريسي التطواني المالكي (ت ١٢٢٤ هـ) ،
ط ١ ، (١٣٢٤ هـ ، ١٩٠٤ م) ، طبعة مصورة لدى دار الفكر ،
القاهرة ، مصر .

- البحر الزخار ، المسمى « مسند البزار » للبزار ، الإمام الحافظ
الكبير أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري البزار
(ت ٢٩٢ هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمن زين الله ، ط ١ ،
(١٩٨٨ م) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .

- بداية الهداية ، للغزالي ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابرائي
الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به محمد غسان نصوح عزقول
وفريقه ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، دار المنهاج ، جدة ،
المملكة العربية السعودية .

- البردة ، للبوصيري ؛ إمام المادحين وأعجوبة النثر والنظم

شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد بن حماد المغربي
الصنهاجي البوصيري (ت ٦٩٦ هـ) ، عني بها الدكتور محمد
شريف عدنان الصواف ، ط ١٠ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار
السنابل ، دمشق ، سورية .

- البرهان المؤيد لصاحب مد اليد مولانا الغوث الشريف
الرفاعي أحمد ، للرفاعي ؛ الإمام الحافظ الفقيه المفسر شيخ
الطريقة الرفاعية محيي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن
يحيى الرفاعي الحسيني الأنصاري الشافعي (ت ٥٧٨ هـ) ،
تحقيق حسن عبد الحكيم عبد الباسط ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ،
٢٠٠٧ م) ، نشره محققه ، دمشق ، سورية .

- البعث والنشور ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي
بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي
(ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول ، ط ١ ،
(١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ،
لبنان .

- البيان في مذهب الإمام الشافعي ، للعمرائي ؛ الإمام الفقيه
الأصولي يحيى بن أبي الخير سالم بن أسعد العمرائي اليماني
الشافعي (ت ٥٥٨ هـ) ، عني به الشيخ قاسم محمد التوري ،
ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة
العربية السعودية .

- تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي ؛ الإمام الكبير الحافظ

الفقيه اللغوي الشريف أبي الفيض وأبي الوقت محمد مرتضى بن محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الحنفي (ت ١٢٠٥ هـ) ، تحقيق العلامة عبد الستار أحمد فراج (ت ١٤٠٢ هـ) وجماعة من أئمة التحقيق ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .

- تاريخ أصبهان ، المسمى : « ذكر أخبار أصبهان » ، لأبي نعيم الأصبهاني ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد المهراني الأصبهاني الشافعي (ت ٤٣٠ هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- تاريخ بغداد (تاريخ مدينة السلام) ، للخطيب البغدادي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، لابن عساكر ؛ الإمام الحافظ الكبير المجود ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي الشافعي (ت ٥٧١ هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي ، ط ١ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

- التدوين في أخبار قزوين ، للرافعي ؛ الإمام الفقيه عالم العرب والعجم وشيخ الشافعية إمام الدين أبي القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافعي القزويني (ت ٦٢٣ هـ) ، تحقيق عزيز الله العطاردي الحوشاني ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٧ م) ، دار الباز ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية .

- التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادير كلامهم وأشعارهم ، للخطيب البغدادي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار المدني ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- تفسير القرطبي ، المسمى : « الجامع لأحكام القرآن » ، للقرطبي ؛ الإمام الفقيه المفسر اللغوي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي المالكي (ت ٦٧١ هـ) ، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني ، ط ٢ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- التفسير الكبير ، المسمى : « مفاتيح الغيب » ، للرازي ؛ الإمام الحافظ المتكلم المفسر فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر ابن الحسين البكري الرازي الشافعي (ت ٦٠٦ هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، ط ٣ ، (١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٨ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة البهية لدى دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- تهذيب الأسرار ، للخركوشي ؛ الإمام الحافظ الفقيه العارف بالله عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الخركوشي (ت ٤٠٧ هـ) ، تحقيق بسام محمد بارود ، ط ١ ، (١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م) ، إصدارات الساحة الخزرجية ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة .

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للمخطيب البغدادي ؛ الإمام الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- الجامع لشعب الإيمان ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط ٢ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الأصبهاني ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد المهراني الأصبهاني الشافعي (ت ٤٣٠ هـ) ، ط ٥ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧ هـ) لدى دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر . بيروت ، لبنان .

- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، للمحبي ؛ الإمام
القاضي الأديب المؤرخ محمد أمين بن فضل الله بن محمد
المحبي العلواني الحموي الدمشقي الحنفي (ت ١١١١ هـ) ،
ط ١ ، (١٢٨٤ هـ ، ١٨٦٤ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة
الروحية لدى دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- الدعاء ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي
القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني
(ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد سعيد محمد حسن
البخاري ، ط ١ ، (١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ،
المملكة العربية السعودية .

- ديوان ابن الفارض ، لابن الفارض ؛ سلطان العاشقين العارف
بالله شرف الدين أبي حفص عمر بن علي بن مرشد ابن الفارض
السعدي الحموي المصري الشافعي (ت ٦٣٢ هـ) ، ط ١ ،
(١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- ذم الدنيا ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي
بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي
(ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ ،
(١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ،
لبنان .

- الرسالة القشيرية ، للقشيري ؛ الإمام العلم القدوة الأستاذ زين
الإسلام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٥ هـ) ، تحقيق أنس
محمد عدنان الشرفاوي ، ط ١ ، (١٤٣٧ هـ ، ٢٠١٦ م) ، دار
المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- الرعاية لحقوق الله ، للمحاسبى ؛ الإمام الأصولي الصوفي
أبي عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبى البصري
(ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ٤ ، (بدون
تاريخ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- الزهد الكبير ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي
بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي
(ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط ٣ ،
(١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

- الزهد والرقائق برواية المروزي مع زيادات رواية نعيم بن
حماد عليه ، لابن المبارك ؛ الإمام الحافظ الرحلة أبي
عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي المروزي
(ت ١٨١ هـ) ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط ١ ،
(١٣٨٦ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة الهند لدى دار
الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- الزهد ، لابن أبي الدنيا ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر
عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي
(ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق ياسين السواس ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ،
١٩٩٩ م) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

- الزهد ، لابن حنبل ؛ إمام أهل الدنيا الحجة الفقيه أبي عبد الله
أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي (ت ٢٤١ هـ) ،
عني به محمد عبد السلام شاهين ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ،
١٩٩٩ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- سنن ابن ماجه ، لابن ماجه ؛ الإمام الحافظ الثبت المفسر أبي
عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربيعي القزويني (ت ٢٧٣ هـ) ،
تحقيق العلامة محمد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨ هـ) ، ط ١ ،
(١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ،
مصر .

- سنن أبي داوود ، لأبي داوود ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي
داوود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني
(ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق العلامة محمد عوامة ، ط ٣ ،
(١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية
السعودية .

- سنن الترمذي ، المسمى : « الجامع الصحيح » ، للترمذي ؛
الإمام الحافظ العلم الفقيه أبي عيسى محمد بن عيسى بن
سورة السلمى الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق العلامة أحمد
محمد شاكر (ت ١٣٧٧ هـ) والعلامة محمد فؤاد عبد الباقي
(ت ١٣٨٨ هـ) والشيخ إبراهيم عطوة عوض (ت ١٤١٧ هـ) ،
ط ٢ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء
التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- سنن الدارقطني ، للدارقطني ؛ الإمام الحافظ الحجة أبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني البغدادي الشافعي (ت ٣٨٥ هـ) ، عني به عبد الله هاشم يمانى ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٦ م) ، طبعة مصورة لدئى دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- السنن الكبرى ، للنسائي ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني (ت ٢٠٣ هـ) ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- السنن الكبير ، للبيهقي ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية ، القاهرة ، مصر .

- سنن النسائي (المجتبى) ، للنسائي ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني (ت ٣٠٣ هـ) ، ط ١ ، (١٣١٢ هـ ، ١٨٩٤ م) ، نسخة مصورة عن نشرة المطبعة الميمنية لدئى دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد ؛ الإمام الفقيه الأديب المؤرخ شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن

محمد ابن العماد العكري الدمشقي الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) ،
تحقيق محمود الأرناؤوط ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار
ابن كثير ، دمشق ، سورية .

- شرح الحكم العطائية للشرقاوي ، الإمام الفقيه شيخ الأزهر
عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي الشافعي (١٢٢٧ هـ) ،
تقديم ومراجعة عاطف وفدي ، مكتبة الرحمة المهداة ، المنصورة ،
مصر .

- شرح العلامة الزرقاني على « المواهب اللدنية بالمنح المحمدية » ،
للزرقاني ؛ الإمام المحدث الحجة الفقيه أبي عبد الله محمد بن
عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المالكي (ت ١١١٢ هـ) ، عني
به محمد عبد العزيز الخالدي ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ،
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- شرح حكم ابن عطاء الله ، لسزروق ؛ الإمام الحجة العارف
بالله أبي العباس أحمد بن محمد بن عيسى زروق البرنسي
الفاصي المالكي (ت ٨٩٩ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحليم
محمود (ت ١٣٩٨ هـ) والدكتور محمود بن الشريف ، ط ١ ،
(١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م) ، طبعة مصورة لدى مكتبة النجاح ،
طرابلس ، ليبيا .

- الشريعة ، للأجري ؛ الإمام الحافظ الفقيه الحجة أبي بكر
محمد بن الحسين بن عبد الله الأجري البغدادي (ت ٣٨٧ هـ) ،
تحقيق الدكتور عبد الله بن عمر الدميحي ، ط ٣ ، (١٤٢٨ هـ ،

٢٠٠٧ م) ، دار الفضيلة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- شمائل النبي صلى الله عليه وسلم ، للترمذي ؛ الإمام الحافظ العلم الفقيه أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق محمد وائل الحنبلي ، ط ٢ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، دار البيروتى ، دمشق ، سورية .

- صحيح البخاري ، المسمى : « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه » (الطبعة السلطانية العثمانية) ، للبخاري ؛ إمام الدنيا حبر الإسلام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، (١٤٣٦ هـ ، ٢٠١٥ م) ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ، بيروت ، لبنان . جدة ، المملكة العربية السعودية .

- صحيح مسلم ، المسمى : « الجامع الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، لمسلم ؛ حافظ الدنيا المجود الحجة أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، (١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٣ م) ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ، جدة ، المملكة العربية السعودية . بيروت ، لبنان .

- طبقات الشافعية الكبرى ، للتاج السبكي ؛ الإمام الحافظ المجتهد

النظار قاضي القضاة تاج الدين أبي النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الأنصاري السبكي الشافعي (ت ٧٧١ هـ) ، تحقيق محمود محمد الطناحي والدكتور عبد الفتاح محمد الحلوة (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

- طبقات الصوفية ، للسلمي ؛ إمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد الأزدي السلمي (ت ٤١٢ هـ) ، تحقيق نور الدين شريبه ، ط ٢ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المحقق سنة (١٩٥٣ م) لدى دار الكتاب النفيس ، دمشق ، سورية .

- العظمة ، لأبي الشيخ ؛ الإمام الحافظ الصادق محدث أصبهان أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر أبي الشيخ بن حيان الأصبهاني الأنصاري (ت ٣٦٩ هـ) ، تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري ، ط ٢ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار العاصمة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- عوارف المعارف ، للسهروردي ؛ الإمام المحدث شيخ الصوفية شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي القرشي البغدادي الشافعي (ت ٦٣٢ هـ) ، تحقيق أديب الكمداني ومحمد محمود المصطفى ، ط ١ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م) ، المكتبة المكية ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية .

- غريب الحديث ، لابن سلام ؛ الإمام المحدث الفقيه الأديب
أبي عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي الخراساني
(ت ٢٢٤ هـ) ، بعناية الدكتور محمد عبد المعيد خان ، ط ١ ،
(١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتاب العربي ،
بيروت ، لبنان .

- غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ، لابن
عباد ؛ الإمام الفقيه الخطيب الزاهد أبي عبد الله محمد بن
إبراهيم بن عبد الله ابن عباد النفري الرندي الحميري
المالكي (ت ٧٩٢ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحلیم محمود
(ت ١٣٩٨ هـ) والدكتور محمود بن الشريف ، ط ١ ،
(١٣٨٠ هـ ، ١٩٧٠ م) ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، مصر .

- فتاوى السبكي ، للثقي السبكي ؛ الإمام المجتهد الأصولي
الحافظ تقي الدين أبي الحسن علي بن عبد الكافي بن علي
الأنصاري السبكي الشافعي (ت ٧٥٦ هـ) ، ط ١ ، (بدون
تاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- الفردوس بمأثور الخطاب ، للديلمی ؛ الإمام المحافظ أبي
شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه إلكيا الديلمي الهمداني
(ت ٥٠٩ هـ) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ،
(١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- فيض التقدير شرح الجامع الصغير ، للمناوي ؛ الإمام الفقيه
الأديب زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين علي

المنأوي القأهري الشافعي (ت ١٠٣١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٧ هـ ،
١٩٣٨ م) ، طبعة مصورة عن المكتبة التجارية الكبرى لدى دار
المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى
مقام التوحيد ، لأبي طالب المكي ؛ الإمام الفقيه شيخ الصوفية
أبسي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي الشافعي
(ت ٣٨٦ هـ) ، بعناية العلامة محمد الزهري الغمراوي (ت بعد
١٣٦٧ هـ) ، ط ١ ، (١٣١٠ هـ ، ١٨٩٠ م) ، طبعة مصورة عن
نشرة المطبعة الميمية لدى دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة
الناس ، للعجلوني ؛ محدث الشام العلامة المفسر أبي الفداء
إسماعيل بن محمد جراح بن عبد الهادي العجلوني الدمشقي
الشافعي (ت ١١٦٢ هـ) ، ط ٣ ، (١٣٥١ هـ ، ١٩٣٢ م) ، طبعة
مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، للمتقي الهندي ؛ العلامة
المحدث الفقيه علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين ابن
قاضي خان البرهانفوري الهندي المدني الحنفي (ت ٩٧٥ هـ) ،
عني به الشيخ بكري حيانبي والشيخ صفوت السقا ، ط ١ ،
(١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- لطائف المنن في مناقب المهتدين وقدة السالكين ، لابن
عطاء الله السكندري ؛ الإمام الكبير صاحب الإشارات العارف

بالله تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم
ابن عطاء الله الجذامي السكندري المالكي (ت ٧٠٩ هـ) ،
تحقيق الدكتور عبد الحلیم محمود (ت ١٣٩٨ هـ) ، ط ٢ ،
(١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، دار الشعب ، القاهرة ، مصر .

- المجروحين من المحدثين ، لابن حبان ؛ الإمام الحافظ المجرد
الرحلة أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي الشافعي
(ت ٣٥٤ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ،
(١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار الصميعي ، الرياض ، المملكة
العربية السعودية .

- المخزون في علم الحديث ، لأبي الفتح الأزدي ؛ الإمام
الحافظ البارع أبي الفتح محمد بن الحسين بن أحمد الأزدي
الموصلی (ت ٣٧٤ هـ) ، تحقيق محمد إقبال السلفي ، ط ١ ،
(١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، الدار العلمية ، دلهي ، الهند .

- المستدرک علی الصحیحین ، للحاکم ؛ الإمام الحافظ الناقد
شيخ المحدثين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن
حمدويه الحاكم الطهماني النيسابوري الشافعي (ت ٤٠٥ هـ) ،
وبهامشه تعليقات الأئمة : البيهقي والذهبي وابن الملقن وابن
حجر العسقلاني ، ط ١ ، (١٤٣٥ هـ ، ٢٠١٤ م) ، دار الميمان ،
الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- مسند أبي يعلى الموصلی ، لأبي يعلى ، الإمام الحافظ محدث
الموصل أبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلی

- (ت ٣٠٧ هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ٢ ،
 (١٤١٠ هـ ، ١٩٨٩ م) ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، سورية .
- مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، لابن حنبل ؛ إمام أهل الدنيا الحجة
 الفقيه أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي
 (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق جمعية المكنز الإسلامي الدكتور أحمد
 معبد عبد الكريم ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، دار المنهاج ،
 جدة ، المملكة العربية السعودية .
- مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، للجبشي ؛ الشريف البحثة
 عبد الله محمد الجبشي الحضرمي اليمني ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ،
 ٢٠٠٤ م) ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات العربية
 المتحدة .
- المصنف ، لعبد الرزاق الصنعاني ؛ الإمام الحافظ الثقة عالم
 اليمن أبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني
 (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط ٢ ،
 (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب
 الإسلامي ، بيروت ، لبنان .
- معجم الأدباء ، المسمى : « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ،
 لياقوت الحموي ؛ العلامة المؤرخ الأديب الجغرافي شهاب
 الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي البغدادي
 (ت ٦٢٦ هـ) ، قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ، ط ١ ،
 (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان .

- المعجم الأوسط ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال
أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي
الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ،
ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، مكتبة المعارف ، الرياض ،
المملكة العربية السعودية .

- المعجم الكبير ، للطبراني ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي
القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني
(ت ٣٦٠ هـ) ، ومعه : « الأحاديث الطوال » ، تحقيق حمدي
عبد المجيد السلفي ، ط ٢ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٣ م) ، دار إحياء
التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة
على الألسنة ، للسخاوي ؛ الإمام الحافظ الناقد شمس الدين
أبي الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي القاهري
الشافعي (ت ٩٠٢ هـ) ، عني به عبد الله محمد الصديق الغماري
وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط ٢ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ،
مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

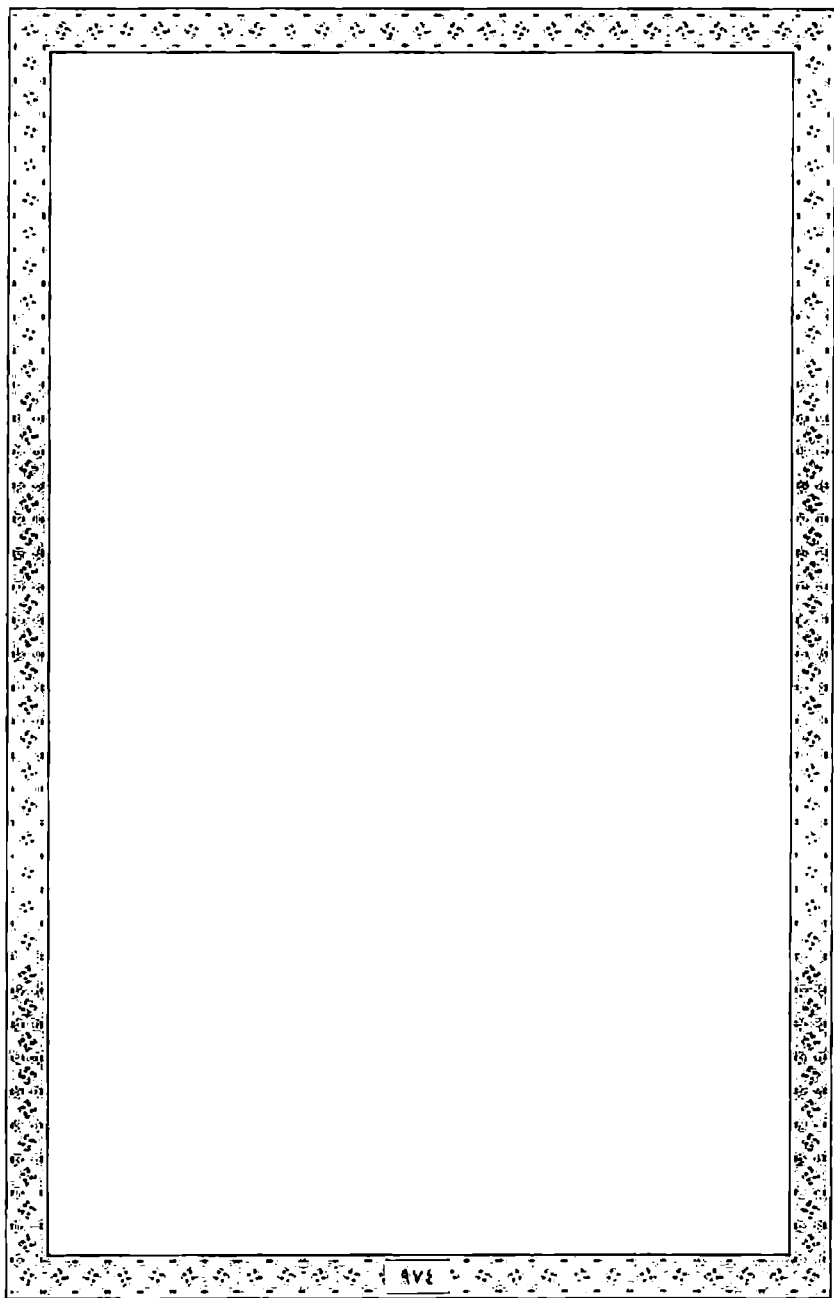
- من غاب عنه المطرب ، للشعالبي ؛ إمام اللغة والأدب أبي
منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الشعالي النيسابوري
(ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ،
ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٤ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،
مصر .

- منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ، للغزالي ؛ الإمام المجدد
حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد
الغزالي الطوسي الطبراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به
بوجعة عبد القادر مكري ، ط ١ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، دار
المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

- نوادير الأصول في معرفة أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ،
للحكيم الترمذي ؛ الإمام الولي المحدث المفسر الحكيم أبي
عبد الله محمد بن علي بن الحسن المؤذن الترمذي الصوفي
الشافعي (ت ٣١٨ هـ) ، تحقيق الدكتور نور الدين جيلار
البوردي ، ط ١ ، (١٤٣٦ هـ ، ٢٠١٥ م) ، دار المنهاج ، جدة ،
المملكة العربية السعودية .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان ؛ الإمام المؤرخ
قاضي القضاة شمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم
ابن خلكان البرمكي الإربليي الدمشقي الشافعي (ت ٦٨١ هـ) ،
تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ،
(١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .





محتوى الكتاب

- بين يدي الكتاب ٩
- تقديم بقلم فضيلة العلامة السيد عمر بن حامد الجيلاني ١٦
- ترجمة الإمام ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى ٢١
- عناية العلماء بـ « الحكم العطائية » ٢٧
- شرح الشيخ علي باراس لـ « حكم ابن عطاء الله » ٣٥
- ترجمة الإمام علي بن عبد الله باراس رحمه الله تعالى ٣٨
- مشجر ذرية الشيخ باراس ٤٧
- وصف النسخ الخطية ٤٨
- مسيرة العمل في الكتاب ٥١
- صور من المخطوطات المعتمدة ٥٥

٦٣ « الحكم العطائية والمكاتبات والمناجاة الإلهية »



« شرح الحكم العطائية » المسمى :

١٠٧ « شفاء السقم وفتح خزائن الكلم في معاني الحكم »

١٠٩ خطبة المؤلف

- ١ - من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء ١١٣
- ٢ - إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب ١١٨
- ٣ - سوابق الهمم لا تحرق أسوار الأقدار ١٢٣
- ٤ - أرح نفسك من هم التدبير فما قام به عنك غيرك ١٢٥
- ٥ - اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك ١٢٧
- ٦ - لا يكن تأخر إمداد العطاء مع الإلحاح في الدعاء ١٣٠
- ٧ - لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود به ١٣٦
- ٨ - إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها ١٣٨
- ٩ - تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال ١٤٥
- ١٠ - الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود الإخلاص فيها ١٤٨
- ١١ - ادفن وجودك في أرض الخمول ١٥٠
- ١٢ - ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة ١٥٩
- ١٣ - كيف يشرق قلب وصور الأكوان منطبعة في مرآته؟! ١٦٥
- ١٤ - الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه ١٧٣
- ١٥ - مما يدل على وجود قهره سبحانه أن حجبتك ١٧٧
- ١٦ - كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟! ١٨٠
- ١٧ - ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث ١٨٧
- ١٨ - إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونة النفس ١٩٠

١٩ - لا تطلبه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها ١٩٢

٢٠ - ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها ١٩٤

٢١ - طلبك منه اتهام له وطلبك له غيبة عنه ١٩٨

٢٢ - ما من نفسٍ تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه ٢٠٣

٢٣ - لا تتربق فراغ الأغيار فإن ذلك يقطعك ٢٠٨

٢٤ - لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت مقيماً في هذه الدار ٢١٠

٢٥ - ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ٢١٤

٢٦ - من علامات النجاح في النهايات ٢١٥

٢٧ - من أشرقت بدايته أشرقت نهايته ٢١٧

٢٨ - ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر ٢١٨

٢٩ - شتان بين من يستدل به وبين من يستدل عليه ٢٢١

٣٠ - ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ : الواصلون إليه ٢٢٦

٣١ - اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه والواصلون ٢٢٧

٣٢ - تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير ٢٣٠

٣٣ - الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت ٢٣٣

٣٤ - اخرج عن أوصاف بشريتك ٢٣٦

٣٥ - أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ٢٣٩

٣٦ - شعاع البصيرة يشهدك قربه منك وعين البصيرة ٢٤٥

- ٣٧ - كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ٢٤٨
- ٣٨ - لا تتعدين همتك إلى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال ٢٤٨
- ٣٩ - لا ترفعن إلى غيره حاجةً هو موردها عليك ٢٥٠
- ٤٠ - إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه حسن ظنك به ٢٥٣
- ٤١ - العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه ٢٥٧
- ٤٢ - لا ترحل من كون إلى كون ٢٦٠
- ٤٣ - لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله .. ٢٦٥
- ٤٤ - ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك ٢٧٢
- ٤٥ - ما قل عمل برز من قلب زاهد ٢٧٤
- ٤٦ - حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ٢٧٦
- ٤٧ - لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ٢٧٦
- ٤٨ - من علامات موت القلب ٢٨٢
- ٤٩ - لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك ٢٨٤
- ٥٠ - لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله ٢٨٨
- ٥١ - لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ٢٩٠
- ٥٢ - إنما أورد عليك الوارد لتكون عليه به وارداً ٢٩٢
- ٥٣ - أورد عليك الوارد ليستلمك من يد الأغيار ٢٩٤
- ٥٤ - أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك ٢٩٦

- ٥٥ - الأنوار مطايا القلوب والأسرار ٢٩٨
- ٥٦ - النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس ٢٩٩
- ٥٧ - النور له الكشف والبصيرة لها الحكم ٣٠٢
- ٥٨ - لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك ٣٠٤
- ٥٩ - قطع السائرين إليه والواصلين إليه ٣٠٦
- ٦٠ - ما بسقت أعصان ذل إلا عن بذر طمع ٣٠٨
- ٦١ - ما قادك شيء مثل الوهم ٣١٣
- ٦٢ - أنت حر عما أنت عته آيس وعبد لما أنت له طامع ٣١٥
- ٦٣ - من لم يقبل إلى الله بملاطفات الإحسان قيد إليه ٣١٨
- ٦٤ - من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ٣٢١
- ٦٥ - خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه ٣٢٧
- ٦٦ - من جهل المرید أن يسيء الأدب ٣٣٠
- ٦٧ - إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوراد ٣٤١
- ٦٨ - قوم أقامهم الحق لخدمته وقوم اختصهم بمحبته ٣٤٥
- ٦٩ - قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة ٣٤٨
- ٧٠ - من رأيته مجيباً عن كل ما يسأل ومعبراً ٣٥٢
- ٧١ - إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين ٣٥٥
- ٧٢ - من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على ٣٦٠

- ٧٣ - إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر في ماذا يقيمك ٣٦٣
- ٧٤ - متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم ٣٦٥
- ٧٥ - خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك ٣٦٧
- ٧٦ - الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها ٣٦٩
- ٧٧ - ليس العارف من إذا أشار وجد الحق ٣٧١
- ٧٨ - الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية ٣٧٣
- ٧٩ - مطلب العارفين من الله تعالى الصدق في العبودية ٣٧٦
- ٨٠ - بسطك كي لا يبيحك مع القبض وقبضك ٣٧٩
- ٨١ - العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ٣٨٤
- ٨٢ - البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض ٣٨٧
- ٨٣ - ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك ٣٨٩
- ٨٤ - متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع ٣٩٠
- ٨٥ - الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة ٣٩٢
- ٨٦ - إن أردت أن يكون لك عزٌّ لا يفنى ٣٩٥
- ٨٧ - الطيِّ الحقيقي أن تطوي مسافة الدنيا عنك ٣٩٧
- ٨٨ - العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله إحسان ٣٩٩
- ٨٩ - جل ربنا أن يعامله العبد تقداً فيجازيه نسيئةً ٤٠١
- ٩٠ - كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً ٤٠٢

- ٤٠٤ - كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم
- ٤٠٦ - من عبده لشيء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته
- ٤١٠ - متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره
- ٤١٢ - إنما يؤلمك المنع ؛ لعدم فهمك عن الله فيه
- ٤١٤ - ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول
- ٤١٧ - معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خيراً من طاعة
- ٤٢٠ - نعمتان ما خرج موجود عنهما
- ٤٢٢ - أنعم عليك أولاً بالإيجاد وثانياً بتوالي الإمداد
- ٤٢٥ - فافتك له ذاتية ، وورود الأسباب مذكرات لك
- ٤٢٩ - خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فافتك
- ٤٣١ - متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد
- ٤٣٣ - متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك ...
- ٤٣٥ - العارف لا يزول اضطرابه ولا يكون
- ٤٣٧ - أنار الظواهر بأنوار آثاره وأنار السرائر بأنوار أوصافه
- ٤٤١ - ليخففن ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه
- ٤٤٤ - من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره
- ٤٤٩ - لا يُخاف عليك أن تلتبس الطزق عليك
- ٤٥٢ - سبحانه من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية

- ٤٥٥ ١٠٩ - لا تطالب ريك بتأخر مطلبك
- ٤٥٧ ١١٠ - متى جعلك في الظاهر ممثلاً لأمره
- ٤٦٠ ١١١ - ليس من ثبت تخصيصه كمل تخليصه
- ٤٦٦ ١١٢ - لا يستحق الرود إلا جهول الوارد يوجد
- ٤٧٢ ١١٣ - ورود الأمداد على حسب الاستعداد
- ٤٧٦ ١١٤ - الغافل إذا أصبح نظر في ماذا يفعل والعامل
- ٤٧٩ ١١٥ - إنما استوحش العباد والزهاد من كل شيء
- ٤٨٢ ١١٦ - أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوناته
- ٤٨٥ ١١٧ - علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه
- ٤٨٧ ١١٨ - لما علم الحق منك وجود الملل لون لك الطاعات
- ٤٩١ ١١٩ - الصلاة طهرة القلوب واستفتاح لباب الغيوب
- ٤٩٧ ١٢٠ - متى طلبت عوضاً على عمل
- ٤٩٩ ١٢١ - لا تطلب عوضاً على عمل لست له فاعلاً
- ٥٠٠ ١٢٢ - إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك
- ٥٠٢ ١٢٣ - لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك
- ٥٠٤ ١٢٤ - كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً
- ٥٠٦ ١٢٥ - منعك أن تدعي ما ليس لك مما هو للمخلوقين
- ٥١٠ ١٢٦ - كيف تُخرق لك العوائد وأنت لم تخرق

- ١٢٧ - ما الشأن وجود الطلب وإنما الشأن ٥١٤
- ١٢٨ - ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ٥١٦
- ١٢٩ - لو أنك لا تصل إليه إلا بعد محو دعاويك ٥١٩
- ١٣٠ - لولا جميل ستره لم يكن عملك أهلاً للقبول ٥٢٤
- ١٣١ - أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك ٥٢٦
- ١٣٢ - المستر على قسمين ستر عن المعصية وستر فيها ٥٢٩
- ١٣٣ - من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره ٥٣٢
- ١٣٤ - ما صحبتك إلا من صحبتك وهو بعيبك عليم ٥٣٦
- ١٣٥ - لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة ٥٤٠
- ١٣٦ - ما صحبتك عن الله وجود موجود معه ٥٤٤
- ١٣٧ - لولا ظهوره في المكونات ما وقع عليها ٥٤٦
- ١٣٨ - أظهر كل شيء لأنه الباطن وطوى وجود كل شيء ٥٤٨
- ١٣٩ - أباح لك أن تنظر ما في المكونات وما أذن لك ٥٤٩
- ١٤٠ - الأكوان ثابتة بإثباته وممحوة بأحدية ذاته ٥٥٢
- ١٤١ - الناس يمدحونك بما يظنون فيك ٥٥٤
- ١٤٢ - المؤمن إذا مُدح استحيا من الله تعالى ٥٥٨
- ١٤٣ - أجهل الناس من ترك يقين ما عنده ٥٦٠
- ١٤٤ - إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل فائز عليه ٥٦٢

- ١٤٥ - الزهاد إذا مدحوا انتقبضوا ٥٦٤
- ١٤٦ - متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء وإذا منعت ٥٦٨
- ١٤٧ - إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبب يأسك ٥٧١
- ١٤٨ - إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء ٥٧٥
- ١٤٩ - ربما أفادك في ليل القبض ما لم تشهده ٥٧٧
- ١٥٠ - مطالع الأنوار القلوب والأسرار ٥٧٩
- ١٥١ - نور مستودع في القلوب ممدته النور الوارد ٥٨١
- ١٥٢ - نور يكشف لك به عن آثاره ونور يكشف ٥٨٣
- ١٥٣ - ربما وقفت القلوب مع الأنوار كما حجبت النفوس ٥٨٥
- ١٥٤ - ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر ٥٨٧
- ١٥٥ - سبحان من لم يجعل الدليل عليهم إلا ٥٨٩
- ١٥٦ - ربما أطلعك على أسرار ملكوته وحجب عنك ٥٩٥
- ١٥٧ - من اطلع على أسرار العباد ٥٩٧
- ١٥٨ - حظ النفس في المعصية ظاهر جلي ٦٠٠
- ١٥٩ - ربما دخل الرياء عليك ٦٠٢
- ١٦٠ - استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل ٦٠٥
- ١٦١ - غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك ٦٠٨
- ١٦٢ - من عرف الحق شهده في كل شيء ، ومن فني به ٦١٠

- ١٦٣ - إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك ٦١٢
- ١٦٤ - إنما احتجب لشدة ظهوره وخفي عن الأبصار ٦١٣
- ١٦٥ - لا يكن طلبك سبباً إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه ٦١٤
- ١٦٦ - كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق؟! ٦١٦
- ١٦٧ - جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل ٦١٧
- ١٦٨ - عنايته فيك لا لشيء منك وأين كنت حين ٦١٨
- ١٦٩ - علم أن العباد يتشفون إلى سر العناية فقال ٦٢٠
- ١٧٠ - إلى المشيئة يستند كل شيء ولا تستند هي إلى شيء ٦٢٢
- ١٧١ - ربّما دلّهم الأدب على ترك الطلب اعتماداً ٦٢٤
- ١٧٢ - إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال وإنما ينبه ٦٢٦
- ١٧٣ - ورود الفاقات أعياد المريرين ٦٢٨
- ١٧٤ - ربما وجد المرير في الفاقات ما لا يجده ٦٣٠
- ١٧٥ - الفاقة بسط المواهب ٦٣٢
- ١٧٦ - إن أردت ورود المواهب عليك ٦٣٤
- ١٧٧ - تحقق بأوصافك بمدك بأوصافه تحقق بذلك ٦٣٦
- ١٧٨ - ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة ٦٣٨
- ١٧٩ - من علامة إقامة الحق لك في الشيء إدامته إياك ٦٤١
- ١٨٠ - من عبّر من بساط إحسانه أصمته الإساءة مع ربه ٦٤٣

- ١٨١ - تسبق أنوار الحكماء أقوالهم فحيث صار التنوير ٦٤٦
- ١٨٢ - كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز ٦٤٨
- ١٨٣ - من أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق ٦٥٠
- ١٨٤ - ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن ٦٥٢
- ١٨٥ - عبارتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مرید ٦٥٤
- ١٨٦ - العبارة قوت العائلة المستمعين وليس لك إلا ٦٥٦
- ١٨٧ - ربما عبر عن المقام من استشرف عليه ٦٥٩
- ١٨٨ - لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته ٦٦١
- ١٨٩ - لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلق إلا أن ترى ٦٦٣
- ١٩٠ - ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه ٦٦٩
- ١٩١ - إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس ٦٧٣
- ١٩٢ - من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات ٦٧٦
- ١٩٣ - قيد الطاعات بأعيان الأوقات كي لا يمنعك عنها ٦٧٩
- ١٩٤ - علم قلة نهوض العباد إلى معاملته فأوجب عليهم ٦٨١
- ١٩٥ - أوجب عليك وجود خدمته وما أوجب عليك إلا ٦٨٤
- ١٩٦ - من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ، وأن يخرجه ٦٨٨
- ١٩٧ - ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما من به عليك ٦٩٢
- ١٩٨ - من لم يعرف النعم بوجودانها عرفها بوجود فقدانها ٦٩٤

- ١٩٩ - لا تدهشك واردات التعم عن القيام بحقوق شكرك ٦٩٦
- ٢٠٠ - تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال ٦٩٨
- ٢٠١ - لا يُخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج ٧٠٠
- ٢٠٢ - كما لا يحب العمل المشترك كذلك لا يحب ٧٠٢
- ٢٠٣ - أنوار أذن لها في الوصول وأنوار أذن لها ٧٠٤
- ٢٠٤ - ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب ٧٠٧
- ٢٠٥ - فرغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار ٧٠٧
- ٢٠٦ - لا تستبطع منه النوال ولكن استبطع من نفسك ٧٠٩
- ٢٠٧ - حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها وحقوق الأوقات ٧١٠
- ٢٠٨ - ما فات من عمرك فلا عوض له ، وما حصل لك منه ٧١٤
- ٢٠٩ - ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً ٧١٦
- ٢١٠ - لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك ٧١٨
- ٢١١ - لا يزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ٧٢٠
- ٢١٢ - وصولك إليه ووصولك إلى المعرفة به ٧٢٢
- ٢١٣ - قربك منه هو أن تكون شاهداً لقربه ٧٢٤
- ٢١٤ - الحقائق ترد في حال التجلي مجتمعةً وبعد الوعي ٧٢٦
- ٢١٥ - متى وردت الواردات الإلهية عليك ٧٢٩
- ٢١٦ - الواردات تأتي من حضرة قهار لأجل ذلك ٧٣٠

- ٢١٧ - كيف يحتجب الحق بشيء والذي يحتجب به ٧٣١
- ٢١٨ - لا تئس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور ٧٣٢
- ٢١٩ - لا تزكيتاً وارداً لا تعلم ثمرته فليس المراد ٧٣٤
- ٢٢٠ - لا تطلبين بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها ٧٣٦
- ٢٢١ - تطلعك على بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له ٧٣٩
- ٢٢٢ - النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترايه ٧٤٣
- ٢٢٣ - ما تجده القلوب من الهموم والأحزان فلاجل ٧٤٥
- ٢٢٤ - من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ٧٤٧
- ٢٢٥ - ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه ٧٥١
- ٢٢٦ - إذا أردت ألا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم لك ٧٥٣
- ٢٢٧ - إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات ٧٥٤
- ٢٢٨ - إنما جعلها محلاً للأغيار، ومعدناً لوجود الأقدار ٧٥٦
- ٢٢٩ - علم أنك لا تقبل النصح المجرد فذوقك ٧٥٩
- ٢٣٠ - العلم النافع الذي يبسط في الصدر شعاعه ٧٦١
- ٢٣١ - خير العلم ما كانت الخشية معه ٧٦٤
- ٢٣٢ - العلم إن قارنته الخشية فلك، وإلا فعليك ٧٦٨
- ٢٣٣ - متى آلمك عدم إقبال الناس عليك ٧٧٤
- ٢٣٤ - إنما أجرى الأذى على أيديهم ٧٧٧

- ٢٣٥ - إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل ٧٧٩
- ٢٣٦ - إنما جعله لك عدواً ليحوشك به إليه ٧٨٣
- ٢٣٧ - من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً ٧٨٥
- ٢٣٨ - ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى نفسه ٧٨٦
- ٢٣٩ - التواضع الحقيقي هو ما كان ناشئاً عن ٧٨٨
- ٢٤٠ - لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف ٧٩٠
- ٢٤١ - المؤمن يشغله الشاء على الله تعالى ٧٩١
- ٢٤٢ - ليس المحب الذي يرجو عن محبوه عوضاً ٧٩٣
- ٢٤٣ - لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ٧٩٧
- ٢٤٤ - جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ٨٠٦
- ٢٤٥ - وسعك الكون من حيث جثمانيتك ولم يسعك ٨١١
- ٢٤٦ - الكائن في الكون ولم يفتح له ميادين الغيوب ٨١٢
- ٢٤٧ - أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ؛ فإذا شهدته ٨١٤
- ٢٤٨ - لا يلزم من ثبوت الخصوصية ، عدم أوصاف البشرية ٨١٦
- ٢٤٩ - دل بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه ٨١٩
- ٢٥٠ - لا يعرف قدر أنوار القلوب والأسرار إلا ٨٢٢
- ٢٥١ - وجدان ثمرات الأعمال عاجلاً بشائر العاملين ٨٢٤
- ٢٥٢ - كيف تطلب العوض على عمل ٨٢٥

- ٢٥٣ - قوم تسبق أنوارهم أذكارهم وقوم ٨٢٧
- ٢٥٤ - ذاكر ذكر ليسنير قلبه وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرًا ٨٢٧
- ٢٥٥ - ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود وفكر ٨٢٩
- ٢٥٦ - أشهدك من قبل أن استشهدك فنطقت ٨٢٩
- ٢٥٧ - أكرمك بكرامات ثلاث جعلك ذاكرًا له ٨٣٢
- ٢٥٨ - رب عمر اتسعت أماده ، وقلت أمداده ٨٣٥
- ٢٥٩ - من يورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن ٨٣٨
- ٢٦٠ - الخذلان كل الخذلان : أن تتفرغ عن الشواغل ٨٤٠
- ٢٦١ - الفكرة هي سير القلب في ميادين الأغيار ٨٤١
- ٢٦٢ - الفكرة : سراج القلب فإذا ذهب فلا إضاءة له ٨٤٣
- ٢٦٣ - الفكرة فكرتان فكرة تصديق وإيمان وفكرة ٨٤٣



المكاتبات في ذكر حال السالك

- ٨٤٥ في سيره إلى الله تعالى
- ٨٦٥ - مما كتبه إلى بعض إخوانه ٨٦٥
- ٨٧٤ - جواب المؤلف عن سؤال ورد إليه ٨٧٤
- ٨٧٩ - الناس ثلاثة أقسام في ورود المِنَن ٨٧٩



« المناجاة الإلهية »

٨٨٥

٩٥٣ خواتيم النسخ المخطوطة

٩٥٥ أهم المصادر والمراجع

٩٧٥ محتوى الكتاب



